سلسلة الرسائل الجامعية (٤٨)

# دور أهل الذمة في إقصاء الشريعة الإسلامية

إعداد
ماجد بن صالح المضيان

إشراف وتقديم
د/ عبدالله بن عمر الدميجي
أستاذ العقيدة المشارك بجامعة أم القرى

تقديم
د/ عبدالرحمن بن صالح المحمود
أستاذ العقيدة المساعد
بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

دار الهدي النبوي
مصر

دار الفضيلة
السعودية

ح ماجد بن صالح المضيان، ١٤٢٨هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المضيان، ماجد بن صالح
دور أهل الذمة في إقصاء الشريعة الإسلامية / ماجد بن صالح
المضيان - الرياض ، ١٤٢٨هـ
٥٥٨ص ٢٤ سم
ردمك: ٠-٦٣-٠٥٧-٩٩٦
١- أهل الذمة. ٢- الفقه الإسلامي - دفع مطاعن أ. العنوان
ديوي ٢٥٦,٩ ٣٩٣/ ١٤٢٨
رقم الإيداع: ١٤٢٨/٣٩٣
ردمك: ٠-٦٣-٠٥٧-٩٩٦٠



١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧هـ

الناشر
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١١٤٢
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع
دار الهدي النبوي للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية - المنصورة
تليفون: ٢٣٢٣١٧٥ / ٠٥٠ - جوّال: ٧١٤٥٦٨١ / ٠١٢

أصل هذا الكتاب رسالة ماجستير تقدم بها الباحث إلى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة بجامعة أم القرى ونال بها درجة الماجستير بتقدير ممتاز

بإشراف الدكتور/ عبدالله بن عمر الدميجي

بسم الله الرحمن الرحيم

## تقديم الأستاذ الدكتور عبدالله بن عمر الدميجي

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد: فإن هذه الرسالة المعالجة لأسباب سقوط الدولة العثمانية ودور أهل الذمة في إقصاء الشريعة الإسلامية، والتي يسر الله تعالى لي الإشراف عليها كانت من الرسائل العلمية ذات الطابع الخاص والمميز التي تعالج بعض أمراض واقعنا المعاصر بالوقوف على جزء من تاريخنا واستنطاق العبر والدروس من تاريخ الدولة العثمانية التي حكمت باسم الإسلام قرابة ثمانية قرون. وكانت جيوشها الغازية باسم الجهاد في سبيل الله تفتح الأقاليم والأمصار حتى بسطت نفوذها على ثلاثة أرباع المعمورة تقريباً حتى أصبحت في قرونها المتأخرة – موضع الدراسة– بين مد وجزر ثم هبوط وانهيار.

وبصرف النظر عن مدى تطبيق هذه الدولة للإسلام وتمثيلها الكامل للدين الذي أنزله الله على رسوله ﷺ إلا أن القوى المعادية للإسلام وبخاصة (أهل الكتاب) من اليهود والنصارى الصليبين قد أعلنت العداء والحرب ضد هذه الدولة، لا لأنها دولة عثمانية تركية وإنما لكونها دولة إسلامية تمثل (الإسلام) العدو الأبدي لهم.

وآزرهم على ذلك الدولة الصفوية الرافضية التي كانت خنجراً مسموماً في ظهر هذه الدولة من الخلف وحليفاً مخلصاً لأعدائها.

وبعد إخفاقاتهم المتكررة في النيل من هذه الدولة (الإسلامية) بالحروب العسكرية الكثيرة إلا أنها لجأت إلى الأسلوب الخبيث الماكر غير المباشر، وهو النخر من الداخل في عمودها الفقري وسر نجاحها وقوتها وانتصاراتها وهو هذا

الدين الذي تنتسب إليه مع ضعفها في تطبيق أهم أصوله وقضاياه وهو جانب (التوحيد) وإخلاص العبادة لله وحده.

والتاريخ يعيد نفسه، وذلك لأنه مع التقصير الواضح من قبل (المسلمين) اليوم في التزامهم بدينهم وتطبيق شرعه إلا أن عدوهم لا يعاملهم إلا بصفتهم (مسلمين) ولا يخشى إلا من عودتهم الصادقة للإسلام النقي الصافي من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ على منهج وفهم السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم.

وتزداد هذه العداوة والبغضاء والحرب شراسة ضد حملة هذا المنهج ودعاته وهم الذين يصفونهم أحياناً (بالوهابية والأصولية) وفي كثير من الأحيان (بالإرهاب) ويشاطرهم تلك العداوة أصحاب القلوب المريضة من الرافضة وغيرهم من أهل البدع والأهواء .

والقارئ لهذه الرسالة ليس في حاجة إلى كثير عناء للمقارنة بين الماضي والحاضر فما عليه إلا أن ينظر بعين البصيرة إلى ذلك الماضي والأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية والتي أشارت إليها الدراسة، ومن أهمها:

١. التحالف اليهودي الصليبي على حرب الدولة بشتى الوسائل الظاهرة والخفية.
٢. قيام الدولة الصفوية الرافضية الإثني عشرية. وتعاونها مع اليهودية والصليبية في فتح جبهات خطيرة جداً على الدولة العثمانية المجاورة.
٣. تقصير الدولة العثمانية الكبير في جانب الدعوة لهذا الدين وإقرار كثير من البدع والمنكرات بل والدعوة إليها وحمايتها ومؤازرتها.
٤. انصراف السلاطين منذ سليمان القانوني وحتى انهيار الدولة عن إدارة دفة الحكم والاهتمام بأمور الدولة وإسناد الأمر إلى غير أهله، وساعد

على ذلك الترف وكثرة المال في أيدي السلاطين وكبار رجال الدولة التي أشغلتهم عن مهمتهم الأساسية.

٥. اتخاذ أهل الذمة بطانة وأعواناً من دون المؤمنين، والركون إليهم واستوزارهم واستشارتهم وتقليدهم أعلى المناصب في الدولة، وإعطاؤهم الثقة التامة مما مكنهم من السيطرة على موارد الدولة الاقتصادية والثقافية والإدارية ... وجعلهم أهل الحل والعقد فيها.

٦. الامتيازات الأجنبية الكبيرة للأجانب.

٧. ظهور جمعيات سرية وتنظيمات مشبوهة ذات علاقة وطيدة مع أعداء الدولة من يهودية وصليبية ورافضية.

٨. تشريع بعض القوانين المخالفة للإسلام كقانون التجارة وغيره باسم الامتيازات.

٩. التقصير في الأخذ بأسباب الحضارة المدنية من علوم تطبيقية واكتشافات عصرية وتصنيع يخدم الإنسانية مع توفر الوسائل اللازمة.

ثم ينظر إلى أهم وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة التي أثبتتها الدراسة ومن أهمها:

١. إنشاء الجمعيات الأدبية والثقافية ودورها في غرس الأفكار الدخيلة.

٢. السيطرة على الصحافة ووسائل الإعلام ومن خلالها توجيه الرأي العام وترويضه لتقبل الطروحات الجديدة المراد تحقيقها.

٣. المدارس الأجنبية، وتساهل الدولة العثمانية في التوسع في إنشائها وضعف المراقبة عليها واستغلال أهل الذمة لها عبر الامتيازات في توجيه النشء إلى أفكار الانحلال من الدين، وحب الغرب وثقافته.

٤. إحياء القوميات (كالطورانية والعربية) ونشر المذاهب الوضعية

كالمذاهب الوطنية والعلمانية وغيرها، والتحلل من عقيدة الولاء والبراء التي هي أوثق عرى الإيمان، إضافة إلى دعم واستثارة الأقليات والفرق البدعية في البلاد الإسلامية.

٥. ربط الشعوب بماضي ما قبل الإسلام من وثنيات أو خرافات تحت اسم الاهتمام بما يسمى بعلم الآثار.

وقد ترتب على ذلك: تسهيل الغزو الفكري لأبناء المسلمين وتغريب الثقافة بين أبنائهم وخاصة في مجال التعليم ووسائل الإعلام وتغريب المرأة المسلمة والتغريب في اللباس والزي وفي مجال الأدب والفن وانتشار اللغة الأجنبية والتاريخ الأجنبي.

وكانت النتيجة سقوط الدولة العثمانية وإلغاء تحكيم الشريعة الإسلامية في البلاد الإسلامية التي كانت تحت يدها وإحلال القوانين الوضعية والمذاهب العلمانية محلها.

ثم ليرجع القارئ البصر إلى ما هو جار في بلاد المسلمين اليوم فيتأكد عنده من أول وهلة أن التاريخ يعيد نفسه فما أشبه الليلة بالبارحة، فإن ما تم تطبيقه بالأمس هو بعينه الجاري تطبيقه اليوم، مع فارق استثمار التقنيات العصرية في هذه التطبيقات مع تخدير الأمة بالتفنن في إثارة الشهوات والشبهات عبر وسائل الاتصال المختلفة.

والذي يخشاه الغيور على دينه وأمته أن تتكرر النتيجة المؤلمة التي حصلت للدولة العثمانية فيتقاسم الأعداء ما تبقى من بلاد المسلمين بعد الإجهاز عليها.

وأحسب أن هذه الرسالة قد وضعت هذه النقاط على الحروف إنذاراً وإعذاراً، لكن الأمل معقود بعد الله تعالى في هذه الأمة رعاة ورعية في أن تتنبه لهذا الخطر الداهم، وأن ترجع إلى سر قوتها وعنصر بقائها، وعوامل التمكين لها المقصود بها في قوله تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

كما عليها أن تقطع الطريق على أعدائها قبل أن يتحقق مطلبهم وإلى تدارك الأمر قبل فوات الأوان ذلك هو المؤمل وما ذلك على الله بعزيز، وهو وحده المسؤول والمستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

حرره

د/عبدالله بن عمر الدميجي

قسم العقيدة - جامعة أم القرى

في مكة المحروسة بتاريخ ١٤٢٨/٢/٧هـ



بسم الله الرحمن الرحيم

# مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لاإله إلا الله وحده لاشريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

**أما بعـــــــد:**

فقد مَنَّ الله على عباده بنعم كبيرة وأفضال وفيرة، وأعظمها نعمة الهداية إلى هذا الدين الحق والتوفيق إلى منهج السلف الصالح، وجعل السبيل إلى هذه النعمة من الهداية، سلوك طريق العلم، بل رتب على من سلكه أن سهل الله له طريقا إلى الجنة.

وحيث أن شرف العلم مقرون بشرف المعلوم ، فإن أجل العلوم وأصل الأصول هو علم التوحيد الذي موضوعه معرفة الله تعالى بآياته وأسمائه وصفاته و القيام بعبوديته وبجميع حقوقه تعالى على عباده.

فهو أشرف العلوم وأفضلها باطلاق ومنه الرد على من انحرف عن أصل البشرية فعبد غير الله أو أشرك في عبادة الله ، أو حرف أسماء الله وصفاته

بالتأويل وسلك مسلك التعطيل و التمثيل وهو ما تعارف عليه العلماء بعلم أصول الدين أوالفقه الأكبر، أو علم السنة أو التوحيد أو العقيدة.

من أجل ذلك كان اختياري لقسم العقيدة لمواصلة تحصيلي العلمي ، فالعلم بالعقيدة من أعظم القربات وغايته من أسمى الغايات ، وهي عمارة القلوب وإحياؤها بالإيمان بالله تعالى ومعرفته ومحبته وتحقيق العبودية لله وحده وتفريغها من كل محبوب أو مألوه أو مطاع غير الله تعالى، لأنه لاحياة للقلوب ولاطمأنينة ولاسعادة... إلا بمعرفة معبودها وخالقها.

كما أن العقيدة الصحيحة تجمع ولاتفرق وتوحد بين القلوب ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ وهي تربط المسلم برسول الله ﷺ لا بفلسفة الخلف وسفسطة المعاصرين، وكذلك فيها النجاة في الدارين للسلامة من الخوض في ذات الله تعالى بلا علم.

ومن حكمة الله عز وجل أن جعل في كل عصر وزمان بقية من أهل العلم هم ورثة الأنبياء يدعون من ضل إلى الهدى ، ويبصرون أهل العمى ، ويصبرون منهم على الأذى

ولكن أولئك البقية يزيدون تارة فتقوى شوكتهم وتسمع كلمتهم، ولايسمع لمبتدع مع وجودهم و تارة ينقصون فيصبحون غرباء في مجتمعاتهم، بل مستضعفون بين أقوامهم ومع ذلك يقومون بالدعوةعلى وجهها وكما أمرهم الله بذلك ولكن لقلتهم وضعف جانبهم ، إن أمروا لم يسمع لهم ، وإن نهوا لم يعتد بنهيهم وما ذلك إلا لغربتهم.

ومن أشد وأحلك الفترات التي زادت فيها هذه الغربة ـ حتى أصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً ـ هي فترة إلغاء آخر خلافة حكمت باسم الإسلام وهي الدولة العثمانية ، فقد تسلط الصليبيون وبمساندة اليهود على رقاب المسلمين ، وقعد المخرفون من المبتدعة -أصحاب الكلمة ذلك الوقت ـ عن

التصدي لهم ولما يثيرونه من شبه وسموم ـ حتى تمكن الأعداء من السيطرة على المسلمين مادياً ومعنوياً وذلك مع غياب من يوقظ الأمة من غفلتها، أو ينبهها على أخطائها.

واحتفت قرائن مع هذا الجو المزدحم ساعدت وسهلت على الأعداء مهمتهم وأهمها انعدام الأساس الذي بني عليه المجتمع ﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ ﴾ وهذا الأساس الهش بسبب أخذهم بالظاهر دون الباطن وبالجسد دون الروح والغفلة عن أسس عظمة هذا الدين وأنه في عقيدته ومبادئه السماوية لا المباديء الأرضية وشريعته الإلهية لا الشرائع الوضعية فجاءت هذه العقيدة ثابتة شاملة.

أما ثباتها فلاعتمادها على الوحي الثابت ، وشمولها تصديقا لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾.

هذه العقيدة الصافية هي فطرة الله التي فطر الناس عليها منذ أبينا آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ .

ولايزال أنبياء الله منذ نوح عليه السلام يتعاقبون هذه الفطرة تصحيحاً وتذكيراً ﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ إلى أن ختم الله رسله وشرائعه فتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ثم ما لبثت الأمة أن حاد بعضها عن هذه المحجة البيضاء ودب فيها (اجتيال الشياطين) فكانت بداية الانحراف في أواخر الخلافة الراشدة.

ولايزال الصراع بين الحق والباطل على تلون أشكاله وتعدد سبله وهذه سنة من سنن الله الكونية نتعرف عليها من خلال تتبع حوادث البشر وقراءة هادفة لأخبار من غبر.

بل لايمكننا التعرف على خط انحراف البشرية تفصيلا ومعرفة أسباب ذلك الانحراف إلا بالدراسة التاريخية العقدية الهادفة، لا الدراسة الاخبارية الجافة أو شحن للأرقام والوفيات، ومهارة عرض الواقعات والحادثات، أو كما ذكر الصفدي:

(إن التاريخ للزمان مرآة وتراجم العالم للمشاركة في المشاهدة مرقاة، وأخبار الماضين لمن عاصر الهموم ملهاة)[١].

وإن كانت هذه سمة كتب التاريخ في القرون الثلاثة الأولى فعذرهم في ذلك المنهج: سلامة الفهم عند السابقين وصحة العقيدة وإدراك مقتضياتها، فيجب على المسلم أن تكون له نظرة خاصة في تاريخ الأمم و منطلقا ينطلق منه، يتمثل بتحقيق الثمرات التالية:

١ـ معرفة السنن الربانية .

٢ـ معرفة الحقائق الهامة في حياة البشرية .

٣ ـ أن دراسة التاريخ تعطي حصانة ضد الخرافات والبدع التي هي من أسباب الهزيمة و الخذلان.

٤ـ المساعدة على فهم الحاضر وتحليله[٢].

ومن أهم ثمرات هذا المنهج من ربط للدراسة التاريخية بالثوابت العقدية ، أنه يوجه الطاقات إلى جذور القضايا وأمهات المسائل بشكل حاسم ويتضح ذلك من نماذج ما قصه تعالى علينا في القرآن الكريم. فنجد الاهتمام مركزا على القضايا الكبرى للأمة وأن يعمل جهد القارئ فيما يؤدي إلى رقيها وتقدمها وبذلك تكون إيحاءاته ودراسته مما يمس واقع الأمة واحتياجاتها... ولايكون

---

(١) تاريخ الصفدي، ج١، ص١٣

(٢) انظر : محمد صامل السلمي ـ منهج كتابة التاريخ الإسلامي ص ١٥ ـ ٣٢ . ط دار طيبة ـ الرياض.

بحثه من باب الترف العلمي المجرد، الذي يستهدف إشباع غريزة حب الاستطلاع أوحب الظهور أو مجرد الاستئناس بأخبار من مضى..

بل لابد لنا لمعرفة واقعنا وتشخيص أدوائه من استعراض لتاريخ أمتنا المجيد من قرونها المفضلة إلى أن بلغت ما وصلت إليه الآن من حالة لا تحسد عليها.

وفي خلال هذه الفترة فالأمةلاتزال بين مد وجزر ، بين عزة ورفعة ومهابة في قلوب الأعداء حيث تتمسك بكتاب ربها وتلتزم بسنة نبيها ﷺ .

وتقوم بمقتضيات الخيرية والقوامة على أمم الأرض بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، وإيمانها بالله أولاً ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾.

وتنحدر هذه المكانة السامقة بقدر بعدها عن تمسكها بدينها وعقيدتها، ويزداد الانحراف و الانحطاط كلما ازداد الابتعاد والتهاون عن الشرع.

ولعل من الأمثلة الحية و الواقعية لهذه الحقيقة ما طرأ للدولة العثمانية مقارنا ذلك ببادئ أمرها وقوتها ومنعتها ثم بآخرعهدها وانحطاطها وتكالب الأعداء عليها.

ولقد كثرت السهام من الداخل و الخارج القاضية عليها و الحاكمة بزوالها، وأعرض هنا إجمالاً لأهم أسباب الإنحطاط ومن ثم إلغاء الدولة العثمانية، تلك الدولة التي ظلت عدة قرون تحمي بيضة هذه الدين و تنشر الدعوة في أماكن وأقطار لم يدخلها إلا في عهدها،و قوة وشوكة للمسلمين لم يبلغوا مبلغها إلا في عصرها.

بل وحافظت على أرض المسلمين، والتفافهم على قيادة واحدة، فلم يعرف أي انفصال من إقليم مسلم عن جسد الدولة، واستطاع السلاطين

الأوائل في عهدها ضبط الولايات القريبة منها و البعيدة مما زاد هيبتها في قلوب أعدائها، ولولا أن الصراع كان عقديا مع هذه الدولة لما طاقت صبرا على مواجهتها ومحاربتها ولدب اليأس إليها:

**كل العداوات ترجى براءها        إلا عداوة من عاداك في الدين**

بل كانت الجهود تتحد على اختلاف تياراتها وقومياتها بل ودياناتها على محاربة الدولة العثمانية محاولة منها في القضاء عليها فنجد البرتغاليين الصليبيين يتحدون مع الصفويين الرافضة على حرب الدولة وكذلك سائر القوميات المتصارعة في أوروبا.

فمكانة هذه الدولة العظيمة من تاريخنا الإسلامي مكانة علية وهي غرة في جبين الأمة ولايجحد فضائلها إلا مكابر حاقد على الإسلام ، أو جاهل بحقيقة الدور الذي قامت به الدولة. حتى أن أعداء الإسلام أيقنوا أن لا قائمة لهم مع قيامها، ولاشأن لهم مع وجودها فسعوا جاهدين بكل ما أوتوا من مكر وخديعة، وأسلحة فتاكة ليزيلوا هذا العملاق الذي أرق مضاجعهم ، وأقلق راحتهم.

وساعد في إنجاح مخططات الأعداء في القضاء على هذه الدولة عدة أسباب أهمها:

إن الدولة لم تؤسّس في بداية أمرها على أساس متين من العقيدة الصحيحة الصافية، وهذا من باب الإنصاف وعدم الانجراف وراء العاطفة نحو هذه الدولة. بل ولم يكن لها جهود تذكر في نشرالعقيدة الصحيحة والذب عما يخالفها ، وكذلك سمحت وشجعت كثيرا من البدع والخرافات على أرضها ، من بناء على القبور ونشر للبدع متمثلة بالطرق الصوفية وغيرها من الخرافات ومحدثات كانت سمة ذلك العصر[1] .

---

(١) و إن كان من عذر يلتمس للدولة في هذا الانحراف في التصور و أنها لم تولي الجانب العقدي حقه من الأهمية و لم ترب جيشها وشعبها على هذا الأساس المتين الذي هو سر قوة المسلمين =

وهذا التقصير الظاهر من الدولة في الجانب العقدي أدى بهذا البناء الشامخ إلى الانحدار السريع الذي لم يعرف له مثيل في تاريخ الدول وزوالها..

فلم تكن هزيمة الدولة العثمانية أو سقوطها مقارنة بين عصر قوة وضعف بل كان الرهان عليها من أعدائها رهان وجود وعدم .

بل تحولت من دولة تحمي الاسلام وأهله، إلى أن خرج لنا من بين أنقاض ما انهدم من ذلك البناء الشامخ من هو حرب على الإسلام وأهله!!

وهذه الفاجعة هي الأولى في تاريخ المسلمين منذ بعثة المصطفى ﷺ ، حتى فاقت مصيبتها سقوط الخلافة العباسية على يد التتار الهمجيين عام ٦٥٦هـ بكثير.

فقد ترتب على سقوط هذه الدولة، إلغاء الخلافة من حياة المسلمين وكذلك ـ وهو الأصل ـ إلغاء شرع الله من أن يحكم في بلاد المسلمين، بل وسلّ السيوف في وجه من يطالب بالشرع؟!

هذه الحوادث المتلاحقة والفواجع التي ألمت بالمسلمين عقب سقوط الدولة العثمانية ، كانت دافعا للبحث عن أسباب الهزيمة، وخطوات الانحدار، التي أدت بالمسلمين إلى إلغاء شرع الله من أن يحكم في الأرض، و إحلال القوانين المستوردة مكان الأحكام الشرعية المستفادة من وحي الله تعالى .

وذلك على أيدي رجال انطلقوا من قلب سقيم وحقد على الإسلام

---

= و أهم أسباب قوامتها على الأمم...أن العثمانيين منذ نشأة دولتهم حديثوا عهد بهذا الدين حتى أنه اختلف في عثمان الأول المؤسس هل كان مسلماً أصلاً أو دخل في الإسلام بعد انتصاراته على القبائل من حوله فدخلت الدولة على العالم الإسلامي في وقت كانت هذه البدع و الخرافات هي السمة الظاهرة لأغلب أقطار المسلمين منذ القرن السابع الهجري بل وللأسف سمة علمائها ودعاتها و مفتيها وبالتالي لم يكن لبني عثمان ـ حديثي العهد بالإسلام أن يغيروا شيئا من هذا الواقع بل اختاروا المذهب الحنفي ليقضى به بين العباد و من باب العاطفة الإسلامية التي كانت سمتهم خدموا التصوف الذي كان يمثل المظهر الإسلامي في تلك الفترة .

وأهله دفين.

فبالإضافة إلى السبب الأول الذي سبق ذكره - عدم اهتمام الدولة بالأساس العقدي - هو السبب الرئيسي، نضيف هنا من باب أخذ العبرة والعظة و الاستفادة من دروس الماضي و حتى ( لا نلدغ من جحر مرتين) أسباب الانحطاط.. والتي فتكت في الدولة أكثر مما كان يطمع الأعداء..وأذكرها إجمالاً:

فمن هذه الأسباب:

١ـ أن الدولة العثمانية منذ نشأت، دولة عسكرية أولاً ذات عاطفة إسلامية ثانيا ولم تكن دولة عقيدة بالمعنى الصحيح.

٢ـ الإمتيازات الأجنبية.

٣ـ الترف وكثرة المال في أيدي السلاطين و بالتالي بقية المواطنين.

٤ـ عدم وجود مهمة أساسية للسلاطين بعد حصول الدولة على كل أمنياتها القريبة.

٥ـ المبالغة في الزواج من الأجنبيات سواء الجواري أو الذميات وكان من مظاهر الترف في المجتمع .

٦ـ اتساع رقعة الدولة بحيث صعب على الولاة ضبط أطرافها.

٧ـ الصليبية الأوربية، و التي ما فتئ البابا و الكنيسة عامة من التحريض على الدولة العثمانية حتى وهم تحت سيادتها.

٨ ـ تقصير الدولة الكبير في جانب الدعوة لهذا الدين في الأقاليم التي تفتحها ( في أوروبا).

٩ـ إغفال العثمانيين الأخذ بأسباب الحضارة المدنية، من علوم تطبيقية واكتشافات عصرية .

١٠ـ انصراف السلاطين منذ سليمان القانوني إلى انحطاط الدولة عن إدارة

دفة الحكم فضلا عن قيادة الجيوش كما كان شأن السلاطين الأوائل، و بالتالي إسناد الأمر إلى غير أهله.

١١ـ الجمعيات السرية و التنظيمات، التي فتح لها الباب على مصراعيه خاصة في عهد الإمتيازات.

١٢ـ تشريع بعض القوانين الجائرة بل الهمجية، وهي قتل جميع الذكور من أقارب السلطان و كان أول تشريع لها في (قانون نامة) الذي أصدره محمد الفاتح.

١٣ـ عصيان الإنكشارية المتكرر وذلك نتيجة الترف الذي عاشوا فيه والصلاحيات التي منحوها.

١٤ـ قيام الدولة الصفوية ـ الرافضية الإثني عشرية ـ على يد إسماعيل الصفوي سنة ٩٠٥هـ ـ ١٥٠٠م فقد فتحت جبهات خطيرة جداً على أمن الدولة وعاقتها عن كثير من الفتوحات باتجاه أوربا خاصة.

١٥ـ اتخاذ أهل الذمة بطانة وأعوانا من دون المؤمنين و الركون إليهم ولاأقول الاستعانة بهم بل استوزارهم واستشارتهم وتقليدهم أعلا المناصب في الدولة، وإعطاؤهم الثقة التامة مما شجعهم للسيطرة على موارد الدولة الإقتصادية، و الثقافية و الإدارية... وجعلهم أهل حل وعقد في الدولة بدلاً من أن يفرض عليهم الذلة و الصغار على من خالف أمر الله ـ حتى تمكنوا من تنفيذ غاياتهم ومخططاتهم في القضاء على هذه الدولة وبالتالي القضاء على أساس قوة المسلمين وهو تمسكهم بدينهم وشريعة ربهم.

وهذا السبب الأخير نجد أن أهل الذمة كان لهم دور بارز في كثير من الأسباب السابقة.

ونظراً لكثرة هذه الأسباب التي أدت إلى إلغاء الخلافة من حياة المسلمين

وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة الإلهية ومن تحلل ديني عقدي أصاب المسلمين تلك الفترة،

وإخلال بيِّن في الجانب التشريعي والخلقي ، واتخاذ أهل الذمة بطانة من دون المؤمنين مما يجعل البحث في كل هذه الأسباب تفصيلاً متعذراً في مثل هذه الأطروحات التي يراعى فيها استيعاب الموضوع من كل جوانبه قدر المستطاع.

لذا ارتأيت حصر هذه الدراسة في سبب رئيس من أسباب الانحطاط الفكري الذي مُنِّيَّ فيه المسلمون في القرن الثالث عشر الهجري والمتمثل باستبدال القوانين الوضعية بالشريعة الإلهية في أغلب ديار المسلمين غفلة منهم وانبهارا بالجديد وتقليدا للغالب..

هذا السبب هو أثر أهل الذمة على العالم الإسلامي - في فترة معينة ومكان مخصوص .

**ومن أسباب هذا الحصر:**

أ ــ التعرف على الحكم الشرعي والمنهج الرباني الذي أُمرنا به في تعاملنا مع أهل الذمة، وتجنب الدولة للحكم التي من أجلها شرع عقد الذمة مع أهل الكتاب .

ب ــ الأثر السلبي والمباشر الذي اكتوى به المسلمون نتيجة تسلط أهل الذمة.

جـ ــ واقعنا المعاصر ومحاولة الاستفادة من أخطاء الماضي. "فكما يتوقف فهم الحاضر على الرجوع للماضي، يتوقف فهم الماضي على فهم الحاضر"[(١)].

وللأسف غفلنا واستيقظ أعداؤنا ، فإنهم لا ينسون التاريخ أبداً، وهم إذا

---

(١) محمد العبدة : أيعيد التاريخ نفسه (ص٦) .

درسوا التاريخ درسوه دراسة تعصب وديانة لا دراسة ترف و متعة، وهم يدركون تفسير الحوادث جيداً مهما تطاول العهد بها، وشاهدا على ذلك:

ما قام به أهل الذمة من اليونان بعد الحرب العالمية الأولى، ولما هزمت الجيوش العثمانية بعد توريط الإتحاديين لها في الحرب الخاسرة مع الحلفاء (ألمانيا والنمسا) فاستولت هذه الجيوش على اسطنبول (مدينة الإسلام) وعاصمة الخلافة.أهدى أهل الذمة حينئذ إلى قائد الجيش الفرنسي جواداً أبيضاً ليدخل إلى المدينة متمطياً هذا الجواد و قالوا له: محمد الثاني (الفاتح) دخلها قبل أربعة قرون ـ عند فتحها ـ وكان متمطياً جواداً أبيضاً. فلم ينسوا مثل هذه الحادثة التي قد لاتذكر في التواريخ وإن كتبت ففي حواشي المؤرخين.

وما هذه المجازر التي تحصل للمسلمين الآن من قبل الصلبيين الأرثوذكس إلا شاهدا قويا على تتبع أجيالهم من بعدهم دراسة التاريخ دراسة عقدية..

وفي عصر الضعف والانحطاط للدولة العثمانية تسلط أولئك العلوج على طاقات الدولة حتى أصبح المسلمون في تسليمهم لهم(كالريش في مهب رياح الحوادث وكالغثاء في مجرى سيول الكوارث لا رأي لخواصهم فيما يراد منهم، ولاشعور لعوامهم فيما يراد بهم، وللأجانب يد في تصرف[خواصنا] في سياستنا ويد في تصريف أموالنا في مصلحتهم دون مصلحتنا ، ويد تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافي آداب ملتنا، وتودع في العقول عقائد وأفكاراً تقوض بناء وحدتنا ، فأي شيء بقي بأيدينا من شئوون أمتنا) [١] .

فآثار أهل الذمة على من جاورهم من المسلمين لاتكاد تنحصر في جوانب معينة بل شملت شتى الإتجاهات الثقافية والاجتماعية والفكرية .

وهذه الثالثة الفكرية هي ثالثة الأثافي التي عبدت الطريق لكل جديد ولو خالف الدين في كل جوانب الحياة، فهي أهم آثارهم.

---

(١) رشيد رضا : مجلة المنار م٩ ج١ ص٢، افتتاحية محرم سنة ١٣٢٤هـ .

ولصعوبة البحث في جميع الجوانب التي أثر فيها أهل الذمة على المجتمع المسلم حصرت هذه الدراسة في الجوانب الفكرية فقط لأنه أهمها على الإطلاق فبالفكر يحدد اتجاه السلوك والتصرف..

وهذا التصرف من أهل الذمة لم يكد يظهر بشكله البشع مثلما حصل في القرن الماضي الرابع عشر الهجري(التاسع عشر ميلادي) وتلك الفترة كان يحكم بنو عثمان أكبر وأهم بقعة في العالم الإسلامي ..ولذلك خصصت هذه الدراسة في أثر أهل الذمة الفكري على الدولة العثمانية.

والفترة الزمنية التي عاشتها الدولة العثمانية قرابة ثمانية قرون كانت مليئة بالإنتصارات ثم أصبحت في النصف الثاني بين مد وجزر ثم انحراف وانحطاط . وبدأت هذه الفترة في أواخر فترة سليمان القانوني.

من أجل ذلك جعلت البحث محصوراً في هذه الفترة العصيبة فأصبح عنوانه:

**"أثر أهل الذمة الفكري على الدولة العثمانية في الفترة من سليمان القانوني إلى إلغاء الخلافة (٩٢٦هـ ـ ١٥٢٠م ،١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م)[(١)]"**

ومما تجدر الإشارة إليه أنني حين عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع حباً وقناعة بثمرته ـ إن شاء الله تعالى ـ واجهتني صعوبات كادت تثنيني كلية عن البحث.

من أولها ندرة المؤلفات التاريخية المنصفة بل قد تكون معدومة في تلك الفترة، وذلك أن المؤرخين والباحثين انقسموا إلى فرق مختلفة في كتاباتهم ، فمعظم الكتاب و المؤرخين العرب المعاصرين لهذه الفترة كانوا من دعاة القومية و الانفصال فاتسمت كتاباتهم بالتعصب والتحامل على الدولة العثمانية

---

(١) عدل العنوان إلى دور أهل الذمة في إقصاء الشريعة لأن مخططات الأعداء لا يختلف القديم منها عن الحديث.

وحملوها من الأخطاء الشيئ الكثير ، وبهذا كانت كتاباتهم شخصية لا تعبر عن الحقائق التاريخية تعبيراً صريحاً واضحاً.

أما المؤرخون الأتراك المعاصرون لهذه الفترة فلم تظهر إلا في العصر الأخير عصر عبد الحميد ، واتسمت كذلك بمهاجمة الدولة العثمانية و التنديد بها سواء كان ذلك من داخل الدولة العثمانية أو من العواصم الأوربية التي فروا إليها وكانت تحميهم و تساعدهم على نشر هذه الكتب.

أما المتأخرون الأتراك فكانت مؤلفاتهم بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة من الحلفاء وبالتالي كانت وقت قيام ما يسمى بالجمهورية التي تزعمها مصطفى كمال ألد أعداء السلطان عبد الحميد بل لست مبالغا إذا قلت ألد أعداء الإسلام فكان طابع تلك المؤلفات التقرب إلى رئيسهم (كمال) بالكتب المليئة بالسب والشتم للدولة العثمانية والافتراء عليها.

ونتج عن ذلك أن حادت معظم المؤلفات التركية والعربية كذلك عن الحقيقة وبعدت عن الصواب حيث كتبت بعاطفية تامة ومنسجمة مع التيارات السياسية السائدة (وهذا شأن أغلب كتب التاريخ) .

أما الكتاب الأجانب فمن الطبيعي أن يشوهوا تاريخ الدولة العثمانية المسلمة عدوهم اللدود وعنهم بالطبع تقبل كتاب هذا العصر ـ إلا من رحم الله ـ فخرجت كتاباتهم تقليداً لمن سبقهم.

وهذه كانت أول وأكبر مصاعب البحث ـ وكل باحث في تاريخ الدولة العثمانية ـ ومن بين هذه التيارات المتصارعة خرج كتاب أفذاذ وعلماء قلائل اجتهدوا في النظر إلى القضية بإنصاف ظاهر وتحر للحقيقة فلم يهضموا لهذه الدولة حقها المجيد ولم يسكتوا عن الأخطاء الظاهرة فيها والتي كانت سببا معينا للأعداء في القضاء عليها ومن أمثلة الكتابات المنصفة ـ مقالات في دوريات ـ أو أجزاء من كتب لكتاب محققين أمثال **د.محمد حرب** والذي أخرج الترجمة العربية

لمذكرات **عبد الحميد**، وكذلك كتابات **د.جميل المصري** في حاضر العالم الإسلامي ومثلهم **شكيب أرسلان** وغيرهم.

وكذلك ـ من الصعوبات ـ توسع موضوع البحث وخاصة في فصل (وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة) احتاج مني الرجوع إلى مصادر ومراجع متباينة التخصصات.

فمن كتب الأدب والصحافة وتاريخها في العالم الإسلامي، إلى كتب الفرق أو المذاهب المعاصرة(والتنصير والغزو الفكري والسير الذاتية..) وتفاصيلها وكذلك كتب العلوم الإنسانية كعلم الآثار والبحث عمن تكلم فيه من المسلمين، إضافة إلى فترات زمانية متباعدة ليس في تاريخ العرب فحسب بل كذلك في تاريخ العثمانيين والحروب الصليبية وأوربا الحديثة والواقع المعاصر.. في فترة تقدر بأربعة قرون على الأقل. ولايخفى ما في ذلك من مشقة كادت تثنيني عن البحث.

ويعلم الله أني بذلت جهوداً مضنية في سبيل جمع شتات مواضع البحث، وفتح مغاليقه، ولايظن القارئ الكريم أن هذه المقولات والنصوص التي قد استشهد بها وجدتها في ثنايا المراجع بيسر وسهولة، بل إنني قد أقرأ المرجع أو المصدر كاملاً ولا أخرج منه إلا بسطر أو سطرين أو تعليق أو لا شيء، خاصة في كتب التاريخ الإنشائي...وتتبع الحوادث.

والأصعب من ذلك الغموض الشديد الذي يحيط ببعض الحوادث والشخصيات بسبب عدم وجود الكتابة المؤصلة.. حتى وقع في نفسي استحالة المضي في هذا العمل وتمثلت بقول الشاعر:

**إذا لم تستطع شيئاً فدعه      وجاوزه إلى ما تستطيع**

غير أني استعنت بالله ثم بتشجيع من المشرف على هذا البحث وعون منه أيضا صممت على المضي في هذا العمل مهما كلفني من جهد ووقت.

ومع ذلك لا يكاد يخلو عمل من نقص وخاصة إذا نسب إلي تطفّل إلى علم التاريخ مع قلة بضاعتي فيه، وما ذاك إلا لتعلقه بصميم بحثي، فليس التاريخ مجرد سرد حوادث وأرقام وإنما كما قال شوقي :

اقرأ التاريخ إذ فيه العبر ضاع قوم ليس يدرون الخبر

**خطة البحث:**

وقد جعلت هذا البحث في أربعة فصول وتمهيد ومقدمة وخاتمة. وقسمت الفصول والتمهيد إلى مباحث بحسب ما تقضيه الحاجة.

أما التمهيد فيتضمن الحديث عن :

مصطلح أهل الذمة في الفقه الإسلامي. وتحدثت فيه عن المسائل الفقهية المتعلقة بالبحث من أحكام أهل الذمة، ومن يدخل في مصطلح أهل الذمة أو لا يدخل، ومن الأحكام أمثال توليهم الوظائف العامة أو التنفيذية، وكذلك الوظائف الشرعية، وحكم تمكينهم من الاستقلال بالقضاء فيما بينهم .

فهو الحديث عن واقع الدولة العثمانية بالنسبة لتحكيم الشريعة والحديث عن مدى إسلامية الدولة ، وأعمالها الشاهدة على عاطفتها الإسلامية وعقيدتها التي تنطلق منها.

**الفصل الأول: علاقة أهل الذمة بالدولة العثمانية ، وهو مشتمل على مبحثين:**

**الأول:** المراكز الحساسة التي تقلدها أهل الذمة، وإبراز الدور الخطير الذي توصل إليه أهل الذمة ومدى التسامح والتساهل الذي عوملوا به.

**الثاني :** الإمتيازات الأجنبية.

عرض لبنود الامتيازات ، ومدى قربها وبعدها من أحكام الشرع وما تقتضيه مصلحة الدولة المسلمة.

**الفصل الثاني: وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة وفيه مباحث :**

**أولا:** إنشاء الجمعيات الأدبية والثقافية ودورها في غرس الأفكار الحديثة والدخيلة.

**ثانيا:** إدخال المذاهب الوضعية ومنها :

أ ــ القوميات: ـ الطورانية .

ـ العربية .

ب ــ العلمانية .

**ثالثا:** السيطرة على الصحافة واستغلال أهل الذمة لهذا المركز الحساس في السيطرة على الرأي العام وتوجيهه.

**رابعا:** المدارس الأجنبية، واستغلال تساهل الدولة عبر الامتيازات ، وفتح أكبر قدر ممكن من المدارس ، ودور هذه المدارس في توجيه النشء إلى أفكار الإنحلال عن الدين وحب الغرب وأصحاب هذه المدارس عموماً.

**خامسا:** ربط الشعوب بماضي ما قبل الإسلام، من وثنيات أو خرافات تحت إسم الاهتمام بما يسمى بعلم الآثار.

**الفصل الثالث: الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة ، وفيه المباحث التالية:**

**أولا:** تسهيل عملية الغزو الفكري.

**ثانيا:** توسيع النشاط التنصيري في أوطان الإسلام.

**ثالثا:** بروز العلمانية وجعلها المثال العصري للدولة الحديثة.

**رابعا:** وهو من أعظمها إلغاء الخلافة العثمانية وإلغاء مصطلح الخلافة نهائيا عن حياة المسلمين وإلغاء السلطنة من قبل، وبالتالي إقصاء الشريعة وإحلال القوانين الوضعية والمحاكم الدستورية في بلاد المسلمين.

**الفصل الرابع: دور العلماء في مواجهة نشاط أهل الذمة**

وقد تحدثت فيه عن نماذج من تاريخ المسلمين في تلك الفترة ، ومدى

التقصير الظاهر في المؤسسات العلمية البارزة ذلك الوقت عن القيام بدورها القيادي للأمة.

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والدروس التي نخرج بها من هذا البحث .

والله أسأل أن يتقبل منا ويجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم.

ولا يفوتني في الختام أن أتقدم بالشكر الجزيل بعد الله تعالى لكل من مدّ لي يد العون والمساعدة في مشواري الطويل في هذا البحث وأخص منهم المشرفين على هذا البحث الدكتور **عبد الله بن عمر الدميجي** والدكتور **جميل المصري** ـ المشرف التاريخي ـ حفظهم الله وكذلك الدكتور **محمد حرب** رئيس المركز المصري للدراسات العثمانية الذي لم يقصر معي أبداً في مراجع ومصادر تتعلق بالبحث سواء باللغة العربية أو التركية أو الإنجليزية بل في ترجمة ما أحتاج إلى ترجمته وكذلك الدكتور نجاتي في مركز البحث العلمي الذي ساعدني في الحصول على المراجع التركية .

كما أوجه الشكر الجزيل والثناء الجميل لجامعتي الفتيه جامعة أم القرى وكليتي العريقة كلية الدعوة وأصول الدين والقائمين عليها..

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه وجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم.



# تمهيد

## أهل الذمة في المصطلح الإسلامي

لقد اعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم والأمويين والعباسيين أن اليهود والنصارى هم أهل الذمة ممن اعترف الإسلام بهم وعقد معهم الذمة .

فالذمة في اللغة : بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام، وسمي أهل الذمة ذمة لدخولهم في عهد المسلمين وأمانهم [١] .

والذمة في الفقه الإسلامي : العهد الذي يعطى للقوم الذين لم يدخلوا في الإسلام عند فتح المسلمين لبلادهم، ولايسترقون ويؤمَّنون على حياتهم وحريتهم وأموالهم وعباداتهم[٢] .

وقيل في تفسير عقد الذمة بأنه إقرار من الكفار على كفرهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الذمة [٣] ، وقيل : الحكمة في عقد الذمة معهم اكتمال دخولهم في الإسلام عن طريق مخالطتهم للمسلمين وإطلاعهم على شرائع الإسلام، وليس المقصود من عقد الذمة تحصيل المال [٤] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ج ص١٥١٧ ، الفيروز أبادي : القاموس المحيط ج٤ ص١١٥ ، السرخسي الحنفي : شرح السير الكبير ج١ ص ١٦٨ .

(٢) أبو جيب : القاموس الفقهي مادة ( ذمة ) ص ١٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية ( مادة ذمة ) ج٩ ص ٣٩٠ ، ٣٩١.

(٣) منصور إدريس الحنبلي : كشاف القناع ج١ ، ص ٧٠٤.

(٤) السرخسي : المبسوط ج١٠ ، ص ٧٧.

ويقول عبد الكريم زيدان في كتابه (أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام): ( عقد الذمة عقد بمقتضاه يصير غير المسلم في ذمة المسلمين أي في عهدهم وأمانهم على وجه التأبيد وله الإقامة في دار الإسلام على وجه الدوام)[١] .

وهم يسمون أيضا بـ ( أهل الكتاب ) وهم الذين لهم كتب منزلة مثل اليهود والنصارى وممن له شبهة كتاب مثل المجوس [٢] . وبعد الفتح الإسلامي خضعوا للمسلمين وأصبحوا في ذمة المسلمين فأُطلق عليهم أهل الذمة .

وسمي اليهود والنصارى بأهل الكتاب تميزا لهم عن عبدة الأوثان، وذلك لأن لهم كتب منزلة هي التوراة والإنجيل وأن اعترافهم بها يجعل لهم مكانا ممتازا بالنسبة لعبدة الأوثان وغيرهم [٣] . وقد ورد ذكر ( أهل الكتاب ) في القرآن الكريم في آيات كثيرة[٤] منها قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [٥].

وأهل الكتاب عند الحنابلة والشافعية :هم اليهود والنصارى دون غيرهم مستندين إلى قوله تعالى : ﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا

---

(١) انظر : عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ٢٢.

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج١ ص ٣٧ .

(٣) سعدي أبو جيب : القاموس الفقهي ( مادة أهل الكتاب ) ص ٣١٦ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة ( أهل الكتاب ) ج٣ ص ١٠٧ .

(٤) سورة البقرة :آية ١٠٥، ١٠٩ ، آل عمران : آية ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٥، ٩٨، ٩٩، ١١٠، ١١٣، ١١٩ ، النساء : آية ١٢٣، ١٥٣، ١٥٩، ١٧١ .... وغيرها من المواضع على اختلاف المقصود منها .

(٥) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾[١].

وعند الحنفية: هم أصحاب الكتب السماوية المنزلة كالتوارة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود .

ويقول الشهرستاني ( ت٥٤٨ هـ ):( ويخاطب القرآن اليهود والنصارى بياأهل الكتاب إلى جانب هؤلاء ممن لهم شبهة الكتاب مثل المجوس، فإن الصحف آلتي أُنزلت على إبراهيم قد رفعت إلى السماء لأحداث أحدثها المجوس، ولهذا يجوز عقد العهد والذمام معهم، ولكن لايجوز مناكحتهم ولا أكل ذبائحهم فإن الكتاب قد رفع عنهم )[٢] .

وقد استندت المذاهب الفقهية في قبول الجزية من المجوس إلى قول الرسول ﷺ فيهم : ( **سُنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي لحومهم** )[٣] .

وقد اختلف الفقهاء في الحقوق الدينية لغير أهل الكتاب، وأعظم الخلاف بينهم كان في أمر المجوس هل هم من أهل الكتاب ؟ وهل يحل للمسلم مناكحتهم والأكل من ذبائحهم ؟

هذا بعد إجماعهم على صنفين ممن هم غير مسلمين وهوأن اليهود والنصارى مع تبديلهم وتحريفهم للتوراة والإنجيل أهل ذمة ( وإن كانوا عرباً )، وأن المرتدين عن الإسلام ولو إلى النصرانية أو اليهودية لايدخلون في أهل الذمة ... للنصوص الصريحة في كل من الصنفين . (وقد سبق ما يتعلق بأهل الكتاب)، أما المرتدون فالإجماع على عدم جواز عقد الذمة معهم، وقد صرح بذلك

---

(١) سورة الأنعام : آية ١٥٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ـ ج١ ص٣٨ .

(٣) رواه الشافعي برقم ١١٨٢ .

الحنفية والمالكية والحنابلة [١] وذلك لعدة أمور منها :

أ ـ أن الحكمة من عقد الذمة ـ الذي ذكر سابقا ـ إطلاع غير المسلم على محاسن الإسلام وأهله مما يدعوه للدخول في الإسلام، لا تتحقق في المرتد لأن الظاهر أنه لم ينتقل عن الإسلام بعد ما عرف محاسنه إلا لسوء فطرته، فيقع اليأس من صلاحه، ولايكون عقد الذمة في حقه وسيلة لإسلامه .

ب ـ المقصود من عقد الذمة التزام الحربي أحكام الإسلام وليس تحصيل المال ، وأحكام الإسلام لازمة على المرتد أصلا ، فلا يكون الغرض من عقد الذمة معه إلا الحصول على الجزية ، وهذا لا يجوز .

ج ـ إجماع المسلمين على وجوب قتل المرتد[٢] على اختلاف في موجبات الردة ووجوب استتابته قبل القتل[٣]، فهو مستحق للقتل إن لم يتب ويسلم وهذا ينافي عقد الذمة الذي يفيد بعصمة الذمي في ماله ودمه .

وبهذا يتضح أن من دخل في الإسلام ورجع عنه إلى أي ملة من ملل الكفر لا يجوز عقد الذمة معه ولاعقد الأمان كذلك .

أما غير محل الإجماع وهم غير أهل الكتاب ( والمجوس إلحاقاً بهم ) والمرتدين فقد اختلف الفقهاء في جواز عقد الذمة لهم .........

**القول الأول : الحنابلة والشافعية :**

١ـ فذهب الحنابلة والشافعية إلى عدم جواز عقد الذمة لغير أهل الكتاب والمجوس[٤] لأن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « **أُمرت أن أُقاتل الناس**

---

(١) الهداية ٤/ ٣٧١ ، شرح السير الكبير ٤ / ٢١ - ٢٢ ، الكاساني ٧/ ١١١، مواهب الجليل شرح مختصر خليل للحطاب ٣/ ٣٨١. المغني ٨ / ١٢٣ - ١٢٤.

(٢) المغنى ٨ / ١٢٣ .

(٣) المرجع السابق ٨/ ١٢٣ .

(٤) المغني ٨/ ٥٠٠ ـ ٥٠١ ، مغني المحتاج ٤/ ٢٤٤ .

**حتى يقولوا لا إله آلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»** [١] . يبقى على عمومه إلا ما خص منه بآية الجزية في حق أهل الكتاب ، والمجوس بما ورد في السنة .

**القول الثاني: قول الحنفية** : وهو جواز عقد الذمة لجميع أصناف غير المسلمين إلا عبدة الأوثان من العرب [٢] ، أما بقية غير المسلمين فقياساً على المجوس وخُصَّ العربُ والوثنيون بالمدة التي لم يقبل عنهم إلا الإسلام أو السيف.

**القول الثالث : للمالكية** [٣] : ويقولون بجواز عقد الذمة لجميع أصناف غير المسلمين ولافرق بين عربي وعجمي ، وحجتهم نفس القول السابق، أي القياس على المجوس، وهم ممن لايقرون حتى بالربوبية فوثني العرب من باب أولى ...

ولا أخوض في الترجيح بين الأقوال والرد على الأقوال المرجوحة لأن هذا ليس مجال بحثنا وإنما من باب تنزيل الكلام على الواقع ـ وعلى الأخص على المكان والزمان الذي أتكلم عنه . فلايكاد يوجد من غير الملسمين في المجتمع المسلم إلابعض اليهود أو النصارى (أهل الكتاب) فقط ، حتى المجوس سوى بقية باقية تابعة للدولة الصفوية في بلاد فارس ، أما البلاط العثماني فكان يعج بالقوميات الدينية على اختلاف مذاهبها،إلاأنها لاتكاد تخرج عن فرق النصارى من أرمن، وكاثوليك، وبروتستانت ، وأرثوذكس ، ويهود يعاقبة ونساطرة بفرقهم الثلاث، والمجوس وإن كانوا قلة لاتكاد تذكرعند من أرَّخ في تصنيف مواطن الدولة العثمانية .

---

(١) رواه البخاري :كتاب الإيمان رقم٢٥، ومسلم :كتاب الإيمان رقم٢٠، والترمذي :كتاب الإيمان رقم ٢٦٠٦.

(٢) فتح القدير ٣/ ١٧٣ .

(٣) شرح مختصر خليل للخطاب ( مواهب الجليل ) ٣/ ٣٨١، شرح الموطأ للزرقاني ٢/ ١٣٩ .

إلا أن القول الراجح ـ وهو قول الجمهور ـ أنه يُسنُ بهم سُنة أهل الكتاب - بل قال الإمام مالك... كما نقل عنه سحنون في المدونة: « قال مالك في المجوس ماقد بلغك عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( **سُنُوا بهم سُنة أهل الكتاب**)[1]، **فالأمم كلها في هذا بمنزلة المجوس عندي**»[2]، والنصوص عن السلف في أخذ الجزية منهم كثيرة .

وقد خالف في ذلك الصحابي الجليل أبوموسى كما روى عنه أبو عبيدة في كتاب الأموال أن أبا موسى قال : « لولا أني رأيت أصحابي يأخذون الجزية من المجوس ماأخذتها.....»[3] .

إلا أن الأمر استقر على جواز أخذ الجزية منهم وإن اختلفوا في جواز مناكحتهم وأكل ذبائحهم . ولكن المعروف عند كل دارس التاريخ أن المجوس تناقصوا منذ القرن الأول الهجري إلى أن قل عددهم جداً في القرن الثالث .

**المستأمنون** : ماسبق الكلام عنه كان في أهل الذمة ومن عقد معهم عقد مقيد على الأمان وأخذ الجزية منهم - وما يتعلق بهم من أحكام سيأتي تفصيلها إن شاء الله .

أما القسم الثاني من المعاني من يسمون في الفقه الإسلامي بـ ( المستأمنين) والمراد بهذا اللفظ في اللغة :

---

(١) رواه الشافعي (١١٨٢) من طريق الإمام مالك عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال : ماادري كيف أصنع في أمرهم؟ فقال عبدالرحمن بن عوف :أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكره .وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ، وابن عساكر في تاريخ الشام وفيه انقطاع( قال بن عساكر: أن محمد بن علي لم يدرك عمر) ، انظر الإرواء ٥/ ٨٨ ـ٨٩ المكتب الإسلامي . وللحديث شواهد .

(٢) سحنون : المدونة الكبرى ٣/ ٤٦ .

(٣) أبوعبيد في الأموال ص٣٦ .

يقال : « استأمنه أي طلب منه الأمان [١] ، والمستأمِن بكسر الميم : هو الطالب للأمان ويصبح بالفتح بمعنى اسم المفعول مستأمن » [٢] .

والمقصود به في الشرع : هو عقد الأمان الذي يعطى للحربي عند دخوله إلى دار الإسلام، وهو أمان مؤقت ، بخلاف عقد الذمة الذي يشترط له التأبيد (خلافا لما مرت عليه الدولة العثمانية في معاهدات الامتياز .. ) والأصل فيه قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [٣] .

**واقع من تحدث عنهم في هذا البحث** : قد يعترض شخص بأن اليهود والنصارى في الدولة العثمانية لا ينطبق عليهم تعريف أهل الذمة ولا شروطهم ولا أوصافهم لا من حيث أخذ الجزية فضلاً عن بقية الشروط العمرية مثلاً . **ويجاب عن ذلك بأن** ضعف الدولة وتخاذلها عن القيام بواجبها وتطبيق ما أمرها الله به من معاملة مع أهل الكتاب ممن يعيشون تحت ظلها وينعمون بأمنها وخيراتها ... فهذا البعد عن شرع الله من الدولة لا يغير شيئاً من حقيقة هؤلاء القوم وأنهم في الأصل أهل ذمة لهم حقوق خاصة وعليهم واجبات فصلها الفقهاء والعلماء . يؤكد ذلك أن كتب الفقه والتي صنفت في تلك الفترة جرت على هذا المفهوم الذي ذكرته .

**شروط عقد الذمة** : اتفق الفقهاء على بعض الشروط واختلفوا على أخرى. فاشترط الحنفية والشافعية والحنابلة شرط التأبيد لصحة عقد الذمة فلا يصح إذا كان موقوتاً .

---

(١) المصباح المنير ١/ ٣٤ .

(٢) رد المحتار على الدر المختار شرح تنوير الأبصار ـ للإمام محمد أمين الشهير بابن عابدين ٣/ ٣٤١ ط العثمانية .

(٣) سورة التوبة آية ٦.

ولعل بعض الفقهاء كالحنابلة لم يقيدوا التأبيد كشرط باعتبار أن التأبيد من مقتضى عقد الذمة وطبيعته .

وذكر صاحب الكشاف من الحنابلة شرطين آخرين لا ينافيان صحة عقد الذمة :

**الشرط الأول** : التزام إعطاء الجزية كل سنة ( لمن وجبت عليه ) .

**الشرط الثاني** : التزام أحكام الإسلام .

ويدل على هذين الشرطين قوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [1]. والصغار جريان أحكام الإسلام عليهم [2] .

* **ماينتقض به عقد الذمة وأمان المستأمن** : عند الكلام على ما ينتقض له عقد الذمة يجب أن لانغفل عن الحِكَم التي من أجلها شرع عقد الذمة .( حتى يسمع كلام الله )

فإذا انقلب الوضع وأصبح التأثير عكسياً وفيه فتنة للمسلمين عن دينهم، إما بمجرد مخالطتهم مع الكفار أو بسبب الغلبة الثقافية والاجتماعية من الكفار على المسلمين، كما حصل في عصور الضعف للمسلمين، وعند تقدم مؤسسات أهل الذمة ( من اليهود والنصارى ) التعليمية والصحية والاجتماعية على مؤسسات الدولة العثمانية، مما جعل أبناء المسلمين يتمنون اللحاق بركب هؤلاء المتقدمين عليهم ماديا ـ وبالتالي الوقوع فريسة لأفكارهم الهدامة ـ وأديانهم المحرفة ـ ولذلك فإن الشارع الحكيم ـ كما نص على شروط جواز هذا العقد وهذا التعايش، ذكر كذلك أموراً ينتقضُ بها هذا العقد ـ أو هذا الأمان ... نص عليها فقهاؤنا رحمهم الله .

---

(١) سورة التوبة آية ٢٩ .

(٢) كشاف القناع : ١/ ٧٠٤ لمنصور بن إدريس الحنبلي ت ( ١٠٥١هـ ) .

**منها : الإخلال بالشروط السابقة :**

١ـ كالامتناع عن أداء الجزية .

٢ـ الطعن في الإسلام أو القرآن أو سب الله تعالى أو ذكر رسوله ﷺ بسوء.

٣ـ أو قطع الطريق على المسلمين .

٤ـ أو فتنة المسلمين عن دينهم ( إيذاء المسلم في دينه ) .

٥ـ لحاق الذمي بدار الحرب . إذ بهذا اللحاق تنقطع صلته بدار الإسلام ويصير من أهل تلك الدار[١] .

س وبالنسبة للمستأمن يلغى عقد أمانه بمجرد خروجه من دولة الإسلام ......

ويحسن بنا هنا أن نذكر النص الوارد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والذي اشتهر بين الفقهاء تسميته **بالشروط العمرية** :

" قال عبدالله بن الإمام أحمد: حدثني أبو شُرحبيل الحمصي عيسى بن خالد قال : حدثني عمر أبو اليمان وأبو المغيرة قالا :أخبرنا إسماعيل بن عياش قال : حدثنا غير واحد من أهل العلم قالوا : كتب أهل الجزيرة إلى عبدالرحمن بن غَنْم : "إنا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملتنا على أنَّا شرطنا على أنفسنا ألا نُحْدثَ في مدينتنا كنيسة ، ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولاصومعة راهب ؛ ولا نجدد ما خرب من كنائسنا ولاما كان منها في خطط المسلمين .

وألا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار ، وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل ، ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً ، وألا نكتم

---

(١) انظر عبد الكريم زيدان : أحكام أهل الذمة والمستأمنين ص٤٢ ـ٤٣ ، وللتوسع انظر : فتح القدير ٤/ ٣٨٢، المغني ٨/ ٥٢٥ .

غشاً للمسلمين.

وألا نضرب بنواقيسنا إلا ضرباً خفيفاً في جوف كنائسنا ، ولانظهر عليها صليباً ، ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولاالقراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون.

وألا نخرج صليباً ولاكتاباً في سوق المسلمين ، وألانخرج باعوثاً ـ قال : والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر ـ ولاشعانين ، ولانرفع أصواتنا مع موتانا.

ولانظهر النيران معهم في أسواق المسلمين ، وألانجاورهم بالخنازير ولابيع الخمور.

ولانظهر شركاً ، ولانُرغِّب في ديننا ، ولاندعوا إليه أحداً ، ولانتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين ، وألانمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام.

وأن نلزم زيّنا حيثما كنا ، وألانتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولاعمامة ولانعلين ولافرق شعر ولافي مراكبهم ، ولانتكلم بكلامهم ، ولانكتني بكناهم ، وأن نجز مقادم رؤوسنا ولانفرق نواصينا ، ونشد الزنانير على أوساطنا ، ولاننقش خواتمنا بالعربية.

ولانركب السروج ، ولانتخذ شيئاً من السلاح ولانحمله ، ولانتقلد السيوف ، وأن نوقر المسلمين في مجالسهم ، ونرشدهم الطريق ، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس ، ولانطلع عليهم في منازلهم.

ولانعلم أولادنا القرآن ، ولايشارك أحدٌ منا مسلماً في تجارة إلاأن يكون إلى المسلم أمر التجارة.

وأن نضيف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد .

ضمنا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكننا ، وإن نحن غيَّرنا أوخالفنا عما شرطنا على أنفسنا ، وقبلنا الأمان عليه ، فلاذمة لنا ، وقد حل لك ما يحل لأهل المعاندة والشقاق "[١] *.

**الحقوق التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة :** " للحق في اللغة عدة معان، ترد كلها إلى الثبوت والوجوب ، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٢] أي ثبت ووجب * . والفقهاء يطلقون لفظ " الحق " ويريدون به معنىعاما وهو الملك بأنواعه، وقد يطلقونه ويريدون به معنى خاصاً وهو الحقوق المطلقة فقط . كحق المرأة في حبس نفسها عن زوجها حتى تستوفي معجل صداقها ، وكحق الشفعة والخيارات .

ويطلقون ويريدون به الحقوق الارتقائية. وهذا هو المعنى الأخص لكلمة الحق عندهم[٣] .

وإطلاق كلمة حقوق أهل الذمة : يفهم منها الحقوق الواجبة لهم في شتى المجالات وهى كثيرة ـ يجملها قول بعض السلف "لهم مالنا وعليهم ماعلينا "[٤] . وإن كانت هذه العبارة ليست على إطلاقها . لأنه لا يمكن أن يكون المسلم كالكافر فيما يجب له أويُمَكَّن منه .

والذي يتعلق ببحثنا من الحقوق هو حقهم في تولي الوظائف العامة.

والكلام في الوظائف التي يمكن أن يتقلدها أهل الذمة في الدولة المسلمة

---

(١)* أحكام أهل الذمة : ابن قيم الجوزية ج٢ ـ ص٦٥٧ : ٦٦٠ ـ تحقيق د. صبحي الصالح . وفي رواية الخلال للشروط ذكرها مسندة إلى عمر، أي أن عمر هو الذي اشترط هذه الشروط .

(٢) سورة يس آية ٦ . * المنجد ص ١٣٩.

(٣) عبد الكريم زيدان : المرجع السابق ص ٧٦، نقلاً عن محمد سلام مدكور : الفقه الإسلامي ص٨١.

(٤) تطلق هذه العبارة ويقصد بها الأمان الواجب على الدولة نحو المسلم والذمي وحماية عرضه وماله فقط أما المفهوم العام فهو مفهوم باطل .

غير منضبط بنص من القرآن أو السنة، وإنما في مجمله متوقف على اجتهاد الإمام ـ وفراسته وتغليب المصالح على المفاسد ، وإن كان هناك بعض الوظائف مما أجمع الفقهاء على جواز توليتهم إياها في الأصل، ووظائف لايمكن بحال أن يُمَكَّنُوا منها مهما بلغ حسن صناعتهم .

فمن الوظائف العامة آلتي لايكلف بها الذمي لأن طبيعتها تقتضي أن لا يتولاها إلا مسلم ، لأن من شروط تقليدها للشخص أن يكون مسلماً: الخلافة ، أي الإمامة [1] ، لأن الإمامة في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به [2] ، فمن البديهي أن يكون رئيس الدولة الإسلامية مسلماً، وعلى هذا جرى المسلمون في جميع عصورهم الماضية ...

وهذا الموضع ليس خاصاً فيمن يسمى "خليفة" بل حتى من يقوم مقامه في رئاسة الدولة "كالصدر الأعظم" في الدولة العثمانية مثلاً .

ومن الوظائف كذلك : الإمارة على الجهاد ... لأن الجهاد عبادة وذروة سنام الإسلام وله غاياته وحكمه مما يتعذر على غير المسلم أن يتولاها .. وإن جاز لهم أن يقفوا في صف المسلمين للدفاع عنهم وعن د يارهم إلا أنهم لايُمَكَّنُون من قيادة جيش المسلمين .

مثل هاتين الوظيفتين موضع إجماع لايقبل فيها اجتهاد لامن مجلس أحكام عدليةولاشورى .

أما فيما سوى مثل هذه الوظائف فيقول الله تعالى موجها عباده المسلمين إلى أخذ الحيطة والحذر من أعدائهم في الدين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ

---

(١) الجويني : الارشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد . ص ٤٢٧ ، ج ٤ / ١٢٩ -١٣٠ متن المنهاج ومغني المحتاج .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردي ص ٣٣.

وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [١] .

**تقلد الذمي للقضاء** : من المباحث المهمة والمتعلقة بموضوع بحثنا مسألة تولية الذمي القضاء بين الذميين وتمكينهم من فتح محاكم خاصة بهم تحكم وفق شرعهم أو قوانينهم الوضعية أو أي قوانين يخترعوها من عند أنفسهم. وهذه المسألة كانت مشتهرة في أواخر تاريخ الدولة العثمانية خاصة، بل كانت من الحقوق التي نصت عليها معاهدة الامتياز .

والقضاء من الولايات الدينية بل من أعظم الولايات، وهي تلي الإمامة العظمى في الأهمية، فهل يجوز تعيين قاضي ذمي على أهل الذمة ؟ **قولان مشهوران في المسألة:**

**القول الأول:** أنه لا يجوز تعيين غير مسلم قاضيا مطلقا، وهو قول الجمهور من المالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية [٢] .

**القول الثاني:** جواز تعيين الذمي قاضيا على أهل الذمة، وهذا قول الأحناف[٣] . وحجة الحنفية أن الذمي أهل للشهادة على مثله والشهادة من باب الولاية فكذايجوز أن يقضي بين الذميين [٤] .

واستدل الجمهور بعدة أمور منها:

- أن القضاء وظيفة دينية فلا يجوز أن يتولاها غير المسلم.

- أن القصد من القضاء فصل المنازعات بأحكام الشريعة ، والكافر جاهل

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٨ .

(٢) في المالكية ، مواهب الجليل (٦/ ٨٧)؛ الشافعية، مغني المحتاج (٤/ ٣٧٥)؛ الأحكام السلطانية للماوردي(٦٥)؛ الحنابلة، كشاف القناع(٦/ ٢٩٥)؛ الظاهريين المحلى لابن حزم(١٠/ ٥٠٩). أنظر د.عبد الله الطريقي (الإستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي ص٣٥٢).

(٣) الفتاوي الهندية (٢/ ٣٩٧).

(٤) د. عبد الله الطريقي، الاستعانة بغير المسلمين في الفقه الإسلامي(٣٥٣)، ط:١٤٠٩هـ.

بها .

- القياس على الشهادة فكما لايجوز استشهادهم فكذلك استقضاؤهم بل القضاء أهم وأشد

وقبول شهادة الذمي على مثله لم يقل به إلا الحنفية.

- أيضاً إذا جاز استقلالهم بالقضاء فهذا يعني أنهم (لم يلتزموا بأحكام الإسلام) المفروضة عليهم، ولم يصح هناك فرق بينهم وبين أهل الصلح ؟

وأخيراً فما من شك أن استقلالهم هذا يعني الإقرار على الظلم والتحاكم إلى الطاغوت وهذا لا يقره مسلم [(١)].

أما قوله تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾[(٢)].

فاختلف العلماء فيها على قولين محكيين عن الإمام الشافعي :

**الأول:** أن فيها تخيير للإمام إن شاء حكم بينهم وإن شاء تركهم فأعرض عنهم وردهم لدينهم.

**الثاني:** أن التخيير منسوخ . قال ابن عباس: آيتان نسختا من المائدة، آية القلائد، وقوله تعالى:﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾ ، أما القلائد، فنسخها الأمر بقتل المشركين حيث كانوا. وأما الأخرى فنسخت بقوله تعالى:﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾[(٣)] [(٤)].

---

(١) انظر ترجيح الأقوال وأدلتها : عند د. عبد الله الطريقي، المرجع السابق، ص٣٥٢-٣٥٥. وكذلك: التشريع الإسلامي بغير المسلمين للشيخ عبد الله المصطفى المراغي(١٠١) ، وكذلك عبد الكريم زيدان، المرجع السابق (٧٦-٧٩).

(٢) سورة المائدة آية:٤٢.

(٣) سورة المائدة آية: ٤٩.

(٤) أحكام القرآن ، عماد الدين بن محمد الطبري المعروف بالكياهراسي (٣/ ٧٥).

وروي عن ابن عباس أن الآية في المائدة قوله تعالى:فاحكم بينهم أو أعرض عنهم إنما نزلت في الدية بين بني قريظة وبني النضير. وذلك أن بني النضير كان لهم شرف فيدون دية كاملة، وأن بني قريظة يدون نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ، فأنزل الله تعالى فيهم فحملهم رسول الله على الحصة في ذلك، فجعل الدية سواء [(١)] .

وقد أطال النفس الإمام الطبري في تفسيره لهذه الآية وذكر أقوال و حجج من قال بأن هذه الآية منسوخة. ومن ذهب إلى أنها ثابتة إلى اليوم ، لم ينسخ منها شيء ، وللحكام من الخيار في كل دهر بهذه الآية، مثل ما جعله الله لرسوله.

وممن قال بعدم النسخ الشعبي ، وعطاء ، والنخعي ، وعمرو بن شعيب ، وقتادة.

وممن قال التخيير منسوخ ، وعلى الحاكم إذا احتكم إليه أهل الذمة أن يحكم بينهم بالحق ، وليس له ترك النظر بينهم: عكرمة ، والحسن البصري ، مجاهد ، والسري... وابن عباس[(٢)] كما أسلفت.

واختار ابن جرير ( قول من قال: إن حكم هذه الآية ثابت لم ينسخ وأن للحكام من الخيار في الحكم بين أهل العهد إذا ارتفعوا إليهم ما احتكموا ، وترك الحكم بينهم والنظر ، مثل الذي جعله الله لرسوله من ذلك ) [(٣)]. **ووجه ترجيحه ـــ رحمه الله ـــ** أنه لا يصار إلى القول بالنسخ إلا عند تعذر الجمع بين الآتيين وورود الخبر بذلك، **ولكن لا تخفى أمور عند النظر في هذا الخبر المذكور في الآية منها:**

- أن بني النضير وبني قريظة الذي دارت الروايات في سبب النزول حولهم لم يكونوا حينئذ أهل ذمة وتؤخذ فيهم الجزية ، وإنما معاهدين فقط على الصلح.

---

(١) المرجع السابق : ص ٧٦ ـ ٧٨ .

(٢) انظر تفسير الطبري(٤/ ٥٨٤-٥٨٦).ط١، ١٤١٢هـ لدار الكتب العلمية ، بيروت.

(٣) ابن جرير الطبري، المرجع السابق (٤/ ٥٨٦).

فأهل الذمة لا يجوز ذلك فيهم أصلاً. (وبنو قريظة قتلوا عن آخرهم لما نزلو على حكم رسول الله) [١].

- روي عن الحسن وعن مجاهد و الزهري أن الآية وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ نزلت في شأن الرجم حين تحاكموا إليه وهم أيضاً لم يكونوا أهل ذمة ، وإنما تحاكموا إليه طلبا للرخصة وزوال الرجم ، فصار النبي عليه السلام إلى بيت مدراسهم ووقفهم على آية الرجم ، وعلى كذبهم وتحريفهم كتاب الله تعالى . ورجم اليهوديين... ثم قال بعد ذلك عماد الدين الطبري الشافعي: " وهذا يدل على أن أهل الذمة محمولون في عقودهم وقضاياهم على موجب أحكام المسلمين كالمسلمين "[٢].

وبهذا يتضح أن الآية ليست في مجال ما تم تقريره سابقا من قول الجمهور من عدم جواز تنصيب قاض من أهل الذمة ولو على أهل ملته.

وبالتالي عدم سماح الدولة بفتح محاكم خاصة للدول الأجنبية لرعاياها غير المسلمين كما حصل في الدولة العثمانية عقب معاهدات الامتياز التي سيأتي تفصيلها إن شاء الله...

ومما يترتب على القول بجواز تنصيب قاضٍ من أهل الذمة أو فتح محاكم خاصة بهم ، أن يسمح بالحكم بالطاغوت وبغير ما أنزل الله في دار الإسلام.

(وإذا جاز استقلالهم بالقضاء فما معنى "التزامهم بأحكام الإسلام" إذن؟ وما الفرق بينهم وبين أهل الصلح؟) [٣].

يلي هذه المسألة أهمية عند الفقهاء قديماً عليهم رحمة الله ؟، مسألة استعمال أهل الذمة في الولايات والوظائف ، وأقصد هنا غير ما سبق بحثه من

(١) أحكام القرآن ، الكياهراسي (٣/ ٧٧).

(٢) المرجع السابق(٣/ ٧٨).

(٣) د. عبد الله الطريقي ، المرجع السابق(٣٥٥).

محل الإجماع على جوازه أو على عدم جوازه كالإمامة والوظائف الدينية...

* **مسألة : استعمال الذميين وإشراكهم في الولايات والوظائف:** كان لاتساع رقعة الدولة الإسلامية وكثرة أهل الذمة في دار الإسلام ، وانتشارهم حتى بلغوا من الكثرة أن أصبحوا هم سادة بعض البلاد ، لما لهم من خبرات أو عوائل ذات سيادة قديمة (قبل الإسلام) أو ومراكز عالية ، فعمت بهم البلوى ولجأت الدولة الإسلامية في أحيان كثيرة من تاريخ المسلمين إلى رجال من أهل الذمة وعهدت إليهم بكثير من الوظائف على اختلاف مستوياتها!! فكانت هذه المسألة من الحوادث المتجددة والنوازل التي تحتم على الفقهاء بحثاً جليا لفروع هذه القضية. **ويمكن حصر أقوال الفقهاء في هذه المسألة إلى ثلاثة أقوال طرفين ووسط:**

**القول الأول:** إبعاد أهل الذمة عن جميع الوظائف والولايات وإن صغرت وعدم جواز توليتهم مطلقا مهما كانت الحال وإن دعت إلى ذلك الحاجة.

وهذا القول نسبه ابن القيم [(١)] وغيره إلى الجمهور ، وكذلك ابن مفلح[(٢)]. وممن أشار إلى هذا الجصاص [(٣)] من الحنفية ، والقرطبي [(٤)] من المالكي ، وأبو أمامة بن النقاش من الشافعية وابن حزم [(٥)] من الظاهرية ) .

**القول الثاني :** إن الأصل عدم جواز توليتهم ، وقد يجوز عند الضرورة أو الحاجة الشديدة على الأمور غير المهمة.

وقد يفصل بعضهم فيفرق بين الولايات التنفيذية فقط فيجوز توليتهم

---

(١) انظر أحكام أهل الذمة (٢٠٨).

(٢) انظر الذهبي، ابن مفلح، الآداب الشرعية(٢/ ٤٤٤-٤٤٦).ط فرضية القاهرة. وقد ذكر رواية أبي طالب عن الإمام الأحمد في أهل الذمة : لا يستعان بهم في شيء.وكذلك كلام شيخ الإسلام في بداية كتابه: إقتضاء الصراط المستقيم.

(٣) أحكام القرآن له(٢/ ٣٦-٣٧).

(٤) الجامع لأحكام القرآن(٤/ ١٧٨-١٨٠).

(٥) المحلى ( ١٢/ ٥٢٤) .

إياها ، بخلاف الولايات العامة المطلقة ، وهي التي يفوض صاحبها تفويضاً مطلقاً ، فلا يجوز إسنادها لغير المسلمين. وهذا التفصيل الأخير مذهب أبي الحسن الماوردي [١].

أما التقيد بالضرورة فقط فهو رأي ابن الهمام في فتح القدير[٢]. وكذلك قد يفهم من كلام الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره حيث قال :"لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم..."[٣].

**القول الثالث** : أن الأصل هو جواز تولية الذمي جميع المناصب عدا المناصب الدينية ، والإمامة العظمى والقضاء على المسلمين (أي مواضع الإجماع التي سبق ذكرها). وذهب إلى هذا الرأي كثير من الباحثين المعاصرين على رأسهم: أبو الأعلى المودودي في كتاب (نظرية الإسلام وهديه) [٤]، ود. عبد الكريم زيدان [٥].

واستدل الجمهور على مذهبهم بأدلة عامة من القرآن الكريم والسنة ، وأدلة خاصة في المسألة ونذكر طرفا منها:

من أصرح الأدلة في القرآن ما استدل به ابن القيم وابن مفلح والجصاص وغيرهم ممن ذهب هذا المذهب.

١ـ قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي

(١) الأحكام السلطانية(٢٧).
(٢) شرح فتح القدير(٦/ ٦١).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٩٨).
(٤) نظرية الإسلام وهديه (٣٦٢).
(٥) أحكام الذميين والمستأمنين (٧٨).و نحى هذا المنحى أيضا وهبة الزحيلي (آثار الحرب) له .

صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [١].

قال ابن مفلح في تأويله لهذه الآية: (بطانة الرجل تشبيهه ببطانة الثوب الذي يلي بطنه لأنهم يستبطنون أمره ويطلعون عليه بخلاف غيرهم).

وقوله: ﴿ مِّن دُونِكُمْ ﴾ أي من غير أهل ملتكم، قوله: ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾ أي لا يبقون غاية في إلقائكم فيما بضركم والخبال الشر والفساد. ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يودون ما يشق عليكم من الضر والشك والهلاك، والعنت والمشقة. ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ قيل بالشتم والوقيعة في المسلمين ومخالفة دينكم ، وقيل باطلاع المشركين على أسرار المؤمنين...

قال القاضي أبو يعلى[٢] : وفي هذه الآية دليل على أنه لا يجوز الاستعانة بأهل الذمة في أمور المسلمين من العمالات والكتبة ، ولهذا قال الإمام أحمد: لا يستعين الإمام بأهل الذمة على قتال أهل الحرب[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [٤].

وفي معنى ﴿ وَلَا تَرْكَنُوا ﴾ عدة تأويلات ذكرها ابن الجوزي في تفسيره:

أ ـ لا تدنوهم.

ب ـ لا تميلوا إلى المشركين.

جـ ـ لا ترضوا بأعمالهم.

د ـ لا تداهنوهم.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٨.

(٢) أنظر الأحكام السلطانية (٣٢).

(٣) تفسير الآية وما بعده، أنظر: ابن مفلح، الآداب الشرعية (٢/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٤) سورة هود، آية:١١٣.

هـ ـ لا تلحقوا بهم [١].

٣- للجمهور أيات النهي عن موالاة الكفار ، فاستعمالهم نوع من المـوالاة المهني عنها!

أ- قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [٢]. وهذه الآية استدل بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على عدم جواز اتخاذ النصراني كاتباً كما في قصته مع أبي موسى الأشعري التالي ذكرها.

ب- قوله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [٣].

قال ابن جرير: "وهذا نهي من الله عز وجل للمؤمنين أن يتخـذوا الكفـار أعواناً وأنصاراً وظهوراً" [٤].

٤- ما اشتهر عن عمر أنه نهى عن استعمال الكفار مطلقاً. وقصة نهيه لأبي موسى حيث استأذنه أن له كاتبا نصرانيا . فقال: مالك؟ قاتلك ، أما سمعت الله يقول: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ .. ﴾ الآية ألا اتخذت حنيفاً؟

قال: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه ، قال: لا أكـرمهم إذ أهـانهم الله ،

---

(١) أنظر زاد المسير(٤/ ١٦٥) .

(٢) سورة المائدة، آية:٥١.

(٣) سورة آل عمران، آية:٢٨.

(٤) تفسير ابن جرير الطبري(٣/ ١٥٢).

ولا أعزهم إذ أذلهم الله ، ولا أدنيهم إذا أقصاهم الله [(١)].

* **أدلة القول الثاني:** وهو من يقين الاستعمال بالضرورة والحاجة الشديدة.

ـ نفس أدلة القول الأول إلا أنهم قالوا بأن المنع المطلق قد يترتب عليه وقوع ضرر ومشقة وحرج على الدولة الإسلامية ، (و معلوم من قواعد الشريعة ما يبيح مثل هذه المسألة).

ـ أيضا أن التكليف بغير الوظائف الدينية نوع من الإجارة ، واستئجار الذمي جائز بلا ريب .

* **أدلة القول الثالث:** وهو مذهب من يقول بالجواز المطلق ، وهو اتجاه أغلب المعاصرين.

أ ـ قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾.

قالوا: إن الآية لم تنه مطلقا وإنما قيدت النهي بقيود... من ظهرت عداتهم، وأن تتخذوا بطانة ، فإن كانوا دون البطانة في المركز والأهمية فلا حرج... [(٢)].

ب ـ استدلوا كذلك باستعمال النبي صلى الله عليه وسلم لأسرى بدر(وهم مشركون!) فداءاً لهم من الأسر بتعليم أبناء الأنصار كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنه: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءَهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، قال: فجاء يوما غلام يبكي إلى أبيه ، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني

(١) هذه القصة رواها عبد الله بن الإمام أحمد كما ينقل ابن القيم (أحكام أهل الذمة(٢١٠))، وابن أبي شيبة(٨/ ٤٧٠)، والبيهقي في السنن الكبرى(٩/ ٢٠٤)، وانظر تفسير ابن كثير(١/ ٣٩٨)، وانظر عبد الله الطريقي،المصدر السابق(صـ٣٧).

(٢) أحكام الذميين والمستأمنين، د. عبد الكريم زيدان ( صـ ٧٩).

معلمي ، قال: الخبيث يطلب بذحل بدر ، والله لا تأتيه أبداً "[١]. وهذا صريح في استعمال غير المسلمين في شأن من شؤون الدولة الإسلامية [٢] .

جـ- وكذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث عينا من خزاعة يخبره عن قريش ، وهذا العين كان كافرا وأسندت إليه مهمة خطيرة.وهذاما يدل على جواز إسناد وظائف الدولة العامة إلى الذميين ما داموا أهلاً لها من حيث الكتابة والثقة والأمانة [٣].

**القول الراجح** : بالنظر الى أدلة القول الاول نجد أنها صحيحة ولكنها غير صريحة في النهي المطلق عن استخدام الذميين في جميع الوظائف خاصة مع متابعتنا لواقع المسلمين منذ عهد الخلفاء الراشدين

**والقول الراجح القول الثاني**: وهو الوسط القائل بجواز تولية الذمي للوظائف العادية التي ليس فيها استطالة على المسلمين عند الحاجة وعدم وجود الكفؤ المسلم، وكذلك الوظائف التنفيذية التي يكون فيها الموظف مجرد منفذ لأوامر من فوقه لا سلطان فيها على أحد. **ووجه هذا الترخيص:**

أولا: بالنسبة لمنع إسناد الوظائف العامة إلى الذمي.

أ ـ وجود الأدلة الكثيرة والظاهرة في الدلالة ، وهو ما استدل به أصحاب القول الأول.

ب ـ أنه لم يعهد أن أحدا من الولاة المسلمين في صدر الإسلام ولى ذميا شيئا في تلك الولايات.

جـ ـ أن الوظائف العامة فيها ولاية وسلطة وصلاحيات تجعل صاحبها

---

(١) مسند أحمد (١/ ٢٤٧)، قال أحمد شاكر: إسناده صحيح(٤/ ٤٧).

(٢) أحكام الذميين المستأمنين(٧٩-٨٠).

(٣) المرجع السابق(٨).

من أهل الحل والعقد، والكافر لا سلطان له على المسلمين كما قال تعالى: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ [١] .

د ـ ثم إنها وظائف غير مناسبة للكافر لأنها تتطلب أمرا مهما هو: الإيمان بأهمية هذه الوظائف وأنها أمانة عظيمة ومسؤولية شرعية وهذا لا يوجد إلا في المسلم هذا إلى أن الدولة كلها تقوم على العقيدة الإسلامية فهي دولة عقدية ذات أصول ثابتة ، وليست دولة دنيوية صرفة ومن غير المعقول أن تسند الأعمال المهمة في هذه الدولة إلى من لا يؤمن بأصولها وأسسها[٢] .

**ثانيا: أما وجه القول بجواز الوظائف العادية عند الحاجة فلما سبق أيضا ومنها :**

أ ـ قصة تعليم أسرى بدر صبيان الأنصار الكتابة.

ب ـ استئجار النبي ﷺ للرجل الدليل يوم الهجرة .

جـ ـ لما تقرر في الشرع أن التعامل والتعاون مع الكفار في الامور العادية أمران جائزان.

د ـ قول الجمهور بجواز استطباب الكافر.

هـ ـ لأنه لا سلطة في هذه الوظائف العامة ولاهيمنة فيها على الناس، الأمر الذي لا يترتب عليه ضرر[٣] .

**ويجب أن ننبه إلى أنه مع ترجيح هذا القول عند بعض العلماء إلا أنهم قيدوه بأمور منها :**

أولاً: وجود الحاجة إلى الكافر.

ثانياً: عدم وجود المسلم الكفؤ الذي يقوم بنفس العمل.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤١.

(٢) عبد الله الطريقي المرجع السابق(٣٨٢).

(٣) انظرالترجيح بين الأقوال ومناقشة الأدلة، المرجع السابق (٣٧٤-٣٨٣).

ثالثاً: أن يكون محل ثقة وأمانة ولم يعهد عليه خيانة.

رابعاً: أن يكون مؤهلا للوظيفة.

خامساً: أن تقوم الدولة الإسلامية بتأهيل المسلمين للقيام بهذه الأعمال وعدم تركها لغير المسلمين .

وأختم هذا المبحث بما قاله الإمام الحافظ ابن القيم في الطرق الحكمية : "يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل ، والأمثل فالأمثل وإن كان فيه كذب وفجور"[1] .

(١) الطرق الحكمية ص٤١١.

## الفصل الأول

# علاقة أهل الذمة بالدولة العثمانية

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة العثمانية

المبحث الثاني : الامتيازات الأجنبية ـــ عرض وتحليل

## المبحث الأول

# تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة

أهم الوظائف التي شغلها أهل الذمة منذ أوائل تاريخ الدولة (قبل عصر الضعف ) :

**أولا : في مجال الصناعة والتجارة :**

كان هناك اعتماد شبه كلي على أهل الذمة في مجالي الصناعة والتجارة ، ربما لمهارة اليهود في التجارة ولعدم اكتراث العثمانيين بالصناعة .

يقول برناردلويس : (انصرف اهتمام الدولة إلى أربع مسائل : الحرب ، والدين ، والحكم ـ أساس النظام البيروقراطي والزراعة فقط ولم تباشر نشاطا يذكر في مجال الصناعة والتجارة ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين) [١] .

ولم تلتفت الدولة لمجال الصناعة على أهميته ، ولم تسيطر على التجارة على خطورتها حيث تمثل عصب الحياة في الدولة بين رعاياها إلا في فترات متأخرة من عهد الضعف ، وتركت هذين القطاعين لرعاياها غير المسلمين من أهل الذمة .

فلقد ساهم أهل الذمة والأجانب في تنشيط الحركة التجارية في كافة أنحاء الدولة العثمانية. وقد تمتع اليهود في مدن بر الشام الرئيسية بنفوذ تجاري كبير ، فقد سيطروا على تجارة (صفد ودمشق ) ولعبوا دوراً بارزاً في (بيروت ، وحلب وعكا ، وحيفا ) وكان منهم في (دمشق) وحدها أكثر من أربعة وعشرين بيتاً

---

(١) انظر الشناوي عبد العزيز : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، جامعة الأزهر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٠م ج١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

تجارياً رأسماله قرابة خمسة ملايين فرنك ، كي يسيطروا على تجارة دمشق مع بريطانيا ، واشتهر من تجارهم اثنان من آل فرجى ، هما : مراد ونسيم .

وقد استفادوا من أحداث ١٢٧٧هـ - ١٨٦٠ م ( المذابح المشهورة ) فاستردوا المنهوبات بأسعار بخسة، وأقرضوا المسلمين أموالا بفوائد مرتفعة لدفع الغرامات المفروضة على المسلمين(١) .

كما سيطر اليهود على أسعار النقد وتلاعبوا بها ، وسيطروا على القوافل وجملوها على الاستراحة (٢) .

وقد جاء في معرض الكلام على أحداث الثورة اليونانية في كتاب ( دور الكنسية ) بيان سيطرة أهل الذمة من النصارى على أنواع الحرف والتجارة ومايسمى « بالفن » ، فقد كانت كلها في يد الأروام - خاصة شبكة السكك الحديدية (٣) .

من أهم الأمور التي ساعدت على سيطرة أهل الذمة على قطاعي التجارة والصناعة ماكان في أيديهم أصلا من مدارس صناعية تجارية ومعاهد تقنية لم تكن منتشرة لأبناء الدولة ، فامتاز أبناء الأقليات من الأرمن والروم واليهود على أبناء المسلمين بالحصول على الشهادات العالية التي كانت تمكنهم من تقلد الوظائف الحكومية بل السيطرة على الدوائر الحكومية نظراً لحاجة الدولة إلى من يتقن عدة لغات أجنبية إضافة إلى حاجتها لمن يعرف الحسابات المالية الدقيقة ، والقوانين التجارية العالمية ، فكانت الدولة تستخدم هؤلاء على حساب عدم توظيف الشباب العثماني المسلم الذين كانوا يبحثون عن العمل ولايجدونه. ولم يكن أولئك الأجانب من أهل الذمة على تمتعهم بما يسمى بالوطنية العثمانية

---

(١) دائرة معارف البساتي مادة "دمشق" .

(٢) انظر عبد الكريم غرايبه ، سورية في القرن التاسع عشر ص ١٢٩ .

(٣) انظر دور الكنيسة في هدم الخلافة . مرجع سابق ص ١٠٦.

يعملون بجد وإخلاص بل كانوا يفشون أسرار الدولة إلى أعدائها من الدول الأجنبية ، وكانوا في معظمهم عملاء تلك الدول الصليبية .

إضافة لتلك الوظائف الحكومية أصبح اقتصاد البلد في أيدى هؤلاء اليهود والنصارى. نظراً لسيطرتهم على التجارة والصناعة والتي تمثل أهم المجالات الإقتصادية في البلد، وهذه السيطرة نتجت على يد من تخرجوا من المدارس الصناعية والتجارية المنشأة من قبل الأجانب فأصبح أبناءهم صناعاً وتجاراً ، ووصلوا إلى وضع اقتصادي واجتماعي مرموق حيث اقتصرت المؤسسات الإقتصادية في الدولة العثمانية على الأجانب والمتقنين للغات الأجنبية وخاصة في القرن التاسع عشر الميلادي .

وأصبح دخول المدارس الأجنبية الوسيلة للحصول على هذه المؤسسات الإقتصادية والتجارية على مافيها من سموم [١] ( كما سيأتى تفصيله في مبحث دور أهل الذمة في نشر الأفكار الهدامة عن طريق المدارس، فقد كانت تركز على جانبين مهمين على وجه العموم المواد التجارية واللغات الأجنبية ولا أقول لغة واحدة فحسب بل عدة لغات في وقت واحد . ويسعون من وراء ذلك إلى هدفين أساسين :

**أولا** : نشر اللغة والثقافة الاجنبية بين الشعب .

**ثانيا** : محاولة السيطرة على موارد الدولة نتيجة توظيفهم في كافة الدوائر الحكومية بكل يسر وسهولة .

ولذلك يقول الدكتور عبد الستار فتح الله في كتابه( الغزوالفكري والتيارات المعادية للإسلام):

( قلما تجد زعيماً وطنياً ممن تصدى لقيادة التغيرالإجتماعي ، إلا وهو

---

(١) مصطفى الخالدي وعمر فروخ : التبشير والاستعمار .

خريج هذه المدارس الأجنبية أو متزوج لخريجة منها ) [١] .

**عوامل التساهل من الدولة العثمانية :**

نتيجة مساهمة أهل الذمة والأجانب في تنشيط الحركة التجارية في كافة أنحاء الدولة العثمانية عاد على الخزينة المركزية بالأموال الوفيرة التي مكنت السلاطين من الإنفاق بسخاء على جيوشهم وحروبهم [٢]. وكانت الدولة تأخذ عليهم ضريبة تجارية بدأت ٢% وزادت إلى ٥% مما جعل التجار الأجانب يستاؤون من ذلك ، ولكنهم لم يلبثوا أن رضخوا، لأن أرباحهم من تجارتهم كانت وفيرة في دولة شاسعة الأطراف ، كثيرة الخيرات ، يسودها الأمن والطمأنينة على عكس بقية أنحاء أوروبا النصرانية، فأصبحت التجارة في الدولة العثمانية نداً لتجارة إيطاليا ذات الشهرة القديمة ، بل إنهم لم يلبثوا أن حلوا محلهم في أغلب المراكز التجارية بين الشرق والغرب.

وازدهرت صناعة المنسوجات القطنية في الأناضول ، وصناعة الأصواف في أنقرة والمنسوجات الحريرية في استانبول وبروسة . وأصبحوا هم المصدرين لتلك البضائع لكثير من دول أوروبا [٣] ، بل كانت ( بروسة ) خلال القرن الخامس عشر مركزا هاما من مراكز التجارة الفارسية بين فارس وأوروبا .

وللأسف ـ كما هو واضح من السياق ـ أن التجار المسيطرين على هذه الحركة النشطة هم من أهل الذمة ، وإن لم يكن كلهم منهم، ولكن جلهم من اليونانيين والفناريين خاصة فإن هذه الطائفة من الفناريين في وقت ضعف الدولة العثمانية في رغد في العيش بالإضافة إلى معاناة سكان اليونان في تلك الفترة من

---

(١) انظر د. سعيد عبد الستار فتح الله : العزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ط ١٩٧٧م ، ص ١٤٠.

(٢) محمد كمال دسوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ط ١٩٧٦م دار الثقافة بالقاهرة . ص ٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٦.

الفقر والفاقة .

كان الفناريون ورجال الكنسية الأرثوذكسية من اليونانيين المتمركزين في استانبول يعيشون في ثراء كبير ، ويتمتعون بالسلطة والنفوذ ، وأعلى المناصب في الدولة (١) .

وكان من مظاهر سيطرتهم على تجارة البلاد أن حيهم منذ عام ١٠١٠هـ - ١٦٠١ م أصبح المركز التجاري الأول ، يتجمع فيه اليونان أو الفناريون بالثروات الضخمة ، وأصبح منهم جباة الضرائب والسماسرة . وسيطروا على تجارة القمح بالبحر الأسود ولعبوا دوراً كبيراً في تجارة البحر الأبيض المتوسط(٢)

وكذلك حصل لهم بعد عقد معاهدة كارلوفيتر عام ١١١١هـ - ١٦٩٩م كثيراً من الانفتاح في التجارة مع البندقية والنمسا وغيرهما .

فعملوا - مرة أخرى - على نقل المواد الخام ، كالقطن ، والصوف والجلود من شبه جزيرة البلقان إلى وسط أوروبا .

وازدهرت أحوال التجار النصارى من رعايا الدولة العثمانة - أيضا - نتيجة المعاهدات الروسية العثمانية التي عقدت عام ١١٨٨هـ - ١٧٧٤م ثم عام ١٢٠٧هـ - ١٧٩٢م . ومن ضمن قراراتها أن يسمح لليونانيين رعايا السلطان العثماني برفع العلم الروسي على سفنهم ، ففتحت تلك المعاهدات مجالاً واسعاً أمام اليونانيين النصارى ومهاراتهم في ركوب البحر.

فانتشرت جماعاتهم وتجاراتهم في مقاطعات جنوب روسيا، التي غمرتها منتجات اليونان من الفاكهة والنبيذ والصابون ، والزيوت ، فكون التجار ثروة طائلة من نقل تجارة القمح للروس الآخذة في الازدهار بسرعة هائلة . وكان رفع العلم الروسي يسهل لهم كثيراً في البحر الأسود والسيطرة على الدردنيل

---

(١) محمد كمال دسوقي : المرجع السابق ص ١٢٧.

(٢) دسوقي ص ١٢٢-١٢٣ نقلاً عن وليام ميلر ص ٥٧ -٦٠ .

والبوسفور.

تبع ذلك قيام الجمعيات اليونانية في مختلف الموانئ الروسية على البحر الأسود [١].

هذا عن السلع الاستهلاكية ، إلا أن حرص كثير من أهل الذمة لم يقتصر على هذا النوع من التجارات بل زاد إلى محاولة السيطرة على العقار ، وامتلاك الأراضي الشاسعة، مقابل مايسيطرون عليه من نقد ونفوذ على الولاة ففي أوائل القرن العشرين أي بعد عام ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م ، تضاعف نشاط اليهود في بلاد الشام ، وغرب نهر الأردن خاصة ، حيث تملكوا مائة ألف دونم وثلاث مستعمرات ( زمارين ، خضيرة ، وعتليت ) وفي فضاء حيفا واشتروا أم العلق وبديكة والمراح وزكور بيدوس وغيرها من الإقطاعيين ، وكان لهم نفوذ كبير لدى السلطات المحلية ، فكان لهم ممثل في مجلس إدارة حيفا واستطاعوا أن ينقلوا الموظف الذي لايسايرهم .

* وقد بلغ حجم نفوذهم الأرقام التالية : بلغ عددهم قبل الحرب العالمية الأولى في طبريا ٤٢١٠ يملكون ١١٤ ألف دونم أي أكثر من ثلث مساحة الفضاء، أما في صفد فقد ازدادوا إلى أكثر من ستة الآف وسيطروا على تجارة الفضاء واشترى الوالي العثماني من آل سرسق عشرين قرية من قرى الناصرة ومرج بني عامر، ومساحات واسعة من الأراضي الزراعية التي كانت تملكها الحكومة بين عامي ١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م و ١٢٨٩هـ ـ ١٨٧٢ م وشرع ببيعها لليهود .

وباع سرسق عام ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م القولة إلى اليهود بمبلغ عشرين ألف ليرة عثمانية نفس المبلغ الذي دفعه سرسق ثمناً للسبعين ميلاً التي اشتراها من الحكومة ، وحاول قائم مقام الناصرة شكري العسلي أن يقف في طريقة البيع

(١) انظر محمد كمال دسوقي : المرجع السابق ( ص ١٢٦ - ١٢٨ ).

ولكن والي بيروت وافق عليه [١] .

*** من الآثار السلبية لتلك السيطرة التجارية لأهل الذمة :**

كان من أهم الآثار السلبية لتلك الثروة الطائلة بأيدى اليونان على الصعيد الداخلي للدولة العثمانية ـ أمران مهمان :

أ ـ تشجيع وتمويل المشاغبين من الخارجين على السلطان من أهل الذمة في الصرب وغيرها .

ب ـ التأثير على أصحاب المناصب والتدخل في شئوون الدولة الخاصة والعامة بالاعتماد على ثرواتهم ورشاويهم ، وتعيين من يشاؤون من موظفين في الدولة يخدمون لهم مصالحهم ويكونون عوناً لهم عند الحاجة في المستقبل .

يضاف إلى ذلك أن هذا الاستقرار الإقتصادي الذي كان ينعم به اليونانيون قد ساعد في ظهور طبقة وسطى جديدة أحيت نهضة فكرية نشطة كانت جواً مناسبا لقيام الحركة اليونانية التي أدت إلى قيام الثورة اليونانية فيما بعد ، والمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية .

ماسبق من الملحوظات كان على الصعيد الداخلي للدولة والذي كان من أبرز ثمراته الثورة اليونانية في القرن التاسع عشر رغم ماكان ينعم به أهل الذمة في تلك المقاطعة من الرخاء وما تتمتع به من الثراء عند الكثير منهم ، ولم تكن أبدا تعاني من الفقر كما يحاول بعض المؤرخين المستشرقين أن يصوروها ، ولم تكن هناك حالة بؤس وشقاء تحت نظم الحكم العثمانية أدت بهم إلى الثورة التي نشبت في سنة ١٢٣٧هـ مارس ١٨٢١ م بل العكس هو الصحيح .

إن بلاد اليونان تمتعت برخاء لم تعرفه كثير من دول أوروبا الغربية في ذلك الحين وهذا الرخاء كان جواً مناسبا ـ كا سبق ذكره ـ تمت فيه الحركة الوطنية

---

(١) أسعد منصور : تاريخ الناصرة ، ط القاهرة ١٩٤٢م انظر ص ٢٨٦ ـ ٢٨٨.

اليونانية التي أدت إلى قيام الثورة والمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية . وتبع ذلك تدخل من الدول الكبرى بشئوون رعايا الدولة من النصارى .

أما عن أثر ذلك على النظام الإقتصادى فإن ذلك يظهر جليا في إضعاف وجود التجار الفرنسيين ـ الذين كانت لهم السيادة في شواطيء الدولة ـ في الموانيء العثمانية وإنهاء وجودها تماماً من الموانيء اليونانية وكذلك بقية التجار من غرب أوروبا .

وكذلك إضعاف وجودهم في تجارة الشرق الأدنى [(١)] .

وهذه الهزة الإقتصادية لدول أوروبا من قبل التجار اليونان لم تكن مما يستهان به، بل قد وصل حجم الأسطول التجاري اليوناني في عام ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م إلى رقم ضخم لم تعرفه أوروبا من قبل ؛ فقد امتلك التجار اليونانيين ٦١٥ سفينة ، عليها ٨٧٨ مدفعاً لحراستها ، وتبلغ حمولتها أكثر من ١٥٣ ألف طن ويعمل بها أكثر من ٣٧ ألف بحار[(٢)].

**ثانيا : في مجال الترجمة لأهم الوزراء :**

**عرض سريع لتشكيل الحكومة وتوزيع المناصب الكبرى في الدولة** : كان هناك " الديوان الهمايوني "كما يسمى في الدولة أو الديوان ، ويشبه بعض المؤرخين والمفكرين هذ الديوان في الدولة بمجلس الوزراء في العصر الحاضر .

وكان يرأس هذا الديوان السلطان نفسه ـ وهذا إلى فترة السلطان سليمان ـ فقد كان الخليفة بنفسه هو الذي يقوم على شؤون الدولة الداخلية والخارجية ومنها رئاسة الديوان إلى أن تغيرت هذه العادة الحسنة بعادة سيئة سار عليها الخلفاء من بعد السلطان سليمان .

---

(١)انظر مزيد من التفصيل الشناوي ومحمد كمال دسوقي :أوروبا في العصور الوسطى مرجع سابق ص ١٢٦ـ ١٢٩ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٩ .

وأصبح الذي يرأس الديوان أو مجلس الوزراء ، الصدر الأعظم ، ويتفرع عنه بقية الوزراء وكان أشهرهم ـ أى الوزراء :

ـ الريس أفندي .

ـ النشانجي باشا .

ـ كخيا بك .

ـ الباش دفتر دار .

ـ الدفتر أميني .

والمنصب الذي سنتحدث عنه هو : الريس أفندي .

كان منصب أو مركز الريس أفندي متواضعاً نسبياً بالنسبة لباقي الوظائف الكبيرة إلا أنه ترقى في المراتب والمنزلة إلى أن أصبح في مقام يوازي في وقتنا الحاضر منصب "وزير الخارجية "وكان ينوب عن الصدر الأعظم " الوزير الأول " في حالة غيابه [(١)] . وقد ظهر الاختصاص الأخير والذي ذكرت أنه يوازى منصب وزير الخارجية وهي أعلى مرتبة توصل إليها الريس أفندي في عصر متأخر ، عصر الامتيازات وإنشاء القنصليات والسفارات الأجنبية والمفاوضات مع السفراء غيرهم .

وكان الصدر الأعظم ـ أول الأمر ـ هو الذي يقوم بإجراء المفاوضات واستقبال أعضاء البعثات الدبلوماسية والتفاوض معهم . ولما تزايدت أعباء الصدر الأعظم ، وانعزل أكثر السلاطين عن الحياة العامة ومهام الدولة ، وانصرفوا إلى شهواتهم وملذاتهم وأحيلت مسائل السياسة الخارجية إلى الريس أفندي ـ والذي هو في أصله من طبقة القولار ( العبيد ) ـ !! الذين ينحدرون من أصول صليبية .

(١) انظر فيما سبق الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ص ٣٧٣.

وقد استعان هذا الريس أفندي بجهاز متكامل من الخبراء والمترجمين - الذين كانوا يزودونه بكافة المعلومات السياسية والتاريخية والإجتماعية والدينية عن الدول الأجنبية، كذلك كان المترجمون يتولون ترجمة المذكرات التي تبعث بها السفارات الأجنبية في استانبول إلى اللغة التركية وبالعكس [١] .

وكان هؤلاء المترجمون حتى أواسط القرن العاشر الهجري السابع عشر الميلادي (أي قبل ذلك بفترة) من أصل أوروبي !! اعتنقوا الإسلام أو تظاهروا به .

ومنذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري الثامن عشر الميلادي استعانت الدولة بمترجمين من عائلات يونانية، والذين كانوا يعرفون بالفناريين . وقد كانوا على حظ موفور من العلم والثقافة ، وسعة الأفق العقلي ، والثراء وتمتعوا بعراقة الأصل وكرم المحتد ) [٢] .

كان هؤلاء الفناريون عائلات عريقة تتمثل فيها ارستقراطية المال والثقافة والجد الأصيل يسكنون حي الفنار باستانبول .

وكان رئيس أهم ملة غيرإسلامية في الدولة العثمانية - وهم أتباع الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية اليونانية - من هؤلاء الفناريين ، ومقره في استانبول ، ويسمى (البطريرك) [٣] ، ومع دراية الدولة بأصلهم ، وخطرهم :

كانت الدولة تؤثرهم بالتعيين في المناصب الكبرى التي تحتاج إلى خبرات خاصة في الباب العالي،وتختار من بينهم الأميرين اللذين كانا يحكمان ولايتي الدانوب تحت السيادة العثمانية) [٤].

---

(١) انظر الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ص ٣٧٣ - ٣٧٦.

(٢) المرجع السابق ص ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) المرجع السابق ج١ ص ٦ . ولمزيد من التفصيل انظر دائرة المعارف الاستشراقية .

(٤) الشناوي : نقلاً عن وليام ميلر ص ٢٥ - ٢٧.

فلو قارنا بين موقف الدولة ونظرتها إلى النصارى - أمثال هؤلاء الفناريين وإعطائهم صلاحيات ومناصب هي من أخطر المراكز في الدولة ، والتي تؤثر على سير علاقتها ومواقفها مع أعدائها في أوروبا خاصة ، وبين موقف أعدائها الصليبيين منها ، نلاحظ مدى الحيطة عند الكفار والغفلة التي يتقلب فيها المسلمون .

بل ومواقف الدولة المخزية المتأخرة من دعاة التوحيد على يد عاملهم (محمد علي باشا) والي مصرفي ذلك الوقت، وتوجيهه إلى ضرب دعوة التوحيد في أرض الجزيرة العربية.

إن هذا الاعتماد على مترجمين من النصارى لم يكن من سمات عصر الضعف فقط ، بل منذ وقت مبكر من بداية علاقات الدولة الخارجية وهي معتمدة على النصارى .

فقد كانت المكاتبات السياسية التي يرسلها السلطان محمد الفاتح من ديوانه إلى الغرب وكذلك المعاهدات التي يعقدونها معه تكتب باللغة الرومية وبالطبع كان الكتبة الروم هم الذين يكتبون هذه الرسائل وتلك المعاهدات [١] .

وقد كانت الكنيسة حريصة على تثقيف ابنائها الثقافة اللازمة لتمكنهم من الترقي في المناصب الحساسة والتي من أبرزها في ذلك الوقت الترجمة والخارجية .

فقد افتتحت البطريركية مدرسة لتعليم مختلف اللغات الأجنبية ، وكان يدخلها الشباب الرومي ، ويقوم أمراء الفنار هؤلاء بإلحاق أولادهم بهذه المدرسة ويضمنون لهم تعلم عدة لغات . وكان هؤلاء الأولاد يتعلمون بجوار لغتهم - اللغات التركية - والعربية والفارسية بشكل متكامل . وأغلب أبناء الروم هؤلاء من حي الفنار المشهور الذي سبق الكلام عنه .. وفيه مركز البطريركية

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ، ترجمة د. محمد حرب ص ١٦.

الروحاني .

"في داخل البطريركية عديد من المناصب والمهام الناشطة ، نصفها ديني والنصف الأخر علماني .... إن هؤلاء المنتسبين للكنيسة الأرثوذكسية في حي الفنار وأصحاب الخدمات النصف دينية كانوا مرجعاً في شؤون الدولة العثمانية الداخلية والخارجية وفي الأمور العسكرية كذلك . وقد احتلوا وظائف في الديوان السلطاني بعملهم مع رئيس الكتاب وهو بمثابة وزير الخارجية .

وكان المترجمون في الديوان السلطاني يديرون العلاقات بين الصدر الأعظم ومساعده إلى رئيس الكتاب ( وزير الخارجية ) من ناحية وبين سفراء الدول الأجنبية من ناحية أخرى.

ونظراً لأن الأروام التابعين للكنيسة يمثلون كل مناصب أعمال الترجمة كليا ـ فمما لاشك فيه ـ وضوح ضخامة الدور الذي يمكن أن يلعبوه في مقدرات الدولة ويستطيعون احداث خطر حياتي في حالة خيانتهم (١) .

ولم يقتصر خطر ( المترجمين الروم ) على هذا القطاع الخطر ـ بل إن شرهم امتد إلى أغلب المجالات التي بحاجة إلى تراجمة فهذا الأسطول السلطاني كانت إدارة الترجمة فيه موكلة بكاملها إلى الروم، هذا الاعتماد شبه الكلي على الأروام في مثل هذه الوظائف الحساسة ـ وغيرها من الوظائف كما سيأتي ـ يعود إلى النظرة البريئة عند الدولة لهؤلاء الناس، حيث لم تفرق الدولة بين الروم وبين أولادها المخلصين بل إنها اختصت هؤلاء الروم بالمناصب الحيوية وأسندت إليهم الأعمال المهمة ولم تشك فيهم .

لانقول طوال الأعوام بل نقول طوال قرون، ومع أن فيهم من ظلَّ مخلصاً لصداقته وخدم الدولة بنزاهة واستقامة إلا أنه كان منهم وبكل أسف من

---

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ١٦ ـ ١٧

استخدم الثقة التي أولتها الدولة إليه استخداماً سيئاً ففيهم من خان الدولة، وهؤلاء يشكلون أغلبية الروم ـ والأمثلة على خياناتهم كثيرة جداً بل تكاد لاتحصى ـ من أهمها تحريفهم الترجمة على الوجه الذي يضر بالدولة.

ونذكر شاهداً على ذلك الحادثة التالية : «قبضت السلطات العثمانية على رئيس المتمردين في المورة وبعض رفاقه فوجدت معهم خطابات خطيرة، فأرسلت هذه السلطات الخطابات إلى الباب العالي . ولم يكن موظفو الباب العالي يعرفون اللغة اليونانية فأرسلوا هذه الخطابات إلى الديوان السلطاني لترجمتها . فقام المترجمون الروم بتأويل مافي هذه الخطابات وإخفاء حقيقتها، وبالتالي لم يفهم بعد مضمون هذه الخطابات بشكل قاطع، وقد اتضح هذا الموقف الخبيث الذى اتخذه المترجمون فلقوا جزاءهم» [(١)].

ومن النماذج والشواهد الدالة على خيانات أهل الذمة في قطاع الترجمة أيضاً، ماكان من (ديمتراشكو ) ترجمان الجيش ـ وهو من أتباع كنيسة الفنار أيضاً ـ كان يعمل جاسوساً لحساب روسيا على الدولة العثمانية [(٢)] .

كان من هؤلاء التراجمة من رقيَّ إلى مرتبة أمير ولاية مثل ابن الكساندر ماقروكارداتو ـ فقد رقيَّ إلى منصب رئيس تراجمة الديوان السلطاني ، ولما عين مديراً عاماً على إقليم الأفلاق عام ١١٢٣هـ ـ١٧١١م وجد أن الامراء المحليين قد انضووا حتى عام ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م تحت سلطة الروم ، وهكذا أصبح أمامنا ولاية عثمانية أخرى قد تردمت بواسطة أمراء كنيسة الفنار....... ولقد تحولت المملكتين ( البغدان والأفلاق ) إلى ضيعة لأتباع كنيسة الفنارإذا أدخلنا في حساباتنا أن مصدر متاعب الإدارة هو إدارة الترجمة لديوان السلطان، هذا غير أن شعب الأولاخ ـ (الأفلاق) كان عديم الصلة بالعرق الرومي اليوناني لكن

(١) المرجع السابق ص ١٨.

(٢) المرجع السابق ص ١٩.

مع ذلك خضع للسياسة الروحانية للبطريركية الرومية، لتدينه بالمذهب الأرثوذكسي.

للأسف الشديد لم تنتبه الدولة العثمانية إلى خطورة الدور الذي يمثله التراجمة إلا في وقت متأخر جداً . فأخذت بعض التدابير التي تداركت فيها أخطاء الماضي ـ ولكن بعد فوات الأوان .

والقشة التي قسمت ظهر البعير كما يقال ـ في حق التراجمة النصارى ـ مافعلته الدولة من تفتيش مفاجيء للبطريركية في استانبول فوقع في يد المسؤلين الحكوميين العثمانيين وثائق هامة وأوراق تحتوي على الاستعدادات السرية التي تقوم بها الدولة في بعض المسائل.

حصلت الكنيسة على هذه الوثائق من "أمراء الروم" هؤلاء التابعين لكنيسة الفنار. وكانت الأكثرية من هؤلاء متسمية بجمعية ( ايتريا ) وهي جميعة ثورية اسست بهدف العمل على استقلال اليونان ..... والواقع أن الدولة قد أخطأت عندما وثقت في كنسية الفنار ، وأخطأت كذلك عندما لم تخضعهم لتفتيشها ورقابتها على الدوام ولم تفهم الدولة خطأها إلا بعد وضوح الخيانة ........

هكذا كانت الدولة مضطرة لاتخاذ التدابير اللازمة ، فمنعت تعيين النصارى في إدارة الترجمة في الديوان السلطاني ، واستبدل بهم العثمانيون، فتم تعيين يحيى أفندي خليفة أول « يعنى رئيساً للكتبة » واسندت إلى يحيى أفندي مهمة تعليم اللغات الأجنبية المستخدمة بين الدول والشعوب .......

وافتتحت الدولة "فرقة الترجمة" في الباب العالي ـ يعنى مقر الحكومة ـ وخصصت الدولة راتباً شهرياً لهؤلاء الراغبين في تعلم اللغات من كتبة

الأقلام[١].

* **آثار الاعتماد على النصارى في مثل تلك الوظائف :** يعجب المؤرخون وبالأخص من يدرسون تاريخ الدولة العثمانية من منح تلك الدولة وهي في عصر قوتها وذروة مجدها في زمن السلطان سليمان لتلك الامتيازات الأجنبية لأعدائها من البندقية وبريطانيا وفرنسا وروسيا وغيرها والتي لاتصدر عادة إلا ممَّن غُلبَ على أمره أو ضيق عليه الخناق لضعفه ....

ويزول هذا العجب عندما ندرس جزءاً من الجهاز الإدارى للدولة الذي يسيطر عليه النصارى وهو وزارة الخارجية .

كان علي باشا ـ المقاوم للتمرد ـ إدارياً يقظاً وقوياً ، لهذا كان الأمن مستتبا، وكانت سلطته تحد من حركة الروم وتمنع تحركهم بسبب خوفهم منه ، مع أنهم أقاموا تنظيماتهم في كل مكان استعداداً للتمرد . وكان علي باشا يتعقب بدقة بالغة كل أنشطة الروم الخفية وجمعياتهم السرية ، وكان على علم بكل أهدافهم ووسائلهم ويرسل بذلك تقارير إلى الباب العالي مرفقاً مايذكره بالأدلة والوثائق.

وكان لابد عندهم من إزالة هذا المانع الذي يتصدى لهم وهو ( علي باشا)، وكانت وسيلتهم في هذا ( هالت أفندى ) الذي كان يعمل في إدارة المترجمين الفناريين ، وقد ترقى حتى وصل إلى درجة ( كتخدا الركاب السلطاني) .

وقد رأت هذه الجمعية أن صداقة ( هالت أفندى ) بالكنسيين الفناريين ذات قيمة كبيرة ولهذا ينبغي أن توظف لتطوير فاعليات هذه الجمعية حتى تكون شوكة في ظهر الدولة العثمانية ولتفتح لهم طريق التمرد ، وبالإضافة إلى صداقة

---

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ٢٢ ـ ٢٤.

(هالت أفندى ) للكنسيين الفناريين، كان مديناً لهم بدين .

أرسل علي باشا إلى الباب العالي وثائق خاصة باستعداد وفاعليات هذه الجمعية ، لذلك رأى الباب العالي ضرروة التحقيق في الأمر ، لكن الذى حدث أن كلف بتحقيق نشاطات الجمعية أحد تراجمة الديوان ويدعى ( موروزي ) ، وكان عضواً في الجمعية السرية . ولذلك كان تقريره يحتوي على مايلي :

"أن تبعة الدولة من الروم في بلاد المورة هادئة وهم موالون للدولة ، والموقف مأمون من كل نواحيه "[1] .

ومن النماذج أيضا على خبث التراجمة وتلاعبهم بالفرمانات والقرارات بما يتناسب مع أهدافهم ترجمان الديوان الهمايوني :

كان صدر فرمان بسبب وضوح فاعليات البطريرك في التخابر مع أهل المورة وغيرهم وضرورة عزله وقتله، ووقّت لتنفيذه يوم ٢١ إبريل ( يوم الأحد) وهو يوم العيد عند الروم، ثم صدر الفرمان لقاضي التنفيذ المتعلق بانتخاب واحد من الاثنى عشر بطريقاً مكانة ، وكان لصدوره - أي الفرمان - عدة أسباب، وسلم الفرمان لترجمان الديوان الهيمايونى ، فإذا أبقيت الصيغة على حالها ارتعدت الجماعة عند سماعها كلمة القتل ، وكذلك انتخاب بطريرك آخر قد أصبح مشكلة ، فيصحح كلمة ( قتل ) بكلمة (طيَ) ، ثم لابد من توجه (استافراكي ) بك إلى البطريركية، ويجمع جماعة "المتروبوليتان" ويقرأ عليهم الفرمان ، ويعمل على انتخاب المتروبوليث أو يانيوس بطريركيا .

**ثالثا : في مجال الاستشارة :**

نتيجة الامتيازات البيزنطية الوثنية وجاهلية القانون الروماني الاغريقي التجاري المالي عموماً التي كان يؤخذ ببعضها قبل فتح القسطنطينية على يد

---

(١) ثريا شاهين : دور الكنيسة في هدم الخلافة ص ٢٧ .

محمد الفاتح السلطان المسلم ، وضمن لليهود في بلاده العثمانية الإسلامية تلك الامتيازات ، بل وسنَّ لهم أحكاما خاصة بهم ، ووفرت لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة وتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الإسلامية .

كان أهل الذمة داخل الخلافة الإسلامية على هذا الوضع الامتيازى الخارج عن شرع الله ، فقد عيَّنهم الخلفاء مستشارين في بلاط الخلافة ومجالس الحكم ومرافقه الأخرى، وقد مر الكلام عن تشكيل ذاك المجلس المختلط من مسلمي ونصارى الجزيرة وعين فيه والٍ نصراني على الجزيرة بتصديق من الباب العالي .

وبعد أن تحولت الدولة إلى نظام المشروطية ( الدستور ) أصبح وجود أهل الذمة في تلك المراكز الحساسة ظاهراً . ( أقصد نواباً في البرلمان ، ومستشارين )

فقد أقامت الدولة العثمانية حصناً للطوائف المختلفة في الدين ووفرت الحماية لهذه الطوائف بل وهيأت لها ظروفاً معيشية أفضل من تلك التي وفرتها للمسلمين . وبعد أن تحولت الدولة إلى نظام المشروطية (الدستور) جعلت من أهل الذمة نواباً في البرلمان العثماني ، وأتاحت لهم فرصة إبداء آرائهم بكل سماحة وسعة صدر . على الرغم من جهود الدول الكبرى في تأليب أهل الذمة على الدولة [١] .

**رابعاً : في مجال الحريم السلطاني :**

المتصفح لتاريخ الدولة العثمانية ومن يمعن النظر بجدية في تاريخها تواجهه مشكلة هي من أصعب المشاكل للغاية في تاريخ الدولة ، وهي مسألة الحريم السلطاني ومايتعلق بداخل القصر من شؤونهن ، وذلك نظراً لقلة المادة العلمية عنه ، إذ كان الحريم السلطاني بكل فئاته وهيئاته يعيش وراء الأسوار العالية

---

(١) راجع ترجمة الدكتور محمد طلعت حرب ترجمة خاصة ص ٢١٨ من الأصل : الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة في الدولة العثمانية من سنة ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م ، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م .

بعيدا عن العامل الخارجي ، مما يصعب على المؤرخين الوصول إلى أخبارهم .

ومن أشهر وأبرز من كتب عن تاريخهم المؤرخ دوسو[١] ( Dohssa ) في كتابه الشهير عن تاريخ الدولة العثمانية والذي يقع في سبع مجلدات ، والذي أشبه مايكون بموسوعة في تاريخ الدولة العلية .

فيقول في كتابه أنه لقي مصاعب جمة في الوقوف على مادة علمية موثوق بها عن هذا الموضوع، وأنه اتصل بعدد من زوجات السلاطين اللائي غادرن القصر بعد وفاة أزواجهن ، كما اتصل بالفتيات اللاتي سبقت لهن الإقامة في القصر ثم حررن وتزوجن ، وأنه قدم لهؤلاء وأولئك الهدايا الثمينة لإغرائهن على تزويده بالمعلومات .

وهذا الرجل قد عكف في استانبول سنوات طويلة قرابة الثلاثين سنة على جمع مادة كتابه هذا[٢] .

*** المحافظة على الحجاب الشرعي لكافة نساء الحريم السلطاني .حرائر وجواري :**

كانت منطقة الحريم تحاط بأسوار عالية تقوم عليها حراسة مشددة ، ويقصد من ذلك عزل النساء عن أي رجل أجنبي غير السلطان .

وعدم اختلاط الرجال بالنساء من الأمور التي أوجبها الإسلام وحذر من مخالفتها ، وكانت المجتمعات في ذلك الوقت مجتمعات إسلامية محافظة . ومن أبرز سمات التمسك بالشرع الحنيف ذلك الوقت احتجاب النساء والعثمانيون لم يأتوا بجديد في هذا الصدد بل التزموا حكماً شرعياً ثابتاً بالكتاب والسنة ـ ونذكر مثلاً يدل على صرامة السلطان في أمر الاحتجاب لنساء القصر ـ تلك الحادثة التي

---

(١) هذا المؤرخ لايسلم له كل مايقوله فحقده وعداؤه لله وللعثمانيين خاصة وللإسلام عامة ظاهرة في كتاباته ولكن مثل هذه الأخبار ينقلها عنه غيره ممن كتب عن الدولة حتى من المسلمين . ( ولاتخلو من مبالغات كما ذكرت ) .

(٢) انظر الشناوي : المصدر السابق ص ٥٩ .

حصلت في عهد السلطان مراد الرابع (١٠٣٣هـ - ١٦٢٣م ، ١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م) .

( حيث تجرأ أحد التجار البنادقة من جمهورية البندقية ، وحاول أن ينظر من بعد إلى أجنحة الحريم السلطاني - واستخدم نظارة تقريب المسافات - وسرعان ما اكتشف أمره وهو يقوم بمحاولته. فأمر السلطان بشنقه فوراً .

وتكررت المحاولة بعد ذلك وقام بها أرمني يعمل ترجماناً ( مترجماً ) للسفير الفرنسي في استانبول ، وألقت السلطات العثمانية القبض عليه ، وأسرعت بشنقه قبل أن يتدخل السفير الفرنسي[1].

*** من أهم المراكز في الحريم السلطاني" زوجات السلطان " :**

كانت الغالبية العظمى من السلاطين تأخذ بمبدأ التعدد لأغراض سياسية في الغالب وكانت هؤلاء الزوجات أميرات مسلمات ونصرانيات ،ولدن حرائر ، فلم يقعن في حياتهن في الأسر .

وحافظ السلاطين السبعة الأول [2] على قضية الزواج من الحرائر والاقتصار على أربع، إلا أنه كانت هناك بروتوكولات خاصة في تنظيم الزوجات ومراكزهم في الدولة لاعلى أساس المساواة المطلقة بين الزوجات ، فالتي تنجب ابنا تميز عن التي تنجب بنتا ، ويتبع هذا التميز تميزاً آخر في المخصصات المالية التي ترصد لكل سلطانة .. وهذا كله بغض النظر عن كون الزوجة مسلمة أو كتابية أجنبية وهذا ليس من الإسلام في شيء بل هو من عادات الجاهلية التي حاربها الإسلام .

وقد عمد كثير من السلاطين إلى الزواج من الكتابيات الأجنبيات ،

---

(١) نقل هذه الحوادث الشناوي : المرجع السابق ص ٥٦١ . نقلاً عن دوسوا .

(٢) السلاطين السبعة الأول هم : عثمان ، أورخان ، مراد الأول ، بايزيد الأول ، محمد الأول ، مراد الثاني ، محمد الفاتح .

ونقصد بهن على وجه الخصوص النصرانيات اللاتي لم تكن من رعايا الدولة العثمانية .

وبدأت هذه الظاهرة منذ بداية الدولة العثمانية على عهد عثمان الأول (٦٨٨هـ - ٧٢٦هـ) فقد رأى أن الدولة تحيط بها كيانات سياسية إسلامية ونصرانية معادية تتربص بالدولة الدوائر وأراد تجنيب دولته أو إمارته مواجهة حربية لايستطيع في ذلك الوقت مواجهة أو ممارسة سياسة التوسع الإقليمي المرحلي التي يتطلع إليها ، فلجأ إلى وسائل متعددة لهذه الغاية ، منها : مصاهرة الدول أو الكيانات السياسية المجاورة أو المتاخمة وهذا يعد في وقته أفقاً سياسيا يقر عليه إذا كان منضبطاً بضوابط من المصلحة ، والشرع ، وتقديم الأولى فالأولى، ولكنه استغل اسغلالاً سيئاً فيما بعد .

**نماذج لزوجات صليبيات للسلاطين العثمانين** : أول هذه النماذج رأس الأسرة العثمانية - الذي تنسب إليه الدولة - السلطان عثمان الأول ، حيث أخذ لنفسه زوجة نصرانية من بيليفيا .

وكذلك أخذ لابنه ( أورخان ) امرأة يونانية نصرانية ، وقد بقيت على نصرانيتها هي والأولى . وزوجة أورخان بن عثمان هذه أنجبت له ابنا تولى العرش من بعده أسماه السلطان مراد الأول ( ٧٦٠هـ - ١٣٥٩م ، ٧٩١هـ - ١٣٨٩م ) .

وقد حذا هذا السلطان حذو أبيه وجده ، فتزوج من ابنة ملك بلغاريا المسمى ( سيشمان ) بعد أن أبرم بينهما اتفاقاً إبان حصار العثمانين له في ( نيقوبوليس) على نهر الدانوب . ونص الاتفاق على دفع الجزية من الملك وأن يزوج ابنته للسلطان مراد .

وكذلك أخوه خليل بن أورخان بن عثمان ، عقد والده السلطان أورخان معاهدة مع امبراطور الدولة البيزنطية ( حنا باليولوج) سميت بمعاهدة

(سكوتاري ) قرر فيها أن يتزوج خليل ابن السلطان ابنة الإمبراطور وكانت تبلغ من العمر عشر سنوات فقط !

ولما تولى العرش السلطان بايزيد الأول ( ٨٠٤ هـ - ١٤٠٢م) أراد أن يجعل من دولة الصرب دولة حليفة كي تحجز بينه وبين دولة المجر، فتزوج من ابنة (ملك الصرب لازار) ابنته (أوليفيرا) وقد ينسب لأثار هذا الزواج أنه يسمح لابني الملك لازار (المقتول) أن يحكما الصرب خلفاً لوالدهما . وهذا حسب القانون الصربي بشرط أن يدينا له بالولاء، ويقدما له الجزية سنوياً ، وتقديم عدد من الجنود يشتركون في فرقة خاصة بهم إلى جانب الجيش العثماني .

واتخذ أيضا خطوات أخر لاسترضائها بجانب زواجه من اختهما أوليفيرا ، هذا عن السلطان بايزيد.

وسار السلاطين من بعدهم على النهج نفسه ( أي تفضيل الزواج من الكتابيات) - فهذا السلطان مراد الثاني (٨٢٤هـ - ١٤٢١م ، ٨٥٥هـ -١٤٥١م) قد تزوج من ( مارا ) ابنه أمير الصرب (جورج برانكوفيتش).

وممن تنبه لخطر هؤلاء النصارى في البلاط السلطاني السلطان محمد الفاتح بن مراد الثاني - الذي أمر بترحيل زوجة أبيه ( مارا) إلى موطنها الأصلي في الصرب؛ كي يأمن شر الدسائس التي قد تحيكها ضده في أوساط الحريم السلطاني .

إلا أنه لم يفلت من كيد طبيبه اليهودي الخاص - والذي دس له السم في طعامه وقتله به - (وليس ذلك مستغرباً على أهل الذمة ) .

ومن النماذج أيضاً امرأة يونانية كانت لاتزال على صليبيتها ، تزوجها السلطان أحمد الأول ( ١٠١٢هـ - ١٦٠٣م ، ١٠٢٧هـ - ١٦١٧م) ، وانجبت منه ولدين ، تربع كل منهما على عرش الدولة واحداً تلو الآخر - وهما : مراد الرابع ( ١٠٣٣هـ - ١٦٢٣م - ١٠٥٠هـ - ١٦٤٠م) ، وإبراهيم الأول

(١٠٥٠هـ ـ ١٦٤٠هـ ، ١٠٥٨هـ ـ ١٦٤٨م) وكان لهذه الأم الأثر السيء على الدولة ـ كما سيأتي تفصيله في حينه .

وكذلك من السلاطين البارزين الذين تأثروا بزوجاتهم أو جواريهم النصارى، السلطان الشهير سليمان القانوني ، وهو من أشهر سلاطين الدولة ، والذي بلغت الدولة في عصره أوج اتساعها وقوتها .

فكانت زوجته الروسية ( روكسلانة ) التي اشتهر عن السلطان افتنانه بها لدرجة أصبحت حديث المؤرخين .

**من الشخصيات البارزة : والدة السلطان** : كان بجانب زوجات السلطان ـ مسلمة أو نصرانية ـ وبجانب قاديناتهم ـ توجد في الحريم السلطاني سيدات لهن وزن وثقل إلى درجة يفقن الزوجات والقادينات في المكانة ، و أصبحن يشكلن مركز قوة خطيرة في الدولة ، وعلى رأس هذه الشخصيات : والدة السلطان، فكان أعلى مركز في الحريم السلطاني يمكن أن تسمو إليه سيدة في القصر ويطلق عليها : "سلطانة والدة" ، وكان السلاطين يكنون لأمهاتهم قدراً كبيراً من التبجيل ، ولايرفضون لهن طلباً ، بل يزيد نفوذها على جميع زوجات ابنها وجواريه .

**"بنات السلطان "** : وأثرهن لايكاد يذكر ، حيث كن يتلقين دروساً خاصة، ثم يتزوجن في مقتبل العمر من أحد وجهاء موظفي الدولة ورجالاتها، كالصدر الأعظم أو غيره من الوزراء الكبار.

**"قادينات السلطان "** : كان السلاطين الاول إلى السلطان محمد الفاتح يؤثرون الزواج من الحرائر تماماً ، إلا أن الذين جاؤوا بعد محمد الفاتح اطرحوا اطراحاً تاماً مثل هذه الزيجات ، واتجهوا إلى جواري القصر باعتبار الجارية ملك السلطان، له أن يطأها وينجب منها فتصبح أم ولد ويتمتع نسلها بالحرية ، وهي تعتق بعد وفاة السلطان .

وقد اكتفى كل من هؤلاء السلاطين بأربع جواري من جواري القصر ، وحرص كل سلطان من أولئك السلاطين على أن يرفع الجواري الأربع مكاناً عالياً بعد أن يعتقهن ويتغير وضع كل منهنَّ الاجتماعي ومركزها القانوني من مجرد جارية ملك يمين السلطان إلى سيدة يطلق عليها : "قادين" .

وكانت كل قادين تعيش بمعزل عن زميلاتها القادينات الثلاث الأخريات ولايرين بعضهن بعضا إلا في الحفلات . فكل قادين بمثابة سلطانة لها جناحها ومكانتها الخاصة . وإذا أنجبت ولداً للسلطان أطلق عليها "باش قادين" أي كبيرة القادينات ، وتصبح السيدة الأولى في القصر بعد والدة السلطان ، ويكون ابنها في العادة ولياً للعهد .

ماسبق يمثل نظرة سريعة عن مراكز بعض شخصيات الحريم السلطاني ونفوذهن على البلاط السلطاني وشؤون الدولة الخارجية والداخلية .

* **نفوذ سيدات القصر في شؤون الدولة** : قامت سيدات الفئة من الحريم السلطاني بدور خطير في توجيه السياسة العليا للدولة ، حتى أصبحن يشكلن أقوى وأخطر مراكز القوى للدولة على الإطلاق .

كن يعملن على اشعال الحرب بين الدولة وأعدائها سواء في أوروبا أم في آسيا ، وكن يتدخلن في شؤون الجيش وبخاصة القيادات العليا ، وكن يتدخلن في تعيينات كبار الموظفين أحياناً ، وفي ترقياتهم أحيانا أخرى ، وفي عزلهم أحياناً ثالثة . فلو أن الشخص المطلوب عزله ـ الصدر الأعظم ـ تدخلت السلطانة الوالدة لدي ابنها أو الباش قادين أو القادين لدي السلطان فيصدر الأخير فرمانا بعزله . أما إذا كان الشخص المراد إقالته يشغل منصبا تقل مرتبته عن مرتبة الصدر الأعظم تدخلت إحدى سيدات الفئة الأولى من الحريم السلطاني .

يقول المستشرق ( بوون ) في تعليقه على تسلل نفوذ الحريم في أجهزة الحكومة ... «إن كلمة واحدة تصدر عن قادين كانت تصنع الأعاجيب في معظم

الأحوال».

* **تلاعب النساء بالصدور العظام** : كثر تعاقب الصدور العظام في الفترة التي تبدأ في أول القرن الثاني عشر الهجري أواخر القرن السادس عشر الميلادي، فمثلاً وقع أثناء حكم السلطان مصطفى الأول المعروف باسم السلطان الأبله أو المعتوه ( ١٠٣٢هـ ـ١٦٢٢م ، ١٠٣٣هـ ـ ١٦٢٣م) أن تعاقب ستة صدور عظام مع أن حكمه لم يزد عن خمسة عشر شهراً أي بمعدل شهرين ونصف لكل رئيس وزراء .

وكانت الصدور العظام ـ في تلك الفترة ـ ضعاف الشخصية وذلك مترتب على ضعف أسيادهم من الخلفاء .

وكان يتم تعيين وعزل الصدر الأعظم وفقاً لرغبات سيدات الفئة الأولى في الحريم السلطاني ـ كما سبق وأن بينا .

ومن أبرز الشواهد على التأثير السلبي للنساء الصيلبيات في الدولة، قصة روكسلانة المشهورة، وهي روسية الأصل اختطفها تجار الرقيق من ذويها في بلاد القوقاز ، وكانت ابنة لأحد رجال الدين واسمه ( دي روجالينو) وباعوها للسلطان سليمان المشرع فألحقها بالحريم السلطاني ،واستهلت حياتها الجديدة في القصر كجارية، وكانت على حظ موفور جداً من جمال الخلقة والرقة وخفة الروح ورهافته . وكان يطلق عليها ( خورم ) وهي لفظة تركية معناها الباسمة ، أو ذات الوجه الباسم .

هام بها السلطان سليمان المشرع ، وبلغ حبه لها شغاف قلبه فأعتقها ، وانجب منها ذكوراً وإناثاً وارتفعت مكانتها طبقاً لقواعد البروتوكول من جارية إلى قادين .

وسيطرت على قلب السلطان وعقله معاً ، فأصبحت مستشاره الأول في شؤون الدولة، واحتجب في قصره ، لأنه كان لايطيق عنها بُعداً . وتخلى عن

قيادة الحملات الحربية ، وكان وجوده في ساحات الحرب يثير حماس الجنود ، واعتاد الانكشارية ألا يخرجوا للحرب إلا والسلطان يقود الحملة . وكانت أوروبا تدرك جيدا مدى النفوذ العريض والرهيب الذي كانت تتمتع به روكسلانة . وأجمعت آراء المعاصرين لها على أنها كانت السيدة الأولى في الدولة العثمانية ، وكانت تحنو لها جباه الجميع ، ويتضاءل أي نفوذ في الدولة أمام شخصيتها الطاغية وذكائها اللماح .

أرادت روكسلانة أن يكون ابنها الأمير سليم ولياً للعهد بدلاً من الأمير مصطفى ، وهو الإبن الأكبر للسلطان سليمان من زوجة أخرى شركسية . ودبرت روكسلانة مؤامرة محكمة لتحقيق أمنيتها . وكان أول خيوط هذه المؤامرة إفساد الجو العائلي بين السلطان وزوجته الشركسية . افتعلت مشادة كلامية مع ضرتها . وبدأت هذه المشادة بالمقارنة بين النشأة الأولى لكل منهما وتطورت المناقشة إلى الإشتباك بالأيدي .

واصطنعت روكسلاني الضعف وتركت ضرتها تنهال عليها ضرباً ولكماً ، وشدت شعر رأسها ، ونزعت بعضاً منه ، وتمادت الزوجة الشركسية فخدشت وجه روكسلانة بأظافرها بحيث أصبحت آثار الخدوش بادية على وجهها ، ونالت منها منالاً كبيراً ، وهذا ما كانت تبتغية روكسلانة .

واحتجبت عن السلطان على غير عادتها ، واستبد به القلق عليها . وأرسل يستدعيها ، فاعتذرت عن عدم الحضور إليه . وتكرر الاستدعاء والاعتذار . وفي آخر الأمر أرسلت إليه رسالة شفوية قالت فيها : أنها غير جديرة بالظهور أمام السلطان ؛ لأنها " لحم يباع ويشترى " ، وهي العبارة التي أطلقتها عليها الزوجة الشركسية .

وأصر السلطان على حضورها . فجاءته على استحياء وتظاهرت بتأثرها الشديد لما وقع لها من إهانات بالغة . وكانت الدموع تنهمر من مقلتيها ، وآثار

الخدوش والكدمات بادية على خديها . وكان شعرها غير منتظم . وقصت عليه ماحدث لها من زوجته الشركسية . وثارت ثائرة السلطان على الأخيرة . وقال إنها لاتستحق منه تقديراً . ونجحت حيلة روكسلانة في إفساد الجو بين السلطان وبين زوجته الأولى .

مضت روكسلانة بعد ذلك في تنفيذ حلقات المؤامرة . فنقلت الأمير مصطفى ولي العهد وابن غريمتها حاكماً على آماسيا كي يكون بعيدا عن استانبول مقر الحكم وعن مؤامراتها .

ثم التفتت إلى إبراهيم باشا الصدر الأعظم فطلبت من زوجها السلطان سليمان عزله من منصبه . وكان هذا الرجل الألباني من خيرة الصدور العظام على عهد السلطان سليمان وموضع ثقته التامة وتقديره العميق . وقد زوجَهُ السلطان من إحدى شقيقاته .

وكان يخرج مع السلطان في الحملات العسكرية في أوروبا وفي آسيا . وكان له دور بارز في الانتصارات الحربية على الدولة الصفوية في فارس وأكمل فتح اقليم آذربيجان ، واتجه إلى العراق وفتح بغداد في آخر عام ٩٤١هـ ـ ١٥٣٤م ، ودخلها السلطان سليمان في يناير كانون ثان ٩٤٢هـ ـ ١٥٣٥م ، وكان مع السلطان في إجراء المفاوضات مع الدول ، وكان على حظ موفور من العلم والثقافة والتدين وراعياً للشعراء والفنانين[١] العثمانين .

واستجاب السلطان لرغبة روكسلانة فعزل إبراهيم باشا الصدر الأعظم من منصبه . ولكنها لم تقنع بهذا العزل ، بل طلبت من زوجها قتله . وتم اغتياله في اليوم الخامس من شهر مارس ـ آذار ـ عام ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م وهو يدخل القصر السلطاني ليلاً ليتناول طعام العشاء على مائدة السلطان . ولم تشفع له انتصاراته وإنجازاته عند السلطان. وهكذا قتل الصدر الأعظم غيلة دون أن

---

(١) لعله يقصد به أصحاب الحرف .

يوجه إليه اتهام أو يقدم لمحاكمة .

وكان اغتيال إبراهيم باشا فرصة ذهبية لروكسلانة لإطلاق يدها في استكمال حلقات المؤامرة ووقع اختيارها بعد فترة على أحد الباشوات ويدعى رستم باشا ، اطمأنت إليه ليكون عونا لها في تحقيق حلمها بتعيين ابنها ولياً للعهد، وزوجته إحدى بناتها واسمها محرمة ، وطلبت من زوجها تعيينه صدراً أعظماً، حقق السلطان رغبة روكسلانة . وأصبح الصدر الأعظم ألعوبة في يدها تحركه كيف شاءت وأنى شاءت، وتحقيقاً لرغبتها واسترضاء لها، أغدق السلطان الكثير من الرعاية على صهره رستم باشا . وانتهز الأخير مصاهرته للسلطان ، فلجأ إلى وسائل الكسب غير المشروع طمعاً في الإثراء المحرم والسريع . وغض السلطان الطرف عن انحرافاته واستغلاله المشين لمنصبه الكبير ، فوضع يده على عدة قرى كبيرة من أملاك الدولة ، وأوقف على نفسه "التيمارات" وهي الأرض الزراعية التي كانت تعطى لطوائف من العسكريين طبقاً للنظام الإقطاعي العسكري .

ولما اشتعلت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية مرة أخرى عام٩٥٥هـ ـ ١٥٤٨م سنحت لها الفرصة التي طال انتظارها للتخلص من ولي العهد الأمير مصطفى ـ ويقال أن هذه الحرب قامت بإيعاز منها ـ ويقال في هذا الصدد أيضاً : أن روكسلانة كانت تتبادل مراسلات مع زوجة طماسب الأول (٩٣١هـ ـ ١٥٢م ، ٩٨٤هـ ـ ١٥٧٦م) شاه الدولة الصفوية .

واتفقت السلطانة روكسلانة مع رستم على إيغار صدر السلطان إيغاراً عنيفاً على ابنه وولي عهده الامير مصطفى ، فأدخل رستم باشا في روع السلطان أن ولي العهد يتآمر مع الفرس لتحقيق مآرب شخصية له ، ثم عاد فأبلغ السلطان أنه سمع الجنود الانكشارية يقولون : أن السلطان قد غدا رجلاً طاعناً في السن ووهن العظم منه بحيث لايستطيع أن يخوض المعارك ، وقد آن الأوان

للمناداة بالأمير مصطفى سلطاناً وتنحية والده رحمة به وشفقة عليه .

وقد فعلت هذه الوشاية فعلها، وأصبح الأب يتوجس خيفة من ابنه وولي عهده . وانتهى رأيه إلى ضرورة التخلص منه بقتله . ولكنه أراد أن يطمئن إلى سلامة الفعلة النكراء التي أزمع تنفيذها أولعله أراد أن يضفي عليها صبغة شرعية إسلامية.فعرض على شيخ الإسلام أبي سعود الموضوع بعد أن غير معالمه الشكلية واستطلع رأيه في هذه المسألة .

وقد عرضها السلطان سليمان المشرع على شيخ الإسلام بقوله : إنه كان في استانبول تاجر ثري ذومركز إجتماعي مرموق، وتطلبت تجارته أن يغيب عن العاصمة بعض الوقت . وعهد إلى عبدٍ له كثيراً ماأحسن إليه أن يشرف على أعماله ويرعى في ذات الوقت زوجته وأولاده في أثناء غيابه ، ورأى التاجر أن يبلغ زوجته وأولاده أنه عهد إلى هذا العبد برعايتهم في أثناء غيابه .

ولم يكد التاجر يغادر استانبول حتى سعى العبد لاختلاس أموال سيده وتدمير تجارته، وتآمر على حياة زوجته وأولاده . وخلص السلطان سليمان من هذه القصة الخيالية إلى سؤال طرحه على شيخ الإسلام ليجيب عليه : ماهي العقوبة العادلة التي يستحقها هذا العبد ؟ فأجاب أنه يستحق الاعدام .

يقول ليبر الأمريكي ـ الذي ذكر هذه الرواية نقلاً عن أحد سفراء الملك شارل الخامس في استانبول : إن هذه الفتوى التي صدرت عن شيخ الإسلام ـ سواء كانت تعبيراً حقيقياً عن رأيه في ضوء الشريعة الإسلامية أو أنه أصدر هذه الفتوى بإيعاز من رستم باشا أو من روكسلانة ، فإنها ـ أي الفتوى ـ جعلت السلطان سليمان يزداد تصميما على قتل ابنه وولي عهده الأمير مصطفى قياساً على أن خيانة الابن لوالده لاتقل في بشاعتها عن خيانة العبد لسيده التاجر في استانبول .

وبعث سليمان في استدعاء ابنه إلى أماسيا حيث كان يقيم السلطان مع

جيشه . وخشي أصدقاء الابن مغبة هذه المقابلة ونصحوه بعدم الذهاب إلى والده . ولكنه رفض وقال : إن طاعة الوالدين أمر يفرضه الدين . وأنه لم يرتكب عملاً يخشى منه غضب والده ، وأنه إذا قتله فهو على كل حال والده وهو الذي أتى به إلى هذه الحياة .

ولما دخل الابن على أبيه في خيمته أعطى الأخير إشارة معينة ، فانقض عليه ثلاثة من الجلادين وقتلوه . وكان ذلك في اليوم الحادي والعشرين من شهر سبتمبر ـ أيلول ـ عام ٩٦١هـ ـ ١٥٥٣م [١] .

**خامساً : في بعض الوظائف والمراكز الأخرى :**

* نماذج لبعض المراكز والتي كانت تعد ثانوية بالنسبة لما قبلها عند الدولة خاصة :

**١ـ إنشاء المطابع** : كانت أول مطبعة ظهرت في استانبول في عهد السلطان بايزيد (٨٨٦-٩١٨هـ) (١٤١٨ - ١٥١٢م) على يد اليهود بعد مجيئهم من الأندلس بفترة، غير أن الحكومة العثمانية لم تأذن لطباعة الكتب العثمانية والعربية خوفاً من إحداث تحريفات فيها إذا ماحدثت أخطاء مطبعية [٢] .

وفي عام (٩٧٥هـ ـ ١٥١٧م) و (عام ١٠٠٦هـ ـ ١٦٩٧م) أنشأت البطريركية الأرمنية في اسطنبول مطبعة على يد أرمني يدعى ( آبكار ) بعد ذهابه إلى إيطاليا وتعلمه فن الطباعة فيها ، وكانت تهتم بطباعة الكتب الدينية

---

(١) هذه القصة لنا معها عدة وقفات خارج نطاق بحثنا من أهمها : اهتمام المستشرقين أمثال هذا اليهودي أو الأمريكي ليبر بخبار الفتن وإظهارها ، وكتابة سيناريوهات كما يقال تحيك كذباتهم . انظر تفاصيل هذه الرواية عند : الشناوى : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها .

(٢) وقد سبق بيان فتوى شيخ الإسلام في ذلك الحين بمنع طباعة القرآن والحديث حفظاً لها من التحريف لما كان له الأثر السلبي الواضح في تأخر الحركة العلمية بين المسلمين ، وتقدم الثقافة على اختلاف مشاربها بين غيرهم .

والتعليمية ، والتاريخية الأرمنية .

ثم من بعدها أنشئت مطبعة على يد الأقلية الرومية في اسطنبول عام (١٠٣٧هـ ـ ١٦٢٧م ) على يد الراهب ( نيكوودمس متاكساس ) وكان أول كتاب طبع فيها يتحدث عن اليهود، وكل هذه المطابع وهذه السنين والدولة صاحبة السيادة لم تفكر بعد بإنشاء مطبعة ينشر من خلالها الفكر الذي تريده أن ينشر بين رعاياها والأفكار والتي تتبناها ( إن وجدت) .

إلا أن الدولة وبعد طول غفلة لما رأت انتشار المطابع في اسطنبول وسرعه طبع الكتب ، أحدثت مطبعة على يد إبراهيم متفرقة عام (١١٤٠ هـ ـ ١٧٢٧م)، وكان هذا متفرقة ( مولد في كوزفار المجرية ) ، ولما نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والمجر عام ١١٠٤هـ ـ ١٦٩٢م أُسر من قبل الدولة العثمانية ، فأعلن إسلامه ، وتعلم اللغة التركية ، ودخل في كثير من المعاهدات المعقودة بين الدولة العثمانية وغيرها ممثلا ترجمان الباب العالي[1] ، حاله كغيره كثير ممن هُم على هذه الشاكلة ممن اعتمدت عليهم الدولة في أدق وأهم المراكز .

فقد أذنت الدولة ( لمتفرقة ) هذا بفتح مطبعة شريطة عدم طبع الكتب الدينية ـ خشية التحريف كما سبق ـ وبعد موت منشئها تعطلت المطبعة ثم استأنفت عملها عام ١١٩٨هـ ـ ١٧٨٣م [2].

ثم تتابعت بعد ذلك المطابع فأنشأت السفارة الفرنسية في اسطنبول مطبعة ـ كانت تطبع الكتب باللغة العثمانية وتصدر جريدة استطنبول الفرنسية ، والكتب الفرنسية اللغوية التى تدرس فى مدارسها .

وما سبق ذكره من نشأة المطابع في الدولة على أيدي أهل الذمة في الغالب

---

(١) انظر نيازي بيركز : ص ٧١٥ ـ ٧٣٧.

(٢) انظر لويس شيخوا : فن الطباعة في اسطنبول ، مثال في مجلة الشق العدد ١ السنة الثالثة سنة ١٩٠٠م ، ص ١٧٤-١٨٠.

في بيان سيطرتهم على هذا الميدان . وسيأتي معنا مبحثاً خاصاً بالمطابع عند الحديث عن صحافة أهل الذمة .

**٢ــ الدخول إلى وظائف الدولة عن طريق الجمعيات الماسونية** : لقد استطاعت المحافل الماسونية في الداخل والخارج بمساعدة يهود العالم والدول الاستعمارية أن تدس يهود الدونمة ( والذين كانو يستوطنون سلانيك ) في جميع المراكز الحساسة في كيان الدولة تمهيدا لاحتوائها ومن ثـمَّ قلب نظامها رأساً على عقب، فلا عجب أن أصبح فيهم جيل الوزراء والنواب وقادة الجيش وكبار الموظفين والمسؤولين .

ولعل استقراءً سريعاً لأسماء بعض هؤلاء القادة والنواب من الموظفين من خلال مذكرات السلطان عبد الحميد تبين لنا مدى تغلغل يهود الدونمة بمساعدة المحافل الماسونية في الوظائف المهمة للدولة [١] .

يقول السطان عبد الحميد : " رأيت خطابا تسلمه أحمد جلال الدين باشا من علي كمال بك في مصر ـ وغالباً ما يكون هذا الخطاب بين محفوظات قصر يلدز ـ فيه أسماء ومصادر التمويل إسماً إسماً، وفي هذا الخطاب أيضا يذكر أن الدكتور عبد الله جودت ، والدكتور إسحق شكوتي والدكتور بهاء الدين شاكر والدكتور ناظم والدكتور إبراهيم تيمور ، ينتسبون إلى المحافل الفرنسية والإيطالية، حتى إن هذه المحافل أيضا تسلّم عائلاتهم الموجودة داخل البلاد النقود يداً بيد. هذا ماكتبه وأرسل معه الوثائق المؤكدة لهذه المعلومات " [٢] .

وقد قام هؤلاء اليهود عن طريق محافلهم الماسونية لنشر الجاسوسية ليس بين موظفي الدولة فحسب، بل إلى البيت العثماني ذاته ، من الوزارة التركية نفسها ـ ومعلوم كيف استطاعوا تجنيد مدحت باشا ـ الذى يعادل رئيس الوزراء

---

(١) دور يهود الدونمة في اسقاط الخلافة .

(٢) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة محمد حرب ، دار الأنصار ، القاهرة ١٩٧٨م ص ٦٠.

في وقتنا الحاضر ـ لتنفيذ مخططاتهم.

وقد كان لاتساع ممالك الدولة العثمانية أثره الكبير في انتشار الجاسوسية لصالح اليهود وحلفائهم من المستعمرين ، وقد دأب اليهود على وجه الخصوص على القيام بهذه المهمة .

إذ كانوا يحملون جنسيات أمريكية أو بريطانية أم روسية أو فرنسية وغير ذلك، ثم يغدون إلى البلاد الإسلامية بشكل ممثلين دبلوماسين أو مفاوضين فنيين أو ثقافيين أو مستشارين .

وكان أمثال هؤلاء ـ ينتشرون في السفارات ـ والبعثات الأجنبية ، ويعملون على استكشاف أسرار البلاد وتسخير من يجندونهم لخدمة أهدافهم وتذكية نار الفتنة والعداوة بين الطوائف ثم يلوذون بالسفارات الأجنبية يحتمون بها [١] . إضافة لحماية قانون الامتيازات لكل الرعايا الأجانب وتحريم مساءلتهم أو تفتيش دورهم أو فتح بريدهم أو بمن يتصلون ، وعلى أي شئ يجتمعون . لدرجة أن بطريركية الفنار وهي أكبر صرح يضم تحت لوائه أكبر طائفة غيرمسلمة في الدولة، اكتشف بالوثائق والبراهين أنها كانت مستودعات للأسلحة والذخيرة ومكان انشاء المنشورات المحرضة على الفتنة والخروج على الدولة [٢] .

تقييم لموقف الدولة العثمانية من تمكين أهل الذمة ـ لتلك المراكز والوظائف السابقة :

إن علماء الإسلام والمفكرين والمؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة العصيبة من تاريخ أمتنا المجيد ـ وماصاحبها من آلام الانهزامات أو أفراح الانتصارات كما هو في أول الدولة. يختلف تقييمهم لتلك الحوادث والمواقف

(١) دور يهود الدونمة في هدم الخلافة ص ٣٤.

(٢) ثريا شاهين : انظر دور الكنيسة في هدم الخلافة ، ترجمة محمد حرب ص ١٠٣.

التي كثيراً ماتكون أحادية المصدر وغير مستندة لشرع أو دستور في الواقع ، وإن كان الظاهر اعتمادها على الفتاوى الشرعية ، وبعض النصوص القرآنية التي قد يفهم منها تبرير مواقف الدولة من أهل الذمة في الداخل أو أعداءها في الخارج .

على رأس هؤلاء العلماء ـ محمد رشيد رضا رحمه الله ـ صاحب المنار حيث قال فى تفسيره الشهير باسم ( تفسير المنار ) عند الكلام في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [1] .

وهو ينتقد موقف الدولة في تساهلها في توظيف الأجانب ، مع إقراره بأن أصل الاستعانة بهم يقره القرآن الكريم ، ولكن بضوابط وشروط لم تفِ بها الدولة العثمانية، فإن الله جعل هذا النهي مقيداً بقيود من ظهرت لنا عداوته "لايألونكم" ، وهذا القيد الأول بمن كانوا في عداوة المؤمنين ، وهو أنهم لايألونهم خبالاً وإفساداً لأمرهم مااستطاعوا إلى ذلك سبيلا .

والقيد الثاني قوله عز وجل "ودوا ماعنتم" أي تمنوا عنتكم أي وقوعكم في الضرر الشديد والمشقة .

والقيد الثالث والرابع قوله تعالى "قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر" أي قد ظهرت علامات بغضائهم لكم في كلامهم ، فهي لشدتها مما يعوزهم كتمانها وعز عليهم اخفاؤها ، على أن مايخفى في الصدور أكبر مما يفيض على ألسنتهم .

ثم بعد أن فرغ من سرد تلك القيود بين أن الله لم يجعل أعداءً للمسلمين أبد الآبدين في كل زمان ومكان ، قال رحمه الله: جاءت الآيات مقيدة بتلك القيود لأن الله يعلم مايعتري الأمم وأهل الملل من التغير في الموالاة والمعاداة كما

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٨ .

وقع من هؤلاء اليهود، فإنهم بعد أن كانوا أشد الناس عداوة للذين آمنوا في أول ظهور الاسلام قد انقلبوا فصاروا عوناً للمسلمين في بعض فتوحاتهم (كفتح الأندلس ) وكذلك كان القبط عونا للمسلمين على الروم في مصر، فكيف يجعل عالم الغيب والشهادة الحكم على هؤلاء واحداً في كل زمان ومكان أبد الأبدين ؟

إن هذا مما تنبذه الدراية، ولاتروى غلته الرواية ،وإن أرجح التفسير بالمأثور ماقلنا[1]. ثم ذكر بعض الآثار التي أوردها بن جرير والتي تؤيد ماذهب إليه ...

ثم قال " ولو كانت هذه القيود للنهي عن استعمال المخالفين في كل شيء ومشاركتهم في كل عمل، لكان وجه العدل فيها ظاهراً ، وطريق العذر فيها ظاهراً، فكيف وهي قيود لاتخاذهم بطانة يستودعون الأسرار ويستعان برأيهم وعملهم على شؤون الدفاع عن الملة وصون حقوقها ومقاومة أعدائها ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾[2] .

ثم يذكر صاحب المنار مايتعلق ببحثنا في الدولة العثمانية وتقلد أهل الذمة فيها أعلى المناصب، ويعد ذلك مفخرة يفتخر بها أمام الغرب وأوروبا وهذه الظاهرة نلمسها كثيراً في شيخه محمد عبده وهي التأثربكتابات المستشرقين عن قسوة الإسلام وكبته للحريات ـ على حد زعمهم ـ فيقول بعد الآية السابقة محاولاً دفع هذه التهمة كرد فعل منه لتلك الإفتراءات:

---

(١) محمد رشيد الرضا : تفسير المنار ص٤ ص ٨٠ ـ ٨٢ .

(٢) سورة الممتحنة آية ٨ ، ٩ .

( هذا التساهل الذي جاء به القرآن هو الذي أرشد عمر بن الخطاب إلى جعل رجال دواوينه من الروم وجرى الخليفتان الآخران وملوك بني أمية من بعدُ على ذلك إلى أن نقل الدواوين عبد الملك بن مروان من الرومية إلى العربية، وبهذه السيرة وذلك الإرشاد عمل العباسيون وغيرهم من ملوك المسلمين في نوط أعمال الدولة باليهود والنصارى والصابئين ومن ذلك جعل الدولة العثمانية أكثر سفرائها ووكلائها في بلاد الأجانب من النصارى . ومن هذا كله يقول متعصبوا أوروبا : أن الاسلام لاتساهل فيه !! رمتني بدائها وانسلت " . إلا أن التساهل قد خرج عنه المسلمين عن حده حتى كتب الأستاذ الإمام في ذلك مقاله في العروة الوثقى صدرها بالآية التي سبق ذكرها [1] .

ثم بدأ بذكر ماذكره شيخه في العروة الوثقى من هذا التساهل .. فيقول " فعلى ولي الأمر في مملكتة أن لايكل شيئا من عمله إلا إلى أحد رجلين؛ إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق مُؤَمَّرة في نفوس المنتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التفاني في وقايتها من كل شأن يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والأديان، وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية، بل فاقت منزلته في القلوب منزلتها كالدين الإسلامي الذي حل عنده المسلمين ـ وإن اختلفت شعوبهم ـ محل كل رابطة نسبية فإن كل من الجامعتين " الجنسية على النحو السابق والدينية " مبدآن للحمية على الملك ومنشآن للغيره عليه ." أما الأجانب الذين لايتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطته مقام الجنس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لايهمه إلا استيفاء أجرته ثم لايبالي أسلم البيت أو جرفه السيل أو دكته الزلازل ، هذا إذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار مايأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر .

---

(١) تفسير المنار : ٤/ ٨٢ ـ ٨٦ .

فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق، وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا وسواء راعوا الذمة أو خانوا !! ولو كانوا مع هذا كله يخدمون مقاصد لأممهم يمهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها .

كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية . لايجدون في أنفسهم حاملا على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والخيانة - ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأمم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خلقه وتصريفه لشئون عباده، رأى أن الدول في نموها وبسطتها ماكانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وماكان شيء من أعمالها بيد أجنبى عنها.

وأن تلك الدول ماانخفض مكانها ولا سقطت في هوة الإنحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها ، فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة .

"لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أُمراء الشرق، وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم حتى ولوهم خدمتهم الخاصة بهم في بطون بيوتهم بل كادوا يتنازلون لهم عن ممتلكاتهم في ممالكهم بعد مارأوا كثرة المطامع فيها لهذا الزمان وأحسوا بالضغائن والأحقاد الموروثة من أجيال بعيدة بعدما علمتهم التجارب أنهم إذا ائتمنوا خانوا ، وإذا عززوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة والتوقير بالتحقير، والنعمة بالكفران، ويجاوزون على

اللقمة باللطمة، والركون إليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة، والثقة فيهم بالخديعة".

" وما آن لأمراء الشرق أن يدينوا لأحكام الله التي لاتنقض ؟ ألم يأن لهم أن يرجعوا إلى حسهم ووجدهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث ودلتهم عليه الزرايا والمصائب " ؟

ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم بأيديهم وأيدى أعدائهم ؟ ألاأيها الأمراء العظام ما لكم وللأجانب منكم ﴿ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ ﴾(١) قد علمتم شأنهم ولم تبق الريبة في أمرهم ﴿ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا ﴾(٢) سارعوا إلى بناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم وأقبلوا عليهم ببعض ماتقبلون به على غيرهم، تجدوا فيهم خير عون وأفضل نصير، اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعو حكمته البالغة فيما أمركم ومانهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل إلى أسفل سافلين ، ألم تروا ألم تعلموا ، ألم تحسبوا ، ألم تجربوا؟ إلى متى إلى متى؟ إنا لله وإنا إليه راجعون !! "(٣) .

ولا يخفى ما في وجهة النظر هذه عند رشيد رضا من تمييع للأحكام الشرعية ينم عن طأطأة رأس وانهزامية أمام شوكة الأعداء الفكرية وخجلاً منهم في إظهار مثل هذا الحكم الصريح فقد وصف الله تعالى عموم اليهود والنصارى بقوله: ﴿ وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡ ﴾ .

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٢٠ .

(٣) رشيد رضا : تفسير المنار ج٤ ، ص٩٢ .

## المبحث الثاني

# الامتــيــازات الأجنبية

يقول الرسول ﷺ "بعثت بالسيف بين يدي الساعة..." (١) .

هذا الحديث وأمثاله من النصوص الشرعية التي تحث الأمة على نشر كلمة التوحيد بالجهاد" أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لاإله إلا الله .." [٢] .

"..........وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله" [٣] .

هذا المنهج وهذا الطريق طريق الجهاد والسيف كان هو مسلك الدولة وسياستها مع أعدائها وأعداء الدعوة من الصليبين والباطنيين ، منذ نشأتها وحتى عصر السفراء والمحادثات والمخابرات، والامتيازات الأجنبية، ونقصد بهذه الفترة فترة السلطان الغازي (سليمان القانوني) . (ففي ذلك العهد ابتدأت المخابرات بين ملك فرنسا والدولة العلية وذلك أن شارل كان ملك النمسا كان أيضاً ملكا لأسبانيا وهولاندا، وإمبراطورا لألمانيا وحاكما لجزء كبير من إيطاليا الجنوبية، فكانت أملاكه محيطة بمملكة فرنسا من جميع جهاتها إلا من جهة البحر، ولذلك سعى فرنسيس الأول ملك فرنسا إلى التحالف مع دولة آل عثمان على محاربة شارل كان ..... وسعي فرنسا أول الدول الصليبية الكاثولكية إلى التحالف مع الدولة العثمانية المسلمة يُظهرُ عدم تقدم الدعوة الإسلامية في أوربا !!) [٤] .

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند عن ابن عمر ٢/ ١٤٧ رقم ٢٠٩٣، ٢٠٩٤ . ط إحياء التراث بيروت .

(٢) البخاري ـ كتاب الإيمان رقم٢٥ ، مسلم ـ كتاب الإيمان رقم٢٠.

(٣) رواه الترمذي : كتاب الإيمان رقم ٢٦١٦ ( ط الكتب العلمية . ترقيم عبد الباقي ) ، ورواه ابن ماجه : كتاب الفتن رقم ٣٩٧٣ ( ط الكتب العلمية . ترقيم عبد الباقي ) .

(٤) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية . ص٨٣ : ٨٤ . ط/ دار الجيل .

وأرسلت فرنسا أول سفرائها لبلاط الخليفة في ٦ ديسمبر سنة ١٥٢٥م وقد قابله السلطان سليمان باحتفال زائد وأجزل له العطايا بعد أن عرض عليه السفير مطالب ملكه، ووعده السلطان بمحاربة المجر لحماية فرنسا ... [١] .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ التغيير ـ وللأسف ـ في سياسة الدولة في معاملتها لأعدائها من لغة السيف ـ أو الجزية أو طلب الدخول في الإسلام إلى المحادثات الدبلوماسية ، والموائد المستديرة ، وتبادل السفراء والسفارات، وبداية عصر الامتيازات الأجنبية والمشروطات ، فقاد إلى عصر الضعف مما سيأتي بيانه فيما يلي .

إن الكلام عن الامتيازات التي أعطتها الدولة العلية للدول الأجنبية ولرعاياها من أهل الذمة في الداخل من أصعب المسائل التي يقف عندها المحللون للتاريخ العثماني والدراسون له ..!!

وهذه الصعوبة ليست من حيث المعلومات والوثائق المتعلقة بهذه الامتيازات ومدى ثبوتها ،وما يتعلق بها من تفاصيل وبنود وتواريخ، فهذا كله أمر ظاهر لكل باحث ، ولكن المشكلة في تفسير هذا الحدث ، فمن قائل أنها كانت شبه انهزام من الدولة ، بحيث تزيد قوتها في التحالفات التي نتجت عن هذه الامتيازات ، وهذا بعيد جدا ، كما هو ظاهر من فترة السلطان سليمان خاصة ، حيث بلغت الدولة أوج اتساعها وقوتها في عهده وكذلك مما سيأتينا من صيغة المكتوب الذي أرسله لملك فرنسا.

ومن قائل إن هذه الامتيازات كانت تعبيراً عن نفسية الأتراك وسلاطينهم، خاصة من الكبر والبطر الذي كانوا يشعرون به، فقدموا هذه الامتيازات بمثابة فضل ومنة على الأجانب وإظهارا لمكانتهم العلية . وغيرها من التفسيرات ...[٢]

---

(١) انظر المرجع السابق : ص ٨٤ .

(٢) اقتباس من د.جميل المصري ( المشرف التاريخي ) .

والـذي أراه أن الامتيـازات الأجنبيـة مـرت بـثلاث مراحـل : قـد بـدأت الامتيازات منحة ثم تحولت إلى مطالب وحقوق ممن هـم في الخـارج لمـن هـم في الداخل، ثم أصبحت ضـغطا وانهزامـا واسـتعلاء علـى الدولـة وهـذا في عـصر انحطاطها وإرهاصات سقوطها .

وأسرد الآن أول خطاب أرسله السلطان سليمان القانوني إلى ملك فرنـسا حيث ينجلي فيه ما ذكرتـه مـن أسـباب الامتيـازات أو الـسبب الرئيـسي لتلـك الامتيازات، وما وصف به نفسه ( السلطان ) مـن أوصـاف العظمـة و ....، وفي المقابل استحقار ملك فرنسا ومملكته .

يقول محمد فريد بك نقلاً عن جودت باشا في الجزء الأول : "نص الرسالة"

"بعناية حضرة عزة الله، جلت قدرته وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمـرة الأنبياء وقدوة فرقة الأصـفياء محمـد المـصطفى صـلى الله عليـه وسـلم الكـثيرة البركات وبمؤازرة قدس أرواح حماية الأربعـة أبـي بكـر وعمـر وعثمـان وعلـي رضوان الله تعالى عليهم أجمع وجميع أوليـاء الله أنـا سـلطان الـسلاطين وبرهـان الخواقين، متوج الملوك، ظـل الله في الأرضـين، سـلطان البحـر الأبـيض والبحـر الأسود والأناضـول والروملـي وقزمـان الـروم وولايـة ذي القـادر وديـار بكـر وكردستان وأذربيجان والعجم والشام وحلب ومـصر ومكـة والمدينـة والقـدس وجميع ديار العرب والـيمن، وممالـك كـثيرة أيـضا الـذي فتحتهـا آبـائي الكـرام وأجدادي العظام بقوتهم القاهرة، أثار الله براهينهم، وبلاد أخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفرة، أنا السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خـان بـن السلطان بايزيدخان، إلى فرنـسيس ملـك ولايـة فرنـسا وصـل إلى أعتـاب ملجـأ السلاطين المكتوب الذي أرسلتموه مع تابعكم فراقيان ( جانرنجيانى ) مع بعـض الأخبار التي أوصيتموه بها شـفاهيا وأعلمنـا أن عـدوكم اسـتولى علـى بلادكـم، وأنكم الآن محبوسـون، وتـستقدمون مـن هـذا الجانـب مـدد العنايـة بخـصوص

خلاصكم ، وكل ما قلتموه عرض على أعتاب سريرتنا الملوكاتية وأحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً، فلا عجب من حبس الملوك وضيعتهم، فكن منشرح الصدر، ولاتكن مشغول الخاطر فإن آبائي وأجدادي العظام نوَرالله مراقدهم لم يكونوا خالين من الحب لأجل فتح البلاد ورد العدو، ونحن أيضا سالكون على طريقتهم وفي كل وقت ....... تحريراً في أوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة بمقام دار السلطنة العلية القسطنطينية المحروسة المحمية "[1] .

واضح جداً من ألفاظ الرسالة وأسلوبها مدى الغرور والكبر الذي كان يتصف به السلطان ـ وإن شئت سمه القوة في مقابل ملوك النصارى ـ إضافة إلى أنها لايمكن أن تصدر بهذه المقدمات إلامن دولة في مركز القوة والسيطرة ، وسيدة الموقف الذي بإمكانها السيطرة على ما شاءت من أراضي أعدائها ـ بمن فيهم ملك فرنسا !!

ويضاف إلى هذا السبب ـ وهو الأول في نظري ـ منح ملك فرنسا الامتيازات ما سيأتي في المبحث القادم من تسلل أهل الذمة من النصارى في قطاع ما يسمى بوزارة الخارجية حيث كانوا يسيطرون على مجال الترجمة في البلاط السلطاني بل وكان منهم مستشارون( ودفتر دار) وغيرها من المراكز الحساسة وخطر هؤلاء الصليبيين واليهود أنهم كعادتهم يفسدون في الخفاء .

فقد كان هؤلاء يتمتعون بمكانة عالية جدا في فرنسا وكان لهم تنظيمهم الخاص المدافع عن حقوقهم، وكان أميرهم الذي يوجههم مقره في القسطنطينية وبقي بها حتى في زمن الفاتح!! يدل على ما ذكرت ما نشره : شيريت سبيريدوفيتش في كتابه : (حكومة العالم الخفية) وهي رسالة من شامورحاخام مدينة أرى ، من أعمال مقاطعة بروفانس ، إلى المجمع اليهودي في الأستانة !!

---

(١) محمد فريد بك ـ تاريخ الدولة العلية ص ٨٥ .

يستشيره في بعض الحالات الحرجة ومن الضغط عليهم وتهديدهم بهدم معابدهم !! فما العمل ؟

فمما جاء في الرد :( تقولون إن ملك فرنسا يجبركم أن تدخلوا المسيحية ، فلا يسعكم إلا أن تدخلوا ،ولكن لتكن شريعة موسى راسخة في قلوبكم )[١].

(وقولكم أنهم يأمرونكم بالتجرد من أملاككم ،فاجعلوا أولادكم تجارا لتتمكنوا رويداً رويداً من تجريد المسيحيين من أملاكهم ) .

( قولكم أنهم يعتدون على حياتكم، فاجعلوا أولادكم أطباء وصيادلة ليعدموا المسيحيين حياتهم).

( أنهم يهدمون معابدكم ، فاجعلوا أولادكم كهنة وإكليليين ليهدموا كنائسهم ) .

كما وصاهم ( بأن يجعلوا أولادهم وكلاء دعاوى ، وكتبة عدل ، ليتدخلوا دائما في مسائل الحكومة ويخضعوا المسيحيين لنيرانهم ، ويستولوا على زمام السلطة العالمية !! ) .

التوقيع : أمير يهود القسطنطينية ( ٨٩٤هـ ـ ١٤٨٩م) [٢] .

هذه التوجيهات الصادرة من أمير يهود القسطنطينية كان اليهود يأخذون بها أوعلى الأقل في طريقهم إلى تنفيذها والتمركز في المجالات التخصصية فيها .

وهذا ما حصل بالفعل لما فوجئ العالم بالوجه الظاهر لليهود في الدولة عندما تأسست جمعية تركيا الفتاه أو الاتحاد والترقي وكان معظم أفرادها من يهود الدونمة ! كما سيأتي بيانه في الفصل الثالث....

---

(١) أي مثلما فعل الدونمة في تركيا .

(٢) انظر سبيريت سبيريدوفيتشي : حكومة العالم الخفية ، ترجمة مأمون سعيد ، تحرير وتقديم ـ أحمد راتب عروش ص ٢٦-٢٧.

وبالطبع لم يتمكن اليهود من الوصول إلى ما وصلوا إليه إلا في ظل التساهل الذي تمتعوا به من قبل السلطان العثماني ، وتركهم على وضعهم وامتيازاتهم التي منحتها لهم جاهلية القانون الروماني الإغريقي والبيزنطي المدني !! بل زاد عليها من الصلاحيات بما لم يتمكن المسلمون أنفسهم التمتع بها ، فكفل لهم تصريف أمورهم بطريقتهم الخاصة ، وبتنفيذ أحكامهم الجاهلية على الأرض الإسلامية ،كما سنرى ذلك جليا الآن من صيغة وبنود الامتيازات التي منحت لملك فرنسا، وما أعقبها من تنازلات وتخاذل في الاتفاقيات . ( وفى أوائل شهر فبراير سنة ٩٤٣هـ ـ١٥٣٦م تم الاتفاق بين المسيو لافوري سفير فرنسا ، والباب العالي . وصدر به خط شريف بمنح امتيازات لرعايا ملك فرنسا النازلين بأرض الممالك المحروسة )[١] .

وجاء نص هذه المعاهدة في مجموعة البارون دي ستار الموجودة في الكتبخانة الخديوية وترجمها محمد فريد بك في( تأريخه عن الدولة العلية ). وكانت هذه الاتفاقية سنة ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٦م ، ومن مقدمة الاتفاقية يظهر جليا التعمق الصليبي في نفوس الفرنسيين أو ملك فرنسا على الأخص ، حيث يقول في مطلعها " قد اتفق بمدينة الأستانة ... كل من المسيو جان دي لافوي مستشار سفير صاحب السعادة الأمير فرنسوا المتعمق في المسيحية ملك فرنسا .. لدي الملك العظيم ذي القوة ...الخ ألقاب التعظيم ( التي درج الخلفاء على استخدامها حتى في عصور الضعف والانحطاط والسقوط !! )[٢]

* **الامتيازات وبنودها** : جاء قبل البند الأول في الاتفاقية ذكر سبب هذه الاتفاقية :-".. بعد أن تباحث في مضار الحرب وما ينشأ عنه من المصائب وما يترتب على السلم من الراحة والطمأنينة.. "يذكرنا هذا الكلام بحديث المصطفى

---

(١) محمد فريد المرجع السابق ( تاريخ الدولة العلية ) ص ٩١.

(٢) نص الاتفاقية كاملة من : محمد فريد بك في تاريخه .

صلى الله عليه وسلم ."**إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم أذناب البقر – ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلَط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم ..**" [١] .

وهو ما ترتب على هذه الامتيازات فيما بعد مصداقا لوعد الرسول صلى الله عليه وسلم حيث دخلت الدولة العثمانية بوابة الامتيازات وهي عزيزة المكانة . فما أن تركت الجهاد في سبيل الله وآثرت ( السلم والطمأنينة ) كما جاء في نص الاتفاقية إلا واعتراها الذل والانهزام فهانت عند أعدائها، مما جَرَّأَ أعداؤها وجاراتها بل وأعداء الداخل على التدخل في شئون الدولة الأساسية وتسيير دفة الحكم ......وأما البنود فهي :

**البند الأول** : ( قد تعاهد المتعاقدان على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما، وفى جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والمبن والثغور والبحار والجزائر، وجميع الأماكن المملوكة لهم الآن، والتي تدخل في حوزتهم فيما بعد بحيث يجوز لرعاياهما وتابعيهما السفر بحراً بمراكب مسلحة أو غير مسلحة . والتجول فى بلاد الطرف الآخر والمجيء إليها والإقامة بها ... بقصد الإتجار .. ) .

**البند الثاني** : ( يجوز لرعايا تابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع الغير ممنوع الإتجار فيها ... على أن يدفع الفرنساوي في البلاد العثمانية مايدفعه الأتراك في البلاد الفرنساوية ، ويدفع التركي مايدفعه الفرنساويون في البلاد العثمانية ) .

**البند الثالث** : ـ فقد جاء في هذا البند :

( يعين ملك فرنسا قنصلاً في مدينة القسطنطينية له أن يسمع ويحكم

---

(١) أخرجه أبوداود برقم ٣٤٦٢ ، والإمام أحمد برقم ٤٨٢٥ عن ابن عمر .

ويقطع بمقتضى قانونه وذمته في جميع مايقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية بين رعايا ملك فرنسا ، بدون أن يمنعه من ذلك حاكم أو قاضي شرعي أو صوباشي ... على أي حال ليس للقاضي الشرعي ( للإسلام ) أو أي موظف آخر أن يحكم في المنازعات التي تقع بين التجار الفرنساويين وبين باقى رعايا فرنسا حتى لو طلبوا منه الحكم بينهم ) .

**البند الرابع** : (لايجوز سماع الدعاوى المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا، أو الحكم عليهم فيها مالم يكن مع المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي ، أو القنصل الفرنساوي، وفى حالة وجود مستندات لاتسمع الدعوى أو شهادة مقدمها إلا بحضور ترجمان القنصل) .

**البند الخامس** : ( ولايجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا بناء على شكوى الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا الدولة العلية، بل على القاضي أو المأمور الذي ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي ـ محل إقامة الصدر الأعظم الرسمى ـ وفي حالة عدم وجود الباب المشار إليه ( أي إذا حصلت الواقعة في غيرمحل الأستانة ) يدعوهم أمام أكبر مأموري الحكومة السلطانية وهناك يجوز قبول شهاد جابي الخراج والشخص الفرنساوي ضد بعضهما ) .

**البند السادس** : ( لايجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنجق بيك ، أو الصوباشي أو غيرهم من المأمورين، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي، ومن جهة أُخرى يكون مصرح لهم باتباع شعائر دينهم ولايمكن إجبارهم على

الإسلام أو اعتبارهم مسلمين مالم يقروا بذلك غير مكرهين ) .

**البند السابع** : ( لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين أو اشترى منه بضائع، أو استدان منه نقوداً، ثم خرج من الممالك العثمانية قبل أن يقوم بما تعهد به فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب أو أى شخص فرنساوي أخر عن ذلك مطلقاً، وكذلك لايكون ملك فرنسا ملزماً، بشئ بل عليه أن يوفي طلب المدعي من شخص المدعى عليه أو أملاكه لو وجدت بأراضي الدولة الفرنساوية إن كان له أملاك بها .

**البند الثامن** : ( لايجوز استخدام التجار الفرنساويين، أو مستخدميهم أو خدامهم أو سفنهم أو املاكهم، أو مايوجد بها من اللوازمات أو المدافع والذخائر أوالتجارة جبراً عنهم في خدمة جلالة السلطان الأعظم أو غيره في البر والبحر، مالم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم ) .

**البند التاسع** : ( يكون لتجار فرنسا ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم، وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية، فتوزع أمواله وباقي ممتلكاته على حسب ماجاء بها، ولو توفى ولم يوص فتسلم تركته إلى وارثه أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل ، لوكان في محل وفاته قنصل، وإلا فتحفظ التركة بمعرفة قاضي الجهة، بعد أن تعمل بها قائمة جرد على يد شهود، أما لوكانت الوفاة في جهة بها قنصل، فلا يكون للقاضي أو مأمور بيت المال أو غيرهما حق في ضبط التركة مطلقا، ولو سبق ضبطها بمعرفة أحد منهم يصير تسليمها إلى القنصل أو من ينوب عنه لو طلبها، مثل الوارث أو وكيله، وعلى القنصل توصيلها وتسليمها إلى صاحب الحق فيها ) .

**البند العاشر** : ( بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرنسا لهذه المعاهدة يجمع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهم أو على مراكبهم أو سفنهم أو في أي محل أو إقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق، سواء كان ذلك بشرائهم أو

بأسرهم وقت الحرب، يصير إخراجهم فوراً من حالة الاسترقاق إلى بحبوحة الحرية، بمجرد طلب وتقرير السفير أو القنصل أوأي شخص آخر معين لهذا الخصوص، ولو كان أحدهم غَيَّرَ دينه ومعتقده فلا يكون ذلك مانعاً لإطلاق سراحه .

ومن الآن فصاعدا لايجوز لجلالة السلطان أو ملك فرنسا، ولابقبودانات البحر ورجال الحرب، أو أي شخص آخر تابعا لأحدهما أو لمن يستأجرونهم لذلك سواء في البر أوالبحر، أخذ أوشراء أو بيع أو حجر أسراء الحرب بصفة أرقاء، ولو بحَّار قرصان و غيره من رعايا إحدى الدولتين المتعاقدتين على أخذ أحد رعايا الطرف الآخر أو اغتصاب أملاكه أو أمواله، يصير إخبار حاكم الجهة، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته على مخالفته شروط الصلح، عبرة لغيره ورد ما يوجد عنده من الأشياء المغتصبة إلى من أخذت منه، وإذا لم يضبط الفاعل فيمنع هو وجميع شركائه من الدخول إلى البلاد وتضبط ممتلكاته لجانب الحكومة التابع إليها، ويصير التعويض على ماحصل له من أضرار مما يصادر من أملاك الجاني، وهذا لايمنع من مجازاته لو صار لضبطه فيما بعد ، وللمجني عليه أن يستعين على الحصول على ذلك بضامن هذا الصلح ، وهم السر عسكر عن الجناب السلطاني وأكبر القضاة عن ملك فرنسا .

**البند الحادي عشر** : ( لو تقابلت دوناغات إحدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى ، فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعها ورفع أعلام دولتها حتى إذا علمت حقيقتها لاتحجزها أو تضايقها السفن الحربية أو أي تابع آخر للدولة صاحبة الدوناغة، وإذا حصل ضرر لأحدهما فعلى الملك صاحب الدوناغة تعويض هذا الضرر فوراً ، أو إذا تقابلت سفن رعايا الدولتين فعليهما رفع العلم وإبداء السلام بطلقة مدفع، والمجاوبة بالصدق لوسُئل ربانها عن الدولة التابع إليها، ولما تعلم حقيقتها لايجوز لإحداهما أن تفتش الأخرى

بالقوة أو تسبب لها أي عائق كان ) .

**البند الثاني عشر** : ( إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية ـ سواء بطريق الصدفة أو غيرها ـ إلى إحدى مواني أو شطوط الدولة العلية، تُعطى مايلزمها من المأكولات وغيرها من الأشياء مقابل دفع الثمن المناسب، بدون الزامها تفريغ مابها من البضائع لدفع الأثمان، ثم يباح لها الذهاب أينما تريد، وإذا وصلت إلى الأستانة وأرادت السفر منها بعد الاستحضار على جواز الخروج من أمين الجمرك ودفع الرسم اللازم وتفتيشها بمعرفة الأمين المشار إليه، فلا يجوز ولايمكن تفتيشها في أي محل آخر، إلا عند الحصون المقامة بمداخل بوغاز جاليبولي (الدردنيل )، بدون دفع شيء مطلقاً لاعند هذا البوغاز ولا في مكان آخر عند خروجها خلاف ماصار دفعه، سواء كان الطلب باسم جلالة السلطان أو أحد مأموريه ) .

**البند الثالث عشر** : ( لو كسرت أو أغرقت مراكب إحدى الدولتين، بالصدفة أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر، فَمَنْ ينجو من هذا الخطر يبقى متمتعا بحريته، لايمانع في أخذ مايكون له من الأمتعة وغيرها . أما لو غرق جميع مَنْ بها فما يمكن تخليصه من البضائع يسلم إلى القنصل أو نائبه، لتسليمها لأربابها بدون أن يأخذ القبودان باشا أو السنجق بيك (والصوباشي ) أو القاضي أو غيرهم من مأموري الدولة أو رعاياها شيئا منها، وإلا فيعاقب من يرتكب ذلك بأشد العقاب . وعلى هؤلاء المأمورين أن يساعدوا من يخصص لإستلام الأشياء المذكورة ) .

**البند الرابع عشر** : ( لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين، أو احتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين، فلا يجبر الفرنساوي إلا على البحث عنه في بيته أو مركبه، ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوي بمعرفة قنصله ويرد الرقيق لسيده وإذا لم يوجد الرقيق بدار أو مركب الفرنساوي فلا يسأل عن

ذلك مطلقا ) .

**البند الخامس عشر** : ( كل تابع لملك فرنسا إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العلية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع، لايلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أيا كان اسمها، ولايلزم بحراسة الأراضي المجاورة أو مخازن جلالة السلطان ولابالشغل في الترسانة أو أي عملٍ آخر، وكذلك تكون معاملة رعايا الدولة في بلاد فرنسا .

وقد اشترط ملك فرنسا أن يكون للبابا وملك انجلترا أخيه وحليفه الأبدي وملك ايقوسيا الحق في الاشتراك بمنافع المعاهدة لو أردوا ، بشرط أنهم يبلغون تصديقهم عليها إلى جلالة السلطان ويطلب منه اعتماد ذلك في ظرف ثمانية شهور تمضي من هذا اليوم ) .

**البند السادس عشر** : ( يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرنسا تصديقه للآخر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور تمضي من تاريخ امضائها، مع الوعد من كليهما بالمحافظة عليها، والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمأمورين، وجميع الرعايا بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة . ولكي لايدَّعي أحدٌ الجهل بهذه المعاهدة يصير نشر صورتها في الأستانة واسكندرية ومصر ومرسيليا وناربونة، وفي جميع الأماكن الأخرى الشهيرة في البر والبحرالتابعة لكل من الطرفين ) .

**انتهت المعاهدة .[١]**

**التعليق على هذه المعاهدة :**

يلاحظ أن الدولة منذ عقد هذه الاتفاقية لم تتقدم شبراً واحداً بعد هذا البند الأول الذى ينص على الغاء أي شيء يمت للجهاد بصلة وذلك في قول

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦ .

(التعاقد على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما ... فقد تحولت مهمة الجيوش العثمانية بهذه الامتيازات من دور الفاتحين الناشرين لدين الله ، الرادين لمن يصد عن دين الله ، إلى دور الدفاع عن حدود الدولة وثغورها ، والحارس على ممتلكاته !! واستمر الوضع على هذا الحال وأصبحنا مع مرور السنوات نسمع بسقوط المدينة الفلانية، أوالاقليم،أوالثورة فى مكان آخر وهكذا حتى تناثرت أشلاء الدولة العثمانية إلى الدولة التركية !!

أما عن البند الثاني فكما هو ملاحظ من الاجتهادات العصرية والقوانين الوضعية البعيدة عن اجتهادات الفقهاء وعن أفعال الصحابة ـ كما تقدم معنا سابقا ـ في النظرة السريعة لأحكام أهل الذمة حيث فرض عمر رضي الله عنه على تجار أهل الذمة عُشر اموالهم من تجارتهم .

أما هذه الاتفاقية فيلزم منها ، لواسقطت فرنسا المكوس عن تجار الدولة العلية ، لسقطت عن تجارهم ـ وهذا طبعا في صالح فرنسا ـ لأن التجارة تقريبا من جانب واحد ، وهو مانوهنا عليه سابقا من اتساع رقعة البلاد العثمانية ووفرة مواردها وأسواقها مما يدر أرباحا خيالية على التجار الفرنسيين أما العثمانيون فلا يكاد يذكر لهم نشاط في مجال التجارة !! وظاهر هذا البند أن الدولة العثمانية مغلوبة على أمرها في توقيعه، مع أن الواقع كان خلاف ذلك !!

مما يؤكد ماذكرنا من أسباب وقوع الدولة في فخ الامتيازات .

أما البند الثالث من الامتيازات فهو من المصائب العظيمة التى تورطت فيها الدولة منذ وقت مبكر، وإن تطور بها المرض أكثر فيما بعد، حيث يبيح هذا البند لأهل الذمة ممارسة جاهليتهم، وتحكيم قوانينهم الوضعية على أرض الإسلام، كما أنه بإمكانهم أن ينشرو الفساد الفكري والأخلاقى بين المسلمين بحجة أنه بينهم فقط ، وأنه مباح في جاهليتهم .

وهذه بداية إرهاصات إقصاء الشريعة وسنفصل فيه القول في الفصل

الثاني إن شاء الله عز وجل .

أما عن البند الرابع : فيشتم من خلاله تعطيل واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث لايستطيع المسلم أن ينكر على الذمي شيء مما يجهربه من المنكرات ( إلا بوجود سندات وحجج ، واستدعاء شهود من أهل دينه ) !!.

وفي البند السادس : بمثابة إذن تسليم وإضفاء للشرعية على حملات التنصير التي ترسلها فرنسا ـ حيث نص البند على عدم جواز محاكمتهم ( التجار ومتبوعيهم ) فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي !!.

وكذلك أطلقت الإتفاقية حريتهم في اتباع شعائر دينهم ـ ( هذا لا مراء فيه) ـ ولكن يجب أن يقيد بضوابط الشريعة حيث لايحدثون كنيسة مثلاً ولايرفعون أصوات أجراسهم وغيرها من الضوابط .

أما البند السابع : فهذا من أغرب البنود ـ حيث يفتح الباب للسراق والنصابين والمحتالين والمتهمين على مصراعيه ـ فيقول كما سبق عند سرد البنود أن من اشترى بضاعة أو استدان أو تعهد بمال، ثم خرج من الممالك العثمانية ولم يؤد ماعليه فليس لصاحب الحق أن يسأل القنصل أو أقارب الجاني أو أي شخص فرنساوي آخر عن الشخص الغائب ، وكذلك لايكون ملك فرنسا ملزماً بشيء . بل إن وجد له أملاك في الممالك العثمانية استوفى الحصة منها ـ وإلا ضاع حقه ...

فى البند الثامن : يدل ضمنا على السماح لهم بحمل الأسلحة مهما عظمت على أرض الدولة !! وقد جاء في الوصية العُمرية عدم السماح لهم بحمل السلاح على أراضي المسلمين!

وكذلك من التعارض الصريح لهذه الإتفاقية مع شرع الله ، أنها تنص صراحة على إلغاء الحكم الشرعي، وهو الرق وأحكامه وصور العتق إذا توفرت شورطه الشرعية !! وذلك في البند العاشر عند قولهم ( عند توقيع هذه الإتفاقية

يصير كل من في يد الدولتين أحراراً !! بمجرد طلب السفير أو القنصل ) .

كما أنها أغلقت الباب في المستقبل على استحداث رق ( ولو عن طريق شرعي ).

وفي البند الرابع عشر يناقض ماسبق من أن كل الأرقاء في الدولتين أحرارٌ بمجرد توقيع هذه الإتفاقية .

ففي البند الرابع عشر يذكر لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمايين فاحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنسيين فلا يبحث إلا في هذين المكانين فقط .

الشاهد عند ختام هذه الإتفاقية أن من الواضح جلياً أن المستفيد الأول من هذه الإتفاقية هو الفرنساوي، إضافة إلى مخالفة هذه البنود لنصوص الشريعة الإسلامية والشروط العمرية في التعامل مع أهل الذمة .

وقد كان هذا الإتفاق سبباً في تدخل فرنسا وباقي دول أوروبا في شؤون المملكة الداخلية ، لأن هذه الامتيازات التي منحت لفرنسا ماهي إلا نموذج لامتيازات مماثلة منحت لباقي دول أوروبا فهي وإن اختلفت في الشكل وترتيب البنود إلا أنها متشابهة في حجم الامتيازات التي منحت لكل من البندقية أولاً ، ثم فرنسا وبريطانيا والنمسا حتى روسيا والتي كانت تمثل أبرز أعداء الدولة - ظاهراً وباطناً .

وقد فصلت الكلام في عرض الامتيازات لفرنسا نظراً لأنها تمثل الشكل الرتيب الذي سار عليه الخلفاء في منح هذه الامتيازات من حيث احتوائها على شقين :

**أولا : ماهو خاص بالإقامة .**

**ثانيا : مايتعلق بالتجارة .**

**فالشق الأول** : لم يتغير كثيراً في الامتيازات العثمانية كلها إلا من حيث المنطوق فقط وهو خاص بإقامة الأجانب وما تضمنه من ضمان لسلامتهم واحترام حريتهم الشخصية والدينية .

**والشق الثاني** : احتوى على ثلاث موضوعات هامة :

أ ـ ماهو خاص بالرسوم الجمركية من إعفاء أو غير ذلك .

ب ـ مايتعلق بحماية السفن والبضائع والتجار من أي اعتداء .

ج ـ السلع المسموح الإتجار بها أو الممنوعة .

**تحليل لبنود معاهدات الامتياز** : أما الشق الخاص بالإقامة فهو يتضمن أربع موضوعات :

١ـ تنظيم إقامة رعايا هذه الدول من حرية تنقلهم وحمايتهم .

٢ـ مايتعلق بهم من منازعات مع بعضهم البعض أو فيما بينهم وبين أهالي البلاد .

٣ـ مايتمتع به السفير والقنصل ومترجموهم ومن يعملون في خدمتهم من حقوق .

٤ـ مايخص حرية العبادة للجاليات ( ويدخل فيها حريتهم في الدعوة إلى التنصير عن طريق الغزو الفكري ) .

**أولاً ـــ إقامة أهل الذمة** : نجد مايتعلق بهذه النقطة واضح في المعاهدة السابقة من خلال البند الأول والثامن[1]. فقد منحتهم حرية التنقل في أنحاء الدولة وعدم مضايقتهم بأي شيء وحرم منازلهم وعدم اقتحامها بدون وجود القنصل .

---

(١) محمد فريد بك : المرجع السابق ( تاريخ الدولة العلية ) ص ٢٢٤ - ٢٢٦ .

ونصت المعاهدة على إطلاق سراح مَنْ يثبت أنه أجنبي الجنسية[١]، كما أكدت المعاهدات بألا يؤخذ ذمي بجريرة آخر من جنسيته، مدين هرب أو أفلس ولايستقضي الدين إلا من المدين نفسه أو كفيله ـ كما نصت المعاهدات عدم المساس بمال الميت من قبل الدولة مطلقا بل يسلم للقنصل[٢].

وأعفى الرعايا الإفرنج من دفع ضريبة الخراج أو الجزية أو غيرها من الضرائب على المتزوج منهم والعازب على تفاصيل في بنود المعاهدات . ومما **يترتب على هذا التساهل** : أن بعض أهل الذمة استغل هذه التسهيلات الممنوحة لهم في الخروج من الولايات العثمانية دون أن يسدد ماعليه ـ أو تهرباً من تهمة توجه إليه ، وأحيانا رفض تسديد ماعلية من كمبيالات !! ومن ثَمَّ أكدت المعاهدات المتأخرة على منع سفر أجنبي منهم إلى بلاده إلا بضمان قنصله وإلا يظل مقيماً بالبلاد حتى ينظر في أمره[٣] . بمعنى أن هذه الأخطاء أثرت حتى على الدولة الأوربية ، ولكن بالمقدار الذي تأثرت به الدولة العثمانية ورعاياها من المسلمين .

**ثانيا : محاكمة أهل الذمة** : الموضوع الثاني الذي بحث في هذه الامتيازات مما يتعلق بالإقامة ( المحاكم الخاصة لهم) ورد في هذه الامتيازات أكثر من بند يُؤكد عدم تدخل الدولة ومحاكمها الشرعية فيما يقع من خلاف بين الرعايا والأجانب. **وأهم مانصت عليه المعاهدات بخصوص ذلك** :

١- يفصل السفير أو القنصل في النزاعات التي تقوم بين أفراد من جنسية

---

(٢) ليلى الصباغ : الجا ليات الأجنبية في بلاد الشام ... معاهدة ١٥٢١ج البند فيد مادة ٢٠٠.

(٢) محمد فريد بك : المرجع السابق ( تاريخ الدولة العلية ) المادة السابعة (٧) من معاهدة ١٤٣٥ مع فرنسا .

(٣) يوسف بك آصاف : المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوربية ، ص ٨٠ .

واحدة تبعا لقوانين بلادهم ودون تدخل من السلطات المحلية [١] .

ويختص القضاء العثماني في الفصل فى قضايا الخصومة بين أفرنجي وأحد رعايا الدولة العثمانية ، وفي هذه الحالة لابد من حضور السفير أو القنصل أو نائبا عنه أو الترجمان... [٢] .

وإذا كانت المنازعة بين أجنبيين من جنسيتين مختلفتين يفصل في أمرهما في محكمة الباب العالي ولايجبرون على ذلك إلا بمحض إرادتهم [٣] .

٢- الدعاوى التي ضد ذمي وتتجاوز قيمتها أربعة آلاف قرش تنظر أمام الديوان العالي ، كما تختص هذه المحكمة بالنظر في القضايا الدينية [٤].

٣- مايتعلق بالرسوم القضائية ومن يتحملها ولمن تصرف .

٤- أن لا يحاكم أهل الذمة إلا إذا صار مع المدعين حجج رسمية ووثائق رسمية تدينهم ، ومن ثم نصت المعاهدات المتأخرة على ضرورة تسجيل عقود البيع والشراء والقروض عند القاضي مع الشهود، فيحرر بشأنها صك رسمي أو حجة شرعية يرجع إليها عند المنازعات ( كما جاء فى معاهدة ٩٨٧هـ -

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ( الجاليات الأجنبية في بلاد الشام ) ص٥٦ مادة ٣ من معاهدة ١٦٠٤ مع البندقية ،
يوسف بك آصاف: المرجع السابق ( المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية ) ص٨ مادة (١٥) من معاهدة ١٥٧٠ مع فرنسا.

(٢) يوسف بك آصاف: المرجع السابق ص ١٨،١٩ ، ص ٢٦ مادة ٤٨ ،٦٥.
ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٥١ مادة ٩ من معاهدة ١٥٢١ مع البندقية ، يوسف آصاف : المرجع السابق ص ٦٤، ص٧٧ مادة ١٠-١٥ من معاهدة ١٣٣٣هـ - ١٥١٩م مع إنجلترا .

(٣) انظر يوسف بك آصاف : ص٢٠ معاهدة ١٧٤٠م مع فرنسا المادة ٥٢ .

(٤) محمد فريد بك : الدولة العلية ص٢٥٥ مادة ٦ من معاهدة سنه ٩٤١هـ - ١٥٣٥م مع فرنسا السابق سردها .

١٥٧٩م مع انجلترا ) [١] .

**ثالثا : السفراء والقناصل ومن يعملون في خدمتهم من تراجم وغيرهم** : من أهم ماصدر بشأنهم أن يعينوا أو يعزلوا من قبل ملوك دولهم أو سفرائها ، ولايعطى لغيرهم الحق في تركهم أو نقلهم أو الإعتراض على وجودهم !! [٢] مهما بدر منهم فتمكنوا بذلك من بلاد المسلمين في بث الفتن وتشويش الأفكار، بما لهم من حصانة وحماية تمكنهم من أن يفسدوا كما شاءوا ، هذا هو شأن السفراء والقناصل في أكثر الأزمان والبقاع !

وكذلك من الحقوق التي تمتع بها السفراء والقناصل أنه لايجوز سجنهم أو ختم منازلهم وطردهم أوإغلاق محلاتهم بل يجب استقبالهم بكل احترام ، بل لايجوز للقضاء أن ينظر في مايرفع ضدهم من دعاوى إلا أمام الباب العالي [٣] .

ومما يتمتع به السفراء وأتباعهم ( حتى الخدم والتراجمة والكتاب ..) الإعفاء من كافة الضرائب والرسوم الأخرى !! كما أعطوا الحق في استخدام من شاؤا في خدمتهم ومصالحهم من أي ملة شاؤا . ويعفى هؤلاء من الضرائب والرسوم مثل القناصل والسفراء .

وقد جاء في بعض المعاهدات ( كالفرنسية ) تحديد هؤلاء الخدم بخمسة عشر نفراً من رعايا السلطان [٤]... وأطلق العدد للمستخدمين في معاهدات

---

(١) يوسف آصاف:المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية ص٦٤ مادة ٩٠ من المعاهدة السابقة ص ٥٤ مادة ٥ سنة ١٧١٨م.

(٢) يوسف آصاف ص ٦٥ مادة ١٣ من معاهدة ٩٨٧هـ ـ ١٥٧٩م مع إنجلترا .

(٣) ليلى الصباغ :الجاليات الأجنبية في بلاد الشام ص ٥٦ مادة ١٣ من معاهدة ١٦٠٤ البندقية ، يوسف آصاف : ص ٦٨ مادة ٢٥ من معاهدة ١٥٧٩ مع إنجلترا ، ص ١٧٠ مادة ٥٧ من معاهدة ١٧٨٣م مع روسيا .

(٤) انظر : يوسف بك آصاف، المرجع السابق ص ١٨ مادة ٤٧ سنة ١١٥٣هـ ـ ١٧٤٠م مع فرنسا ص١٨ مادة ٦٠ من معاهدة سنة ١٠٥٠هـ ـ ١٦٤١م مع إنجلترا .

أخرى .

وكذلك يحق للسفراء والقناصل رفع علم بلادهم ( وإن تضمن كفراً في شكله ) في أماكن مساكنهم .

كما أن لهم الحرية في صنع النبيذ أو جلبه من خارج البلاد ، معفياً من الرسوم الجمركية !![١] .

من أجل ذلك ـ ياللأسف ـ كان للخمور سوق رائجة جداً وخاصة بين صفوف الانكشارية ورجال البلاط العثماني ، مما ولد مشكلة على السلطان محمود حينما أصدر قراراً بمنع الخمور بين الجند !! فتراجع عن قراره الذي هو في غنى عنه أصلا ـ لو طبق شرع الله على أرضه !!

ومما تمتع به السفراء والقناصل ... إعطاؤهم الصلاحية في استقدام من يشاؤون من التراجمة دون التقيد بعدد معين ، ولا يهانوا ولايسجنوا إلا بأمر من سفرائهم وقناصلهم [٢] ، وهذا القانون فتح باباً على الدولة لكل من أراد التخلص والتهرب من دفع الضرائب أن يدخله سادته من السفراء بحجة أنهم يشتغلون عندهم في الترجمة وغيرها . وهذا أدى إلى وجود العملاء المحميين من قِبل سادتهم الغربيين .

وإن كانت وظائف الترجمة ليست حكراً على رعايا الدول الأجنبية ـ بل يجوز أن يكونوا من رعايا السلطان ولو من المسلمين .

فكان حَرِياً بالدولة أن تلزم السفراء أن يستعينوا بمترجمين من رعايا الدولة

---

(١) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص٦٩، مادة ٢٩ من معاهدة سنة ١٠١٤هـ ـ ١٦٠٦م مع إنجلترا ، ص١٩ مادة ٤٩-٥١ من معاهدة سنة ١١٥٣هـ ـ١٧٤٠م مع فرنسا ، ص١٦٩ مادة ٥٣ من معاهدة سنة ١١٩٧هـ ـ ١٧٨٣م مع روسيا .

(٢) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص ١٨ ، مادة ٤٥،٤٦ من معاهدة سنه ١١٥٣هـ ـ١٧٤٠م مع فرنسا .

من المسلمين - خاصة إذا عرفنا المكانة المرموقة التي يحسد عليها التراجمة والمميزات التي توفرها لهم الدولة في إعفائهم من الضرائب على اللحوم ، وحرية صنع النبيذ وجلبه ، واعفائهم من رسم الجمارك [١] .

**رابعاً : الشئوون الدينيه وحرية العبادة** : منحت المعاهدات لرعايا الدول الأوربية الحق في زيارة بيت المقدس ، وعدم اضطهادهم ومضايقتهم ، كما منح البنادقة في أوائل القرن السابع عشر حق إصلاح الأجزاء المخربة في كنيسة القيامة ...[٢] .

ونظراً لمكانه فرنسا الدينية ولكونها الراعية الأولى للكاثوليك والبابوية والمحافظة على الديانة النصرانية والنصارى خاصة فى بيت المقدس . فقد سمح لها بأن يكون معظم الرهبان والقسسيسن في كنائس بيت المقدس من الفرنسيين ، فنص في المعاهدات المعقودة معها منذ القرن السادس على حرية هؤلاء في العبادة وضرورة حمايتهم .

ومن هذه الحرية !! التى نصت عليها : ( أن لهم الحق في قراءة الإنجيل في كل مستشفى تابع لهم )[٣] ، كما جاء في معاهدة سنة ١١٥٣هـ - ١٧٤٠م مع فرنسا .

---

(١) انظر يوسف آصاف : المرجع السابق ، ص١٦٩ مادة ٥١ سنة ١٧٨٣م مع روسيا ، مادة ٥٦ سنة ١٧٨٣م مع روسيا كذلك.

(٢) انظر محمد فريد بك المرجع السابق ( تاريخ الدولة العلية ) ص ٢٢٥ ، ص ٢٢٦ مادة ٦ من معاهدة سنة ١٥٣٥م مع فرنسا ،
ليلى الصباغ : المرجع السابق ( الجاليات الأجنبية ) ص ٥٦ ، ص٥٧ مادة ١٢ من معاهدة ١٦٠٤م مع البندقية ،
يوسف بك آصاف : المرجع السابق ( المعاهدات الدولية ) ص ٢٤ مادة ٦١ معاهدة سنة ١٧٤٠ مع فرنسا ، ص ٨١ مادة ٦١ معاهدة ١٦١٩ مع إنجلترا .

(٣) انظر يوسف آصاف : المرجع السابق ص٣٤ مادة ٨٢ .

ولعلنا نكتفي بهذا القدر بالنسبة للشق الأول من المعاهدات وهو ما يتعلق بالإقامة.

* **مسائل التجارة في معاهدات الامتياز**: أما الشق الآخر من المعاهدات وهو ما يتعلق بالتجارة فيتضمن ثلاثة موضوعات:

١ ـ ما هو خاص بالرسوم الجمركية على البضائع وإعفاءاتها.

٢ ـ ما يتعلق بحماية السفن التجارية والبضائع من الاعتداءات.

٣ ـ عن السلع المسموح بالإتجار فيها أو الممنوع (وهذا هو أهمها).

فهذه الموضوعات الثلاثة على أهميتها ووجوب خضوعها للضوابط الشرعية، إلا أنّي سأقتصر على القول فيما يتعلق بالبضائع المسموح الإتجار بها.

فقد منحت المعاهدات جميع التجار الإفرنج والسماسرة والتراجمة حرية الإتجار والانتقال إلى أي مكان بجميع أصناف بضائعهم بدون أن يلحق بهم ضرر. أو مصادرة لبضائعهم[1]. وهذا مما لم يكن يتمتع به أهل البلد في كثير من الأحيان للأسف، بل أكثر من ذلك ـ نص على مسائل دقيقة في شأن السماسرة وكانت في مجملها تصب في مصلحة اليهود.

حيث جاء في بعض المعاهدات، ومنها على سبيل المثال معاهدة سنة ١١٥٣هـ ـ ١٧٤٠م الممنوحة لفرنسا، جاء بها المادة (٦٠)، أن سبب صدور أمر خاص بموضوع السماسرة: (أن بعض اليهود وغيرهم يزعم أن السمسرة عادت إليه بالإرث فللفرنساويين الحرية في استخدام من يريدون، وعندما يطردون من خدمتهم من استخدموه للسمسرة، وتوفي فلا يسوغ للآخر أن يطلب ممن خلفه رسماً بحجة أخذ رسم القطيعة المعروف بالكدك، والذي يخالف

---

(١) يوسف بك آصاف: المرجع السابق، ص٦٢ ـ ٦٣، ٦، ١٤٧ في معاهدات ١٥٧٩م مع إنجلترا، ١٦٠٦م معها كذلك، ومعاهدة ١٧٨٣م مع روسيا (بند ٣).

ذلك يعاقب ) [١] .

ومما يلفت النظر في معاهدات التجارة التي لايشم منها رائحة تحكيم شرع الله مانصت عليه المعاهدات من السلع الممنوع الإتجار بها - فيتبادر إلى ذهن المسلم أن على رأسها ماحرم الله ثمنه وتعاطيه وانتشاره من المطعومات أو الملبوسات أو الكتب أو ... أو .. مما هو معلوم في مواضعه من كتب الفقه. ولكن نفاجأ بأن السلع الممنوعة هي : الأرز والقمح والسلاح والبارود، قد تصل دون تصريح بالإتجار فيه [٢] .

هذا القرار من الربع الأخير من القرن الثامن عشر حيث منحت روسيا فقط حق الإتجار فيها ( ماعدا السلاح) بمعاهدة سنة ١١٩٨هـ - ١٧٨٣م ونصت المعاهدة سالفة الذكر على أن للرعايا الروس شراء تلك السلع إضافة للزيت والحرير من كافة مدن الدولة عدا الأستانة [٣] .

وهذا الكلام ليس نصاً فيما ذكرت ( من أن هذه السلع فقط ممنوعة وكل ماعداها مسموح !! ولكن الغريب في المعاهدات أنها أيضاً كانت تحدد قليلاً من السلع تحت بند السلع التي يصرح الإتجار فيها .

**تنافس الدول الأوروبية على الصدارة في الامتيازات الممنوحة لها وأسباب ذلك :**

من الموضوعات المهمة التي أثيرت في المعاهدات مايتعلق بالنزاع بين الدول الأوربية وخاصة انجلترا وفرنسا للحصول على امتياز حماية أيٍّ من الدولتين لتجارة وسفن الدول التي لاترتبط بمعاهدات مع الدولة العثمانية، بإعطائها الحق في الإتجار تحت علم أيٍّ منها - بل كان يصل هذا التنافس إلى درجة العداوة ومحاولة كل دولة أن تضعف جارتها - مما جعل الدولة العثمانية تستغل هذا

---

(١) انظر يوسف بك آصاف : المرجع السابق ص ٢٤.

(٢) يوسف بك آصاف : المرجع السابق ، ص ٦٧ مادة ٢٣ من معاهدة ١٦٠٦م مع إنجلترا .

(٣) نفس المرجع السابق : ص ١٦٥ ، ١٦٨ مادة ٤٥٠٦٣ .

الصراع لاستمرار بقائها على أساس عدم تجمع الدول الصليبية صفاً واحداً في مواجهتها !!

ـ ولو تساءلنا عن الفوائد والمصالح التي تجنيها فرنسا مثلا أو إنجلترا لكي تكون صاحبة السيادة في حماية الدول الأجنبية الأخرى، وأن تتاجر تحت علمها وحمايتها نجد على رأسها أسباب دينية تنصيرية . حيث كانت فرنسا حامية الكاثوليك، وكثير من السفن والمراكب كانت مسخرة لأغراض التنصير . ثم تضاف أسباب أخرى إلى هذا السبب في مجملها إقتصادية مثل :

١ـ تحقيق السيادة التجارية في الليفانت ( شركة التجارة الإنجليزية ) .

٢ـ الحصول على رسم القنصلية المتحصل من الحماية ـ وهذا الرسم من الموارد الهامة للقنصل وبالتالي لدولته ، فكانت هذه الضريبة تسدد نفقات السفير والقناصل التابعين له، وكذلك كانت سيادة فرنسا على الأمم الأجنبية يضمن لقنصلياتها ازدهاراً كبيراً ومصدر إيراد كبير لفرنسا [١] .

وكان صاحب السبق في هذه الامتيازات فرنسا، حيث حظيت بمزايا لم تُحْظَ بها الدول الأخرى، وكان لها قصب السبق في بسط حمايتها على تجار الدول التي ليس لها سفير ولاترتبط بمعاهدات تجارية مع الدول العثمانية .

وسر هذه المكانة لفرنسا خاصة، وأهل الذمة أو نصارى الداخل بالأخص . بسبب الأبواب والمجالات التي كانت وراء ذلك مثل الزوجات ـ أمهات السلاطين ـ وهذا مثال على ذلك:أن السلطان محمود الثاني وإصلاحاته المعروفة !! كانت أمه فرنسية بل ومتعصبة لقوميتها ! فجعلت من ابنها السلطان ( بعد أن زوجته بفرنسية أيضاً ) يسعى لجعل دولته قطعة من فرنسا بنظمها وإدارتها . والغريب في ذلك أنه أصدر مجلة تصدر في عاصمة دولة الخلافة باللغة

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ( الجاليات الأجنبية ...) ص ١١٠.

الفرنسية؟؟

ومن تدخل أهل الذمة دخولهم في السلك الدبلوماسي من مترجمين وخبراء ومستشارين كاثوليك يحتمون وينعمون بظل الامبراطورية الفرنسية . فمن المزايا التي تمتعت بها فرنسا دون غيرها من الدول الأجنبية أن ملكها هوالوحيد الذي لقب بأمبراطور.

ـ وكذلك في معاهدة ١٠١٣هـ ـ ١٦٠٤م مع فرنسا [١] ، ألغت الدولة العثمانية مامنحته إنجلترا من امتيازات حماية الدول التي ليس لها سفير في الدولة العثمانية بالنص التالي : « إن كل الأمم الأخرى التابعة للباب العالي والتي ليس لها سفير وتريد التجارة مع بلادنا يجب أن تحضر تحت علم ورعاية فرنسا دون أن يستطيع أبداً سفير إنجلترا أو أي سفير آخر أن يمنح ذلك » [٢] .

وكانت فرنسا تقف دون محاولات بعض الدول للحصول على امتيازات خاصة لها وذلك مثل ما اتخذته مع جنوة وفلورنسا ، ونجحت فرنسا في معاهدة سنة ١٠٨٤هـ ـ ١٦٧٣م أن تحصل على سيطرة علمها على بعض الدول ، فنصت المعاهدة « البرتغاليون والصقليون والكاثوليكيون وسكان مسينا بإيطاليا واتكونا إيطاليا والدول الأخرى المعادية لنا ، والتي ليس لها سفراء ولاقناصل ولاممثلين في الباب العالي فليس من حقهم أن يقوموا بأي عمل لايطابق السلام وحسن النية إذا كانوا تحت علم أمبراطور فرنسا » [٣] ، واستمر هذا التنافس بين فرنسا وباقي الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا بين مد وجزر فتارة تظفر فرنسا بسبق الصدارة وقليلاً ما يكون العكس .

فمثلا.. حصلت إنجلترا والبندقية على خصم في الرسوم الجمركية على

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٩١.

(٢) البند الخامس معاهدة ١٦٠٤م مع فرنسا .

(٣) معاهدة ١٦٧٣م مع فرنسا البند ٤٥ .

تجارها فكانوا يدفعون ٣% فقط ، في حين كان تجار فرنسا يـدفعون ٥% إلى عـدة سنوات .

بل أكثر من ذلك فقد مرت بين الدولة العثمانية وفرنسا أزمات شديدة خاصة بين مابين (٩٧٧هـ - ١٥٦٩م ) ، (٩٨٩هـ - ١٥٨١م) ، استفاد الإنجليز من هذا التوتر في العلاقات فاستقروا في القسطنطينية ، وهدفهم الإنتشار في الليفانت ، ولم يستطع "جرينى "منع أول سفير إنجليزي إلى الباب العالي [(١)] .

* كما أن بحارة المغرب العربي أخذوا يشنون غاراتهم على المراكب الفرنسية أكثر من غيرها ، مما عرقل التجارة الفرنسية بينها وبين الشرق [(٢)] .

ومن تلك الأزمات التي خلفها السفير الفرنسي "جرميني سافاري ولاتكوسين "حيث ازداد الوضع سوءا ، لأن تصرفه كان عنيفاً مع السلطات الحاكمة .

* ففى أحد أيام الأحد - انتزع بالقوة مكان مشرف في كنسية سان جورج في غلطة كان يشغله سفير الامبراطور النمساوي ، وكان من جراء ذلك أن أمرت الدولة العثمانية باغلاق الكنيسة ، وعدم فتحها حتى يشفي السفير الفرنسي من جنونه [(٣)] .

واستمرت الأزمات بين الدولتين إلى أن عينت فرنسا سفيراً فرنسياً في القسطنطينية يدعى( سافاري دويرييف ) امتاز بقدرة عجيبة على إزالة العقبات وانتهاز المناسبات ، وقد استطاع بدبلوماسيته اكتساب ديوان الباب العالي إلى جانبه حتى أن مؤرخا تركيا قال عنه "لم يظهر تحمس لفرنسا في دار السلام، مثلما

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٢.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٢.
(٣) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٢ هامش (١) .

ظهر بفضل سفيرها اللعين هذا "[١].

وهذا السفير !! لم يكتف بترك الأمور على ما كانت عليه بل زاد الطين بلة على الدول الإسلامية ـ وهذا شاهد على تضعضع السلطة والسيادة الاسلامية وتأثرها بسهولة من الداخل والخارج وعدم استقلاليتها أو سيرها على مبادئ ثابتة لاتتغير، وإنما على حسب ذكاء وفطنة أعدائها ودبلوماسية السفراء ـ يكون موقفها. فمن النجاحات التي تمت لهذا السفير ( دويرييف ) العهد الذي أبرمه مع السلطان محمد الثالث سنة (٩٩٦هـ ـ ١٥٨٧م) ومؤلف من (٣٢) بنداً ـ جلها تؤيد ما كان قد ورد في كل الامتيازات القديمة ـ وتضيف امتيازات جديدة[٢]، فزادت هذه الامتيازات حجماً ومعنىً بعد وفاة السلطان محمد الثالث عام ١٠١٢هـ ـ ١٦٠٣م وتولى ابنه أحمد الأول، فجُددت الامتيازات في (٤٨) بنداً . وهي تعد أكثر الامتيازات الممنوحة لفرنسا سعة وشمولا لمصلحة الفرنسيين[٣].

ويمكن أن نجمل المزايا التي اختصت بها فرنسا من دون سائر أمم الكفر وهي التي يذكرها السلطان مراد الثالث في رسالته إلى الملك هنري الثالث يذكر فيها ثلاثة بنود :

١ـ يخضع جميع الأجانب رسمياً ـ ماعدا البنادقة ـ لسراية الفرنسيين، وربما فيهم الإنجليز، وإذا ما أرادت ملكة إنجلترا صداقة العثمانيين ، فليكن ذلك بوساطة ملك فرنسا ، وهذا نصر كبير لفرنسا .

٢ـ يكون لسفراء فرنسا حق التقدم في السير والجلوس ـ على جميع سفراء

---

(١) ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ١٥٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥٤.

(٣) وقد سميت دويريف الامتيازات الجديدة في مذكرة بعث بها إلى الملك في ٢ ذو الحجة ١٠١٢هـ انظر هامش (٤) ليلى الصباغ ص ١٥٤.

الملوك والأمراء المسيحيين .

٣ـ يعفى الفرنسيون من جميع الضرائب الشخصية ولو كانوا متزوجين [١] . وهذا الامتياز لم يحصل حتى للأتراك أنفسهم حيث نصت النظم العثمانية على أنه لن يخضع للضريبة الأتراك المتزوجين أنفسهم !!

الغريب في الأمر أن هذا الغزل بين الطرفين في العلاقات والإرتماء في الأحضان كان متزامنا مع إعداد العدة من قبل فرنسا خاصة وباقي دول أوروبا لحرب صليبية لطرد الأتراك ( المسلمين ) من أوربا والاماكن المقدسة، تلك المشروعات التي كانت تجول في أذهان الكثيرمن كتاب أوروبا وساستها ، وهذا هو حقيقة موقف فرنسا وباقي دول أوروبا دون استثناء.

والخليفة المسلم مع ذلك يقوي شوكة أعدائه بمساعدتهم اقتصاديا ، وجعل الشرعية لهم في أن يعيثوا في الأرض فساداً ، وحرية تنقلهم في البلاد مع أنهم أعداء خلص شرعاً وعرفاً!! بل سمح لهم بالتدخل السافر والسخيف حتى في شؤون البلاد الداخلية ، ومن الأمثلة على ذلك قبل أن يعود "دويرييف" إلى فرنسا كلف بمهمتين شائكتين هامتين ، فكان عليه أن يذهب أولا إلى القدس لينتزع القبر المقدس من أيدي الأرمن والروم ، وإعادته للرهبان اللاتين ـ

وهذا بلاشك من التدخل في شؤون الدولة ـ ولكن لم ينجح رغم الضمانات التي أعطيها ، ومن القدس انتقل ديروييف إلى تونس والجزائر ليوقع مع سفرائها معاهدات يستجلب بموجبها الأموال المستولى عليها من قبل تجارتهم [٢] .

زادت حدة الجدل المثار في أوربا حول حرب العثمانيين، والمشروعات المقدمة من أجل تحقيق هذا الهدف الصليبي ـ والدولة لاتزال غارقة في نومها

---

(١) وهذا يمثل البند الأول ـ والثالث ـ والرابع عشر من اتفاقية ١٥٨١م مع فرنسا .

(٢) ليلى الصباغ : المرجع السابق هامش (٢).

ومستمرة في منح امتيازات أحادية الطرف !! فالمصلحة في جميع هذه الامتيازات دون استثناء للأعداء !!

فما هو السر في ذلك !! أهي سذاجة وعدم وعي سياسي، فضلاً عن الوعي الشرعي، أم أمر آخر ؟ ( هذا ماسبق الكلام عنه في أول الحديث عن الامتيازات فذكرنا الآراء في هذه المشكلة من المؤرخين والحقوقيين فضلاً عن المسلمين الغيورين وتساؤلهم عن أسبابها وذكرنا بعض الأسباب مع العلم مسبقاً بالآتي :

إن الامتيازات ليست في الواقع نتيجة عوامل إقتصاية ، وليست نتيجة تسلط بالقوة ، وهي تخالف في ظاهرها وبنودها جميع الاتفاقيات والمعاهدات بالمفهوم الحديث للدولة وسيادتها على أرضها ، كما تخالف التشريع الإسلامي في كثيرمن بنودها، وهو القانون والنظام الذي كانت الدولة تزعم اتباعه !! فهي مع هذا الوضع ـ كما يقول دوروزاس وهو حقوقي بارز ـ ( أن الامتيازات مشكلة لا تفسير لها )[(١)]، ويقول غيره ( إنها مسألة تاريخية من الصعب حلها ) .

ولكن مع وضوح الأمر، فقد انبرى كتاب ومفكرو أوروبا لتبرير هذه الإنهزامية وتسهيل تقبلها على الدولة العثمانية وأبرازها بأنها ليست من مظاهر الضعف بل على العكس من مظاهر التقدم والرقي والتطور . ويعيب على بلاده أنها لم تنهج هذا المنهج التقدمي في تمكين الأعداء وإعطائهم الصلاحيات والحرية كما صنعت الدولة العثمانية .

فيبرر موقف الدولة العثمانية الإنهزامي ـ بأن الفكرة الحقوقية تطورت من المفهوم الديني الطبيعي إلى فكرة الحق العام للإنسان ، المرتكز لاعلى عقيدة دين معينة ، وإنما على مباديء أخلاق عالمية وهو حق مشترك ومطبق على الجميع، فالمفهوم الحديث للدولة مفهوم لاديني ، ونص كلامه ( دور وزاس ) :

---

(١) انظر ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٢١٦ ـ ٢١٧.

"إن المفهوم الديني للدولة هو آخر تعبير عن التقدم الحقوقي ، فالدولة وهي سيدة مطلقة على أرضها ، تسن القوانين وتعميمها على جميع سكانها ، مواطنين وأجانب على السواء ـ ومهما كانت معتقداتهم الدينية، ولكن هذا المفهوم لم يكن نفسه في كل عصر وزمن ، وإنما تطور ونما شيئا فشيئا بحسب إبداع كل شعب ونضوجه .

ولقد أبتدأ ذلك التطور من اليوم الذي تخلصت فيه الفكرة الحقوقية من المفهوم الديني ، هذا المفهوم الحقوقي عند جميع الشعوب في الأزمة الأولى أي أن التطور قد أخذ مجراه منذ اليوم الذي حطم فيه القانون الروابط التي ترتبط بالدين ، ويتثبت فيه فكرة الحق العام للإنسان ، المرتكز لاعلى عقيدة دين معين وإنما على مباديء أخلاق عالمية، وهو حق مشترك ،ويطبق على الجميع ، لأنه مقبول من الجميع، فالمفهوم الحديث الدولي هو مفهوم لا ديني ، وطالما نص القانون ممتزجاً بالدين فإن الدولة تلغي غير شاعرة دورها وحقوقها .

إن الفكرة الحديثة للدولة مرتبطة بشدة بمفهوم الأرض ، ودور الدولة حاليا هو دور أرضي . أما القانون الديني فهو بالضرورة شخصي لأنه وضع من أجل المؤمنين فقط ، أي أنه لايسير أو يحمي غيرهم ، حتى عندما يعاقب فإن فقدانه لايمس إلا المؤمنين.."[1].

ثم يتساءل عن وضع الأجنبي إذن في إطار القانون الديني السائد لدي مختلف الشعوب في العصور القديمة ! ويصل إلى ماوصل إليه المؤرخون من أن الأخير كان خارج القانون ، فهو لايسهم في الحياة الدينية للمواطنين . والمدينة لاتدين له بأي عدل لأن قوانينها ليست له. إنها للعدو. ولكن الضرورات الاجتماعية تجبر المواطنين على عدم معاملة الأجنبي كعدو، وتضطرهم مصلحتهم الخاصة إلى منحه حق الدخول في الحياة الحقوقية ، فيغدو الغريب

---

(١) دورروزاس : ت ١ ص ١٨ نقلاً عن ليلى الصباغ ، المرجع السابق ص ٢١٨.

عندها مالكا ، ودائنا ، ومدينا ، وتاجراً ، وصانعاً ، وتحدد حقوقه وكذا واجباته، فهو يخضع لقانون ، ولكن أي قانون ؟ إنه لايمكن أن يكون قانون البلاد التي تستقبله ، لأنه لايسهم في مظاهر عبادتها ودينها ، ولايمكن خلق قانون خاص به، لأنه لاقانون خارج الدين . ومن ثم لامفر من تطبيق قانونه الخاص به ـ وهذا مايرمي إليه ( دوروزاس ) وهو منطقية قيام محاكم لكل بلد أجنبي . على أرض الدولة العثمانية ـ فهو يقول في ختام حديثه :

( بأننا إذا أدركنا النظرية السابقة ، نكون قد فهمنا نظام الامتيازات ، لأن هذا النظام عندما سارت عليه الدولة العثمانية ، كان تشريعها هو التشريع الإسلامي، فغير المسلم إذن سيكون خارج القانون ، والمسلمون وحدهم هم الذين يستظلون بظله . فعندما فرضت المصالح التجارية والمطالب السياسية تنظيم الوضع الشرعى للأجنبي فإن هذا التنظيم سار دون صعوبة، لأن قانون الدولة العثمانية هو قانون ديني لايمكنه أن يطبق عليه ، فالامتيازات هي التعبير الإيجابى عن نظام شخصية القوانين) .

فعندما يكون قانون شعب ما ، هو جزء لايتجزأ من دينه ، فإنه يجب ألا يطبقه على من يعتنق ديناً آخر ، لأن هذا مايفرضه الإحترام لحرية الضمير ، التى هى أبرز أنواع الحريات وأهمها، فالخلفاء بمنحهم للأجانب والمسيحيين الخاضعين لهم قوانينهم وأحكامهم كانوا قدوة مثلى في التعبير عن حرية الضمير، لم تتبعها أوربة مع الأسف [١] .

بالطبع هذا الكلام ليس مستغربا على رجل نصراني صليبي فهو من أبعد الناس عن شرع الله . وعن حقيقة الإسلام وشمول تشريعاته .

فهل يعلم أن في الفقه الإسلامى أبوابا خاصة بتفاصيلها وفروعها تراعي أحكام أهل الذمة والمستأمنين ـ وأحكام الحربيين !! ولكن هل يخفي ذلك لحاجة

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٨ ـ ٢١٩.

في نفسه أم أنه كان جاهلاً بها والأول أظهر( وإلا فشريعة الإسلام شريعة عامة لجميع البشر ، ولها صفة العموم في حق الناس كافة ، إلا أنه تعذر تنفيذها في دار الحرب ، لعدم الولاية ، وأمكن في دار الإسلام [١]، وتفاصيل ذلك عرضت في أول التمهيد .

وهذا الحقوقي ـ آنف الذكر ـ(دوروزاس) لم يكتف بالوضع المأساوي للدولة وروح الإنهزامية التي عانت منها الدولة في القرن السابع عشر على الأقل ـ بل يريد أن يبرر هذا الوضع ويجعل منه أمراً عقليا منطقيا لايتعارض مع سيادة الدولة على أرضها ـ حتى لاتفكر بل لاتفكر الأجيال القادمة في الخروج من هذه الزلة لأنها مظهر من مظاهر التطور والتقدم البشري في الأنظمة وإعطاء الحريات ـ فهو يقول في ختام نظريته ( و للأسف أوروبا لم تتبع هذا المنهج في التعامل مع الأعداء )!! ؟

وفي المقابل هو وغيره من المفكرين الغربيين يقررون هذا المفهوم (شخصية القانون) أو .... ( أقليمية القانون ) على تلامذتهم من المستغربين حتى تستمر الغفلة في هذا الجيل فلا يستفيد من أخطاء الماضي ...

وليس هذا موقف دوروزاس وحده، بل نجده موقفا لدي أكثر مفكري الغرب، وإن اختلفت تبريراتهم في إثبات شرعية ومنطقية موضوع الامتيازات، وتدخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة الداخلية، وانظر شاهداً على ذلك موقف الحقوقي "هولاند" حيث يعده مظهراً من مظاهر تطور الحضارة الإنسانية .

وكذلك "أمرتون" يسمي ذلك بـ" شخصية القانون" أو "إقليمية القانون"[٢] .

---

(١) انظر عبد الكريم زيدان : أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام ص ٥٩٤، وللتوسع انظر في أحكام أهل الذمة لابن القيم.

(٢) انظر للمزيد ليلى الصباغ : المرجع السابق ص ٢١٩ .

## الفصل الثاني

# وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة

وفيه مباحث :

المبحث الأول : فتح الجمعيات تحت إسم الثقافة والأدب والعلم .

المبحث الثاني : المدارس الأجنبية ودورها في إقصاء الشريعة .

المبحث الثالث : إدخال المذاهب المعاصرة لإقصاء الشريعة :

وفيه مطالب :

أولاً : القوميات :

أ ـــ الطورانية .

ب ـــ العربية .

ثانياً : العلمانية .

المبحث الرابع : سيطرة أهل الذمة على الصحافة .

المبحث الخامس : إحياء الثقافات القديمة ومحاولة ربط الشعوب بالآثار .



## المبحث الأول

## الجمعيات تحت إسم الثقافة والأدب والعلم

من المجالات النشطة التي ابتدعها نصارى العرب ويهود تركيا، واستغلت أبشع استغلال. مجال الجمعيات تحت ستار الأدب والثقافة، فكانوا هم أول من وضع لبناتها، وهذا يتضح من خلال سرد البدايات لتاريخ هذه الجمعيات سواء في بلاد الشام الأرض الخصبة التي احتضنت هذه المؤسسات أو في سالونيك واستانبول في تركيا .

وكانت هذه الجمعيات في بداياتها سرية في نشأتها واجتماع أعضائها ومحاضر الإجتماعات ومايلقى فيها من محاضرات ونشرات ـ إلى فترة ليست بالقصيرة ـ ثم تحولت نشاطاتها الثقافية المعلنة إلى نشاطات سياسية سرية . ونشر بعضهم دعوات خطيرة وأفكار جريئة عن أنظمة الحكم ، متأثرين بالآراء والفلسفات السائدة في أوروبا الغربية .

خاصة وأن بداية هذه الجمعيات في الشام مثلاً كانت على أيدي البعثة الأمريكية وهذه أو ل جمعية أسست في سوريا . وبعدها تتابعت الجميعات بالظهور على اختلاف مؤسسيها ومناهجها ، وهذا استعراض عام لنماذج من هذه الجمعيات :

**الجمعية العلمية السورية** : شكلت أول جمعية في سورية عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م باسم الجمعية العلمية السورية[1] ( ١٢٦٣هـ ـ١٨٤٧م ، ١٢٦٦هـ ـ

(١) وتأسست في بيروت قبل الجمعية العلمية السورية جمعيتان : الأولى سنة ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م باسم جمعية الآداب والعلوم وكان من بين أعضائها بطرس البستاني ، ونصيف اليازجي صاحب الفكرة وبعض المنصرين الاجانب، واقتصرت عضويتها على النصارى فقط، ولم تدم هذه سوى خمس سنوات . والجمعية الثانية قامت سنة ١٢٦٦هـ ـ١٨٥٠م باسم الجمعية الشرقية كما سيأتي ذكرها بعد قليل قامت بجهود اليسوعيين، وتشابه الجمعيتين في هوية أعضائها وباجتماعاتها، ويلاحظ =

١٨٥٠م ) وبدأت كناد أمريكي في بيروت أسسه المبشرون قبل افتتاح أي من المدارس الكبيرة المعروفة .

وضمت هذه الجمعية خمسين عضواً، فيهم أكثر الأدباء والكتاب أمثال نصيف اليازجى، ونوفل نوفل ، وبطرس البستاني ، وميخائيل مشاقة ، وميخائبل مدور، وميخائيل شمادة ، ومخائيل عرفان ، وإبراهيم طراد، ونعمة ثابت [١] وسليم دي نوفل ، ويوسف كتغاكو ، جبور الخوري ، بالإضافة إلى عدد من الإفرنج أمثال : فانديك ، تشرشل ، وريثاث جرجس هوايتن ، مالي سمث [٢] .

واضح من سرد الأسماء السابقة لأبرز أعضاء هذه الجمعية ومؤسسيها الوجهة التي تبناها هؤلاء الأعضاء والجهات التي ينتمون إليها، فجُلهم بل كلهم من نصارى العرب أو الإفرنج . وكانت رئاسة الجمعية ومجلس الإدارة بالانتخاب سنوياً ، فكان رئيسها لأكثر من سنة ، بين الإفرنجى الصليبي مالي سمث ونائبه في الرئاسة لعام (١٢٦٧هـ ـ ١٨٥١م ) وبطرس البستاني ، وهكذا كان لهم نشاط ثقافي قوي ـ أو على الأصح جديد على المسلمين والناس عامة في تلك الأونة ـ وأسلوبٌ حديث على الدولة يتمثل في المحاضرات المتنوعة التي كانت تلقى في مقر الجمعية في مختلف أنواع فنون العلوم، منها مايكون غزواً صريحاً من خلال عنوان المحاضرة، ومنها ما يأخذ طابع العلمية والتجربة والفرضية تأكيداً لمصداقية الجمعية وتحقيقاً لأهدافها المعلنة ـ من أنها الجمعية العلمية، وهذا واضح جداً من الجدول التالي أوالنشرة التي نشرت عام

---

= أنها لم تضم عدداً يذكر من المسلمين، فهي لم تمثل جميع فئات المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى أنها تأسست من قبل مؤسسات مصنفة مسبقاً لدي الشعب . انظر عبد الكريم رافق العرب والعثمانيون من (٩٢٢هـ ـ ١٥١٦م ، ١٣٣٤هـ - ١٩١٦م ) ط١ دمشق ١٩٧٤م .

(١) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر ص ٢١٥ .

(٢) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر ص٢١٥ .

١٢٦٨هـ ـ ١٨٥٢م في تقرير عن أعمال الجمعية للعام المنصرم ـ عندما كانت الجمعية حكراً فقط على النصارى ـ دون المسلمين أوالدروز، فذكر في هذا التقرير تفاصيل الخطب والمحاضرات أو المقالات والمناقشات التي جرت، وتفاصيل مجلس إدارتها من رئيس وثلاثة نواب رئيس، وكاتب وأمين صندوق، وينتخب الجميع بالاقتراع السنوي السري !

وكان من بين المحاضرات التي أُلقيت في الجمعية الجدول رقم (أ) المذكور في الملحق

وتوضح هذه المواضوعات نواحي اهتمام أعضاء الجمعية[١] وأهدافهم وبعض الأفكار المراد زرعها في المجتمع، وإن كانت شبه غريبة عنه مثل الإهتمام بتعليم النساء[٢] .

وزاد خطر هذه الجمعية لما أعيد تشكيل مجلسها على نطاق أوسع في (٢٠رمضان ١٢٨٤هـ ـ ١٨٦٨م ) بعد أن فتحت أبوابها للمسلمين والدروز ، واعترفت السلطات العثمانية رسمياً بالجمعية وحضر المتصرف كامل باشا (الذي أصبح فيما بعد صدراً أعظماً ) اجتماعها في آخر رمضان وانضم إلى عضويتها هو وعدد من رجالات الدولة، ووسَّعت الجمعية نشاطها، وبلغ عدد أعضائها أكثر من ١٥٠ عضواً . وشكلت لها لجنة إدارية برئاسة الأمير محمد الأمين أرسلان ( درزي ) وعضوية حسين بيهم، وسليم بن بطرس البستاني (نصراني) وحسنين خوري ......

وتقدم رئيس الجمعية بطلب إلى والي سورية راشد باشا بمنح ترخيص للجمعية بمزاولة نشاطها بصورة رسمية وقانونية :

---

(١) انظر زيدان جرجي : تاريخ سورية ص ٦٨ ـ ٦٩.

(٢) تعليم النساء وتبصيرهم من الأمور الممدوحة بل مما حث عليه ديننا، ولكن وراء هؤلاء المنصرين من الأهداف والإفساد ماوراءهم ـ وهذا ما ظهر جلياً فيما بعد .

"وتألقت الجمعية كشركة مركبة من أعضاء مختلفة محلية، وغير محلية للقيام بما يقتضي لانتشار المعارف من علوم وقنون"

وبدأت تُلقي الخطب والمحاضرات ـ والقصائد ـ وكانت تدور في مجملها حول الموضوعات التالية :

«فضل العرب على العلوم، وأنهم هم الذين أدبوا العلوم وهذبوا الفنون، وأن من واجب العرب أن يستعيدوا مجدهم بعد أن أصابهم ما أصابهم بسبب الكسل والملل، وعليهم أن يعولوا على أنفسهم ـ وخير طريق لتحقيق ذلك ـ هو تشييد المدارس والمكاتب والجمعيات العلمية ومعامل العلوم .. ومصانع الفنون .. ومعرض الآداب »[١] .

هكذا يصنف أرباب هذه الجمعيات جمعياتهم . ويظهرون أهدافها ـ وكما يقال:" كاد المريب أن يقول خذوني "وذلك لما هو مستفيض عن نية هذه الجمعيات وأساسها وسمعتها منذ نشأتها ـ وسمعة مؤسسيها !! مما حدا بالرئيس ـ الأمير محمد الأمين أرسلان (رئيس الجمعية ) ـ أن يفند هذه التهمة ويبين سلامة المقصد الذي من أجله أُسست هذه الجمعية . فيؤكد أن هدف الجمعية علمي صرف وليست نتيجة عن غيرها ولامقدمة لغيرها، يراد منها نشر العلوم والفنون .... والأشتغال فيما ينفع العموم ... دون تعرض لشيءٍ من الأمور الدينية أو الدولية[٢] .

ثم توالت بعد ذلك الإجتماعات وألقيت فيها الخطب والقصائد ـ ونذكر هنا بعض النماذج والأمثلة لما تم طرحه من أفكار ـ وثروة علمية صرفة كما يزعمون !!

ـ احتياجات العقل ـ لـ حنين الخوري ، وقصيدة لإبراهيم اليازجي في

---

(١) د. عبد الكريم غرايبة : انظر سورية في القرن التاسع عشر ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) د .عبد الكريم غرايبة : كلمة الأمير في مجموعة العلوم ص ١٦ نقلاً عن. ص ١٢.

١٢شوال ١٢٨٤هـ .

ـ درس في الموسيقى .

ـ الحاجة إلى التمدن والتقدم .

ـ وألقيت أكثر من خمس محاضرات قصائد في فوائد الجمعيات أو الجمعية خاصة .

ـ ومحاضرات في التاريخ !! الجغرافيا ـ ومحاضرة في هارون الرشيد .

ـ إضافة إلى جملة من القصص المترجمة !! وبعض الرسائل .

وخُتمت بمحاضرة للمعلم بطرس البستاني !! عن الهيئة الإجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية )[1] .

والجدير بالذكر أن جميع هذه الأطروحات . من خطب ومقالات وقصائد ـ طبعت في مطبعة المعارف في بيروت .

ولعل أمثال هذه المحاضرات في التأليف بين العوائد العربية والغربية والإفرنجية، كانت البذرة الأولى للتغريب في العالم الإسلامي ونشر التفرنج بين المسلمين تحت ستار الثقافة والجمعيات العلمية الصرفة كما زعموا .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد أوعند هذه المؤسسة فقط ، لنشر الأفكار الهدامة، ولكن المصيبة تعظم إذا علمنا وتذكرنا أن هذه الجمعية الجديدة كانت بدعة ، فتألفت على غرارها جمعيات أخرى كثيرة لا تكاد تحصر للأسف ( كما هو مخطط له ) واستغل هذا المنفذ للتبشير ( التنصير ) اليسوعيون . فهم أول من احتذى المثال الذي وضعه الأمريكان . فأسسوا في سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م (الجمعية الشرقية ) على الأسس نفسها . وتعاقبت بعدها الجمعيات التنصيرية كما سيأتي تفصيلها .

---

(١) انظر المرجع السابق د. عبد الكريم غرايبة ص ٢٢١.

يؤكد هذا الرأي جورج انطونيوس بعد أن أشاد بدور اليازجي والبستاني

"هذه الجمعية ( الجمعية العلمية ) الجديدة كانت بدعة محدثة، فتألقت على غرارها جمعيات أخرى كان لها دور مهم في نمو الحركة العربية القومية ، والحقيقة أن أول صوت لهذه الحركة الوليد صدرت من إحدى الجمعيات الأولى التي انبثقت عن الجمعية التي دعا إلى تأسيسها اليازجي والبستاني .

وكان اليسوعيون أول من احتذى المثال الذي وضعه الأمريكان، فأسسوا في سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م "الجمعية الشرقية على الأسس نفسها وكان الروح المحرك لها هو الأب النشط دوبرونير"[١]، وقد أكسبه نشاطه واطلاعه الواسع نفوذاً كبيراً في الشام، وتبوأ منزلة رفيعة[٢].

وجمعت منذ عام ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧م بين أعضائها ـ إضافة إلى النصارى ـ جماعة من المسلمين وآخرين من الدروز بعد أن كانت هذه الجمعية وأمثالها منبوذة بصفة عامة من المسلمين لأنها كانت تحت رعاية المنصرين ومن تأسيسهم، فهذا الأمر زاد من نفور العناصر غير النصرانية، ولكن وكما هو مخطط لهذه الجمعيات أخذت الآراء تتغير مع مرور الزمن وأخذ ضباب العداوة المؤذي ينقشع تدريجياً ، وذلك لأمر مهم استجدعلى هذه الجمعية، وهو أن أعضاءها كلهم أصبحوا من العرب، وكانت حماسة النصراني اليازجي في مناشدتة العرب على اختلاف عقائدهم أن يتحدوا لخدمة لغتهم، وكذلك أثمرت جهود أخوه البستاني في دعوته إلى تحطيم السدود والفوارق ...

وهكذا أنشئت الجمعية العلمية السورية ـ كما سبق سنة ١٢٧٣هـ ـ ١٨٥٧ م ( وكان من بين أعضائها الأمير محمد أرسلان الدرزي، وأصبح رئيساً

---

(١) يقظة العرب:جورج انطونيس شيوعي فرنسي ولد سنة ١٢٣٦هـ ـ ١٨٢١ م، وصل بيروت سنة ١٢٦٥هـ ـ ١٨٤٩م وبدأ فور وصوله يتعلم اللغة العربية .

(٢) انظر جورج انطونيوس ـ مرجع سبق ذكره ـ من ص ١١٨ ـ ١٢٠.

لها لعدة سنوات [١] ، وفيها أيضاً حسين بيهم وهو عميد أسرة مسلمة ذات نفوذ، وضمت نصارى من جميع الطوائف..

وهذه الجمعية التي تألقت يمكن أن يؤرخ لها أنها بداية التحول، وأنها أخطر الجمعيات ضرراً وفتكاً بالمسلمين . فقد استطاعت الملل المشتركة أن تجمع بين العقائد المتناحرة وتوحدها في رابطة إيجابية فعالة وتعمل لتحقيق أهداف مشتركة ـ كما يزعم جورانطونيوس ـ وهذه الجمعية أيضاً كما هو في رأي كثير من الباحثين كانت المهد الأول للحركة القومية العربية ، والمنبر الذي نودي لها من خلاله .

( فإن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كانت في اجتماع سري عقده بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية) [٢] .

ولم يعبأ هؤلاء النصارى من خلال جمعياتهم العلمية، بالدعوة إلى وحدة العرب على أساس اللغة والتاريخ بدلاً من المُثل الدينية والاجتماع على دين الإسلام ، بل الوحدة بين المسلم والنصراني والدرزي على أساس اللغة والتاريخ ، وهذا مايفخر به كاتب نصراني هو نبيه أمين فارس في مقدمته لكتاب" يقظة العرب السامية" ، أن فكرة البعث العربي منشأها الجمعيات الأدبية والعلمية (١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م ، ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م) كانوا في الغالب من النصارى، وأنهم وإن لم يمثلوا سواد الشعب، غير أننا مقتنعون بأنه لولا هذه الجمعيات الأدبية ولولا هذه القصائد الثورية لبقيت الفكرة القومية بعيدة إلى حد كبير عن العرب ) [٣].

ثم يقول : «إنه كان من ثمرات هذه الجهود في الجمعية أمام قصائد

---

(١) المرجع السابق ص ١١٩.

(٢) يقظة العرب : انطونيوس ص ١٩١ ـ ١٢١.

(٣) دكتور نبيه أمين فارس : مقدمة يقظة العرب من ص ١٢ ـ ١٧ .

وخطب اليازجي والبستاني تتابعت الجمعيات في السر والعلن ـ كما سيأتى تفصيلها ـ تطالب بحقوق العرب».

وأسرد باختصار بعض أسماء تلك الجمعيات التي ظهرت في القرن التاسع عشر والتي ينفطر قلب المؤمن عند التأمل في كثرتها وفي أسماء مؤسسيها، بل وفي أسمائها أيضا ....

فمن هذه الجمعيات التي تأسست رافعة الشعار السابق ( وهو المطالبة بحقوق العرب):

* **( جمعية حفظ حقوق الملة العربية )**[١] : وهذه الجمعية تأسست سنة (١٢٩٨هـ ـ١٨٨١م ) ونشرت نداء إلى العرب من مسلمين ونصارى تدعوهم إلى الإتحاد والمطالبة بالحقوق القومية والحض على النهضة .

* **( جمعية بيروت السرية )** [٢] .

* **الجمعية الشرقية الكاثوليكية** : أسسها في دير الآباء اليسوعيين عام ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م كل من إبراهيم النجار، والشاعر حنا أبو صعب، ورزق الله خضرا والمؤرخ طانيوس الشدياق وحبيب اليازجي، وفرنسيس مسك ، ورائد المسرح العربي مارون نقاش ، وإبراهيم مشاقة والدكتور سوكة ، وكل هؤلاء كما هو ظاهر من اسم الجمعية من النصارى .

* **الجمعية الأدبية في طرابلس ( ١٢٦٦هـ ــ ١٨٥٠م ، ١٢٩٣هـ ــ ١٨٧٦م )** : أسسها اسكندر كاتسليس وجورج كابين وعدد من الأدباء ، وألقيت فيها خطب وأبحاث أغلقت بعد نشوب الحرب الروسية .

* **الجمعية العلمية في المدرسة الكلية ( ١٢٨٢هـ ــ ١٨٦٦م )** : جمعية

---

(١) عبد الكريم غرايبة ( المرجع السابق ) ص٢١٧ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية ص ٩٠ ـ ٩١ سيأتي تفصيلها لاحقاً .

طلابية تأسست في الكلية السورية ( الجامعة الأمريكية ) لتمرين الطلاب على الخطابة والمناقشة والبحث بإشراف أحد الاساتذة ، وكان من أعضائها جورج كابين ، وجرجي زيدان .

* **جمعية شمس البر في بيروت (١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م )** : تأسست كفرع لجمعية اتحاد الشبان المسيحيين في إنجلترا ، وانضم إليها عدد من خريجي المدارس الأمريكية أكثرهم من الأطباء وأصحاب الصحف وفتحت الجمعية عام (١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م) فرعاً لها في دمشق باسم جمعية رباط المحبة ضم أربعين عضواً بعضهم من المنصرين فكانت أول جمعية دمشقية . وكان هدف الجمعية المعلن هو نشر المبادئ الدينية المسيحية ومكافحة الرزيلة والكفر والسكر .. وعمل الخير .

* **جمعية زهرة الآداب في بيروت ( ١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣م )** : [1] شكلها عدد من خريجي المدارس بإذن من المتصرف أسعد باشا، وجعلت هدفها التمرين على الخطابة والمناقشة والبحث وتأليف التمثيليات .

وكان من أعضائها سليمان باشا البستاني الوزير ، ومترجم الإلياذة ، ونعمان الخوري وصاحبا المقتطف، وإبراهيم اليازجي، وجورج بثي، وأديب اسحق .

* **الجمعية التاريخية السورية في دمشق (١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م)** : تألفت من سبعين عضواً بغرض تشجيع البحث التاريخي مع عدم التعرض للأمور الدينية والسياسية .

* **جمعية المدارس الأرثوذوكسية في حمص ( ١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٨م )** :

* **الجمعية السورية الأرثوذكسية في بيروت** : أسسها كل من ميخائيل شمادة ،

---

(١) انظر في أسماء الجمعيات : عبد الكريم غرايبة ، المرجع السابق ص٢١٧ وما بعدها .

وفضل الله بطرس ، وأسعد سرسق ، ونعمة جرجس ، وجراسيموس الشامي ، للرد على رعاية البعثات التنصيرية البروتستانتية .

* **الجمعية السرية العربية (١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م ، ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م):** ألفها نفر من الشباب أكثرهم من النصارى من خريجي الجامعة الأمريكية، وعقد الشبان اجتماعاتهم سراً قرب الروشة، وانضموا إلى المنظمات الماسونية لغرض الإتصال بالمسلمين واقناعهم بوجهة نظرهم وضمهم إلى جمعيتهم ... وبدأت الجمعية بإثني عشر عضواً زادوا إلى سبعين، وكان من أبرزهم يعقوب صروف ، وفارس نمر باشا ( صاحب المقطم ) وإبراهيم اليازجي وشاهين مكاريوس (مؤسس الجمعية الصناعية في بيروت ) وإلياس صبائين، وسليم عمورة ، وإبراهيم الحوراني ، ووزعت الجمعية نشرات سرية علقتها على جدران بيروت وصيدا ، وأثارت اهتمام القناصل ثم انحلت وتفرق أعضاؤها[1]

* **الجمعية الصناعية في بيروت (١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م ) :** أسسها شاهين مكاريوس ـ القيت بها محاضرات قيمة عن تعليم الاقتصاديات، ونشرت هذه المحاضرات في المقتطف .

وهذه الجمعيات الأدبية والفنية والصناعية على اختلاف مسمياتها لم تكن قاصرة في بلاد الشام فقط ـ وإن كانت أبرز ماتكون وأكثر ماتركزت فيها ـ حتى شكلت ظاهرة في بلاد الشام أكثر من غيرها من بقاع الدولة العثمانية، إلا أنها كان يوجد قريباً من هذه الكثرة في الجمعيات في استانبول وسالونيك وأنقرة إلا أن تلك كان وراءها اليهود في الغالب، وهذه أسسها النصارى في الغالب، وقد نبه السلطان عبد الحميد على خطورة هذه الجمعيات والمدارس التنصيرية فقال بصدد هذه البعثات : " إن المدارس الخاصة تشكل خطراً جسيماً على أمتنا، وإن إهمالنا الذي لايغتفر هو الذي جعلنا نسمح لممثلين لكل الجنسيات بأن

---

(١) انظر في سرد أسماء الجمعيات السابقة . عبد الكريم غرايبة : ص ٢٢٣ ـ ٢٢٧ .

يبنوا مدارس في الأزمان والأماكن التي تحلو لهم وقد أثبتت الأحداث خطورة ذلك ""[١] .

وكذلك الأمر في مصر ـ فهذه الثلاثة أقطار كانت تشكل مصدر الثقل ومنبع الثقافات والأفكار في العالم الإسلامي في تلك الحقبة الزمنية خاصة.

وكما أن طابع الدعوة إلى القومية كان غالباً على تلك الجمعيات في الشام خاصة أو الدعوة للتنصير ـ كما سبق بيانه ـ كانت هناك جمعيات مسيحية هدفها الأول نسف الخلافة.

وكانت أولى تلك الجمعيات التي استهدفت نسف الخلافة "جمعية النهضة اللبنانية" التي شارك قادتها في مؤتمر باريس عام (١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م ) وانخرطوا في الجمعيات اللاحقة داخل الدولة والمهاجرة .

وقد ورد اسم هذه الجمعية في كتاب "إيضاحات" وأسماء أعضائها وجميعهم مسيحيون لبنانيون [٢]، والبيانات الواردة عن بعض أعضائها تبين أن أعضائها كانوا يتمنون خدمة مصالح فرنسا وإخراج لبنان وسورية من الدولة العثمانية وإقامة حكومة فيها تحت حماية فرنسا وهذا ماحدث فيما بعد ...

وممايؤكد تعاون أهل الذمة المؤسسين لهذه الجمعية والرؤساء لفروعها في الخارج والداخل في فرنسا خاصة . ماجاء في كتاب "ايضاحات" أن مؤسسيها جماعة من آل الخازن ، وأن أعضاء فرعها في بيروت هم دعيبس المر ، وخليل زينيه ، ويوسف الغليوني ، وكان لها فرع في مصر ورئيسه اسكندر عمون، ومن أعضائه داود عمون ، وكما كان لها فرع آخر في باريس رئيسه شكري غانم ، ومن أعضائه خيرالله، والكونت حريصاني وزوين الخوري، وكان لها فرع أيضاً في أمريكا رئيسه نعوم مكرزل .. وأنه كان من غاياتها تمهيد السبيل لفرنسا

---

(١) أحمد عبد الرحيم : أصول التاريخ العثماني ص٢٥٤ .

(٢) انظر موفق بني المرجه : صحوة الرجل المرض ص ٣٠٦ .

للهيمنة على سوريا ،وأن خيرالله (العضو في فرنسا) كان يكتب المقالات في "السطان" بكل ذلك بإيعاز من فرنسا ـ وأن فرنسا أرسلته مرتين أوثلاثا إلى لبنان وسوريا لبث الدعاية لها ... وكذلك جاء في هذا الكتاب ( إ يضاحات ) بيان أن قنصل فرنسا في بيروت خصص مبلغاً من المال لجريدة تخدم المصالح الفرنسية ضد الدولة [١] .

* ومن الجمعيات العلنية في تلك الفترة :

**جمعية المقاصد الخيرية** : تأسست عام ١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م بدعم من والي سوريا في ذلك الوقت مدحت باشا [٢] وعملت فيما يذاع عنها على تربية الناشئة من فتيان وفتايات ، فأنشأت مدرستين للبنات ومدرستين للبنين على الأسس الحديثة في محاكاة المدارس الغربية في بلاد الشام ، كما سعت في إرسال بضعة شباب إلى المدرسة الطبية المصرية لتعلم الطب [٣] .

وكان من مزايا هذه الجمعية .. مناهضة حركة التنصير [٤] . إلا أن الحكومة عادتها وأغلقتها لنشاطها القومي الذي يؤثر سلباً على وحدة الدولة[٥].

**جمعية بيروت الإصلاحية** : ومن أعضاء تلك الجمعية رزق الله أرقش وخليل زينيه ـ الأول كان متسلطاً على جريدة الإتحاد العثماني ، والتي كانت تمول من قبل القنصل الفرنسي في بيروت [٦] ، وكانت هذه الجمعية فيما تزعم أن أهدافها أو منهجها الإصلاحي على أساس اللامركزية وتؤكد الرغبة في بقاء الرابطة

---

(١) انظر موفق بني المرجه ( المرجع السابق ) ص ٣٠٧.

(٢) ابن يوسف كمال بك : مذكرات مدحت باشا ص٣٧ .

(٣) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/ ٧٢ ط دار الهلال .

(٤) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ م ص١٤٩ .

(٥) انظر جرجي زيدان : المرجع السابق ٤/ ٧٢ .

(٦) محمد دروزة : نشأة الحركة العربية الحديثة . المكتبة العصرية ـ صيدا . ج٢ ص٥٠٨ ـ ٥١٠ .

العربية التركية تحت لواء الدولة العثمانية وتتحفظ تجاه المطامع الأجنبية .

مع أنه جاء في نص وثيقة صادرة من القنصلية الفرنسية في بيروت مايخالف أو يناقض هذا الهدف .

ونقلاً من كتاب " ايضاحات " جاءت وثيقة عليها تواقيع ميشيل التويني ، ويوسف الهاني ، وبتروطاء ، وأيوب ثابت ، ورزق الله أرقش ، وخليل زينيه والإثنان الأخيران ممن ذكرت أسماؤهم كأعضاء في الجمعية البيروتية، وهما مع الآخرين من أعضاء الجمعية الإصلاحية البيروتية والمندمجين في حركتها، وقد ذكروا في هذه المذكرة أنهم اندمجوا في هذه الحركة للتمويه على الحكومة العثمانية من جهة، وإدخال أساس لوضع رقابة أوربية على جميع بلاد الشام من جهة أخرى ، ولكنهم مع ذلك يقولون أن الإصلاحات ولو تمت بمساعدة أوروبا فإنها لاتحل المسألة ولاتحقق بذلك رغبة النصارى الحقيقية في سوريا بسبب نزاع التعصب الإسلامى ضد النصارى ولأن النصارى مرتبطون بفرنسا بصورة لا تقبل الانفكاك كما أن أكبر آمالهم أن تستولى فرنساعلى البلادالشامية(١) .

* جمعية ( العربية الفتاة ) : هذه الجمعية " العربية الفتاة " هي المقابل العربي لجمعية « تركيا الفتاة » ، وقد أنشئت هذه الجمعية بباريس عام (١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م ) قامت فيما بعد بترتيب عقد مؤتمر باريس العربي عام ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م .

ورغم تشابه الظروف في النشأة وطبيعة النشاط والأهداف بين هذه الجمعية وجمعية تركيا الفتاة ـ بل ومع وفرة وزيادة الطاقات العربية عن التركية ، أخفقت في الوصول إلى نفس النتائج التي حققتها رديفتها التركية، رغم أن أفرادها ـ أي أعضاء ومؤسسي " العربية الفتاة " ـ كان بينهم عدد ممن تسلموا أرفع المناصب فيالبلدان العربية في ظل الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، وذلك

(١) المرجع السابق موفق بني المرجه ص ٣٠٨.

يتضح من خلال سرد بعض أسماء المؤسسين والأعضاء التي لم يتميز فيها بين مسلم أو نصراني أو درزي ـ ومن النماذج :

الأمير مصطفى الشهابي ـ توفيق فايد ـ إبراهيم حيدر ـ توفيق السويدي ـ محب الدين الخطيب ـ ورفيق رزق سلوم ـ يوسف مخيبر حيدر ـ رشيد الحلبي ـ الأمير عارف الشهابي ـ وفخري البارودي ـ مصطفى بردرار ـ عزت دروزة ـ نسيب الأطرش ـ ونواف الشعلان وغيرهم .

والأهم من ذلك اللائحة الداخلية للجمعية " العربية للفتاة " والتي اشتملت على ثلاثة أبواب ؛ الباب الأول منها ثمانية فصول :

وقد ضمت هذه اللائحة المواد الأساسية حول نشأتها ـ ثم تشكيلات الجمعية، وهي عبارة عن الهيكل الهرمي لأعضاء الجمعية وتنظيم الموظفين ومجلس الشورى وميزانية الجمعية ، والغاية من الجمعية ، وهذا مابُين بالباب الأول الفصل الأول .

وللأسف رغم انضمام بعض المسلمين العرب إلى أعضائها بل ومؤسسيها، إلا أنه لايشم من أهداف وغاية الجمعية أي توجه إسلامي، بل حرصت في بياناتها ووظائفها ومايشترط في العضو وفي أعمالها ، أن تكون المسحة العلمانية هي الغالبة على هذه الجمعية، فأهدافها قومية بحتة، وتسعى إلى استقلال البلاد العربية استقلالاً تاماً بجميع معانيه الحقوقية والسياسية ، وجعل الأمة العربية في مصاف الأمم الحية !!.

ثم أن شرط قبول العضوية في الجمعية ( هو أن يكون عربياً مخلصاً لأمته معروفاً بالأخلاق التامة ( والجرأة الأدبية ) ولو كان يهودياً أو باطنياً حائراً، أو أي ملة من ملل الكفر .

ومن أوجه المشاكلة مثلما أفرزت تركيا الفتاة حزب الإتحاد والترقي ـ والذي كان على يديه وعلى أيدي أعضائه من اليهود والماسون وأدِ الخلافة

الإسلامية والذل الذي أصاب الأمة ـ وغيره من الأحزاب والجمعيات الطورانية كما سبق بيانه . كذلك فإن العربية الفتاة أفرزت حزب الإستقلال وحزب اللامركزية فضلاً عن جمعية العهد والمنتدى الأدبي ، وغيرها من الجمعيات العربية السرية والعلنية . وقد كان أبرز أثر تاريخي خلفته هذه الجمعية هو ماعرف بـ "المؤتمر العربي الأول" المنعقد بباريس عام ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م .

وقد لوحظ أن عضوية المشاركين بالمؤتمر تم ترتيبها بحيث تحقق المناصفة تماماً بين المسلمين والنصارى ، ويبدو ذلك واضحاً من خلال استعراض أسماء المشاركين فيه رغم أن الدعوة إليه كانت عامة ، كما غلبت المناصفة في لجنته التحضيرية أيضاً [١] .

ومن الوثائق التي تشكك في ثمرة ونوايا هذا المؤتمر والمتأمرين فيه ماجاء فى مذكرات عوني عبد الهادي وهو عضوٌ في الجمعية الفتاة من إشارة صريحة إلى جهود الخارجية الفرنسية للإعداد لهذا المؤتمر، حيث عرضت عليه السفر إلى اتحاد أوروبا لترويج الدعاية له .. لكنه رفض ، بينما استجاب جميل مردم ( رئيس وزراء سوريا فيما بعد ) وقد قبض هو وعوني عبد الهادي مالاً من الخارجية!![٢] .

ومن الجدير بالذكر أن ضجة ما روي عن المؤتمر كانت أكبر بكثير من حجمه ـ ولعله أريد له ذلك إعلاميا ـ والذين شهدوه فعلاً كانوا ٢٤ شخصاً فقط ، أغلبهم من نصارى العرب وأعضاء ماسونيين بارزين في المشرق .

لما ختم المؤتمر جلساته ذهب وفد مؤلف من رئيسه وبعض أعضائه إلى وزارة الخارجية الفرنسية حيث استقبلهم وزير الخارجية فشكروا فرنسا على ما لقيه المؤتمر من عطف وترحيب فاتحين عن كون المؤتمرين من رعايا دولة

---

(١) موفق بني المرجه : صحوة الرجل المريض ص ٣١٤.
(٢) المرجع السابق ص ٣١٥.

صديقة.. وأبناء بلاد تظهر فرنسا نحوها العطف والتودد . ونوهوا باعتمادهم على فرنسا في تحقيق المطالب الإصلاحية وأشاد بالاتحاد والأخاء المستحكمين بين المسلمين والمسيحيين من جهة، وبين السوريين واللبنانيين من جهة أخرى ...

وشكر الوزير الوفد على عواطفه ونواياه بصداقة فرنسا للدولة العثمانية وحبها الخير للسوريين، وأن فرنسا تقبل بكل رضى وسرور أن تكون محامية لسوريا لدي أوروبا [١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الجمعية ( العربية الفتاة ) كانت تهدف إلى النهوض (بالأمة العربية ) وتمتعها بالحكم الذاتي ، أى عدم الإنفصال عن الترك، ثم عدل البرنامج بعد نشوب الحرب العالمية الأولى وأصبحت الجمعية تسعى إلى الإستقلال عن الترك تماماً وإنشاء دولة عربية غربي آسيا [٢] .

وسؤال يطرح نفسه ... مالذي غير مسار الجمعية وحول في منهجها ..!!

يقول جورج انطونيوس عن هذه الجمعية ـ أن هذه الجمعية تعيد إلى الذاكرة جمعية بيروت السرية عام (١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م ) مع فارق واحد وهو أن القيادة انتقلت إلى أيدي المسلمين[٣]. أي أنها تأسست على أيدي غير المسلمين، وظل مكان الجمعية لمدة عامين في باريس، (وتدار من هناك أعمالها السرية ) ثم انتقلت في عام ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م إلى بيروت بعد أن كان أغلب أعضائها من المسلمين، وهذا من تمام التغرير بالبسطاء من عوام المسلمين الذين ينخدعون بالأسماء المسلمة والعقول الفرنسية !!

عندما أخذت الدولة العثمانية تشد من قبضتها ، وتحاصر الأفكار المستوردة التي غزت العالم الإسلامي و بدأت تصدر اللوائح والقوانين ضد

(١) المرجع السابق ص ٣٢٠.
(٢) انظر أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى ج١ ص ٩ .
(٣) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١ ، ١١٢.

الصحف ، والمجلات والمؤلفات التى كانت تنادي وتدعو إلى الأفكار التحررية ـ كما يسمونها ـ كفكرة القومية العربية أو غيرها من القوميات وبعض المناهج الأوربية من دساتير وقوانين . عندئذ سلك المفسدون من نصارى ويهود سبيلاً أخرى ، وطرقاً ملتوية يتسللون منها إلى قلب المجتمع الإسلامي، فبدأوا يؤسسون الجمعيات بقصد الإفلات من مراقبة الدولة، والعمل بحرية أكثر نحو الوصول إلى هدفهم الرئيسي وهو إقصاء الشريعة الإسلامية من ديار المسلمين، وخلخلة الإسلام في قلوب أصحابه، وتحت شعار حرية الرأي وقلب نظام الحكم !! .

وكان واضع اللبنة الأولى من بيوت الفرز هذه، هم البعثة التنصيرية الأمريكية، وماكان بينها وبين اليازجي والبستاني من ارتباط ، وقد ألح الآخرون على أصدقائهم الامريكان إنشاء جمعية علمية، وكان ماأرادوا بعد تعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح .

يقول جورج انطونيوسُ انتقل اليازجي والبستاني ، خلال السنوات الأولى من ارتباطهما مع البعثة التنصيرية الامريكية في العمل على اقتراحات إنشاء جمعية علمية وقدما اقتراحهما إلى أصدقائهما الجدد في شيء من الإلحاح ، وإقناعهم بتعيين لجنة لتنفيذ الاقتراح [١].

**«جمعية بيروت السرية»**: كانت هذه الجمعية تمثل رد فعل لبعض الإجراءات الاحتياطية التي اتخذها السلطان عبد الحميد متأخراً والتي كان يسميها أعداؤه طغيان وظلم وجبروت .

ومن هذه الإجراءات اشتداد السلطان في مراقبة الصحف والمجلات وكل الحركات والجمعيات التحررية .

وكذلك كانت هذه الجمعية وغيرها من الجمعيات التحررية وليدة

---

(١) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ٤٥.

الظروف العامة في بلاد الشام ، فقد نما الشعور المعادي للعثمانيين في لبنان خاصة لسياسة عبد الحميد الإسلامية من لبنان [١]، حيث كان قد نما الشعور المعادي للترك تُغذيه عدة عوامل مثل التعليم الغربي وظهور الصحف العربية (المناهضة لحكم الخلافة ) والسفر إلى الخارج (أوروبا ) وعودة المغتربين من الولايات المتحدة ، وتوثيق الصلة التجارية بالغرب والتوسع بالأخذ بالأساليب الغربية على أنه كان ثمة عامل آخر مهم، ألا وهو شعور النصارى بأنهم أشبه بجزيرة غريبة وسط محيط من المسلمين ، وأن الحكومة ليست حكومتهم . مما جعلهم يسعون جاهدين للإنفصال عن الدولة العثمانية والحصول على الإستقلال . ومن هنا فالحركة القومية في لبنان ضد العثمانيين كانت ( في أغلبها) لبنانية مارونية نصرانية وليست عربية شاملة .

في هذه الظروف السابقة أُسست جمعية بيروت السرية عام ١٨٧٥م وكانت تهدف إلى استقلال لبنان وسوريا إن أمكن [٢] . وقد بدأت هذه الجمعية بأعضاء نصارى ، كما ذكر زين نور الدين زين في كتاب "نشوء القومية العربية" : إن المسؤول عن كتابة المناشير السرية المناهضة لحكم الدولة العثمانية التي تؤلب الناس على السلطة ، كان جمعية سرية تأسست في حوالي عام ١٨٧٦م ( أي نفس الفترة التي تأسست فيها جمعية بيروت السرية )

وتألفت من مجموعة من المثقفين المسيحيين درسوا في الكلية السورية الإنجيلية ( جامعة بيروت الأمريكية حالياً ) وأبرز هؤلاء فارس نصر باشا ( وهو الذي يحدث زين نور الدين زين بهذه الحقائق ) وإبرهيم الحوراني ، ويعقوب صروف ، وإبراهيم اليازجي ، وشاهين مكاريوس .

أما الدافع الأساسي لمثل هذا العمل فهو على حد التعبير الذي يورده

---

(١) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق . مرجع سابق ص ٩٠ .

(٢) المرجع السابق : ص ٩٠ ـ ٩١ .

المؤلف زين نور الدين عن فارس نمر "احتقار الأتراك لهم واعتبارهم أدنى شأناً منهم ، واعتبار أنهم غرباء في الدولة العثمانية" أما لجوؤهم إلى الأيدلوجية القومية التي انعكست بالمناداة بسوريا وطناً ـ دون أن يتضمن ذلك تحديداً جغرافياً ـ والعروبة "انتماء لغوياً وثقافياً وتاريخياً فسببه حاجة هذه المجموعة لتأليف جبهة عربية موحدة من المسلمين والنصارى تقوم على فكرة العروبة ، وتستطيع أن تقف في وجه الدولة العثمانية بيد أن العلاقة بين المسلمين والنصارى لم تتطور . فقد اتفقوا بادئ الأمر على محاربة الظلم العثماني واستبداده .. وعلى مبدأ المساواة بين العرب والأتراك، غير أنهم اختلفوا على الهدف الأعلى للجمعية وهو طرد العثمانيين من ولاية سورية [(١)] .

ولكن مالبث أعضاء هذه الجمعية المؤسسين من الشبان المثقفين أن اتضح لهم أن من أجل النجاح وتحقيق الأهداف التي كانوا يطمحون إليها فلابد من الاستعانة بجهود العرب المسلمين حتى يواجهوا العثمانيين بجبهة قوية ، ولذلك انضم إلى هذه الجمعية أعضاء مسلمون [(٢)] .

وفي بداية نشاط هذه الجمعية كان سرياً بحتاً، ثم توسع عمل هذه الجمعية وفتحت لها فروعاً في دمشق وطرابلس وصيدا وكان نشاطها يتمثل في إصدار المنشورات وإلصاقها في الشوارع تحت ستار الظلام ، حتى إذا ما طلع الصبح تجمع الناس حولها لقراءتها .

أما مضمون هذه المنشورات فهو مهاجمة مساويء الحكم العثماني ودعوة الشعب العربي للثورة عليه وتحطيم سياج الظلم والاستبداد ( الذي يزعمونه ) فوصلت الأخبار هذه إلى الأستانة ، فاستاء لها السلطان عبد الحميد استياءً بالغاً

---

(١) انظر د.وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان و المشرق العربي ١٨٦٠ - ١٩٦٠م ط٢ بيروت ١٩٧٨م ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) محمود صالح منسي : حركة اليقظة العربية في الشرق ص ٩١ .

مما جعله يجند جنوده للقضاء على مثل هذه النشاطات التي تفرق الصف وتحكم لأعداء الله من المستعمرين وغيرهم ...

وقد حاصرت الحكومة العثمانية هذه الجمعية وشددت الرقابة عليها فضيقت عليها الخناق مما اضطر أعضاؤها إلى وقف نشاطها بين عامي ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م ، ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م ، وهاجر أكبر أعضاء هذه الجمعية نشاطاً إلى مصر، حيث الرقابة أخف مما سهل لهم مهمتهم التخريبية لكيان الدولة العثمانية واستمروا في إصدار المنشورات والتي ركزت على فضح مساويء الحكم العثماني وأن الدولة فشلت في إجراء الإصلاحات [1] .

ويتركز برنامج الجمعية الأساسي الذي اتفق أعضاؤها على تنفيذه ولو بحد السيف في المنشور الذي بعث بصورة منه قنصل بريطانيا العام إلى حكومته في لندن في عام ١٢٩٧هـ ديسمبر١٨٨٠م ويتركز برنامج الجمعية بتحقيق النقاط التالية :

١- منح الاستقلال لسوريا بالاتحاد مع لبنان .

٢- الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد .

٣- إلغاء الرقابة وكل القيود المفروضة على حرية التعبير ونشر الثقافة .

٤- استخدام الوحدات العسكرية المجندة من الأقاليم العربية محلياً داخل حدود هذه الأقاليم[2] .

وبالطبع وكما هو متوقع لم تقتصر هذه الجمعية النصرانية في نشأتها ـ المشتركة بعد ذلك على الأهداف المعلنة السابقة ـ حيث لم تحقق نتائج مرضية لدى دعاتها فتفرعت النتائج ( وهذا مما أدى إلى تلاشيها وانهيارها ) أنها دعت

---

(١ ) المرجع السابق ص ٩١ .

(٢) انظر د. جلال يحيى : مشكلة قبرص ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٨١م ص: ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

الأهالى دعوة عاطفية إلى القيام بثورة مسلحة ضد الحكم العثماني قبل أن تعمل على تثبيت مبادئها في عقول الناس وإقناعهم بها[١].

وهذا من أهم أسباب فشلها إضافة إلى إسباب أخرى منها، وهومايتعلق بموضوعها ، وهو أن واقع هذه الجمعية وغالبية أعضائها ينتمون إلى من يصنفون بالأقليات غير الإسلامية والتي تخالف الدولة العثمانية ـ وطنهم ـ في العقيدة والمذهب .

وبالتالي يسعون جاهدين لتحقيق أطماعهم وأطماع الدول الإستعمارية الأجنبية التي تحرص على تفتيت كيان الدولة العثماني وتأسيس دولة نصرانية في قلب كيان الدولة العثمانية .

وقد عملت هذه الدول الإستعمارية بعد أن فرضت حمايتها على الطوائف النصرانية المختلفة في الشام ـ في معاهدات الزور والذل المسماة بالامتيازات ـ

عملت على إدخال التعليم بين أفراد هذه الطوائف وأسست لهم المدارس والمستشفيات والإرساليات ، وقد استطاعت هذه الطوائف استمالة بعض المسلمين المثقفين إلى جانبهم في هذه الجمعية !! لكي تقوي جبهة المواجهة وتتخذ لها صفة ( الوطنية ) لا البواعث الدينية !!

ومع ذلك فإنه كان من المفروض والواجب على المسلمين العرب أن لا يسيروا وراء تعليمات نصارى سورية في الثورة على العثمانيين الذين هم إخوانهم في الدين، فشعورهم وانتماؤهم للإسلام أقوى من أي ارتباط قومي أو جنسي أخر. ولكن وللأسف لم يكن ذلك هو الواقع ، فهذا المستشرق مارسيل كولومب يقول في هذا الصدد :

"إن المسلمين العرب ماكان بإمكانهم أن يسيروا على غير هدى وراء

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٩ .

تعليمات نصارى سورية الذين يحرضونهم على الثورة على الأتراك إخوانهم في الدين، ذلك أنهم بقدر ماكانوا عرباً كانوا أيضاً مسلمين . بل ربما شعروا أنهم مسلمون أكثر من كونهم عرباً، فالفكرة القومية لم يكن لها أن تنتشر بينهم إلا بالقدر الذي يسمح به الإسلام ويعطيه شرعية وحقاً ، وبتعبير آخر: إن العرب المسلمين ماكان بإمكانهم أن يكونوا قوميين إلا بشرط أن يبقوا مسلمين(١) .

وبعد هذه الصفحات السوداء من تاريخ أمتنا الإسلامية في القطر العربي على وجه الخصوص ، ومن واقع الاجتماعات السرية والمحاضرات السرية والعلنية التي انبثقت عن نشاطات الجمعيات الأدبية والثقافية والعلمية في بلاد الشام ومصر والعراق ، يمكننا حصر الأنشطة التي كانت تقوم بها هذه الجمعيات والتي كانت بمثابة ( **مصانع للرجال المفسدين** ) **ومراكز للأفكار والحقائق التالية** :

١ـ أنها كانت تدعو إلى التفرقة العنصرية والتمزق ، وبث روح العصبية والكراهية بين أبناء المسلمين .

٢ـ أنها تدعو إلى مجد العرب وعزهم عن طريق بث فكرة القومية العربية (وهذا ماتحقق بالفعل كما سنلحظ في المبحث القادم ).

٣ـ أنها كانت تلقى دعماً مادياً ومعنوياً من الحكومات الأجنبية ( كما أثبتنا ذلك من فرنسا مع العربية الفتاة ، وأمريكا مع الجمعية العلمية .. وغيرها).

٤ـ أنها كانت تسعى لفصل بلاد الشام عن الدولة العثمانية فصلاً تاماً .

٥- أن جهود تلك الجمعيات ، كان جُلُّهُ يسعى لهدم الخلافة ، مركز قوة المسلمين ووحدتهم، ولذلك ظل شبحاً مخيفاً يهابه المجتمع النصراني الغربي برمته ويسعى لإبادته للأبد، وهو شبح الخلافة الإسلامية .

٦ ـ كان واقع أعضاء هذه الجمعيات يمثل الواحد منهم درساً علمياً في

---

(١) وجيه كوثراني : الاتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ص ١٣٣.

مجتمعه للأفكار الغربية الاجتماعية السلوكية التي يقرؤنها في صحف العرب أو يسمعونها ممن سافر إلى أوروبا .

*** نموذج لأحدى الجمعيات السرية في تركيا ( قريباً من الباب العالي )** : لم يكن الوضع في الجمعيات غير العربية بأقل سوءً مما سبق وإن تحدثنا عنه في جمعيات الشام ومصر، وكيفية أوبشاعة سيطرة النصارى على مثل هذه المنتديات، بل على العكس، فالجمعيات الماسونية والمارونية والرومية في بلاد البلقان وتركيا وصلت إلى نتائج ونجاحات في تحقيق أهدافها ، لم تتيسر لشقيقاتها في بلاد العرب.

فتركيا الفتاة والاتحاد والترقي من بعد، تمكنت من عزل عبد الحميد ثم إسقاط الخلافة ، وكذلك الجمعيات الرومية والعربية تمكنت عقب إعلانها الثورات أن تُهيج الناس على الدولة من أجل تحقيق هدفها بالاستقلال عن الدولة . بما عرف بعد ذلك باليونان ، ثم حزب الجبل الأسود...وتدليلاً على **ماسبق سنذكر أمثلة من تلك الجمعيات ...**

**جمعية الاتحاد والترقي** : قبل قيام هذه الجمعية والتي تعد الجمعية الأم لما ضمته من جمعيات ثورية وتحررية متناثرة في أطراف الدولة كانت في الظاهر نتيجة حتمية للضغط الذي كان يتبعه عبد الحميد إزاء معارضيه ، حيث ازدادت عمليات القبض والسجن والنفي . حينئذ أخذت جماعة الأتراك الشبان المنفيين في الخارج ( والتي أكد السلطان عبد الحميد في مذكراته أن الغالبية العظمى من الأتراك الشبان كانوا من الماسون ، وأنهم انتسبوا بوجهٍ خاص إلى المحفل الماسوني البريطاني الذي يذكر أنهم كانوا يتلقون منه معونة مادية )[1].

وأخذوا يصدرون صحفاً في فرنسا وسويسرا وبريطانيا ومصر بوجهٍ

(١) مذكرات عبد الحميد ص ٤٩.

خاص[١]، (وقد بلغ عدد الصحف التى أصدرها الأمراء باللغة التركية خارج السلطنة ، أكثرمن مائة ، وثلثها تقريباً كان يصدر في القاهرة [٢] . وسرعان ماتكونت جمعيات ثورية على نمط جمعية الكاربوتاري الإيطالية ، وكان هدفها العمل على خلع عبد الحميد ، وكانت هذه الجمعيات سرية في الداخل وعلنية في الخارج .

كل هذه الجمعيات السابق ذكرها وغيرها سعت جاهدة متحدة الفكرة والهدف وإن اختلفت المناهج والمسميات والأماكن على خلخلة دعائم الدولة ولم تتوانى في استخدام أي سلاح يحقق أهدافها من صحافة أو مدارس ومعاهد تنشر فيها وعن طريقها أفكارها .. وهذا ما سنفصله في المباحث القادمة .

(١) انظر أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٥٩.

(٢) المرجع السابق ص ٢٦٠.

## المبحث الثالث

## المدارس الأجنبية وآثارها الفكرية

إن المتصفح للصراع بين الحق والباطل بين الإسلام والكفر، يرى أن ما كان يعرف بالحروب الصليبية والهجمات الشرسة على المسلمين تحولت إلى حرب أفتك وسلاح أمضى على المسلمين، وهو ماعرف بسلاح التنصير أو التبشير - كما يزعمون - وكان أبرز قنوات هذا التنصير هي المدراس أو التعليم عموماً، فإن هذا التعليم بمحاضنه من معاهد ومدارس وكليات كانت بمثابة مصانع للرجال ومعامل للأفكار المتعددة، فمنها ظهرت الشيوعية، وفيها ولدت العلمانية، وبين أحضانها تربت القومية ...

فما من باحث لهذه المذاهب الفكرية الدخيلة على المسلمين إلا ويجد أن مؤسسيها ممن تخرجوا من تلك المدراس الذين ربوا على أعين الأئمة من اليهود والنصارى، لذلك أولت الدول الأجنبية والقائمين عليها من الخارج اهتماماً خاصاً بهذا الجانب وهذا القطاع ، وكان هناك التنافس العظيم بينها، فلا يخفى على كل ذي لبٍ ما للتعليم من أهمية تفوق جل الإهتمامات وتقدم على سائر المجالات .

كما أنه من الواجب على الدولة المسلمة إعداد العدة التي أمرنا الله بها والاستعداد بسلاح العلم، فلا تكفى الذخيرة مهما أرعبت في كثرتها في الظاهر، ولاالعاطفة المجردة مهما أشعلت في الحاضر، بل لابد من أفكار ومباديء وعقائد يُقَاتَلْ من أجلها ويوالى عليها وتسال الدماء ويضحى لها، ولن استطرد في الكلام عن التعليم وأهميته، وأهمية التركيز على هذا المجال والمراقبة العميقة من الدولة، والقيود التي يجب أن تفرض على كل صاحب ملة إذا ماأراد أن يفتح باباً من أبواب التعليم، أو مدرسة ويوفد إليها سواءً

أهل ملته أو أبناء المسلمين لما لذلك من آثار خطيرة تظهر لنا خلال هذا المبحث المهم .

إن الحديث عن التعليم هو الحديث عن التنصير في ذات الوقت، وهو حديث عن العلمانية في الوقت نفسه، وهو حديث أيضا عن خلع المسلمين عن دينهم وتقاليدهم وأفكارهم ومبادئهم إلى ماترمي إليه تلك المدارس .

لن أكتب على لساني وقلمي في هذه الوريقات، وإنما سأذكر كلام مؤسسي هذا الصرح في الدولة المسلمة، هم بأنفسهم يبدون أهدافهم التي من أجلها تكبدوا ماتكبدوا لأجل هذه المدراس .

فهذا المُنصِّر هنري جيب يكتب إلى أحد زملائه يقول : « لنبتهل إلى الله في سبيل تعمير نفوس أولئك الشبان ، الذين يترددون على الكليات، لأن التعليم في مدارس الإرساليات واسطة إلى غاية ... وهي قيادة الناس إلى المسيح .. إن المدراس تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم المسيحى فيستمر حتى يشمل أولئك الذين سيصبحون يوماً ما قادة في أوطانهم»[١]. وأيضاً يبين لنا خطر المدارس وأهميتها لدي مؤسسيها قول السفير الأمريكي : « بأنه لاقيمة لوجوده في استطنبول اذا ماأغلقت المدراس» ، فبعد أن حاولوا إلغاء الامتيازات الأجنبية وعلى إثرها تغلق المدراس الأجنبية هدد السفير الأمريكي في تركيا قائلا: « إن المدارس الأمريكية إذا لم تفتح أبوابها فلا معنى لوجوده هنا في تركيا »[٢] .

لذلك نجد فكرة إنشاء المدارس الأجنبية في اسطنبول خاصة كانت متقدمة على غيرها في المجالات التي سلكها أهل الذمة لإقصاء الشريعة وهدم الإسلام من داخله، قبل هدمه ظاهراً، فيرجع تاريخ فكرة إنشاء المدراس الأجنبية في اسطنبول إلى القرن السادس عشر الميلادي تقريباً عندما افتتحت مدرسة القس

(١) انظر عبد الرحمن عوض : التبشير في ديار المسلمين ص ٨ .

(٢) سهيل محمد صابان : المؤسسات التعلمية ص ٢٣٥.

بلو الفرنسي ، وتكاد تكون أول مدرسة أجنبية في اسطنبول.

ولقد استمرت الجمعيات التنصيرية الفرنسية منها بشكل خاص منذ التاريخ المذكور في افتتاح المدارس ، كما بدأت الجمعيات الإيطالية والإنجليزية في إنشاء مدارس بمراحلها المختلفة أيضاً، وكانت هذه المدراس في البداية خاصة بأولاد رعايا الدولة العثمانية من النصارى واليهود والأولاد الأجانب القاطنين في اسطنبول.

واستمرت هذه الحالة حتى أواسط القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي حيث حصلت تغيرات أساسية وسياسية في الدولة العثمانية وأصبح الأجانب يتدخلون في شئون الدولة العثمانية عن طريق الامتيازات الأجنبية وبحجة حماية الأقليات الموجودة فيها، كذلك ماتبع الإصلاحات العثمانية المعروفة بالخط الهمايوني عام ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م.

وأيضا الحركة الإصلاحية والدستور المشروطية ١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٦م التي أصبحت تسوغ تدخل الدولة الأجنبية في شئون الدولة العثمانية، حيث حصل الرعايا غير المسلمين الموجودين في الدولة العثمانية على كثير من الامتيازات وأصبحت الدولة تقدم التنازل تلو الآخر للدول الأجنبية، بل وتبدي رغبتها في تطبيق القوانين الوضعية، وما ذلك من فراغ، ولم يكن ذلك من نتاج يوم وليلة، ولكن بعد مراحل كثيرة من الجهد والنشاط والمساعي التي بذلت من قبل أهل الذمة حتى أوصلت الدولة إلى هذه الدرجة من الإنحطاط.

هذا الكلام يجرنا إلى الحديث عن السبب في انتشار التعليم الأجنبي، أو بدايات التعليم عند أهل الذمة في الدولة العثمانية، فلقد كان نظام الحكم العثماني يعطى للنصارى واليهود حق ممارسة الشعائر الدينية دون تعرض لأي ضغط حتى هذه الحرية الدينية كفلت لأهل الذمة الحفاظ على كيانهم وتابعوا دراسة تعاليمهم في الأديرة والكنائس دون تدخل من جانب السلطات الحاكمة

العثمانية تمشياً مع السياسة العثمانية العامة التي تعطي لكل ملة حق إدارة شئونها الخاصة بكل حرية طالما أن ذلك لايعرض البلاد لأزمة ما .

ولذلك ظلت الأقليات النصرانية التقليدية في الدولة العثمانية تعاني من بعض ماكان يعانيه المجتمع الإسلامى في العراق مثلاً زادت من تدهور أو على الأقل جمود الفكر والمعرفة خلال الفترة الواقعة بين القرنين السادس عشر والثامن عشر [١] . ولم يكن هذا خاصاً بالنصارى، بل كان لكل ملة أو فرقة منها مدراس خاصة بها .

إن الحديث عن بداية المدراس لأهل الذمة ونشأتها في الدولة العثمانية، يجرنا إلى الحديث عن بداية التنصير، حيث كان هذا الغرض الأول والظاهر من هذه المدارس، وكانت تدرس فيها العلوم اللاهوتية الدينية . ثم أضيف إليها العلوم التجريبية مما رفع من شأنها عند عامة الشعب.

وأصبحت النفوس تتوق دائماً لأن يدخل أبناء المسلمين تلك المدارس، نظراً لما لها من سمعة، ولأن خريجي هذه المدارس هم الذين يتبوؤن المكانة المرموقة في البلد، وهم الذين يتولون أعلى الوظائف والمراكز، حيث منهم المترجمون ومنهم الصناع ومنهم أصحاب المؤهلات العلمية التي كانت الدولة في أمسِّ الحاجة إليهم من تخصصات لم تكن موجودة في مدارس الدولة الإسلامية .

فمع أن تلك المدارس الأجنبية في اسطنبول خاصة كانت تهتم بالتنصير وتركز عليه إلا أنها لم تتأخر في تنظيم المناهج الدراسية بحسب متطلبات التقنية العصرية وتطبيق العلوم البحتة والاستفادة من خبرة الأساتذة والمدرسين، وجلبهم من دولها إلى اسطنبول وتعليم اللغات الأجنبية المختلفة للطلاب.

لذلك فقد شاع صيتها بين طبقات الشعب كافة، وكان الإقبال من قبل

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٩٦.

المسلمين أنفسهم كبيراً وبخاصة في نهاية القرن التاسع عشر حيث المتخرج من المدرسة الأجنبية يتعين في وظيفة مرموقة بدوائر الحكومة أو المؤسسات التجارية في الوقت الذي كانت فيه المدارس الحكومية لاتجد القبول لدي الشعب.

ومع أن أعداد الطلاب المسلمين أصبح يزداد يوماً بعد يوم في المدارس الأجنبية حتى أصبح غالبية طلابها من المسلمين، إلا أن التعليم عند أهل الذمة اتجه نحو العزلة والاستقلال والذاتية، حيث أصبح كأنه دولة داخل دولة يوجه نشأً جديداً على الوجهة التي يراها .

هذا الكلام لم يكن خاصاً باسطنبول فقط ، بل شمل أنحاء الدولة العثمانية، وخاصة في بيروت حيث كانت مجمع الأفكار ومجمع الثقافات، وصاحب كل مبدأ من صحافة أو مدارس أو مؤلفين أو صاحب جمعيات سواء السرية أو العلنية، وكانت المركز لهذه الطبقة التى تدعم الطبقة المثقفة في بيروت خاصة ثم القاهرة .

ونخصص في هذا المبحث بعض أسماء المدارس في تركيا في اسطنبول، وأيضاً نأخذ شريحة أخرى من العالم العربي خاصة من بيروت، حيث هي من الكثرة والوفرة الهائلة بمكان، وفي العراق كانت تعد من أقل النسب في انتشار المدارس الأجنبية فيها ،أقصد أقل مما في بر الشام أو مصر من حيث النشاط التنصيري.

وأيضاً سأتعرض لسبب انتشار هذا التعليم الأجنبي وتفوقه على الإسلامي.

وبداية تعليم البنات وبيان أن أول تعليم للمرأة كان على أيدي هذه المدارس الأجنبية سواء ما كان عند العرب أو عند الأتراك.

ثم الميزانية الضخمة التي كانت ترسل لتلك المدارس والجهات التي كانت تتعهد بتمويلها مادياً، ومدى حرص النصارى واليهود على بقاء هذه المدارس

لأنها تخدم أفكارهم ولأن لها نتيجة هم ينتظرونها على أحر من الجمر.

كذلك سنتعرض للعلاقة الوثيقة بين التنصير والمدارس من حيث المناهج التى اشتمل عليها جدول المدارس ومن حيث القائمين على التدريس في تلك المدارس.

ولايفوتنا أن نبين الآثار المترتبة على انتشار تلك المدراس على المسلمين خاصة، وعلى تمكين أهل الذمة وتمكنهم من رقاب العباد والبلاد، والأفكار التي استطاعوا أن يزرعوها ويغرسوها عن طريق تلك المدارس، فأقول مستعيناً بالله :

خابت الدول الأوربية في الحروب الصليبية فأرادت أن تثير على المسلمين حرباً صليبية جديدة عن طريق التنصير فاستخدمت تلك المدارس والمستشفيات ووزعت المنصرين في العالم[١].

وكانت الدولة العثمانية تولي الشئون العسكرية جُل اهتمامها، ولم تلق الناحية الثقافية والتربوية نفس الأهتمام مما أدى إلى مزيد من التراجع الحضاري ، حيث أصبحت البلاد الإسلامية هدفاً للغزو الثقافي وحملات تنصيرية مركزة من دول الغرب مجتمعه [٢] .

ولما أدركت الدول الغربية أن المنصرين آلة فعالة لتأييد النفوذ الأجنبي في الدولة العثمانية أخذت تلك الدولة تتبارى في استخدام المنصرين [٣] .

فالحديث إذاً عن المدارس هو حديث في نفس الوقت عن التنصير، تكلم كثيرٌ من الباحثين عن بدايات التعليم خاصة في الدولة العثمانية على اختلاف أسباب الانتشار الظاهر وتغطية تلك المدراس الصليبية واليهودية على المدارس

(١) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار ص ١١٥.

(٢) انظر محمد هاشم ريان : أخطار التقليد التربوي للغرب على البلاد الإسلامية . مجلة الأمة القطرية - ع٦٠ ذو الحجة ١٤٠٥هـ ص ٣٢ - ٣٥.

(٣) انظر عمر فروخ ومصطفى الخالدي : التبشير والاستعمار ص ١١٧.

الحكومية، بل وتفوقها عليها من حيث المناهج والعدد والماديات والمقررات وغيرها.

من ضمن من قال هذا الدكتور عبد العزيز نوار في تاريخ العراق الحديث، فذكر مايخص العراق والتعليم والمدارس الخاصة بالنصارى واليهود، وبيَّن أن أسباب ذلك ، الصراع بين طوائف اليهود والنصارى فقال « كان العراق بصفة عامة وشمالية بصفة خاصة منذ الثلث الأول من القرن التاسع عشر هدفاً هاماً من أهداف النشاط التنصيري البروتستانتي، وكان لنشاط المنصر الأمريكي جرانت من الأمور التي ورطت المنطقة في صراع طائفي بين الأكراد النساطرة جلب إلى المنطقة المتاعب والتدخلات الأجنبية.

وبدأت هذه المتاعب عندما حول جرانت مدرسته التي أراد أن يتخذها مقراً لنشاطه التنصيري إلى مايشبه القلعة القادرة على الصمود في وجه القوة المحلية إذا تحركت عسكرياً، وبعد تلك الأحداث الدامية التي دارت في الأربعينات من القرن التاسع عشر أصبح النساطرة محط رعاية القنصل الإنجليزى من بعد ذلك».

ثم قال « تلك كانت الظروف التي بدأ فيها النشاط التعليمي بين الطوائف المسيحية متواضعاً منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما وفدت البعثات التبشيرية الأوربية إلى العراق فأدخلت نظم تعليم حديثة أخذت مكانها جنباً إلى جنب مع النظم القديمة » [(١)] .

هذا بالإضافة إلى ماكان في العراق من مدارس مسيحية قديمة كانت غالبيتها العظمى ملحقة بالكنائس، **واستطيع القول بأن الكنائس هي البدايات لكل من تلك المدارس الخاصة بأهل الذمة.**

---

(١) انظر عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

فكما ذكرنا من قبل في العراق كذلك في عاصمة الخلافة اسطنبول كانت الكنائس اللاتينية الكاثوليكية بعد فتح استطبول عام ٨٥٧هـ ـ ١٤٥٣م تلقن صغار أتباعها مبادىء القراءة والكتابة في مدراسها الصغيرة المؤسسة قرب الكنيسة ضمن الامتيازات التي منحها السلطان محمد الفاتح للأرض من الموجودين في استطبول، ولم تكن لهذه المدارس أهمية تذكر لا من حيث العدد ولاالثمرة، وكانت المقررات الدراسية عبارة عن دروس دينية والقراءة والكتابة.

وبعد توسط السفير الفرنسي لدي الباب العالي أرسل الأخير عام ٩٩١هـ ـ ١٥٨٣م بعض الأعضاء، وهذا كما سبق لنا في الحديث عن الجمعيات من الفرق النصرانية والجمعيات، أسسها القسيس الفرنسي إلياس لايونا، وهدف هذه الجمعية التنصير ليس بهذه البساطة، بل من أجل تدريس أولاد النصارى.

ففتحوا مدرسة القسيس بنوا الذي سبق أن ذكرتها في تمهيد هذا المبحث أنها أول مدرسة أسست في اسطنبول، إلا أنها أغلقت بعد عدة أعوام، بسبب انتشار مرض وبائي ثم استؤنفت فيها الدراسة بعد عدة أعوام.

وافتتحت مدرسة أخرى عام ١٠٣٤هـ ـ ١٦٢٥م باسم القديس لُو ، وأيضاً جمعية الكابوشيين فرع من فروع طريقة فنسسك المسيحية وقد تأسست عام ٦٠٥هـ ـ ١٢٠٩م من قبل البابا والقديس فرنسيسك بغية ارشاد الناس إلى الزهد وادعاء لتغفير الذنوب للناس [١] .

(١) انظر سهيل محمد صابان : المؤسسات التعلمية ص١٥٨ .

**العلاقة بين المدارس عند أهل الذمة وبين التنصير :**

ممن يتولون التدريس في تلك المدارس تجد أن جُلهم أو كلهم من الرهبان والقسيسين سواءً كانوا نساءً أو رجالاً . فنجد في هيئة إدارة معهد القديس للبنات أن هناك ٦٤ راهبة يكوِّنَ هيئة تدريس فيه، كما كان أغلب المدرسين في معهد القديس سينون الفرنسي وهو الأول للبنين من الرهبان اللعازريين، وبعض أعضاء الفرير كانوا يدرسون الفصول .

وكان المدرسون الرهبان في المدارس الأجنبية أيضاً يحاولون التأثير على الطلاب وإعطائهم صورة جملية عن الديانة النصرانية، إلا أن تخصص أولئك الرهبان لم يكن في مادة الدين وحدها، بل كانوا يدرسون كافة المواد مثل الجيولوجيا والفلسفة وغيرها من المواد، وهذا الحكم عام على جميع المدارس الأجنبية في اسطنبول أو الدولة عامة .

وكان المدرسون المتخصصون في علوم اللاهوت والديانة النصرانية وتاريخ الكنائس مرسلين من فرنسا خصيصاً للتدريس في المدارس الفرنسية، كما كانت المدارس الفرنسية في الدولة العثمانية بشكل عام يديرها الرهبان الكاثوليك بمختلف جمعياتهم[١] .

وأيضا للارتباط بين المدارس عند أهل الذمة وغرض التنصير وغيره من الأفكار، أننا نجد أن أكثر المدارس الأجنبية متداخلة مع الكنائس أو ملحق بها . ويمتاز الجو الدراسي العام في مدرسة نوتردام دوسيون الفرنسية في اسطنبول بأنه جو نصراني خالص، فإن سكن الطلاب والمطعم وقاعة المحاضرات والفصول الدراسية كانت مزينة بصور القديس وكبار رجالات الدين النصراني، إضافة إلى أن جميع الفصول الدراسية وغرف الفسحة كانت مزينة بالصليب .

(١) انظر :سهيل محمد صابان ص ١٦٠.

ولم يكن يمكن التفريق بين المدرسة والكنيسة، وكان الارتباط وثيقاً بين المدرسة والكنيسة الملحقة بها، حيث كان الطلاب يؤخذون من المدرسة إلى الكنيسة في الأيام المقدسة عند النصارى، أما الأيتام من الطلاب الذين كانوا يدرسون على حساب المدرسة ، فارتباطهم بالكنيسة أوسع ومكوثهم فيها أكثر من غيرهم.

وكان الباب الخارجي العام للمدرسة يؤدي إلى الكنيسة ولايستطيع الطالب الدخول إلى المدرسة إلا بعد مروره من الكنيسة، لذلك لم يكن من الممكن قطع العلاقة بين المدرسة والكنيسة .

وكان تأثير الطقوس الدينية التي كانت تجرى أيام السبت من كل أسبوع في قاعة الاجتماعات على الطلاب كبيراً.

فقد كانوا يقربون من النصرانية يوماً بعد يوم، مع أن أكثر من ٨٠٪ من الطلاب من المسلمين .

وقد أعدت القاعة ونظمت مثل الكنائس تماماً حيث توجد لوحة كبيرة عليها صورة منشيء طريقة سيون Sion ، وينبغي على الجميع الركوع أمام هذه اللوحة بكل اجلال واحترام كلما دخل إلى القاعة.

وكان يتم فتح القاعة للمراسم الدينية وتعيين الجزاء للطلاب أو العفو عنهم .. فيؤتى بالطالب المراد عقوبته أمام جميع الطلاب والمدرسين ويتقدم إلى كرسي «مريم العذراء » وفي الاصطلاح النصراني : الأم مريم أو الوالدة مريم ، فيركع ويجلس على ركبتيه بكل إجلال وينتظر اعلان الجزاء بخوف ورهبة شديدين .

كان الجزاء في الغالب كلمات قاسية تحقيرية للطالب ثم خلع لحزامه ... وفي تلك اللحظة يرجو الطالب الموت بدل الوقوع في مثل هذه الحال، وخاصة أمام جميع الطلاب والمدرسين .

وكان في قليل من الحالات يسمح بحضور المدرسين الأتراك، الذين لم يكن من الواجب على الطلاب احترامهم مثل مايحترمون المدرسين الأجانب، إلى أخر ماعندهم من طقوس وخرافات وكانت تمارس مع أبناء والمسلمين وفي دولة المسلمين [١] .

ويقول روفائيل بطي وهو مؤلف وأديب نصراني صاحب كتاب تاريخ نصارى العراق " وكان الأسلوب الثاني وهو التعليم أداة فعالة من أدوات التبشير الكاثوليكي البابوي وأكثر وضوحاً في طائفة الكلدان من غيرها، خاصة عندما نجح المبشرون البابويون في تحويل عدد من بطاركة الطائفة الكلدانية إلى الكاثوليكية، وكان هذا مشجعها جداً للبابوية كي تعمل على فتح أبواب مدارسها في الشرق أمام رجال الدين الشرقيين ، ولكن دون أن تعمل على فتح مدارس لاهوتية في العراق مكتفية بما فتحته البابوية من مدارس رجال الدين الشرقيين في بيروت وفي روما.

بينما ركز هؤلاء المبشرون جهودهم في داخل العراق في افتتاح مدارس ابتدائية في ( دياربكر ) فقد التحق عدد من رجال الدين المسيحيين العراقيين بمدرسة الجزويت في بيروت كما رحل بعضهم مثل ـ افليميس يوسف داود ـ إلى روما واستكمل هناك دراسته العليا اللاهوتية ليعود إلى الموصل في ١٢٧١هـ ـ ١٨٥٥م محملاً بأفكار تعليمية جديدة تبلورت في جهوده الكبيرة نحو اخراج كتب تعليمية حديثة للغة العربية وآدابها وعلومها وفي الوعظ والخطابة، وفي المواد الاجتماعية والحساب .

والحقيقة كان العدد الذي التحق بمدارس لبنان التبشيرية من مسيحي العراق قليلا إلا أن هذا العدد القليل كان يكشف بسرعة عن قدرات ثقافية ذات مستوى أعلى من أقرانه، الأمر الذي يفتح أمامه الطريق إلى المناصب العليا

---

(١) انظر : سهيل محمد صابان : المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

الكنسية، ومن ذلك وصول أحد رجال الدين الذين تعلموا في مدرسة ( غزير ) اللبنانية إلى منصب البطريركية الكلدانية [١] .

توالت الجهود التنصيرية البروتستنتية منتهزة فرصة حصولها على حق إنشاء مدارس خاصة بالطائفة، فظهرت في الثمانينات في الموصل مدرستان واحدة للصبية وأخرى للفتيات، وكان تعداد الأولى ( خمسين ) طالباً وتعداد الثانية ( أربعين ) طالبة ، وهو عدد لابأس به، بل يعتبر تحرر كبير جداً إذا أدخلنا في الاعتبار أن هذا النشاط التنصيري التعليمي البروتستنتي كان حديث العهد بالعراق ولايستند إلى قاعدة طائفية على النحو الذي نشاهده لدي غالبية الطوائف النصرانية الأخرى [٢] .

❖ **المناهج :** إذا تبين لنا مدى غفلة الدولة عن كل مايحصل في هذه المدارس من حيث المناهج والقائمين عليها في التدريس أو كثرتها أو الدعوات التي تدعو إليها ، كانت هناك هيئة خاصة لوضع المناهج في المدارس الرومية التابعة للبطريكية ، وهذه الهيئة مكونة من أربعة أعضاء روحانيين وأربعة أعضاء جسمانيين تضع المناهج الدراسية للمدارس الرومية في اسطنبول ، مع أنها كانت مشابهة لمناهج المدارس اليونانية غير فارق يسير جداً وهو مادة اللغة التركية في المدارس الرومية باسطنول .

وكانت الحكومة الإيطالية كذلك تعد المناهج الدراسية لمدارسها الواقعة في الدولة العثمانية، فكانت المدارس الأجنبية تطبق نفس المناهج المطبقة في دولها التي تتبعها، وتقرر على الطلاب نفس الكتب المدروسة هناك، ولم تكن نظارة المعارف التركية تستطيع التدخل فيها .

وكان العامل المشترك بين جميع هذه الدول والجمعيات التنصيرية المختلفة

---

(١) روفائيل بطي : تاريخ نصارى العراق ص ١٤٨ .

(٢) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٣٠١.

هو إعداد المناهج التعليمية الدراسية في المدارس حسب العقيدة النصرانية، إلا أن فرنسا لما كانت متأثرة بالثورة الفرنسية ـ التي كان بموجبها الفصل بين الدين والدولة ـ تدخلت في شئون المدارس الفرنسية التابعة للجمعيات التنصيرية المختلفة ابتداء من بداية القرن العشرين، وأصبحت مناهج هذه المدارس على غرار مناهج المدارس الفرنسية العلمانية .

إلا أنها لم تنفصل عن التقاليد النصرانية ولاعن التنصير كما يظهر ذلك في الكتب والجرائد في العهود الأخيرة ، غير أن هذه المدارس الفرنسية فقدت حماسها العقدي الذي بدأت به .

وكانت المناهج الدراسية في جميع المدارس الفرنسية في الدولة العثمانية شبه موحدة، ومع أن تلك المدارس بشكل عام انشئت للتنصير، إلا أن ذلك لم يمنع من اهتمامها بالتعليم الحديث المعاصر وتنظيم المناهج الدراسية حسب متطلبات التقنية الحديثة [١] .

وهذا هوما فتح لها باب القبول عند عامة المسلمين وأصبحوا يتهافتون على الالتحاق بها

❖ **الأسباب :** ولكن قبل البداية في سرد المدارس التي كانت خاصة بأهل الذمة ومن تأسيسهم وبدايتها كانت خاصة برعاياهم وأبناءهم والأرقام المفجعة لتلك المدراس في كل اقليم أو ولاية من الدولة العثمانية شاسعة الأطراف تلمح إلى بعض العوامل والأسباب التي ساعدت على هذا الانتشار المريب للمدارس الأجنبية أو مدارس أهل الذمة.

فبالإضافة إلى الأسباب التي تقدمت معنا في كل هذه النكسات التي

---

(١) انظر محمد صابان : المؤسسات التعلمية الأجنبية في نهايات الخلافة العثمانية في اسطنبول ص ٢١٤ – ٢١٥.( نقلاً عن نوري بكر : شرقدة فرانسز مكتب لري ) ( نقلاً عن مجلة تربية ، العدد ٢ ، السنة ١ ) .

توالت على الدولة من الامتيازات الأجنبية وصدور نظام المشروطية والخط الهمايوني كان الضعف العام الذي اعترى الدولة العثمانية في نظر الهيئات والجمعيات التنصيرية والأوروبية والأمريكية فرصة لتوجيه حملات تبشيرية مختلفة الاتجاهات والمذاهب والأهداف لتنصير المسلمين في الشرق لاحتواءهم مذهبياً وسياساً أو على الأقل كسبهم عاطفياً وتشكيكهم في دينهم.

وتدفق المنصرون من بروتستانت وكاثوليك عل الشرق الإسلامي وأسسوا المدارس التنصيرية التي تعد أفكار العصر الحديث وتتبع مناهجهم وتعلم العلوم الرئيسية التي عليها بنيت الحضارة الأوروبية ، ولكن هذا التسابق التنصيري كان واضحاً جداً في لبنان بالذات ثم إلى سوريا وفلسطين .

يظهر لنا أن جهود المنصرين في قطاع الشرق للاستعمار الغربي أن لبنان أصبح منطلق الحركة التنصيرية الأوروبية الأمريكية لفتت هذه الحركة التنصيرية أنظار نصارى العراق، ولكن التيارات الفكرية المختلفة التي كانت تموج في الشام في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر كانت تصل ضعيفة إلى العراق في وقت كانت فيه الطوائف النصرانية في الدولة العثمانية قد بدأت تقيد الفرمانات والمراسيم التي أخذت تصدر منذ عام ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م في شأن المساواة بين رعايا السلطان العثماني وحصول النصارى في الدولة العثمانية على الحقوق التي كانت للمسلمين.

فأسرعت الهيئات السياسية الأوروبية والتنصيرية إلى انتهاز هذه الأوضاع لتحويل نصارى الشرق إلى الارتباط بأوروبا لا لمصلحتهم فقط وإنما لمصلحة أوروبا ، وكان التعليم والمدارس الأوروبية أحد الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الأهداف.

وأيضاً من أسباب انتشار تلك المدارس التفوق الحضاري الدورزي الواضح في القرن التاسع عشر الذي غير نظرة اللامبالاة التركية السلبية في

التعليم وجعلها تعيد النظر وتقارن بين مدارسها التقليدية ومؤسسات التعليم الأوروبية والأمريكية التي زرعتها الهيئات والمؤسسات التنصيرية في العالم العربي، التي وإن كانت أعداد كبيرة منها لاهوتية الهدف قبل منتصف القرن التاسع عشر.

فهي تعالج موضوعات من صميم الحضارة الأوروبية وتُعد الأذهان لتتقبل ، وتطوير العقول مع مفاهيم العصر والانسياق معها بعكس طبيعة وعمل معلمي المدارس الإسلامية التقليدية آنذاك .

وكانت المؤسسات التعليمية النصرانية في لبنان بالذات من العوامل التي جعلت المقارنة تكشف بسهولة الفوارق الثقافية الشديدة بين متخرجي المدارس الإسلامية التقليدية والمتخرجين من المدارس التنصيرية، وبين الدور الذي يمكن أن يقوم به هؤلاء دون أولئك خاصة، حيث أنه كان من اليسير إلى حد كبير على النصراني الاندماج في تيار العصر علمياً وثقافياً وتجارياً، بينما كان العجز واضحاً على المتخرجين من المدارس الإسلامية.

وبتوالي السنوات كانت هذه الحقائق تترسخ وتظهر على الفكر الإصلاحي التركي الإسلامي، حتى أصبحت المدارس أدوات التعليم الحديثة بنظامها وحصصها المحددة ومناهجها المشتملة على العلوم الرياضية والطبيعية والأدبية الغربية والشرقية من أهداف السياسة التعليمية العثمانية منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر [١] .

ومن الأسباب التي أدت وساعدت على انتشار وتفوق مدارس أهل الذمة على المدارس الحكومية ، التعليم المجاني عندهم ، حيث كانت البعثة من أنشط البعثات التنصيرية في تغطية حاجات المدارس الصليبية من مدرسين ومدرسات دون أية نفقات في مقابل ذلك، على أن الزيادة المطردة في أعداد المقبولين في

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٢٣٣ - ٢٣٥

المدارس النصرانية المختلفة واجهت الهيئات التنصيرية المسؤولة بمشكلة الكتاب المدرسي ، إلا أنها كانت أقدرعلى توفير الكتاب المدرسي من غيرها من المدارس الإسلامية الحكومية، إذ اشترت بعض الهيئات التنصيرية مطابع في عام (١٢٩٨هـ ـ ١٨٨١م ، ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م ) فكان في ملكها مطابع خاصة .

وأيضاً من أسباب انتشار وتفوق مدارس أهل الذمة، عدم تشديد الرقابة، بل انعدام الرقابة تماماً فكانت مناهج التدريس والكتب لاتسير على نفس المناهج المستخدمة في المدارس الحكومية في أغلب الأحيان . فبصفة عامة كانت هذه المدارس النصرانية بعيدة عن رقابة الحكومة ، ولها أمر إدارة نفسها بنفسها دون محاولة تذكر للسيطرة على طبيعة المناهج التي كانت تدرس بها إلا بعد عام ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م ، ولا على الطريقة التي كان يقوم المنصرون بالتدريس بها في تلك المدارس [١] .

**الجهات التي تولت تمويل تلك المدارس** :فيما يتعلق بمجانية التعليم نلمح إلى أهم الجهات التي كانت تمول تلك المدارس، فلم تكن تمول لاستقبال الطلبة الأجانب من رعايا الدول الأجنبية فقط ، بل أيضا لترغيب أبناء المسلمين فيها، وكان الاعتماد في الغالب في المدارس الأجنبية من الناحية المادية على الدول التي أنشأت تلك المدارس إن كانت مسماة باسمها.

فقد كانت فرنسا تخصص سنوياً مليون ومائتي ألف فرنك فرنسي للمدراس الواقعة في الدولة العثمانية ـ كما كانت إيطاليا تخصص سنوياً مليون فرنك إضافة إلى أن مصاريف بعض المدارس الفرنسية كانت تتحملها وكالة البابا للدعاية والإعلام الخارجي باسطنبول، والبعثة الخارجية الباباوية في روما.

ومن نتيجة هذا الدعم المادي الكبير أن أكثرت فرنسا من افتتاح المدارس المجانية ، فإلى جانب كل مدرسة ذات رسوم، كان يتم فتح مدرسة مجانية حتى

---

(١) انظر عبد العزيز نوار المرجع السابق ص ٣١٨ - ٣١٩.

يتمكن الفرنسيون من تحقيق الهدف الذي كانوا يرمون إليه من نشر المذهب (الكاثوليكي والثقافة الفرنسية ) [١] .

كذلك مما ساعد في تحسين مستوى تلك المدارس أن نفس الكنائس كان لها ريعٌ خاصٌ ودخلٌ خاص لاستمرار عملية التعليم في هذه المدارس اليهودية والنصرانية والأرمنية وغيرها، فكانت الأقليات الدينية في اسطنبول تقيم المدارس الخاصة بها، والمدارس الحكومية الخاصة بالجاليات النصرانية تقوم بإنشائها البطريقية الرومية أو بعض الأروام المهتمين بالتعليم والثقافة الرومية ، والمدراس الرومية تقوم بإنشائها الكنائس الرومانية أو بعض الأرمن المهتمين بالتاريخ والأدب الأرمني ، كذلك اليهودية تقوم بإنشائها الحاخامainية اليهودية والجمعية اليهودية التي أنشئت في باريس سنة ١٢٦٧هـ ـ١٨٦٠م ، أما المدارس عموماً عند أهل الذمة فيقوم بإنشائها في الغالب الجمعيات التنصيرية وعلى رأسها :

أ . جمعية الجزويت ( اليسوعيين ) . ب. جمعية اللعازريين .

ج. جمعية الدومينيكان . د . جمعية الفرنسيسكان .

هـ . جمعية الكابوشيين . و. جمعيات البروتستانت .

ز. الجمعيات التنصيرية الأخرى .

وكذلك الدول نفسها وعلى رأسها :

أ. فرنسا . ب. إيطاليا . ج. أمريكا .

د. بريطانيا . هـ. ألمانيا . و. النمسا .

ز. باقي الدول التي لها مؤسسات تعليمية في الدول العثمانية مثل روسيا

---

(١) سلامة جرجس : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ـ المجلس الأعلى لرعاية الفنون ـ القاهرة ١٩٩٣م ص ١٢٩.

وبلغاريا وإيران[١].

كما يقوم بتمويل تلك المدارس ـ إضافة إلى ما سبق ـ بعض الأشخاص المنصرين الذين لم يكونوا يتبعون جمعية تنصيرية معينة مثل : سايروس هاملن منشيء معهد روبرت الأمريكي، والدولة السباقة في حجم المساعدات الموقوفة على المدراس هي الولايات المتحدة الأمريكية بالرغم من أن فرنسا سبقتها كثيراً في عدد المدارس إلا أن المدارس الأمريكية كما جاء في التقرير الذي أعدته الجمعية الأمريكية للتنصير والتي تدعى( Board of Mission) عام ١٣١٣هـ ـ ١٨٩٥م ، أن أمريكا كانت تصرف سنوياً ستة ملايين دولار أمريكي لمدارسها الواقعة في اسطنبول وحدها.

وكانت مصاريف معهد روبرت الأمريكي وحده حتى عام ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٤م ثلاثة ملايين دولار وسبعين ألفاً، لأن فخامة مباني المدراس الأمريكية والمختبرات العلمية والمكتبات الضخمة والأجور المرتفعة للعاملين فيها كانت تكلف كثيراً، إضافة إلى أن بعض الأغنياء الأمريكيين كانوا يقدمون بين الحين والآخر مساعدات سخية لتلك المدارس الأمريكية في الدولة العثمانية .

وقد كلف مبنى المعهد الأمريكي للبنات في اسطنبول عشرين ألف دولار دفعها وليام شابلن الثري الأمريكي . وتبرع شاري ويلدر للمعهد بعشرة ألاف دولار أمريكي .

ولم يكن هذا التبرع السخي خاصا بالأثرياء فقط كجون كندي [٢] ومن سبقه، وإنما أيضاً أصحاب المهن كان يحث بعضهم بعضاً على مساعدة هذه المدارس والقيام بدعمها، فعندما اشتكت المدارس الأرمنية من الضيق المالي قام

---

(١) انظر محمد صابان المؤسسات التعليمية ـ مرجع السابق ـ ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٢) تبرع بمليوني دولار لمعهد روبرت وأوقف أوقافاً ضخمة إلى الآن لخدمة التعليم . د. نجاتي . وانظر:كلام في الغزو الفكري ـ مجلة الأمة القطرية ع ١ ـ من السنة ٢ محرم ١٤٠٢هـ ص٧٤ ـ ٨٠

أصحاب المهن الأرمن في اسطنبول بالموافقة على دفع مصاريف المدارس الأرمنية فيها على وجه الخصوص، وكان ذلك بحضور البطريك عام ١٢٤٧هـ - ١٨٣١م ، إضافة إلى أنهم كانوا يقومون بتبرعات مالية لتلك المدارس . والتي كانت تحفظ لأبنائهم تقاليد وعادات آبائهم وتربيتهم على مذهبهم الديني الأرمني.

كما كانت مصاريف مدرسة الفنار وباقى المدارس الرومية يدفعها أغنياء الروم، إما مباشرة وإما بالعقارات التي كانوا يهبونها للكنائس أو من إيجارات تلك العقارات أو الفوائد التي تجبى من ربا الأموال .

إلا أن كثرة انتشار المدارس الرومية في اسطنبول أدت إلى تكاليف مالية ومصاريف كثيرة فكانت إلى جانب ماسبق، تقوم البطريركية الرومية بمساعدات مالية كبيرة للمدارس الرومية، إضافة إلى ذلك كانت هناك تبرعات مالية كثيرة من قبل الجماعة الرومية وأملاك الكنائس وأوقافها وضرائبها وفلوس الشمع، بل ومن المسرحيات التي تقيمها المدارس ورسوم الطلاب[1].

من أجل هذه الميزانيات الضخمة والتي تظهر بوناً شاسعاً بين أرقامها وبين ماكانت تبذله الدولة العثمانية على مجال التعليم، إلا أنها كانت ومع قلة مواردها ( أعني الدولة العثمانية ) تخصص جُل تلك الميزانية لقضايا الدفاع والجيش والأمور المادية المحسوسة التي كانت تعد قريبة الفائدة ولحظية الحاجة، وكما يقال ليست معتمدة على بعد نظر وسعة أفق وتخطيط للمستقبل.

هذه المفارقة بين الميزانيتين التي كان يبذلها أهل الذمة من الداخل والنصارى من الخارج على مجال التعليم توضح لنا الإشكال الذي قد يظهر غريباً للوهلة الأولى عند الباحث في البون الشاسع بين مستوى المدارس عند أهل

---

(١) انظر :سهيل محمد صابان ص ١٣٣ إلى ١٤١ بتصرف .

الذمة وأبناء غير المسلمين من النصارى واليهود في الداخل وبين المدارس الحكومية، لا من حيث المقررات والطاقات التعليمية فحسب ، بل أيضاً من حيث المناهج والكثرة ومن يتولون التدريس والسمعة التي بلغت الأفاق ، وقد ذكر الدكتور محمد محمد حسين وغيره بأنه ما من زعيم قومي ولاقائد فكره ولاصاحب مذهب إلا ونجده متخرجاً من تلك المدارس [١] .

ويحسن بنا الآن أن نسرد بعض تلك المدارس سواء كانت في دول المشرق العربي أو كانت في عاصمة الخلافة اسطنبول .

---

(١) الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر .

## مدارس أهل الذمة في العراق

**١ـ مدرسة اللاتين في بغداد** : تعتبر من أقدم المدارس التي أسسها مبشرون في العراق حيث قامت بجهد ( الرهبانية الكرملية التي ظهرت في العراق منذ عام ١١٤٠هـ ـ ١٧٢٨م وكانت تسير على الأساليب التعليمية الكنسية دون تطوير واضح إلا في القرن التاسع عشر عندما هيأت نفسها لاستبدال مناهج التعليم الحديثة لتصبح في أواخر القرن التاسع عشر واحدة من مدارس العراق العالية، فبالإضافة إلى التعليم المجاني، كان الاهتمام بالتعليم من الصغر أي من الطفولة وكانت تستلم الطفل منذ صغره ولاتتركه إلا بعد أن تفتح له الطريق إلى المدارس العالية إن كان لديه الاستعداد [(١)] .

**٢ـ مدرسة الرهبان الكرمليين للأطفال** ( **ملحقة بالكنيسة** ) : عنى الرهبان الكرمليون بتأسيس مدرسة للأطفال ملحقة بالكنيسة . وكان متوسط عدد الطلبة بها حوالي المائة يدرسون اللغة العربية والمواد الاجتماعية والحساب، وكانت تقدم لهم وجبة غذائية والملابس الضرورية فضلاً عن أن التعليم كان مجانياً [(٢)] .

أما المدرسة الثانوية فكانت تغطي مناهج المدارس الرسمية إلى جانبها العلوم اللاهوتية ،وحيث إن الخدمات التعليمية فيها كانت على مستوى عالٍ كان خريجوا هذه المدارس أكثر خبرة وعلماً من أقرانهم في المدارس الحكومية، والدليل على ذلك أنه كانت هناك زيادة مطردة في عدد الطلبة حيث كان عددهم سنة ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م ، ١٣٠٧هـ ـ ١٨٩٠م هو ٣٠ طالباً وما أن جاءت ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م حتى بلغ عددهم ١١٩ طالباً من الكلدانيين، و٢٣من السريان، و٢٣من الأرمن، و٣ من الروم الأرثوذوكس وغيرهم من الرعايا الأجانب من خارج الدولة من الفرنسيين والإنجليز والنمساويين بأعداد فردية،

(١) انظر : سلامة جرجس ـ تاريخ التعليم الأجنبي في مصر ص١٢٩ .

(٢) لوريمر : تاريخ الخليج العربي ج٦ ص ٣٢٩٣.

بل أشار لوريمر إلى وجود عدد قليل من الطلبة المسلمين فيها أيضاً [١].

**٣ــ مدرسة الآباء الدومينيكان** : كانت هذه المدرسة بالموصل وكانت عريقة في القدم حيث إن المسئول عن تأسيسها وتشغيلها هم الآباء الدومينيكان منذ ١١٦٣هـ ـ ١٧٥٠م وظلت مثل سابقتها مدرسة نصرانية تنصيرية تقليدية لم تؤثر أيضاً في الخدمات التعليمية أو في تطويرها بشكل ملموس حتى إذا ما انتصف القرن التاسع عشر أخذت تستعد لإستقبال تيارالتجديد، وفعلاً لم يلبث أن انطلق منها تيار تنصيري تعليمي حديث المنهج . فقد استعير لها من الخارج مطبعة في ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م ، طبعت لها الكتب بالعربية والفرنسية والكلدانية، كما أنها فتحت أبوابها ليس فقط أمام نصارى العراق من كافة الطوائف وإنما كذلك أمام مسلمي العراق الشمالي . خاصة مسلمي الموصل [٢] .

ويكاد يكون قبول أبناء المسلمين في مدارس النصارى كما في هذه المدرسة في أول الأمر من الأمور المستنكرة في بغداد خاصة ، وظاهرة جديدة على المجتمع الإسلامي، فقد كان التنافر بين المسلمين والنصارى قوياً جداً بحيث كان من العسير جداً أن يقبل مسلم الحاق ابنه بمدرسة نصرانية في ذلك الوقت مهما كان مستوى المدرسة .

والسبب في إقبال أبناء المسلمين في الموصل خاصة دون بغداد، أن عدد النصارى في الموصل يكاد يصل إلى ثُمن تعداد السكان ، فكانوا بالكثرة مما جعل أثرهم يظهر على المسلمين المجاورين لهم بخلاف بغداد فقد كان النصارى على اختلاف طوائفهم يشكلون ١% من تعداد السكان [٣] .

---

(١) المرجع السابق ج٦ ص ٣٢٩٣.

(٢) عبد الرزاق الهلايى : تاريخ التعليم في العراق ص ١٩٩.

(٣) هذه الإحصاءات مأخوذة من كهيسة . في تاريخه المفصل عن العراق ٣/ ١٧ ، ٣ / ٢٩٨.

**٤ـ مدرسة الكلدان في بغداد** : كانت في السابق من المدراس الدينية النصرانية، فأدخلت عليها التحسينات والمواد الحديثة ابتداء من ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م وبوجه خاص اللغات الأوربية والشرقية، واستمرت في أداء رسالتها حتى وقوع بغداد في يد الإنجليز في عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م (١) .

**٥ـ مدرسة الاتفاق الكاثوليكي الشرقية في بغداد** : وقد افتتحت هذه المدرسة عام ١٢٩٥هـ ـ ١٨٧٨م . وكانت الغالبية العظمى من طلبتها من الكلدان الكاثوليك وأقلية من السريان والأرمن ، واستمرت تقوم بمهمة تعليمية طائفية إلى أن ظهرت بعدها مدرسة السريان الكاثوليك عام ١٣١٢هـ ـ ١٨٩٥م.

وكانت مدارس النصارى في الموصل أكثر منها في بغداد حيث كان عدد طلاب النصارى قريباً من ٥٠% من إجمالي عدد الطلاب الدارسين في المداس الإسلامية، بل قد يزيد، فكان للكاثوليك وحدهم ٣٠ ثلاثين مدرسة في الموصل وحدها :

١٠ منها للسريان يدرس بها ٦٢٥ طالباً .

١٧ مدرسة للكلدان يدرس بها ٨٢٠ طالبا .

٣ ثلاثة مدارس كلاتين يدرس بها ٧٤٠ طالبا .

٢ ومدرستان للبروتستانت بها ٩٠ طالبا .

٣ مدارس لليعاقبة بها ١٨٠ طالبا (٢) .

فمجموع مدارس النصارى في الموصل وحدها (٣٥) خمس وثلاثون

---

(١) عبد الرزاق الهلالي : تاريخ التعليم في العراق ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) الصباغ : تاريخ العراق ٣/ ٨٧ ، عبد العزيز نوار : المرجع السابق ( تاريخ العراق الحديث ) ص ٢٨٦ .

مدرسة يدرس بها (٢٤٥٥) طالباً. يقابله نحو (٤٠٠٠) أربعة آلاف طالب مسلم.

وكما نلاحظ كثافة المدارس النصرانية في البصرة مثلها في بغداد ، نجد أن اليهود على العكس ، فتركز كثافتهم في بغداد العاصمة ، وتنتشر قلة منها في باقي نواحي العراق، وذلك يعتمد على التركيبة السكانية لكل قطاع، ولم يكن اليهودبمعزل عن هذا النشاط الثقافي وعن هذا الاهتمام بالتعليم ، فنشاهد في تلك الفترة حتى نهاية الثمانينات من القرن التاسع عشر حركة نشطة جداً لدي اليهود في إنشاء المدارس على أيدي جمعية الأليانس الاسرائيلي ، فقد سعت جاهدة لتدخل التعليم الحديث بين يهود العراق .

فبدأت ـ هذه الحركة النشطة ـ في بغداد حتى أصبح لليهود في بغداد خمسين مدرسة ، ومدرستين خارجها، كما تأسست في بغداد مدرستان للفتيات اليهوديات وسبع مدارس في ولاية البصرة ، ومدرستان في العمارة ، ومدرسة ومركز ديني لهم في ( قفل ) ، ومدرسة واحدة للبنين في الموصل . على أن المدارس التي أسستها ( جمعية الأليانس الأسرائيلي ) في كل من بغداد والبصرة والموصل والحلة والعمارة كانت لاتعتبر فقط أحسن مدارس اليهود الحديثة، وإنما كانت تعتبر من أحسن مدارس العراق حينذاك وقد ابتدأت هذه الجمعية في تأسيسها منذ سنة ١٢٧٦هـ-١٨٦٠م [١] .

ونظراً للنظام والدقة والعناية بتوفير المدرسين والكتب المطبوعة اشتهرت هذه المدارس في العراق حتى أقبل عليها طلبة من المسلمين والنصارى [٢] .

---

(١) انظر عبد العزيز نوار : ص ٣٢٣ نقلاً عن صحيفة صدى بابل العدد ٣٩ السنة الأولى ٤ جماد الأول سنة ١٣٢٨م والعدد ٤٢ في ٢٥ جماد الأول ١٨٢٨م والعدد ١٠٩ السنة الثالثة في ٢٧ القعدة ١٣٢٩هـ- ١٩١١م .

(٢) عبد العزيز نوار : ص ٣٢٤ نقلاً عن لمحات عن يهود العراق في العهد العثماني في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ج٢ ، عدد٤ ص ٤٩-٨٧ .

وكان منهج الدراسة في المدارس اليهودية يقوم على أساس التعليم الغربي من حيث العناية بالرياضيات والطبيعيات والعلوم الإنسانية على عناية مناسبة باللغة العربية والعبرية والتركية إلى جانب اللغة الفرنسية والإنجليزية .

## مدارس أهل الذمة في مصر

إن الكلام عن مدارس أهل الذمة في مصر موضوع ذو شقين، وأقصد أنه يلزمنا أن نتحدث عن مدارس النصارى أو الأقباط ، ثم المدارس اليهودية في مصر ومايتعلق بها من مباحث.

**أما الشق الأول** : وهو الحديث عن مدارس النصارى فإنه أشهر من أن يذكر أو يتتبع للتدليل على كثرتها وانتشارها وذلك لما هو معلوم من تاريخ مصر قديماً وحديثاً من أنشطة كبيرة للأقباط في كافة المجالات بما فيها المجال الثقافي والذي يعد التعليم أحد فروعه ، إلا أنه لا يخفى ما كان من نشاط الإرساليات التنصيرية والتي سعت جاهدة لتغيير مذهب الأقباط إلى مذاهب الإرساليات التي فيها التنافس بالوسائل المعروفة عند تلك الإرساليات *.

من أجل ذلك ـ وهو وضوح حجم النصارى ومالهم من أدوار ـ رأيت أن أقتصر على ذكر نشاط اليهود والجمعيات اليهودية فى التعليم العام والخاص ، والقليل من النصارى .

إن نجاح اليهود في المجال الاقتصادى في مصر خاصة بل سيطرتهم على أهم مجالات الاقتصاد في البلد من تأسيس أول بنك ومابعده والسيطرة على سوق الصرافة ، وأهم المصانع في مصر ... ماهى إلا ثمرة من ثمرات ارتفاع المستوى التعليمي بين اليهود المصريين .

ومع أن المدارس التابعة للطائفة اليهودية في مصر قبيل الاحتلال البريطاني كانت عبارة عن كتاتيب يتلقى فيها الفقراء من أبناء الطائفة اليهودية تعليمهم الديني، إلا أن الأثرياء منهم كانوا حريصين على إرسال أبنائهم للخارج إلى جامعات ومعاهد أوروبا، مما سهل على اليهود بعد افتتاح المدارس الحديثة تأمين الطاقات التعليمية المناسبة والمدرسين الأكفاء من أبنائهم المبتعثين.

وهذا الوضع ـ من التعليم في الكتاتيب وإرسال النجباء إلى الخارج ـ جعل

جمعية الاتحاد الإسرائيلي لاتهتم بإنشاء مدارس في مصر إلا منذ سنة ١٣١٣هـ ـ ١٨٩٦م(١) . بعد أن استفحل نشاط الإرساليات حتى على اليهود ، وكذلك لما لاحظ أثرياء اليهود والطبقة المتوسطة مايترتب على إرسال أبنائهم إلى الغرب من اكتساب عوائد غريبة هي أجنبية عن تقاليدهم ـ هذين السببين وغيرهما ـ جعلت أثرياء اليهود وجمعياتهم يشتغلون بافتتاح المدارس الخاصة بأبناء الطائفة في داخل مصر .

**ذكر لبعض المدارس الخاصة باليهود في مصر** : افتتحت الإرسالية الاسكتلندية ( وهي من أنشط الإرساليات من اليهود ) مدرستين في الحي اليهودي بالإسكندرية ، واحدة للبنين وأخرى للبنات، وكان نجاح المدارس بين البنات أكثر منه بين البنين (٢) .

١ـ مدرسة سانت كاترين بالإسكندرية .

٢ـ ومدرسة تلمو دقوراه في حارة اليهود وقد تأسست هذه المدرسة سنة ١٢٧٧هـ ـ ١٨٦١م ودرس بها أكثر من ٢٠٠ طالب في مرحلة الطفولة والابتدائي .

٣ـ ومدرسة الطائفة الإسرائلية المجانية بالجمالية تأسست سنة ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م يدرس بها ١٢٢ طالب ، ١٥٧ طالبة .

وهما ـ أي المجانية ـ لأبناء الطبقة الفقيرة من اليهود، وتركز وجود هاتين المدرستين وغيرهما من المعاهد العلمية المجانية اليهودية في المناطق ذات الكثافة اليهودية .

٤ـ مدارس الليسيه اليهودي ـ وهذه خاصة بأبناء الأثرياء ـ وكان تأسيس

---

(١) شاهين مكاريوس : تاريخ الإسرائلين . مطبعة المقتطف ص ١٩٨ .

* وسيأتي نماذج موسعة في الفصل الثالث ـ مبحث التنصير في مصر .

(٢) سعيدة محمد حسني : اليهود في مصر : ص ١٣٢ . (١٨٨٢-١٩٤٨م)

هذه المدرسة في كل من القاهرة والإسكندرية . وكان لهذه المدرسة مصروفات تؤخذ من الدارسين .

٥ـ مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العام .. وكانت في شارع النبي دانيال ـ علم على شارع ـ في الإسكندرية، وأسست سنة ١٣١٤هـ ـ ١٨٩٧م ، وهذه المدرسة قد تكون من أشهر المدارس اليهودية، وكانت الفرنسية هي لغة التعليم فيها ، وكانت تضم جميع مراحل الدراسة من أطفال وابتدائي إلى ثانوي ، كما كان التعليم بها مختلطاً بين الذكور والإناث [١] .

وانظر في الملاحق ( جدول ) رقم (ب) يبين إحصاء التلاميذ والمدارس العمومية والخصوصية بالقطر المصري عام ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م ، ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م .

أما فيما يتعلق بهيئات التعليم الأجنبي، فنلاحظ أن المدارس الأجنبية كانت على اختلاف جنسياتها تتبع هيئات مختلفة يمكن تقسيمها إلى أربعة أنواع :

**النوع الأول** : مدارس الإرساليات والجمعيات الدينية ويغلب عليها الصفة الدينية .

**النوع الثاني** : المدارس التابعة للطوائف والجاليات الأجنبية ويغلب عليها الصفة العلمانية .

**النوع الثالث** : وكان يتبع الحكومات الأجنبية المختلفة .

**النوع الرابع** : المدارس الحرة التي أسسها الأفراد من الأجانب المقيمين بمصر ، وهي مدارس لاتدعو إلى دين بعينه ولاتمت إلى قومية بذاتها، وإنما تكون لأبناء البلاد المقيمين بمصر من وطنيين وأجانب .

والجدول رقم (ج) في الملاحق يبين لنا الهيئات المختلفة التي كانت المدارس

---

(١) المرجع السابق : ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .

الأجنبية تابعة لها في عام ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ...

من الإحصاء السابق يتضح لنا أن المدارس التابعة للجمعيات والإرساليات الدينية كانت تمثل الجانب الأكبر، إذ بلغ عددها ٦٢% على وجه التقريب من جملة المدارس الأجنبية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م والبالغ عددها ٣٢٦ مدرسة يليها المدارس التابعة للطوائف والجاليات الأجنبية إذ كانت تمثل حوالي ٢٢% سنة ١٩٢٢م . ويزيد عدد المدارس التابعة للجمعيات الدينية فيصل إلى ٦٧% من جملة المدارس الأجنبية البالغ عددها ٣١٢ مدرسة سنة ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٩م ، بينما يبلغ عدد المدارس التابعة للطوائف حوالي ١٦% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام .وفيما يلي أهم هذه المدارس في مصر :

**أهم المدارس الأجنبية في مصر :**

**أولا : المدارس اليونانية** : كانت المدارس اليونانية من أظهر المدارس الأجنبية في مصر وإن اختلفت عن المدارس الأخرى، فاللغة اليونانية لم تكن من اللغات الأجنبية التي يقبل المصريون على تعلمها ، واليونان لم يكن لهم أغراض تبشيرية كالبروتستانت والكاثوليك لتحويل أقباط مصر الأرثوذكس إلى مذاهبهم، مع ذلك كان للمدارس اليونانية شأن ملحوظ ، وذلك بسبب كثرة أفراد الجالية اليونانية في مصر ، وحاجتهم إلى مدارس لتعليم أولادهم تعليماً يتفق مع أصول ثقافتهم القومية مع تزويدهم بما يؤهلهم للحياة في مصر [(١)] .

وكان هناك العديد من المدارس اليونانية التي أنشأتها الجالية اليونانية في الإسكندرية والقاهرة منذ القرن التاسع عشر، واستمرت الجالية في نشاطها فأنشأت بالإسكندرية مدرسة فنية سنة ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م ، وقد تحولت بعد ذلك إلى مدرسة تجارية باعتبارها أكثر فائدة للجالية، كما أنشأت في نفس العام مدرسة خاصة بالبنات اليتيمات ، وفي سنة ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٥م افتتحت الجالية

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر . ص ٧٢.

اليونانية بالمنصورة مدرسة تضم أقساما ابتدائية وثانوية وتجارية وقسماً للتلاميذ الداخلين[١].

وفي سنة ١٩٣٣م أنشأت مسيو بيروند مدرسة ابتدائية فنية لتعليم الحياكة ثم تحولت المدرسة الأولى إلى مدرسة للتدبير المنزلى وفي سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م أضافت للمدرسة قسماً انجليزيا الغرض منه إعداد كاتبات على الآلة الكاتبة[٢].

والجدول رقم (د) في الملاحق يبين لنا عدد المدارس اليونانية في مصر والهيئات التابعة لها وعدد التلاميذ بها سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

نلاحظ من هذا الجدول أن المدارس اليونانية كانت تقتصر على الطلاب اليونانيين أنفسهم بنسبة كبيرة جداً وملحوظة، والدليل على ذلك أن الطلاب اليونانيين بالمدارس اليونانية بلغت جملتهم في سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م (٨٥٥٧) طالب وطالبة، بينما كان عدد طلاب بقية الجاليات الأجنبية بنفس المدارس وفي نفس السنة ٧٣٩ طالب وطالبة أي حوالي ٨٪ من جملة تلاميذ المدارس اليونانية في هذه السنة على وجه التقريب .

وجميع هذه المدارس تستخدم اللغة اليونانية في تدريس المواد المختلفة، وجميعها يسير على المنهج اليوناني مع بعض التعديل لتلائم البيئة المصرية، ومن ذلك دراسة اللغة العربية والفرنسية في المرحلة الأولى دراسياً منذ السنة الثالثة الابتدائية، ثم تضاف اللغة الإنجليزية إلى مواد المرحلة الثانوية.

وتقوم الجالية اليونانية بتزويد أفرادها بما يؤهلهم للحياة في مصر بإنشاء مدارس للتجارة مهمتها إعداداليونانيين الملتحقين بها للعمل التجاري الخارجي الحر، ومدة الدراسة بها ست سنوات يدرس فيها منهج الغرض منه الإعداد

---

(١) نعيمة محمد عيد : النشاط التربوي الأجنبي وأثره في التعلم في الإقليم المصري ، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية التربية - جامعة عين شمس سنة ١٩٦١م . ص ٦٩.

(٢) المرجع السابق : ص ٨١.

للحياة، وهذه المدارس موجودة بالقاهرة والإسكندرية والمنصورة .

كما أنشأت الجالية أيضاً المدارس الليلية العادية والفنية بالقاهرة والإسكندرية وقد قصد بها تزويد الميكانيكيين الذين تركوا الدراسة واشتغلوا بهذه الأعمال في الصباح بما يجعلهم ميكانيكيين مؤهلين ، ومدة الدراسة بهذه المدارس خمس سنوات يصبحون بعدها مؤهلين فنياً لتعليم الحياكة والآلة الكاتبة والأعمال الكتابية إلى جانب الثقافة اليونانية [١] .

من كل ذلك يتبين لنا أن المدارس اليونانية كانت مجتمعاً يونانياً خالصاً إذ أن معظم تلاميذها كانوا من اليونانيين ( ٩٨% سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، ٨٢% سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ) وذلك مما يؤيد أن هذه المدارس لم يكن يقصد بها نشر مذهب معين أو ثقافة معينة ، فلو هي اهتمت بذلك لشملت مدارسهم طلاباً آخرين غير اليونانيين (٢% سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ن ٨٢% سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ) وإنما قصد بها المحافظة على الثقافة واللغة اليونانية بين اليونانيين المقيمين بمصر .

**ثانيا : المدارس الإيطالية** : كانت المدارس الإيطالية من أشهر المدارس الأجنبية في مصر، ذلك أن الإرساليات الكاثولويكية الإيطالية كانت أقدم الهيئات الأجنبية التي مارست نشاطاً تعليميا في مصر [٢] .

ففي عام ١٣٣٥هـ ـ ١٩١٧م أنشئت مدرسة إيطالية بالإسكندرية سميت مدرسة ماريا أوزيليا تدرس الإيطالية، وفي عام ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م تأسست في هليبوليس مدرسة إيطالية سميت مدرسة اسكندر مزوني على اسم الكاتب الإيطالى المشهور ، وكان عدد تلاميذها عند الافتتاح ٧٥ تلميذاً ، وزاد العدد إلى ٢٠٠ في عام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م ، ثم إلى ٣٠٠ في عام ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م ، ثم

---

(١) جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبي في مصر . ص ٧٧ – ٧٨.

(٢) محمد عبد الفتاح أبو الإسعاد : المرجع السابق ص ٣٩٨.

انخفض إلى ٢٨٥ في عام ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م [(١)] .

وكان بمصر إلى سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م نوعان من المدارس الإيطالية : النوع الأول وهو المدارس الدينية وكانت تابعة للبابا في روما .

والنوع الثاني وهو المدارس العلمانية وقد أنشأتها الحكومة الإيطالية لمنافسة المدارس الدينية نكاية في البابا الذي كان على خلاف مع الحكومة استمر مايقرب من الخمسين عاماً .

فكانت الحكومة الإيطالية تحارب البابا والمدارس الدينية التابعة له ، وتشجع على إنشاء المدارس اللادينية لمنافسة مدارس البابا وقد ظل الخلاف قائماً حتى سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م ، وكفت الحكومة عن المجاهرة بعدائها للبابا وللمدارس الدينية ، وأصبحت تمدها بالمساعدات والإعانات، وبعد الحرب العالمية الثانية ألغيت جميع المدارس العلمانية فيما عدا مدرسة دون بوسكر التي تأسست على يد هيئة الساليزيان[(٢)] .

والجدول رقم (هـ) في الملاحق يوضح لنا حجم المدارس الإيطالية في عام ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م وعام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

من الجدول السابق يتضح لنا أن عدد المدارس الإيطالية كان سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م (٥٥) مدرسة ثم تناقص سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م نتيجة للظروف السابقة ، حتى بلغ ٣٤ مدرسة وبذلك تكون درجة تناقصها ٣٨٪ عما كانت عليه أعداد سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م .

وكان معظم هذه المدارس تابعة للجمعيات الدينية إذ بلغ عدد مايتبعها من مدارس حوالي نصف عدد المدارس الإيطالية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م وأصبحت جميع المدارس الإيطالية في مصر تابعة للجمعيات الدينية سنة

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ٨٢ - ٨٣ .

١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إذ أغلقت جميع المدارس الإيطالية العلمانية بعد الحرب العالمية الثانية [١] .

**ثالثا : المدارس الفرنسية** : نستطيع أن نذكر أن المدارس الفرنسية في مصر انقسمت إلى قسمين هما :

**أولا** : مدارس تابعة للإرساليات الدينية وهدفها الأصلي نشر المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية مثل مدارس : الرهابات ، والفرير ، والجزويت .

**ثانيا** : مدارس الليسيه التابعة للبعثة المدنية الفرنسية ، وتنحصر أهدفها في نشر الثقافة الفرنسية وهي مدارس غير دينية . وإلى جانب هذه المدارس توجد بعض المدارس الخاصة التي تدار لحساب أصاحبها سواء أكانوا أفراداً أم جمعيات مثل مدارس الاتحاد الإسرائيلي ، وجيرار بالإسكندرية ، وموران بالقاهرة ، وهي ليست في أهمية النوعين السابقين وإن كانت تخدم فكرة نشر الثقافة الفرنسية [٢] .

والواقع أن هذه المدارس الفرنسية ـ سواء منها التابع للإرساليات الدينية ، أو الخاصة ، أو التابع للبعثة المدنية الفرنسية ـ قد زاد عددها في مصر طوال فترة الدراسة حتى صار عددها مايقرب من نصف عدد المدارس الأجنبية في مصر جميعها، كما زاد عدد تلاميذها وتلميذاتها أيضاً عن عددهم في غيرها من المدارس الأجنبية كما يتضح ذلك من الجدول رقم (١) بالملاحق.

من الإحصاء السابق يتضح لنا أن عدد المدارس الفرنسية في مصر سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م كان ١١٥ مدرسة كان عدد التلاميذ المصريين بها أكثر من نصف عدد التلاميذ بالمدارس الفرنسية ( ٥٣% من جملة التلاميذ بها ) واستمرت المدارس الفرنسية في الزيادة حتى وصل عددها إلى ١٨٩ مدرسة سنة

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٣ .

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٣٦ .

١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، وبهذا تصل زيادتها إلى ٦٤% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م .

ونتيجة لتلك الزيادة زاد عدد التلاميذ من المصريين والأجانب لها على السواء إذ بلغ عدد المصريين بها مايقرب من ٧١% من مجموع التلاميذ بها سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م كما زاد عدد التلاميذ الأجانب بها أيضاً فبلغ حوالي ٢٩%.

ويرجع ذلك إلى أن المدارس الفرنسية كانت تهدف إلى نشر الثقافة واللغة الفرنسية بين أكبر عدد ممكن من الأجانب والمصريين كما اتضح لنا ذلك من أعدادها وانتشارها وزيادة عدد الطلبة الأجانب والمصريين فيها بحيث إن المدارس الفرنسية كانت الأولى دائماً من حيث زيادة عدد الطلبة بها على جميع المدارس الأجنبية ، غير أن عددها أخذ في التناقص حتى بلغ سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م حوالي ١٢١ مدرسة أي حوالي ٤٣% من جملة المدارس الأجنبية البالغ عددها في العام الأخير ٢٨١ مدرسة، وبهذا تكون نسبة تناقصها مايقرب من ٣٦% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ويرجع ذلك إلى التناقص العام الذى طرأ على عدد المدارس الأجنبية نتيجة للظروف السابقة .

غير أن عدد التلاميذ من المصريين قد استمر في الزيادة حتى بلغ مايقرب من ١١% عما كانت عليه أعدادهم سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م وذلك لأن المدارس الفرنسية قد افتتحت العديد من الأقسام التي تتبع المناهج المصرية من ناحية ومن ناحية أخرى مع استمرار اهتمام فرنسا بنشر ثقافتها في مصر .

نخلص من ذلك إلى أن عدد المدارس الفرنسية وإن كان قد نقص عن ذي قبل إلا أن نسبتها لازالت عالية بالنسبة للمدارس الأجنبية الأخرى وعدد التلاميذ بها .

ولما كانت المدارس الفرنسية بجميع أنواعها كبيرة العدد، لذلك سوف

نتناول أهم مدارس كل نوع من نوعيها الهامين الديني والمدني ، أي ماهو تابع للبعثة المدنية الفرنسية ، وماهو تابع للإرساليات الدينية .

**أولا : مدارس الليسيه[١] التابعة للبعثة المدنية الفرنسية :**

بدأت فكرة إنشاء مدرسة ليسيه بمصر منذ عام ١٢٩٧هـ ـ ١٨٨٠م تراود بعض أعضاء الجالية الفرنسية في مصر ولكنها لم توضع موضع التنفيذ إلا في عام ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م غير أن النشاط الفعلي بدأ عام ١٣٢٤هـ ـ ١٩٠٦م بمدرسة ليسيه خاصة صغيرة بها ٤٠ تلميذاً في العام الدراسي ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م ، ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م وكان الدافع على تأسيس هذه المدرسة هو رغبة أعضاء الجالية الفرنسية بمصر الذين لايريدون إرسال أبناءهم لفرنسا أو إلحاقهم بمدارس الفرير والجزويت في إنشاء مدرسة لهم بمصر ويرغبون في تعليمهم تعليماً مدنياً .

وقد أنشئت ليسيه بباب اللوق سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م وتم افتتاحها سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣١م فأصبحت من أهم مدارس الليسيه ، وكانت تعد للبكالوريا الفرنسية ودبلوم التجارة والشهادة الراقية للأدب الفرنسي، وأصبح لها فروع مثل ليسيه البنين بشارع الشيخ ريحان ، وليسيه الحضانة ، وليسيه البنات بشارع القاصد ، والكلية الفرنسية بشارع الظاهر . وتتميز هذه المدارس بارتفاع نسبة الأجانب بها إذ أنها بلغت ٧٥% في ليسيه باب اللوق ، ٩٠% في ليسيه الظاهر[٢] .

وقد اتسع نشاط البعثة المدنية الفرنسية فأنشأت عدة مدارس أخرى في المعادي والزمالك والظاهر والشاطبي بالإسكندرية، وهذه المدرسة الأخيرة كان يقوم بإدارتها المسيوفير ، يعاونه طائفة من الأساتذة الفرنسيين .

وتسير هذه المدرسة على المنهج الفرنسي مع إدخال بعض التغييرات

---

(١) يقصد باليسيه : من ناحية استمرار فرنسا

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٦١.

الملائمة في مناهج الدراسة ، وكانت المدرسة تنقسم إلى عدة أقسام تبدأ بقسم الروضة للبنين والبنات ومدته ثلاث سنوات ، وقسم ابتدائى ومدته ثلاث سنوات أيضاً ، وقسماً ثانوياً ينتهي إما بدبلوم نهاية التعليم الثانوي ، أو بالامتحان في شهادة البكالوريا الفرنسية، ويلتحق الناجح في هذا الامتحان بكلية الحقوق الفرنسية .

والمدرسة تعتمد في نفقاتها على المبلغ الذي تدفعه الإدارة العامة الفرنسية لها ومصروفات التلاميذ الملتحقين بها (١) . وكان عدد التلاميذ بها ٥٠ بقسم الروضة و١٢٠ بالابتدائي ، ٣٠٩ بالقسم الثانوي ، وأضيفت إليها أقسام أخرى كان بالقسم التجاري ١٨٣ ، وبالقسم الزراعي ٤٢ ، وبالقسم الصناعي ٤١ تلميذاً (٢) .

وفي عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م أنشأت البعثة المدنية الفرنسية مدرسة أخرى بمصر الجديدة سميت مدرسة الليسيه الفرنسية المصرية، وذلك بفضل التعاون بين المصريين والفرنسيين حيث اكتتبوا بمبلغ ١٢٠ ألف جنيه قطعة الأرض التي أقيمت عليها المدرسة ، وفي ١٣٥٦هـ ٥ أكتوبر ١٩٣٧م افتتحت مدرسة الليسيه أبوابها وكان عدد التلاميذ بها ٢٣٣ تلميذاً (٣) ، وكان بالمدرسة عدة أقسام حيث بلغ عدد التلاميذ بها سنة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م ،١٣١ بقسم الروضة ، ١٨٩

---

(١) عبد الحميد مطر : التعليم والمتعطلون في مصر ، الطبعة الأولى الإسكندرية ١٩٣٩م. ص ٨٢ / ٨٣ .

(٢) وزارة المعارف العمومية : المراقبة العامة لإحصاء شؤون التعليم ، إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جيع أنواع التعليم للسنة الدراسية ( ١٩٤٣ - ١٩٤٤م ) المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٤٦م . ص ٤٥ .

(٣) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٦٢.

بالقسم الابتدائي ، ٢٠١ بالقسم الثانوي ، ٧٤ طالباً بالقسم الفني والصناعي[١] .

ولقد أوضح المسيو بسنار السكرتير العام للبعثة الحرة الفرنسية في مصر أغراض المدارس التي أنشأتها هذه البعثة فقال :

أن الغرض الأساسي الذي تسعى إليه هو نشر الثقافة الفرنسية في أجمل صورها في مصر حيث توجد مدارس ومعاهد البعثة ، وأن هذا الغرض لايمكن أن يتحقق إلا إذا كان هناك انسجام تام بين الثقافة الفرنسية وبين ثقافة مصر ، ولايمكن الوصول إلى هذا الغرض إلا بالقضاء على ضعف تعليم اللغة العربية في معاهد الليسيه الفرنسية وذلك عن طريقين هما ..

أولاً : بإنشاء قسم مصري في معهد الليسيه يتبع مناهج التعليم المصرية .

ثانياً : أن يكون مدرسوا اللغة العربية مصريين للتعليم وفق أصول التربية الحديثة ، وإنشاء فصول خاصة للطلبة الذين يدرسون اللغة العربية في مدارس الليسيه الفرنسية حتى يصلوا إلى درجة إجادتها ، وبذلك تصبح اللغة العربية في هذه المدارس مادة أساسية تساعد على نشر الثقافة الفرنسية في مصر [٢] .

**ثانيا : مدارس الإرساليات الدينية** : وكان هدفها الأصلي نشر المذهب الكاثوليكي والثقافة الفرنسية، وكانت تمثل الغالبية العظمى من المدارس الفرنسية إذ بلغ عدد المدارس الفرنسية التابعة للجمعيات الدينية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م (٩٦) مدرسة أي حوالي ٨٣٪ من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام ، وفي عام ١٣٥٧هـ ـ ١٩٣٧م كان عددها (١٦٧) أي مايقرب من ٨٨٪ من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام والبالغ عددها (١٨٩) مدرسة ، وزاد عدد المدارس الفرنسية الدينية حتى وصل عام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إلى (١١١)

---

(١) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم ١٩٤٣م . ص ٤٤.

(٢) كوكب الشرق : العدد ٢٦٩٣ في ١١ مارس ١٩٣٤م السنة العاشرة ص ١.

مدرسة أي ٩٢% من جملة المدارس الفرنسية في هذا العام والبالغ عددها (١٢١) مدرسة .

**أهم هذه المدارس في مصر هي :**

**١ـ مدارس الراهبات :** وقد وفد إلى مصر ثلاث وعشرون إرسالية دينية نسائية منذ عام ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م حتى عام ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٣م ، وكان أهم هذه الإرساليات التي قامت بمجهود ونشاط تعليمي بمصر راهبات الراعي الصالح[1] ، وراهبات سيد ةالرسل ، وراهبات الميردي ، وراهبات القلب المقدس .

**أـ مدارس رهابات الراعي الصالح :** أصبح لهذه الجماعة عدة مدارس بمختلف مدن الوجه البحري كالقاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية والسويس وبورفؤاد ، وكانت أكبر تلك المدارس مدرسة راهبات الراعي الصالح بشبرا وقد بلغ عدد تلميذات هذه المدرسة سنة ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م (٣٧٠) تلميذة . ومدرسة الراعي الصالح بالموسكي التي نمت وأصبحت المركز الرئيسي لرهابات الراعي الصالح وقد بلغ عدد تلميذاتها سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م (٤٥٠) تلميذة[2] .

**ب ـ مدارس راهبات سيدة الرسل :** وأهم مدارسها مدرسة الراهبات سيدة الرسل بالزيتون، وكانت تنقسم إلى عدة أقسام بلغ عدد تلميذاتها سنة ١٩٤٣م بقسم روضة الأطفال (٢٤٨) تلميذة ، وبالقسم الابتدائي(٨٥) تلميذة وبالقسم الثانوي (٣٣) تلميذة ، وبلغ عدد التلميذات براهبات سيدة الرسل بمصر الجديدة (٧٤) تلميذة بروضة الأطفال ، (١١٨) تلميذة بالابتدائي ، بينما كان

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق . ص ١٣٨.

(٢) وزار ة المعارف العمومية : إدارة الإحصاء ، إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم في السنة الدراسية (١٩٤٦ - ١٩٤٧م ) المطبعة الأميرية ١٩٥٤م . ص ٧٤ ـ ٧٥.

عدد التلميذات براهبات سيدة الرسل بشبرا حوالي (٢٢٥) تلميذة [١] .

ج ـ **راهبات قلب يسوع أو القلب المقدس** : وافتتحت عدة مدارس لها في مصر مثل راهبات القلب المقدس بمصر الجديدة وبلغ عدد التلاميذ سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م (١٦٥) تلميذة ، وكلية القلب المقدس بالزيتون (٧٩) تلميذاً بروضة الأطفال ، (٨٥) تلميذاً بالابتدائي ، (٢٣) تلميذاً بالثانوي سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م[٢].

٢ـ **مدارس الفرير** : اتسع نشاط هذه الجماعة خلال فترة الدراسة وانتشرت المؤسسات التابعة لها في كل مكان وتوافد عدد كبير من رهبان هذه الجماعة وعملوا في مدارسها ، وأهم هذه المدارس ، الكلية الفرنسية بالظاهر (كلية دي لاسال ) أنشئت هذه الكلية عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م وفتحت عام ١٣٢٣هـ ـ ١٩٠٥م للدراسة، وكانت تحتوى على عدة أقسام بلغ عدد التلاميذ لكل قسم منها سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م بروضة الأطفال (٥٠) تلميذاً، وبالابتدائي (١٢٥) تلميذاً، وبالثانوي (١١٤) تلميذاً، وقد أدخلت مدارس الفرير ـ ومن بينها هذه المدرسة ـ النظام المصري مضافاً إلى القسم الفرنسي، وأصبح القسم الجديد يعد للشهادة الثانوية العامة ، فالمناهج تقابل المناهج المصرية وإنما باللغة الفرنسية ، وتدرس اللغة العربية كلغة ثانية بعد الفرنسية ، أما القسم الفرنسي فلم تكن هناك دراسة للغة العربية على الإطلاق [٣] ، وقد بلغ عدد التلاميذ سنة ١٩٤٦م بالقسم المصري (١١٤) تلميذاً ، وبالقسم الفرنسي (١٧٥) تلميذاً [٤] ، وقد بلغ أعضاء هيئة التدريس في هذه الكلية

---

(١) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ في جميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٤.

(٢) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤.

(٣) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٧٨.

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٤٩.

(٤٢) عام ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م منهم (١٩) من رجال الدين، (٢٣) من المدنيين، ولقد كانت هناك فروع كثيرة لمدارس الفرير بالقاهرة وغيرها من مدن القطر المصري [١].

وكانت أهم مدارس الفرير بالإسكندرية خلال فترة الدراسة كلية سان مارك والتي تأسست سنة ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٨م بعد أن ضاقت كلية سانت كاترين بعدد الطلبة وبدأت تحتل المركز الذي كانت تحتله كلية سانت كاترين.

فقد بلغ عدد أعضاء هيئة التدريس بها(٩٢) في عام ١٩٤٥م منهم (٣٢) من رجال الدين و(٦٠) من العلمانيين [٢].

وبلغ عدد التلاميذ بهذه الكلية سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م (٢٣٠) تلميذاً بروضة الأطفال و(٢٣٦) تلميذاً بالابتدائي و(٣٩٦) تلميذاً بالثانوي و(٩٠) تلميذاً بالقسم التجاري ، (٢٧) تلميذاً بالقسم الخصوصي [٣] .

وكانت الكلية تأخذ بالمنهج المصري الذي تضعه وزارة المعارف المصرية إلى جانب القسم الفرنسي ، والقسم الفرنسي يؤهل تلاميذه للالتحاق بالجامعات الفرنسية [٤] ، وقد بلغ عدد التلاميذ الذين يدرسون طبقاً للمناهج المصرية (٢١٣) تلميذاً، بينما كان عدد التلاميذ الذين يدرسون وفقاً للمناهج الفرنسية (٧٦٦) تلميذاً . وتعتبر كلية سان مارك من أكبر مدارس الفرير ، وهي أخر مدرسة كبيرة أنشأها الفرير في مصر .

٣ـ **مدارس الآباء الجزويت** : ومن أهم مدارسها مدرسة العائلة المقدسة بالفجالة التي تأسست سنة ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م ، ونتيجة لزيادة عدد الطلاب

---

(١) المرجع السابق : نفس الصفحة .

(٢) إحصا عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م ، ص ٧٧.

(٣) الأهرام : العدد ١٩٠٤٣ في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٣٧م السنة ٦٣ ، ص ١١.

(٤) إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م ، ص ٧٧.

قـاموا بافتتـاح مدرسـتين صـغيرتين همـا مدرسـة بالقبيـسي في عـام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م وتديرها راهبات نوتردام.

وفرعاً آخر في مصر الجديدة عام ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣م وضعت أيـضاً تحـت إشراف هؤلاء الراهبات، وقد بلغ عدد تلاميذ مدرسة العائلة المقدسة وملحقاتها سنة ١٣٤٥هـ ـ ١٩٢٧م خمسمائة ، وصـولاً إلى الـستمائة بعـد عـشرة أعـوام والألف في عام ١٤٠٤هـ ـ ١٩٤٨م، وكانت تعـد تلاميـذها للبكالوريـا المـصرية وأيضاً للبكالوريا الفرنسية [١].

وكانت مدرسة العائلة المقدسة تفتح أبوابها لجميع الجنسيات فقد كـان بهـا سنة ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م ( ٦٠٠ ) تلميذاً ينتمون إلى أربع عشرة دولة من : مـصر ـ فرنـسا ـ لبنـان ـ سـوريا ـ إيطاليـا ـ اليونـان ـ إنجلـترا ـ سويـسرا ـ أسـبانيا ـ يوغسلافيا ـ تركيا ـ تـشيكوسلوفاكيا ـ روسـيا ـ إيـران [٢]، وفي عـام ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م بلغ عدد التلاميذ في مدرسـة العائلـة المقدسـة بمـصر الجديـدة ( ١١٩ ) تلميـذاً في روضـة الأطفـال ، (١٤٨) تلميـذاً بالابتـدائي ، (٢٢) بالثـانوي،(٧) بالقسم التجاري ، وفي مدرسة العائلة المقدسـة بـالخرنفش (٢٧٣) تلميـذاً ، وفي مدرسة العائلة المقدسة الصغيرة بالقبيس (٢٢٤) تلميذاً [٣] .

وهكذا كانت المدارس الفرنسية منتشرة في جميع القطر المصري سواء ماكان تابعاً منها لجمعيات دينية أو مدارس علمانية ، وكان هدفها نشر الثقافة الفرنـسية والدعاياة للمذهب الكاثوليكي بين أقبـاط مـصر ، وقـد شملـت هـذه المـدارس أقساماً فرنسية فقط تتبع مناهج فرنسا واللآخرى أقساماً مصرية وفرنـسية ، كمـا

---

(١) بيانات سجلات مدرسة العائلة المقدسة بالفجالة ( زيـارة في ١٨ / ١٠/ ١٩٦٨م ) مـن تقريـر مائـة عام في خدمة التربية في مصر ١٨٧٩ - ١٩٧٩م ، ص ١٣/ ١٤.

(٢) المصدر السابق : ص ٩٥.

(٣) إحصاء عن عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م ، ص ٤٤.

شمل بعضها الآخر أقساماً تجارية وأخرى زراعية ، وكانت هذه الأقسام الزراعية والتجارية على المستوى الثانوي وليست على المستوى العالي، وكان خريجوها لايقبلون بجامعات مصر وفرنسا ، ولكن كانت البنوك الفرنسية في مصر توظفهم بها، فكان خريجوا القسم التجاري ينتظمون كموظفين في بنك الكريدي ليونيه وغيره [١] .

**رابعاً : المدارس الإنجليزية :** بدأت المدارس الإنجليزية في مصر بداية دينية قبل الاحتلال البريطاني لها ، ثم تحولت إلى نشر الثقافة الإنجليزية والمحافظة على عادات وثقافات ولغة الجالية الإنجليزية في مصر ، فبعد أن زاد البريطانيون في مصر وتشعبت مصالحهم كان عليهم أن يزودوا أبناءهم بثقافة إنجليزية تعوضهم عما كانوا سيأخذونه لو أنهم تركوا في بريطانيا وذلك بتعليم أبنائهم على نفس النظم التربوية الإنجليزية، وعلى يد أساتذة إنجليز يهيئون لهم الجو البريطاني التعليمي.

وقد جرت عادة القادرين من البريطانيين بمصر على إرسال أبنائهم إلى بريطانيا للتزود بالثقافة الإنجليزية هناك ، ولما كان هناك عدد من أبناء الجالية الإنجليزية لايستطيع آباؤهم تحمل نفقات إرسالهم لبريطانيا ، فقد وجد أفراد الجالية البريطانية بمصر حاجاتهم الماسة إلى إنشاء مدارس إنجليزية للقيام بغرض تزويد أبناء الجالية بتقاليد وعادات أسرهم وبلادهم إلى جانب تعليمهم [٢] .

**وتنقسم المدارس الإنجليزية في مصر إلى قسمين :**

١ـ مدارس مدنية قامت دون أغراض دينية وإنما لخدمة أبناء الجالية الإنجليزية وأهمها بالإسكندرية كلية فكتوريا ، وكلية البنات الإنجليزية والمدرسة البريطانية بالقاهرة .

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ، ص ١٦٣.

(٢) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ٩٣.

٢ـ مدارس دينية تابعة لجمعيات وإرساليات دينية بروتستانتية كالمدرسة الإسكتلندية التابعة للإرساليات الإسكتلندية ، والكلية الأسقفية بالقاهرة التابعة للإرساليات الإنجليزية .

والجدول رقم (٢) بالملاحق يبين لنا تطور المدارس الإنجليزية في مصر وعدد تلاميذها في سنوات ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .

من الجدول السابق يتبين لنا أن المدارس الإنجليزية كانت على الرغم من مركز إنجلترا في مصر لاتصل إلى مرتبة المدارس الفرنسية ، فقد بلغ عددها سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م (٣٣) مدرسة ، بينما كان عدد المدارس الفرنسية في هذا العام (١١٥) مدرسة أي مايقرب من ثلاثة أضعاف المدارس الإنجليزية في مصر.

غير أن عددها زاد سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م إلى (٤٣) مدرسة أي حوالى ١٠% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام والبالغ عددها (٤١٠) مدرسة ، ثم أخذ عددها في التناقص حتى بلغ (٢٦) مدرسة سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م وبذلك تصل درجة تناقصها إلى ٣٩% عما كانت عليه أعدادها سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م.

غير أننا نلاحظ تفوق عدد التلاميذ المصريين على الأجانب بالمدارس الإنجليزية إذ بلغ عددهم حوالي ٦٠% من جملة التلاميذ بها سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، واستمر في تقوفه حتى سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م ، وذلك راجع إلى اهتمام المدارس الإنجليزية بنشر الثقافة الإنجليزية بين المصريين وغيرهم من الأجانب .

ليس أدل على ذلك من اهتمام مجلس العموم البريطاني بضرورة زيادة عدد المدارس الإنجليزية في مصر لخلق الشعور الموالي للبريطانيين وهذا ماجاء في سؤال جورج بوتر لوزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية يطالبه بزيادة عدد

المدارس البريطانية في مصر وإمدادها بما تحتاج من أعضاء هيئة التدريس البريطانيين حتى يتهيأ لأبناء الجالية البريطانية في مصر تعليم أبنائهم تحت نظام يطابق المنهج الإنجليزى والجو التعليمي البريطاني حتى لايرسلوا أبناءهم إلى إنجلترا ، وقد أجاب الوزير مستر نوبل بيكر قائلا : هناك أكثر من (١٢) مدرسة إنجليزية في مصر بها مايزيد على (٣٥٠٠) تلميذاً من البريطانيين والمصريين والجنسيات الأخرى، وإن معظم أعضاء هيئة التدريس بها من البريطانيين بالرغم من المصاعب التي تواجه إرسال المدرسين البريطانيين إلى مصر .

**أهم المدارس الإنجليزية في مصر هي :**

١ـ **كلية فكتوريا** : أسست هذه الكلية سنة ١٣٢٠هـ ـ ١٩٠٢م بمدينة الإسكندرية تخليداً لذكرى الملكة فكتوريا ملكة إنجلترا بعد أن افتتح لها اكتتاب عام أسسه الإنجليز المقيمون في القطر المصري ، وساهم فيه أصدقاؤهم الإنجليز في إنجلترا ، كما ساهم فيه أيضاً كثير من الأجانب المقيمين في مصر وبعض المصريين ، وقد أسست هذه الكلية على أن تسير على غرار المدارس الإنجليزية ببرنامج إنجليزي وهيئة تدريس اشترط في أفرادها أن يكونوا إنجليزاً، وأن يحملوا مؤهلات إنجليزية إلا من يدرس لغة إضافية أجنبية كالفرنسية أو العربية ، كما اشترط كذلك أن تكون لغتها الأساسية ، وأن تكون تحت رعاية الحكومة البريطانية [(١)] .

وبدأت الكلية عملها بتدريس اللغة العربية ـ اللغة الإنجليزية ـ اللغة الفرنسية ـ مبادىء الرياضة ـ التاريخ ـ الجغرافيا ـ الرسم ـ التربية البدنية ، وكانت الدراسة من الساعة الثامنة صباحاً إلى الرابعة والنصف مساءً والأجازة الأسبوعية يوم الأحد والدراسة يوم السبت نصف يوم ، وقد حددت

---

(١) مجلس النواب : الهيئة النيابية الثامنة ، دور الانعقاد العادي الثالث ، المجلد الثاني ، الجلسة ٣٦ في ٢٣ مايو ١٩٤٤م. ص١٦٢٨.

المصروفات للتلميذ مابين ٨ ـ ١٤ سنة بمبلغ ثلاثة جنيهات شهرياً بما في ذلك الغذاء ، وكان عدد التلاميذ بها عند افتتاحها خمسة وعشرين منهم إنجليزي واحد . وهكذا فإن المدرسة التي افتتحت من أجل الجالية الإنجليزية بمصر لم يكن بها سوى إنجليزي واحد [١] .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م تحولت المدرسة إلى مستشفى باسم المستشفى الإنجليزى العام رقم ١٧ وذلك فيما بين عامي ١٣٣٣هـ ـ ١٩١٥م، ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٩م وانتقلت الكلية إلى المباني القديمة بحي المازايتا وبلغ عدد التلاميذ بها (٢٣٥) تلميذاً عام ١٣٣٧هـ ـ ١٩١٩م منهم (١٧٠) تلميذاً بالقسم الداخلي ، منهم خمسون تلميذاً من أصل إنجليزي [٢].

واستمرت المدرسة في الازدهار،فالمدرسة كما قال السيرمايلزلاسيون سنة ١٣٥٩هـ ـ ١٩٤٠م مدرسة إنجليزية عامة نقلت إلى مصر وقبلها المصريون جزء من الحياة المصرية والنجاح الذي أحرزته هذه المدرسة بإرشاد المدعو لايس والدكتور ريد في تقديم الآراء الإنجليزية إلى مصر وصهرها بين جدرانها أحسن عناصر الحياتين الإنجليزية والمصرية ومزجهما معاً إنما هو دحض واضح لذلك القول الذي لاينطوى إلا على نصف الحقيقة،الشرق شرق والغرب غرب .

وقد استمرت المدرسة في الازدهار حتى سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م حيث قامت الحرب العالمية الثانية فأصبحت الكلية مرة أخرى مستشفى باسم المستشفى العام رقم ٦٤ ، وانتقلت الكلية إلى سان استفانو وبسبب الغارات الجوية نقل التلاميذ القسم الداخلي وعددهم (٧٠) تلميذاً إلى المدرسة الإيطالية بشبرا بالقاهرة وانتقل معهم (٩٠) تلميذاً من القسم الخارجي، هذا مع استمرار الدراسة في سان استفانو بعدد من التلاميذ بلغ (٣٦٠) تلميذاً من القسم

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٢ – ١٧٣.

(٢) مجلس النواب : نفس الجلسة السابقة ص ١٦٨٢.

الخارجي، ولقد عادت الكلية إلى مكانها سنة ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م بينما استمر الفرع الذي انتقل إلى القاهرة حيث أصبح مدرسة مستقلة بالقاهرة سنة ١٩٤٨م سميت بكلية فيكتوريا بالمعادي [١] .

وأما الكلية الأصلية بالإسكندرية فقد أصبحت تضم تلاميذ من جميع الجنسيات، ففي عام ١٣٦٣هـ ـ ١٩٤٤م كان بها (٤٠٠) تلميذاً منهم (٥٠) من المسلمين ، بينما كان بفرع القاهرة (٣٦٠) تلميذاً منهم (١٤٠) مسلماً [٢] ، وفي عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م بلغ عدد تلاميذ كلية فكتوريا بالإسكندرية (٦٥٧) تلميذاً منهم (٤٤) بروضة الأطفال ، (٣٤٦) بالابتدائي ، (٢٦٧) تلميذاً بالثانوي كانوا جميعهم يدرسون وفقاً للمناهج الإنجليزية المماثلة للمناهج المتبعة في إنجلترا . بينما كان عدد التلاميذ بكلية فكتوريا بالقاهرة (٤٤٩) منهم (١٥٤) بالروضة ، (١٤٣) بالابتدائي ، (١٥٢) بالثانوي وأيضاً يدرسون وفقاً لمناهج الكلية الإنجليزية [٣] .

وهكذا كانت تلك المعاهد الإنجليزية تقتصر على تعليم أبناء الرعايا البريطانيين مع قبول بعض الأوربيين والمصريين وغيرهم بحيث لاتزيد على ٢٠% حتى لاتستطيع الأقلية من غير الإنجليز أن تؤثر على الطابع البريطاني للدراسة ، وإنما هي التي تؤثر فيها ، وكانت هيئة التدريس إنجليزية والمناهج على نظام المدارس المماثلة بإنجلترا، ويمكن للطالب أن يلتحق بإحدى جامعات إنجلترا، من أجل ذلك كان على الطلبة أن يتقدموا في نهاية مرحلة تعليمهم إلى امتحانات معتمدة بإنجلترا، ولهذا الغرض نشأت امتحانات ومناهج أوكسفورد

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٧

(٢) مجلس النواب : الجلسة السابقة ص ١٦٢٩.

(٣) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤ ـ ٧٧.

وكمبردج ولندن(١).

وهكذا فإن تلاميذ الكلية يحضرون امتحاناً يعده قلم الامتحانات التابع لكليتي اكسفورد وكمبردج اسمه The Oxforf & Cambridge Schools Examinaiton Board وهو امتحان يعقد لجميع المدارس التي تسير على هذا النمط يحق للناجح فيه الالتحاق بالجامعات الإنجليزية (٢) ، ولقد اعترفت الحكومة المصرية بشهادة كلية فكتوريا وتعامل حاملها معاملة حامل البكالوريا المصرية فيحق له الدخول في خدمة الحكومة المصرية ، كما يحق له الالتحاق بجامعة فؤاد الأول وفاروق بعد أداء امتحان في اللغة العربية (٣) .

**٢ـ المدرسة الإنجليزية بالقاهرة** : بدأت هذه المدرسة عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م لكي يجد البنون والبنات من البريطانيين في الشرق الأدنى فرصة البقاء على جنسيتهم وتزويدهم بما يجعلهم يقومون بنصيبهم نحو اتحاد ورقي الإمبراطورية التي هم أعضاء فيها ، وحتى عام ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م لم يكن بالقاهرة تعليم إنجليزي لتعليم أولاد البريطانيين الذين يصعب على أولياء أمورهم إرسالهم إلى إنجلترا لتعليمهم وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى، حيث كانت هناك صعوبات في المواصلات بين إنجلترا ومصر، على الرغم من أن الجاليات غير الإنجليزية كانت لها مدارس خاصة بالقاهرة ، والجالية الإنجليزية بالذات كانت لها مدارس على النمط الإنجليزي بالإسكندرية إلا أن سكان القاهرة من البريطانيين لم يكن لأبنائهم مدرسة على النمط الإنجليزي ليتعلموا بها(٤) .

واستمرت المدرسة منذ افتتاحها سنة ١٣٣٤هـ ـ ١٩١٦م في التطور

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٦٧،

(٢) عبد الحميد مطر : المرجع السابق ص ١٨٥.

(٣) مجلس الشيوخ : دور الانعقاد الرابع والعشرين الجلسة ٢٣ في ٢١ مارس ١٩٤٩م . ص ٧٥٨.

(٤) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٧٩ .

والازدهار ودخلها إلى جانب الإنجليز عدد من الجنسيات الأخرى على ألا تزيد نسبتهم عن ٢٠ % حيث رُئِيَ أن هذه النسبة لن تغير من الطابع البريطاني للمدرسة [١]، وقد بلغ عدد التلاميذ بها سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م حوالي (٥٣٣) تلميذاً منهم (٦٢) تلميذاً بروضة الأطفال ، (٢٠٢) تلميذاً بالابتدائي ، (٢٦٩) تلميذاً بالثانوي وجميعهم يدرسون وفقاً للمناهج الإنجليزية الخاصة بالمدرسة [٢].

**٣ــ الكلية الإرسالية الإنجليزية بالقاهرة** : أنشئت هذه الكلية سنة ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م وكان الغرض من إنشائها تهيئة دراسة دينية لأطفال جماعة البروتستانت الإنجليز في مصر ، وكان الشعور السائد بين المسئولين عن المدرسة هو جعلها دولية لكل من يرغب في التعليم المسيحي والإنجليزي الذي تهيئه المدرسة، ولذلك كانت تضم مايقرب من تسع وأربعين جنسية سنة ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م

وفي سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م انتقلت المدرسة إلى مبنى جديد بحدائق القبة، وكانت المدرسة تمول عن طريق منحة من الحكومة الإنجليزية ، كما كان المجلس البريطاني في مصر يدفع لها إعانة مالية ، كذلك كان سفراء إنجلترا وقناصلها يجمعون لها الأموال [٣] ، وقد بلغ عدد تلاميذها سنة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م (٧٠٨) تلميذاً منهم (٢١٨) تلميذاً بروضة الأطفال ، (٢٥٢) تلميذاً بالابتدائي، (٢٣٨) تلميذاً بالثانوي [٤] .

**٤ــ المدارس البريطانية بالإسكندرية** : وقد تأسست هذه المدرسة بالإسكندرية سنة ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٩م بمعاونة اللورد لويد وعند افتتاحها لم يكن بها سوى ١٠% من التلاميذ المصريين والباقي أجانب . وقد أنشئت هذه المدرسة لأبناء

---

(١) المرجع السابق : ص ١٨٤ .

(٢) إحصاء عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٤ .

(٣) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٠ .

(٤) وزارة المعارف : إحصاء عن عدد التلاميذ والفصول بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٧.

الرعايا البريطانيين الذين يعجزون عن دفع المصروفات الباهظة لكلية فكتوريا[١]. وفي سنة ١٩٤٦م بلغ عدد تلاميذها (٤١٠) تلميذاً منهم (٦٠) تلميذاً بروضة الأطفال،(٩١) تلميذاً بالابتدائي،(١٣٤) تلميذاً بالثانوي، (٣٣) بالقسم التجاري، (٣٦) بالقسم الخصوصي، وجميع هؤلاء التلاميذ يدرسون وفقاً للمناهج الإنجليزية الخاصة بهذه المدرسة[٢].

٥ـ **كلية البنات الإنجليزية بالإسكندرية** : وكانت الفكرة في إنشائها إيجاد مدرسة إنجليزية للبنات مع كلية فكتوريا للبنين، وتكون أيضاً مركزاً إنجليزياً تعليمياً للبنات في الشرق الأوسط ، وكانت المدرسة قد تأسست سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م ، وكان بها في ذلك الوقت عدد كبير من الجنسيات بلغ حوالي (٣٧) جنسية[٣]. وبلغ عدد تلاميذاتها سنة ١٣٦٢هـ ـ ١٩٤٣م (٣٦٣) تلميذة منهن (٢٧) تلميذة بروضة الأطفال ، (١٣٠) تلميذة بالابتدائي ، (٢٠٦) تلميذة بالثانوي ، وجميع التلميذات يدرسن وفقاً للمناهج الإنجليزية الخاصة بالكلية المماثلة للمناهج المتبعة في مدارس إنجلترا[٤] ، وجميع الدروس تلقى فيها باللغة الإنجليزية ، أما اللغة الفرنسية فلغة إجبارية أيضاً ، وكانت اللغة العربية إختيارية لمن تريد من البنات في الفرق العليا،حيث تدرس لغة ثالثة إضافية إختيارية كالألمانية أو العربية[٥].

ويلاحظ على التعليم الإنجليزي في مصر بعد الاحتلال البريطاني أنه لاقى تشجيعاً من الحكومة البريطانية ليس فقط في صورة منح وأموال من الحكومة، ولكن عن طريق ممثلي إنجلترا في مصر بعد الاحتلال ، فلقد أسهم كل من اللورد

---

(١) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) وزارة المعارف : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٦م . ص ٧٧.

(٣) نعيمة محمد عيد : المرجع السابق ص ٨١ .

(٤) وزارة المعراف : إحصاء عن عد فصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم سنة ١٩٤٣م . ص ٤٧.

(٥) عبد الحميد مطر : المرجع السابق ص ١٨٧ .

كرومر واللورد لويد بصفة خاصة بمجهودات كبيرة في جمع الأموال وإسداء النصح وإرسال مندوبين للعمل بمجالس الإدارة وحضور حفلات التخرج وتوزيع الجوائز باعتبار أن هذه المدارس هي مدارس الجالية الإنجليزية في مصر التي يرأسها ممثلوا بريطانيا فيها [١] .

**خامساً : المدارس الأمريكية :** بقيت المدارس الأمريكية في مصر منذ بدأت تحت إشراف الإرساليات الأمريكية ولم تقم الجالية الأمريكية قليلة العدد بإنشاء مدارس خاصة لها ، وإنما كانت جميع المدارس الأمريكية في مصر تهدف إلى نشر المذهب البروتستانتي وبخاصة بين أقباط مصر ، وهي مدارس يحيطها الطابع الديني ، وقد توسعت الإرسالية في إنشاء المدارس، وكانت كلما تكونت جالية بروتستانتية في المكان الذي تنشأ فيه المدرسة تترك المدرسة في أيدي الأهالي البروتستانت لتنقل نشاطها إلى مكان آخر تستطيع أن تكون فيه مدرسة جديدة حيث تبدأ نشاطها فيه لنشر البروتستانتية بين الأقباط الأرثوذكس [٢] ، وقد اتسع نطاق المدارس الأمريكية بمصر وانقسمت إلى الأقسام الآتية :

١ـ مدارس خارج الإرسالية — out station schools

٢ـ مدارس الإرسالية — Lission schools

٣ـ مدارس داخلية — Ecording schools

٤ـ كليات تدريبية — Training colleges

٥ـ مدرسة اللاهوت

ويلاحظ أن المدارس خارج الإرسالية خاضعة لإشراف الأهالي أنفسهم وهي مدارس محلية ابتدائية غير أنها خاضعة للإرسالية البروتستانتية، ويدرس بها

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٩٤.

(٢) المرجع السابق ص ١٩٥.

المذهب البروتستانتي وكان المدرس عادة في مثل هذه المدارس عضواً في الكنيسة يشارك في اجتماعاتها المسائية في أيام الآحاد ، هكذا كانت هذه المدارس في بدايتها مراكز للنشاط الإنجيلي المسيحي للصغار والكبار، ومدارس الإرسالية هذه الموجودة في المراكز الرئيسية كان لها نفوذ كبير في خلق الرغبة في التعليم ونشر المعلومات المفيدة .

ويتضح من الجدول رقم (٣) بالملاحق مدى تطور المدارس الأمريكية في مصرفي سنوا ت ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م. ويلاحظ أن عام ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م كان العام الذي بلغت فيه المدارس الأمريكية أقصى زيادتها (٦١) مدرسة أي مايقرب من ١٩% من جملة المدارس الأجنبية في هذا العام والبالغ عددها (٣٢٦) مدرسة ، وكانت المدارس التابعة للإرسالية الأمريكية تمثل ٩٧% على وجه التقريب من مجموع المدارس الأمريكية سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م ، وحوالي ٨٢% سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م ، ٩٢% سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م من جملة المدارس الأمريكية في العام الأخير.

وهذا مايؤكد ماقلناه آنفا من أن المدارس الأمريكية بدأت تحت إشراف الإرسالية الأمريكية ، غير أن عدد المدارس الأمريكية أخذ يقل بعد ذلك حتى بلغ عام ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٧م (٣٩) مدرسة ثم قل بعد ذلك في عام ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م إلى (٢٦) مدرسة فقط ، وبهذا تصل نسبة تناقصها إلى ٥٧% عما كانت عليه منذ ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م .

ويرجع ذلك إلى أنه عندما بدأت المدارس الأمريكية كان لها برنامجها الخاص ، ومع مضي الزمن استحدثت شهادة إتمام الدراسة الثانوية في المدارس الحكومية المصرية ، وبدأ التلاميذ يقبلون على هذه الشهادة التي تؤهلهم للالتحاق بالوظائف الحكومية المصرية ، وقد أثر كل ذلك على المدارس الأمريكية في مصر إذ اضطرت إلى تغيير برامجها لكي تتمشى مع البرامج

الحكومية حتى يمكن لتلميذاتها وتلاميذها التقدم إلى الامتحانات العامة المصرية حتى لايهجر التلاميذ المصريون مدارسها إلى مدارس الحكومة أو المدارس الأهلية التي يتقدمون منها إلى امتحان شهادة إتمام الدراسة الثانوية التي تؤهلهم لدخول الجامعة المصرية أو الالتحاق بالوظائف الحكومية .

ومن هنا بدأت المدارس الأمريكية تفقد طابعها الديني من ناحية ، وتعاني من منافسة المدارس الحكومية من ناحية أخرى ، ومن ثم بدأ عددها يقل وبخاصة عندما صدر القانون رقم ٤٠ عام ١٣٥٣هـ ـ ١٩٣٤م والقانون رقم ٣٨ لسنة ١٣٦٧هـ ـ ١٩٤٨م اللذان حتما تفتيش وإشراف وزارة المعارف على كل المدارس التي يتقدم طلبتها لامتحانات الحكومة المصرية ، فكان على مدارس الإرسالية الصغيرة بالريف إما أن تقوم بتنفيذ الإصلاحات التي طلبتها وزارة المعارف أو تغلق أبوابها ، فاضطرعدد غير قليل منها إلى إغلاق أبوابها [١] ، نظراً لعدم استيفائه للشروط التي وضعتها وزارة المعارف .

وانتشرت المدارس الأمريكية في مصر وكان أهمها بالقاهرة مدرسة البنين الأمريكية، ومدرسة البنات بالأزبكية ، وكلية البنات الأمريكية بالقاهرة التي بلغ عدد تلاميذها سنة ١٣٦٢هـ ـ١٩٤٣م (٦٩٥) تلميذة منهن (٢١٤) تلميذة بروضة الأطفال و(١٢٩) تلميذة بالابتدائي و(٣٥٢) تلميذة بالثانوي [٢] ، كما كان بالإسكندرية عدد من المدارس الأمريكية مثل الكلية التجارية الأمريكية وبلغ عدد تلاميذها سنة ١٩٤٦م (٨٦ ) تلميذاً منهم (١٧) مصرياً ، (٦٩) أجنبياً [٣] .

---

(١) جرجس سلامة : المرجع السابق ص ١٩٧.

(٢) وزار ة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٣م . ص ٥١

(٣) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٦م . ص ٧٨.

كما كان بأسيوط عدد من المدارس الأمريكية مثل الأمريكان الثانوية بأسيوط بنين وبلغ عدد تلاميذها سنة ١٩٤٦م (٣٨٢) تلميذاً منهم (٥٣) تلميذاً بالثانوي و(٢٥) تلميذاً بالخصوصي و(٤) تلاميذ بالقسم العالي ، ويدرس منهم (٣٥٣) وفقاً لمناهج الوزارة وهم من المصريين، بينما يدرس (٢٩) أجنبياً وفقاً للمناهج الأمريكية الخاصة بالمدرسة ، وبأسيوط أيضاً مدرسة الأمريكان الثانوية بنات وكان بها (١٥٥) تلميذة يدرسون وفقاً لمناهج الوزارة .

وكان يوجد أيضاً مدرسة الأمريكان الابتدائية للبنين وبها (٣٦٢) تلميذاً بالابتدائي و(١١٦) بروضة الأطفال، ويوجد بمدرسة الأمريكان الابتدائية بنات بأسيوط (٣٥٩) تلميذة جميعهن من المصريات [1] . هذا إلى جانب عدد آخر من المدارس الأمريكية بالأقاليم مثل المنصورة والفيوم وبنها والزقازيق وطنطا وغيرها من المدن المصرية .

ومن أشهر المعاهد الأمريكية التي أنشئت في هذه الفترة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ويعود تاريخ إنشائها إلى سنة ١٣٣٨هـ ـ١٩٢٠م على أساس الإتصال بالإرسالية، أي أنها وليدة نشاط الإرسالية الأمريكية بمصر ، وفي عام ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٢م أصبحت جامعة مستقلة عن الإرسالية وأصبح لها كيانها الخاص وتشرف عليها هيئة أمناء .

أما عن دوافع إنشاء الجامعة الأمريكية بالقاهرة فتعود إلى :

**أولاً ــ** أن الأمريكيين أدركوا أن القاهرة تمثل مركزاً استراتيجيا هاماً في العالم العربي وأنها مركز الصدارة في العالم الإسلامي .

**ثانياً ــ** منافسة جامعة الأزهر في إعداد قيادات دينية مزودة بثقافة بلادهم ، واستخدام الجامعة كمركز لنشر الثقافة الأمريكية في مصر والبلاد المجاورة ، كما أنهم أدركوا أن شهادة من الأزهر عند العرب توازي شهادة الدكتوراة من اكسفورد أو باريس أو هارفارد في العالم الغربي .

---

(١) وزارة المعارف العمومية : إحصاء عن عدد الفصول والتلاميذ بجميع أنواع التعليم ١٩٤٦م . ص ٨٥.

## مدارس أهل الذمة في الشام

كان واضحاً كما ذكرنا في العراق أن التعليم تقدم بين غير المسلمين أكثر منه بين الملسمين، وهذا واضح في عدد المدارس الخاصة بهم - أي المسلمين - بالنظر إلى عددهم الذي يعد أغلبية بالنسبة لغيرالمسلمين، وكذلك التعليم بالنسبة للإناث .

فقد أسست الطوائف المسيحية عدد كبيراً من المدارس في دمشق ، فكان للروم الأرثوذوكس مدرسة للذكور تدرس العربية والتركية والفرنسية واليونانية. وتضم سبعة معلمين وثلاثمائة تلميذة .

وفتحوا أيضاً مدرسة للروم الكاثوليك كبيرة تضم ١٠ معلمين و(٢٥٠) طالباً ، ومدرستان في حي الميدان إحداهما للإناث ( ١٠ معلمين + معلمتان ، ٦٠ تلميذاً ، ٦٠ تلميذة ) وفتح الأرثوذوكس مدرسة صغيرة للذكور في حي الميدان ( معلم واحد+٥٠ طالب ) ومدرسة الإناث ( ٤ معلمات+١٥٠ تلميذة).

وضمت مدرسة اليسوعيين أربع معلمات ومائة وأربعين طالبة،وكان لآباء العازاريين مدرسة للذكور وأخرى للإناث ضمت ثلاثة معلمين وأربعة عشر معلمة وخمسين طالباً وخمسمائة تلميذة، ويلاحظ الفرق بين عدد البنين والبنات،وكانت هذه أحسن مدارس دمشق فيما يخص البنات[١] .

ومن الأمور الواضحة في مجال التعليم أن أهل الذمة كان لهم السبق في تعليم البنات في وقت لم يكن يعرف فيه تعليماً للبنات بين المسلمين إلا النزر اليسير، فقد بدى من الإحصائيات الواردة في تلك الفترة ( أوئل القرن التاسع عشر ) قلة عدد الطالبات المسلمات بالنسبة لعدد الطالبات النصرانيات [٢] .

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر . ص ١٦٧.

(٢) انظر شاهين مكاريوس : المعارف في سورية ، المقتطف ج ٧ / ٥٣٧.

فقد بلغ عدد الطالبات من أهل الذمة ( ١٠٧٠ ) طالبة ، ومن المسلمين (٢٩٢) فقط . وبالنسبة للطلاب من أهل الذمة في بر الشام (١٤٩٥) طالباً منهم (٣٥٠) يهودياً ، وعدد طلاب المدراس الحكومية (٤١٠) مابين رشيدية* أو عسكرية ، والمدارس الإسلامية (١٩٥٧) طالب [1].

ويظهر من هذا العدد تأخر حركة التعليم بين اليهود رغم قرائهم وتعاونهم!! وازداد نشاط البعثات البروتستانتية ، وأسس المنصر يوحنا كروخرد كنيسة ومدرسة في دمشق عام ١٨٦٤م.

وبدأت بعثة بريطانيا عملها بعد عام ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م فأسست مدرستين إنجليزيتين للذكور ، أحداهما خاصة باليهود ، مشتملة على (٣) معلمين و(٢٥) تلميذاً، وأخرى عامة فيها معلم واحد و(٤٥) طالباً .

إضافة إلى مدرستين للإناث واحدة خاصة بالمسلمين ومؤسسها البعثة البريطانية !! فيها معلمة واحدة و(٣٥) طالبة، وأخرى عامة في الميدان يعمل فيها معلمتان و(٥٥) طالبة[2].

ولم يكن هذا الاهتمام في دمشق فحسب وإنما أيضاً في حمص حيث كان بها مايقرب من نصف مدارس دمشق . حيث اهتمت الطوائف من أهل الذمة بالتعليم فأوجدوا مدارس إنجيلية ويسوعية وسريانية وأرثوذكسية، كما ألف الأرثوذكس عام ١٨٨٨م جمعية المدارس الأرثوذكسية في حمص لنشر التعليم .

وفي حلب أيضاً كان عدد الدارسين من أهل الذمة يعد كثيراً جداً بالنسبة لترتبة السكان، فقد كان عدد الدارسين في المدارس الإسلامية مساوياً تقريباً لعدد الدارسين في مدارس أهل الذمة . كما هو واضح في الإحصائيات التالية عن المقتطف، فقد بلغ عدد الدارسين في المدارس الإسلامية (٢٧٣٠ ) طالباً ،

---

(١) انظر المرجع السابق ( غرايبة ) ص ١٦٦ - ١٦٧. * نسبة إلى رشيد باشا .

(٢) انظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٤ ، ص ٤٠ - ٤١.

وعدد الدارسين في مدارس الطوائف ( أهل الذمة ) (٢٢٧٠) طالباً، أما عدد المدارس فكان أقل من النصف بقليل فعدد المدارس الإسلامية (٩٠) وعدد مدارس أهل الذمة (٣٩) مدرسة [١] .

١ـ بيروت : كانت ولاية بيروت لها السبق في مجال التعليم عموماً حتى اشتهرت باسم مدينة (العلم)، وتلقى العلم فيها قرابة ثلث طلاب بر الشام ونصف طالباتها وكانت تضم أكبر الجامعات في المشرق العربي في تلك الفترة . وعلى رأسها الصرح الذي شيده المنصرون الأمريكان وهو مايعرف اليوم بالجامعة الأمريكية في بيروت .

وهذا الصرح العلمي !! المميز ماكان له أن يحصل ويستمر إلا بعد دراسات مستفيضة أقنعت المنصرون بضرورة الاهتمام بالتعليم العالي وأنه وسيلة للسيطرة على عقول العامة لأدخال الأفكار المشككة للمسلمين بعد أن يئسوا من تنصيرهم . ( فهذا التعليم العالي يساعدهم على الوصول إلى الطبقات المثقفة ..... فلما أيقنوا أن لاقدرة لهم على جعل المسلم نصرانياً أحبوا أن يجعلوا الآراء المسيحية تتسرب إلى الملسمين وإلى المثقفين منهم خاصة . ثم اعتقدوا أن هذه الآراء تتسرب بعدئذ من تلقاء نفسها إلى المجتمع الإسلامي . هذه هي الفكرة التي أقنعت المنصرين بضرورة إنشاء المعاهد العالية في البلاد الاسلامية)[٢] .

وكذلك كان للمنصرين غاية أخرى من التعليم العالي ، هي أن يؤثروا في قادة الرأي في البلاد ، وفي الجيل الناشئين في الشرق الأدنى خاصة ، وذلك التأثير الذي لا يمكن أن يتحقق إذا لم يكن ثمة تعليم عالٍ، وعلى هذا الأساس أوجد المنصرون البروتستانت كلية في بيروت عام ١٢٧٨هـ ـ ١٨٦٢م وجعلوا

(١) عبد الكريم غرايبة : نقلاً عن المقتطف ٧ / ٥٣٧ ، ص ١٦٩

(٢) فروخ والخالدي : المرجع السابق ص ٧٨ .

على رأسها دانيال بلس .

هذه الكلية أصبحت فيما بعد الكلية السورية الإنجيلية ثم هي اليوم الجامعة الأمريكية في بيروت . ومن رأي المنصرين أن تؤسس الكليات في المراكز الإسلامية، ولذلك لم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن يكون ثمة كلية في القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر كما تقدم .

وهكذا أصبح للمنصرين الأمريكيين الكلية الأمريكية في القاهرة بعد كلية روبرت في استانبول أيضاً .

ولم يكن رأي المنصرين الفرنسيين مخالفاً لذلك فأنشأوا كلية لهم في مدينة لاهور . وهي عاصمة البنجاب في باكستان اليوم [١] .

هذه الجامعة ـ الجامعة السورية الإنجيلية ـ ( جامعة بيروت الأمريكية ) . خرج منها كبار القادة المنصرين الحاملين للفكر المعاصر وواضعي المناهج، وأصبحت هذه الجامعة هي التي تتولى تأليف الكتب التي تدرس في بقية المراحل في شتى أنحاء العالم الإسلامي، واهتمام المنصرين لايقتصر على مرحلة دون أخرى أو أن يضخم جانب على حساب جوانب أخرى قد تبدو أقل أهمية ، فنجد حرص أهل الذمة على السيطرة على التعليم في جميع مراحله بدءاً برياض الأطفال لأنها تجعلهم أكثر اتصالاً بأهل الطلاب ، وكذلك تمكن المنصر من أن يصل إلى العقول وهي لاتزال تتأثر بما يلقى إليها ـ وأكثر ماوصل إليه المنصرون البروتستانت إنما كان عن طريق المدارس الابتدائية [٢].

أما اليسوعيون خاصة فيجعلون الصفوف الدنيا في عهدة الراهبات لأن الطلاب الصغار هم فسائل ( أشتال ) تغرس فيما بعد في الكليات فيجب أن

---

(١) انظر فروخ : مرجع سابق ص ٧٩ – ٨٠.

(٢) فروخ : المرجع السابق ، ص ٧٩.

تكون هذه الفسائل مطبوعة طبعاً خاصاً [١] .

إضافة لتأسيسهم الجامعة الإنجيلية السورية ( جامعة بيروت )، أسس الأمريكان أيضاً كلية في عينطورة عام ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م وفي أواخر سنوات الحكم المصري أنفقوا سبعة الآف دولار وفتحوا مدرسة داخلية للذكور أتبعوها بعد ست سنوات بمدرسة داخلية للبنات..

وأسسوا عام ١٢٧٧هـ ـ١٨٦١م الكلية الإنجيلية الأمريكية للبنات [٢] .. هذا عن نشاط المنصرون الأمريكان إلا أنه يبقى أكبر صروح التعليم الأجنبي كان الجامعة الأمريكية في بيروت الآنفة الذكر والتي اقتصرت في عامها الأول على كلية واحدة هي كلية العلوم ، ثم افتتحوا بعد عام كلية الطب وتخرج عام ١٢٨٧هـ ـ١٨٧٠م الفوج الأول الذي تألف من خمسة أشخاص من بينهم يعقوب صروف ، وإبراهيم خيرالله ، ونعوم مغبغب . ومعلوم ماذا تعني مثل هذه الأسماء في تاريخ الشام ومصر . كان لهم ومن خلفهم من خريجي هذه الجامعة دور بارز في تغيير الأوضاع في البلاد العربية *.

وتطورت هذه الجامعة تطوراً سريعاً واكتسبت سمعة مرموقة بعد أن كانت الصحف تتندر بها، من ذلك أنه كتب نتيجة تشطب أحد مداخل الجامعة كلمة كفر على جدارها فعلق أحدهم بقوله " كيف يرتجى الخير من جامعة كتب الكفر على أبوابها " !! فما لبثت هذه النظرة أن تغيرت، فبعد أن كانت مقتصرة على كلية واحدة وثلاثة أساتذة وخمسة خريجين عام ١٢٨٧هـ ـ١٨٧٠م من أصل (١٥) طالباً عام ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٦م ، ارتفع الرقم إلى سبع كليات و(٤٨١) أستاذ و(٢٧٨٥) طالباً عام ١٩٦٠م وبلغ عدد خريجيها حتى عام

---

(١) المرجع السابق : ص ٧٩.

(٢) غرايبة : المرجع السابق ص ١٧٠ - ١٧١ .

١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م أكثر من (١٥٠٠٠) خمسة عشر ألف طالباً [١] .

ولقد استفز هذا النجاح البروتستانتي البعثات الكاثوليكية ولاسيما اليسوعيين ، فنقل اليسوعيون كليتهم من غزير إلى بيروت عام ١٢٩١هـ ـ ١٨٧٤م وجعلوها جامعة باسم جامعة القديس يوسف، وأضافوا إليها عام ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م كلية طبية على نفقة الحكومة الفرنسية .

كما أخذت الحمية أيضاً روسيا والتي كانت تعد نفسها حامية المذهب الأرثوذكسي في المشرق ، خاصة وإن الأرثوذوكس كانوا أقدم العناصر النصرانية في البلاد العربية [٢] وكانوا ينقسمون إلى ثلاث طوائف : نساطرة ، يعاقبة، والروم الأرثوذكسي .

فكانت من أهم الوسائل التي أظهرت فيها روسيا القيصرية مما فيها للأرثوذكسي وفتح مدارس عديدة في القدس بوجه خاص وفي سائر أنحاء فلسطين ، إلا أنها لم تجعل هذه المدارس آلة للترويس ، بل جعلتها عربية ... وكذلك أسست مدرسة لتخريج المعلمين والمعلمات في الناصرة وفي بيت جالا ... [٣] .

**ومن مدارس أهل الذمة البارزة في الشام..** مدرسة افتتحها بطرس البستاني ( صاحب الموسوعة ) أسماها المدرسة الوطنية عام ( ١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٣م ، ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م ) عمل فيها هو وابنه سليم وتخرج منها عدد من الكتاب .

وافتتح راهبات المحبة ( وهذه جمعية دعوية ) مدارس ابتدائية مجانية للفقراء

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . ج٤ ، ص ٣٧/ ٣٩ .

* وسيضح لنا دور هؤلاء عند الحديث عن الصحافة والقومية ونشأتها وجهود أمثال هؤلاء .

(٢) ساطع الحصري : محاصرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٢٦ . من مطبوعات مركز الوحدة العربية .

(٣) انظر ساطع الحصري : المرجع السابق ص ١٢٨.

، وثانوية للطبقة الوسطى عام ١٢٦٣هـ - ١٨٤٧م ومدرسة داخلية عام ١٢٦٥هـ - ١٨٤٩ م.

وأسس الروم الكاثوليك مدارس عين القش وعين تراز، واللعازاريين مدرسة في عين طور عام ١٢٤٩هـ - ١٨٣٤م، أما اليهود فهم وإن كان اهتمامهم كان في الغالب لا يظهر إلا في الجوانب الإقتصادية إلا أن زاكي كوهين ( وهو يهودي إسرائيلي) أسس أول وأكبر مدرسة إسرائيلية عربية دعاها بالمدرسة الوطنية الإسرائيلية ( ١٢٩١هـ - ١٨٧٤م ، ١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م) ثم أغلقها وهاجر إلى مصر [1] .

* **المدارس الخاصة بالموارنة** : قام الموارنة بنشاط ملحوظ في نشر التعليم، فقد أسس البطريرك ( يوسف أسطفان ) مدرسة في عين ورقة تخرج منها البطاركة يوسف حبش ، ويوسف الخازن، وبولس مسعد ، والأدباء بطرس البستاني، وفارس الشدياق، ورشيد الدحداح، وكان من علوم هذه المدرسة الفصاحة والمقطعة بالإضافة إلى اللغات السريانية والعربية....

وأسس مطران بيروت يوسف الدبس مدرسة علمانية في بيروت عام ١٢٩١هـ - ١٨٧٤م أسماها مدرسة الحكمة وبدأ التدريس فيها سنة ١٢٩٢هـ - ١٨٧٥م.

ومن مدارس المارون كذلك : دار يوحنا مارون ( ١٢٢٧هـ - ١٨١٢م ) وعجلوت (١١٦٤هـ - ١٧٥١م ) واري شحرور ( ١١٦٤هـ - ١٧٥١م ) ومارعيدهرهريا (١٢٤٥هـ - ١٨٣٠م ) أنطوش جبيل ( ١٢٧٨هـ - ١٨٦٢م) أنطوش زحلة (١١٨٢هـ - ١٧٦٩م ) أنطوش ديرالقمر ( ١١٩٦هـ - ١٧٨٢م )

---

(١) انظر غرايبة ص ١٧٣ ، جرجي زيدان ٤ / ٣٧ - ٣٨.

بحيث زاد عدد مدارس الموارنة عن اثني عشر مدرسة !! [١] .

هذا كله في دولة كانت تمثل خلافة المسلمين . وتقوم بواجب حماية الدين وإقامة الشرع و... وما ذكرت ليس حصراً بالطبع وإنما ذكر لأهمها مما يبين لنا حجم تلك المدارس ومدى الأثر الذي نتصور أن تكون أوجدته بين المسلمين وبين أهل الذمة أنفسهم الذين من مقاصد عقد الذمة معهم معاشرتهم للمسلمين ، وعزلهم عن إخوان لهم في الكفر، بالتالي رجاء إسلامهم . وهذا هو ماكان يحصل في الماضي الزاهر !!

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سوريا في القرن التاسع عشر ( ١٨٤٠ - ١٨٧٦م ) ص ١٧٤، وجرجى زيدان المرجع سابق ج٤ ص٣٩.

## الآثار المترتبة على انتشار مدارس أهل الذمة

كان الهدف من إنشاء المدارس الأجنبية في الدولة العثمانية تنشئة جيل بعيد عن الإسلام متشكك فيه ، ليسهل القضاء على وحدة المسلمين المتمثلة في الدولة العثمانية التي كانت حجر عثرة أمام الاستعمار الغربي الصليبي الذي مافتيء في كل مرة يحاول ضرب المسلمين بشتى الوسائل الممكنة .

وقد وضع أعداء الإسلام لهذا الغزو أهدافاً لاتتحقق إلا بعد فترة طويلة من الزمن ليتم إبعاد المسلم عن دينه بإسلوب هاديء لا إثارة فيه ولاستفزاز وبيد المسلمين أنفسهم في هدم العقيدة الإسلامية أولاً ثم في إفساد الأخلاق والقيم ثانياً [١] .

وتأكيداً على الهدف الأول ـ والذي تحقق للأسف الى حد كبير من وراء هذه المدارس ـ يقول المنصر «تكلى» : يجب أن نشجع إنشاء المدارس على النمط الغربي العلماني ، لأن كثيراً من المسلمين قد زعزع اعتقادهم بالإسلام والقرآن حينما درسوا الكتب المدرسية الغربية وتعلموا اللغات الأجنبية [٢] .

وقد جاء على لسان أحد أقطابهم ـ زويمر ـ في المؤتمر التنصيري عام ١٣٤٦هـ ـ ١٩٢٧م بجبل الزيتون في فلسطين قوله : «أتظنون أن غرض التنصير وسياسته إزاء الإسلام هو إخراج المسلمين عن دينهم ليكونوا نصارى ؟! . لقد برهن التاريخ من أبعد أزمنته على أن المسلم لايمكن أن يكون نصرانياً مطلقاً، ولكن الغاية التي نرمي إليها هي إخراج المسلم من الإسلام فقط ، ليكون مضطرباً في دينه ، وعندها يكون المسلم ليس له في الاسلام إلا اسم أحمد

(١) انظر إبراهيم النعمة : كلام لمن انفرد القارب ، مجلة الأمة عدد ١ سنة ٢ن محرم ١٤٠٢هـ ، ص ٧٤ ـ ٨٠ .

(٢)محمد محمد الدهان : قوى الشر المتحالفة . ط . المنصورة دار الوفاء ١٤٠٦م ص ٨٤-٨٥ .

ومصطفى»[١] .

هذا الهدف الذي يبدو واضحاً ، من تصريحات أولئك المنصرين ، وغيرهم ممن لا يحصرهم هذا البحث، كان أول ثمرة وأهم ثمرة جناها العاملون في المدارس الأجنبية هي تشكيك المسلمين وأبنائهم في عقائدهم ، وتشكيكهم في أخبار القرآن وأحكامه ـ وفي كل ماهو ثابت في هذا الدين .

ونظراً لأن تفصيل القول في آثار المدارس الأجنبية يطول ، رأيت أن أجمله في نقاط تشمل الآثار الفكرية والاجتماعية والثقافية، وقبل سرد هذه الاثار المترتبة على انتشار مدارس أهل الذمة في البلاد ـ أذكّر ببعض الأمور ـ والتي سبق الحديث عنها تفصيلاً .

كان المنشئون لهذه المدارس منصِّرين في الغالب ، يرسلون مع تلك الإرساليات من قبل الحكومات الأجنبية أو الجمعيات التنصيرية .

كانت المدارس الأجنبية في نواحي الدولة ، صورة طبق الأصل للمدارس الموجودة في الدولة التي تتبعها المدرسة ، سواء من حيث البناء والفصول الدراسية أو من حيث المقررات والمناهج التعليمية ، إضافة إلى أنها كانت صليبية الطابع والمظهر. مع أن أكثر المدارس في بلدانهم منذ أواخر القرن التاسع عشر كانت علمانية ولاعلاقة لها بالدين أو الكنيسة إلا في نطاق ضيق .

كان أغلب من يتولون التدريس في مدارس أهل الذمة من الرهبان سواء أرسلوا من دول الغرب للتنصير فيما بين المسلمين ، أو نصارى الداخل الذين يسعون جاهدين لتشكيكهم في دينهم وعقائدهم والطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، وإبعادهم عن القيم والأخلاق الإسلامية مصدر قوتهم ومكمن عزتهم .. ومحاولة تقريبهم من العالم الغربي الصليبي كما سنبينه الآن ...

---

(١) إبراهيم عكاشة : ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربى ص ٣٨ ، وانظر نحو هذا الكلام لزويمر .

وكان هؤلاء المنصرون من الأساتذة يتخصصون في مختلف المجالات العلمية ، ولايقتصر تدريسهم على مواد الآداب والدين فقط ..

بعد تلك المقدمات والخلفية التي يجب أن نضعها في أذهاننا قبل التوسع في سرد الآثار المترتبة على تلك المدراس ، أبدأ بأهم هذه الآثار وهو مايتعلق بالاعتقاد والأفكار والثقافة .

**الأثار الفكرية والثقافية لمدراس أهل الذمة :**

إضافة لغرض التنصير الذي هو الهدف الرئيس لنشأة هذه المدارس فقد ترتب على ذلك بعض الآثار العقدية والفكرية والثقافية التالية :

١- وصم الإسلام بالجمود والتأخر وتلقين الطلاب عدم ملاءمته للعصر.

٢- بذل الجهود في إقناع الطلاب بأن التقدم الغربي راجع للنصرانية ، وأن الإسلام هو السبب في تأخر الشرق من ركب الحضارة .

٣- تمجيد رجالات الفكر الغربي والثقافة الغربية ، وفي الوقت نفسه الحط من قدر الأمم الشرقية - ويقصدون به الإسلام وعلماء المسلمين - والتشكيك في جهودهم والتقليل من احترام الذين يشتغلون بالعلوم الشرعية حيث لم تعد الحاجة ماسة إليهم [١] .

٤- وأد عقيدة الولاء والبراء من قلوب الطلاب بالعمل على موالاة الطلاب للدولة التابعة لها المدرسة ، فكل مدرسة تسعى جاهدة لتحبيب طلابها للبلد المنشيء بأساليب شتى .. وتحبب المدرسين ( الصليبيين ) للطلاب وإن كانوا مسلمين .

٥- القضاء على الوحدة الإسلامية المتمثلة في الدولة العثمانية والسعي إلى تقويض كيان الخلافة.

---

(١) انظر عطية محمد صقر : الإسلام في مواجهة التحديات . ص ٤٨ ط١ الكويت وزارة الأوقاف .

٦- تشويه صورة الإسلام في نفوس الطلاب وذلك بإثارة مشكلات وقضايا الزواج والتعدد، وقضية حرية المرأة ومساواتها وغير ذلك .

٧- تشويق الطلاب المسلمين للعادات والتقاليد الغربية .

٨ - إبعاد الطلاب عن تراثهم وإيهامهم بأن ذلك التراث فارغ المحتوى، واستحقار من يقرأ ويكتب أو يؤلف في التراث الإسلامي، ويعد ذلك من مظاهر التخلف . وعلى العكس من يترجم أو يقرأ في الكتب الغربية أو يدرس في مدارسهم .

٩- زعزعة مكانة اللغة العربية في نفوس الطلاب ، وإبعادهم عن لغتهم الأم ولغة القرآن وتعظيم اللغات الأجنبية وبخاصة الفرنسية والإنجليزية ، حتى يستطيعوا الإطلاع على الكتب الأجنبية ، فيتأثروا بالفكر المادي الغربي كالعلمانية والشيوعية و غيرها .

١٠- إبعاد الطلاب عن دراسة التاريخ الإسلامي عامة وتاريخ الدولة العثمانية خاصة، وإن درس فمشوهاً ومحرفاً . مكبرة فيه النقط السوداء !! وفي نفس الوقت تشويق الطلاب إلى دراسة تاريخ أوروبا وأمريكا .

١١- تشويق الطلاب إلى الكتب الثقافية الغربية . خاصة القصص الغرامية، بحجة الإطلاع على الآداب العالمية ، ونلحظ ذلك في الحركة النشطة لترجمة الروايات والأشعار الغرامية أوالتافهة ومشروع الألف كتاب وقصائد شكسبير ونحوها .

١٢- إبعاد الطلاب عن الثقافة والتربية الإسلامية، وسد الفراغ بالثقافة الغربية، ومن الثقافة الغربية العناية بالجرائد والمجلات الخليعة ومجلات الأزياء الغربية [١] .

---

(١) انظر عمر فروخ:الآثار المترتبة على المدارس الأجنبية، محمد قطب: واقعنا المعاصر، محمد صابان: المدارس الأجنبية .

١٣ـ إدخال العامية مكان اللغة الفصحى ، ودخول كثير من الكلمات الأجنبية على اللغة العربية .

١٤ـ انتشار الكتب التنصيرية بين العامة والخاصة بثمن وبدون ثمن .

**أثر المدارس الأجنبية في النواحي الاجتماعية :**

١ـ محاولة تغيير القيم الإسلامية في نفوس المسلمين وتشويق الطلاب إلى العادات والتقاليد الغربية .

٢ـ العمل على تفكيك الأسرة المسلمة بإبعاد الطلاب عن أفكارهم وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية التي كان عليها آباؤهم وأسلافهم .

٣ـ ترسيخ النظرة المادية البحتة لدي الطلاب المسلمين . وتشويق الطلاب إلى الاهتمام بالمظاهر الخارجية البراقة وبخاصة لدي الفتيات .

٤ـ ايقاظ الحركة القومية بين مختلف شعوب الدولة العثمانية .

٥ـ إثارة الفتن والأحقاد بين مختلف الشعوب الإسلامية ، حتى بين أبناء النصارى أنفسهم، مما يزهدهم في دولتهم ويحببهم في الإستقلال .

٦ـ تشجيع الطلاب والمجتمع المسلم على الاختلاط بين الجنسين بدءاً بالفصول الدراسية وانتهاءً إلى ترسيخ هذا المفهوم في جميع المجالات ، فقد تعلم الطلاب في هذه المدارس الاختلاط الذي أدى إلى الانحراف والفسق والفجور وأصبح لكل طالب خليلته . وانتقلت هذه العدوى إلى المدارس الوطنية [(١)] .

٧ـ العمل على تخلي النساء عن الحجاب الشرعي الإسلامي ، بحجة أن الحجاب لايلائم العصر .

٨ ـ تلقين الطلاب الطرق المؤدية إلى التخلص من حكم الدولة العثمانية

---

(١)محمد زين العابدين الفرجاني : نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الإسلامى . الرياض . دار العاصمة ص ٩٥.

على أنه تخلص من الاستبداد والظلم .

٩ـ اقناع الأقليات بضرورة بقاء نفوذ الدول الأجنبية في الدولة العثمانية .

١٠ـ تضخيم قضية تحرير المرأة ، ويريدون بذلك الأباحية فيما يتعلق بالعلاقات بين الرجال والنساء .

**أثر المدارس الأجنبية في نشر الأفكار المعاصرة :**

لقد أدت مدارس الأقليات ومدارس الإرساليات دوراً هاماً في نشر الأفكار القومية وكانت الملل في البلاد الإسلامية ذات شخصية دينية صرفة إلا أنها ومن بداية القرن التاسع عشر بدأت في الانقسام والتشعب وانقسمت بفضل الأفكار القومية، ومن أمثلة ذلك تمرد العرب واليونان ومن بعدهم انفصال البلغار عام ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧٠م إلا أن تمرد البلغار وانفصاله لم يكن ضد الدولة، لكنه كان ضد الكنيسة البطريركية الرومية ويقظة الروح القومية لدي البلغارعملت دوراً هاماً في ذلك، وهكذا بينما كانت الدولة تقترب من الانهيار حل نظام القومية محل نظام الملة وبتعبير آخر أن النزعات القومية قد أطاحت بنظام الملة القائم على الأساس الديني[١] .

إضافة إلى ذلك كانت كل مدرسة حريصة على ترسيخ العادات ونشر الأفكار التي تؤمن بها ليس بين طلابها فحسب بل حتى في الخارج .

فقد كانت المدارس الفرنسية تسعى إلى نشر العادات والثقافة الفرنسية بين الطلاب ليكونوا صورة طبق الأصل من الفرنسيين [٢].

وكانت المدارس الأمريكية تنشر العادات والتقاليد الأمريكية . وهكذا جميع المدارس الأجنبية، وقد قال مدير ثانوية القديس : جوزيف الفرنسي في

---

(١) الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة : ترجمة محمد طلعت حرب ( ترجمة خاصة ) .

(٢) انظر : عمر فروخ ومصطفى الخالدي ـ التبشير والاستعمار ص ١١٤ .

اسطنبول عن فعاليات المدرسة ـ تمكين الطالب من إيجاد علاقة مع الغرب [١].

وقد قال المستشرق جب : لقد أضاع الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئاً فشيئاً حتى انحصرت في طقوس محددة، ولاشك أن ذلك الحاصل بين فئات معينة من المجتمع كان أثراً من آثار المدارس الأجنبية، حيث أصبح الطلاب المسلمون فيها غرباء عن عادات آبائهم وأجدادهم وتقاليد شعبهم نظراً لتنشئتهم في جو علماني بعيد عن الدين والتاريخ الإسلامي [٢].

وقد أصبحت المؤسسات التعليمية التركية تقلد مناهج المدارس الأجنبية وبخاصة الأمريكية بعد أن كانت المدارس الحكومية في مختلف المراحل الدراسية خالية من المناهج المعاصرة . لذلك كان أولياء أمور الطلاب يسجلون أولادهم في المدارس الأجنبية بغية تعلمهم شيئاً يفيدهم في حياتهم العملية مستقبلاً .

وأذكر هنا في الحديث عن الآثار المترتبة أو الناجمة عن مدارس أهل الذمة وأثرها في إقصاء الشريعة وإدخال المذاهب الفكرية المنحرفة والأفكار الثورية هناك الوثيقة التي أرسل بها (هرتزل ) إلى السلطان عبد الحميد في١٣٢٠هـ الثالث من شهر مايو ١٩٠٢م يقترح عليه إنشاء جامعة يهودية في القدس تفتح أبوابها للطلبة العثمانين جاء فيها :

"لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتكم المتناهية الاقتراح التالي : إنى أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شباب تركيا لتلقي العلم في الخارج ومايتعرض له هؤلاء الشبان من ضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية مما يجعل الحكومة أمام أحد أمرين :

---

(١) انظر حسين محمد محمد حسنين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، بيروت دار النهضة ط ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م ص٢٠٤.

(٢) سهيل محمد صابان : مرجع سابق ص ٢١٥ - ٢١٦.

- إما أن تحرم هؤلاء من التدريب العلمي .

- وإما أن تعرضهم إلى أخطار الغوايات السياسية (١) .

ثم تبرز الوثيقة الدور الخطير الذي يلعبه اليهود في الحياة الجامعية في جميع أنحاء العالم، وأن الأساتذة اليهود يمثلون جامعات أوروبا، وأن منهم عدد كبير من العلماء والمتخصصين في جميع الحقول العلمية لايمكن الاستغناء عنهم، وبناء على ذلك يقدم اقتراحه قائلاً : لهذا فإننا نستطيع أن نقيم جامعة يهودية في امبراطوريتكم ولتكن في القدس مثلاً، وعندئذ لن يضطر العثمانيون إلى الذهاب إلى الخارج بل يبقون في بلدهم ويتلقون فيها أفضل التدريب وهم خاضعون لقوانين بلادهم وتقاليدها (٢) .

والذي حمل هرتزل على إرسال هذا الاقتراح ماكان يعاني منه السطان عبد الحميد من تأثرالشعب التركي بالأفكار الثورية والاتجاهات المنحرفة والغوايات السياسية التي كان يبثها في عقولهم أساتذتهم في الجامعات الغربية، ولاسيما اليهود والماسونيون العاملون في حقل الدراسات الاستشراقية (٣) .

**إهتمام المنصرين برياض الأطفال :** جعل بعض المنصرين رياض الأطفال القاعدة التي يعتمد عليها القائمون على نظام الإرساليات التعليمية، فاهتم المنصرون برياض الأطفال اهتماماً بالغاً، لأن التعليم الديني في هذه المدارس يجعلها باباً مفتوحاً للتنصير للتأثير على عقول الأطفال الغضة (٤) .

وتعتبر مدارس رياض الأطفال فيما دون السابعة من العمرالقاعدة التي

---

(١) حسين حبري الخولي : سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين ، ج٢ ( وثائق ونصوص تاريخية، دار المعارف )١٩٧٠م وثيقة رقم ١ ص ٩٧.

(٢) انظر : دور اليهود الدونمة في إسقاط الخلافة ص ٥٥ .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ٥٥ دور اليهود الدونمة .

(٤) انظر عمر فروخ : التبشيروالاستعمار ص ٧٨ .

يعتمد عليها نظام الإرساليات التعليمي [١].

والاهتمام كان إذن بجميع مراحل التعليم من رياض الأطفال إلى التعليم العالي [٢]. لأن كل مرحلة من مراحل التعليم كان لها اهتمامها واحتياجها، فمرحلة الابتدائي تختلف عن الإعدادي عما بعدها ، سواء من حيث المناهج أو من حيث الثمرة التي تحقق الهدف المنشود في أن الهدف لجميع مراحل التعليم عند أهل الذمة في الدولة العثمانية كانت أهدافاً شبه محددة وينحصر في محاولة التنصير أو خلخلة العقائد والمباديء التي كانت راسخة في أذهان المسلمين (الدارسين ) قبل دخولهم إلى تلك المدارس والمؤسسات التعليمية عموماً .

وكان الاهتمام بالمرحلة التمهيدية أو ماسمي برياض الأطفال كبيراً كما ذكرت، ويتمثل هذا الاهتمام بتوفير كافة الوسائل التعليمية في رياض الأطفال أو الابتدائية وكثرة عددها وكان سن التلاميذ يتراوح فيما بين الرابعة والسابعة وكانت رياض الأطفال في اسطنبول خاصة ملحقة بمدارس ابتدائية أو ضمنها .

والجدول رقم (و) في الملاحق ( يمثل عدد رياض الأطفال التابعة لأهل الذمة في اسطنبول في بداية القرن العشرين) .

ومجموع هذه المدارس (٤٢) [٣]، وهي تمثل عدداً كبيراً ولاشك خاصة إذا تصورنا المنتظمين فيها من الطلاب !! من طوائف هم أقلية ! وإن كانت هذه إحصائية غير دقيقة لعدم وجود وثائق تثبت الكل !! أو أنها أكثر من ذلك .

---

(١) انظر إبراهيم عكاشة : ملامح عن التنصير في الوطن العربي . ط. الرياض جامعة الإمام ١٤٠٧هـ ص ٣٠.

(٢) اسماعيل الكنافي : فصل الدين عن الدولة ص ١٢٨.

(٣) انظر سهيل محمد صابان : المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٧٩.

**أما المرحلة الابتدائية** : فلم تبعد عنها في الاهتمام من قبل المؤسسين ، وكانت سنوات الدراسة في تلك المدارس الابتدائية مختلفة نظراً لاختلاف الدول المنشئة لتلك المدارس ، فكانت كل مدرسة تسير وفق نظام البلد المؤسس أو الممول ، وليس للدولة أى تدخل في تنظيم شئوون المدارس ، فمثلاً في معهد القديس ( بنو ) الفرنسي كانت مدة الدراسة في المرحلة الابتدائية ٤ سنوات في الوقت الذي كانت فيه مدرسة القديس ( ليون ) خمس سنوات ، ومعهد القديس ( جوزيف ) الفرنسي ٣ سنوات، مع أنها كلها كانت فرنسية . أما المدارس الإيطالية فكانت فيها الدراسة خمس سنوات والرومية ست سنوات وهكذا ..

والجدول رقم (ز) في الملاحق مأخوذ من نظارة المعارف العامة في اسطنبول ١٣١١هـ - ١٨٩٢م ويبين عدد المدارس الابتدائية الأجنبية وكان مجموعها (٢١٠) مدرسة[1].

ويلاحظ أن عدد مدارس اليهود تعد نسبة كبيرة جداً بالنظر إلى عدد اليهود كأقلية في اسطنبول .

* **المدارس الاعدادية** : وقد بذل أهل الذمة المقيمون في اسطنبول جهداً مضنياً في إنشاء المدارس الاعدادية وقد كانت الحاجة ماسة إليها بالنظر إلى الأعداد الكبيرة المقبلة عليها من الابتدائية الكثيرة وبالطبع تختلف في أنظمتها وبروتوكولها حسب ماسبق معنا في المدارس الابتدائية .

وقد جاء في إحصائية نظارة المعارف العامة في اسطنبول في نفس السنة ١٣١١هـ - ١٨٩٢م عدد مدارس أهل الذمة في اسطنبول وحدها (١٢٩) مدرسة إعدادية تقريباً .

**المدارس الثانوية** : أما في المرحلة الثانوية فإن الوضع يختلف نظراً لأنها

---

(١) سهيل محمد صابان : المؤسسات التعليمية الأجنبية في اسطنبول ص ١٨٠ - ١٨١.

تنقسم إلى مدارس تواصل التحصيل أو معاهد كلها تحت مسمى معاهد علمية أو ثقافية أو أدبية وهي في حقيقتها غير ذلك ـ كما سنفصل ذلك في الآثار التي نجمت عن هذه المدارس ـ وعدد الثانويات في اسطنبول وحدها ( ٣٢) ثانوية، ولنا أن نتساءل ماذا بقي للدولة إذن في تلك الفترة وقد كانت هذه الثانويات تتبع شتى الدول من فرنسية أو أمريكية أو إيطالية أو يهودية .

**المرحلة الجامعية** : ثم تأتي بعد ذلك أهم مرحلة يكون فيها السيطرة على قادة الفكر وهي مرحلة النضج عند الشباب ومرحلة تبني الأفكار والمذاهب ومرحلة التغيرات الجذرية عند الشباب، لذلك اهتم المنصرون اهتماماً بالغاً بهذه المرحلة وعدها معامل لتخريج قادة الشعوب ورواد الفكر الذي يريدون له الانتشار، لذلك عملت الإرساليات الأمريكية خاصة بإقامة كليات مجهزة تجهيزاً جيداً في اسطنبول وبيروت وازمير وغيرها من المدن الإسلامية [١].

**الجامعات التي أسسها أهل الذمة**: كانت أول الجامعات المفتتحة في اسطنبول، جامعة ( قوروجشمة ) الرومية عام ١٢٢٠ هـ ـ ١٨٠٥م وكانت تحتوي على كليات الآداب واللغة والرياضيات والطب كما كان التدريس فيها باللغة الرومية، وكان الطلاب من الأروام دون غيرهم [٢].

ثم أنشئت كلية أخرى لإعداد المعلمات للمدارس الرومية ، وكانت ذات مناهج حديثة إضافة إلى اهتمامها باللغات الأجنبية المختلفة [٣].

يلاحظ من تاريخ تأسيس أول جامعة أي قبل عصر التنظيمات .. والقبول خاص بالروم فقط . وافتتحت إيطاليا في أوائل القرن التاسع عشر كلية التجارة وكانت مدة الدراسة بها ٤سنوات، وافتتح أيضاً معهد روبرت الأمريكي الذي

---

(١) انظر عمر فروخ : مرجع سبق ذكره ص ٩٤.

(٢) محمد صابان : ص ١٨٥.

(٣) انظر علي حيدر : المدارس الرومية في تركيا ص ١٦٩.

كان يضم تخصصات علمية مختلفة . وكان في حقيقته كلية نصرانية غير مستنيرة لافي تعليمها ولافي الجو الذي تهيؤه لطلابها[١]. وقد افتتح فيه كلية الهندسة وكلية الطب وأنشيء مستوصف لتدريب الطلاب فيه ، وافتتح معهد طبي لتدريب الطالبات [٢] .

وكان مؤتمر اتحاد الطلاب النصراني تعقد في معهد روبرت الأمريكي حيث كان يبحث فيه عن أوضاع التعليم النصراني في العالم الإسلامي ، وطرق مواجهة الجامعات الإسلامية لمناهضتها . مع أن عدد الطلاب المسلمين في الكليات التابعة لمعهد روبرت كان كثيراً [٣] ، وبخاصة بعد الحرب العالمية الأولى.

أما عن الجامعات والمعاهد اليهودية فالظاهر أنها كانت تهتم بالمدارس الصناعية والتجارية والزراعية . وإن لم يكن افتتاح الكليات ممكناً فلا أقل من أن تتضمن مناهج المدارس المواد التجارية والإقتصادية والصناعية مما يساعد الطلاب في حياتهم العملية مستقبلاً، وكانت تلك المدارس اليهودية تحت إشراف الجمعية اليهودية الباريسية [٤].

ولما ذاع صيت المدارس الأجنبية في اسطنبول بحصول المتخرجين منها على الوظائف المرموقة فى الدولة والشركات الأجنبية ، بدأ المسلمون يرسلون أولادهم إليها بغية الحصول على الشهادات العالية التي تساعدهم في حياتهم العملية مستقبلاً، غير أن الدولة العثمانية كانت تمنع المسلمين من إدخال أولادهم إلى تلك المدارس قبل أن ينهوا التعليم الابتدائي شريطة اقتصار التعليم الديني في تلك المدارس على الطلاب النصارى فقط[٥].

(١) انظر عمر فروخ : المرجع السابق ص ٩٥.

(٢) المرجع السابق : عمر فروخ ص ٩٩ – ١٠٠.

(٣) انظر عمر إبراهيم عكاشة : ملامح عن النشاط النصيري في الوطن العربي ص ٣١.

(٤) محمد صابان : المرجع السابق ص ١٨٠ ، ١٨١.

(٥) انظر المدارس الأجنبية الخاصة . مجلة النصيحة ص ٢٠ نقلاً عن صابان ص ١٦٨.

إلا أن القائمين على المدارس الأجنبية لما رأو أن القانون ( الفرمان ) العثماني القاضي على النصراني بمنع تغيير مذهبه ومنع المسلم من تغيير دينه سد أمامهم . بدأ السفير البريطاني في اسطنبول في محاولاته لتغيير الفرمان المذكور، فأقنع المسؤلين بذلك بعد منتصف القرن التاسع عشر، وأصبح الطلاب المسلمون في هذه المؤسسات التعليمية يشاركون في الطقوس الدينية النصرانية لدرجة أنه إذا أخطأ الطالب لايغفر ذنبه إلا بعد تقبيل الصليب .

ووصل الأمر بمعهد روبرت الأمريكي والذي كان يوجد به كثير من الطلاب المسلمين إلى إفطار الطلاب الصائمين جبراً، والتحدث عن الأفكار والقيم المخالفة للإسلام في الحفلات المدرسية العامة ، وكان المسلمون الذين دخلوا في هذه المدارس والمؤسسات التعليمية الأجنبية من أولاد الأمراء والباشوات والقواد ومدراء البنوك والسماسرة والأطباء وغيرهم من الطبقة الراقية في البلاد [(١)]. وقد ظلت أمورالدولة بيد هذه الطبقة مدة طويلة وأصبح الجمهورعرضة للتأثر بها [(٢)].

ولم تكن هذه النوعية من الطلاب خاصة في معهد روبرت فقط بل كذلك في غيرها مثل مدرسة القديس جوزيف الفرنسية في اسطنبول . وهذه التشكيلة بطلابها عام ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م كان فيها أولاد الأمراء وأبناء الضباط والقواد ومن أبناء الشخصيات الكبيرة في الدولة (٩٠) طالباً ، ومن أولاد الأطباء كذلك (٩٠) ، ومن أولاد السماسرة وأصحاب البنوك (١٢٠) وغيرهم من أبناء المحامين وأصحاب الإيرادات المالية الكبيرة ، وكانت هذه المدرسة تضم (٧٥٠)

---

(١) انظر محمد صابان : ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) د. بركات دويدار: الحركة الفكرية ضد الإسلام. ط القاهرة ، دار التراث العربي ١٩٧٤م . ص ١١٤.

طالبا[١]، من أبناء علية القوم !! سواء من المسلمين أوغير المسلمين إلا أن عدد أبناء المسلمين أصبح يتكاثر سنة بعد سنة لازدياد شهرة المعهد بين المسلمين وغيرهم[٢].

مع هذا الجو المترف والذى ضم أبناء علية القوم في تلك الفترة تحت سيطرة أهل الذمة متمثلة بإدارة تلك المدارس ونظامها ومناهجها كان أهل الذمة حريصين على إفساد طائفة كبيرة من الطلاب حيث كانت هذه المدرسة تمثل المحطة الأولى لغرس الأفكار التي ظهرت في تلك الفترة وعقبها من تلقين المبادىء اللادينية والشيوعية وغيرها من المذاهب العصرية الملحدة معتمدين في ذلك على النظريات الهدامة التي تفسر المجتمع بأسرع مايمكن وباسم العلم، وهذا الكلام يدعونا إلى أن نستمع إلى مايذكره قادة هؤلاء المفسدين المنصرين كزويمر وغيره، مما بين لنا الأثر المترتب على هذه المدارس وانتشارها بين المسلمين وتأثر المسلمين بها . فهى في حقيقتها ماكانت إلا معاهد للتكفير ومهما يكن في تلك المدارس من علم وثقافة وأدب كما هو شائع بين الطبقة المثقفة فإن الطالب لم يستفد منها شيئاً بجانب ماخسرفيها من دينه ومن إخلاصه لأمته ، فقد أصبح كثير من المتخرجين من هذه المدارس والجامعات حريصين على إفساد كثير من الطلاب من بني جلدتهم[٣].

يقول زويمر في مؤتمر أعمال المبشرين المنعقد في القدس ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م :

«لقد أعددتم في ديار الإسلام شباباً لايعرف الصلة بالله، ولايريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من إسلامه ولم تدخلوه في المسيحية». وبالتالي جاءت

(١) محمد صابان : المرجع السابق ص ١٦٩.

(٢) المرجع السابق : ص ١٧٠.

(٣) المؤسسات التعليمية في اسطنبول : ( مرجع سابق ) ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

النشأة طبقاً لما أراد الاستعمار لايهتم للعظائم ويحب الراحة والكسل ولايعرف همه في دنياه إلا للشهوات [١].

ومن الآثار التي نتجت عن هذه المدارس أن نبتت فكرة ( إلحادية ) أن الدين من الأعمال الفردية الشخصية الخاصة بالإنسان والتي تترك فيها الحرية الكاملة ودون التقيد في ذلك بآداب اجتماعية معينة دون أن يكون لهذا التدين أدنى صلة بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الإقتصادية السائدة في الحياة [٢].

هذه هي حقيقة العلمانية وماتريد أن تصل إليه ـ أي فصل الدين عن الحياة ـ فهي إذن وليدة مثل تلك المدارس التي حرص المبشرون على إيجادها بين المسلمين .

ويقول المستشرق الإنجليزي ( **هاملتون جب** ) :«لقد استطاع نشاطنا التعليمي والثقافي عن طريق المدرسة العصرية والصحافة أن يترك المسلمين ولو على غير وعي منهم أثراً يجعلهم في مظهرهم العام لادينيين إلى حد بعيد . ولاريب أن ذلك هو اللب المثمر في كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار »[٣] .

---

(١) انظر عماد شرف : حقائق عن التبشير. ط. المختار الإسلامي ١٣٩٥هـ . ص ٣٣.

(٢) انظر علي عبد الحليم محمود : الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر، ط الكويت دار البحوث العلمية. ص١٣٩ .

(٣) انظر : إبراهيم النعمة : كلام في الغزو الفكري ص ٧٤ - ٨٠.

## المبحث الثالث

# إحياء القوميات ونشر المذاهب الوضعية في البلاد العثمانية

### أولاً : القوميـة الطورانـيـة

**أساس الفكرة الطورانية** : تقوم فكرة الطورانية على أساس التأليف بين الناطقين باللهجات التركية أولاً ، ثم تكوين اتحاد حلفي منهم بينهم وبين الأمم التي أصلها طوراني مثل : المجر ( هنغاريا) بلغاريا ، فنلندا ، وهي حركة تركية بحتة تعتبر الأتراك عنصراً نفيساً له سماته السلالية والتاريخية، ويمكنه أن يخلق قومية على غرار القوميات الأوربية التي ظهرت آنذاك كالنازية مثلاً . فهي تهدف إلى إعلاء القومية التركية وتدعيم الصلات بين الترك في الدولة العثمانية وسائر أجناسهم في وسط آسيا ، ويقوم أساسها الفلسفي على الدعوة إلى :

١ـ ربط أتراك الدولة العثمانية بسائر أجناسهم خارج الدولة ( دون اعتبار اختلاف الملة ).

٢ـ تحرير التراث التركي والثقافة واللغة من المؤثرات العربية والفارسية .

٣ـ العمل على سيادة العنصر التركي وتفوقه بتتريك سائر الجنسيات في الدولة [١] .

وتستمد الطورانية أفكارها من فيلسوفها (ضياء ألب) إذ اعتبرها أساساً دولياً عالمياً ورأى فيها عوضاً عن الخلافة الإسلامية، لذا نراه يدعو إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب، وأعادة تكوينها تكويناً غربياً قومياً خالصاً، وماذلك إلا لسبب واحد في رأيه هو أن الحضارة الغربية هي امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الأتراك السلف ( سكان آسيا الوسطى ) في العصر الطوراني في تكوينها

(١) انظر محمود صالح منسي :حركة اليقظة العربية : ص١٥١ ، عمر عبد العزيز : تاريخ المشرق العربي ص ٢٩١-٢٩٢ .

ثم ساهم الأتراك المسلمون في رقيها وتعلمها من أوروبا )[١].

هـذه الأفكاروأمثالهـا ممـا سـاعد في ترسـيخ روح القوميـة بـين المـسلمين العثمانيين خاصة وقد وجدت صداها لدي الشعب التركي .

كان العقل المدبر لها رجل اسمه (جوك ألب) اتصف بالذكاء والدهاء وقـد تتلمذ على أيدي فلاسفة الفكر الماركسي والصهيوني ، وراح يبث فكره للأتراك عبر صحيفة ( توحيد أفكار) وقد كان يعد بحق بين الاتحاديين وداعي الأتراك إلى صراط الطورانية .

**يقول عنه عباس العقاد واصفاً خبثه وخطورة فكره** : رودفي سالونيك هذا كـان يكنى ( جوك ألـب) فيلـسفوف الحركـة ومبـشرها الأكـبر في القـرن العـشرين ، وجوك ألب رجل غير موثوق من نسبه التركي ولم يكن مـن المولـودين في الـبلاد التركية ، وأنه كان ينتسب إلى جهة جانب ديار بكر بالعراق ... وكـان أكثـر مـن هذا وذاك تلميذاً للعالم الاجتماعي اليهـودي ( دركـايم ) ... وهـذا هـو رسـول الماركسية في ميدان العمل الاجتماعي[٢] .

وقبل التفصيل في نشأة الفكرة الطورانية عند الأتراك يجدر بنا أن نقدم نبذة مختصرة عن هذا المصطلح ومايدل عليه :

هذه الفكرة كما هو واضح من منطوقهـا مركبـة مـن كلمـتين لكـل كلمـة مدلولها الخاص عند أصحابها :

**أما الشطر الأول من الكلمة ( قومية )** : فسيبسط الكلام عنه في الحديث عـن القومية العربية وهي كغيرها من سائر القوميـات لهـا مقوماتهـا وعناصـرتكوينها على خلاف في بعض تعريفاتها .

---

(١) أبو الحسن الندوي : الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية . ص ٤٧ .

(٢) بين أكتب والناس ـ الحركة الطورانية ط١ مصر ١٩٥٢ ص ٤٣.

**أما الشطر الثاني من الكلمة وهو ( طورانية )** : فهو نسبه إلى ( طوران ) وهواصطلاح من أصل فارسي وهو يشير بوجه عام إلى المناطق الواقعة شرقي وشمال شرقي إيران، وهي المناطق التي كان يعتقد في القرن التاسع عشر أنها الموطن الأصلي للجنس الطوراني وتمتد هذه المناطق في مساحات شاسعه في آسيا الوسطى والشمالية ، وكان من نتيجة النظريات الطورانية أو الطورو– آرية أوالاورالد – الطائية الجديدة نمو شعور معين بوجود قرابة بين شعوب كانت تعتبر تنمية للجنس الطوراني ومنها الأتراك ... [١] .

**نشأة القومية الطورانية** : إن الفكرة "القومية" عند الأتراك العثمانيين بدأت أولاً كحركة لغوية أدبية فقط كغيرها من القوميات – فأول البدايات تكون لغوية بحتة ثم تاريخية فقط وبعد ذلك يدخل الجانب السياسي فيوجهها على مايريد دعاتها الأوائل في الغالب – ثم صارت تظهر في الأبحاث التاريخية، وبعد ذلك انتقلت إلى ميادين الحكم والسياسية .

هذا هو رأي الحصري، وهو تقسيم القومية الطورانية في نشأتها إلى ثلاث مراحل مهمة كما سبق معنا – ويقول بعد كلامه السابق: " ومن الطبيعي أن التتريك في اللغة والتاريخ مهد السبل إلى التتريك في السياسة والحكم، ولكن هذا التتريك الأخير بدوره ساعد على إتمام التتريك في اللغة والتاريخ مساعدة كبيرة ...... وقد مرت هذه الحركة في ثلاث أدوار متتالية :

أ – الدور الذي يمتد من بدء حركة التنظيمات إلى حيث انقلاب الدستور وتأسيس "مشروطية الحكم" حسب تعبير الأتراك سنة ١٣٢٦هـ – ١٩٠٨م.

ب – الدور الذي يمتد من انقلاب المشروطية العثمانية إلى إعلان الجمهورية التركية .

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول التاريخ العثماني ص٢٦١ .

ج ـ الدور الذي بدأ بإعلان الجمهورية التركية [(١)] .

وقد أدى اليهود والنصارى دوراً كبيراً في تحريك عجلة القومية، فكان لليهود في تركيا اليد الطولى في إذكاء روح القومية الطورانية كما كان لإخوانهم النصارى سبق الصدارة في إنشاء فكرة القومية العربية في البلاد العربية، وكان من أبرز المجالات التي برز فيها أهل الذمة وأوضحها إفساداً ، **مجال التتريك في التاريخ** .

فبعد أن كانت فكرة القومية التركية بمعناها المتميز عن العثمانية وعن الإسلامية على حد سواء . فما كانت تجول لا في خواطر رجال الدولة ومتنوري الأمة ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس .

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى في العهد الذي عرف في التاريخ العثماني باسم "عهد التنظيمات" .

ثم بعد ذلك وفي عهد التنظيمات بالذات نشطت الحركة الأدبية فكانت نهضة أدبية قوية جداً ، تأثرت بالأدب الأوروبي تأثراً شديداً ، وهذا الكاتب اليهودي برنارد لويس يعترف بل يفتخر في كتابه (نشوء تركيا الحديثة) ، حيث يقول: "لقد تعاون الأخوة الماسونية وايهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد لأنه كان معارضاً قوياً لليهود، وذلك لأنه رفض بشدة إعطاء أي شبر من أرض فلسطين لليهود .

وبعد هذه الخطوة وفي هذا الجو ـ خلع الخليفة ـ عمل اليهود بلا تستر ولاوجل على تحويل ولاء المسلمين في الدولة العثمانية للإسلام إلى الولاء القومي حتى يخرجوهم تبعاً لجزئيات جنسياتهم المتعددة والتي ماوحدها إلا الإسلام .. وظهرت القومية التركية على حقيقتها في جمعية الاتحاد والترقي أو

---

(١) انظر ساطع الحصري : محاضرلت في نشوء الفكرة القومية ص ٩٦ .

تركيا الفتاة، وهؤلاء هم الذين ظهرت فيهم القومية التركية على حقيقتها كما يقول " زين " وأصبحت تعرف بالاتحاد الطوراني وهو حركة تهدف إلى توثيق الروابط بين جميع الشعوب التي تتكلم التركية على نمط الحركة السلافية الاتحادية[١] .

" ويعتقد أن الفكرة مستمدة من كتاب فرنسي اسمه " Khoon Cahun " حيث يرى فيه (كاهون) أن الطورانيين كانوا فيما مضى من الزمن شعباً ذكيا ممتازاً لكنه أخذ بالتقهقر والانحدار عندما تخلى عن الخصائص التي كان يمتاز بها في صحاري آسيا الوسطى واعتنق الإسلام ديناً وحضارة ...

فانظرإلى خبث هذا الكاتب الفرنسي وبذره لبدايات خطوط الطورانية وكيف تلقاها عنه سذج المسلمين والمستغربين والمتربين في أحضان الماسونية أمثال الدكتور ناظم . وكان عضواً بارزاً في جمعية الاتحاد والترقي واعتنق الطورانية مذهباً بعد اطلاعه على هذا الكتاب الذي أعاره إياه القنصل الفرنسي في سالونيك "[٢].

وهذه البدايات للفكرة القومية الطورانية يوافق عليها أكثر الباحثين في نشأة القومية الطورانية حيث يجعلون من أقوى المعاول التي هدمت العقيدة الإسلامية والارتباط الديني لدي العثمانيين وحولتهم إلى شعارات جاهلية قومية هي الكتابات الغربية .

وتلقف بعض أبناء المسلمين وأعضاء الجمعيات اليهودية من الأتراك أوغيرهم لهذه المقولات ونشرها بين العامة على صفة بحوث علمية ودراسات منهجية أو بحجة إعادة كتابة التاريخ مرة أخرى وماشاكلها من المسالك .

---

(١) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ، مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ص٨٧، نقلاً عن صالح العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ١٠٥.

(٢) انظر العبود : فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام ص ١٠٤ - ١٠٥.

إن حركة التتريك في المباحث والتأليف التاريخية بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، بالالتفات إلى مانشره المؤرخون الغربيون عن تاريخ الأتراك قبل الإسلام .

إن مؤلفات ـ فون لوقوك ، لئون ثاهون ـ بوجه خاص أدت دوراً مهماً في هذا المضمار، فقد وجد بعض الكتاب في تلك المؤلفات مباحث عديدة تبرهن على أن الأتراك كانوا متقدمين في الحضارة تقدماً بيِّناً قبل ظهور الإسلام أيضاً، ولذلك صاروا يقتبسون منها مايتعلق بتاريخ الأتراك " السابق للإسلام والمستقل عن الإسلام " .

ومن جهة أخرى أخذ بعض الكتاب يهتمون بالمباحث المتعلقة بخدمة الأتراك للحضارة الإسلامية، وينشرون الرسائل والمقالات للبرهنة على أنهم لم يكونوا أهل حرب وضرب فقط ، كما يزعم بعض المؤرخين بل إنهم كانوا أهل علم وحضارة أيضاً ...

وهذه الجهود بلا شك قدمت دوراً مهماً في إيقاظ روح القومية وإثارة الغرور القومي عند الأتراك العثمانيين. فأصبحت تسمع كلمة " تركي " تستعمل للمرة الأولى بنوع من الاعتزاز، كما بدأت صفة ( تركي ) تحل محل صفة (عثماني ) في كثير من الصحف ، بعد أن كانت تستعمل أحياناً في أوج التاريخ العثماني للإشارة إلى الرعاة التركمان ثم بعد ذلك إلى الفلاحين الجهلة الخشنين الذين يتكلمون اللغة التركية في قرى الأناضول . كما شاع استعمال اصطلاح " تركستان " وانكمش مدلول مصطلح " عثماني " الذي أصبح يستعمل لتميز أتراك الدولة عن أتراك البلاد الأخرى [١] .

ثم يذكر ـ ساطع الحصري ـ أنه علاوة على هذين التيارين السابقين فإن جهود الكتاب والمؤرخين والمفكرين تعدت هذين الاتجاهين ومنها :

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٦٢ .

أولاً : بدأ تيار قوي يدعوإلى إعادة النظرفي التاريخ المدون وشبهتهم وحجتهم في ذلك: أن التاريخ العثماني مثل تاريخ الإسلام ، كتب بنظرات دينية، وهذه النظرات الدينية حالت دون تقدير الوقائع على وجهها الصحيح فمثلاً : اعتناء المؤرخين بأن ينزلوا اللائمة على جنكيز خان وأن يلعنوه ، لإنه غزا بلاد الإسلام وحارب المسلمين .

ولكننا إذا نظرنا إلى الوقائع التاريخية وحقائقها بنظرات مجردة عن التعصب الديني اضطررنا إلى التسليم بأنه كان من عظماء التاريخ فضلاً عن ذلك فإنه خدم الأتراك في جمعهم تحت راية واحدة،فيجب علينا أن نغير نظرتنا إليه ، وأن نعدل عن لعنه ولانتردد في تعظيمه !! وهذا ماهو حاصل إلى الآن في تركيا .

هذا مثال وغيره من الأمثلة كثير . وفعلاً هذه الجهود التي بذلت في هذا السبيل والمقالات والكتب التي نشرت حول هذه القضايا ، أثرت في مشاعر الأتراك العثمانيين تأثيراً قوياً .وصار الجيل الجديد منهم لايذكر جنكيز خان وآتيلا إلا بالتعظيم والاحترام، حتى إن بعضاً منهم صار يتهافت على تسمية أولاده بأسماء هؤلاء الذين كانوا يلعنون في السابق .ومما يؤيد الكلام السابق - لساطع الحصري - ماذكر صاحب أصول التاريخ العثماني في قوله « إن مما ساعد على نمو وظهور الشعور بالقومية التركية أن عدداً من الأوروبيين المتخصصين في الدراسات التركية بدأوا يكتشفون ماضي الأتراك والدور الحضاري الكبير الذي لعبوه في آسيا الوسطى ، ودور لغتهم وثقافتهم في التاريخ ويلفتون النظر إلى الشعوب المعاصرة التي تتكلم اللغة التركية ، خارج نطاق الامبراطورية العثمانية، في آسيا الوسطى ، ومنطقة الفولجا ، والقوقاز ، وإيران »[(١)] .

ثانيا : ومن الاتجاهات والتيارات التي أنضمت إليها التيارات السابقة اتجاه جديد لم يسمع به الأتراك من قبل ، بل ولم يخطر على بال المثقفين منهم

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٦٠ - ٢٦١.

فضلاً عن عوام الناس . وهو تيار توسيع مفهوم الترك والأتراك ليشمل عدد كبير من أمم التاريخ القديم .

فقامت حركة قوية باعتبار الأتراك والتتار والمغول .. كلهم أمة واحدة، وصار القوم يعتبرون رجال جميع هذه الأمم أجداداً لهم وأسلافاً .. ثم أخذ التيار يتعدى هذه الحدود أيضاً، فصار بعض الكتاب يعتبرون السومريين والحثيين أيضاً في الأتراك ويدخلون جميع مآثر الحضارة السومرية والحضارة الحثية في نطاق مفاخرهم القومية .

وهذه الجهود بدأت أولاً شخصية وفردية على أيدي بعض اليهود مثل موئيز كوهين ، وخالدة أديب ، ولكنها لم تلبث حتى أصبحت جماعية تولتها الهيئات والجمعيات ، وفي آخر الأمر تبنت الحكومات نفسها هذه الجهود وعهدت بأمرها إلى لجان وهيئات رسمية .

ووصلت هذه الجهود إلى انحرافات كبيرة جداً عن منحى البحث العلمي ، ومن الأدلة على هذه الانحرافات وبعدها عن التوثيق ، أضرب بعض الأمثلة من بحوث قدمت بأدلتها وبراهينها الساطعة على زعمهم، وهي أبعد ماتكون عن المعقول والمنطق، فضلاً عن الحقائق العلمية والبراهين الثابتة :

فقد ألف أحد أساتذة تاريخ الحقوق في جامعة استانبول كتاباً عنوانه " منشأ الحضارة اليونانية " حاول فيه البرهنة على أن الحضارة اليونانية منحدرة من أصول تركية .

وأما أبرز البراهين التي أوردها ، أن اليونانيين كانوا يعبدون آلهة اسمها " آثينا " وهي المدينة المعروفة بها الآن .

ويقول: « من الأمور الظاهرة للعيان إن هذا الاسم يعني " آنا " مخفف من آن ـ آنا، النصف الأول من هذه الكلمة " آن " تدل في اللغة التركية على "الحصان" ، والنصف الثاني " آنا " تدل على " الأم " ، واعتبار الحصان أم الألهة من خصائص

الأتراك .. يمكن الجزم بأن اسم هذا الإله انتقل إلى اليونان من الأتراك .. فلا يبقى مجال للشك في أن الحضارة اليونانية انحدرت من أصول تركية !! وأغرب من ذلك أن الكتب المدرسية التركية الحديثة تزعم أن طارق بن زياد ، تركي الأصل »[(١)] .. ويوردون على ذلك أدلة أغرب وأتفه من قصة اليونان وحضارتهم ! .

فالذي تحول في هذا الأمر وجعل له خطورته وآثره البالغ في المسلمين هو تحول هذه الجهود من جهود فردية ومشاريع خاصة إلى تبني الدولة لهذه الخرافات والأفكار الهدامة والأبحاث المتكلفة الممجوجة أمثال ماسبق من الشواهد، ولكن بلا شك لاقت أمثال هذه الأبحاث رواجاً بين العقول الخاوية المسلمة نفسها لخبث اليهود ومكرهم، وفي إرساء قواعد القومية الطورانية ونبذ العقيدة الإسلامية .

والعجيب في الأمر أن أبرز قادة الطورانية كانوا من اليهود ، فإنه من المعلوم عند الكل : أنه قبل القرن التاسع عشر لم يكن الترك يعرفون لهم هوية غير الإسلام ويمكن للمرء أن يتحدث عن العرب المسيحيين أو التركي المسيحي فهو تعبيرسخيف واصطلاح مناقض لمعناه[(٢)] . فإن الأتراك قد اندمجوا في الإسلام اندماجاً أنساهم قوميتهم إلى أن جاء أمثال "موئيركوهين" اليهودي العثماني .

ولنترك نيازي بركس يحدثنا عن الدور الذي لعبه اليهود في إرساء تيار القومية الطورانية في كتابه "المعاصرة في تركيا" .

* يقول نيازي بركس الأستاذ بجامعة ماكجل بكندا ، في كتاب "المعاصرة

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص١٢٣ .

(٢) انظر : جي . أي كرونباوم ـ ترجمة د. صدقي حمدي : الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية .ص٤٧٠، ط المثنى . بغداد .

في تركيا "" إن لليهود المحليين في الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية . فالعلماء اليهود في الغرب مثل لوملي دافيد، وليون كاهون، وأرمينيوس فامبري تصدروا الكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية.

كما أن اليهود المحليين ( في الدولة العثمانية ) مثل كراسو ( قراصوا ) ، وموئيركوهين، وأبراهام غالانتي ، كان لهم ضلع في جميعة الاتحاد والترقي . وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم في الاستيلاء على السلطة . تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود ... "(١) .

ثم يتابع نيازي بركس ذكر شخصية من أبرز الشخصيات التي كان لها دورها الفعال والخطر في خلق الفكرة القومية الطورانية فقد وصفه "رينيه بينو" بقوله :

"إن موئيز كوهين هو خالق للفكرة القومية الطورانية في الدولة العثمانية ، إن كتاب موئيز كوهين "طوران" هو الكتاب المقدس للسياسة الطورانية، لقد أسهم موئيزكوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي، وهي السياسة التي أثرت على العلاقات التركية العربية ، خاصة في بلاد الشام ، وهي السياسة التي تتردد شكوى العرب منها أثناء حكم جمال باشا الاتحادي "(٢).

وكانت الحرية التي تمنحها الدولة لكل مفكر على اختلاف أهوائهم ومقاصدهم ، من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية ، ليس في عصر موئيز كوهين بل قبل ذلك أيضاً . يؤكد هذا المفهوم لوثروب ستوارد في ( حاضر العالم

---

(١) محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ص ١١٩.

(٢) محمد حرب : المرجع السابق ص ١٢١.

الإسلامي ) بقوله : " وكان من أعظم عوامل انحلال الدولة العثمانية، هو مشربها في إعطاء الحرية المذهبية ، والمدرسية لطوائف النصرانية ، التي كانت خاضعة لها ، لأن هذه الأمم بواسطة هاتين الحريتين كانت تحت رعايتها القومية ، وتتماسك وتسير سيراً قاصداً في طريق الانفصال عن السطلنة العثمانية [(١)].

وهذا ماحدا بقوميات كثيرة وإن كانت شبه منعدمة ولايعرف لها تاريخ ولاسابق حضارة ، ولكن إحياء للروح الوثنية وإبعاداً للمسلمين من الاعتزاز بدينهم، فقد كان إحياء ذلك الشعار الطوراني ( الذئب الأغبر ) في تركيا الكمالية آنذاك بداية مشجعة لرفع الشعارات الوطنية والقومية في سائر ممالك الدولة العثمانية ، فإذا بالفرعونية تبرز في مصر والفينيقية في الشام ، والبابلية والآشورية في العراق والبربرية في المغرب، وقد قام المبشرون والاستعمار والمستشرقون بالترويج لهذه القوميات على سبيل الدعوة لإحياء الوطنية ، ولتكون عوضاً عن القومية الإسلامية ، من ثم قضوا على كل قومية ترتبط بالإسلام في الوقت الذي تم فيه ربط الوطنيات بالغرب وقوى الاستعمار المختلفة [(٢)].

لم يكن العرق أو القومية هو الذي يفرق بين جماعة وأخرى بل الدين، وكانت الهوية السياسية لكل الرعايا هي ( العثمانية ) أي اعتبار المواطن في الامبراطورية العثمانية عثمانياً أما قوميته فكانت الدين الذي ينتمي إليه، وإن فكرة القومية العلمانية في غرب أوروبا كما كانت أوروبا تفهمها في القرن التاسع عشر لم يكن لها بصورة جماعية أي أثر في التفكير السياسي في الامبراطورية العثمانية [(٣)] .

---

(١) انظر ستوارد لوثروب : حاضر العالم الإسلامي ٣ / ٣٢٧.

(٢) محمد محمد إبراهيم زغروت : دور يهود الدونمة في سقوط الخلافة العثمانية ص ١٠٩.

(٣) زين نور الدين زين : نشوء القومية العربية ( مرجع سابق ) ص ٤٠ .

وكان لايعرف قبل القرن التاسع عشر قومية تركية إلا على سبيل السخرية من بعض البدو الذين لم يدخل الإسلام قلوبهم، بل حاولوا لفرط شعوبيتهم وبغضهم للعرب والإسلام أن يكون لهم نبي تركماني هو بابا اسحق .

الخلاصة أنه لم يكن يعرف إلا القومية الإسلامية، أما القومية التركية في تلك الفترة فكانت تمضي حيناً إلى حين مع عقائد الغلاة أعداء السنة ، وأدعياء النبوة ، حتى لقد كانت الأوساط الحاكمة ـ وهي تركية خالصة ـ لاتجد بُدًّا من تجريد الجيوش دفاعاً عن القومية الإسلامية إلى أن جاء العصر الحديث وقد دخلت القومية التركية في دور جديد [1].

* ظهر المفهوم الجديد للقومية الطورانية نتيجة أبحاث الأوروبيين في النصف الأخير من القرن الثامن عشر التي سبقت الأتراك أنفسهم في إبراز خصائص الأمة التركية لغة وتاريخاً ، وكان أشهر ماكتب في تلك الفترة كتاب (التاريخ العام للهون والترك والمغول وبعض التتار الغربيين ) للمؤلف الفرنسي ج ـ دكيني في سنة ١١٦٩هـ ـ ١٧٥٦م ، ١١٧١هـ ـ ١٧٥٨م .

ثم أخذت هذه الدراسات تتكاثر في القرن التاسع عشر ، وكان المجريون ممن سبق الناس إلى مثل هذه الدراسات . إذ كانوا يبحثون عن أصلهم الأسيوي البعيد، وكذلك الفنلنديون، ثم راجت هذه الدراسات عن الألمان والروس والفرنسيين والإنجليز . ومن أشهر المستشرقين الذين خدموا الدراسات التركية آرمينوس فابري سنة ١٢٤٧هـ ـ ١٨٣٢م الذي جمع معلومات كثيرة عن الأتراك.

كما كان الباحث الروسي رادلوف يجوب بلاد الترك في آسيا الوسطى يفتش عن المخطوطات ويدرس اللهجات ويجمع أزياء الطوائف المختلفة والآلآت الموسيقية .

---

(١) د. أحمد السعيد سليمان ، التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصرة ص ٢١.

* فتحت هذه الدراسات عيون الشباب الأتراك على مافي جنسهم وعلى تاريخ السلالات التركية الأخرى بآسيا وعلى تاريخ الدول التركية القديمة [١] .

وكما حدث في معظم الحركات الأوروبية ، كان الباحث الثقافي متمثلاً في نهضة اللغة التركية وإعادة كتابة التاريخ بمثابة الدفعة الأولى مهدت للفكرة القومية وطورتها فيما بعد إلى حركة سياسية [٢].

وقد آتت هذه الحركة الثقافية ثمارها في تركيا ، وكان أول من نماها من الترك أحمد وفيق باشا ، وسليمان حسني باشا ، ففي سنة ١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م نشر أحمد وفيق قاموس ( اللهجة العثمانية ) في نفس الفترة نقل كتاب الشجرة التركية من اللهجة الشرقية إلى اللهجة التركية القومية . ولم يكتف أحمد وفيق بترجمة كوميديات موليير إلى اللغة التركية، بل قام بتتريك أسماء شخصياتها . ونشر سليمان حسني كتابه ( تاريخ العالم ) وقد استفاد في وضع هذا الكتاب من دكيني بوجه خاص .

بهذا نرى أن كتاب دكيني كان له أثر عظيم في توجيه الجيل الأول من مروجي القومية التركية، وكما كان لدكيني أثراً على الجيل الأول، كان للينون كاهون أثراً بالغاً لكتاباته مثل ( مدخل إلى تاريخ آسيا ) على الجيل التالي من القومية ومروجها مثل خالدة أديب ـ سيناكوك ، ( وتأثر به أيضاً رضا نور وقد نقل عنه كثيراً في كتابه (تاريخ الترك) الذي أراد أن يلقن به الأجيال القادمة أصول القومية التركية [٣] .

نخلص من ذلك إلى أن منشأ القومية التركية فكرة ومنهجاً تأسست على أيدٍ يهودية .

---

(١) د . أحمد السعيد سليمان : المرجع السابق ص ٢٤.

(٢) صلاح العقاد : دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا وإيطاليا أمريكا وتركيا ص ١١٨ ، القاهرة ١٩٥٦م .

(٣) د . أحمد السعيد سليمان : التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصر . ص ٢٦.

## ثانياً : القومية العربية

يحسن بنا قبل الحديث عن هذه الوسيلة التي سلكها أهل الذمة مع الأمة الإسلامية لإقصائهم عن الشريعة ، أن نقدم بتمهيدعن معنى القومية حسبما يتبادر إلى الذهن عند إطلاقها .

**القومية** : مصدر صناعي ـ ونسبتها إلى قوم ، ولفظ قوم ورد في القرآن الكريم والسنة المطهرة مطلقاً ومقيداً ، وقد ورد لفظ قوم ويقصد به الرجال فقط .. وذلك على سبيل المقابلة مع النساء ، كقوله تعالى : ﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ ثم قال بعدها ﴿ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ [١] .

وسمي القوم قوماً :لأنهم في الأصل بمهام الأمور يقيمونها بما تقوم به وتصلح عليه[٢].

**المراد بالقومية في المصطلح العصري وعند دعاتها** : هي قومة العرب على أساس اتحاد اللغة الواحدة والتاريخ الواحد .

تدل على قوم العرب سواء كانت هذه القومية على الأساس الثابت كالإسلام أو كانت على غير الإسلام، بل اللادينية كما هو حاصل، ويجعلون من أساس قيام القومية توفر مقومات على اختلاف بينهم في تعبيراتهم عنها . ومحصلتهم واحدة وهي اتحاد الوطنية في اللغة الواحدة والتاريخ .

ولكن هذه المقومات وهي اتحاد اللغة والتاريخ موجودة "منذ القرون الأولى، ولكن لم توجد الفكرة القومية حتى في أوربا كمذهب وفكرة للحياة إلا في القرن التاسع عشر الميلادى ومابعده" ، والذي يهمنا في ظهور القومية هو نشأتها في المجتمعات المسلمة، ومن الذي كان وراءها من دعاتها سواء القومية

---

(١) سورة الحجرات آية ١١ .

(٢) انظر صالح العبود : فكرة القومية العربية ص١٢ .

العربية أو القومية الطورانية أو حتى البربرية في دول المغرب .

والسبب في تأخر ظهور القومية في كل أمة سواء في أوروبا ـ عند سيطرة الاعتقاد عند العامة والخاصة ـ بأن ـ "الله الذي يخلق الممالك ويوزعها كما يشاء أغدق على امبراطورنا خصالاً ومزايا كثيرة و نصبه سلطاناً علينا "[1] . وهذا الفكر يضاد قيام القوميات، و هذه نظرة الحصري ويعلنها هو صريحة في أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية قوة الدين "عند الأتراك" أي أن العلاقة بين الفكر القومي والدين السماوي علاقة تضاد وتنافر ..

ويؤكد الحصري نظرة القومية إلى أن السبب الرئيسي لتأخر ظهور القومية هو قوة الدين بما يقوله عن الأتراك فيما يلي :

« وأما عند الأتراك فالأمور كانت أكثر تعقيداً من جميع النماذج التي ذكرناها آنفاً . لأن الشعب التركي كان العنصر الحاكم في دولة إسلامية كبيرة تجمع بين السلطنة والخلافة ، فالشعور القومي ظل تابعاً للشعور الديني مدة طويلة ، وذلك أوجد بعض الحالات الخاصة التي حملت القوم على معالجة الأمور بأساليب ووسائل خاصة . وكان من أهم هذه الوسائل إصلاح اللغة والأدب بنظرات قومية بحتة ، وإعادة النظر في مباحث التاريخ على أساس تبعيدها من النظرات الدينية وإيجاد تاريخ تركي جديد يثير في النفوس حس الغرور والمباهاة بأمجاد الأجداد ... » .

لذلك كان من أهم البدائل التي وضعتها العلمانية عن الإسلام كفكر ومبدأ للحياة الفكرة القومية، فهي أحدى النتائج التي أفرزتها الأفكار العلمانية ، فيما أفرزت من آثار ، فقد كان التعصب القومي مظهراً من مظاهر استبعاد الدين عن الحياة، فلا يكون الإسلام هو الرابطة التي يعقد لها الولاء ويجتمع

(١) ساطع الحصري : أبحاث مختارة في القومية العربية ص٦٥ ، صالح العبود : فكرة القومية العربية ص ٢٩ ـ ٣٠ .

عليها المسلمون وتتوحد بها الآمال والالآم والتعايش والمصير.

فالفكرة القومية فكرة علمانية اتخذت منذ البداية طريقاً مغايراً للإسلام(١).

**بداية الفكرة القومية العربية :**

تبدأ فكرة القومية العربية ببداية فترة المدارس التبشيرية والجمعيات الأدبية والعلمية النصرانية وذلك من سنة ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م إلى سنة ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م على أيدي النصارى، ونصارى العرب هم أول من حمل فكرة القومية العربية ونشرها لمصلحتهم ولغبن المسلمين ومضرتهم (٢).

ومن أبرز من شرح هذا الدور الكبير لنصارى العرب ، واحد منهم وممن تولى كبر هذه الوثنية في بلاد المسلمين، وقد سطر التجربة والأعمال التخريبية في كتابه الموسوم بـ "يقظة العرب" لمؤلفه جورج انطونيوس .

يبين كيف أن التسامح الديني كما يسميه "شكيب أرسلان" ـ وهو في حقيقته بعد عن شرع الله وتطبيق ما أمر الله به المسلمين في تعاملهم مع أهل الذمة ـ سعى في نشر الفكر القومي تحت شعار الثقافة .

فقد فتحت الدولة العثمانية الباب على مصراعيه للرعايا الأمريكان ومكنتهم من فتح الجمعيات والجامعات التي سعت في نشر الفكر القومي تحت شعار الثقافة .

يقول جورج انطونيوس عن بداية الفكرة القومية : "بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام سنة ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت ، في ظل رعاية أمريكية (٣).

---

(١) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص ١٨١.

(٢) صالح العبود : فكرة القومية العربية ص ١٤٤.

(٣) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ٧١.

أما الثورات والانفجارات المتكررة التي حدثت في القرون الثلاث السابقة مثل "فخر الدين" في الشام ، و"محمد بن عبد الوهاب" في نجد و"محمد علي" في مصر، فلا علاقة لها بالقومية بل ذات أسباب خاصة ..

ومن الركائز المهمة التي اتكأ عليها دعاة القومية، قضية التعليم وتطوير وتعديل المناهج والذي تحمل المبشرون أعباءها ، فقد وضعوا المناهج على مايهوونه من أفكار، ثم جاءتهم مشكلة المعلمين ومن الذي سوف يتولى تدريس النشيء .

ففتحوا أو حولوا بعض معاهدهم إلى معاهد لإعداد المعلمين فكان التعليم من تلاميذهم ومن وضعوا الفكر القومي منهم .

ومن هؤلاء التلاميذ تأسست الجمعية السورية في عام ١٢٩٢هـ ـ ١٨٧٥م وهي من المحاضن المهمة التي انطلقت منها الشرارة الأولى على أيدي نصارى لبنان .

فقد تأسست هذه الجمعية على أيدي خمسة من المثقفين النصارى درسوا جميعاً في الكلية البروتستانتية السورية ( الجامعة الأمريكية ) وأخذت توزع منشوراتها في الشوارع في بيروت ودمشق وطرابلس وصيدا . منددة بالحكم العثماني ومطالبة باستقلال الولايات العربية عن الدولة العثمانية [1] والتركية .

وقد أصبح من الأخبار المتواترة والتي لاينكرها أحد من العرب النصارى أو المسلمين أو العجم هي قيام الفكرة القومية على أيدي رجالات ومفكري النصارى، والذين كان من أبرزهم رجلان وصفهم انطونيوس بالعظمة نظراً لما بذلا في وضع البذرة الأولى للقومية ، هم نصيف اليازجي ١٢١٤هـ ـ ١٨٠٠م ، وبطرس البستاني ١٢٣٤هـ ـ ١٨١٩م . حيث يقول جورج انطونيوس في

(١) انظر عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ص ٨٣ – ٨٤.

اطرائهم : "وقد آن لنا أن نتعرف على رجلين عظيمين كان بأيديهما زمام الحياة الفكرية في ذلك العصر في لبنان ... "(١).

فيذكر ترجمته للأول منهما على أنه من أسرة ماضيها خير من حاضرها لبنانية، وقد تلقى التعليم الرسمي الجاف ولكن لم يستطيع أن يخنق نبوغه، وقد شحذت عزيمته الدروس التي تلقاها عن كاهن القرية، وزادت في تطلعه إلى المعرفة ثم بدأ يعرض لشيء مما امتازبه من ذاكرة فذة وحرص ومثابرة على التحصيل واستفادته من المخطوطات وولعه بالأدب العربي وكشف أسراره .. إلى أن قال : وقد أيقظ جمال هذا الأدب الدفين الوجدان العربي في نفسه فهام به وكأنه مسحور ، وأصبح الرسول الداعي إلى بعثه وإحيائه (٢).

فكان رسول القومية الأول . ونشط نشاطا منقطع النظير في مجال تخصصه وحصيلته الأدبية التي أسسها بجدارته وملكته اللغوية القوية !!

وكانت الصفة البارزة التي تميزه هي صفاء الإسلوب، فكانت كتاباته أمثلة تحتذى لنماذج جديدة في التعبير الأدبي .

وكان من الطبيعى أن يتجه إليه الأمريكان يطلبون منه العون !! على إصدار كتب في علوم اللغة العربية .. وكانت الغاية من الكتب التي ألفها في النحو والمنطق والبلاغة والعروض أن تستعمل في المدارس ولاسيما مدارس البعثة التبشيرية الأمريكية (٣).

"ولم يقتصر جهد هذا الرجل على التأليف فقط ، بل كان عنده أخطر من هذا المجال في نشر أفكاره القومية . . وذلك في بيته الذي ظل مفتوحاً للمريدين الذين لم يزل عددهم في ازدياد يتحلقون حوله وينهلون من علمه !! وهو يحدثهم

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١٠٩.

(٢) انظر المرجع السابق : ص ١٠٩ - ١١٠.

(٣) انظر جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١.

عن جمال اللغة والمواطن الفنية (الإبداعية) فيها ثم نشط في مجالسه في دعوته إلى إحياء الأدب القديم حتى استطاع ونجح في إقناع عدد كبير من طلاب العلم بأن ذلك هو السبيل الوحيد إلى النجاة، وكان لحديثه في دعوته أن اتجه إليه العرب على اختلاف عقائهم من نصارى ومسلمين !! في زمان كان التعصب الديني فيه لايزال عنيفا وكان يهيب بهم ويذكرهم بتراثهم المشترك وأن يشيدوا على أسسه مستقبلاً يجمعهم إخواناً متآلفين " .

هذا وقد نشأ أولاده وأطفاله الذين يبلغ عددهم اثني عشر من البنين والبنات على نفس الأفكار، حتى بلغ من تأثر أحد أبنائه بتعاليم أبيه أن أصبح فيما بعد أول من نادى بالتحرر القومي للعرب [١].

أما الرجل الثاني فكان بطرس البستاني "المنصر" ولد سنة ١٢٣٤هـ - ١٨١٩م وكان أيضاً عربياً نصرانياً من جبل لبنان ويختلف عن اليازجي صاحبه في أنه تعلم كل ماأتيح له من لغات غير العربية بعد أن أجادها .

فالتحق وهو ابن عشر سنين بكلية الدير، وتعلم فيها السريانية واللاتينية فضلاً عن العلوم اللاهوتية وعلوم اللغة العربية .. ولتفوقه الدراسي وذكائه !! اختاره الرهبان ليوفدوه إلى الكلية المارونية في روما على نفقتهم ( إلا أنه لم يذهب إلى روما من أجل أمه ) وشرع في احتراف التدريس، وحين ذهب إلى بيروت عام ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م تعرف بإيلي سميث وبأمريكي آخر جاء إلى بلاد الشام مبشراً وطبيباً وهو الدكتور تيلوس فان دايك..

وقد نمت هذه المعرفة بينهم ولم تقتصر على الصداقة وحدها بل تعدتها إلى الامتزاج الروحي فاعتنق البستاني المذهب المشيخي البرسبتاري .

ومنذ ذلك الحين ارتبطت جهوده بجهود البعثة التبشيرية ارتباطاً وثيقاً ...

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١١ - ١١٢.

وحين طلب منه أن يساعد إيلي سميث في ترجمة التوراه انهمك في تعلم العبرية والآرامية واليونانية القديمة، وأخذ يستزيد من معرفته بالسريانية واللاتينية حتى أصبح متمكناً من جميع اللغات التي كتبت بها أقدم نصوص الكتاب المقدس وكان قد تعلم الإيطالية وتعلم الفرنسية أيضاً .

وكان يلقي المحاضرات والمواعظ في الجمعية الأدبية ـ هكذا أسموها ـ التي حث البستاني الأمريكان على إنشائها، كما كان يكتب لهذه الجمعيات النشرات[١] .

من الواضح جلياً من حياة هذا الرجل والمقتطفات المختصرة التي نقلتها أيضاً عن جورج انطونيوس تتضح لنا مجموعة من الحقائق تبين للعاقل حقيقة دعاة القومية العربية والمؤسسين لها ومن ذلك :

١ـ أن هذا الرجل منصر قبل أي شيء آخر .

٢ـ أنه متعصب لملته وليس كما يزعم في دعوته التخريبية أن اللغة أساس وحدة الشعوب.

٣ـ تستره هو وأمثاله من دعاة القومية بشعار الأدب والثقافة واستعارة العناوين البراقة لجمعياتهم ونشراتهم ومؤسساتهم التنصيرية ـ كما سيظهر هذا الأمر بجلاء أكثر في المباحث القادمة .

٤ـ أنه اعتكف مدة عشر سنوات وكان شغله الشاغل ترجمة التوراة مع أخيه إيلي سميث.

٥ـ في ظل من ترعرع وتربى ؟! ومن الذي احتضنه منذ طفولته إلى كهولته إلى هلاكه ؟! إنهم الأمريكان !!.

بعد هذه المقدمات نلقي نظره على جهود بطرس البستاني ـ القومية

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١٢ -١١٣.

والوطنية :

ففي أحداث سورية ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م والمذابح التي حصلت بين المسلمين والنصارى ، سعى البستاني إلى تخفيف حدتها بإصدار صحيفة اسبوعية صغيرة في بيروت بعنوان "نفير سورية" وكانت أول صحيفة سياسية أتيح لها الصدور في تلك البلاد، وقد أوقفت معظم جهدها في الدعوة إلى التوفيق بين العقائد المختلفة وإلى الاتحاد والتعاون في طلب المعرفة لأن المعرفة كما يذكر في مقالاته المخلصة !! أسبوعاً بعد أسبوع ـ تؤدي إلى الاستنارة العقلية والاستنارة العقلية تؤدي إلى القضاء على التعصب وتحل محل المثل العليا المشتركة بين الدينين [١].

ثم يعلق جورج انطونيوس على الكلام السابق بأن هذا الكلام يبدو تافهاً في وقتنا الحاضر ـ أي بعد أن ذابت الفروق العقدية بين المسلم والكافر والذمي ! ـ ولكن بلاد الشام لم تكن قدسمعت بمثل هذا الكلام من قبل، وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة القومية[٢] .

**المدرسة الوطنية** : وكانت الخطوة الثانية في سبيل تحقيق فكرته ـ أن أنشأ مدرسة أسماها "المدرسة الوطنية" بعد ثلاث سنوات من قدومه لبيروت . غايتها أن يتلقى فيها التلاميذ على اختلاف عقائدهم تعليماً أساسه التسامح الديني والمثل الوطنية .

وقد عين في هذه المدرسة نصيف اليازجي مدرساً أول للغة العربية مما أكسب هذه المدرسة شهرة واسعة وسريعة وجذبت إليها التلاميذ من جميع أنحاء بلاد الشام [٣].

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب ص ١١٤.
(٢) المرجع السابق ص ١١٤.
(٣) المرجع السابق ص ١١٥.

**صحيفة الجنان** :ومن الخطوات البارزة أيضاً في سبيل تحقيق الفكر القومي لدي المسلمين خاصة عند هذا الرجل بطرس البستاني ـ أنه أنشأ في عام ١٢٨٧هـ ـ ١٨٧٠ م "الجنان" وهي صحيفة سياسية أدبية تصدر كل أسبوعين، وكانت الغاية منها محاربة التعصب والدعوة إلى التفاهم والاتحاد لخير الوطن وكان شعار الصحيفة ( حب الوطن من الإيمان ) وهو شعور لم يكن يعرفه العالم العربي حتى ذلك الزمن (١).

وكان هدف الصحيفة الحقيقي عرض الآراء التي كان يدعو إليها مؤسسها، وأنها كانت تهدف إلى توجيه الأفكار إلى التسامح الديني والنظرة الواسعة للأمور! "

**دائرة المعارف** : وهذا المشروع من أضخم مشاريع هذا العصر، فقد شرع فيه وهو في السادسة والخمسين من عمره لايتطرق إليه الوهن وبنشاط وحيوية الشباب ومع ازدحام الأشغال والأعمال عليه، ومات وهو يكتب فيها وبيده قلمه بعد أن أنهى ستة أجزاء منها أكملها من بعده أولاده إلى أن أصبحت على ماهي عليه الآن أحد عشر جزءاً .

**جمعية الآداب والعلوم** : اتفق اليازجي والبستاني خلال السنوات الأولى من ارتباطهما بالبعثة التبشيرية الأمريكية على أن يقترحا إنشاء جمعية علمية وأهدافها رفع مستوى المعرفة ـ على نظرية البستاني في المعرفة السابقة ـ بين الشباب والكبار عن طريق اتصالهم بالثقافة الغربية .

" وقد حقق المشروع غايته في عام ١٢٦٣هـ يناير ١٨٤٧م فأنشئت الجمعية في بيروت باسم "جميعة الآداب والعلوم" وكان من أعضائها اليازجي والبستاني، وكذلك إيلي سميث وكورلنيليوس فان دايك ، وانتسب إليها رجل إنجليزي كان يقيم في الشام وهو الكولونيل تشرشل المشهور ـ ولم يمض عامان حتى بلغ عدد

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦، ١١٧

أعضائها خمسين عضواً . أكثرهم من النصارى السوريين المقيمين في بيروت، ولم يكن فيها عضو مسلم واحد ولادرزي، وكانت هذه الجمعية الأولى من نوعها في بلاد الشام . بل في أية بقعة أخرى من العالم العربي"[١] .

ثم بعد ذلك تتابعت الجمعيات العلمانية التي توسلت بالأدب والثقافة لنشر الفكرة القومية، وفي عام ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م أسس اليسوعيون ( الجمعية الشرقية ) أسسها الأب دوبرونيير. وآخر هذه الجمعيات وأشهرها والتي شملت أعضاء مسلمين ونصارى لأول مرة تحت مظلة واحدة هي الجمعية العلمية السورية ١٨٥٧م وقد بلغ عدد أعضائها (١٥٠) عضواً، والجدير بالذكر أنها لم تظهر هذه الجمعية ويتجرأ على تأسيسها والإعلان عنها إلا بعد إصدار الخط الهمايوني (الذي سيأتي تفصيل بنوده في الكلام عن العلمانية) عام ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م ، الذي صرح ولأول مرة بالمساواة المطلقة بين المسلمين والنصاى، فإن هذه الجمعية أعلنت بعده بسنة واحدة من إصداره [٢].

وبعد الكلام عن هذه الجمعيات والمجلات التي رأى أنها من أهم الوسائل في نشر الفكر القومي بين المسلمين العرب وماسبق من نماذج ماهي إلا شواهد على الدعوة إلى تلك الفكرة ـ ومن نافلة القول كما يقال ـ أن نذكر شهادة رجل من شيوخ القوميين ويعد المنظر للأفكار القومية في عصره ومؤلفاته ومحاضراته أشهر من أن تذكر في هذا المجال هذا الرجل هو أبو خلدون ساطع الحصري وشهادته تعد من الشهادات المهمة في هذه القضية، أي أن أهل الذمة هم الذين كانوا يذكون نار القومية العربية ضد الدولة العثمانية لإقصاء الشريعة عن الحكم وإضعاف شوكة المسلمين بتفريقهم وتشتيت شملهم .

يقول هذا الرجل الذي نصب نفسه على عرش القومية العربية في العصر

---

(١) المرجع السابق : جورج انطونيوس ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٢٣.

الحديث وحمل لواءها في محاضرة له عن نشوء القومية العربية :

( كان العرب المسلمون التابعون للدولة العثمانية ينظرون إلى التاريخ بنظرات إسلامية بحته ، فيذهبون إلى أن كل المفاخر والأمجاد تنحصر فيما دونه تاريخ الإسلام .. ولهذا السبب ماكان يرتسم في أذهان هؤلاء صورة تاريخ يستحق التسمية باسم تاريخ الأمة العربية ،كما أن التاريخ العثماني ماكان يظهر لهم إلا بمظهر" تتمة للتاريخ الإسلامي العام) [1].

هذا الفكر هو السائد العام في المجتمعات العربية إلى القرن التاسع عشر .. وفي نهاية التاسع عشر الميلادي نبتت نابتة تشاطر الفريق الأول في الرأي - وهم **قسمان** :

١ـ **القسم الأول** : بدأ يتشكك في شرعية خلافة بني عثمان على العرب، وأن الأصل في الخليفة أن يكون قرشياً، وهذا مفقود في بني عثمان، فلا يصح أن يكونوا خلفاء للمسلمين عامة، ولكن يبقى أن مجرد التشكيك في شأن الخلافة والاستقلال عن الدولة العثمانية مظهر من مظاهر الفكرة القومية عند العرب المسلمين، إلا أنها كانت فكرة ممزوجه باعتقاد ديني ومرتبطة بغايات دينية . فلا يصلح أن تجعل بداية الفكرة القومية العربية .

٢ـ **والقسم الثاني** : جرهم إلى الدندنة حول الخروج والثورة على الدولة وسوء الأحوال في البلاد من جراء فساد الحكم، ويقولون بوجوب مطالبة الدولة بإصلاحات جدية في البلاد العربية لإزالة عوامل هذا الفساد وتحسين أحوال البلاد .

وبدأ هؤلاء أو جماعة منهم من متنوري الأتراك أيضاً يشكون من فساد الحكم ويطالبون بإصلاح الأحوال فقالوا بوجوب مشاركة هؤلاء في مساعيهم

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية . مركز دراسات الوحدة العربية ط١ ص ١٢٢.

الإصلاحية !! وهؤلاء كما هو ظاهر لايظهر على مطالبهم ودوافعهم أي منحى قومي ، إلا طائفة يسيرة منهم أخذت تقارن بين الولايات العربية وبين سائر الولايات العثمانية ويوازنون بين أوضاع العرب في الدولة وبين غيرهم من العناصر الأخرى ، وكانت النتيجة من هذه المقارنات أن حقوق العرب مهضومة في السلطنة العثمانية بالنسبة لسائر الشعوب العثمانية ( وهذا كما هو معلوم تاريخياً ظاهر بطلانه ) .

ثم يخرج الحصري بالنتيجة التالية :

« ويظهر مما ذكرته آنفا أن مواقف العرب المسلمين من الدولة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر كانت تنم عن عدة تيارات واتجاهات :

كان السواد الأعظم منهم مرتبطاً بالدولة على علاتها ، متكلاً عليها مستسلماً إليها ولكن :

١ـ جماعات من المتنورين المتجددين كانت تنتقد أحوال الدولة وتشتكي منها وتدعو إلى تغييرها وإصلاحها .

٢ـ جماعات تتمنى قيام خلافة عربية تعيد الحق إلى أصحابه .

٣ـ وجماعة تطالب الدولة بإجراء إصلاحات جديدة في البلاد العربية .

٤ـ وجماعة أخرى تشترك مع أحرار أتراك للدعوة إلى إصلاحات عامة تشمل جميع البلاد العثمانية على حد سواء .

٥ـ وجماعة أخيرة تطالب بمراعاة حقوق العرب في مختلف شئون الدولة»[١].

هذه المواقف السابقة مجمل مواقف العرب المسلمين في تلك الحقبة الزمنية ولايظهر منها أي توجه ظاهر نحو الفكر القومي .

---

(١) ساطع الحصري : المرجع السابق ص ١٢٣.

بل لم يكن أحد منهم يتصور أية كيان أو مفخرة بدون الإسلام، فالمسلمون برآء من نشأة الفكر القومي والإسلام أصلاً بريء منه . وهذا بشهادة رجل عربي الأصل من دياربكر كان من أبوين مسلمين إلا أنه ارتد عن عقيدته فاعتنق العروبة مذهباً وديناً ...

بل أصبح هذا الرجل لايتحرج من ترديد الثناء والإشادة بشاعر نصراني دعا إلى الكفر الصريح في سبيل الوحدة العربية، ويذكر ذلك ويسطره في مؤلفاته القومية وهذا البيت هو :

**سلام على كفر يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم** [1]

وهذا طرف يسير من مناقب هذا الرجل ! ولكن مع ذلك هو ينسب الفضل لأهله فيبين ـ كما وضح غيره من قبل ومن بعد ـ أن مؤسس الفكرة القومية العربية هم نصارى العرب، ونتركه وهو يشرح لنا الأسباب التي سلكها النصارى لابتكار هذا المذهب ديناً لهم والدعوة إليه وعزوف المسلمين عن هذه الدعوة !!

فيقول في المحاضرة التي ألقيت في ١٣٦٠هـ ١٤ / ٢ / ١٩٤٨م بعنوان نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية حتى الحرب العالمية الأولى :

وأما العرب المسيحيون فكان لهم مواقف تختلف عن ذلك اختلافاً بيِّناً، (ويقصد مواقف المسلمين السابقة الخمسة ) وأنهم بوجه عام ماكانوا يرتبطون بالدولة ارتبطاً قلبياً وإنما كانوا يخضعون لحكمها خضوع اضطرار، والسواد الأعظم منهم ما كان يهتم بالتاريخ العثماني ولا التواريخ العربية لأنه كان يعتبرها كلها بمثابة ( تاريخ إسلامي محض ) لايخص أحداً غير المسلمين.

ولكن ... قام من بينهم جماعة من المتنورين يدرسون التاريخ من الكتب

---

(١) ساطع الحصري : اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية ص ٢٥٠.

الغربية ثم يرجعون إلى التواريخ العربية ويطالعونها لنظرات مستلهمة من الكتب المذكورة ويتوصلون من هذه الدراسات والمطالعات إلى الحقائق التالية :

إن الامة العربية من أعظم الأمم في التاريخ وكان لها حضارة قبل الإسلام وصار لها أرقى بكثير من ذلك بعد الإسلام .

والنصارى ساهموا في بناء الحضارة العربية قبل الإسلام وبعد الإسلام وهذه الحضارة لم تكن دينية بحتة كما يتوهم ذلك الجهلاء . بل إن لها كثيراً من العناصر والمظاهر التي لاتمت إلى الدين بأية صلة كانت، ومما يبرهن على ذلك أن الإداريين اقتبسوا منها أشياء كثيرة وكثيرة جداً .

ولذلك كله يجب على العرب النصارى أن يفتخروا بالتاريخ العربي وبالحضارة العربية مثل المسلمين [١] .

ويجب عليهم أن يتآزروا مع هؤلاء لإنهاض الأمة العربية وإعادتها إلى ما كانت عليه من العز والمجد في سالف الزمان .

"هذه الملاحظات وأمثالها كانت تجول في خواطر البعض من العرب النصارى الذين تثقفوا بالثقافة الغربية ودرسوا التاريخ الإسلامي بعقلية عصرية، ولا أراني في حاجة إلى الإيضاح ، بأنها كانت البذور الأولى لفكرة القومية العربية الخالصة المتجردة من الاعتبارات الدينية" .

ولهذا السبب نجد التفكير في القومية العربية بدأ عند العرب النصارى قبل أن يبدأ عند المسلمين منهم كما أن الكتاب والشعراء الذين سبقوا غيرهم في الدعوة المتحمسة إلى النهضة كانوا من العرب المسيحيين" [٢] .

وبالطبع بعد الدعوة المتحمسة هذه والتي للأسف لاتفتأ ولاتكل ولاتعرف

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص١٢٤ .

(٢) ساطع الحصري : محاضرات ...مرجع سابق : ص ١٢٤.

اليأس كانت النتيجة سحب طبقة من متنوري المسلمين ـ كما يسمونهم ـ إلى شباك هذه الفكرة اللادينية، ومن أمثلة هذا الحماس في الدعوة مالمسناه في حياة البستاني واليازجي وسار على نهجهما أولادهما من بعدهما، فهذا إبراهيم اليازجي سخر شعره وقلمه في إرساء قواعد القومية العربية لدرجة أنه يعتبر من أول الأصوات التي نادت صراحة بالالتفاف حول راية وشعار القومية العربية ـ ومن أجل العروبة فقط لا لدين ولا من أجل أي شعار آخر ـ ومن أجل ذلك :

«يحق لنا أن نقول إن أول صوت ظهر لحركة العرب القومية كان في اجتماع سري عقده بعض أعضاء الجمعية العلمية السورية، وكان أحد الأعضاء وهو إبراهيم اليازجي ابن ناصف اليازجي ممن قدر لهم أن ينالوا شهرة أدبية كبيرة ، كان قد نظم قصيدة اتخذت صورة النشيد الوطني والقصيدة في جوهرها تحريض للعرب على الثورة تغنت بأمجاد العرب وبمفاخر أدبهم وبالمستقبل الذي يستطيعون أن يضعوه لأنفسهم باستلهام ماضيهم ..

وكانت في جملتها مثيرة للمشاعر مفعمة بالألفاظ التي تلهب الحماسة، وقد ألقيت هذه القصيدة بصوت خافت في جو بالغ السرية والكتمان في حضور ثمانية أشخاص فقط ” .

ولكن بعدهم انتشرت هذه القصيدة وذاع صيتها حتى بلغت القريب والبعيد والمؤيد والمعارض، فكان من يسمعها لايأمن على نفسه أن يتهم بالخيانة بسببها وهو كذلك، ولذلك لم تدون على ورقة بل كانت تحفظ في الصدور وتنتشر بالرواية الشفهية في المدينة كلها بل جميع أنحاء البلاد حتى لاقت عقولاً خاويةً من الشباب خاصة وهم في سن يسهل فيها التأثر بطابع الفكرة القومية (دون معرفة لمصدر هذه الأبيات ) .

وهكذا أصبح لها نصيب وافر في تغذية الحركة القومية وهي في بدايتها(١).

---

(١)جورج انطونيوس : المرجع السابق ص ١٢٠.

وقد تتابعت القصائد تلو القصائد من هذا النصراني الحاقد، فبدلاً أن يفرض عليه الذلة والصغار سام هو المسلمين بسموم ألفاظه وشعره ( وهذه النماذج يسيره من حصاد تلك العزة ، ومن أبرزها تلك القصيدة البائية التي تناقلها الناس شفوياً لم تصل إلينا مكتوبة والتي سبق التنبيه على أنها كانت بمثابة الشرارة التي حرقت الهشيم في الجمعية العلمية على لسان إبراهيم اليازجي ) .

**تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب** [1].

* وقبل أن أختم الحديث عن دور النصارى من العرب في إحياء القومية العربية ، أحب أن أعرج وأبين دور اليهود كذلك . حيث النصارى لم ينفردوا لوحدهم بهذا السلاح الفتاك ، الذي شتت شمل الأمة ، ولكن اليهود كذلك ، خاصة في بلاد العراق .

كانت من أول الصحف اليهودية ، وأشهرها في العراق صحيفة تدعى " صدى بابل "، كانت هذه الصحيفة تدافع عن وجهة نظر الصهيونية دون أن تثير مخاوف المسلمين ، رغم ماكانت تتضمنه مقالات هذه الصحيفة من دعوة لعودة اليهود إلى فلسطين.

كان التيار السياسي الذي سار فيه اليهود تيار القومية العربية ، وذلك عن طريق الصحافة والزعامة الدينية ، وفي اعتقادنا أن مسيرتهم مع هذا التيار كانت مجرد سياسة تستهدف القضاء على الوجود التركي في البلاد العربية وانفراد اليهود بفلسطين ، وقد تزعمت صحيفة ( صدى بابل ) هذا التيار العربي المدافع عن العرب !

وقد كانت ( صدى بابل ) من أقوى الصحف المنادية بإعطاء العرب حقوقهم كاملة ، وبأن تتخذ القومية العربية مكانتها بين قوميات الدولة

(١) انظر نبيه فارس : مقدمة يقظة العرب ص ١١.

العثمانية، وناقشت بطريقة غير مباشرة مسؤولية الحكومة العثمانية في إبعاد بعض الضباط العرب عن الولايات العربية مدافعة عن هؤلاء الضباط ، مطالبة بأن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في الولايات العربية [(١)] بل إن هذه الصحيفة كانت تتحدث عن ( جامعة عربية ) في عام ١٣٣١هـ ـ ١٩١٣م يكون نواتها شيوخ الخليج العربي [(٢)] .

والذي كان يذكي نار القومية بين أهل العراق خاصة ـ على تأخر العراق في هذا المجال ـ هو اتصال عناصر من الجمعيات السرية في بيروت وغيرها ممن سبق ذكرهم من نصارى العرب، فقد التقى النواب العراقيون بزملائهم السوريين وكونوا جبهة واحدة في المجلس واشتركوا في المنتدى الأدبي ، وكانوا عندما يعودون للعراق يشترون الأفكار الجديدة التي صاروا يؤمنون بها ، خاصة إزاء اتساع الهوة بين الأتراك والأماني العربية .

وحصل الاتصال القوي بين العراقيين والجماعات السرية مثل القحطانية والفتاة وحزب اللامركزية وكذلك تزامن هذا الاتصال بين عامي ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م ، ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م مع تطور الصحافة ، والتي كانت تدعو إلى القومية العربية مثل ( صدى بابل ) اليهودية المنشأ، والتي تقدم ذكرها آنفا، وقد شرح هذا الوضع القنصل الأمريكي في مذكرة رفعها إلى كاتب الدولة . مما بين مدى مراقبة الأمريكان في الداخل للتغير الذي يصيب البلاد وتحريكها كل هذه الخطوات التي تخدم أهداف أهل الذمة والنصارى على وجه الخصوص .

كتب القنصل الأمريكي في بغداد إلى حكومته تقريراً في عام ١٣٣١هـ

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث ج١ العراق ، (١٩٨٣عين شمس) .

(٢) الأعداد التي ذكر فيها الكلام السابق صدى بابل ، عدد ٢١٤ في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٣م - ٢٣ ذي الحجة ١٣٣٣ هـ ، والكلام الذي قبله :صدى بابل عدد ٥٥ في ٢٧ شعبان ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م ، عدد ١٣ في ٢١ شوال ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م.

بتاريخ ١٧ مارس ١٩١٣م ذكر فيه "إن عرب العراق يشتركون في الحركة التي تهدف إلى إقامة حكم ذاتي إن لم يكن الاستقلال التام عن الدولة العثمانية وأنهم انضموا إلى جمعية سرية ( اللامركزية ) مقرها القاهرة .

ولها فروع في ولايات بغداد والبصرة والموصل وهدفها الحصول على الاستقلال لهذه الولايات الثلاث ، وثمة شائعة بأنهم يهدفون إلى إقامة دولة عربية تكون عاصمتها دمشق .

واستطرد القنصل الأمريكي في تقريره فذكر أن الوطنيين في البصرة بعثوا مذكرة إلى حكومة الأستانة يطالبون باستقلال ذاتي واسع وخاصة احتجاز الضرائب التي تجمع من الولاية لكي تنفق عليها ، وأن الحكومة العثمانية وعدت ببحث ماجاء بهذه المذكرة ، ولكن الوطنيين في البصرة مصممون على نيل الاستقلال ...

أما في بغداد ـ كما جاء في تقرير القنصل الأمريكي ذاته ـ فإن الشرطة وضعت يدها على أحد المنشورات التي أصدرتها الجمعيات السرية ، وكان المنشور بعنوان "الصرخة الأولى" وأن الوطنيين في بغداد طلبوا من الوالي العثماني أن يغادر هو وهيئة الإدارة العثمانية البلاد ، وذكر القنصل الأمريكي أن قوة الحركة القومية في العراق لايعرف حجمها تماماً بسبب السرية التي كانت تحيط بها ..."[١] .

---

(١) عبد العزيز سليمان نوار : تاريخ العراق الحديث .

## المطلب الثاني

## العلمانيـــة

من وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة عن ميدان الحياة ، وجعل المسلمين لاهم لهم إلا الدنيا وزينتها ،وإشباع الغرائز والشهوات ، دون التطلع لمستقبل هذا الدين أو حمل هم الإسلام ، والقيام بأوامر الله تعالى في الأرض بحيث يكون حالهم حال البهائم جسداً بلا روح ولاعقل ، دنيا بلا دين ، مسلمون بلا إسلام.

فالناظر لتاريخ الإسلام والمسلمين منذ فجر الرسالة إلى القرن السابع عشر بل والثامن عشر يرى أن هذه الغاية لأعداء الله من أبعد المستحيلات إن لم تكن من الممتنعات ؛ حيث نشاهد في التاريخ مدى الهزائم التي مني بها المسلمون عبر التاريخ ، ومدى فظاعتها ، وبشاعتها ، إلا أنهم لم ينسلخوا بها عن دينهم أويتبرأوا منه ، بل كانت النظرة السائدة والتي لايختلف فيها مسلمان أن سبب الهزائم هو :

تخلينا عن شرع الله ، وتقصيرنا في جنب الله ، وهذا ماكان يصرح به الخلفاء العثمانيون الأواخر في عصر انحطاط دولتهم "إن عدم الانقياد للشرع الشريف كان السبب فيما أصاب الدولة خلال المائة والخمسين سنة من تدهور وضعف "[1] .

"ليكن معلوماً للجميع من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أن بداية ظهور هذا الدين المبين وهذه الدولة المحمدية ثم بعد ذلك سيطرتها على الشرق

---

(١) عبد العزيز نوار : تاريخ العراق الحديث ص ٤٤.

والغرب كان فقط في ظل الشريعة المطهرة ، وسيف الجهاد "[(١)].

ويقول السلطان عبد المجيد : "أن ماأصاب دولتنا من ضعف إنما هو بسبب تفريطنا في الشرع المطهر "[(٢)].

إن هذه النظرة الشرعية لأسباب النصر والهزيمة في الأمم جعلت من المستحيل أن يتبنى السلاطين المسلمون ، فضلاً عن شعوبهم فكرة تقوم على أساس نبذ الدين ، ولكن وللأسف هذا ماحصل في دولة الخلافة ، وظهر جلياً في القرن التاسع عشر الميلادي في جميع أنحاء العالم الاسلامي. حيث أصبحت هذه الحقيقة المجمع عليها تفهم مقلوبة تماماً وأصبح ينادي بعض أبناء المسلمين بأن سبب التأخر والانحطاط هو التمسك بهذا الدين.

ولم يكن هذا التحول الفكري العكسي الرهيب وليد ساعة ولاثمرة جهد يسير نظراً لصعوبة تغيير الأفكار والمعتقدات والتقاليد الثابتة والموروثة صاغراً عن كابر ، وإنما هي ثمار جهود جبارة طويلة الأمد كانت تنخر في فكر الأمة الإسلامية دون أن يتنبه لها أحد حتى آتت أُكلها أخيراً وأينعت ثمارها وظهر ماكان مدفوناً في الباطن على ألسنة وأقلام المقتنعين به .

**فيا ترى ما هي هذه الوسائل والأساليب التي سلكها أعداء الأمة حتى وصلت إلى هذا الحد من القناعة الفكرية الرهيبة .**

وما هو أهم معول استخدمه أعداء الإسلام في هدم الشريعة وإقصائها عن الحكم ، وبأي وسيلة وأسلوب استطاعوا إقناع بعض المسلمين بالتخلي عن دينهم والانسلاخ منه؟ **!هذا هو ما سأتحدث عنه في هذا المبحث . فأقول وبالله التوفيق:**

---

(١) نص الفرمان الذي أصدره محمود الثاني في إلغاء الإنكشارية سنة ١٢٤١هـ الموافق ١٨٢٦م ، ومحمود الثاني هذا من أوائل وأنشط من سعي في سياسة التغريب في الدولة العثمانية ، فريدير ، نص فرمان رقم ٤٧١ محفظ رقم ١٤.

(٢) انظر تاريخ العراق الحديث : المرجع السابق ص ٤٤ .

إن أهم معاول اليهود والنصارى في هدم الخلافة والملة هو : إدخال المذاهب الفكرية العصرية الهدامة على أنها نظريات علمية أثبتت نجاحاتها في أرض الحضارة والتقدم والتكنولوجيا ( أوروبا ) ، وعلى رأس هذه المذاهب ومن أشدها فتكاً " العلمانية " أو "اللادينية" فهي الأصل الذي بنوا عليه كل ماسواه من نظريات أعقبتها، كالقومية على اختلاف أنواعها، والشيوعية ، والرأسمالية ، وهذه الأخيرة ماطرحت في الساحة إلا لسد الفراغ الناتج عن نبذ الدين كبديل مالي يُشْغَل به الملحدون ، والمنسلخون من دينهم .

فما هي هذه العلمانية ؟ وماأصلها ؟ وأين نبتت ؟ وكيف دخلت أرض المسلمين ؟ ومن هم دعاتها في الداخل ؟ وما ارتباطها بالقوانين التي شرعت في آواخر عصر الدولة العثمانية ......؟ .

هذه التساؤلات هي مدار حديثنا في هذا المبحث ، وإن كان الحديث عن الأمور النظرية والاصطلاحات الكلامية ليس من صميم البحث ، ولكن أكتفي بالإشارة فقط ....

**تعريف العلمانية :** كلمة " علمانية " جاءت ترجمة محرفة للكلمة الإنجليزية " Seclanism " والترجمة العربية لهذه الكلمة في القاموس الإنجليزي ... العلمانية : هي النظرية التي تقول إن الأخلاق والتعليم يجب ألا يبنيا على أسس دينية ...(العلماني ) : هو المؤمن أو المؤيد أو المعتقد في العلمانية ..

وجاء في دائرة المعارف البريطانية في مادة " Seclanism " أنه حركة اجتماعية تهدف إلى نقل الناس من العناية بالآخرة إلى العناية بالدار الدنيا فحسب ، وذلك لأن الناس قد انكبوا على الدين وحب الإله والتأمل في الآخرة، وذلك في القرون الوسطى ، وجاءت اللادينية تقاوم هذا الاتجاه ، وشجعها على ذلك نمو النزعات الإنسانية في عصر النهضة ، وهي نزعات زادت صلة الإنسان بالدنيا ، وباعدت بينه وبين الدين ، ثم نما هذا الاتجاه ليصير اتجاها

مضاداً للدين ....[١] .

وهذا الكلام الخطير يتضح منه : أن العلمانية لاتعني فصل الدين عن الدولة فحسب ، بل المعنى أعظم من ذلك فهي تعني : عزل وإقصاء الدين بالكلية عن الحياة بشتى جوانبها ، الأخلاقية والتعليمية ، والاجتماعية واالسياسية ، والتربوية ...

هذا هو معنى العلمانية عند أربابها وفي البيئة التي نشأت وظهرت فيها ، سواء في المعاجم البريطانية أو الفرنسية .

أما في اللغة العربية فلا يعرف في المعاجم والقواميس العربية نسبة يمكن بفتح العين أو كسرها أن تنسب بالألف والنون قياساً .

فمادة «علم» المأخوذة منها كلمة "علمانية" إما أن تكون بكسر العين وسكون اللام وإما أن تكون بفتح العين وسكون اللام .

وعلى الأول يكون معناها : العلم الذي هو ضد الجهل وعلى هذا تنطق عِلْمانية بكسر العين وسكون اللام ، نسبة إلى العلم بكسر العين .

وعلى الثاني يكون معناها : العالَم ـ بفتح اللام ـ أو الدنيا ، وعليه يكون معنى كلمة (علمانية) : الدنيوية ، في مقابل الآخرة ، وهذا هو الألصق بحقيقتها، وواقعها ، فالأصح إذن أن تنطق ( عَلْمانية ) بفتح العين ، وسكون اللام .

ومجيء الكلمة محرفة ، على هذا النحو أمر واضح ، بغية التلبيس والتحريف على المسلمين وطمس الحقيقة ، وبمثابة دس السم في العسل كما يقال، لأنها توحي بأن معناها نظام علمي أومذهب علمي يقوم على أساس العلم التجريبي ، ويشفع لهذا الفهم أن العلم الأوروبي التجريبي قد نما وازدهر

---

(١) هذه الترجمة من دائرة المعارف عن نشأة العلمانية ، ودخولها الى إلمجتمع المسلم . د/ محمد العرابي ص ١٨.

في عهد محاربة الدين ، ونبذ الكنيسة له ، والتي ناصبت العلم والعلماء العداء ، كما هو معلوم من واقع الثورة الفرنسية .

ولم تنسب النسبة القياسية أي "علمية" مبالغة في الإيهام ، وزيادة في التلبيس والتضليل .

أما على اللفظ الثاني "علمانية" فالمراد نظام دنيوي في مقابل الأخرة وهو مؤيد لما سبق ذكره في المعاجم الغربية . فهذا اللفظ هو الراجح ، وهو الأدل على المسمى كما هو ظاهر [١] .

وبهذا يظهر أنه لاعلاقة لها بالعلم ، بل وليست فصل الدين عن الدولة فقط ، بل فصل الدين عن الحياة كلها .. !!

**منشأ العلمانية الأصلي** : لن ندخل في جدل تاريخي في أصل العلمانية ، ونشأتها ، ومنْ وراءها ، فهذا محله الكتب التي أفردت العلمانية بالبحث ، ولكن أكتفي بـ : التذكير ببعض الحقائق التي أصبحت شبه متواترة عند الباحثين . فأصل فكرة العلمانية يهودية ، وهذا لايكفي لطرحها على الشعب الأوروبي المتعصب لنصرانيته ، بأن ينبذ دينه ويتخلى عن كنيسته من أجل فكرة جديدة ، وتفسير حديث للحياة والكون .وإنما شجع وساعد على نشرها ، وبالتالي إقرارها كمذهب حضاري عدة عوامل نذكر أهمها :

**البيئة التي نبتت فيها العلمانية ، وسماتها** : فأول بلد احتوى العلمانية ، وتبناها كمنهج حياة .. فرنسا .. وذلك بقرار من اليهود الذين استغلوا الثورة الفرنسية أبشع استغلال ، وهذه عادتهم في انتهاز الفرص ، واستغلال الأحداث، فحقيقة

---

(١) انظر في أصل العلمانية : معجم اللغة العربية "المعجم الوسيط" ج٢ ط مصر ١٩٦١م، منير البعلبكي: "قاموس المورد" دار العلم للملايين ط بيروت ١٩٧٧م، د. محمد البهي : "العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق" ط الأزهر ١٩٧٦م، أنور الجندي :"سقوط العلمانية" ، عماد الدين اسماعيل :"تهافت العلمانية" ط الرسالة ١٩٧٥ م . وانظر : العلمانية ، د. سفر الحوالي.

الثورة كانت على أي شيء؟ وماالدافع للثوار على أفعالهم ؟ إنها الكنيسة ، وماكانت تتخبط فيه من طغيان ، وخرافات ، ودجل وتكميم للأفواه ، ومحاربة لكل جديد ، وإن لم يقدح في الدين وتقتيل للخبراء والمخترعين على مرآى من جميع الناس ، ومن إخوانهم بالذات .

كل هذه الهرطقات وأكثر ، بلغت درجة لايطاق معها سكوت وتحطم أمامها كل صبر ، ونفد كل عقل ، فلا مجال للإصلاح !! هكذا قرر المنظرون اليهود للثورة، وهكذا أقنعوا الناس أنه لاحل لمشاكلنا إلا بالتخلص من سلطان الكنيسة والبراءة من الدين بالكلية ـ الإلحاد ـ والطريق هو الثورة والثورة فقط .

فسخط الناس على الكنيسة ورجالها ، ونقموا نقمة لاهوادة فيها ، وانسحب هذا السخط على الدين ، وعلى كل ما يمت للدين بصلة، بل كرهوا كل رجل دين ، وإن لم يروا منه مايستدعي الكره ، أو الغضب .

كما اقتنع العامة بها بتأثير الدعاية اليهودية المسلطة كالصحافة التي سيطروا عليها ، عن طريق المحافل الماسونية ، فتأثروا بما يسميه "دوركايم" بالعقل الجماعي الدعائي .

أو عن طريق الإقتناع والغزو الفكري بحقيقة غريبة لم نعرفها من قبل ، وهي : إن الدين والعلم نقيضان ، لايجتمعان ، وضلعان متوازيان ، لايلتقيان ، ولانستغرب من هذه النتيجة التي توصل إليها عامة الشعب ، إذا عرفنا البيئة ، والدين المحرف ، والثمار العفنة لأعمال الكنيسة التي جعلت من هؤلاء الثوار بركاناً ينفجر في عام ١٢٠٣هـ ـ ١٧٨٩م نتيجة غليان على نار هادئة في بدايتها ، ومازالت تزداد اشتعالاً إلى أن بلغت قمة الغليان في الثورة الفرنسية التي أنشئت

أسسها على مبادئ العلمانية ، ونبذ الدين بالكلية[١] .

بل وشرعت لها كثيراً من النظريات الدنيوية والاجتماعية والاقتصادية ، والتاريخية ، والطبيعية ، والغريب أن أغلب هؤلاء المفكرين من اليهود . ومن أبرز هؤلاء المفكرين الفيلسوف اليهودي "بسبنوزا" رائد الفكرة العلمانية ، باعتبارها منهجاً للحياة . فهو يقول في كتابه "رسالة في اللاهوت والسياسة" : «ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة ، على السواء ، إعطاء من يقومون بشئوون الدين الحق في إصدار القرارات أيا كانت أو التدخل في شئوون الدولة ، وعلى العكس يكون الاستقرار أعظم إذا اقتصروا على الإجابة على الأسئلة المقدمة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً ، والأوسع قبولاً بين الناس »أ . هـ[٢] .

ولا أظننا في حاجة إلى تعليق على هذه العبارة الخبيثة ، والتي لايزال المسلمون يكتوون بنارها ، حيث أصبحت واقعاً مألوفاً مرضياً به ، بخلاف دور العلماء في صدر الإسلام ، ومواقفهم المشهورة والقوية مع من يريد أن يمس جنان هذه الشريعة بالتغير والتبديل ... !!

ماسبق من الكلام عن العلمانية في أوروبا ، وسبب وجودها أوظهورها ، أن السبب الرئيسي هو فساد الكنيسة في كل المجالات ، دون استثناء ، وسيطرتها على العقول .

والسؤال الذي يطرح نفسه : ماأوجه الشبه بين الإسلام السماوي الدين الرباني ، والنصرانية المحرفة ؟ إن وجدت !! ولو شبهاً واحداً جلياً !! لاأظن

(١) للاستزادة في موضوع الثورة الفرنسية انظر : لمحمد قطب : مذاهب فكرية معاصرة ، د .سفر الحوالي : العلمانية، فيشر :تاريخ أوربا في العصر الحديث، الفصل الأول أسباب ونتائج الثورة الفرنسية .

(٢) دكتور سفر الحوالي: العلمانية ص ١٧١ ، ٤٢٦.

أحداً يجرؤ على مقارنة بين الخرافات الوضعية التي هي اختراع البابوات والكنيسة ، وبين دين الرسل ، وشريعة الله في أرضه وكذلك التحريف والبعد عن دين الله ، وتخلي المسلمين عما أمرهم الله به من الخلافة في الأرض وعمارتها ، لم تبلغ إلى درجة نحتاج معها إلى مصلحين من خارج المسلمين ، والاستعانة بأنظمة مستوردة ، فلا تزال طائفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الحق قائمين ، لايضرهم من خذلهم ولامن خالفهم ، وهذا ولله الحمد الشعور السائد عند المسلمين، فلم يكن هناك ذكر لأي بديل عن الإسلام طوال عصور المسلمين السابقة ، ولم يجرؤ أحد على أن يطرح الردة على اختلاف مسمياتها بديلاً عن دين الله تعالى ، لاقومية ، ولااشتراكية ، ولاعلمانية ، ولا..، ولا ....

وفي ذلك يقول أبو القومية العربية ومنظرها « ساطع الحصري » :

"... أما فكرة القومية التركية ، بمعناها المتميز عن العثمانية ( وهي تعني الإسلام ) وعن الإسلام على حد سواء .. فما كانت تجول في خاطر رجال الدولة ومتنوري الأمة ، ولا في أذهان سواد الشعب وعوام الناس ... "[1].

ونقلت هذا النص لإعتقادي بأن القومية والعلمانية هما وجهان لعملة واحدة، فدعاة القومية هم دعاة العلمانية .

وكان التجديد الذي يطرأ على الدولة ودعاة التغيير يتم باسم الدين ، لايستطيع أحد منهم أن يخرج عن إطار الشريعة ومـاتقره لجنة الفتوى ـ وشيخ الإسلام ـ فكل نظام يستحدث يعرض على شيخ الإسلام في الدولة ، فإن طلب التعديل سمع منه ، ولكن وللأسف منيت الدولة بعلماء سوء ، تارة مثل "موسى كاظم أفندي "[2]، وآخرين مستغفلين ومن السهل تدليس الحقائق عليهم

---

(١) ساطع الحصري : محاضرات في نشوء القومية العربية ص ٩٣.

(٢) وهو من الروافض الذين أفتوا بخلع السلطان عبد الحميد ، وكان عضواً في المحفل الماسوني أيضاً .

وإبهارهم بالحضارة الغربية ، وهذا مافعله اليهود ، والشعراء النصارى في السنوات الأخيرة .

ولكن ومع ذلك ومع سرعة التغيرات التي كانت تتوالى منذ خلافة السلطان سليمان ، والذي لقب ( بالقانوني ) لكثرة التنظيمات التي سنت في عهده ( ولم تسم تشريعات قط !! ) ومع هذه العاطفة الدينية القوية لدى الدولة ومملوكيها في تلك الفترة من تاريخ الأمة كيف استطاع أعداء الإسلام من اليهود والنصارى إدخال فكرة العلمانية ، ونبذ الدين . وكانت أول مظاهرها : علمانية الحكم في صورة قوانين مستوردة من فرنسا وبريطانيا وغيرها من أمم الكفر.

فقد استطاعوا أن يقنعوا العامة فضلاً عن قادة الفكر المتسمين بالإسلام بأنها طريق الخلاص من تلك النكسات وهزائم الدولة المتلاحقة ، وحتى تلحق بركب الأمم المتحضرة صاحبة الريادة والسيادة في كل المجالات : الصناعية ، والاجتماعية ، والتربوية، فلا بد أن ننهل مما ينهلون، وأصبح المسلمون أرضا خصبة يتقبلون أي فكر مستورد بعد أن تيقنوا من أنهم مهزومون ، وعددهم الغالب هو صاحب الفكر المتسنير ، والمغلوب مولع بتقليد الغالب.

وحصل ماحذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منه . فقد صح عنه في الحديث المرفوع "لينقض الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة يتشبث الناس بالتي تليها ، وأولهن نقضاً الحكم ، وآخرهن الصلاة" (١) .

فالعلمانية في الدولة العثمانية ، والبلاد الإسلامية بصفة عامة بدأت بعدة مراحل :

أولها ماصطلح على تسميته بعصر التنظيمات والذي كان يسعى وراء هذا الثقب اليسير في ظاهر جدار الشريعة التي لها السيادة ، ولاسلطان فوق سلطان

---

(١) المسند ٥ / ٢٥١.

الشرع هم أهل الذمة ، بصفتهم خبراء عسكريين خاصة ، وسفراء لدول متحضرة، فلم يزل كثير من السفراء ـ خاصة سفير إنجلترا ـ يحاول إقناع الباب العالي والخليفة بضرورة عمل الإصلاحات الجذرية في الجيش العثماني.

وتوافقت هذه المحاولات مع حسن نية بعض الخلفاء ، وخبث كثير من الصدور العظام أمثال : ( رشيد باشا ) الذي ذهب إلى فرنسا وغيرها من عواصم أوروبا وتلقى غسيلاً جيداً لعقليته ، ثم تدرج في ممالك الدولة من وزير للخارجية إلى صدر أعظم ، وكان ممن حمل لواء التغريب .

فأولئك السفراء والقناصل بدأوا طريقتهم باسم الإصلاح والتنظيم الذي تقتضيه الظروف الواقعية ، وأن الجيش العثماني لم يعد يصلح على أسلوب الفوضوية الذي تمثله الانشكارية ، فالظروف العسكرية الدولية تقتضي وجود جيش منظم يستخدم الوسائل الحديثة في القتال بدلاً من الخيول والسيوف .

فلجأت الدولة العثمانية إلى ملوك أوروبا الذين كانوا لايزالون في نظر العثمانيين حتى ذلك الحين : خنازير حقيرة ، يدل على ذلك عبارة الصدر الأعظم ( لتوماس مور ) حين أتى إلى الباب العالي ، بشأن الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، فقال له الصدر الأعظم : "إن مولاي السلطان لايهمه أن يقتتل كلبان بعيداً عن مملكته ، فلا داعي لدخولك عليه "[١].

وكانوا يطلبون منهم إيفاد مدربين للجيش العثماني ، وجاء المدربون من ألمانيا وفرنسا والسويد ، ولأول مرة في التاريخ الإسلامي يتولى تدريب وتنظيم الجيش الإسلامي خبراء كفرة [٢]. وموجة التنظيمات لم تكن في السلك العسكري فقط ، بل سرت على أغلب قطاعات الدولة.

فعندما أريد إصلاح الجهاز الإداري استوردت أيضاً الطرائق الغربية في

---

(١) د. سفر الحوالي : العلمانية ص ٥١٤ هامش ٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١٣ - ٥١٤.

تقسيم الولايات وتحديد تنظيم مسؤليات كل وال ، وقاض ، وكذلك الجهاز التعليمي ، ومناهج الحكم ، واقتصاد الدولة ، لكل ذلك وضعت دساتير مكتوبة ذات بنود وقواعد على النمط الأوروبي[1] ـ وسيأتي الآن تفصيل الكلام عنهاـ

ومع ذلك كان الباب العالي في الدولة حريصاً على تسمية تلك الإصلاحات تنظيمات ، ولم يطلق عليها اسم تشريعات ، وإن كان عليها طابع التشريع والابتداع والاقتباس من القوانين الغربية الكافرة ، وما ذاك إلا لحرصه على عدم إثارة العلماء والعامة ، حيث كان هناك مجلس المبعوثات فيما بعد لاصدار الأنظمة بحجة أنه ليس في مقدور مجلس العلماء وضع اللوائح النظامية للجيش ، وإدارة الدولة .. ، لأنه يراها من الشكليات التي لاتستحق الاهتمام ، ولم يلتفت لأهميتها إلا فيما بعد ، حين أسندت مهمة "مجلة الأحكام العدلية" لأناس غير متخصصين من علماء الشريعة بل إلى وزارة العدل التي يمثلها رجال عصريون في الغالب ، الأمر الذى نتج عنه صراع دامي بين شيخ الإسلام وأحمد جودت باشا الذي كلف بصياغة مجلة الأحكام العدلية. ولكن على أي حال هذه التنظيمات والاقتباسات من القوانين الوضعية وإن لم تعارض الشرع صراحة إلاأنها مهدت الطريق إلى استيراد العلمانية بعفنها ونتنها إلى أرض الإسلام .

**دور أهل الذمة في إدخال النظم العصرية إلى الدولة العثمانية** : قبل الدخول في تفاصيل التنظيمات ، وماأعقبها من سن القوانين ، والتشريعات الوضعية لقانون التجارة ، هو أولها ، وقانون العقوبات و ... و..... نذكر بالنظام القديم للدولة ، حيث كان السلطان العثماني هو الرئيس الفعلي للهيئة الإسلامية الحاكمة التي كانت تتكون من أربع فئات وهو : شيخ الإسلام ( وكان يطلق على مفتي القسطنطينية ) القضاة ، المفتون ، أساتذة الشرعية وأصول الدين، وهيئات التدريس.

---

(١) انظر التفصيل تاريخ العراق الحديث ، وانظر المصدر السابق ص ٥١٤ فما بعدها .

وكان لكل فئة منهم سلطتها خاصة شيخ الإسلام ، فكان يباشر إصدار الفتاوى ذات الطابع السياسي المتصلة بالسياسة العليا للدولة ، بل وإصدار الفتاوى التي تبين تعد السلطان على الشريعة ، وإعلان ضرورة خلعه ، وحصل نماذج لذلك في تاريخ الدولة [1].

**وعلى ذلك كان أكثر القضاة ، بل جميعهم من المسلمين المخلصين ، وليسوا من الأروام أو الأرمن أو غيرهم ممن أصلهم نصارى أو يهود كما حصل في آخر عهد التنظيمات .**

وكان القضاة يفصلون في القضايا على ضوء مذهب الإمام أبي حنيفة وهو المذهب الرسمي للدولة . وكان بداية من حاول أن يدون مذهب الإمام أبي حنيفة على صورة القوانين الشرعية السلطان محمد الثاني ٨٥٥هـ ـ١٤٥١م ، ٨٨٦هـ ـ١٤٨١م وقد كلف بهذا المشروع( خسرو باشا ) وقد قام به فعلاً عام ٨٧٤هـ ـ ١٤٧٠م .

ثم زادت الحاجة مرة أخرى حيث حكم العثمانيون مناطق أخرى إسلامية مثل الشام ، والحجاز ، ومصر ، فوكل سليمان القانوني ( ٩٢٦هـ ـ ١٥٢٠م ، ١٠٠٤هـ ـ ١٥٩٦ م ) الشيخ إبراهيم الحلبي مهمة إعداد قوانين للشريعة ، وبالفعل أتم هذه القوانين عام ٩٥٦هـ ـ ١٥٤٩م في كتاب أسماه ملتقى البحار الذي أصبح منذ ذلك الوقت أساس القانون العثماني حتى عهد الإصلاحات في القرن التاسع عشر [2] وهو خاص بالخصومات بين المسلمين .

أما بالنسبة لأهل الذمة فإنهم منذ عصر السلطان سليمان القانوني ـ عصر القوة والغلبة للدولة ـ كانت لهم محاكم كنسية خاصة بهم ، يرأسها رئيس الملة . ولها جهازها الإداري الكنسي المستقل، وذلك تطبيقاً لما جاء في الامتيازات

---

(١) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ١/ ٣٩٦ - ٤١١.

(٢) محمد أنيس : انظر الدولة العثمانية ، الشرق العربي ص ٩١ ط الأنجلو .

الأجنبية التي سبق بيانها .

وازداد التدخل الأجنبي بعد وفاة السلطان سليمان القانوني (بداية بفرنسا) فقد عمدت إلى التدخل لصالح رجال الدين وقوافل الحجيج الكاثوليكية .

وكذلك بعدها بسنين عام ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م تبنى لويس الرابع قضية الجالية المارونية في جبل لبنان ، في أعقاب زيارة الأساقفة المارونيين لفرنسا ، وقد وافق هذا الاتجاه إزدياد عدد الكاثوليك في بلاد الشام بسبب امتداد نشاط الجزوين ، والفرنسيسكان وغيرهما من المؤسسات الكاثوليكية إلى الشرق الكاثوليك في الشرق ومحاولة ضم النصارى غير الكاثوليك من أتباع الكنائس الشرقية [1].

فالناظر لهذه الأمواج المتلاطمة لجهود النصارى في بلاد الشام يشعر وكأنها دويلات صليبية داخل سور الدولة العثمانية ، خاصة لفرنسا صاحبة السبق في الفكر العلماني ، فما ينشر في باريس ينقل إلى أرض الشام ويدرس في المدارس الأجنبية التي كانت لها الريادة والسيادة في تلك الفترة .. !!

**اتجاه العلمانية في القرن الثامن عشر :**

سبق الكلام عن حال الدولة منذ عهد السلطان سليمان إلى نهاية القرن السابع عشر تقريباً من ناحية أخذها بأساليب وطرق الفرق العلمانية في تسيير أمور الدولة والحياة وأنه لم تظهر إلا بوادر يسيرة تعتبر مثل الشام والثغرات التي من خلالها تسرب الفكر العلماني فيما بعد بصورة أظهر ، فاتسعت الثقوب والخروق .

فرغم وعي العثمانيين بتقدم الحضارة الغربية الحديثة فإنهم ظلوا في السابق

---

(١) محمد انيس : المرجع السابق ص ٢٠٦.

بمعزل عن التطورات الغربية لاعتقادهم باستعلاء نظامهم ، وأن الغربي ليس مؤهلاً لأن يقلده المسلم !! . ولكن بداية القرن الثامن عشر انتهى هذا الاعتقاد ؛ إذ بدأوا يدركون أن قوة عسكرية أكبر منهم قد قهرتهم ـ هزمت الدولة عدة مرات من روسيا والنمسا ـ وأصبح الاعتراف بالهزيمة هو الدافع والمحرك نحو الاتجاه الجديد ، وتطلع الدولة نحو الاصلاح والتغيير على النمط الغربي[1] .

فحمل الفكر الغربي السلطان أحمد الثالث ( ١١١٤هـ ـ ١٧٠٣م ، ١١٤٢هـ ـ ١٧٣٠م) وصدره الأعظم إبراهيم باشا الذي كان مولعاً متطلعاً إلى الغرب وماعنده من جديد وخاصة فرنسا إذ كانت تمثل أكثر الحضارات تقدماً في ذلك الوقت ، ولعل من أهم أسباب ذلك حاشية إبراهيم باشا من أهل الذمة أو ممن أصولهم نصارى من أرمن أو مجر أو غيرهم مثل ( إبراهيم متفرقة ١٠٨٠هـ ـ ١٦٧٠م ، ١١٦٧هـ ـ ١٧٥٤م ) فقد كان مجري الأصل ، وقد وقع في الأسر متأخراً ثم أسلم وغير اسمه وأظهر تفوقاً في اللغة والعادات التركية مما جعله مقرباً جداً للصدر الأعظم إبراهيم باشا ..

فالحاشية المشبوهة ، ونشاط السفارات الأجنبية كانت تسعى دائماً إلى إقناع الحكومة بضرورة السير في ركاب الغرب اللاديني وإن لم تكن صراحة ، فهي بالإغراء بما عندهم من مظاهر الحرية والإباحية و...وبدأ الاهتمام بالحضارة الغربية يبرز في العقد الثاني من الثالث عشر الهجري القرن الثامن عشر الميلادي بين الطبقات المتعلمة ، وتمثل هذا خير تمثيل في كتابات "جلبي محمد" وابنه "سعيد" الذي كلفه الصدر الأعظم إبراهيم باشا بزيارة المعالم الحضارية في الغرب ، وكتابة تقرير عما يمكن أن يطبق في بلاط الدولة ـ

وهذا يذكرنا بما فعله الشيخ رفاعة الطهطاوي وما قام به كما في الذهب الإبريز في أخبار باريز ـ فوصف مشاهداته في العاصمة الفرنسية كما لو كان

---

(١) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ٢٣ -٢٤

اكتشف عالماً آخر قد انبهر بما رأى، يتبادر إلى أذهاننا أنه انبهر بالمصانع والمعامل والتكنولوجيا ، والاتصالات السريعة عن مقومات الحضارة المادية ، ولكنه غض البصر عن ذلك كله ( وركز في كتاباته على العادات الاجتماعية ، وبخاصة تلك التي تتصل بالنساء !! فذكر أن في فرنسا تتمتع النساء بمنزلة عالية أكثر من الرجال ، وأنهن حرات في الذهاب لأي مكان ، وأن الرجل النبيل من أعلى مرتبة يظهر احترامه وتقديره للمرأة حتى لو كانت تنتمي إلى أدنى طبقات المجتمع) [1] إضافة إلى وصفه لدور الأوبرا والمسارح ، والمستشفيات والمراصد والمواني التي شاهدها .

وقد لاقت تقارير جلبي محمد وابنه سعيد اهتماما من السلطان والصدر الأعظم ، وكان من أهم نتائجها : القرار الخاص بالموافقة على إنشاء مطبعة ، وهي التي أسسها سعيد جلبي بالاشتراك مع إبراهيم متفرقة الذي سبق بيان أصله وأنه مجري ، وكان لهذه الطبقة الأثر السيء والذي لايخفى على أحد في ترسيخ ودعم الفكر الغربي وانحراف المسلمين وإغرائهم بواقع الإباحية الفرنسية من خلال كتابات متفرقة وغيره من الكتاب ، حيث ترجمت كتب الفلسفة والفكر الغربي المنحرف .

وللأسف لم يستغل المسلمون وأقصد الدعاه والعلماء في تلك الفترة وجود المطبعة في نشر العلم والفكر الإسلامي الأصيل ، بل حصل جدل طويل حول جواز طباعة الكتب الشرعية ، فبعد أن كتب ستة عشر من العلماء - من بينهم شيخ الاسلام عبد الله أفندي - بجواز الطباعة مطلقاً قاد حينئذ النساخون حركة المعارضة الرئيسية ضد الكتب المطبوعة بحجة حماية الدين ، ولم تهدأ الزوبعة إلا عندما صدرت الفتوى بإجازة طباعة الكتب باستثناء القرآن الكريم والكتب الشرعية مطلقاً وسمح بطباعة القواميس وكتب الرياضة والطب والفلك

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٣-٣٤

والطبيعة والجغرافيا والتاريخ [١].

كما نشطت في تلك الفترة حركة الترجمة والحركة الأدبية العثمانية والتي يتبناها شعراء من اليهود والعثمانيين ـ كانت بذرة القومية الطورانية فيما بعد ـ وترجمت كذلك الكتب الفارسية والعربية إلى العثمانية ، وشقت الموضوعات العلمانية طريقها مما مهد لقبول الأفكار الجديدة والأساليب الغربية فيما بعد [٢].

واستمرت أفكار التجديد تأخذ ألواناً جديدة وطابعاً أقوى في المجتمع مع مرور الزمن ، وبسرعة مذهلة ، فبالرغم من احتجاج الناس على السلطان أحمد الثالث ، وما اتصف به من استغراب في تقليدهم في القصور والبذخ ، والأثاث والإسراف ، إلا أن من جاء بعده ـ السلطان محمود الأول ( ١١٤٢هـ ـ ١٧٣٠م، ١١٦٧هـ ـ ١٧٥٤م) ـ استمر على الجهاز الإداري السابق ، فواصل حركة التجديد على الأسس الغربية ـ العلمانية ـ ولكن بخطوات أخطر وأفتك ....

فالمرحلة الأولى : كان التجديد عبارة عن تقليد المغلوب للغالب في لبسه ومظهره ، وصياغته، وأثاثه ، وعاداته ...

أما المرحلة الثانية : فأصبح البعض ينظر بشيء من الإعجاب إلى الأفكار الغربية دون تفريق ، وافقت الشرع أو خالفته، وأصبحت بعض النفوس من المسلمين تتوجه إلى ماعند الغرب من أنظمة الحكم ...

فمن هو الذي وراء هذه الخطوات السريعة في طريق العلمنة في الحكم ؟

إنه ذلك الرجل آنف الذكر إبراهيم متفرقة ، والذي سبق بيان أنه مجري الأصل ، يقال : إنه أسلم ، فقد أدخل طرقاً ، وأفكاراً جديدة من الغرب ، وأبرز أعماله عند أول خلافة محمود الأول : كتابه المطبوع عام ١١٤٣هـ ـ ١٧٣١م بعنوان : "أصول الحكم في نظام الأمم" وقد قدمه هدية للسلطان ، ويزعم أن

---

(١) المصدر السابق : ص٣٩

(٢) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ، ص ١٥٩

هدف الكتاب هو : دراسة أسباب الإنحراف في الدولة، وأسباب القوة في الدولة العثمانية .

**فما هي أسباب القوة في نظره ؟ هل هي الأخذ بنظام الغرب ونظمه ؟!**

( ذكر ثلاثة صور للحكومة هي : الملكية ، والأرستقراطية ، والديمقراطية ، ووصف باختصار ـ طرق تمثيل الشعب ، والبرلمانات وكيفية إدارة ممثلي الشعب الحكومة ) [(١)] وذكر إنجلترا كمثال للشكل الديمقراطي للحكومة وذلك بتفاصيل أكثر من الأشكال الأخرى، وكأنه يرمي إلى تطبيق هذا النظام الوضعي في أرض الخلافة ، والكتاب من ثلاثة أجزاء، وفي الجزئين الأخيرين مباحث أخرى عسكرية وجغرافية وغيرها . وهذا الكتاب طبع ـ بالطبع ـ في مطبعة "إبراهيم متفرقة" وماهو إلا واحد من انتاجاته . فإنه لما أغلقت المطبعة عام ١١٥٥هـ ـ ١٧٤٢م كانت قد طبعت سبعة عشر كتاباً منها رسالة في وصف فرنسا ، ورسالة في الفنون الحربية المطبقة في الجيوش الغربية [(٢)] وغيرها ..

ومن المجالات الحساسة التي دخلتها العلمانية ، أو بدأت الفكرة مبكراً في قطاع الجيش ورجاله من صغار وكبار ، وقد أظهرالكونت يوتفال ويسمى (فمبارجي أحمد ) دوراً بارزاً في فترة السلطان محمود الأول ، فقد عهد إليه بتدريب المدفعية على الطريقة الأوروبية ، وهذا الرجل قد دخل الخدمة التركية عام ١١٤١هـ ـ ١٧٢٩م بعد أن أسلم . وكان قد نفي من فرنسا ثم من النمسا ، وفي تقاريره للسطان يصف نظم وتكتيكات القوات العسكرية الألمانية والفرنسية، ونصح باستخدام وحدات مشابهة كما اقترح تكوين قوات طبية خاصة .. ولكن الأمر الخطير الذي خرج فيما بعد من شيوخ تركيا الفتاة ودعاة الإلحاد افتتاح مدرسة الهندسة العسكرية في ( اسكي دار ) عام ١١٤٦هـ ـ

---

(١) المرجع السابق ، نيازي بيركز ص ٤٢-٤٤

(٢) برنرد ولويس The Middle east and the west p ٣٣

١٧٣٤م لتدريب المهندسين العسكريين[١].

وبالطبع تولى التدريس في هذا الصرح التعليمي أساتذة أوروبيون من يهود ونصارى ، ومع استمرار موجة الضعف في الدولة ولدى السلاطين خاصة أو غياب المصلحين الجادين تغيرت لهجة دعاة التغريب والعلمانية من التلميح إلى التصريح ، فهذا أحد الكتاب المجهولين... ينادي بتمرير الأمور المتعلقة بالدنيا من سيطرة التقاليد والاعتبارات الدينية وإخضاعها لمقاييس العقل ، لإن الأمر يتطلب فصلاً جوهرياً بين الدين والدولة .

وهذا كاتب آخر يدعى أحمد رسمي وكان مقرباً من الصدر الأعظم خليل حامد ذكر أن الهزيمة لاترجع إلى الوسائل الحديثة التي أدخلت في الدولة وإنما إلى وعي المحافظين[٢] .

ويمكن اعتبار الدعوة السابقة أول دعوة صريحة تنادي بفصل الدين عن الدولة في تاريخ الدولة العثمانية .

وقد استمر هذا الصدر الأعظم "خليل حامد" بتشجيع تيار الإصلاح على أساس العلمانية خاصة بعد توقيع معاهدة "كتشك كينارجي" عام ١١٨٨هـ - ١٧٧٤م والتي كانت من أكثر المعاهدات شؤماً على الدولة لتضمنها تنازلات كبيرة ، وتدخلات صريحة من الروس في شؤون الدولة بل نصت أيضاً على أن تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية لروسيا[٣] . وضمنت بنوداً تتعهد بها الدولة العثمانية بالسماح لروسيا في بناء الكنائس في الآستانة، وترميم القديم ورعايتها

(١) نيازي بيركز ، المرجع السابق ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) المرجع السابق ص ٥٦-٥٨.

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ، ص ١٦٠ - ١٧١ ، محمد أنيس : المرجع السابق ص ١٦٩.

للأبد !! وأجبرت الدولة على بناء كنائس أيضاً بحجة حرية العبادة[١].

وكان من أهم نتائج المعاهدة أن جدد المصلحون الجدد اهتمامهم الأول في تأسيس مؤسسات تعليمية غير تقليدية ( غير إسلامية ) وكذلك فتحت مدرسة جديدة للهندسة عام ١١٩٠هـ ـ ١٧٧٦م للضباط البحريين [٢].

وهذه النظرة الجديدة أثرَّت على العقلية المحلية وجعلت حتى المنتسبين للإسلام يعتقدون أن الإدارة السياسية ينبغي أن تبنى على اعتبارات القوة المادية لا الدينية [٣].

هذا التخبط الذي حصل في أنظمة الدولة ، وجريها وراء كل ماهو عند الغرب إبان عهد الصدر الأعظم خليل حامد، ففي عهده وفدت للأستانة أعداد متزايدة من الغربيين بخاصة الفرنسيين ممن جاءوا لمهمات رسمية أو غير رسمية ، وكان موقف الدولة هو الترحيب بكل غاز حاقد على الإسلام ، فقد كان خليل حامد ميالاً لكل إصلاح مستورد مستوحى من الغرب مما جعل عامة المسلمين يتهمونه بخيانة الدولة والدين . فعزل ونفي وقتل ، وتَتَبَّعَ عَدَداً من أتباعه بالإغتيال وهو في ذلك عدو الشريعة والدولة [٤] .

لكن هذا الموقف من الشارع المسلم هل أوقف تيار العلمانية في البلاد ؟!! هذا ماسنراه في التنظيمات العثمانية والدستور .

لقد أدى السفراء الأجانب دوراً كبيراً في جلب دعاة التغريب والعلمانية إلى البلاد والذين أصبحوا أساتذة ومنظرين لحركة التنوير، ففي عام ١٢٠٧هـ ـ ١٧٩٣م أرسلت الحكومة العثمانية إلى باريس قائمة بوظائف الضباط والفنيين

---

(١) انظر المادة ١٤ ، والمادة ١٦ من المعاهدة .

(٢) نيازى بيركز : ص ٥٩.

(٣) المرجع السابق : ص ٥٤.

(٤) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ١٧٣.

الذين ترغب في استحضارهم من فرنسا وأرسلت قائمة أخرى عام ١٢٠٩هـ ـ ١٧٩٥م بناء على توجيهات وأوامر السفير الفرنسي الجنرال دوبابيه.

وفعلاً جاء هؤلاء المعلمون وكانوا أول من مارس التأثير الشخصي والمباشر على الشبان المسلمين كما كانت اللغة الفرنسية هي المستخدمة في التدريس [١].

ومن وسائل التغريب التي جلبت العلمانية للبلاد فيما بعد عندما تأسست سفارات دائمة عام ١٢٠٧هـ ـ ١٧٩٣م في عواصم أوروبا الرئيسية ، لندن ، باريس، فيينا ، برلين ، مدريد ، .. إلخ فوجد بهذه العواصم بعض الأتراك الذين أقاموا في أوروبا مدداً طويلة جعلتهم يألفون الحياة الغربية ويتنكرون لكل قديم موروث عنه وطلب منهم كتابة تقارير عن الأوضاع هناك في شتى المجالات ، وكتب بعض هؤلاء السفراء اقتراحات للإصلاح[٢].

هذه البدايات الصغيرة في ظاهرها والبطيئة جداً بالمقارنة مع أقطار أخرى من العالم الإسلامي مهدت الطريق لأي فكرة حديثة يرى الناس أن فيها خلاصهم من الذل والهزيمة التي لم تفارقهم في القرن التاسع عشر خاصة وماقبله! ولو كانت هذه الفكرة تتعارض مع الشريعة بل تقصي الشريعة كلياً عن ميادين الحياة وهذه الدعوة لم تظهر شبه صريحة إلا في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ ) ، أما فترة سليم الثالث (١٢٠٤ ـ ١٢٢٢هـ) فإن الحياة الغربية أصبحت مألوفة عند بعض طبقات المجتمع ـ خاصة الأغنياء والمثقفين ـ لاأقصد الاهتمام بالعلوم التجريبية والحرص على الاستزادة وحب الاطلاع وتنمية المواهب كما كان يشاع عن الغربيين .

ولكن في الحياة الاجتماعية والتخلي عن قيود مفهوم الأخلاق ومفهوم

---

(١) برنارد لويس The middle East and the west . p ٣٨ - ٤٠.

(٢) نيازي بيركز : العلمانية في تركيا ص ٧٧.

العرض والعفة والدين وبعض التكاليف الشرعية فإن تزايد عدد المقيمين الأجانب أدى إلى تسرب بعض طرق الحياة الأوروبية .

وهذا من مظاهر العلمانية والتي سيأتي الكلام عنها في الباب الثالث إن شاء الله فانتشرت الأزياء الأوروبية الفرنسية بين الطبقات الراقية ، وتزايدت الرغبة بين الشباب على تعلم اللغة الفرنسية ( لغة العلم والحضارة على زعمهم) .

وتكونت مجموعات صغيرة من المفكرين العلمانيين باسم النوادي الأدبية كان أغلبهم من يهود الدونمة ـ كما مر معنا ـ وقد تولى بعضهم شئوون هامة في محاولات للإصلاح في عهد سليم الثالث .

هذه التغيرات أو الانتكاسات الغريبة عن المجتمع قادته إلى ثورة من أعنف الثورات على السلطان وحكومته قادها العلماء لاتهامهم السلطان بأنه لم يعد حامياً للدين ، وأنه واقع تحت سيطرة "الإفرنج" فصدرت الفتوى من شيخ الإسلام [١]. بأن كل سلطان يدخل أنظمة الإفرنج وعاداتهم ويجبر الرعية على إتباعها ويخالف الشريعة لايكون صالحاً للملك ويعزل [٢].

ولكن وللأسف تلك الفتوى من شيخ الإسلام لم تكن منبعثة ـ في ظاهرها ـ من الحرص على الأمة بقدر ما كانت ناتجة عن ضغوط الإنكشارية ( الذين هم على الطريقة البكتاشية أغلبهم ) لفوات مصالحهم ، فالأدعياء من الصوفية والعلماء وكانوا يعارضون سليماً ، فجعلوا تنظيم الجنود على الطريقة الغربية في

(١) ولننظر بهذه المكانة المرموقة لمنزلة المفتي وخطورة دوره في الحفاظ على جناب الشريعة من التغيير والتبديل، هذه المكانة التي لم يحافظ عليها فيما بعد، مما جعل المفتين والقضاة موظفين كسائر موظفي الدولة – يفصل وينقل ويعزل !! وسحب البساط من تحتهم فلم يلتف حولهم لاخاصة ولاعامة .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ص ١٩٤.

وأساءوا إلى سمعة السلطان سليم الثالث حتى وصل الأمر أن أفتى شيخ الإسلام في الدولة عطاء الله أفندى بالفتوى السابقة

كان هذا يخشى منه دعاة الإصلاح على النمط الغربي وجود الإنكشارية الذين يأتمرون تحت رأي الهيئة الإسلامية ولاسلطان للسلطان عليهم فأصبحوا يتحكمون في كثير من شئون الدولة ، وإن كان المسيطر عليهم فعلاً هم شيوخ الطريقة البكتاشية الباطنية، فلم يكن الدافع لدى الإنكشاريين في ثوراتهم ضد السلاطين هو حماية جناب الدين ولكن حماية شهواتهم وامتيازاتهم التي توصلوا لها طوال حكم الخلفاء السابقين. مما جعل السلطان محمود الثاني شغله الشاغل منذ توليه الخلافة هو إبادة هذا الجيش بأكمله ( وإن لم يتوفر بديل مساو يحمى الدولة من المعتدين ) وفعلاً هذا ماتم في عهده منذ البداية .

ومن بعدها بدأ يصرح بأهدافه الإصلاحية والتي سميت فيما بعد بالوطنية والعلمانية وأصبح يدعو لدولة عثمانية مؤلفة من كل الرعايا بصرف النظر عن الجنس واللغة والدين فقد اشتهر عنه قوله : "إن نيتنا إلى اعتبار المسلم مسلماً في المساجد فقط وكذلك المسيحي مسيحياً في الكنائس واليهودي يهودياً في المعابد ، وأتمنى أن يتمتع الجميع خارج هذه الأماكن ـ التي هي أماكن العبادة فقط ـ بنفس الحقوق السياسية وبحمايتي الأبوية"(١).

وقد شهدت تلك الفترة صعود رجال الدولة أصحاب الفكر الغربي العلماني وتحكمهم في مصير الدولة، وسنذكر نماذج لهؤلاء الرجال فهم: إما رجل غسل عقله في عواصم أوروبا أو نصراني أو يهودي حاقد ترقوا في المناصب إلى أن أصبحت لهم السيادة في البلد وخاصة في بلاد الشام .

ومن الخطوات الجريئة ماطرأ من تغيير على منصب شيخ الإسلام على خطورته ومكانته الرفيعة منذ قيام الدولة، فقد أحال محمود الثاني الأمور المتعلقة

---

(١) menzes tanbey old and new P. 81-88

به إلى الشئوون الدينية وأسس ديوان الأحكام العدلية عام ١٢٥٣هـ - ١٨٣٧م لدراسة الشئوون القانونية والتشريعية وكان هذا الديوان بداية فكرة القانون الوضعي التركي - وإن تولى رئاسة الديوان فضلاء من أمثال جودت باشا وكان من أول تباشير هذا الديوان إصدار قانون الجزاء الذي نشر عام ١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م فهو يمثل المحاولة الأولى لتأسيس قانون عام مدني لايتقيد بالشرع (١).

ومن الخطوات الجريئة التي مكنت لأهل الذمة غرس مباديء العلمانية في نفوس شبان المسلمين بل وأطفالهم ، وإنشاء مدارس علمانية جديدة بجوار المدارس الدينية دون محاولة الاصطدام مع المدارس ( الشرعية )، فتأسست مدارس للتعليم العالي لتخريج أهم عناصر النظام الاجتماعي العلماني من محامين وأطباء ومهندسين وكبار موظفي الدولة ، نتج عن أن ينحى علماء المدارس الدينية جانباً ونابهم التجاهل العام في شئون التعليم والسياسة والقانون(٢).

وسبق أن ذكرت أن غالب الذين تولوا التدريس والتدريب هم من نتائج الثورة الفرنسية من العلمانيين . حيث يقول برنارد لويس :

" وقد ساعد على نشر الفكر الغربي الوافدون الأوروبيون إلى الشرق الأوسط كمعلمين وباحثين وخبراء ومستشارين ومبشرين وسياسيين وأصحاب أعمال، وكان أشدهم تأثيراً المدرسون العسكريون وكان أكثرهم من الفرنسيين .. إلخ، أضف إلى ذلك أن الحكومة العثمانية نفسها أرسلت عام ١٢١٠هـ - ١٧٩٦م طلب للجنة الأمن القومي في باريس لتزويدها بعدد من الخبراء العسكريين والفنيين "(٣).

---

(١) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٩٧ - ٩٩.

(٢) نيازي بيركز ص٦٣ **Historiual Bacb gerand of Turkih Seularirm**

(٣) برنارد لويس تعريب نبيل الطويل : الغرب والشرق الأوسط ص ٦٤.

**من الوسائل التي سلكها أهل الذمة في إدخال العلمانية :**

انتشار الكتب الغربية وإن كانت تحمل فكراً مناقضاً للإسلام ونشر ذلك عن طريق البريد الدبلوماسي والأجنبي ، واستغلال حصانة السفارات في ترويج الفكر الغربي .

فقد بدأت الكتب الغربية تنتشر عن طريق الترجمة، وعن طريق المدارس الأجنبية والتبشيرية التي كانت تفتحها الحكومات الأوروبية في الدولة العثمانية وتزودها بالكتب والمدرسين والموجهين حيث كان ينتسب إلى هذه المدارس الكثير من أبناء البلاد، وقد ساعد ذلك على نشر الأفكار الأوروبية وفي عام ١٢٠٨هـ ـ ١٧٩٤م ترجم النداء الذي أصدرته حكومة الثورة الفرنسية إلى اللغة العربية كما ترجمت كتب فرنسية سياسية إلى العربية والتركية [١].

وللأسف كان هذا النشاط في الترجمة والمدارس الأجنبية مبعثه من الأجانب الذين لايقرون بمباديء الإسلام بل إنهم يريدون هدم كيان هذا الدين ـ ثم أصبح منهجاً تسلكه الدولة خاصة في عهد محمود الثاني ( ١٢٣٣هـ ـ ١٨١٨م ، ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م ) حيث اتسعت حركة الإتصال بالغرب ـ وكان من العناصر المؤثرة جداً على شخصية هذا الخليفة زوجته الفرنسية

فلم يكتف السلطان محمود بجلب المهندسين والمدرسين والمدربين من الغرب للجيش النظامي الجديد ، بل أسس مدرسة للطب وكانت دروسها باللغة الفرنسية ، كما أسس "إدارة الترجمة" ومجلساً أعلى للقضاء، كلفه بإعداد القوانين الجديدة ، وفي عهده أيضاً ظهرت طبقة الأفندية الذين راحوا يكتسبون الطباع الأوروبية في الحياة واللباس [٢] . بل في الخمور والرقص . يوضح ذلك نظرة في

---

(١) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٥٨.

(٢) عبد العزيز نوار : الشعوب الإسلامية ص ١٨٠ ، وانظر د .حسين مؤنس : الشرق الإسلامي في العصر الحديث.

مكتبه الكلية الحربية تبين لنا مدى حجم الغزو الذي وجه للمسلمين في تلك الفترة حيث ضمت أربعمائة كتاب بالفرنسية وكتب فولتير وجان جاك روسو[(١)].

الشاهد أن النظرة للتعليم تغيرت بالكلية وهذه النظرة تظهر في تقرير أعده ( مجلس الأمور النافعة ) عام ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٨م إذ يقرر أن جميع الفنون والصناعات من نتاج العلم والمعرفة الدينية تخدم الآخرة ، ولكن العلم يخدم العالم الدنيوي وإنه لايمكن اتخاذ أي شيء بدون الحصول على العلم ووسائل الحصول على العلم والثقافة توجد في النظام الجديد للمدارس[(٢)].

وظل صراع بين شيخ الإسلام ومجلس الأمور النافعة حول هذا التقرير وكيفية تدريس القرآن الكريم . وحول أمور شكلية مرتبطة بأقوال متعصبة المذاهب أحياناً وتارة صراع فكري حول مناهج تدريس الشريعة وتنحيتها عن الحياة وحصرها في المساجد وأن لا علاقة لتعلم الشرع بأسباب الرقي والحضارة.

* من الأبواب التي تسللت منها فكرة العلمانية إلى البلاد الابتعاث دون ضوابط، ففي سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٧م أرسل السلطان محمود الثاني بعثة تركية مؤلفة من مائة طالب لعدة دول أوروبية وبعد ذلك بسنوات ارتفع عدد الطلاب كثيراً وبلغ الآلاف [(٣)] ومابين عام ١٢٣٥هـ ـ ١٨٢٠م ، ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م كان في أوروبا أشياء كثيرة تعلمها الطلاب الشرقيون وتأثروا بها ، كانت من أهم أسباب ظهور طائفة جديدة من أبناء الدولة العثمانية لم يستطع أن يتمثلهم المجتمع العثماني القديم، وقد أطلق عليهم اسم ( الشبيبة العثماني والشبيهة العثمانية ) وتشكلت منهم مجموعة من المتحررين الذين استوطنوا أوروبا ليقوموا

---

(١) برنارد لويس : الغرب والشرق الأوسط ص ٤٨ - ٤٩.

(٢) نيازي بيركز . The Developme,t of Sein Turkey P . 105

(٣) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٢٧.

بدور المعارضة [١].

وكان منهم الجمعيات السرية والعلنية، وهذه الشبيهة فيما بعد كونت ماعرف بـ "تركيا الفتاة"، والذي سيطر عليه الماسونيون ووجهه اليهود حيث شاؤوا.

ومنذ بداية ظهور هذه النابتة كانت تتلقى التشجيع من دول الغرب (وهذا الجيل الذي تلقى ثقافته من أوروبا ومن بعض الكليات العصرية في تركيا نشأ على الاستهانة بقيمة الدين أو اللباس في مستقله وعلى تقديس الحضارة الغربية وفقد في هذا الجيل العقل النابغ المتعمق القادر على نقد فلسفة الحضارة الغربية ومعرفة جوانب الضعف فيها ومعرفة مايصلح لتركيا اقتباسه والإفادة منه ومالايصح مع طبيعة تاريخها ومكانتها في العالم الإسلامي .. وأكثر هؤلاء من ذوي الثقافة المحدودة في الشرع، ويضاف إلى ذلك مالقوا من بعض العلماء من تثبيط وماجربوه فيهم من جمود وضيق نظر، وفى البلاد من تأخر وضعف انتهى بهم كل ذلك إلى الثورة على القديم وإلى التصميم على تغريب تركيا [٢].

وبالطبع تلك الخطوات التي أنجزها دعاة التغريب والعلمانية دخل معها بعض سمات المجتمع العلماني من فساد أخلاق ومجون وكذلك من تفلت من التكاليف وعدم الاكتراث لمخالفة أحكام الشريعة ( وخير شاهد على ذلك ماذكره المؤرخون من نبأ الدعوة التي أقامها السلطان لشاة إيران اسماعيل وماقدم له من أنواع الرقص الغربي وفنون الموسيقى الغربية ) فأصبح كثير من الصور في الحياة الاجتماعية لم تكن موجودة بل لا أبالغ إن قلت أنها لم تكن تخطر على بال مسلم إبان حكم الخلفاء أمثال محمد الفاتح ، فإن السلاطين سابقاً وإن كان منهم السكير والماجن والعابث إلا أنهم كانوا غالباً خلف أسوار عالية

---

(١) عبد الكريم المشهداني : العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .

(٢) د. حسين مؤنس : المشرق الإسلامي ص ٤٣.

مثل سليم بن سليمان القانوني .

أما في عهد السلطان محمود الثاني فإن الوضع تغير للأسوأ ، فقد بدأ الأتراك يرتدون البنطلون على الطريقة الأوروبية ، وظهرالذين كانوا يشغلون المناصب الهامة بدون لحى، كما أخذت صور الأدميين تظهر في الصور وأصبحت الموسيقى الغربية تسمع في شوارع استانبول [١]. وجعل محمود الثاني من نفسه نموذجاً لاقتباس مظاهر الغرب فطور لباسه بحيث يظهر بمظهر الحكام الأوروبيين وقص لحيته وارتدى البنطلون .

وكان أول سلطان يشهد الاحتفالات العامة والموسيقية والأوبرا وحفلات رقص الباليه التي كانت تعرض في بعض السفارات الغربية، بل استقدم الموسيقيين الغربيين وأنشأ فرقته الموسيقية الخاصة التي أصبح بإمكانها عزف الموسيقى لضيوفه الأوروبيين [٢] .

ثم خطا بعد ذلك خطوات جريئة بوضع صوره في المعسكرات وأن تؤدى لها التحية كما تؤدى لشخصه [٣] .

وهذا من عوامل ترسيخ الوطنية في نفوس الجند ـ على حد زعمهم ـ ومعروف حكم الإسلام في تعظيم الصور وتعليقها .

هذه التغيرات الاجتماعية الكبيرة وتزامنها مع تغيرات في نظام الحكم وفي الحياة الاقتصادية غير المنضبطة بضوابط الشرع لم تحصل في عشية أو ضحاها ، ولم تتم بسهولة، بل نتيجة لكمات متلاحقة وأمواج عالية متعاقبة وغزو مسلط من الخارج والداخل صادف قلوباً فارغة فتمكن من نفوس المسلمين بل جعلهم يعتقدون أن بعدهم عن الدين هو الصورة الصحية وارتباطهم بالماضي والتقاليد

---

(١) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني . ص ١٩٥ - ١٩٦.

(٢) المرجع السابق : ص١٩٧ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحرواي : الإصلاحات العثمانية في عصر محمود الثاني ص ٢٠٥.

هو الصورة المرضية التي تحتاج إلى علاج.

وهذا يظهر في خطاب لأحد رجال الدولة إلى أحد الدبلوماسيين الفرنسيين يقول فيه «إننا لانستطيع أن نغير كل شيء بين عشية وضحاها وعليك أن تدرك عمق جذور الخرافات والعادات التي ينبغي أن نتغلب عليها ، إننا نواجه مهمة صعبة تشبه صعوبة تعليم لغة جديدة لكل الوطن [١].

وليت مصيبة هؤلاء اليهود والنصارى اقتصرت على إغراء الأمة بالشهوات والملذات، لو كان الأمر كذلك لهانت المصيبة حينئذ ، فلعل الغافل أن يستيقظ والعاصي أن يتوب ويتفكر بمصير أمته، ولكن الطامة الكبرى والتي مازال المسلمون يكتوون بنارها الشبهات الفكرية التي لبس بها على كثير من شباب الأمة بل وعلى علمائها للأسف .

فاستطاعوا أن يقنعوهم بإقصاء الشريعة عن ميدان الحياة باسم حاجتها إلى التنظيم الجيد المقتبس من الأمم المتحضرة ( الأوروبية ) وبحجة أن التنظيمات لاتتعارض مطلقاً مع الشرع بل لكل بابه، وسخروا لهذه الدعوة كبار العلماء في ذلك الوقت أمثال شيخ الإسلام عارف حكمت ،عندما ثار كثير من الناس في مختلف الأقاليم على التنظيمات الجديدة التي عرفت باسم ( خط شريف كلخانة) سنة ١٢٥٥هـ ـ ١٨٣٩م ومن الطبيعي أن تكون هناك ردود فعل عند عوام المسلمين فضلاً عن علمائهم، لأن هناك ( أحكاماً في الشرع معلومة من الدين بالضرورة لايجهلها أحد، وقد اعتاد الناس طوال القرون السابقة ـ أقصد بما يتعلق بأهل الذمة من الأحكام .

وكذلك معرفة الناس عامة بأن وراء صياغة هذه التنظيمات رجال نصارى وكلت إليهم المهمة بحجة الخبرة و... فهذا إبراهيم باشا حين استولى على بلاد الشام ـ خارجا على السلطان ـ استشار المسلمين في تنظيماته التي شرعها ( من

---

(١) نيازي بيركز : المرجع السابق ص ٦٤.

منح النصارى حريات واسعة وألغى القيود على أزيائهم المميزة وأباح للإفرنج دخول مدينة دمشق راكبين وسمح لهم بتأسيس قنصليات فيها ورفع أعلام تحمل شارة أو شعار الصليب لأول مرة في تاريخ دمشق الإسلامي ) !! كذلك - وهو الشاهد - أنه اعتمد على رجال من النصارى أمثال بطرس كرامة وحنا البحري ، وعهد إليهم إدخال تنظيمات إفرنجية ، وترتيب مجالس ملكية ومدنية وعسكرية ونظامات حديثة ، وأسوأ من كل ذلك كان تنظيم الجباية والمساواة أمام القانون لافرق بين مسيحي أو مسلم أو يهودي (١) .

ولكن الغريب في الفرمان الذي صدر ( واعداً بالإصلاحات ) - وهذا من خبث ومكر كاتبه - أنه لم يُقْصِ الشرع جانباً ويذكر القانون فقط ( بل يلاحظ ورود ذكر الشرع مقترناً بالقانون لأن الدولة أبقت على الشرع والمحاكم الإسلامية القديمة بدون تغير يذكر، ولكن بتجريد من الصلاحيات - كما سيأتي بيانه قريباً - وأوجدت قانوناً مدنياً تطبقه محاكم نظامية وتعيش جنباً إلى جنب مع الشرع والمحاكم القديمة (٢) .

هذا الاقتران ولد التلبيس لدي عامة الناس بل لدي العلماء فهو يذكر في نص "الخط الشريف" إن عدم الانقياد للشرع كان السبب فيما أصاب الدولة من ضعف، وأن غاية الخط هو إحياء الدين والدولة والملة .. إلخ إلا أن في صريح العبارة لهذا الخط مايهدم الدين والملة بل وكان أجرأ خطوة نحو الأخذ بالقوانين الوضعية، ولكن مع الأسف الدعاية الكبيرة والمظاهر الحافلة التي أعدته لقراءة هذا الخط من تجمع لكبار رجال الدولة ودعوة العلماء والموظفين من رجال السلك السياسي " ودغدغة " مشاعر العلماء بضرورة المحافظة على الشرع الحنيف

---

(١) عبد الكريم غرايبة : سورية في القرن التاسع عشر ص ٥٥ ، نقلاً عن "الحكومة المصرية في بلاد الشام" ص ٢٢-٢٣ وغيره

(٢) عبد الكريم غرايبة : تاريخ العرب الحديث ص ٢٠١ - ٢٠٢ . ط . جامعة دمشق ١٩٦٠.

وإحياء الدين .. وغياب العلم الشرعي الموصل وهو قبل كل شيء، هذا كله جعل أهل العلم في ذلك الحين تتخبط مواقفهم كما سنرى الآن .

فهذا ( الخط الشريف ) باعتراف رجال الدولة إنه مع ظهوره فلا مجال للتقاليد القديمة لتكون ميزاناً صالحاً للحكم ولابد من الأخذ بأساليب الغرب ولاتعارض مع الشرع [١]. وهذا دليل قوي بأن مصلحي تلك الفترة لم تكن مهمتهم مجرد إدخال تغيرات عسكرية معينة أو مهارات وتقنيات مدنية، ولكن الأمر يتضمن شيئاً أعظم من ذلك إذ كان يعني خلق دولة جديدة وحديثة ومجتمع علماني، فما راعت القوانين والدولة ذات شأن لن يكون هناك مكان للإعتبارات الدينية وقد أدى صدور ( خط شريف كلخانة ) إلى ردود فعل قوية فالرأي العام التركي وقف منه موقفاً قومياً فنشبت بعض الاضطرابات في الأناضول والمعارضات الشديدة التي ماتلبث أن تلين وترضخ للأمر الواقع وترضى بالهزيمة بل تطلع البعض إلى محمد على باشا أن يخلص الدولة من النفوذ الأوروبي ومن رشيد باشا الكافر[٢] .

وهو الذي وراء فكرة التنظيمات التي أسلفت وقد كان أوروبي النزعة والمنشأ [٣].

**تدخل أهل الذمة في صياغة القوانين** : وقد استعان رشيد باشا عندما أراد أن يضع قانوناً للعقوبات وفقاً للشرائع الحديثة عام ١٢٥٦هـ ـ١٨٤٠م استعان بأحد الخبراء الفرنسيين . ولذا أخذ بعضهم يعد العدة للخلاص منه إذ وجدوا الدولة تساوى بهم النصارى واليهود وتستبدل قوانين النصارى بقوانين الدولة

---

(١) سبق نص : الفرمان كاملاً في الفصل الأول ، انظر محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية : ص ٢٥٤-٢٥٦.

(٢) على حد تعبيرهم .

(٣) أحمد عبد الرحيم مصطفى : أصول التاريخ العثماني ص ٢٠٢ .

المسلمة، فلم يلبث أن عزل رشيد باشا من الصدارة، ولكن هذا الصراع حول التنظيمات وشرعيتها لم يزل مستمراً وقد دافع عنه أناس ونافحوا عنه من المحسوبين على العلماء على أساس أنه مجرد تنظيمات لاتمس الشرع .. وليس عليها طابع التشريع .. وهذا كلام ساقط من كل وجه ولا أدرى كيف يخفى على من عنده مسحة من علم واطلع على التغيرات التي أعقبت صدور التنظيمات ومافيها من مناقضة صريحة للشريعة، بل وتنحية المحاكم الشرعية وجعلها خاصة فقط بما يسمى بالأحوال المدنية هذا ماحصل سنة ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٦م حيث نظمت المحاكم الشرعية وحددت صلاحياتها سنة ١٢٨٣هـ ـ ١٨٦٧م ـ على ماسيأتي تفصيله ـ ومنعت من سماع القضايا الجنائية ثم الحقوقية واقتصرت ولايتها على الأوقاف والتركات والزواج والطلاق والنفقة !! [(١)].

ثم بعد ذلك نقول لاتناقض بين الأنظمة والقوانين الفرنسية وبين الشريعة!! ومن العلماء الذين كشفوا زيف التنظيمات وماوراءها شيخ الإسلام (مصطفى صبري ) حيث كشف زيف هذه التنظيمات من النصوص و الوثائق الخطيرة التي تكشف حقيقة التنظيمات ومغزاها مقدمة . يقول السفير الفرنسي في تركيا "ادنكلهارد" في مقدمة كتابه "تركيا والتنظيمات" :

"كان الغرض العام من التنظيمات تقريب الهيئات الاجتماعية الإسلامية إلى الهيئات الاجتماعية المسيحية التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة، وفي الحقيقة إن الإسلام الذي كان مؤسس الحكومة العثمانية ظل حاكماً مطلقاً فوق الحكومة، فقد كان القانون المدني متحداً مع القرآن لكون تشكيلات الأمة اشتبكت بالعقائد الدينية بحيث لايمكن تفريق بعضها عن بعض، كانت تشكيلات الأمة لاتقبل التغيير في العقائد الدينية ، فوجب لتحصيل الائتلاف إما إزالة الحائل بالمرة أو تخفيف وطأته، بمعنى إما أن تحول الأمة من

(١) د .حسين مؤنس : المشرق الإسلامي في العصر الحديث ص ٢٥٥ – ٢٥٦.

الروحانية إلى الدنيوية بتخليصها من تأثير القوانين الدينية ، كما وقع في العالم المسيحي وإما أن تخلص بالتدريج عن الحدود والقيود الدينية من تفسير العقائد الأساسية تفسيراً موسعاً وللاحتراز من غضب شعب جاهل متعصب لايلبث أن ينفعل ويتأثر، كانت الحكومة العثمانية قد اختارت الشق الثاني [١].

والشيخ مصطفى صبري من العلماء الأفذاذ الذين تصدوا للفكر العلماني وحركة التغريب في الدولة ومواقفه من العقلانيين والملحدين مشهورة .

ومما يدل على التردد بل التناقض في المواقف بين علماء ذلك الجيل الموقف السلبي لشيخ الإسلام "عارف حكمت "كما يخبرنا خير الدين التونسي في مقدمته حيث أرسله السلطان إلى جهات الاضطراب ، لوعظ الناس وأمرهم بالطاعة والامتثال، فخطب بذلك على المنبر وبين للناس أن تلك التنظيمات ليست خارجة عن المنهج الشرعي وماهي إلا ضبط للجهات الشرعية !! التي كانت أهملت [٢].

ووافق عارف حكمت على هذا الموقف الشيخ إبراهيم الرياحي التونسي . ودافع بشدة عن سياسة التنظيمات خير الدين التونسي في مقدمة كتابه ( أقوم المسالك ) بل ويعتبرها الوسيلة الوحيدة لإنهاض الدولة من التردي ، وإن الشريعة لاتنافي النظيمات السياسية المقوية لأسباب التمدن والنمو العمراني كما يعتقده كثير ممن ذكرنا [٣] ... ويعزي خير الدين أسباب المعارضة إلى أحد أمرين فقط !! فيقول بعد أن ذكر حججهم واحدة تلو الأخرى ورد عليها : "إن أولئك الذين يدعون أن التنظيمات شرع جديد مخالف لشريعة الإسلام لايتعدون واحداً

---

(١) شيخ الإسلام مصطفى صبري : موقف العقل .. ج٤ ص ٣٤٨.

(٢) خير الدين التونسي : من مقدمة أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ص ١٤٢ تحقيق المنصف الشنوفي . الدار التونسية للنشر١٩٧٢م.

(٣) المرجع السابق : ص ١٦٠.

من اثنين :

**١ــ الطائفة الأولى** : من يجهلون مصالح التنظيمات ولايفرقون بينها وبين الاستبداد بل يعدونها منها من بدع آخر الزمان، ويؤثرن عليه البقاء على ماكان ومنشأ ذلك القصور عدم الاطلاع على مصالح التنظيمات في جميع أنحاء المعمورة .

**٢ــ الطائفة الثانية** : من يدركون مصالح التنظيمات وجدواها، ولكن يؤثرون عليها مصالحهم الشخصية ويخشون فوات الامتيازات التي تيسر لهم مع وجود الاستبداد ومنشأ ذلك نقص الديانة والهمة والإنسانية وعدم ملاحظة العواقب الدنيوية والأخروية [١].

**ثم يورد حجة من حججه القوية** : شبهة : وهي مقارنة بين مافعله السلطان سليمان القانوني من تنظيمات وبين هذه التنظيمات الجديدة ويقول : "إنه كما لم يفكر في السابقة فكذلك في اللاحقة" .

الرد : يقال شتان مابين الأمرين فليس هناك أي وجهة شبه بين القضيتين ولست مبالغاً في قولي هذا . فقد مر معنا أن سليمان القانوني كلف الشيخ إبراهيم الحلبي مهمة إعداد قوانين للشريعة فكانت في كتب اسمه "ملتقى البحار"[٢]. وقد اقتبسه من الفقه الحنفي، فهذه على الخلاف في مسألة تقنين الشريعة .. أما عبد المجيد ومحمود الثاني فقد كلفوا فيليب وجورج ولويس و...... واقتبست من القانون الفرنسي والبريطاني والبلجيكي وغيرها ..

فهل الفقه الحنفي في منزلة القانون الفرنسي ؟!! قطعاً لاتخفى الإجابة على مسلم ، ولكن التلبيس الذي حصل هو بتزويق الألفاظ واختيار المتشابه من القول .

---

(١) المرجع السابق : ص ١٥٢.

(٢) محمد أنيس : الدولة العثمانية والمشرق العربي ص ٩١.

ولكي نتعرف على مدى الخراب الذي حصل للبلاد في عهد ماسمي بالتنظيمات ومدى البعد عن دين الله بل ومبارزته سبحانه بالمحاربة بدلاً من أن يحمي جناب التوحيد ... فنعرض لقطات يسيرة من القوانين التي ترتبت على خط كلخانة والخط الهمايوني الذي أعقبه دون التفصيل في جميع بنود هذه القوانين، ونبين منها صحة مزاعم من يقول أنها لاتخالف الشرع أو عدم صحتها.

**ظهور لائحة ببنود أول قانون علماني صريح "قانون العقوبات"** : "لقد قررت حكومة رشيد باشا إنشاء محاكم مدنية وجنائية مختلطة عام ١٢٦٣هـ ـ ١٨٤٧م وقد تشكلت المحاكم المختلطة من عشرة من الأجانب وعشرة من المسلمين العثمانيين وعشرة من غير المسلمين العثمانيين، الأمر الذي مهد الطريق لإصدار أول قانون علماني وهو قانون التجارة في ١٢٦٦هـ ٢٨ يولية ١٨٥٠م المأخوذ من القانون الفرنسي الصادر عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧ م فهو لم يزل حديثاً لم يمض عليه أكثر من ٤٠ أربعين عاماً تقريباً

وأصبحت المحاكم التجارية هي المسئولة عن وزارة التجارة . فنشأت بذلك أول المحاكم العلمانية خارج نطاق الشريعة وسلطة شيخ الإسلام"[(١)].

وكما سبق فإن القانون صدر سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م أما المحاكم التجارية المختلطة فكانت قبل ذلك، كما أصدرت في نفس تلك الفترة قوانين القضاء والعقوبات . وقد ظهرت في عهد عبد المجيد بعض القوانين الجديدة والتي تمت فيها التشكيلات الحديثة لإصدار الأحكام ـ وقد ورد في خط كلخانة "من الضروري ومن المهم أن توضع وتؤسس وتسن بعض القوانين الجديدة لضمان حسن إدارة الدولة العلية وممالكها المحروسة" .

وبالفعل تضمن القانون الجنائي عام ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م وتم تعديله

---

(١) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ١٦١.

وتطويره ثلاث مرات بين الأعوام ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م ، ١٢٧٠هـ ـ ١٨٥٤م ، ١٢٧٣هـ ـ١٨٥٧م ولكن رغم هذه الاجراءات فقد حافظ على روحه الأصلية مثل صيانة الشرف والعرض والمال دون التفريق والنظر لاختلاف المذهب والجنس بقوانين جنائية .

ولم يكن الموظفون فقط يطبقون مواد القانون، ولكنها وضعت تحت سيطرة الأهالي في نفس الوقت وكانت هذه الظاهرة ديمقراطية .... وجاء في القانون نفسه وصف أحكام الشريعة بأنها أحكام تخمينية، وأن هذا القانون يضع حداً للأحكام التخمينية كما جاء في المادة الأولى منه لأنها ستوقع من قبل الدولة فقط . وبهذه الصورة فقد كان هناك وعد بتطبيق المساواة بين أفراد العربية دون التفريق بالدين .

والسؤال الذي يطرح نفسه عند عرض هذه القوانين هل كانت من بنات أفكار المصلحين المسلمين في الدولة ؟

يجيب ضياء قرال عن هذا التساؤل : "لقد استفادت الدولة العثمانية عند سن قانون العقوبات من موضوعات الدول الغربية الجنائية" .

ويمكن القول بأن التعديلات التي تمت سنة ١٢٩٤هـ ـ ١٨٧٧م قد اقتبست كلياً من القانون الجنائي الفرنسي [١].

ولايستغرب ذلك إذا عرفنا أن الصدر الأعظم عالي باشا قبل إعلان خط الإصلاح قد قام بجمع السفراء الأجانب لكل من فرنسا وإنجلترا الموجودين في استانبول ليضعوا أسس فرمان الإصلاح [٢] ولذلك جاءت هذه القوانين ظاهرة التأثر بالقوانين الفرنسية والإنجليزية.

**قانون التجارة :**

---

(١) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٣.

(٢) أنور ضياء قرال : التاريخ العثماني المرجع السابق ص ٥ .

بالرغم من إصدار قانون العقوبات قبل إنشاء المحاكم الجنائية فقد صدر القانون التجاري لأول مرة سنة ١٢٦٦هـ ـ ١٨٥٠م بعد إنشاء المحاكم التجارية، وكانت الضرورة ـ على حد زعمهم ـ تقتضي إصدار القانون التجاري نظراً لأهمية التجارة !! فلا يمكن رفع المستوى الاقتصادي ـ زعموا ـ إلا عن طريق قوانين وضعية مستقاة من الغرب فتكونت لهذا الغرض لجنة من التجار وكان أغلبهم من اليهود ثم النصارى . ومن أشخاص آخرين باسم الخبراء.

ويتكون القانون من ٣٤١ مادة وينقسم إلى ثلاثة أقسام يشتمل القسم الأول : على المعاملات التجارية وأعمال الشركات وقواعد البورصة . أما القسم الثاني : فيشمل التجارة البحرية والتأمينات المتعلقة بها . والقسم الثالث : يختص بتصفية وتحقيق قضايا الإفلاس .

"ثم أعقب صدور هذا القانون بأقسامه الثلاثة قسم رابع اعتبر ذيلاً للقانون السابق وهو بعنوان "ترتيب وتنظيم المحاكم التجارية" وأصبحت منذ ذلك الوقت قاعدة نظراً لقضايا التجارية في المحاكم التجارية بعيداً عن الشرع على حسب هذا القانون وأصوله تنظر هذه القضايا في المجالس المدنية في الأماكن التي لاتوجد بها محاكم تجارية ..."[(١)].

والذي يهمنا في البحث أن إصدار هذا القانون وتطبيقه في جميع أنحاء البلاد على المسلم والذمي كان بمثابة اعتراف رسمي من الدولة المسلمة بنظام القانون، واستقلال القضاء عن العلماء، وذلك بتناول الشئون المختلفة خارج مجال الشريعة، ومثل هذا الاعتراف يعد ثورة تحريرية وانغماس في المذهب العلماني وتنحية للشريعة الإسلامية وأعقب ذلك ثورة اجتماعية وقانونية كاملة والتي تسمي في اصطلاح الشرع ردَه شاملة .

ترتب على قانون التجارة أن صدر عقبه قانون الأراضي ١٢٧٣هـ ـ

---

(١) برنارد لويس : ظهور التركية الحديثة .

١٨٥٧م والذي يعتبر في أهم القوانين التجارية التي صدرت في تلك الفترة، وهو يشبه قانون إصلاح الأراضي المصري (المقتبس من القانون الفرنسي) والذي كان في نفس العام، ثم سرت هذه الفتنة إلى أغلب قطاعات القضاء تحت ضغوط سفراء الدول الأوروبية من جهة وشعور الخلفاء بضرورة الإصلاح والتغيير إلى التغريب من جهة أخرى . فأنشئت المحاكم الجنائية والتي سميت بـ "مجلس التحقيقات" .

كانت الشبهة التي تشبث بها دعاة العلمانية باسم الإصلاح أن من الضرورة أن تبدأ الدولة العثمانية في إصلاح شئونها وإدارتها، وأن تصلح من تشكيلات الحكم ولم يكن في الإمكان إصلاح المحاكم الشرعية التي تعمل بأحكام الشريعة طبقاً للقواعد السابقة، لأن هذه المحاكم كانت تعمل بأحكام الدين ولاتحاكم غير المسلمين حسب قوانين المسلمين الجنائية وفي الحقيقة فقد سن قانون العقوبات على نهج القوانين الأوروبية بعد سنة من إعلان خط الكلخانة(١).

بالإضافة إلى ذلك انتقلت اختصاصات القضاة إلى الولاة بسبب الإصلاحات الإدارية التي قامت بها الدولة .

والشيء الذي لاشك فيه هو ضغط الدول الأجنبية لإنشاء المحاكم التجارية المختلطة وتطويرها، ولهذا السبب تأكدت منفعة المحاكم للأجانب ( أهل الذمة ) أكثر من التجار الأتراك ( المسلمين ) (٢).

ولاشك أن هذه المحاكم المختلطة جرت ويلات للمسلمين ليس على المدى البعيد وإن الله سلط عليهم الفقر والفاقة إضافة إلى غضب الله ومقته .. بل على المدى القريب، إذ تضرر التجار المسلمون ضرراً بالغاً، وذلك لعدم درايتهم

---

(١) أحمد الهواري : الإصلاحات من عهد سليم إلى عهد عبد العزيز ص ٢١٧.

(٢) مرجع سابق ذكره : **Eziya Kanal Adigecen k Eser . S. 151 , 152**

بتفاصيل هذه القوانين الوضعية وأنظمتها ، ومن جهة أخرى عدم اندراجهم في حماية الدول الأجنبية مثل بقية اليهود والنصارى .

ويذكر أنور ضياء قرال وجهة نظر كل من لطفي أفندي وأحمد جودت باشا في هذه المحاكم فيقول عن لطفي : "عانى أغلب التجار من الرعايا العثمانيين من أضرار كبيرة بسبب عدم معرفتهم بقانون التجارة وأصوله، وأيضاً بسبب أن الأجانب كسبوا معظم القضايا التجارية التي نشبت بينهم وبين التجار المسلمين بواسطة محاميهم ومترجميهم ، ولم يكن للتجار المسلمين وكلاء لهم ورابطة للمرافعة عنهم ولهذا السبب أُسيء للتجار المسلمين .

وكثيراً مادخل غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية في حماية الدول الأجنبية وبهذه الوسيلة أنجزوا أعمالهم"[١] .

وقد أيد أحمد جودت باشا رأي لطفي السابق لكنه تناوله بطريقة أخرى قائلا: "أحدثت المحاكم المختلطة ضرراً للدولة العثمانية وكذلك الحماية الأجنبية بدرجة كبيرة، وهل كان في استطاعة الدولة إنشاء محاكم تجارية تتوافق مع متطلبات العصر نعم كانت هناك قدرة ولكن من تولوا القيادة في ذلك العصر لم تكن لديهم المعرفة بالشؤون القضائية، وربما كان هذا دليلاً على عدم معرفتهم على أي شيء تطلق كلمة التجارة"[٢].

ومنذ ذلك الحين والدولة في تخبط عجيب في المجالات القانونية، وفي إصدار الأنظمة واللوائح في شتى القطاعات من عقوبات ، تجارة ، قانون الجنسية ، وغيرها من القوانين التي صدرت وذلك أن الدولة أرادت أن ترضي الجميع أقصد أعداءها في الخارج وأهل الذمة في الداخل والمسلمين أو المستغربين من أبناء المسلمين ،، فقامت على عمل مخرجٍ من الشريعة الإلهية والقوانين الوضعية.

---

(١) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٢) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٢ .

وتولى هذا الخلط أناس من أجهل وأبعد الناس عن الشرع وغيرها من القوانين الغربية وإنما أقصى مايقال عنهم أنهم جال سياسة مثل رشيد باشا ، وعالي ، ومدحت وأمثالهم. فيقول أنور ضياء قرال واصفاً هذا الوضع :

" عندما طرحت مباديء الدولة القانونية الجديدة في ( خط الكلخانة ) وكانت الضرورة تقتضي عمل إصلاحات في مجال القضاء، ولم يكن في الإمكان إقناع العلماء والمحاكم الشرعية بهذه الإصلاحات، فقد سمحت الدولة بإنشاء جهاز جديد للقضاء بجانبها كما حدث في إصلاحات النظام الجديد، لأنه لم يكن في مقدور الدولة القضاء على قوانين الإسلام المتمثلة في المحاكم الشرعية والتي تعتمد على أسس الدين .. فإفساد المصلحون من تشكيلات وقوانين الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا .

فأنشأوا نظاماً جديداً للقضاء مثلما فعلوا في إنشاء نظام تعليمي جديد وجيش جديد و .. فسنت في عهد عبد المجيد قوانين التجارة والعقوبات والنظم المدنية وأنشئت المحاكم التجارية والجنائية واقتبست الدولة من قوانين وتشكيلات أوروبا في وضع الأسس والقواعد لإنشاء محاكم نظامية خلاف المحاكم الشرعية دون الحاجة إلى إصدار فرمانات خاصة بإلغاء القضاء الشرعي أو حتى تحديد سلطاتها بخطابات رسمية [(١)]. ولكن يقول تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [(٢)] .

وأذكر حادثة واحدة على مسألة من المسائل التي لبس بها السفراء الأجانب على رجال السياسة في الدولة لتبرير قيام محاكم مختلطة ونقلها أكثر من كاتب منهم ساطع الحصري حيث يقول : أنها أفحمت العلماء !! كما يزعم .. لأنه يرى أن التنظيمات كانت تحت تأثير عاملين أساسيين :

---

(١) أنور ضياء قرال : المرجع السابق ص ١٥٥.

(٢) سورة الأنفال : آية ٣٠ .

أ ـ ضغوط الدول الأوروبية ومطالبتها بإصلاح أحوال النصارى .

ب ـ إقتناع رجال الدولة بضرورة إصلاح نظام الدولة وتجديدها على أساس اقتباس النظم الأوروبية دون مساس بالأحكام الشرعية .

ولإعطاء فكرة واضحة لتأثير هذين العاملين يذكر مثالاً لحادثة حصلت لأبي التنظيمات رشيد باشا : جمع رشيد باشا مجلس العلماء وعرض عليه مسألة خطيرة فقال إن سفير إنجلترا قال لنا في مناسبات عديدة "إن دولتنا تسعى للدفاع عن الدولة العثمانية ضد روسيا بكل ماتملك من قوة إلا أنها تلاحظ عندكم بعض الأقوال التي تفسح مجالاً واسعاً للتحركات الروسية ذلك لايفسح لنا المجال للدفاع عنكم، إنكم لاتقبلون شهادة الذمي على المسلم مع أنكم تحكمون بلاداً كثيرة جميع سكانها مسيحيون، فيجد المسلمون الفرصة ليعتدوا عليهم دون ماخوف من عقاب، بسبب عدم وجود شهود مسلمين غير أتباعهم المأجورين وبسبب عدم الالتفات إلى شهادة غير المسلمين مهما كان عددهم "[1].

وبعد أن عرض رشيد باشا على المجلس تفاصيل أكثر وجه إلى العلماء سؤالاً ألا يمكن قبول شهادة غير المسلمين على الأقل في المناطق التي لايوجد فيها سكان مسلمون ـ وهذه مغالاة واضحة حيث لايوجد قطر خالٍ من المسلمين ـ ولكن مجلس العلماء قال بإجماع الآراء لايوجد سند شرعي لذلك على الإطلاق ومع هذا توصل إلى طريقة عملية لمعالجة هذه المشكلة الشائكة ؟!! حيث قال : "إنه يجوز للحكومة أن تتخذ ماتراه من التدابير الإدارية في مثل هذه الحالات إذا صدر أمر سلطاني بذلك لأن الأوامر السلطانية المبنية على المصلحة العامة تكون مطاعة وواجبة التنفيذ "[2] .

فتسللت القوانين الوضعية إلى البلاد الإسلامية باسم المصلحة العامة تارة

(١) ساطع الحصري : الدولة العثمانية والبلاد العربية ص ٩١ - ٩٢.

(٢) المرجع السابق : ص ٩٢.

وباسم اجتهاد ولي الأمر تارة أخرى ، وكلما بطلت شبهة جاءوا بشبهة جديدة وهكذا لم يكتف بإدخال القوانين الأوروبية في التجارة ومجال القضاء عموماً، بل تعدى إلى قطاعات شتى .

فكانت علمنة الجيش بإدخال قوانين تلزم النصارى واليهود بالتجنيد حالهم حال المسلمين مما أغلق باب الجهاد ، وأصبح لا يميز بين عساكر الدولة المسلمة وبين غيرها من ملل الكفر اللادينية، فلا مباديء يقاتل من أجلها ولاعقيدة يدافع عنها .

وكذلك كانت منذ وقت مبكر علمانية التعليم فبدلاً من سيطرة العلماء على تسيير عجلة التعليم في البلاد فتحت قنوات وأبواب واسعة لأهل الذمة، سيطروا من خلالها على أعلى طبقات المجتمع دون أن تغلق المدارس الشرعية كما فعلوا في المحاكم الشرعية، ففي عام ١٢٧٣هـ ـ١٨٥٧م تولت وزارة المعارف أمور المدارس والمعاهد ووسعت من سيادتها عليها فحولت هذا المجال المهم من السيطرة الدينية إلى العلمانية [(١)] .

ونشط السفراء الأجانب نشاطاً منقطع النظير في التسابق على فتح المدارس والمعاهد التنصيرية والجامعات كما تقدم عند تعداد مدارس أهل الذمة في المبحث السابق .

كل ذلك على مرآى من الخليفة ! بل ومن العلماء والهيئة الدينية الإسلامية الحاكمة !!

ولكن من الشواهد على ذلك مايذكره عرض نيازي بيركز عن علمانية التعليم في القرن التاسع عشر :

وقد افتتح ليسيه "غلطة سراي" عام ١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م بناء على توصية

---

(١) برنارد لويس : المرجع السابق ص ٣٦٧.

وزير التعليم الفرنسى حيث كان التعليم فيها علمانياً وباللغة الفرنسية .

هذا إلى جانب المدارس والمعاهد التنصيرية ، مثل معهد "روبرت" عام ١٢٧٩هـ ـ ١٨٦٣م والمدارس الكاثوليكية الفرنسية والمدارس الإنجليزية والأمريكية والألمانية والإيطالية فكانت أول محاولة من حكومة إسلامية لإدخال التعليم في المستوى الثانوي بلغة غربية[١] ، والمصيبة العظيمة التي مكنت لأهل الذمة في نشر أفكارهم ومذاهبهم الهدامة في أرض الإسلام أنهم استطاعوا أن يتسللوا إلى كراسي الحكم ويسيطروا على تفكير رجال الدولة حتى الخلفاء، وسبق التمثيل بالسلطان محمود وعبد المجيد ومثال أصرح وأغرب أن يكون خليفة المسلمين ماسونياً !! وعلى صلة قوية بأعضاء تركيا الفتاة .. وذلك هو السلطان مراد الخامس بن السلطان عبد المجيد ( ١٢٥٦هـ ـ ١٨٤٠م ، ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م ) .

والذي جاء به مدحت باشا بعد ماتمكن من عزل عمه السلطان عبد العزيز بفتوى استصدرها من شيخ الإسلام بحجة اخلاله للشؤون الدينية، فتولى بعده السلطان مراد ( وكان شاباً مغرماً بالموسيقى ويجيد اللغة الفرنسية وعلى صلة قوية بإعضاء تركيا الفتاة دخل الماسونية عن طريق ولي عهد إنجلترا عندما كان في لندن )، وكان أعضاء تركيا الفتاة من يهود وماسون يأملون منه دفع عجلة سير الدولة على درب الغرب فقد كانت ثقافته وانتماءاته فكراً وسلوكاً اوروبية[٢]. إلا أنه سرعان ماخلع لجنونه وتولى بعده السلطان عبد الحميد في سبتمبر (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) وبدأ في عهده صفحة جديدة في التاريخ العثماني المنهار ملأت بالأحداث المتميزة والمواجهة الصعبة مع دعاة العلمانية.

**الخلاصة :**

---

(١) نيازي بيركز : تطور العلمانية في تركيا ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(٢) انظر د. محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد : المقدمة والتعليقات ص ٤ ، ١٣٣ .

**الخلاصة :**

أنه إذا كانت الفترة من ١١٣٠هـ ـ ١٧١٨م حتى عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م قد مهدت الطريق لإقصاء الشريعة عن طريق الفكرة العلمانية للحياة على أيدي الأساتذة والمنظرين من يهود ونصارى باسم الخبراء والمدرسين والفنيين أو السفراء تارة أخرى، فإن المرحلة الثانية التي امتدت من عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م حتى توليه عبد الحميد الثاني هي مرحلة بناء قواعد الاتجاه العلماني في الدولة مع تغير الوجوه بدلاً من أن كنا نستمع إلى أصوات برناردلويس وجورج .. أصبح الوضع في الفترة الثانية على أناس يحملون اسم مدحت ، ورشيد ومصطفى وغيرهم ممن تتلمذوا على أولئك .

وتم في عهدهم ( الثاني ) تقليص نفوذ الهيئة الإسلامية إلى أقصى درجات الهامشية فأصبح تعلق العامة بهم من باب طلب البركة وإحياء الطقوس البدعية وفي المناسبات الدينية.

وفي المقابل أسست المدارس العلمانية واقتبست مظهريات الغرب وفتحت أبواب الوظائف العامة والخدمة العسكرية لرعايا السلطان من غير المسلمين والمساواة بين جميع الطوائف في المال والخراج والمكوس .

وحدث الانهيار البشع في التشريع بصدور القوانين العلمانية في شتى مجالات الحياة كقوانين الجنسية والعقوبات ، التجارة ، التملك للعقار .. إلخ . وإنشاء المحاكم المختلطة وتنصيب قضاة من اليهود والنصارى والسماح لأهل الذمة لتملك العقار بل وللأجانب من الخارج !! .

وفتح الباب دون قيداً وشرط للدول الأجنبية في أن تفتح مدارس علمانية وصحافة لادينية تدعو إلى الردة إلى أن استصدر قانون بحرية الردة في الدولة تحت ضغط من إنجلترا ..

فكانت النتيجة ثورة فكرية كبرى وإن شئت سمها نكسه وردَة بكل ماتحمله كلمة ردة، بل حتى الجوانب الأدبية اعتراها مااعتراها من تغيير وتبديل وتحريف ..

## المبحث الرابع

## سيطرة أهل الذمة على الصحافة

**معنى الصحافة وأهميتها :**

الصحافة لغة مشتقة من الصحف : جمع صحيفة والصحيفة التي يكتب فيها[١]، وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩ ﴾[٢] والصحف هنا بمعنى الكتب المنزلة .

وقال الجوهري : "إن الصحيفة وجمعها صحف وصحائف هي الكتب بمعنى الرسالة"[٣]. ولما عرف العرب الصحافة في مطلع القرن التاسع عشر لأول مرة ، كانوا يطلقون عليها لفظة "الوقائع".

ومن أصحاب الصحف من أطلق على صحيفته التعريف الفرنسي (جورنال) وذلك حين أنشأ خليل الخوري صحيفة ( حديقة الأخبار) .

وكان أول من اختار لفظة صحيفة هو رشيد الدحداح إلا أن أحمد فارس الشدياق صاحب جريدة ( الجوانب ) ومناظر الدحداح في المسائل اللغوية استعمل لفظة جريدة وهي مأخوذة عن الجرائد أي قضبان النخل المجردة من خوصها .

كما استعمل القس لويس صابونجي صاحب مجلة "النحلة" لفظة نشرة بمعنى جريدة أو مجلة .

وقد ظل أرباب الصحف في القرن التاسع عشر لايفرقون بين الجريدة والمجلة إلى أن تولى إبراهيم اليازجي إصدار مجلة الطبيب عام ١٣٠١هـ - ١٨٨٤م بالاشتراك مع الدكتور بشارة زلزل وخليل سعادة . فاستعمل لفظة مجلة وهو

---

(١) ابن منظور لسان العرب ، مادة ( صحف ) ( ٤/ ٢٤٠٤ ) .

(٢) سورة الأعلى آيه ١٨ - ١٩ .

(٣) الجوهر الصحاح ص ٣٥٧ من المختار .

يقصد بها الصحيفة العلمية أو الأدبية أو الانتقادية وماشاكلها .

وجاء في المنجد أن المجلة مشتقة من مادة جل جلالا وجلالة أي عظم وكبر وعلا مقاماً وقدراً وحكمة [١] .

والمجلة إذن هنا هي الكراسة فيها الحكمة وقد خصت الآن بالصحيفة التي على شكل كراسة وفي تفسير آخر وهو الأصح : أن المجلة مشتقة من مادة جلا جلاء أي ظهر ووضح [٢] .

**التعريف الاصطلاحي** : * عرف أديب اسحق صاحب جريدة ( مصر ) في القاهرة ( الجريدة لفظ أطلق اصطلاحا على الصحيفة المفردة أو الصحائف المصحفة تطبع في أوقات معينة مشتملة على أنباء وآراء ومباحث من السياسة أو الأدب أو العلم أو منهن جمعاء ) [٣].

* وقد عرف بعضهم الصحيفة الحديثة بأنها كل نشرة مطبوعة تشمل على أخبار ومعارف عامة وتتضمن سير الحوادث والملاحظات والانتقادات التي تعبرعن مشاعر الرأي العام وتعد للبيع في مواعيد دورية وتعرض على الجمهور عن طريق الشراء والاشتراك .

* الصحافة تعني فن تسجيل الوقائع اليومية بدقة وانتظام وذوق سليم ، مع الاستجابة لرغبات الرأي العام وتوجيهه والاهتمام بالجماعات البشرية وتناقل أخبارها ، ووصف نشاطها ، ثم تسليتها ، وتزجية أوقات فراغها . وعلى هذا فالصحافة هى مرآه تنعكس عليها صورة الجماعة وآراؤها وخواطرها [٤] .

قال أحمد شوقي :

---

(١) الأب لويس المعلوف المنجد .

(٢) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص١٢ .

(٣) فليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ط١ ص١٣

(٤) أديب مروة : ص٢٧.

لكـــل زمـــان مضى آية وآية هذا الزمـــان الصحف .
لســـان البلاد ونبض العباد وكهف الحقوق وحرب الجنف .
تسير مسير الصخر في البـــلاد إذا العـــلم فـــرق فيها السدف.
وتمشي تعلـــم في أمـــــــة كثيـــرة من لايخط الألـــف [١].

قال نابليون الأول : " الصحافة ركن من أعظم الأركـان الـتي تـشيد عليهـا دعائم الحضارة والعمران " .

وقال روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكـا : " لـيس الجرم الحقيقي هو من يتعمد القتل وارتكاب أعظم المعاصي بل هو الـذى يملـك شـيئاً لايكون من أهله بـالغش والخـداع كالـصحافي المقلـد أو الـسياسي المنـافق ، لأن الواجبات الأولية في الـصحافي أو الـسياسي هـو أن يكونـا حاصـلين علـى ثقـة الشعب بمجرد القدوة الصالحة في الأعمال والأقوال " .

وقال جرجي منشيء مجلة "الهلال" في القـاهرة : " الجرائـد عنـوان الحـضارة ودليل المدنية . فإذا أرسخت قدم جماعـة في المدنيـة كثـر في جرائـدهم وتعـددت مواضيعها " .

وقال عبد الحميـد زكـي صـاحب جريـدة " الـسياسة المـصورة " بالقـاهرة. " الجرائد مدرسة العامة " .

وقال محمد الشريف ابن الشيخ المنوبي التجاني صـاحب جريـدة " خطيـب العالم " في تونس : " الصحافة هي العمل الذي تهابـه الـسلاطين ويخـضع لـه كـل جبار في العالمين " .

وقال محمود كامل كاشف صاحب مجلة " الإخـاء " في طـوخ قليوبيـة بمـصر " الصحافة في الغرب حكومة عاملة في قلب حكومة عاملة " .

---

(١) ديوان شوقي :ج٢ ص٦٢

**بداية ظهور المطابع العمومية** : يختلف المؤرخون في تحديد تاريخ أول مطبعة استخدمت الحروف العربية ، سواء داخل البلاد العربية أو خارجها ... وترجع أهمية المطابع إلى أنه بظهورها تنشر المعرفة على حسب الوجهة التي يتبناها صاحب المطبعة ، وكذلك بدخول المطابع دخلت الصحف ، والذي يرجحه بعض المؤرخين أن أول مطبعة عربية ظهرت في الشرق العربي كانت على يد أحد البطاركة في حلب في أوائل القرن الثامن عشر[1] حوالي ١١١٣هـ - ١٧٠٢م مطبعة روما.

ولكن يذكر خليل صابان في كتابه (تاريخ الطباعة في الشرق) أنها ظهرت في سنة ١٠١٩هـ - ١٦١٠م في ولاية طرابلس الشام في دير فرخنا بواسطة بعض رهبان الطائفة المارونية الذين جلبوها معهم من روما بعد انتهاء مدة بعثتهم. وكانت تصحب ظهور المطابع معارضة شديدة من الهيئات الشرعية في البلاد خشية التحريف لكتب التراث، والبعض يرفضها لأنها من الغرب ...إلى أن صدرت فتوى شيخ الإسلام وصدر معها فرمان في سنة ١١٢٤هـ - ١٧١٢م بالإذن لسعيد أفندى بإنشاء مطبعة وطبع جميع أنواع الكتب ماعدا الكتب الشرعية الإسلامية [2].

أما أول مطبعة استخدمت الحروف العربية فقد تأسست في روما سنة ٩٢٠هـ - ١٥١٤م ، وقد طبع فيها خلال القرن السادس عشر عدد من الكتب الثقافية إلى جانب الكثير من الكتب النصرانية ( بغرض التنصير أوغيرها وكانت ترسل هذه الكتب إلى أسواق الشرق وتباع فيها ) .

ومما يؤيد هذا الرأي ( أنها أول مطبعة عربية ) صدرت بعض المنشورات عن السلطان مراد الثالث وقد طبعت في هذه المطبعة سنة ١٠٠٢هـ -

---

(١) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص١٣٨.

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص٣٤

١٥٩٤م[١]، ثم كانت أول مطبعة في جبل لبنان سنة ١١٤٥هـ ـ ١٧٣٣م على يد الشماس عبد الله الزاخر في دير مار يوحنا الصايغ ، ثم أوصى بها إلى الرهبان الشويزيش (فرنسية) قرية الشويز ، وكان أكثر مايطبع فيها الكتب الدينية ، ثم نافس الأرثوذوكس أصحاب دير الشويز والكاثوليك وأنشأوا في بيروت مطبعة تقليداً لمطبعة الشويز عام ١١٦٣هـ ـ ١٧٥٠ م .

وكانت هذه المطابع بدائية ومحدودة الإنتاج والطاقة، واستمرت على طباعة الكتب الدينية وتسويد الكتب الأدبية إلى بداية ظهور الصحافة .

ومن أوائل المطابع العربية كذلك والتي أنشئت في لبنان المطبعة الأمريكية التي أنشئت في بيروت عام ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م بعناية الدكتور غالي سميث ، والذي أوكل مهمتها إلى نصيف اليازجي، وقد كانت المطبعة الأمريكية تفوق المطابع السابقة ، وبإحضارها ولدت أو ل صحيفة عربية في لبنان . ومن أهم المطابع التي تأسست في منتصف القرن التاسع عشر ، مطبعة الآباء اليسوعيين والتي كانت من أفخر المطابع وأكملها استعداداً ومازالت قائمة [٢] .

* ولم يكن الوضع في مصر بعيداً عما سبق في الشام ، فلم تعرف مصر الطباعة قبل مقدم الحملة الفرنسية عام ١٢١٢هـ ـ ١٧٩٨م وعلى رأسها نابليون، وكانت مطبعة نابليون بداية نقلة وتحول كبير في مصر، فقد بدأت أول ماطبعت بثلاث صحف، اثنتان بالغربية، وواحدة بالعربية، ولم تقتصر على إصدار الفرمانات والتوجيهات ..

الشاهد مما سبق أن المسلمين كانوا بعيدين كل البعد عن هذا الاختراع الجديد سواء في عاصمة الدولة أوفي البلاد العربية بشطريها الشام ومصر، بينما استمر النصارى في التسابق على فتح المطابع، ففتحت خلاف ما ذكر من مطابع

---

(١) أديب مروة : الصحافة العربية ص١٣٨ .

(٢) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص ٣٧ .

في لبنان مطبعة القديس حاورجيوس وقد أسسها بوش نقولا الجبيلي الملقب بأبي عسكر . لخدمة طائفته الرومية الأرثوذوكس والتي يرأسها يومئذ المطران أيوانيكوس اليوناني [١] .

وقد تبع هذه المطبعة مطبعة فرجيا الثانية [٢] في أوائل القرن التاسع عشر سنة ١٢٢٣هـ ـ ١٨٠٨م .

سبب تفوق النصارى في الأدب العربي والصحافة على المسلمين في تلك الفترة:

من يتابع السنوات الأخيرة من عمر الدولة العثمانية ويقف عند كل حدث منه ومدى استغلال أهل الذمة لكل ظرف ـ ويقابله إهمال المسلمين لكل الفرص التي تسنح لهم ـ تتجلى له عدة أمور يستشف منها سبب تفوق أهل الذمة وكيف استغل أهل الذمة مداخل بنود هذه الأنظمة وسخروها لمصالحهم الشخصية والفكرية ، ويتذكر مدى التنافس الذي كان بين الدول الغربية في توسيع نفوذها في البلاد العثمانية عن طريق تأسيس المدارس التابعة لها لنشر لغتها وثقافتها ..... .

مما سبق نستطيع أن نستنتج بعض الأسباب التي أدت إلى تفوق أهل الذمة ـ خاصة في المجال الذي نحن بصدد الحديث عنه ـ وهو الأدب والصحافة :

**١ـ إنشاء المدارس الأجنبية :**

من المرغبات التي امتازت بها المدارس الأجنبية إضافة لتعليمها اللغات الأجنبية، الاهتمام باللغة العربية اهتماماً كبيراً ، وليس كمجرد تعلم لغة فقط ، وهذه الميزة لم تكن تتوفر في المدارس الحكومية حيث كانت لغة التدريس بها

(١) خليل صابات : تاريخ الطباعة في الشرق العربي ص٣٩ ، شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ١/ ٢٢.

(٢) الأولى كانت سنة ١٦١٠م في ولاية طرابلس الشام .

التركية ، وإن درست فيها العربية فعلى أيدي مدرسين أتراك يرطنون بها رطن الأعاجم ، فتبدو لغة ضعيفة ركيكة .

ولساطع الحصري رأي وجيه في انتشار المدارس الأجنبية ومواضع تمركزها حيث يقول : "كانت المدارس الأجنبية تؤسس - بوجه خاص - في القرى المسيحية والمدن التي يكثر فيها المسيحيون ، فكانت تجذب وتجمع في الدرجة الأولى أطفال غير المسلمين بطبيعة الحال .

وكانت حصة الولايات العربية من هذه المدارس الأجنبية وهذا النفوذ الغربي كبيرة ، ولاسيما في حلب ، والموصل ، وبيروت ، والقدس ، ولبنان "[١] ولقد وجد تعليم الأدب العربي واللغة العربية موئلاً في المدارس الأجنبية ، والمدارس الطائفية المسيحية ، فانتشر تعليم الأدب العربي بين المسيحين أكثر من انتشاره بين المسلمين ، لأن العرب المسلمين لم يؤسسوا مدارس خاصة بهم، بل ظلوا يرسلون أولادهم الى المدارس الحكومية - إذا أرادوا تعليمهم - ولغة التعليم في المدارس الحكومية كانت اللغة التركية [٢].

وكان بديهياً أن يساير هذا التطور التعليمي تطور صحفي من نفس تلك الفئة التي كان لها سبق في مجال التعليم ، وهم النصارى خاصة .

ولذلك نجد أوائل الصحف بالعربية كانت من أبناء النصارى، ففي سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م في الأستانة أنشأ اسكندر شلهوب صحيفة عربية سياسية ، مالبثت أن ألغيت أو استبدلت ، وعقبه أو سبقه رزق الله حسون رائد الصحافة العربية الأول في الأستانة صاحب جريدة "مرآة الأحوال" والتي كانت تعد أول جريدة عربية (لأن ماقبلها لم يستمر ..) وكان إصدارها سنة ١٢٧١هـ -

---

(١) ساطع الجصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ص٨٢.

(٢) شمس الدين الرفاعي : تاريخ الصحافة السورية ص٥٦

١٨٥٥م[١] .

والسبب الثاني لتفوق النصارى في الأداب العربية هو التنظيمات : ويقصد بالتنظيمات المنشور الذي صدر في عهد السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٦م وهو مايعرف بالخط الهمايوني ـ وقد سبقت الإشارة إليه ـ والذي يتعلق بالثقافة بين النصارى من جو التنظيمات : كتنظيم شئوون البطريركيات والأسقفيات وتكوين المجالس الملية ، الجسمانية والروحانية ، والتي عودت قسيسي الطوائف النصرانية على "العمل المشترك" وزادت من ترابط المجموعات النصرانية في المؤسسات الدينية والخيرية والتعليمية .

أما المسلمون فلم يكن لديهم أمثال هذه التشكيلات ، فكانت أمورهم كلها موكلة للدولة ، لم تكن توجد بين الفرد المسلم وبين الدولة "صلة" تذكر من أي نوع كان ، ولكن يوجد بين الفرد النصراني وبين الدولة "علاقة" منظمة تنظيماً معشرياً ، ترعى الشيء الكثير من مصالحها . وبالتالي سمح لهم بالنوادي والجمعيات . وغيرها من المنتديات الثقافية التي حفلت مواهبهم في الأدب واللغة عموماً .

**أهم الأدباء الذين تربعوا على عرش الصحافة منذ نشأتها**

**ناصيف اليازجي** : هو ناصيف بن عبد الله بن ناصيف بن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الأصل وهم عشيرة كبيرة أكثرهم من طائفة الروم الأرثوذوكس أما فرع ناصيف فإنه ينتمى إلى الروم الكاثوليك .

كان مولده في قرية كفر شيما من قرى الساحل المذكور في ١٢١٤هـ ٢٥ آذار سنة ١٨٠٠م وتلقى مبادىء القراءة على يد راهب من بيت شهاب يقال له القس (متى) وكان والده عبد الله من الأطباء المشهورين في وقته على مذهب

---

(١) أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص ٢٣٠

ابن سينا وكان مع ذلك أديباً وشاعراً . فمنشأ ولده ناصيف على الميل إلى الشعر. وأقبل على الدرس والمطالعة بنفسه وتصفح ما تصل إليه يده من كتب النحو واللغة ودووابن الشعراء.

ونظم الشعر وهو في العاشرة من عمره . وقد بلغ من كل علم لبابه ودرس أشهر مصنفاته وهي اليوم عمدة التدريس في أكثر المدارس السورية وبعض المدارس المصرية . أشهرها "فصل الخطاب في أصول لغة الأعراب" وكتاب "الجوهر الفرد" وله "طوق الحمامة" أيضاً .

وقد أسس "الجمعية العلمية السورية" ـ كما تقدم ـ التي اشتهر امرها وأنشئت لها مجلة باسمها، وكان في أول حياته منتدباً من السيد غناطيوس الخامس بطريرك الروم الكاثوليك سنة ١٢٣١هـ ـ ١٨١٦م ليكون كاتباً عنده في دير "القرقفة" المشيد في كفر شيما .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مدينة بيروت وأقام بها منقطعاً للمطالعة والتأليف والتدريس في "المدرسة البطريكية" للروم الكاثوليك ثم "المدرسة الوطنية" للبستاني وكذلك "المدرسة الكلية" للأمريكان .

توفى ببيروت سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م ودفن في مقبرة الروم الكاثوليك في الزيتونة[١] .

**بطرس البستاني** : هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبى شديد بن محفوظ بن أبى محفوظ البستاني ولد في عام ١٢٣٤هـ ـ ١٨١٩م في "الدبية" بلبنان ودخل منذ صباه مدرسة ( عين ورقة) حيث تلقى أصول اللغات العربية والسريانية والإيطاليةواللاتينية، فأنفق هناك بين تعلم وتعليم مدة عشر سنين حتى أحرز كل العلوم التي تعلمها تلك المدرسة .

---

(١) أديب مروة : المرجع السابق ص٢٣٢ .

ثم زايلها وجاء إلى بيروت فتعرف على الدكتور عالي سميث رئيس الرسالة الأمريكانية وقسسها الذين أحبوه لنجابته وشملوه بعنايتهم . فقرأ عليهم اللغات اليونانية والعبرانية والأنكليزية مع بعض العلوم العصرية وتبع مذهبهم البروتستانتي، وإذ آنسوا منه براعة في المعارف جعلوه سنة ١٢٦٢هـ ـ ١٨٤٦م أستاذاً في مدرسة عبية حيث تخرج عليه الكثير من الشبان في سوريا ولبنان .

وبعد سنتين عين ترجماناً لقنصليات أميركا في بيروت واتخذه المراسلون الأميركان معاوناً لهم في إ دارة شئون مطبعتهم ومساعدتهم في تأليف كثير من مطبوعاتهم لاسميا ترجمة التوارة من العبرانية إلى العربية .

وهو واضع قانون الكنيسة الإنجيلية في بيروت وقانون المدرسة الداودية الدرزية في عبية. وكان بطرس رئيساً للجمعية الخيرية البروتستانتية وعضواً في عمدة الكنيسة الإنجيلية في بيروت . وعين عضواً فخرياً في المجمع الديني الأعلى في الولايات المتحدة وسمي عضواً في الجمعية العلمية السورية ١٢٤٠هـ - ١٨٥٢م فاعتنى بتنظيم أشغالها .

أما نشاطه الصحفي فقد قام بإنشاء أربع صحف وهي نفير سويا والجنان والجنة والجنينة . وتوفي سنة ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م [١] .

**أحمد فارس الشدياق** : هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر بن فهد الشدياق من سلالة المقدم رعد ابن المقدم خاطر الحصروني .

ولد سنة ١٢١٩هـ ـ ١٨٠٤م في عشقوت بلبنان من أسرة مارونية ، لما بلغ فارس من العمر أشده تلقى الآداب العربية والسريانية فر مدرسة عين ورقة ، بعد ذلك سافر إلى مصر فكتب في جريدة الوقائع المصرية ثم دعاه المراسلون الأميركان سنة ١٢٤٩هـ ـ ١٨٣٤م إلى جزيرة مالطة حيث عهدوا إليه إدارة

---

(١) المرجع السابق : ص٢٣٣ ، فليب طرازي ج١ .

مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتها . فأقام عندهم أربع عشرة سنة وعلّم في مدارسهم ثم تبع مذهبهم البروتستانتي وطبع هناك كتباً شتى من تأليفه .

وبعد ذلك دعاه باي تونس إلى خدمة مملكته وأرسل له سفينة مخصوصة لتقله إلى بلدة فلبى الدعوة، وهناك ذكر فيليب طرازية أنه ترك مذهب البروتستانت وتبع دين الإسلام وصار يعرف بالشيخ أحمد فارس الشدياق .

وفي سنة ١٢٧٣هـ ـ١٨٥٧م اتخذ الأستانة ( اسطنبول ) محلاً لسكناه فانشأ فيها بعد ثلاث سنوات جريدة "الجوائب" .

توفي في القسطنطينية سنة ١٣٠٤هـ ـ ١٨٨٧م ودفن في جبل لبنان مسقط رأسه .

**الكونت رشيد الدحداح** : هورشيد غالب سلوم موسى يوسف بن الخوري جرجس ابن الخوري يوسف ابن الخوري وميخائيل ابن جرجس الدحداح ولد عام ١٢٢٨هـ ـ ١٨١٣م في عراقون إحدى قرى كسروان من جبل لبنان، ثم أرسله أبواه إلى مدرسة "عين ورقة" حيث أتقن أصول اللغة العربية وفروعها ودرس اللغتين السريانية والإيطالية وسائر العلوم . وبعد ذلك دخل مدرسة بزمار للأرمن الكاثوليك فاشتغل في تحصيل اللغة التركية وبرع فيها .

ومن أعماله أنه نشر شرح ديوان عمر بن الفارض في نحو ستمائة صفحة ثم أنشأ في اللغتين العربية والفرنسة جريدة "برجيس باريس أنيس الجليس" التي شحنها بالمقالات السياسية والتاريخية والأدبية حتى ذاعت شهرتها شرقاً وغرباً. استوطن فرنسا ومات فيها عام ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م .

**خليل الخوري** : هو خليل بن جبرائيل بن يوحنا بن ميخائيل بن عبده الخوري ولد عام ١٢٥١هـ ـ ١٨٣٦م في الشويفات من أعمال جبل لبنان درس في بيروت في مدرسة الروم الأرثوذوكس اللغة العربية والتركية والفرنسية، وفي ١٢٧٤هـ ـ ١٨٥٨م أنشأ صحيفة "حديقة الأخبار" فكانت أول جريدة عربية

صدرت برخصة رسمية من طرف الحكومة العثمانية خارجاً عن عاصمة السلطنة.

ولهذا كان خليل الخوري من أخص رجال النهضة الأدبية في سوريا في القرن التاسع عشر، وفي سنة ١٢٧٦هـ ـ ١٨٦٠م عينه فؤاد باشا مأموراً بمعيته، وسنة ١٢٨١هـ ـ ١٨٦٥م فوضت إليه ولاية سوريا إدارة مطبعتها وجريدتها الرسمية بإرادة سلطانية . وتقلد عدة مناصب كبيرة في الدولة . وقام بإنشاء الجميعة الخيرية الأرثوذوكسية في بيروت، وتوفي ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م وهي السنة التي أتمت فيها "حديقة الأخبار" خمسين سنة .

**رزق الله حسون** : ولد سنة ١٢٤٠هـ ـ ١٨٢٥م في حلب وتعلم فيها مباديء القراءة وأتقن الخط . ولما ترعرع انتقل إلى دير بزمار وهو دير لرهبنة الأرمن الكاثوليك الإنطونية فدرس العلوم اللاهوتية واللغات الفرنسية والتركية والأرمنية والعربية والعلوم الرياضية . ولقد عرف رؤساء الأساقفة بعهده ومدحهم على ذلك بأبيات موجودة بخطه في دار بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق مدح به البطريرك هكسميوس .

ولما نشبت حرب القرم بين روسيا والدولة العلية وتدخلت فيها الدول المتعاهدة وهي بريطانيا وفرنسا منحازة إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٧٠هـ ـ ١٨٥٤م ، وأنشأ رزق الله حسون جريدة "مرآة الأحوال" في دار السعادة، فكانت أول جريدة عربية فيها، وكان يصف فيها حرب القرم ويحارب الدولة فيها ثم أصدر مجلة عربية عنوانها "رجوم وغساق إلى فارس الشدياق" ثم عطل مرآة الأحوال ونشر مجلة عربية طبعت في لندن عام ١٢٩٦هـ ـ١٨٧٩م كانت تصدر كل خمسة عشر يوماً مرة عنوانها حل المسألتين الشرقية والمصرية" وهى أول مجلة عربية شعرية .

وتوفي في مدينة لندن سنة ١٢٩٧هـ ـ ١٨٨٠م .

**ميخائيل مدور** : هو ميخائيل بن يوسف مدور ولد في بيروت سنة ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢٢م ودرس اللغتين الفرنسية والإيطالية في مدرسة عين طورا. ومن الشخصيات التي كان لها دوراً كبيراً في صنع الأحداث على اختلاف المجالات التي شارك فيها من صحافة وفن وتأليف وموسيقي اليهودي المصري " يعقوب صنوع " وقد بدأ حملته العنيفة ضد الدولة العثمانية في مصر حينما أصدر مجلة " أبو نظارة زرقاء " سنة ١٢١٥هـ ـ ١٨٧٧م وهي مجلة هزلية يغلب عليها الطابع النقدي الساخر ، وقد اصطدم يعقوب صنوع بالسلطة الخديوية التي أغلقت صحيفته وأمرت بطرده خارج مصر .

فذهب إلى باريس وواصل إصدار صحيفته من هناك، وقد لعبت هذه الصحيفة دوراً كبيراً في مناهضة الدولة العثمانية والتهجم عليها ، وكانت تنادي بتأييد الحركات الاستقلالية بين العرب وقد ساعده المامه بعدد كبير من اللغات على الكتابة والنقد.

وقد أصدر بعد جريدته الأولى '' أبو نظارة زرقاء '' عدة صحف ومجلات في باريس منها "النظارات المصرية" عام ١٢٩٧هـ ـ ١٨٧٩م و "أبو صفارة" ١٢٩٨هـ ـ ١٨٨٠م وجريدة "الحاوي" سنة ١٢٩٩هـ ـ١٨٨١م وجريدة "الوطن المصري" سنة ١٣٠١هـ ـ ١٨٩٣م و "الثرثارة المصرية" ١٣٠٤ هـ ـ ١٨٨٦م و "التودد" سنة ١٣٠٤هـ ـ ١٨٨٦م و "المنصف" سنة ١٣١٦هـ ـ ١٨٩٨م [(١)]. وهذه الصحف والمجلات هي أسماء متعددة لصحيفته الأولى "أبو نظارة زرقاء" ليتحايل لإدخالها إلى مصر تحت هذه الأسماء المستعارة وظل يصدر جريدته تلك إلى أن هلك سنة ١٣٣١هـ ـ ١٩١٢م .

ويعقوب صنوع صهيوني تظهر صهيونيته من خلال كتاباته وأعماله فضلاً عن أنه كان من أبوين يهوديين رضع منهما الحقد على الإسلام والمسلمين، وقد

---

(١) انظر في التراجم السابقة : أديب مروة : الصحافة العربية نشأتها وتطورها ص ٢٣٢ ، ٢٣٤.

جاء في كتاب أسرار اليهود لـ ( نسيم ملوك ) أن ابن صنوع كان من أكبر المؤيدين له في إصدار الكتاب للدفاع عن الأمة اليهودية .

وكان الغطاء الذي يتستر تحته غطاء الدفاع عن حقوق العامة، وأخذ تأييد الشعب والعوام بحرية الصحيفة الإعلامية على الحكومة العثمانية والمصرية التي سرت في أعماق الوطن العربى نظراً لما كان يضفيه على كتاباته من محاورات عامية وتناهيه في النقد والسخرية للأحوال العامة والتنديد بالحكومة والحكام . وعلى إثر ذلك أغلقت صحيفته وغادر القاهرة إلى باريس ليواصل نفس الحملة والحرب من هناك كما سبق توضيحه .

ومن الصحفيين الذين قاموا بدور كبير في زعزعة السلطة العثمانية أديب اسحاق وكان قد بدأ حياته الصحفية في القاهرة سنة ١٢٩٤هـ ـ ١٩٧٧م وأصدر بها جريدتيه "مصر، والتجارة" وقد أصبحت جريدتاه الناطقتين بلسان الحزب الوطني الأول الذي تأسس بشكل سري في حلوان، وكان يضم عدداً من كبار الملاك، وقد نقل جريدته ( مصر ) إلى الإسكندرية، وكتب فيها عدد كبير من الكتاب والمثقفين أمثال جمال الدين الأفغاني الذي نشر بجريدة مصر مقالتين الأولى "روح البيان في الإنجليز والأفغان" أما الثانية فكانت بعنوان "الحكومات الاستبدادية" ويتعرض السيد جمال الدين في هذه المقالة للدولة العثمانية واستبدادها [(١)] .

وعندما تولى رياض باشا رئاسة الوزارة في عهد الخديوى توفيق ألغى صحيفة "مصر والتجارة" فانتقل إلى باريس وأقام بها فترة من الزمن وأصدر بها جريدته "مصر والقاهرة" على حساب أموال الحزب الوطني المصري الذي أوفد

---

(١) إبراهيم عبده : تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨م - ١٨٨١م ص ١٠٧ ، ١٠٨. وعبد العليم القباني: منشأة الصحافة العربية بالإسكندرية ١٨٧٣-١٨٨٢م ص ٥٣ - ٨٦ الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣ م .

أديب اسحق إلى باريس ليقوم بالدعاية للحزب الوطني في العاصمة الفرنسية وليهاجم الاستبداد من هناك [١].

**الكاتب الصحفي : داود صلبوا ( ١٢٦٨هـ ــ ١٨٥٢م ، ١٣٣٩هـ ــ ١٩٢١م )** : هو أحد كتاب الصحافة المعروفين ، ولد بالموصل عام ١٢٦٨هـ ـ ١٨٥٢ م في أسرة فقيرة الحال، لكن فقر أهله لم يمنعه من الدرس والتحصيل فقد أرسله أبوه ( يوحنا شماس ) وهو في الرابعة من عمره ليتعلم في إحدى مدارس الموصل، وقد تخرج من المدرسة الابتدائية في الموصل وقد بلغ سنه العاشرة فعكف بعد ذلك على كتب العربية وآدابها يدرس لنفسه حتى استوت ثقافته مما أهلته إلى أن تناط به إدارة المدرسة التي كان يدرس فيها سابقاً ( الكلدانية البطريركية ) .

وبعد فترة انتقل إلى بغداد وقد تقلد فيها عدة وظائف تعليمية ومن هناك أصدر جريدته " صدى بابل " عام ١٣٢٧هـ ـ ١٩٠٩م شاهراً إبداعه منددا بالظلم مطالباً بحرية العرب عامة والعراقيين خاصة ، ونادى بإحياء تراثهم ولغتهم العربية التي أصابها الجمود في هذه الفترة ، وقد جمع بين السياسة والشعر فقد كان شاعراً يهجو من رأى هجاؤه ويمدح من رأى مدحه .

وقد حارب وهاجم هذا الكاتب الدولة العثمانية وسلاطينها وألَّب عليهم وشَهَّر بهم في جريدته ، وكان في كل ذلك يدعو إلى الدفاع عن حرية أبناء قومه المسلوبة ولغتهم المنسية ـ على زعمهم ـ وقد سجن عدة مرات بسبب فتنته وتطاولاته على السلاطين العثمانيين .

وبعد نشوب الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢هـ ـ ١٩١٤م نفته السلطات العثمانية إلى القيصرية بأمر جاويد باشا إلى بغداد في العام نفسه لأنه مدح طالب باشا النقيب ذلك السياسي الذي ناصب الخلفاء العداء وكان من أكبرخصومهم.

---

(١) جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق . ج ٢ ، ص ٩٧ .

وقد فقد في هذا المنفى باقي حريته ـ كما يقول ـ إلا أن السلطات العثمانية أطلقت سراحه.

**مشاهير الصحفيين في الدولة العثمانية :**

وقد اشتهر أغلبهم من خلال أكثر من جريدة أو مجلة ، إضافة إلى ماهم من مؤلفات وهي أسماء كثيرة أشهرمن أن تذكر .

ومن توفير العناء على من يريد بحث تاريخ الصحافة في العالم الإسلامي أن نذكر المسلمين الذين اشتغلوا وحرروا في الصحف وذلك لسهولة حصرهم فإنهم قلة لا يجاوزون أصابع اليد الواحدة بخلاف صحف وكتاب أهل الذمة فإنه البحر الذي لاساحل له .

**وبالإضافة إلى ماسبق ذكره فهذه أسماء أشهر النصارى في الصحافة :**

* يوسف الشلفون .
* إبراهيم سركيس .
* حنابك أبومصعب .
* سليم الخوري .
* فرنسيس حراش .
* د. كرنيليوس فان ديك .
* سليم البستاني .
* لويس صابونجي .
* يوحنا بلو اليسوعي .
* إبراهيم اليازجي .
* أديب بك اسحق .
* نقولا لاتتاش .
* يعقوب صروف .
* خليل سركيس .
* فارس نمر .
* المطران حبار سيموس مسرة .
* سليم مياس الشلفون .
* سلمان البستاني .
* نجيب البستاني .
* سليم دي نوفل .

كل هذه الأسماء السابقة في بيروت وحدها، وهذا ليس حصراً لها كلها

بالطبع، فكيف بباقى نواحى الدولة العثمانية، وقد بلغ مجموع الأعلام الذين اشتهر عنهم الاشتغال بالصحافة، بل تولوا هم بأنفسهم تأسيس عدد من الصحف في الفترة الأولى لنشأة الصحافة في الدولة العثمانية مايقرب من خمسين رجلاً في بيروت لوحدها في القرن التاسع عشر فقط (١٨٠٠) على أيدي حملة نابليون حيث ظهرت أول جريدة باللغة العربية للوجود، أما أول صحيفة باللغة العربية يصدرها عربي فكانت سنة ١٢٧٢هـ ـ ١٨٥٦م في الأستانة على يد رزق الله حسون الحلبي ( نصراني ) سنة ١٣١٧هـ ـ ١٩٠٠م تقريباً .

من هؤلاء الخمسين أربعة فقط عرفوا بأنهم مسلمون ولاأقول عرفوا بدفاعهم وتبنيهم قضايا المسلمين من هؤلاء الأربعة رفاعة الطهطاوي ، الحاج حسن بيهم وغيرهما . أى نسبة المسلمين أقل من ١٠% من مجموعهم .

أما عن مشاهير الصحافيين من أهل الذمة في بقية نواحي الدولة العثمانية فلا يكاد يختلف الوضع عما سبق ذكره في الشام أو بيروت خاصة . فمن أبرزهم:

* البطريرك غريغوريوس الرابع .
* الياس بك مطر .
* جبرائيل دلال .
* عيسى اسكندر المعلوف .
* القس توما أيوب .
* جريانا مراش .
* خليل غانم .
* عبد الله مراش .
* الشيخ أبو نظارة ( يعقوب صنوع ) اليهودي .
* ميخائيل عوطر .
* يوسف باقوس .

يقابلهم من المسلمين عبد الرحمن الكواكبي ـ واشتهر في جريدته الشهباء ، وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده إشتهرا بمشاركة بعض الصحف اليهودية ـ كما سيأتي ذكره إضافة لصحيفة العروة الوثقى .

وقد كانت بلاد مصر مأوى الصحافة المهاجرة من بلاد الشام بعد الضغوط التي واجهتها من الدولة العثمانية ، فكان أولئك النصارى في لبنان وبيروت خاصة هم الذين على أكتافهم تأسست النهضة الصحافية في مصر والتي فاقت كل الأقطار في ذلك الوقت، فقد بلغ مجموع ماكان يصدر منذ تكوين الصحافة في عام ١٢١٤هـ ـ ١٨٠٠م إلى ١٣٤٨هـ ـ ١٩٣٠م من مجلات وجرائد ١٣٩٨ على اختلاف مدن مصر ويتركزهذا العدد الكبير في القاهرة فقد بلغ مجموع مايصدر فيها من جرائد ومجلات ١٠٣٨ [١] .

هذا العدد الكبير من المجلات والجرائد في مصر كان لأهل الذمة نصيب الأسد حتى اليهود وهم يشكلون أقلية في مصر لايتجاوز عددهم عشرات الآلاف من ( ٤٠ ـ ٦٠ ) ألف يهودي إلى احتلالهم لأرض فلسطين . على هذا العدد الذي يعد قليلا . وهو مبالغ فيه أيضاً ـ إلا أنها كانت تتمتع بكل الحريات، سواء الاقتصادية التي سيطروا عليها ، فأول أربعة بنوك في مصر من أملاكهم بالكامل ـ ولم يسمح لغير اليهود بافتتاح بنوك [٢] .

وكذلك الحرية الفكرية فكان منهم الأدباء والشعراء ـ بل مايسمى بالفنانين والمطربين وكان لهم محبين ومريدين من المسلمين، ولاأقصد عوام المسلمين بل من المحسوبين على الدعوة والإصلاح ، فهذا جمال الدين الأفغاني لما قدم على مصر سنة ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م وعاش بها ثماني سنوات كان مريدوه من شباب المسلمين والنصارى واليهود على حد سواء[٣] بل كان يعقوب صنوع[٤] مريداً قربه الأفغاني إليه ، واقترح عليه توجيه مسرحه نحو الموضوعات

(١) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) لما حاول طلعت حرب فتح بنك خارج نطاق اليهود .... وما فعل به ...

(٣) علي شلسش : اليهود والماسون في مصر ص ٨٤.

(٤) سبقت نبذة عنه في رجالات الصحافة ( يهودي صحفي - موسيقار - ممثل - تاجر ...

الاجتماعية ، ثم اقترح عليه إصدار صحيفة بعد تعطيل مسرحه ، وكان يمده لبعض كتاباته.

وبعد رحيل صنوع إلى باريس عام ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م تقرب إلى الأفغاني عدد من شباب اليهود في الإسكندرية ، ودعوه إلى الخطابة ، ونظموا له حفلاً ألقى فيه خطبة خطيرة في ذلك الوقت ونادى فيها بتكوين حزب وطني وعلى إثر ذلك ظهرت "جمعية مصر الفتاة" في مطلع ١٢٩٦هـ - ١٨٧٩ م على أيدي شباب اليهود في الإسكندرية [(١)] .فإذا كان هذا حال المجدد كما يعتبره تلاميذه أمثال الإمام محمد عبده أو غيره من المتأثرين ببهرج ينشرعنه.!!

فماذا تظن بغيرهم من المستغربين ، والمتفرنجين الذين يحملون أسماء أحمد وعلي وعمر ، .. في هذا الوسط الذي عشش فيه الجهل على أبناء المسلمين وانحرفت المفاهيم والموازين عندهم ، واستطاع اليهود - خاصة - من أهل الذمة في مصر لوحدها ، إصدار مايقرب من خسمين صحيفة، ويعد ذلك ازدهاراً على المستوى الثقافي الذي اتيحت لهم فيه حرية التعبير أو إن شئت فقل التخريب - وذلك في الفترة من ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م ، ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م فقد كان معظم هذه الصحف بالعربية [(٢)] .

بالإضافة إلى ذلك العدد فكانوا يسيطرون على ماينشر في غير صحفهم تحت تأثير ضغوطهم الاقتصادية . وامتلاكهم لكبرى شركات الاعلانات منذ بداية هذا النشاط الاقتصادى في مصر - على رأسها شركة الإعلانات الشرقية ، والذى كان مديرها يهوديا يدعى هنرى حاييم ، وكذلك كان مدير الإعلانات

---

(١) علي شلش : اليهود والماسون في مصر . ص ١٤١ .

(٢) علي شلش : المرجع السابق ص ١٤٢.

في الأهرام ، وفي دار الهلال يهودياً [١] .

والسبب في سيطرتهم على مؤسسات الإعلان والدعاية أن معظم محال التجارة والبنوك والمؤسسات في مصر كانت في يد اليهود [٢] . وقد استخدمت هذه الإعلانات لما تشكله من دخل مالي للصحيفة وسيلة ضغط على أصحاب هذه الصحف لما ينشر ومالا ينشر مما يوافق أهواء اليهود .

فقد كانت الإعلانات تعطى للصحف التي تؤيد اليهود أو التي لاتعارضهم ، وتعطى أيضاً للصحف المعارضة كطعم في البداية فيظهر بعدها موقف الصحيفة من اليهود .

وعندئذ وقبل أن نفصل الحديث بصحافة أهل الذمة عموماً ، أوالنصرانية على وجه الخصوص نذكر بأن الصحفيين اليهود في مصر والذين كان لهم دوراً بارزاً في الفساد الفكري والخلقي و.. وقد ترجم لبعضهم من قبل كيعقوب صنوع ، ونذكر هنا غيره منهم :

* الحاخام فرج مزراحي : وكان يدعو صراحة إلى وطن قومي لليهود من خلال جريدته

* مراد فرج ليشع : ١٢٨٢هـ ـ ١٨٦٦م ، ١٣١٣هـ ـ ١٨٩٦م وهو أبرز كاتب يهودي مصري بالعربية ـ كان محامياً من طائفة القرائين .

* البرت موصيرى .

* سعد ليتو مالكى : وهذا بالإضافة لنشاطه الصحفي أصدر مجموعة من الكتب والرسائل والقصص الأدبية وكان يعد بعد مراد فرج من أدباء اليهود بالعربية .

---

(١) سعيدة محمد حسني : اليهود في مصر ( ١٨٨٢-١٩٤٨م ) ص ١٤٣.

(٢) المرجع السابق : ص ١٤٣ ـ ١٤٤.

* هارون تركى حداد .

* الفريد بلوز .

* صادق سعد : واشتهر بكتاباته السياسية [١] .

وجميع هذه الأسماء ممن اشتهروا بصحفهم العربية ، وهناك عددٌ آخر قد يفوقهم ممن كتبوا بالعبرية أو الفرنسية أمثال شلوموا فران، وأنابيل أهارون بن شمعون ، مسعود حيي بن شمعون ، وبالفرنسية موريس قارحي ، نوري قارحي رينيه ، يوسف قطاوي ، أما أهم الصحف والمجلات اليهودية فنذكر منها :

١ـ أبو نظارة زرقاء : لصاحبها ومحررها ومؤسسها وموزعها يعقوب صنوع وقد صدرت عام ١٢٩٤هـ ـ ١٨٧٧م وإن كانت تعبر عن الرأي العام في مصر كما تدعيه من نقد للظلم والاستبداد إلا أن اليهود يعتبرونها ممثلاً لرأيهم في مصر . وبعد أن منعت من داخل مصر انتقلت إلى باريس بأسماء كثيرة سبقت الإشارة إليها في ترجمة يعقوب صنوع .

٢ ـ جريدة الحقيقة : وقد صدرت في الإسكندرية سنة ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٩م أصدرها الحاخام فرج مزراحي واتجاه هذه الجريدة غير واضح وغير متخصصة إلا أنها كانت تدعو لوطن قومي لليهود [٢].

٣ـ جريدة التهذيب : لصاحبها مراد فرج وكانت تصدر في القاهرة ثلاث مرات في الاسبوع من سنة ١٣١٩هـ ـ ١٩٠١م ، ١٣٢١هـ ـ ١٩٠٣م، كما أصدر مراد فرج بعدها صحيفة الإرشاد سنة ١٣٢٦هـ ـ ١٩٠٨م .

---

(١) انظر علي شلش : المرجع السابق ص ٤٢-١٣٣ ، عواطف عبد الرحمن : ( اليهود المصريون صحفهم ومجلاتهم ) رسالة ماجستير من كلية الإعلام بجامعة القاهرة ، سهام نصار : صحافة اليهود العربية في مصر ، ١٨٧٧ - ١٩٥٠م، سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ١٩٤ / ط١٩٦٨ دار الكتاب العربي.

(٢) انظر سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ص ١٩٤.

٤ـ جريدة اسرائيل : اسبوعية أصدرها البرت موصيري . بثلاث لغات ، عربية، وعبرية، وفرنسية واتجاهها صهيوني .

٥ـ جريدة الشمس : مصدرها سعد يعقوب مالكى وهي اسبوعية صهيونية بحتة .

٦ـ جريدة الاتحاد الاسرائيلي : أصدرتها جمعية الاتحاد الاسرائيليين القرائين وهذه الجريدة باللغة العربية .

واستمرت الجمعيات الصهيونية في إصدار مجلات وجرائد سواء مصرحة أو غير مصرحة كمجلة الشبان القرائين وهي مجلة دينية ، ومجلة الكليم وجريدة نهضة اسرائيل، وتقول سهام نصار في رسالتها عن الصحافة اليهودية في مصر: " أن الصحف اليهودية العربية منذ عام ١٢٩٤هـ ـ ١٨٧٧م إلى الاحتلال بلغ ٣١ صحيفة وهذا يعد عدداً كبيراً كما ذكرت من قبل بالمقارنة مع عدد اليهود في مصر . وعدد الصحف التي أصدروها بالفرنسية ١٠ عشر صحف على الأقل في الفترة نفسها [١].

وهناك نصوص وثائقية تبين اهتمام اليهود بالصحافة ودورها في التاثير على العالم ، ولايستغرب أويستنكر هذا الاهتمام بالإعلام أو الصحافة خصوصاً على اليهود ليس في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم أجمع ـ أوروبا وأمريكا.

وهذا ماكان يوصي به حكماؤهم في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم وجمعياتهم السرية المتشرة في العالم .

سيطرة اليهود على الصحافة ووسائلهم في ذلك :

يذكر ( وليام عاي ) فى كتابه المشهور (أحجار على رقعة الشطرنج) . . عن يهودي ألماني أسس في سنة ١١٩٠هـ ـ ١٧٧٦م جمعية يهودية سرية جميع

---

(١) علي شلش : المرجع السابق ص ٤٢ - ٤٣.

أعضائها البالغ عددهم ٢٠٠٠ ألفين من اليهود وأطلق عليها اسم جمعية النورانيين ويدعى مؤسسها آدم وايزهاوبت وقد وضع آدم هذا تعليمات لتحقيق أهداف الجمعية ـ التنظيم في السيطرة ـ على العالم، وكان البند الرابع في التعليمات ينص على : (على النورانيين الوصول إلى السيطرة على الصحافة وكل أجهزة الإعلام الأخرى والسيطرة على الأخبار) [(١)].

فليس الأمر قاصراً على الصحافة فقط وإن كانت أهمها في ذلك الوقت، بل كل وسائل الإعلام كما رأينا من يعقوب صنوع، وكما هو مشتهرعن فرسان السينما العربية أو مايسمى بالنجوم: فإنهم رجالاً ونساءً من اليهود في الغالب أبرز من سيطر عليهم اليهود.

وفي عام ١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م عبر الحاخام اليهودي "راشورون" في خطاب ألقاه في مدينة براغ (إذا كان الذهب قوتنا الأولى للسيطرة على العالم فإن الصحافة ينبغي أن تكون قوتنا الثانية)[(٢)] .

ولعل من أبرز مايبين اهتمام اليهود بالصحافة خاصة والإعلام عموماً ، ماخصص في البروتوكول الثاني عشر من البرتوكولات الموسومة بـ " بروتوكولات حكماء صهيون" حيث وضحت فيه الأساليب الناجحة للسيطرة على وسائل الإعلام وخاصة الصحافة التي كانت أقوى أقنية الاتصال الجماهيري آنذاك حيث جاء فيها :

ـ لن ينفعنا أن نسيطر على الصحافة الدورية فحسب، بل علينا أن نظفر بإدارة شركات النشر لكي لا نكون عرضة لهجمات النشرات والكتب .

ـ إن وسائل الإعلام التي يجد في الفكر الإنساني ترجماناً لها يجب أن تكون خالصة لنا في الدنيا .

---

(١) انظر للأهمية وليام غاي كار : أحجار على رقعة الشطرنج . ص ٩٠ – ١٠٠. دار النفائس

(٢) زياد أبو غنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية ص ١١ – ١٢.

ـ إن الطباعة يجب أن تكون تحت سيطرتنا .

ـ الآدب والصحافة هي أعظم قوتين إعلاميتين وتعليميتين خطيرتين ، ويجب أن تكونا تحت سيطرتنا .

ـ يجب أن لا يكون لأعدائنا وسائل صحفية يعبرون فيها عن آرائهم ، وإذا وجدت فلابد من التضييق عليها بجميع الوسائل لكي نمنعها من مهاجمتنا .

ـ لن يصل طرف من خبر إلى المجتمع دون أن يمر علينا ، وذلك بالسيطرة على وكالات الأنباء العالمية وهي قليلة ، وحيث نسيطر عليها لن تنشر إلا مانختاره نحن من هذه الأخبار.

ـ لابد من السيطرة على الصحافة الدورية حتى تصبح طوع أبنائنا ، نهيج عواطف الناس حين نريد ، ونثير الحزبية الأنانية التي تخدم مصالحنا حين نريد ، ونسيطر بواسطتها على العقل الإنساني.

ـ ستكون لنا جرائد ( صحف ) شتى تؤيد الطوائف المختلفة من ارستقراطية وجمهورية وثورية بل وفوضوية أيضاً ، وستكون هذه الجرائد (الصحف ) مثل الإله الهندي فشنو لها مئات الأيدي وكل يد ستجس لنا نبض الرأي العام المتقلب .

ـ سنصدر نشرات تهاجمنا ، وتعارضنا ، ولكن بتوجيه اتهامات زائفة ضدنا مما سيتيح لنا الفرصة كي نقنع الرأي العام بأن من يعارضنا لايملك أساساً حقيقياً لمناهضتنا ، وإنما يعتمدون على الاتهامات الزائفة .

ـ يجب أن نكون قادرين على إثارة عقل الشعب عندما نريد ، وتهدئته عندما نريد ، وسنفعل ذلك بطبع أخبار صحيحة أو زائفة حسبما يوافق غرضنا وسننشر الأخبار بطرقنا الخاصة بحيث يتقبلها الشعب ويصدقها ، ولكننا يجب أن نحتاط جيداً قبل ذلك لجس الأرض قبل السير عليها .

- يجب أن نشجع ذوي السوابق الخلقية على تولي المهام الصحفية الكبرى وخاصة في الصحف المعارضة لنا ، فإذا تبين لنا ظهور أية علامات للعصيان من أي واحد منهم ، سارعنا فوراً إلى الإعلان عن مخازيه الخلقية التي نتستر عليها ، وبذلك نقضي عليه ، ونجعله عبرة لغيره [١] .

**نماذج مما يكتب في صحافة أهل الذمة :**

١ـ **الأهرام** : صدرت هذه الصحيفة في أغسطس واتخذت الصحيفة صورة أهرامات الجيزة شعاراً لها ( وهذه بداية دعوتها من خلال اسمها وشعارها ) فانطلاقاً من حضارة فرعونية خاصة بمصر تقوقع على نفسها بعيداً عن العالم الإسلامي الذي ظل ومايزال بعدها رائد العمل العلمي والسياسي ، لما وهبت من كفاءات مبكرة وماعرفت به من كثافة بشرية تصنع منها قوة عظيمة لوتحركت بوعي وعرفت درب العمل المنظم على هدى وبصيرة، وعلى الرغم من ذلك فإن جريدة الأهرام لم تستطع أن تخفي نزعتها الطائفية حتى في عددها الأول حين أعلن محررها الخواجا سليم أفندي تقلا أسماء موزعي الجريدة في الصفحة الرابعة من العدد الأول حيث وردت أسماء الموزعين في مختلف مدن القطر المصري وشتى أقطار البلاد العربية على النحو التالي :

في الإسكندرية : الخواجا حبيب غرزوزي .

في الاسماعيلية : الخواجا موسى بطابني .

في المحلة الكبرى : الخواجا حبيب بولاد .

في المنصورة : الخواجا جبرائيل لباد .

في طنطا : الخواجا دهان دهان .

وهكذا في يافا : الخواجا سليم أفندي كسار .

---

(١) زياد أبوغنيمة : السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام ص ١٣ ـ ١٤ .

في بيروت: الخواجا فرنسيس راهبة واسكندر كسيب .

في دمشق : يوسف أفندي مطران .

في بغـداد : سليم أفندي فرج .

وقد ذكر جميع موزعيه النصارى في الأقطار المسلمة . على هـذا المنـوال الذي تخيرنا منه، وعلى هذا الذكر فإن كلمة الخواجا ليست فيما أوردناه من عندنا، وإنماهي اللقب التبجيلي الذي يوحي بالتقدير والاحترام في أوساط غير المسلمين، وقد أوردته جريدة الأهرام مضافاً لهذه الأسماء تقديراً لأصحابها واحتراماً، لا إساءة لهم وامتهاناً .. لكنها حقيقة تكشف صورة من صور التكاتف والتحيز بين فئة الخواجات العاملة في ديار الإسلام [١] .

**نماذج من أخبار العدد الأول من الأهرام :**

١ـ قوبل حضرة ملك اليونان وقرينته في لوندرة بما يليق بمقامهما وقد أكرمت حضرة ملكة إنجلترا المعظمة جلالة الملك بأفخر النياشين .

٢ـ انفجرت حلة ( مرجل ) البارجة البحرية الإنجليزية المسماة ( ثندر ) بينما كانت تحت الامتحان الأول بعد نهاية بنائها ، ومات بسبب ذلك ٤٥ رجلاً صار دفنهم باحتفال وقد أرسلت جلالة الملكة أحد خواصها ليتفقد أحوال أعيانهم وأنعمت عليهم بمائة ليرة إنجليزية فضلاً عن إبقاء المرتب الذي كان لرجالهم .

٣ـ إن حضرة امبراطور ألمانيا قد ترك سالسبوري ليذهب منها إلى كاستين، وقد رافقه إلى محطة سكة الحديد حضرة امبراطور دولة أوستريا والمجر وهناك ودعا بعضهما متعانقين ثلاث مرات متتابعة !!!

ولم تنس جريدة الأهرام في عددها الأول بعد أن سردت أخبار الأباطرة

---

(١) يوسف العظم : رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر . ص ١٢ ـ ١٤ .

والملوك والأمراء والقادة والجنرالات في أوروبا أن تزين العدد بخبر واحد يقول " بأن الأخبار الواردة من سوريا تعلن بأن السكينة مستقرة في جميع أنحاء الولاية وأن أحوال التجارة مشوشة والإفلاس في بعض المدن متكاثر " ، ثم ساقت خبراً آخر عن لبنان تعلن فيه أن دولة رستم باشا المتصرف وصل إلى الأستانة العلية بالصحة والسلامة، كما لم تنس جريدة الأهرام مصر بحكم صدورها في مصر فنشرت صورة دعوة من تاجر بالإسكندرية رفعها ضد زميل له يطالبه فيها بسداد ماعليه من ديون [(١)] .

**٢ــ دار الهلال :** ومن هذا المنطلق التضليلي وهذا التحرك الإعلامي المخادع ، وعلى هذا الأساس القلمي المزور أقامت الصليبية في مصر داراً أخرى للتضليل جعلت الهلال شعارها لا الصليب حيث ولدت دار الهلال ، التي أسسها أحد مزوري تاريخنا القديم والحديث الخواجا "جرجي زيدان" عام ١٣٠٩هـ ـ ١٨٩٢م ، فضمت الدار عدداً من حملة الأقلام الذين كانوا صحفيين مبتدئين تعلموا على أيدي الخواجات من آل زيدان ليعملوا على مسخ التاريخ الإسلامي وطمس معالم الحضارة الإسلامية الصافية والتشكيك في وحدة العقيدة والفكر في الأمة الإسلامية الواحدة .

لقد كان جرجي زيدان من الدهاء بحيث لم يجعل " الصليب " عنواناً لداره الصحفية أو مجلته الشهرية أو كتبه ورواياته الأدبية والتاريخية وإلا لما دخلت بيتاً ولما انفسحت أمامها المجالس والمنتديات .

ولم تصدر دار الهلال صحيفة واحدة بل عدداً من الصحف تخصص كل واحد منها في لون معين من الفكر وأسلوب خاص من المعالجة ، رغم أنها تلتقي جميعاً على خدمة التغريب والتفرنج والدعوة إلى استيراد الفكر والمباديء مثلما تستورد الأحذية والثياب .

---

(١) هذه النماذج والأخبار نقلاً عن : يوسف العظم ـ المرجع السابق ص ١٥ ـ ١٦ .

وقد بلغ من حقد القائمين على أمر دار الهلال أنهم قسموا كُتَّاب مصر إلى فئات عديدة. فهذه فئة تكتب عن الإسلام الرسمي فتناقش قضايا بدهية في حياة المسلمين لتصل في نهاية المطاف إلى موقف من مواقف التشكيك أو الإلحاد .

وهناك فئات أخرى كثيرة تثير الجيل الجديد بالكأس والجنس وتحرك المرأة بدغدغة عواطفها والمطالبة بما يسمى بالحقوق والمساواة المطلقة بين الرجل والمرأة.

أفكار ضالة دعت لها دار الهلال في صحفها منها فصل الدين عن الدولة، وتبني اللغة العامية وهجر لغة القرآن، كما حملت لواء دعوة الاختلاط وهجرالإسلام والتخلى عن العادات والتقاليد الإسلامية الكريمة لتحل محلها العادات المستوردة من الغرب الكافر .

ونشأ في المجتمع المسلم العربي فكر مدمر يتناول حشداً من الأسئلة التي توحي بالضياع وتشير إلى غفلة وجهالة بحقيقة هذا الدين مثل :

- لماذا لا نهجر الدين كما هجره غيرنا وننهض .
- لماذا لا يقوم مجتمعنا على أسس من القيم والعادات الغربية الهابطة طعاماً وشراباً وسلوكاً ونظام حياة .
- لماذا تتحدث في السياسة وقد بدأت حديثك بالدين ؟ .
- لماذا لا نصلي ونصوم ثم نطبق ديمقراطية الغرب أو اشتراكية الشرق ؟ .

وقد نهجت صحف دار الهلال نهجاً خاصاً في التقييم على كتاب الفكر الإسلامي الملتزم والأدب العربي المرتبط بثقافة القرآن [١] .

... هذا نموذج لما كان ولازال ينشر في صحافة أهل الذمة .

فهل من يقظة إسلامية تمحو هذه الغمامة التي طال سوادها على شعوب المسلمين ، ولازالوا يتتلمذون على أفراخها !! حتى وصل الأمر إلى الآثار الأليمة التي يعاني منها المسلمون اليوم .

---

(١) انظر المرجع السابق : ص ٢٢ ، ٢٥ .

## المبحث الخامس

## إحياء الثقافات القديمة ومحاولة ربط الشعوب بماضي ما قبل الإسلام باسم علم الآثار

من المطارق التي ساهمت في هدم الخلافة وشاركت في إقصاء الشريعة تحت مسمى العلوم العصرية والاكتشافات العلمية ماسمي بعلم الآثار الذي هو وليد القرن الماضي فقط ،ولكنها موجة من الموجات الجديدة التي ركبها أعداء الإسلام ونفذوا من خلالها إلى أبواب كثيرة في حياة المسلمين استعصى عليهم قبلها ولوجها .

كما حققوا باسمها أهدافا عند النظر إليها للوهلة الأولى يظنها المسلم ضرباً من الخيال.

لذلك ولأهمية هذا العنوان خصصته بمبحث مستقل وإن كنت سأكتفي ببعض الإشارات المتناثرة مما يقرب أو يولد لنا صورة واضحة إن شاء الله عن هذا المصطلح عند المسلمين أولاً من خلال كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومعرفة ما إذا كان لهذا العلم أصلاً عند المسلمين أوهو فن من فنونهم العلمية .

ومن ثم الحديث عن مدلول مايسمى بعلم الآثار عند أرباب هذا الفن من الغربيين المؤسسين . وكذلك محاولة إلقاء الضوء على ماتهدف إليه بعثات التنقيب عن الآثار في بلاد المسلمين مع بيان الشواهد التاريخية والوقائع العصرية قدر المستطاع ..

والتي من خلالها نتوصل إلى النتائج التي تبرز لنا حقيقة مايسمى بعلم الآثار وماهو موقف المسلم منه ومن أبحاثهم المتابعة ونتائجهم التي حولوها من فرضيات إلى نظريات ومسلمات لاتقبل الجدل .

**مفهوم الآثار في نصوص الشرع من القرآن والسنة :**

إن أصل كلمة آثار : وهى جمع أثر جاء في القرآن وفي السنة النبوية المشرفة . وتكرر ذكر هذا المفهوم داعياً إلى الوقوف والتامل في الآثار المادية وأخذ العظة والعبرة منها ، إذن القرآن لكريم أورد كلمة آثار نفسها بنصها في قوله تعالى في سورة غافر﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ ثم قال بعدها﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) ﴾ [1] .

وكما قال تعالى أيضاً ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) ﴾ [2] .

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى

---

(١) سورة غافر آية ٨٢ ، ٨٥.

(٢) سورة الفجر من آية ٦ ـ ١٣ .

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [١]. والمراد بهذه الآية أي ألم يكن للناس وهم يظلمون في جنبات الأرض عيون أو قلوب أو آذان فيشاهدون بها آثار القوم التي تنبيء عن مصير المشركين الذين أهلكهم الله بظلمهم وبشركهم علَّهم يعتبرون فلا يقعون فيما وقع فيه غيرهم من الشرك بالله مالم ينزل به سلطانا .

إذن فالله سبحانه وتعالى أمرنا أن ننظر في الأرض وأن ننظر في الآثار ولكن لغاية سيأتى تفصيلها، ونستشفها من الآيات الكثيرة جداً التي تأمرنا بالتفكر والنظر والسعي في الأرض ومنها قوله تعالى في سورة الفرقان ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾[٢] والمقصود بالقرية قرية سدوم بالأردن.

وقال تعالى :﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَـٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمْ ءَايَـٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾[٣] وأصحاب الحجر هم قوم ثمود وقوم صالح الذين أشركوا بالله وأفسدوا في الأرض ، وفيهم يقول الله سبحانه وتعالى:﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ

---

(١) سورة الحج من آية ٤٢ - ٤٦ .

(٢) سورة الفرقان آية ٤٠

(٣) سورة الحجر من الآية ٨٠ إلى الآية ٨٤.

(٤) سورة النمل من الآية ٥٠ إلى الآية ٥٣ .

ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

ثم قال في حق هؤلاء القوم الذين كذبوا أنبياءهم أشركوا بالله تعالى.﴿ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾[2]. وهذه الآيات وغيرها الكثير في القرآن الكريم تدل دلالة واضحة عند المسلم أن المقصود من هذه الآثار والتعرف عليها والأمر بالنظر والسعي في الأرض أن تقترن بأخذ العبرة يعني تدعو الدارس والمشاهد ( السامع والباحث ) إلى تدبر أحوال نفسه وأسرته ومجتمعه فلا يدعها أو يدعهم يقترفون مااقترف غيرهم من الآثام فيهلكم الله بعذاب أليم فيحل بنا ماحل بمن قبلنا ممن أعرضوا عن الله سبحانه وتعالى فلم يبق لهم إلا هذه الآثار التي تدل على تعذيب الله لهم، فإنهم أوتوا من القوة مالم نؤتاه ومع ذلك دمرهم الله وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ومما جاءت به لفظة آثار أيضاً على معاني أخرى فيها، قوله تعالى في سورة يس﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ﴿١٢﴾ ﴾[3].

وقد وردت مادة هذا اللفظ في القرآن الكريم في مواضع كثيرة في سورة المائدة والصافات ويس والكهف وغيرها من سور القرآن الكريم، وعليه يمكننا أن نقول إن مفهوم الآثار في كتاب الله هو دراسة مخلفات الأمم السابقة أو النظر في مخلفاتها سواء المادية منها أو الفكرية ذلك لأدب المسلم وأخذ العظة والعبرة

---

(١) سورة الاحقاف الآية ٢١ .

(٢) سورة الأحقاف من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٥ .

(٣) سورة يس آية ١٢ .

وأن لا تقع فيما وقعوا فيه من انحرافات عن ما أمرهم الله به من التوحيد، فأثار القوم مخلفاتهم التي يعرفنا القرآن ببعضها مما نراه ولايزال باقياً إلى وقتنا الحاضر كمدائن صالح وءاثار الفراعنة وأصحاب الأخدود وغيرهما من الآثار المشاهدة على الأقوام السابقين أو مما لم يبق كقوله تعالى ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [1].

لذا يمكن تعريف علم الآثار: "بأنه علم ودراسة مخلفات الأمم السابقة سواء المادية منها أو الفكرية الثابتة أوالمنقولة الظاهرة منها أو المطمورة وذلك لتحقيق أهداف عامة" [2].

بالطبع لايفهم من الكلام السابق أن القرآن نص على شيء اسمه علم الآثار أو فن من الفنون يدعى بالآثار أو ما شاكل ذلك مما يطلق عليه الآن أو يصنف في أنواع العلوم الإنسانية أبداً، بل لم يعرف ذلك في القرآن ولا في السنة بل ولا في حياة المسلمين أبداً كما ستراه في هذا المبحث .

**نشأة علم الآثار**

هذا العلم من الفنون الحديثة وظهر في بداية القرن العشرين وكان بداية الاهتمام به هو الاهتمام بما تركه السابقون وماخلفه الأقدمون من تراث وغيره .

وقد عرف الدكتور / عباس سيد أحمد أستاذ قسم الآثار بجامعة الملك سعود ( ليس من اليسير تحديد الكيفية التس بدأ بها علم الآثار إذ أن مولده كان نتاجاً لمخاض طويل يصعب تحديده كحادثة معينة، ولايعرف فن من الفنون

---

(١) سورة الدخان آية ٢٢، ٢٤ ، ٢٩ .

(٢) انظر جمال عبد الهادي ووفاء رفعت : علم الآثار ص ٥ ، ٦. طبعة درا الشروق جدة

العصرية أو السابقة لاقا مالاقاه فن الآثار من تعقيد في بداية نشأته وخلاف بين الباحثين في نشأة هذا العلم ، وإن كانوا متفقين على أنه من نتاج هذا العصر كعلم مستقل .

إلا أنه مما أثبته الرحالة المكتشفون وأصحاب الهوايات وأصحاب الثراء الذين كانت هواياتهم اقتناء الأشياء النادرة من التحف، أحياناً بالشراء أو بحفر بعض المواقع بل أحياناً بنبش القبور . وقد استطاع بعضهم تكوين مخزون هائل من التحف القديمة وأصبحت لديهم متاحفهم الخاصة وقد أدى ذلك إلى انتشار تجارة التحف وبالتالي البحث عنها وتشجيع جمعها والحصول عليها وكان هناك صنف آخر وهم سراقون اشتهرت تسميتهم بصائدي الكنوز سعوا في بعض المواقع تخريباً وخاصة المقابر الملكية بهدف الحصول على القطع المعدنية الثمينة ثم أخذ هذا الجمع والاهتمام بالآثار اتجاها علمياً كما يسمونه وهو يربط كل نوع من التحف وجيل معين بعصر أو باشخاص معينين أو بشعوب معينة وكنتائج للجمع المكثف للتحف تكدس لدى بعضهم مجموعات ضخمة وأخذت تتحول من مقتنيات خاصة إلى متاحف تملكها دول كمجموعة إياس أشمول التي انبثق عنها المتحف الأشمولي باكسفورد عام ١٠٩٣هـ ـ ١٦٨٢م،كما أن مجموعة سيب في هولندا تحولت إلى متحف بترسبرج بعد أن اشتراها بتر الامبراطور الروسي في عام ١١٣١هـ ـ ١٧١٩م وكذلك حال مجموعة سلون في بريطانيا نجم عنها المتحف البريطاني ١١٧٢هـ ـ ١٧٥٩م [١] .

فهذه هي بداية نشأة علم الآثار، وقد أشار الدكتور عباس سيد أحمد إلى أن أول من أطلق كلمة آثار بريطاني يدعى دانيا ولنسون الذي ضمنها كتاباً له صدر عام ١٢٦٧هـ ـ١٨٥١م تحت مسمى "آثار وحوليات ماقبل التاريخ باسكتلندا"

---

(١) د. عباس سيد أحمد محمد علي : علم الآثار المولد والنشأة . مقالة بمجلة المنهل عدد ٤٥٤ في سنة ١٩٥٣م عدد في رمضان وشوال ١٤٠٧هـ ص ١٢-١٣.

والمقصود بالعبارة تلك الفترة السحيقة من حضارة البشرية السابقة لظهور الكتابة [١].

وقد نشأ هذا العلم وظهر أول ما ظهر في أوروبا ، وعند باحثيهم الذين كانوا يسمون أول المشتغلين بهذا الأمر مهوسين ، ويوصمون بالجنون والسفه والتفاهة ونحو ذلك ، ومن هؤلاء الباحث الفرنسي جاك بيرت الذي أبدى اهتماماً بدراسة المخلفات القديمة من الأدوات الحجرية وعظام الحيوانات واستمر بأبحاثه من سنة ١٢٥٤هـ ـ ١٨٣٨م حتى ١٢٥٧هـ ـ ١٨٤١م فاعتبره معاصروه شخصاً مهووساً ثم بدأ منذ ذلك التاريخ تتوالى الاكتشافات من تقسيم العصور إلى ثلاث عصور العصر الحجري والعصر البرونزي والعصر الحديدي.

وكان هذا الاكتشاف يعد نقله عظيمة في علم الآثار، وتوالت الاكتشافات ليس فقط في بلاد أوروبا وآثار اليونان والرومان بل حتى في بلاد المسلمين وكانت بداية ذلك على أيدي الحملة الفرنسية في مصر حتى عاد البحث عن الآثار المصرية وآثار الفراعنة في حملة نابليون الذي كان معه طائفة من الخبراء المخصصين لهذا الغرض وكان أو ل وأهم وأكبر اكتشاف للآثار المصرية مايسمونه باكتشاف حجر رشيد الذي يعود الفضل الكبير في قراءة النص المكتوب عليه بكامله إلى العالم الفرنسي شامبليون ـ كما يقولون ـ وهو الذي قام بفك الطلاسم الموجودة عليه المكتوبة باللغة المصرية القديمة التي يسمونها بالهيروغلوفية والديمقوطيقية .

ثم توالت بعد هذا الاكتشاف المحاولات لمعرفة المزيد من الآثار الفرعونية حيث قاد جوقاني بلزوني إحدى هذه المحاولات فقام بنبش بعض القبور الملكية، كما قام الألماني كيبس بوس في منتصف القرن الماضي بإعداد وصف جيد لمواقع الآثار المصرية، كذلك بعده الفرنسي اغوست ماريت قام بعمل حفريات واسعة

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤.

في مصر بل قد تولى هيئة الآثار المصرية كأول مدير لها وله يرجع الفضل في إنشاء المتحف الوطني المصري وكذلك الوضع في غير مصر كالعراق وفي آسيا الوسطى وبلاد الشام حيث تولى التنقيب عن آثارها آرغولد توماس، جورج فنلي، هنري فورنك، هنري بوالدلي، وفي العراق مواردين سيرين، ومن الدلائل التي تدلل بها على أن هذا العلم غربي محض لا دراية للمسلمين به ولا اهتمام لهم به الرجوع إلى معاجم أنواع الفنون .

وهذه المعاجم تذكر كل فن وعلم وجد بين الناس سواء كان ممدوحاً أو مذموماً كالسحر والموسيقى و...... فإنك تجد مثل هذه المعاجم تتكلم بالتفصيل عنه ورجاله ، فعند النظر في مفتاح السعادة وهو من أشمل معاجم أنواع الفنون نجده يقول عن علم الآثار : "وهو علم يبحث فيه عن أقوال العلماء الراسخين من الصحابة والتابعين والسلف الصالحين وأفعالهم وسيرهم في أمر الدين والدنيا"[1] .

فهذا هو غاية مايفهم عند المسلمين الأوائل والمصنفين المتأخرين من كلمة الآثار إذا ماذكر علم الآثار فإنه يقصد به آثار السلف الصالح والمرويات النبوية التي من أقواله وأفعاله وسيرته صلى الله عليه وسلم، فتلك الكتب التي تجمع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم هي كتب الآثار وهذا هو مصطلح الآثار عند المسلمين وقد سبق لنا وبينا مدلول هذه الكلمة قبل أن يأتي به الأوروبيون إلى بلاد المسلمين إذ لا وجود لفن يدعى بعلم الآثار في وسط المسلمين في كتاب الله العزيز .

نخرج بنتيجة لا أظن أحداً يجادل فيها وهي حقيقة واضحة أن تأسيس علم مستقل له مقدماته وأدواته ومنظريه يسمى بعلم الآثار ويصنف من العلوم

---

(١) أحمد مصطفى طاش مجدي : مفتاح السعادة ومصباح السيادة في الموضوعات والفنون ج٢ ص ٥٥٢.

الإنسانية المعروفة بالمصطلح العصري إنما هو من بدع اليهود والنصارى ومن اختراعات الغرب، فقد نشأ عندهم فأسس على أيدي رجالهم ، وصنف فيه مؤلفوهم بل وتولاه حتى في ديار المسلمين رجال منهم وتربعوا على أعلى المناصب من خلاله .

**تعريف علم الآثار عند أصحابه :**

لايكاد يتفق خبراء الآثار على تعريف وضع حد معين لفهمه ، إلا أننا نحاول أن نخرج بخلاصة ما يذكرونه في تعريف هذا الفن في مصطلح أهل الفن فيقولون : " دراسة ماصنع الناس ومافعلوا حتى يمكن فهم كل طريقة من طرق حياتهم وذلك لأنهم يزعمون أنه لايمكن أن تظهر صورة كاملة وواضحة لحياة الناس في السابق إلا عن طريق الدراسة الأثرية للأشياء التي قاموا بها وبصنعها "، وهذا هو بداية تعريف علم الآثار ومنهم من يعرفه بأنه "علم يبحث دراسة مخلفات الأمم السابقة المادية لأهداف إنسانية" .

وبالطبع من خلال تلك العبارات يتبين لنا مدى البون الشاسع بين مراد المسلمين وأهدافهم من النظر في ملخفات القوم أو دراستها والتي سبق لنا بيانها في مفهوم القرآن من أخذ العظة والعبر ، ومعرفة نعم الله على خلقه وسنة الله الكونية في هذه الحياة وتداول الملك الذي يعطيه الله لبعض ويمنعه من بعض ويزيله متى شاء ونحو هذه هي نظرة المسلم للآثار .

وبين النظرة الأوروبية المادية البحتة للآثار والنتيجة التي نخرج بها أن لا علاقة للمسلمين بعلم الآثار بالمفهوم الذي يرمي إليه النصارى ، ولا اهتمام لهم بمجرد الماديات الجوفاء التي يحاول أعداء الله هدم التوحيد وإرجاع الوثنية وذبذبة عقائد المسلمين من خلال هذا الفن .

وزيادة في البراهين والتدليل على أن علم الآثار بضاعة صليبية وسلاح من أسلحتهم نذكر أسماء المهتمين بعلم الآثار حتى في ديار الإسلام ..

وأهدافهم من ذلك فنجد ولله الحمد أن لاوجود لعلماء مسلمين بينهم ، بل ولا حتى بالأسماء، وإنما كلهم من اليهود والنصارى. ولما اهتم بعض المسلمين بهذه البعثات الأثرية وشاركوا فيها سواء أفراداً أوجماعات كان دورهم شبه محصور في جمع المخطوطات وتسجيل الكتب والمؤلفات في رحلاتهم إلى البلاد المراد التنقيب عن الآثار فيها .

من أول وأشهر بعثات الآثار في ديار المسلمين تلك الحملة الصليبية الت قادها نابليون على بلاد مصر المسلمة ، وكان عازماً على إقامة امبراطورية شرقية له على أرض مصر ، ولكن مقاومة إسلامية لم تكن بالحسبان أجبرته على النكوص .

وقد استعد نابليون لحملته الفرنسية استعداداً يفوق التصور والوصف لا من حيث العدة والعتاد فحسب، بل من حيث حجم الطاقات العلمية والثقافية أيضاً . والآلآت المطبعية والمخبرية التي جلبها إلى مصر [(١)] ، وإن كان الباحثون لايجزمون بشيء معين في حجم هذه الاستعدادات ولكن ماثبت منها يعد أمراً عظيماً في ذلك الوقت فقد جلب معه كبار الخبراء والعلماء في ذلك العصر في سائر العلوم التطبيقية والتجريبية ومن هم المرجع في علوم الهندسة والطب، وقادة عسكريين وكذلك جهز الحملة بمطبعة عربية متكاملة هي الأولى في البلاد المسلمة ، وأخرى فرنسية وثالثة يونانية، فهذه ثلاث مطابع جلبها معه في حملته على مصر.

كذلك اصطحت معه نوابغ بلاده في الرياضيات، والطب، والجغرافيا، والطبيعة، والهندسة، والفلك، والأدب، والكيمياء، والاقتصاد، والسياسة، والمعادن، وطبقات الأرض، والآثار، وعلم الحيوان، والنبات، وفن العمارة،

---

(١) انظر بالتفصيل : عبد الرحمن الرافعي ـ تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ـ ج١ ، ص ٨٢ ـ ٨٥ .

وهندسة الري، والقناطر والجسور، والميكانيكا، وطائفة من رجال الفنون من رسامين ومغنيين وممثلين وموسيقيين ونقاشين......إلخ .

فبلغ عدد هؤلاء مائة وستة وأربعين عضواً ما بين عالم وأديب ومنقب آثار، وتتألف منهم لجنة العلوم والفنون التي كونها نابليون . ويقول الرافعي في تاريخه عن الحركة القومية في مصر وتطورها ( كما جهز نابليون حملة هذه المجموعة كاملة من الآلآت المطبعية والرياضية وكان فيهم جماعة من أقطاب العلوم ممن يشار إليه بالبنان في فرنسا أمثال مونج العالم الرياضي وبورتليه العالم الكيميائي ، وهما الذان عهد إليهما نابليون اختيار أعضاء البعثة، وقوربييه ولومبو جوفور وأسان هيلبر وغيرهم ) [١] .

قال المسيو نيبرس : "أن نوابغ فرنسا في الحروب والعلوم والفنون قد صحبوا نابليون في الحملة وجذبتهم إليها ثقتهم في قائدها الفتى العظيم وركبوا دون أن يعرفوا إلى أي جهة يقصدون" [٢] .

أصدر نابليون أمره بإنشاء المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي وذلك في ١٢٠٣هـ ـ ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٨م [٣] وضمنه الغرض من إنشائه وبيان اختصاصاته، وهذا الأمر يتألف من ست وعشرين مادة تتلخص فيما يلى :

الغرض من المجمع ـ أقسام المجمع ـ انعقاد المجمع ـ مكتب المجمع ـ أبحاثه .

وذكر في الغرض منه :

١ـ تقدم العلوم والمعارف في مصر .

٢ـ دراسة المسائل والأبحاث الطبيعية والصناعية التاريخية الخاصة بمصر

(١) عبد الرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر ج١ ص ٨٣.

(٢) تسيبرس : تاريخ الثورة الفرنسية ج١٠ ، عن الرافعي ج١ / ٨٤.

(٣) مراسلات نابليون ج٤ وثيقة رقم ٢٠٨٣.

ونشر هذه الأبحاث .

٣ـ إبداء رأيه للحكومة في المسائل التي تستشيره فيها .

وقد يكون هذا الأخير من أهمها وهو هدف رئيسي من أهداف بعثات التنقيب عن الآثار وهو التجسس والتعرف على طبائع الشعوب ليسهل التأثير عليهم .

* أما أقسام المجمع : فمن ضمن أقسامه قسم مستقل للآداب والفنون بأنواعها . ومن أعضائه القسيس رفائيل دموناخيس على أن كل قسم يتألف من اثنى عشر عضواً [(١)] .

**نبذة عن بعض هؤلاء الباحثين والخبراء في البعثة العلمية لنابليون :**

يظن للوهلة الأولى أن أولئك الخبراء ماهم إلا مهندسين وجيولوجيين وأطباء فحسب، بينما عند النظر في انتاجهم ومؤلفاتهم نجد أنهم منصرون أولاً ودعاة حريصون على تحقيق هذه الغاية قبل كل شيء، والأدلة على ذلك ـ أنك تجد عالم الرياضيات هذا وله مؤلف في الوهابية وتاريخها ـ ومهندس الري له مرئيات في طبائع الشعب المصري وتاريخ مصر... وهكذا . ومن الأمثلة على ذلك ...

جومار (١١٩١هـ ـ ١٧٧٧م ، ١٢٧٨هـ ـ١٨٦٢م) : له في مصر أبحاث جغرافية وأثرية، واشترك في وضع كتاب (تخطيط مصر ) وقضى سبعة عشر عاماً مشتغلاً في اظهار الكتاب، وله فيه أبحاث جغرافية وأثرية شغلت عدة أجزاء من الكتاب من أهمها بحث مستفيض عن تخطيط القاهرة القديمة، وانتخب عضواً بالمجمع العلمي الفرنسي مكافأة له على أبحاثه في الآثار المصرية، وله من العمر خمس وثمانون سنة ، وهو معدود في فرنسا من كبار علماء الجغرافية والآثار

---

(١) مراسلات نابليون ج٤ وثيقة رقم ٣٠٨٣. نقلاً عن الرافعي ـ المرجع السابق ١/ ٨٢ .

القديمة.

لاتكري (١١٨٨هـ ـ ١٧٧٤م ، ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م ) : من علماء الرياضيات ومن مهندسي القناطر والجسور ، ومن علماء الآثار، وله أبحاث مستفيضة عن آثار الوجه القبلي وتخطيطها .

كوارتسيز : من خريجي مدرسة الهندسة العالية ( السنترال ) وله كتاب في تاريخ الوهابية ـ كما يسميها ـ من بدء ظهورها إلى سنة ١٨٠٩م.

جالوا (١١٩٠هـ ـ ١٧٧٦م ، ١٢٥٧هـ ـ١٨٤٢م ): منقب في الآثار وله "يوميات" عن الحملة وله عدة أبحاث عن الآثار المصرية نشرت في كتاب تخطيط مصر .

دفيفليه : مهندس قناطر وري وآثار، وله يوميات ، وكان جالوا ودفيفيه متلازمين في أبحاثهما الأثرية .

* **خبراء الآثار في جزيرة العرب :**

١ـ قام الرحالة الأوروبي دي فرتما بزيارة مكة قادماً من دمشق في أوائل القرن السادس عشر .

٢ـ قام المغامر الأسباني بادياني لبلخ بزيارة جدة عام ١٢٢٢هـ ـ ١٨٠٧م تحت اسم "علي بك العباسي" مدعيا أنه أمير مسلم من نسل الخلفاء العباسيين .

وقد ترك كتابات تحوي وصفاً دقيقاً لمكة والكعبة وما كان يجري أيام الحج.

* كتابات جاك بيرين : هو باحث عن جميع الرحالة الذين زاروا شبه الجزيرة حتى عام ١٣٢٢هـ ـ ١٩٠٤م .

* نيوؤر الهولندي (١١٧٤هـ ـ ١٧٦١م ، ١١٧٧هـ ـ ١٧٦٤م) وله كتاب بعنوان وصف بلاد العرب .

* سيتزن الألماني ( ١٢٢٥هـ ـ١٨١٠م ) وقد نقل بعض نقوش ظفار

احدى عواصم دولة سبأ في اليمن.

* هـاليفي ( ١٢٨٦هـ ـ١٨٦٩م ) زار كـل بـلاد الـيمن بمـا فيهـا مـأرب ونجران ونشر أبحاث بالفرنسية .

* جلازر ( ١٢٩٠هـ ـ١٨٨٢م ) .

* ولنذ ( ١٢٤٠هـ ـ١٨٢٥م ) .

* مايلز ( ١٢٨٤هـ ـ١٨٦٧م).

* بوركهارت ( ٥٧٠هـ ـ١١٧٥م) .

* برتون ، فون فريده ، هيرش ، بنت [١] .

*** ومن أهم مَنْ كتب في تاريخ بلاد العرب :**

١ـ دوتي ( ١٢٩٢هـ ـ١٨٧٥م) وقد زار مـدائن صـالح والعـلا والخريبـة منها نصوص لحياتيه وثمودية ونبطية ترجمها له رينان .

٢ـ دايت ننج ( ١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٣م ) زار العلا ومـدائن صـالح والخريبـة وتيماء

٣ـ ورحلة أرنو إلى سد مأرب عام ١٢٥٩هـ ـ ١٨٤٣م وحـرم بلقـيس وضرائب مدينة صرواح وقد نسخ نقشاً قديماً .

وقد نـشر مذكراتـه (فرزنـل) في جـدة عـام ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م في كتابـه (بحوث فى النقوش الحميرية )، وفي عام ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م أصدرت الأكاديمية الفرنسية موسوعة النقوش السامية.

٤ ـ موزل .

٥ ـ جادلين وسافنياك .

---

(١) جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : المرجع السابق ص٢٢ ـ ٢٣.

٦ ـ ديوديناك [1] .

٧ ـ الرحالة برترام توما وهنري سان جون فيلي .

٨ ـ مؤلفات رايسي رويسمان الجغرافية والأثرية في ثلاثة أجزاء .

كل الأسماء السابقة لا تدع مجالاً للشك أن أهل الذمة هم الوحيدون ـ ولا أقول السابقون ـ في التنقيب عن الآثار في البلاد الإسلامية ، وتوجيه اكتشافاتهم الوجهة التي يريدون. أما البعثات الإسلامية والباحثون المسلمون فاقتصرت كتاباتهم الأثرية على تسجيل تاريخ الرحلات على الطراز القديم المعروف عند السابقين أو جمع وتصوير أكبر قدر ممكن من المخطوطات . فهذه هي الآثار عندهم . فمن نماذجهم :

ـ نزيه مؤيد العظم : وكتابه رحلة في بلاد العرب السعيدة سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م .

ـ بعثة الجامعة المصرية ونشاطها في حضر موت .

ـ جامعة الدول العربية وتصويرها لمخطوطات اليمن في بعثتها سنة ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م .

وأخيراً فهذا شاهد آخر على أن علم الآثار منشأة وتطويراً بضاعة غربية غريبة عن المسلمين .

**أقسام علم الآثار :**

ومن الشواهد والأدلة الدالة على أن الباحثين اليهود والنصارى هم الذين ابتكروا هذا المصطلح الجديد في فهم الآثار ... ماوضعوه من أقسام أو تقاسيم للآثار الموجودة على وجه الأرض وأن اهتمامهم اقتصر على الجوانب المادية التي هي مقياس الحضارة عندهم وتسجيلها ورصد مابقي منها ..

---

(١) المرجع السابق ص٥٣ .

فقد جعلوا علم الآثار ثمانية فروع . وليس منها مايهتم بآثار المسلمين أو تاريخ الأنبياء وآثار أقوامهم لأن من أهدافهم كما سنرى طمس التوحيد وتاريخ الدين السماوي بما نظمته من مواقف الأنبياء مع أقوامهم المكذبين .. مما بقي من آثارهم إلى الآن وهذه الفروع كما هي في جامعة لندن كالتالي :

١ـ آثار ماقبل التاريخ .

٢ـ آثار أوروبا الغربية .

٣ـ الآثار المصرية الفرعونية ( الهكسوس ) .

٤ـ الآثار الأشورية ( آثار ما بين النهرين ) .

٥ـ الآثار الرومانية واليونانية ( الوثنية ) .

٦ـ آثار العهد المسيحي القديم والعصور الوسطى .

٧ـ آثار عهد النهضة .

٨ـ الآثار الشرقية ( الهند والصين وفارس ) .

أما الآثار الإسلامية على حسب تصنيفهم كآثارهم في الأندلس وأوروبا وفرنسا وروما واليونان وماهو في بلاد الملسمين الآن قد أسقطها الأوروبيون من حسابهم وتقسيمهم .

**الأهداف التي يرمي إليها علماء الآثار :**

أولا : **إحياء القوميات المندثرة لتفكيك وحدة المسلمين** : من الوسائل التي حرص عليها أعداء الإسلام من أهل الذمة وسبق لنا أن فصلنا القول فيها في مبحث مستقل ، إلا إننا هنا في أسلوب آخر ووجه جديد يتحقق من خلاله تلك الغاية عندهم فعلمنا في مبحث الصحافة كيف سعوا لتحقيق هذه الغاية عن طريق إطلاق أسماء قديمة على هذه الصحف بعضها قد اندثر وأخرى لامفهوم لها عند المسلم، ففي العراق نسمع بصحيفة من أشهر الصحف وهي صدى بابل

من أيدي يهودية .

وفي مصر الأهرام من أيدي نصرانية ، النيل ـ أبو الهول ـ عكاظ ـ الندوة ـ اليمامة ـ مجلة الآثار المصرية . أقلوديوس أبديوحنا مجلة فرعون ومنشئها عبد العزيز رسمي ، وهوالذي يعد له فضل في إحياء اللغة القبطية المنقرضة فقد تعلمها وأتقنها وعلمها وألف فيها وتولى نشرها، وعين مفتشاً في دار الآثار المصرية في القاهرة ١٣٠١هـ ـ ١٨٨٤م [١]. وغيرها من الأسماء التي تنبيء عن إحياء قديم لا قيمة له عند المسلمين ، وهو غرض من أغراض أهل الذمة لإنشاء روابط مختلفة غير رابطة الدين والأخوة الإيمانية .

وقد تبعهم في ذلك بعض المسلمين بوعي أو بغير وعي في تقليدهم في إحياء الرموز القديمة غير الإسلامية وإحياء أسمائها والاهتمام بتاريخها وجعلها أسماء للصحف والنوادي الأدبية أو الرياضية أو الجمعيات وغير ذلك . وهي أيضاً من نتاج دعاة القومية العربية الي عصفت بأكثر بلاد المسلمين ، ولازالت حتى عصرنا الحاضر .

ولقد وجد أعداء الإسلام في الدراسات الآثرية المسوخة فرصتهم التي لا تعوض لإحياء القوميات الفرعونية والعربية و الفارسية والسريانية والكلدانية [٢] .. والبابلية والآشورية وغيرها .

ولقد كان هذا الهدف واضحاً في أبحاث هذه البعثات الأثرية ، وتبني الإعلام وأصحاب الأقلام كل اكتشاف جديد يزعمونه أو يلحظونه ... .

**ثانياً : إحياء الوثنيات القديمة حتى يسهل صرف الأمة المسلمة عن دينها :**

بالطبع لا أقصد بهذا الهدف الذي سعى إليه باحثوا الآثار في البلاد الإسلامية أنهم كانوا يرمون إلى اعتناق المسلمين الوثنيات التي اندثرت وكانت

(١) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ج٤ ص ٣٠٢.

(٢) علم الآثار : مرجع سبق ذكره ص ١٦.

من قبل معبودات لأهالي المنطقة من الآباء والأجداد ، فهذه سذاجة بالغة لو حاولوها .. ولكن كما يقول أحد المستشرقين الصرحاء في كتابه "الشرق الأدنى ومجتمعه وثقافته" ( إننا في كل بلد إسلامي دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ماقبل الإسلام . ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ماقبل الإسلام ، ولكن يكفينا تذبذبه بين الإسلام وبين تلك الحضارات )[1].

للأسف هذه الصراحة عند عدونا ، يجهلها كبار مثقفينا ـ ولا أقصد من يتجاهلها عن خبث بل عن غفلة وسذاجة ـ فتجدهم يتطايرون فرحاً لنشر كل جديد من اكتشافات القوم في بلادنا ، بل ويتسابق بعضهم للتتلمذ عليهم في دراسة هذا الفن وفتح معاهد وكليات خاصة به في شتى بلاد المسلمين !! ولاحول ولاقوة إلا بالله .

ومنهم من يريد صرف المسلمين عن دينهم وإسلامهم، وهذه غاية من أولى غاياتهم، ولكن لايعني ذلك أن أهل مصر مثلاً يدخلون في الفرعونية أو يعود أهل العراق إلى الأيام الآشورية وماكانوا فيه من الشرك بالله، وإنما يخرج من دينه وكفى ليصبح هدفاً سهلاً .

ولم يكن طرحهم قاصراً على إبراز تلك التماثيل والصور والحجارة التي أثرت بها عوامل التعرية عرضاً مجرداً أو الإكتفاء بتلفيق قصة حياة صاحب الصورة أو ما يرمز إليه ذلك الحجر أو تلك الصورة ، بل اتخذ أهل الذمة في دراساتهم الآثارية أسلوباً ماكراً خبيثاً وهو تسليط الضوء على التقدم العلمي (ولو بتكلف ) الذي أحرزته الأمم السابقة (كالفرعونية والآشورية وغيرهم )، وفي المقابل مدى التخلف العلمي والحضاري الذي يعيشه المسلمون بالمقارنة بما في أوروبا في العصر الحاضر، مع أنهم أصحاب دين صحيح وهو الإسلام ، وأولئك الفراعنة مثلاً وثنيون ويتخذون غير الله أربابا ...

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر ص ٢٠٢.

ويقصدون من ذلك تقديم شاهد ـ وخاصة للجيل المفتون ـ بالتقدم العلمي والحضارة الغربية واكتشافاتها حتى يعضد دعوتهم بأن التقدم المادي يتم تحقيقه في غياب العقيدة الصحيحة ، بل إن الدين هو سبب تخلف الشعوب التي تعيش في أرض الإسلام [١]، وقد انطلت هذه الحيلة على بعض أبناء المسلمين خاصة وأنهم لايكادون يفيقون من غفلتهم وحقارة وسفاهة ما هم عليه حتى يشغلوهم باكتشاف جديد، ومقبرة جديدة، وصنم جديد، ليست في مراكز البحث العلمي ويطلع عليها الدارسون والمتخصصون والمهتمون بكل جديد في أبحاث الآثار، بل يشغل بالاكتشاف كل طبقات المجتمع حتى الأميين عن طريق وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية .. ويطعم بقدرات التقدم التكنولوجية والفنية ..

وللأسف استطاعوا تحقيق قدر كبير من هذا الهدف ـ يتمثل بالكتابات والمقالات التي يكتب بأيدي مسلمة ـ وما هي إلا معاول مساعدة للخط الذي رسمه المستشرقون، وكذلك انعدام الكتابة الإسلامية المتميزة من متخصصين في هذا الفن يؤكد نجاح أعداء الإسلام في تحقيق غاياتهم التي من أجلها هجروا أوطانهم عشرات السنين باسم التنقيب عن الآثار ( دورنيس ـ فيليبى ـ هورغرونية .. ) الذين سنفصل الحديث عنهم في الكلام على غرض التجسس من أغراض البعثات العلمية ، والتعرف على طبائع الشعوب .

**ثالثاً : إبعاد مفهوم القرآن الكريم في التعرف على الآثار السابقة :**

إن القرآن الكريم جاء بمفاهيم كثيرة عند تعرفنا على الآثار والغرض منها. وإبقاء الله تعالى لها في دعوتنا للتفكر فيها . كما سبق بيانه في مفهوم القرآن الكريم للآثار .

فمن مفاهيم القرآن الكريم : أن القصور الفارهة ، ونحت الجبال ، والآثار

---

(١) انظر د. جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : المرجع السابق ص ١٨.

الشاهقة الدالة على مهارة صانعيها وقوتهم وبأسهم ، قرينة ظلم في المجتمع ، وإغترار من أفراده بما منَّ الله عليهم من قوة، وذلك بقوله تعالى:﴿ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ ﴾[1] فنجد الله ذكر عقب قوم عاد ومدينتهم ارم التي لا مثيل لها بين المدن ( وهذا مقياس حضارة ورقي في مفهوم هذا العصر ) ، وقوم ثمود وما أوتوه من قوة في جلب الصخور ونحتها ، وكذلك فرعون ذكروا بأنهم طغوا في البلاد فاثكروا فيها الفساد.

وهكذا في سائر تاريخ البشرية نجد أن مايسمى بالصروح الحضارية والمعالم الأثرية لا تنشأ إلا في دول الظلم والبعد عن منهج الله حتى في تاريخ المسلمين .

فمن الآثار التي خلفها المسلمون في مصر مثلا نجد أنها في عهد الدولة العبيدية، وآثار المسلمين في بلاد الأندلس بدات في عصور الضعف وانتشار المعاصي والمظالم وطغيان المال، وكذلك آثار المسلمين في الهند والشام والعراق .. كلها في عصور انحطاط المسلمين العقدي الفكري، أما عند غير المسلمين فالأمر أوضح وأظهر، فآثار الرومان ( أعظم امبراطورية حكمت الأرض غير الإسلام) في كل البقاع التي حكمتها، من الأردن والشام عموماً ، وشمال أفريقيا وأوروبا على اتساعها من أطغى دول الأرض ولم يعرف في تاريخ البشرية أمة مثلها استعبدت وأسترقت كل الشعوب التي كانت تحت أيديها . ونفس الوضع في آثار الفرس .

هذه الرؤية التي تكاد تنطمس عند المسلمين تحت تأثير الكتابات الغربية في تحويل مفهوم الآثار إلى مجرد الانبهار والدهشة والتأمل في بديع وإتقان صناعتها. ثم ماذا ؟ لاشيء يمشي إلى ما بعدها من مخلفات القوم ، بل إن هذه النظرة

---

(١) سورة الفجر من آية ٧ ـ ١٢ .

العامية الساذجة تحولت في أذهان العوام كما يقول الأستاذ محمد قطب :

"لقد كانت الآثار الفرعونية موجودة منذ آلاف السنين .. سرق منها ما سرق ونهب منها ما نهب .. وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من "عجائب" الماضي السحيق ، يتسلى برؤيتها ، ويقف عندها ليأخذ العبرة .. ويمضى .. ويعود إلى بلاده ليصفها لمن لم يرها .. ثم يمضي الأمر كله بلا احتفال كبير [١].

وأما المسلمون من أهل مصر فقد كانوا يرونها دون شك ، ويعجبون من دقائق صنعها، ولكنها في حسهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون . انقطعت الصلة بينها وبينهم ، بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان .

وكان هذا هو الحال في كل مكان في العالم الإسلامى سواء في جزيرة العرب أو بلاد الشام أو العراق أو غيرها من البلاد .. وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام .. الناس في إسلامهم ، وهذه الأثان في الأرض ، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ ...

حتى جاء الصليبيون وجاسوا خلال الديار ونبشوا الأرض المسلمة لاستخراج حضارات ماقبل التاريخ ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام [٢].

حينئذ تغير مفهوم المسلمين شيئاً فشيئاً، ذلك المفهوم الذي أخذوه من كتاب ربهم عن هذه الآثار إلى ما أملاه عليهم أعداؤهم . ومن ذلك أن نجعلها مزارات وأعياداً مكانية ، وتشد لها الرحال أقاصي الأرض . فقد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن دخول مدائن صالح إلا بشرط . وهو قوله"

---

(١) محمد قطب : واقعنا المعاصر : ص ٢٠٢.

(٢) نفس المرجع السابق : ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

لاتدخلوها إلا وأنتم تبكون "[(١)] ، وفي رواية للترمذي " فإن لم تبكوا فتباكوا " وعلل ذلك بأنها ديار الذين يعذبون ، وهذه العلة في مخلفات الفراعنة المصريين والرومان الوثنيين وغيرهم ممن جعل الله لنا بقايا بلدهم آية لاتخاذ العظة والعبرة لا أن نعظمها في نفوسنا ونجعلها شاهداً حضارياً لمن قبلنا ..

ولا يفوتني هنا أن أنبه على مفهوم خاطيء نحو مصطلح الحضارة وجعل صروح الآثار مقياساً لها ، بل على العكس في فأنها قرينة لعلو طبقة على أخرى وعبودية من الإنسان للإنسان :

وهذا الأمر قد جاء الإسلام بنقضه وتحرير الإنسان من عبوديته للمخلوق إلى عبودية الخالق ـ وهذه هي الحرية الحقيقية التي كفلها الاسلام .

* أما شواهد هذا المفهوم فيمكننا أن ندلل ببناء الأهرامات الشاهقة وحفر مقابر الفراعنة، أو من التاريخ العصري حفر قناة السويس باسم الفرنسيين على أيدي الشباب المسلمين ، فإن هذه الأعمال الحضارية تمت على حساب عبودية عشرات الألوف من البشر لشخص أو عائلة أو جماعة أو شركة كالشركة الفرنسية صاحبة امتياز قناة السويس . وبالطبع كان النظام السائد نظام الإقطاع وهو أقبح من الرق الذي يُشَنَّعَ عليه في الإسلام .

وأيضاً هذه الأرقام الفلكية التي تنفق من أجل شهوة سلطان أو رغبة لزوجة ـ كيف لو أنفقت وبذلت في سبيل الحضارة الحقة وهي تحرير الإنسان من عبوديته للمخلوق بإثراء فكره ونشر العلوم النافعة ، وتفقيه الناس وسد فاقتهم

---

(١) رواه البخاري . كتاب الصلاة باب ٥١ ، الصلاة في موضع الخسف والعذاب .. بلفظ " عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوها عليهم لايصيبكم ما أصابهم " . ورواه في كتاب الأنبياء باب ١٧ ، وفي أربعة مواضع أخرى ٣٣٨١ ـ ٤٤١٩ ـ ٤٤٢٠ ـ ٤٧١٢ ترقيم عبد الباقي ، انظر فتح الباري ١/ ٦٣١ . ورواه مسلم في الزهد ٢٨، ٣٩ .

واحتياجاتهم من مأكل وملبس ومسكن ونشرعقيدة صافية ـ هذه الأمور هي مقياس الحضارة والرقي عند المسلمين الأوائل، لذلك نجد في عصور القوة للمسلمين يبرز معها العلم النافع بين أفراد المجتمع، وتفتح فيها المدارس على اختلاف تخصصاتها وتكثر فيها المؤلفات النافعة . وعلى العكس في عصور الضعف والظلم والطغيان يبرز فن العمارة الإسلامية والزخرفة الإسلامية ، والقصور التي يتفاخر أصحابها على أنها من عجائب الدنيا ، ثم تصنف بعد ذلك بما يسمى الآن بالآثار. يجلي لنا هذه الحقيقة الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز حين تولى الخلافة نظر إلى مافي الجامع الأموي بدمشق من زينة وزخارف، فعزم على إبطالها وقال :

"لقد هممت أن أعمد إلى تلك الفسيفساء، وذلك الرخام، فأقلعه وأجعل مكانه طوباً ، وأنزع تلك السلاسل وأجعل مكانها حبالاً ، وأنزل تلك البطائن[1] فأبع جميع ذلك وأدخله بيت المال".

هذا المسجد مكث في بنائه احدى عشر سنة متوالية ( طوال مدة خلافة الوليد ) وكلف ماكلف فقد جلب له البنائون من شتى بقاع الأرض حتى عدا يومنا هذا من أكبر صروح الآثار الإسلامية !! في دمشق بل في بلاد الشام . ولكن ثم ماذا ؟! رحم الله عمر بن عبد العزيز . فقد أدرك حقيقة الحضارة التي يجعجع بها المستشرقون . وما هو مقياسها .

**رابعاً : طمس التوحيد في حياة البشر ومحاولة إقناع الناس أن الدين ثمرة التطور:**

وهذا الهدف من أبرز الأهداف التي يستميت أهل الآثار في تقريره ومحاولة ليّ عنق كل نص أثري حتى يوافق هذه القضية عندهم ، وبالمقابل طمس أي علم من المعالم الآثرية يفهم منه دعوة الأنبياء أو الإيمان بالله وتوحيده .

---

(١) الستائر .

ومن الجدير بالذكر أن هناك مؤلفات كاملة تبنت هذا الهدف وألفت من أجل ترسيخه بين المسلمين . وللأسف نالت من المسلمين العناية بالترجمة وتكرار الطبع .

**ومن أمثلة هذه المؤلفات :**

- تطور الفكر الديني في مصر القديمة : تأليف جيمس هنري بريستيد ، تعريب زكي سوس.
- مصر القديمة نشأتها وتطورها : تأليف أدولف أرمن تعريب عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكري .
- الحضارة السامية القديمة لـ سوسكاني .
- قصة الحضارة : ول ديوارنت . وهذا مشهور جداً بل يكاد يكون موضع ثقة الكثير من الدارسين لما يظهره من ثناء مسموم على الإسلام أو الرسول صلى الله عليه وسلم [(١)].

ومسألة أن الله خلق البشر مفطورين على توحيده مسالة لاخلاف فيها عند المسلمين والأدلة من فضل الله واضحة وصريحة في هذه المسالة ،﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[(٢)]،﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾[(٣)]، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي "**خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين**"[(٤)] .

---

(١) جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت : علم الآثار : ص ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة الروم آية ٣٠ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٤) رواه مسلم ـ باب ٦٣ ، احمد في المسند ١٦٠٤ .

وكان الله يرسل بين الفترة والأخرى عند غفلة الناس عن توحيد الله وانحرافهم عن منهج الإسلام من يدعوهم إلى التوحيد الخالص﴿ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ ﴾[١] ، رسلاً وأنبياء يوحى إليهم من الله الهداية البشرية . هذا ماجاء القرآن الكريم بتقريره ودلت عليه قرائن كثيرة من مخلفات الأمم السابقة وما فهم من كتابات على آثارهم ، ولو أنصف خبراء الآثار لشهدوا هذه الحقائق ، مثل دراسته للقصة التي يسمونها جلجاش و أبجيدو التي تضمن قصة الطوفان وخطوطها الرئيسية كالتالي :

إن شخصاً أهل لحمل الرسالة يعيش في مدينة على ضفاف الفرات يتلقى الأمر من الله لبناء السفينة وتحميلها من كل أنواع الكائنات الحية ، لأن الله غير راض عن تصرفات أهل المدينة وشيوخها ثم اكتمل البناء وحمل الرسول سفينته من كل زوجين اثنين فأرسل الله أوامره إلى السماء فأمطرت وإلى الأرض فتفجرت بالعيون ونسفت الجبال وهلك الناس ..[٢]

فحينما تعرف علماء الآثار على هذه القصة وغيرها من دراسات أثرية تثبت حدوث فيضان كالح شمل بلاد العراق القديم، مع هذا لم يكلفوا أنفسهم ربط هذه القصة بما ورد من تفصيل واضح وجلي لها في القرآن الكريم .

* كذلك من الشواهد الأثرية التي حاول ولايزال علماء الآثار طمس حقيقتها :

مصارع قوم صالح وهي في الأصل مساكنهم حقيقة قائمة ، لم ينقطع التذكير بها والتنبيه إلى الأحداث التي يرويها كل داعية إلى الله على مدار تاريخ البشرية بما في ذلك رسل الله الكرام بعد صالح عليه السلام، فالقرآن يروي لنا ذلك على لسان شعيب عليه السلام ، وهو يدعو قومه إلى عبادة الله وحده دون

---

(١) الأعراف آية ٥٩ ، سورة هود وغيرها .

(٢) علم الآثار : المرجع السابق ص ٢٦.

شريك ، وألا ينقصوا الكيل والميزان ، ولئلا يحيق بهم عذاب يوم محيط مثلما حاق بقوم صالح أو قوم نوح أو قوم هود أو لوط .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ (١) .

( ولقد حاول علماء الآثار غير المسلمين طمس وجه الحق الذي تعكسه آثار مدائن صالح ، وقالوا مدائن صالح ليست إلا بناية كانت تستعمل للدفن . وذلك لكي ينفوا عنها صفة المساكن التي أخبر بها القرآن الكريم والحديث . كما قالوا إن الذين سكنوا هذا المكان ليسوا ثمود الذين استخلفهم الله بعد عاد، إنما هم قوم من اليهود سكنوا تلك الناحية ، كما قالوا إنهم وبقايا العماليق أتوا إلى ذلك المكان من الفرات ، أو بقايا فلول الهكسوس طردوا من مصر)(٢) .

وجملة هذه التخمينات والشكوك محاولة تستهدف زعزعة الحقيقة التي أخبر بها القرآن الكريم ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (٣) .

هذا هو موقف علماء الآثار من هذه الواقعة وفي كل واقعة لايمكن أن يربط شيء من فناء أمة ، أو زوال حضارة ببعدها عن الله ، أو عذاب شامل لحقها من السماء ، أو أي معلم من معالم الدين !! بل يحاولون إقناع الناس أن الدين ثمرة التطور، وأثر من الآثار الاقتصادية أو الاجتماعية خاضعة للعادات والتقاليد .

ومن ذلك جاء خبث بعضهم بإطلاق اسم " التراث الإنساني " على كل

---

(١) سورة هود آية ٨٩.

(٢) علم الآثار : المرجع السابق ص ٦١.

(٣) سورة الأعراف آية ٧٤.

الديانات السماوية وما فيها من كتب تنسب إلى الله تعالى أو حتى كلام الله القرآن الكريم فيقولون : التراث الإغريقي ، التراث البيزنطي ، التراث المسيحي، و التراث الإسلامي ويقصدون به كلام الله وسنة رسول الله ﷺ .

وقد ولج أعداء الإسلام من أهل الذمة أو تلاميذهم من المسلمين إلى زعزعة كثير من الثوابت الإسلامية تحت غطاء اسم التراث . لأن المنهج النقدي يسري على كل التراث الإنساني ، وبالتالي يسري على القرأن والسنة ( الوحي) بوصفهما تراثاً إنسانياً . وفى ذلك يقول صاحب كتاب " الغارة على التراث الإسلامي "

( لقد وجد من يتحدث عن ( التراث ) ليس بوصفه الفعل الإنساني المتعاطى في مرجعية الإسلام ، وإنما بوصفه هو الإسلام ذاته ، هو البديل عن الإسلام ، وأصبح المسلم المعاصر يواجه الحديث عن القرآن والسنة ـ الوحي ـ بوصفها ( تراثاً إنسانياً ) وبالتالي يكون المنهج النقدي الذي يسري على التراث الإنساني يسري عليهما ، ونتج عن ذلك محاولات تتناول النص القرآني كوثيقة تاريخية قد لا تثبت علمياً ـ طه حسين على سبيل المثال ـ ومحاولات أخرى للتعامل مع النص القرآني كنوع من فنون النص ومحاولة بكر في الفن الروائي ، بما يميل إلى الخيال واللاواقع ونحو ذلك ـ محمد أحمد خلف الله ـ كما وجدت محاولات للتعامل مع الوحي بوصفه نصوصاً أيديولوجية تقبل النقد من خلال سياقها التاريخي الاجتماعي ـ محمد أركون ـ على سبيل المثال .

وغني عن البيان ما تحمله هذه المحاولات من مخاطر على هوية المسلم من حيث أنها تطعن في صلب هويته، وعمادها وقطبها المحوري ، ألا وهي عقيدته الإسلامية ، مع ملاحظة أن هذه المحاولات ( الاجتهادية ) توضع تحت وصف الدراسات التراثية ، ومن ثم يطلق على معظم أصحابها وصف ( المفكر الإسلامي )، وكل ذلك من أوله إلى آخره إرباك للعقل المسلم ، أو سحب له إلى

مسالك التيه والضلال ، إلى الحد الذي يدفعه لليأس من البحث عن (هويته) أي عقيدته [١].

هذا المفهوم في الربط بين الهوية والتراث مدخل للتضليل من جانب آخر ، لأنك إذا نزعت الأصل البارز والقطب المبهر الممثل لهوية الإنسان المسلم أو الأمة المسلمة ـ أعني الإسلام ـ واستبدلته بمصطلح جديد لايزال خاضعاً للتنازع في تحديد ماهيته ـ أعني التراث ـ فقد فتحت الباب لإدخال الحديث عن الديانات السابقة للإسلام ، حتى الوثنيين منها ، بوصفه جزء من هوية الأمة المسلمة ، فالآشورية ، والفارسية ، والفرعونية ، والفينيقية تصبح أجزاءً لاتتجزأ من (هوية) المسلم وانتمائه التاريخي ، وسوف لن يعدم صاحب هذا الرأي شاهداً من شجرة !! أو ( كعكة العيد ) أو رسم ( فنجان القهوة ) كلها شواهد أنقلها عن أصحابها وليست من عندي ( والكلام لـ جمال سلطان ) ! لكي يخلص بأن هذا التراث الجاهلي الوثني حي في الواقع ، وبالتالي فهو جزء من الهوية الإنسانية للفرد وللمجتمع !! إلى الحد الذي يقول فيه باحث أكاديمي وميداني مصري كبير ، وهو الدكتور سيد عويس أناأرى نفسي وثنياً في بعض تصرفاتي ، ونحن المسلمين المصريين في الواقع وثنيون ومسيحيون ومسلمون في وقت واحد ومن دلائله على ذلك القاطعة قوله : أنا أعتبر نفسي كمصري في ضوء أنماط سلوك وثني ، ويتمثل ذلك عملياً في قيام ربة البيت بنقش قرص الشمس على الكعك !! [٢].

هذا نتاج علم الآثار ومصطلح التراث على مفكري الإسلام فضلاً عن عوامهم ..!

---

(١) جمال سلطان : الغارة على التراث الإسلامي ص ٣٧ . ط برمنجهام لندن ـ مركز الدراسات الإسلامية .

(٢) انظر المرجع السابق : جمال سلطان ص ٣٧ – ٣٨.

**خامساً : التهوين من خطورة الصور والتماثيل وآثارها على عقيدة المسلم :**

لايخفى حكم التماثيل والتصاوير على مسلم قرأ ماورد في السنة الصحيحة بشأنها والوعيد الشديد في حق من صور تلك التصاوير وموقف المسلم منها، حتى أن بعض العلماء اختلفوا في صناعة التماثيل والتصاوير هل يعد شركاً أم أنه من الكبائر ، والمحققون على الأخيرة . ويكفي المصورين شؤماً أن رسول الله ﷺ قال في حقهم "أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون"[(١)] .

هذه الحقيقة التي كانت واضحة عند سلف هذه الأمة ولم تكن لتقبل النقاش، ولكن المشكلة والتفكير فقط في إزالتها ولمن يكون وكيف .. أقول هذه الحقيقة سعى خبراء الآثار والمهتمون بها إلى زحزحتها من قلوب المسلمين . بدءً بالتشكيك والتهاون في شأن التصاوير وانتهاء بتعظيمها والرهبة لها وعندها، وذلك بسلوكهم ونهجهم نحوها عدة أمور :

أولا : تعظيم شأن الأصنام من منحوتات على الصخر أو الخشب أو مصنوعة من الذهب أو الطين .. أو ....وإبهار المشاهد لها وانبهاره بها ، وجعله يقف عندها ويتفكر لا بمنازعة الله حق ممن حقوقه سبحانه ومضاهاة خلقه له، بل في جمالها وعظمتها ، وكثيراً ماتعرض هذه الصور والتماثيل بشكل مكثف ويراعى فيه العنصر الجمالي الذي ينسي المشاهد قبح هذا الفعل وخطورته على المسلم، ولقد تحول حس المسلم وقلبه عند مشاهدتها من استهجانها والبراءة منها ومن أفعال الذين لايعلمون ، ويتمنى أن لوكان له من الأمر شئيء، لحطمها وساواها بالأرض كما هو واجب على كل مسلم : "أن لاتدع صورة إلا طمستها"[(٢)]، ويؤجر على فعله ذلك امتثالا .. فانقلبت الصورة إلى الانبهار بها والتفكر في مهارة صناعها ومدى التطور الذي بلغوه في فن النحت والنقش

---

(١) سيأتي تخريجه في ذكر الأدلة في الصفحة التالية .

(٢) سيأتي تخريجه في ذكر الأدلة في الصفحة التالية .

والتصوير ، ومدى مطابقة الأصل للصورة !! واعتبار ذلك فناً من الفنون !

وحتى ترسخ هذه الصورة المقلوبة عند المسلمين، سعى علماء الآثار إلى عرض نقوشهم الأثرية المشتملة على الأصنام بكثافة مريبة تأخذ بلب المشاهد .. مما يعيد ذكريات عبادة الأوثان ، ولاينتهي معرض لعرض هذه الصور وأعمال الفنانين والفنانات الذي يفتتحه كبار المسؤلين إلا ويبدأ في الاستعداد للمعرض الثاني والثالث وهكذا دواليك ...

ناهيك عما تتناقله وكالات الأنباء من الأثمان الخيالية لتلك اللوحات التي يعرض بالمزاد العلني في المعارض الدولية ، ويتسابق الذين لاخلاق لهم في المزايدة في أثمانها مهما بلغت للحصول عليها .

والآن نشير إلى بعض الأحاديث الصحيحة الواردة في النهي عن النحت وتصوير ذوات الأرواح لما في ذلك من مضاهاة خلق الله تعالى ، ولأنه وسيلة من أكبر وسائل الشرك ، وما كانت عبادة الأوثان أول ما عبدت من دون الله على وجه الأرض من قوم نوح إلا بسبب تعظيم الصور وتزيين الشيطان لأتباع أولئك الصالحين حتى اتخذوا لهم تلك الصور لتذكرهم بهم وتعينهم على الاقتداء بهم في الصلاح والعبادة ، ولايزال الشيطان بهم حتى عبدوها من دون الله تعالى ، فجاء الإسلام بتحريمها سداً لذريعة الشرك وحماية لجناب التوحيد .

**أحاديث التصوير والمصورين والحكمة من تحريمها :**

١ـ روى البخاري عن ابن مسعود رضي لله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**إن شر الناس عذاباً يوم القيامة المصورون**"[(١)] .

٢ـ وفي الصحيح من حديث عائشة مرفوعًا "أشد الناس عذاباً يوم القيامة

---

(١) البخاري ١٠ / ٣٢١ ، ٣٢٢ في اللباس باب عذاب المصورين يوم القيامة . ومسلم رقم ١٠٩ في اللباس باب تحريم تصوير صورة الحيوان .

الذين يضاهئون بخلق الله "(١) .

٣ـ ومن حديث ابن عمر مرفوعاً "**إن الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم أحيوا ماخلقتم**"(٢) .

٤ـ ومن حديث عبد الله بن عباس رضي لله عنهما قال : سمعت محمداً صلى الله عليه وسلم يقول : "**من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ**"(٣) رواه البخاري والترمذي والنسائي .

٥ـ وصح عنه مرفوعاً أنه قال : "إن الملائكة لاتدخل بيتاً فيه صورة"(٤) .

٦ـ وروى الأمام أحمد من حديث علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "**أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثناً إلا كسره ، ولاصورة إلا لطخها ، أي طمسها** .... " الحديث .

٧ـ وللنسائي عن أبي الهياج قال : قال لي عليَ "ألا أبعثك على مابعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**أن لاتدع صورة إلا طمستها ولاقبراً مشرفاً إلا سويته**"(٥) .

والحكمة من النهي مطلقاً عن التصوير على اختلاف أشكاله :

أ ـ حماية جناب التوحيد مما يقدح به أو يزيله أيضاً مثل التصاوير .

ب ـ إن وصول الشرك إلى بني آدم كان عن طريق تعظيم الصور والاهتمام

---

(١) مسلم كتاب اللباس رقم ٩٢ ، المسند للإمام أحمد ٦ / ٣٦.

(٢) النسائي ٨/ ٢١٥ ، المسند ١ / ٢٤١.

(٣) البخاري ١٢/ ٣٧٤ ، ٣٧٥ في التعبير باب من كذب في حلمه ، والترمذي رقم ١٧٥١ في اللباس باب ماجاء في المصورين، النسائي ٨/ ٢٥١ في الزينة بأن ذكرها يكلف أصحاب الصور يوم القيامة.

(٤) البخاري ١٠ / ٣١٥ ، ٣٢٧ في اللباس باب ماوطيء من التصاوير ، وباب من لم يدخل بيتاً فيه صورة .

(٥) رواه النسائي ـ كتاب الجنائز ٩٩ .

بها كما هو معروف .

**سادساً : التجسس في بلاد المسلمين وعلى شعوبهم ومعرفة طبائع مجتمعاتهم :**

إن من آلات الحرب وإعداد العدة التي احتاج لها أعداء الأمة في مواجهتها الجاسوسية على اختلاف أغراضها وأهدافها ورأوا أن أفضل وسيلة للتسلل إلى قلب العالم الإسلامي والتحرك بكل سهولة في أزقته وبين شعبه والتعرف عن قرب لحالة الناس وطبيعة البلاد وأرضها وقدراتها وهي تتقمص دور خبراء الآثار وحملات التنقيب عن الأثار، وقد ذكر لنا التاريخ المعاصر حوادث وأسماء ونماذج لهذه العينات والدور الذي قامت به ـ بدءاً بمواقفهم مع السلطان عبد الحميد إلى أيامنا هذه !!

ومن الأمثلة على ذلك ماجاء تحت عنوان "التجسس لاكتشاف البترول عن طريق الأبحاث الأثرية" في مذكرات السطان عبد الحميد عند محمد حرب في ترجمتها حيث يقول: "ذكرت أني أعطيت الألمان خط سكة حديد بغداد ، وذلك لكي أجر الإنجليز إلى الاتفاق الذي أرضى عنه ، ولهذا قصة أخرى أعرضها هنا:

( لما قال الروس لا للاقتراح الإنجليزي الرامي إلى تقسيم دولتنا ، بدأ الإنجليز يتقربون مني بشكل لم أستطع في البداية فهمه ، وإن استطعت معرفته بعد مرور أشهر .

فذات يوم قابلني السفير الإنجليزي ، وتحدث طويلاً في أن الأناضول وسوريا ، والحجاز تعد مهد أعظم حضارات في التاريخ . وسألني إن كنت فكرت في مشروع للتنقيب عن الآثار في هذه المناطق فربما يمكن العثور على كنوز لو قامت مشاريع للتنقيب عن هذه الآثار هناك، هذا وأن التماثيل الصغيرة والقلل والأواني المكسورة العتيقة والنقود القديمة التي ستخرج من تحت الأرض لها قيمة الكنز والنظر فيها ربما يكون من شأنه تغيير التاريخ وسيمكن بواسطتها الحصول على معلومات قيمة كثيرة ،وبعد أن قال إن قراءة الخط المصري القديم

قدم للحضارة العالمية مكسباً عظيماً جداً أضاف قائلاً : إن الدولة العثمانية لو وجدت أن عمليات التنقيب عن الآثار في هذه المناطق تكلفها الكثير فإن الحكومة الإنجليزية مستعدة لتقديم مختلف المعونات بكل سرور. وسترسل رجالها على وجه السرعة وسيبدأون في الحفر وستصرف لهم الحكومة الإنجليزية مصاريفهم، وفوق هذا فإن مايعثرون عليه من الآثار التاريخية هناك سيتركونه لنا دون مقابل .

ولما كان هدفي إقامة علاقات وطيدة مع إنجلترا ولم أكن أعرف ماينطوي تحت هذا الاقتراح قبل، استدعيت الصدر الأعظم خليل رفعت باشا على الفور وشرحت له الاقتراحات الإنجليزية ونبهت عليه بمتابعة أعمال هذه الوفود القادمة ، والحقيقة أن الإنجليز أرسلوا مجموعة من علمائهم إلى استنبول دونما تأجيل كثير، قابلتهم جميعاً في لقاء عام معهم وتمنيت لهم النجاح وأقمت لإكرامهم في ذلك المساء مأدبة عشاء دعوت إليها أيضا سفراء الدول الأخرى وكان يبدو على السفير الروسي بشكل خاص وبوضوح أنه غير ممتن من هذا التصريح، كان ( انجاتيف ) يسمع باهتمام وهو يبتسم حديثي عندما قلت إن الإنجليز طلبوا السماح لهم بالتنقيب عن الآثار خدمة للتاريخ والحضارة .

وبدأ فريق من العلماء تنقيبهم في ( قيصرية )، وفريق آخر في ( الموصل )، وفريق في نقطة قريب من بغداد، وكانوا ينقبون بمساعدة العمال المحليين، وكنا أيضاً قادرين على متابعة أعمالهم ولم يظهر شيء من هذه الحفريات غير بضعة أواني مكسورة وقلل وتماثيل صغيرة وتوابيت ومقابر، وسلمنا الإنجليز هذه الأشياء حتى النقود النحاسية القديمة .

كان السفير الإنجليزي يطلب كثيراً مقابلتي والتردد عليَّ للإدلاء بمعلومات عن هذه الحفريات، وكنا نتحدث وكنت أقدر جميع هذه الفرص وكنت أمهد الأرض للاتفاق الذي فكرت في عمله، كنت أريد ألا أقدم أنا هذا الاقتراح،

ولكن كنت أريد أن يقدمه الإنجليز بأنفسهم إليَّ ، وذلك يكـون اقتراحهـم هـم، وإذا وجدته مناسباً وافقت عليه وإن لم أجده كذلك كنت سأرفضه وهكذا كنـت أحاول اقتطاف الأفضل .

حدث في هذه الأثناء شيء لم أستطع فهمه أيضاً . جاءني السفير الإنجليزي ذات يوم وهو متحمس وقدم ليَّ سيفاً مرصـعاً عثـر عليـه في إحـدى الحفريـات بجانب الموصل كان السيف مكسوراً ، لكن يده كانت مرصعة بكثير من الأحجار الكريمة .

وقال السفير : إن هذا السيف سقط على الأرض أثنـاء إحـدى الـزلازل فذهب جزء منه إلى أعماق بعيـدة وعثـر علـى الجـزء المتبقـي ضـمن الحفريـات، شكرت السفير وأنعمت عليه ولكن لم يكن لدي مخابراتي علم عن سيف كهذا .

إذن فتفسير الأمر عل شكلين : الأول : أن مخابراتنا لم تعـرف بهـذا الخـبر، والثاني : أن السفير ربما لعب عليَ لعبة لا أعرفها . عرضت السيف على بعـض التجار من السوق والذين يفهمون في هذه المسائل . قالوا إن هـذا السـيف لـيس قديماً ولكن أدخلت عليه بعض الحيل ليبدو كأنه قديم .

إزداد اهتمامي جداً بالأمر ، لكني لم أبـح لأحـد بـشيء ، ثـم علمـت مـن الأخبار التي تروى إليَّ أن بعـثتي التنقيـب عـن الآثـار في الموصـل وبغـداد، تركـا أعمالهم على وجه الأرض وبدأتا تحفران آبارا .

في ذلك الوقت وضحت أهدافهم . كانوا يريدون مني أن أصدقهم، وهكذا كانوا يريدون أن يحصلوا على إمكانية العمل براحة أكثر . وهـذا السـيف الـذي قدم لي على أنه قديم ومزين بالأحجار الكريمة كان من أجل أن تزيد ثقتي بهـم، ولم يكن مايبحثون عنه أواني مكسورة أو تماثيل وإنما كان البترول .

كنت أعـرف مـن قبـل أنـه مـن أجـل العثـور علـى الـبترول في الأفـلاق (رومانيا) تفتح الآبار، وعن طريقهمـا يبحثـون عنـه بعـد فـترة، جـاءني السـفير

الإنجليزي بحجة أن يقول لي خبرا آخر . قال لي : إن قسماً كبيراً من أراضي سوريا والحجاز عبارة عن صحراء والمعاناة شديدة في هذه الأماكن من العطش ، لعدم وجود الماء ولهذا السبب فإنه يتعذر تعمير هذه المناطق، ولذا فإن الحكومة الإنجليزية إذا أصدرت موافقتي ـ مستعدة باسم الإنسانية ـ أن تفتح آباراً هناك، ولكن لهذا شرط إذا تم العثور على الماء وتكونت واحة فإنهم سيتركون استخدام الماء الذي سيخرج للأهالي ولكنه في هذه الحال يصبحون أصحاب الماء.

إن الاتفاق ذاته لايسير كما أريد .

رفضت الاقتراح ولم أكتف بهذا، بل أغلقت رسمياً الآبار التي فتحوها بالموصل وبغداد، تأثر الإنجليز أبلغ الأثر بهذا ، وغضبوا ، وتركوا الآبار كما هي، ولكنهم بدأوا يأخذون على عاتقهم التحرش بمسألة الخلافة متخذين من جمال الدين الأفغاني وسيلة لمآربهم، وكانوا يريدون الوصول إلى غاياتهم باحتواء أمير الحجاز، وفي مقابل هذا قمت بإرسال قافلة من الدراويش كبيرة نوعاً ما إلى مسلمي الهند وقابل الإنجليز هذا بإثارة نكبة كريت، وذهبوا لأكثر من هذا بأن حاولوا إقناع روسيا وفرنسا بإسقاطي من على العرش ورفض الروس بلهجة حادة هذا الاقتراح الإنجليزي لأن إنجلترا كانت ترتب في روسيا حركات تمرد لإجبار القيصرعلى قبول الحكم الدستوري كما فعلت تماماً مع الدولة العثمانية)[١] .

*** ومن أشهر النماذج والشواهد على استغلال أهل الذمة علم الآثار للجاسوسية :**

"كرستيان سنوك هورفونيد" : وهو أشهر مستشرق هولندي معروف في الجزيرة العربية وأندونيسيا لنشاطه في هذين البلدين، وقد عد عميد العربية بعد كولدز في طليعة رواد الفقه الإسلامي والأصول والحديث في أوروبا، وكان لهوفرونيد أثراً بالغاً على الاستشراق عموماً والهولندي خاصة، وترك فيه عمقاً

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد : ترجمة د . محمد حرب .

وطموحاً في محاكاته وتقليده من المستشرقين المتأخرين في نشاطاته التنكرية .

ولد "كريستيان سنك هورفورنيد" لأبٍ قسيس في سنة ١٢٧٣هـ - ١٨٥٧م، ودرس اللاهوت على أستاذ التوارة كونن ثم بدأ دراسته للعربية والإسلام على دي خويه وتخرج عليه في رسالته عن الحج إلى مكة في سنة ١٢٩٧هـ-١٨٨٠م .

وبعد انتهاء المؤتمر الاستشراقي بسنة سافر "سنوك هروفونيد" بصحبة القنصل الهولندي "كراوت" إلى جدة .. ومن ثم إظهاره الإسلام ودخوله إلى مكة المكرمة .

والثابت تاريخياً أن سنوك أظهر الإسلام على رؤوس الملأ والشهود احتيالا، واستمر يمثل هذا الدور على المسلمين في مكة، ومن ثم في أندونيسيا طيلة حياته .

إن سنوك هورفرونيد كان بارعاً في تمثيل الدور على زوجته وأولاده كبراعته في تمثيل الدور على الكثير من المسلمين الذين منحوه الحب فخانهم .

مكث سنوك ستة أشهر ونصف في مكة باسم "عبد الغفار" وصار يختلف إلى مجالس العلماء وشيوخ التعليم، فوطد علاقاته بالكثير من علماء مكة وبالكثير من علماء ( جاوة ) و(سومطرة ) و( اتشيه ) ، وخاصة شيخ مكة ومفتيها "أحمد بن زيني دحلان" ولعل هذا الشيخ قد أجازه أو زوده برسالة توصية لتتم بها خطة سنوك هورفونيد في فتح السبل أمامه في أندونيسيا وخاصة إقليم ( اتشيه ) الذي كان ثائراً على الحكم الهولندي وقنع أخيراً براتب محترم يتقاضاه من القنصلية الهولندية في جدة مدة حياته .

وليس عجباً أن يسمي المسلمون في (اتشيه ) حبيب الرحمن الظاهر هذا وسنوك مورفورنيد بـ"الخونة" حتى يومنا هذا ، لما قاما به الأول من أدوار خيانية جاسوسية، والثاني عمالته للاستعمار الهولندي .

ويبدو أن كاتب الرسالة التي بشأن سنوك فضحاً له كان يعرف أن اتهام سنوك كان بسبب النقوش . لقد كان في الجزيرة العربية رجلان أجنبيان أحدهما هوبر الفرنسي والآخر كان ألمانياً وهو أووتينك الذي اتخذ حينذاك اسم عبد الوهاب، وقد كان الفرنسي يبحث عن نقوش أثرية ليفوز بمجد "اكتشافي "كما فاز "شامبليون "من قبل، وحدث أن أحد أدلاء هذا الفرنسي قتله . والسبب حسب المفهوم الأوروبي لسلب أمواله ومتاعه . دار شك من الفرنسيين أن هورفونيد له يداً في القتل للحصول على نقوشه، وظهر هذا الاتهام في جريدة Le Temps الزمان الفرنسية، وفيها ظهر أن هناك هولندياً تحت اسم عبد الغفار يحاول الحصول على نقوش أثرية .

وبعد هذا يبدو أن الحكومة العثمانية أمرت الوالي بإبعاد هوفرونيد دون أن تخبر واليها بالسبب، وقد نشر هورفرونيد قصة تحت عنوان "رحلتي إلى الجزيرة العربية "سنة ١٣٠٢هـ ـ ١٨٨٥ م يحكي فيها غفلة الحاكم التركي وشريف مكة ، وغفلة الكثير من العلماء الذين لم يشكوا أن هورفرونيد جاء إلى مكة كأي مسلم يطلب العلم والحج. والحديث عن مشاهد هذا المستشرق واستمراره في طريق التنكر تطول وتزداد غرابة !! خاصة في العلاقات القوية التي استطاع أن يربطها مع وجهاء البلد بل وعلمائها[1].

وهذه مقاطع من نماذج المراسلات التي كانت بينه وبين أهل جاوة أو مكة:

( في رسالة أرسلها محمد بن صالح بن عمر بن سمارنج مؤرخة في ١٣١٠هـ ١٠ نوفمبر ١٨٩٣م يطالب منه التدخل في إصلاح ذات البين كفريقين حول مسجد، نرجوكم المعونة والإعانة على الإسلام ..و... وأنتم ياأخي لايخفى عليكم الأجر في الدنيا والأخرة ، نرجو الإصلاح في أمور المسلمين ) .

---

(١) انظر تفصبيل هذه النبذة عن هذا المستشرق لـ : السامرائي ـ الاستشراق بين الموضوعية والإفتعالية ص ١٠٤ ـ ١١٢ .

وفي رسالة أخرى في ١٣١٥هـ ـ ١٨٩٨م من بندر شربيوت ( إلى جناب المكرم المحترم الفاضل شيخ الإسلام في الجهة الجاوية الحاجي عبد الغفار متع الله بحياته آمين ) .

ومن المراسلات بينه وبين صديقه الحميم عثمان بن عبدالله بن عطيل العلوي حول مثوى المسجد .

وبعد أن أيد رأيه بعدم شرعية الصلاة بالمسجد الجديد بالرغم من فتوى العلماء في مكة بجوارها معتمداً على فتوى صديقه عثمان العلوي بنص شيخ الاسلام ومفتي بنافيا الشيخ سنوك هورفونيد فتواه بالتوصية :

بـ " أن هذا البنكولو ( العالم ومؤيد المسجد الجديد ) كما يظهر يستحق التعنيف الصارم[١] .

وقد نجح سنوك هوفورنيد بالسماح لجماعة الأحمدية القاديانية بالعمل في أندونيسيا لأنها جماعة لاخطر منها سياسياً[٢] ، بل هي ربيبة الاستعمار الإنجليزي ومن صنع أيديهم .

آراء ونتائج إقامة هوفورنيد قرابة سبعة عشر عاماً تحت ستارات مختلفة باسم الإسلام تارة ، أو البحث عن النقوش أخرى . وتعرفه على طبائع الشعوب خلال تلك الفترة مما أثمر له ولإسلامه النتائج والتوجيهات التالية :[٣]

١ـ العمل على الحد من انتشار الإسلام . فاقترح سنوك وضع حد لتعيين المأمورين المسلمين في البلدان التي أهلها وثنيون حتى لاتساعد الدولة على نشر الإسلام بينهم بدون قصد منها، وهو ما وقع فيه الألمان بشرق إفريقية في مستعمراتهم .

---

(١) انظر قاسم السامرائي : الاستشراق بين الموضوعية والإنفعالية ص ١٦٣ .

(٢) د . جميل المصري : حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص٥٦٧ .

(٣) د. جميل المصري : حاضر العالم الإسلامي ج٢،ص٥٦٦ ـ ٥٦٩ ط الجامعة الإسلامية .

٢- نصح بإعطاء الحرية الدينية وعدم التعرض للمسلمين في عقائدهم جهاراً خوفاً من الانتفاض والاضطراب . ولكن التعرض يكون بحذر وحيطة وخفية لا مجاهرة . وذلك أنه كان في هولندة حزبا ممالئاً لجمعيات التبشير يحث الحكومة أن تحمل المسلمين على النصرانية قسراً ، فبين هورفرونيد ما في ذلك من المخاطر .

٣- كما نصح الحكومة أن لاتقيم العقبات في طريق الحج لاسيما أن مسلمي جاوة وسومطرة هم أشد المسلمين محافظة على هذا الركن ، وذلك رداً على بعض النواب الهولنديين الذين يدفعون الحكومة على منع الحج أو تصعيب سبيله . فيقول: "على الحكومة أن تسلك سبيلاً وسطاً فلا تحث على فريضة إسلامية ولاتنهى عنها كما فعلت في الزكاة، فقد أعلنت أنها تعتبرها من قبيل الصدقة الاختيارية فلا تحمل عليها أحداً ولا تمنعها" .

٤- من ناحية القضاء : ذهب إلى عدم سن قوانين مأخوذة من الشريعة الإسلامية ، بل ينبغي حمل المسلمين على القوانين الهولندية إلا مايتعلق بالأحوال الشخصية كالنكاح والطلاق والميراث .

٥- من ناحية السياسة الدولية : ينبه جهاراً وبدون محاباة إلى قطع كل علاقة سياسية بين الجاويين وسائر الحكومات الإسلامية ، وخاصة دولة الخلافة العثمانية التي يقول عنها : (الخلافة ليست كالبابوية لا شأن لها في السياسة، بل هي رئاسة سياسية من أراد الاعتصام بها من المسلمين لا تمكنه طاعة حكومة مسيحية) . بل يذهب إلى أكثر من ذلك فيقول : على هولندة منع قناصل تركيا وكلاء دولة الخلافة من أية مداخلة كانت مع الأهالي . بل والأغرب أنه ينصح !! بمنع الاشتراك في الإعانات لسكة حديد الحجاز وعدم إباحة أية إعانة كانت لجرحى العساكر العثمانية أو لأرامل جنود الأتراك وأيتامهم ويحث حكومته على منع ذكر السلطان العثماني في خطبة الجمعة، وعلى مراقبة التعليم الديني حتى

لايقع فيه شيء من الدعوة إلى الاتحاد الإسلامي، ويطلب حذف باب الجهاد من الشريعة .

٦ـ يوصى الدولة الهولندية بالحد من هجرة الحضارمة إلى أندونيسيا خوفاً أن ينشروا الدعوة الإسلامية ويوصى بوضع الحواجز أمام من في أندونيسيا منهم ومراقبة حركاتهم وسكناتهم ، وتنغيص حياتهم لحملهم على ترك تلك الديار .

٧ـ دعا إلى أن تكون هناك علاقة عاطفية قوية بين الشعب الأندونيسي وهولندا تناقض نزعة الصلة بالعرب والإسلام . ومن الخطوات العملية لتحقيق هذا الهدف :

أ ـ عمدت هولندا إلى اللغة فأخذت تحول دون قيام لغة موحدة فضلاً عن انتشار العربية.

ب ـ محاولة نشر اللغة الهولندية وجعلها أساس التعليم في المدارس في المراحل الأولى.

ج ـ عملت على إبقاء تعدد اللهجات لكي لايكون أي رابط يساعد على توحيد شمل هذا الشعب الكبير .

ولما نجحت الحركة الإسلامية في أن تعرض اللغة الأندونيسية (باهاساهندونيسيا ) بدلا من ٢٥ لغة كان يتخطاب بها السكان وتتشعب إلى ٢٥٠ لهجة محلية وكانت تكتب بحروف العربية ، عملت هولندة إلى تحويلها إلى الحروف اللاتينية في أوائل القرن العشرين [١].

٨ ـ تشجيع الحركات الإلحادية والهدامة كالتيار الشيوعي الماركسي باعتباره كفيلاً ببث الإلحاد بين صفوف الأهالي ونشر الفساد بينهم، وهذا بدوره يشغل المسلمين ويدعوهم لمقاومته بضراوة ، مما يغفلهم عن مقاومة الاستعمار

---

(١) أنور الجندي : العالم الإسلامي ص ١٤٠ - ٣٠٠.

الهولندي ومؤسساته المختلفة[١].

٩ـ كذلك منحت هولنده الباب للأحمدية القاديانية المنحرفين عن الإسلام وهيأت لدعاة هاتين الملتين أفضل الظروف بافتتاح مركز للقاديانية في البلاد، اندفع المسلمون يقاومون هذا التيار وانشغلوا في مجادلاته عن مقاومة الاحتلال .

١٠ـ قامت السياسة الهولندية تحت توجيه خبرائها ( أمثال هورفورنيد ) على الاتجاه للدعوة إلى إحياء تاريخ امبراطورية ماجابا هيت الوثنية القديمة والمغالاة في تقدير هذا التاريخ، ومحاولة اتخاذه مثلاً أعلى في الدولة بواسطة علماء الآثار وعلماء اللغات القديمة ( وهذا أمر سعى إليه هورفورنيد في زيارته للجزيرة العربية ولعله للأغراض نفسها ) .

فعملت هولندة على صبغ الجامعة الأندونيسية بصبغة قومية خالصة [٢] لإخراجها من جوهرها الإسلامي وطبعها بروح إقليمية ووثنية قديمة .

هذا الهدف لم يكن خاصاً بالمستشرق ( سنوك ) بل تواطأ عليه جل المستشرقين والباحثين في تاريخ الأمم فسعوا جاهدين لتحقيق هذه الغاية وهي ربط الشعوب الإسلامية بماضي ما قبل الإسلام بإحياء الثقافات القديمة إن وجدت وان لم يجدوا ما يحييونه فنجدهم يختلقون بعض الحوادث التافهة ويبنون عليها معتقدات وحضارات ، وتركب حولها قصص وأساطير ـ كما فعلوا في مصر، والعراق والأردن ..........

واضح من تلك التوجيهات التي أوصى بها سنوك الحكومة الهولندية أنه تمكن من دراسة طبيعة الشعب الأندونيسي دراسة دقيقة لما يتميز به من عاطفة دينية جياشة ، حرص كل الحرص على عدم مصادمتها وأنه مكث عدة سنوات يعمل عملاً بطيئاً ومتواصلاً توصل من خلاله إلى مايطمح إليه من تخدير الشعب

---

(١) محمود شاكر : أندونيسيا ص ٤٨.

(٢) د .جميل المصري :حاضر العالم الإسلامي ج٢ ص ٥٦٦ - ٥٦٩.

المسلم .

وهذه النقاط التي ذكرها الأمير شكيب أرسلان كتبها عن علم بهذا المستشرق، فقد كانت هناك علاقة شخصية بينهما، وكانوا أعضاء في مؤتمر واحد في مؤتمر المستشرقين في ليدن عام ١٣٥٠هـ - ١٩٣١م ، وكانت الحكمة عند هؤلاء المستشرقين هي العمل بدون إعلان على حد تعبير شكيب أرسلان [١] .

(١) شكيب أرسلان : حاضر العالم الإسلامي ج٣/ ٣٧٣ ، وفي نفس التوجيهات السابقة ، انظر المرجع نفسه ج١ ص٣٣٩،٣٤٢.

## الفصل الثالث

# الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة في الدولة العثمانية

فيه مباحث :

المبحث الأول : تسهيل عملية الغزو الفكري لأبناء المسلمين

المبحث الثاني : تغريب الثقافة بين أبناء المسلمين وبروز العلمانية

المبحث الثالث : توسيع النشاط التنصيري في بلاد الإسلام

المبحث الرابع : إلغاء الخلافة وإلغاء تطبيق الشريعة



## المبحث الأول

## تسهيل عملية الغزو الفكري لأبناء المسلمين

قبل الحديث عن انتشار مظاهر الغزو الفكرى في ديار الاسلام ، في أواخر أيام الدولة العثمانية وتسهيل مهمته في كل وسائله - ومن ذلك وجود أشخاص من طبقة المثقفين يدافعون عنه ويثنون على الافكار الوافدة ـ وينكرون وجود الغزو الفكري .

أشير هنا الى مصطلح "الغزو الفكرى" الذى يتردد في هذا العصر كثيرا على ألسنة الباحثين والكاتبين والمتحدثين، لنكشف في وضوح ان هذا المصطلح لم يسمع به قبل القرن الرابع عشر الهجرى (القرن العشرين الميلادي) ولكن ليس معنى عدم وجود المصطلح او عدم استخدام المصطلح قبل القرن الرابع عشر الهجرى ان معنى الغزو الفكرى ومفهومه وموضوعه لم يكن موجودا لان المستقرئ لاحوال الأمم والشعوب يجد ان مفهوم "الغزو الفكرى" كان موجوداً في القديم وفي الحديث.

وكلمة (الغزو) في اللغة العربية تعطى معنى: القصد والطلب والسير الى قتال الاعداء في ديارهم وانتهابهم وقهرهم والتغلب عليهم ومصطلح الغزو الفكرى قصد به "إغارة الاعداء على أمة من الأمم بأسلحة معينة وأساليب مختلفة لتدمير قواها الداخلية وعزائمها ومقوماتها وانتهاب كل ما تملك"[١].

والفرق بين (الغزو الفكرى) و (الغزو العسكرى): ان الغزو العسكرى يأتى للقهر وتحقيق أهداف استعمارية دون رغبة الشعوب المستعمرة.

أما الغزو الفكرى فهو لتصفية العقول والأفهام لتكون تابعة للغازى[٢].

(١) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى في الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربيـة، ص ٦٨٠ ط دار الوفاء، المنصورة، ١٤٠٨هـ القاهرة.

(٢) المصدر السابق ص ٦٨٠ بتصرف.

وقد يكون الغزو الفكرى أشد وأقسى لأن الأمة المهزومة فكريا تسير الى غازيها عن طواعية والى جزارها عن رضا واقتناع وحب لاتحاول التمرد والخلاص وبهذا يظهر ما بين المصطلح واللغة من صلة حيث ان كلمة الغزو استعملت في معناها وهى الاغارة على أمة من الامم للاعتداء عليها وانتهابها ولكن عن طريق الفكر وتدمير القوى المفكرة فيها وهذا مالفتت اليه كلمة "الفكر" التي تطابق معناها في العربية معناها في المصطلح[١].

وسيتضح لنا بعد قليل عند سرد مظاهر الغزو الفكرى ان هناك غزو موجه مقصود به اذابة الشعوب وانسلاخها عن عقائدها ومذاهبها وحضارتها لتصبح مسخاً شائهاً تابعاً لغيره يؤمر فيطيع .. ولقد عمل هذا الغزو على تضليل المجتمعات الانسانية وخداعها والتحويل عليها وقلب الحقائق وتشويه الحقيقة عن طريق زخرفة القول والدخول الى المخاطب من نقطة الضعف والاستغفال لإغرائه والإيقاع به والايحاء اليه بسلامة الفكرة وصحة المفهوم المزيف الذى تحمله كلمات الغا زي .

وقضية الغزو الفكرى اصبحت اليوم من أشد القضايا خطراً وتبدو ظواهر هذا الغزو المدمر في قلوب وعقول كثير من المثقفين في هذا العصر واضحة بينه والسلاح الذى يستعمله "الغزو الفكرى" مدمر فتاك، يؤثر في الأمم والمجتمعات أكثر مما يؤثر المدفع والصاروخ والطائرة وقد ينزل الى الميدان ويعظم خطره حين تخفق وسائل الحديد والنار في تحقيق الهدف والوصول الى الغاية والخطر الذى يجتاحه هذا الغزو أكثر بكثير من قتل الأفراد بل من قتل جيل باسره اذ يتعدى ذلك الى قتل أجيال متعاقبة والسلاح الذى يستعمله هذا الغزو هو سلاح الحيلة والشبهات وتحريف الكلم والخديعة في العرض[٢].

ومما لاينكر: أنه لم يواجه دين من الاديان ولا عقيدة من العقائد مثل ما

---

(١) انظر: المصدر السابق، ٦٨١ مع تصرف واضافة.

(٢) راجع: ابراهيم النعمه، المسلمون امام تحديات الغزو الفكرى ص ٧ ط شركة معمل ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة، العراق ١٩٨٦م.

واجه الاسلام من تحديات فقد واجه الاسلام منذ فجر تاريخه تحديات عنيدة من مخالفيه.

على أن خطر هذه التحديات هى تلك التي تواجهها المجتمعات الاسلامية اليوم، وهى تحديات تتمثل بالمواجهة السافرة حيناً والمستترة أحياناً هذا التحدى الذى يتمثل حالياً بالغزو الغربى[1].

هذا الغزو الذى كتب له النجاح والتفوق كانت له أسباب ساعدت على تقبله بين المسلمين واهمها تفوق الغرب المادى والتعليمى على المسلمين في تلك الفترة (فترة الركود والبعد عن مقومات الحضارة والانتصار) مما شجع أعداء الاسلام على اداء مهمتهم القذرة فمن أول الأفكار التي أثرت في المسلمين الثورة الفرنسية ويعزو المؤرخ عمر عبد العزيز نجاح الافكار الفرنسية الغربية وتأثيرها على الدولة العثمانية الى القوة المادية للغرب واقامة اقتصاد أوربي متحكم وتفوق عسكرى وسياسى يفوق كثيراً ما كان لدى العثمانيين أو أية أمة اسلامية وخاصة في عصر الدولة الثانى ويبدو ان افكار الثورة الفرنسية في عالم الاسلام وفى الدولة العثمانية كان يرجع الى انها كانت أول ثورة اجتماعية في اوربا تدعو الى العلمانية ولا تتأثر بالعقيدة النصرانيه [2] ولم تستثن الدولة العثمانية نفسها او الولايات الخاضعة لها من التأثيرات لهذه الثورة اذا كانت التأثيرات الفرنسية في الدولة العثمانية عسكرية ودبلوماسية أكثر منها فكرية الا ان هذه المؤثرات قد فتحت قنوات تسرب منها الفكر والتقنية الاوروبية لاول مرة الى عالم الاسلام عن طريق المدرسين والخبراء الفرنسيين. حيث وجد العثمانيون انه من الضرورى تعلم اللغات وهكذا أخذ العثمانيون ينقبون في

---

(١) عز الدين الخطيب التميمى وآخرون، نظرات في الثقافة الاسلامية، ص ٣١ دار الفرقان، عمان ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م. الاردن.

(٢) عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربى، ص ٢٥٨.

الاداب الغربية فأخذت بهذه الطريقة الافكار الغربية وافكار الثورة الفرنسية تتغلب على حواجز الرفض الاسلامى لكل ما هو نصرانيى وسار تقدم الدولة الحديثة في هذا المجرى المضاد للاسلام.

والواقع أن هذا التأثير قد اصاب المجتمع العثمانى بكل طبقاته ولئن كان التأثير في اول الامر ضعيفا، الا أنه اصاب الفئات النصرانية التي كانت تعيش تحت مظلة الدولة العثمانية، فزادت خلال القرن الثالث عشر الهجرى الموافق للقرن التاسع عشر الميلادى حيث استطاعت هذه الافكار ان تؤثر في بنية المجتمع العثمانى وان تصيب جميع فئاته بدرجات متفاوته بكلمات ثلاثة براقه (حرية - اخاء - مساواه)[١] كانت تمهيداً للحركة الدستورية وحرب القرم وصدور الخط الهمايونى سنة ١٢٧٣هـ / ١٨٥٦م كما سبق الحديث عنه .

ومن بدايات الغزو الفكرى في الالقاب اطلاق تسمية الرجل المريض على الدولة العثمانية ودعاية الرجل المريض دعاية مغرضه، اطلقت على الخلافة العثمانية في سنواتها الأخيرة فكانت هذه الدعاية دعاية يهودية انطلقت او خرجت من يهود الدونمه في داخل تركيا نفسها فهذا التعبير لم يكن اذا ترجمة حقيقية لوضع الخلافة قبل السقوط[٢] انما هو مجرد دعاية للتشهير بضعف الدولة العثمانية وايهام الناس بذلك لزعزعة ولاء ولاياتها او شعبها لاتخاذها حجة للانفصال وهذا ما فعله محمد على حين ثار على الدولة العثمانية فانفصل عن الدولة سنة ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م وقد سبقه في ذلك اليونان.

لذلك نجد زعماء اوربا حريصين على ترسيخ هذه النسبة لتحقيق أهدافهم فليس مجرد شماته فمن اوائل من اطلق هذا الاسم او عبارة "رجل

---

(١) عمر عبد العزيز عمر المرجع السابق ص ٢٥٨ - ١٥٩.

(٢) هيئة الاخبار: الرجل المريض، دعاية يهودية، مجلة التضامن الاسلامى السنة ٤٤، الجزء ٥، ص ٥٩ - ٦٠ نقلاً عن د. خلف الوذيناني، الدولة العثمانية والغزو الفكري ص٢١٥.

اوربا المريض" هو نيقولا الأول قيصر روسيا سنة (١٢٤١هـ / ١٨٢٥م - ١٢٧٢هـ / ١٨٥٠م) في حديث له جرى سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م وبينه و بين رئيس وزراء بريطانيا فى وندسور في انجلترا وقد قال قيصر من قبل في اسلوب بعيد عن الدبلوماسية واللباقه، حيث قال:

"ليس في استطاعتى ان أبعث الحياة في الموتى، ان الامبراطورية العثمانية دولة ميتة وليس لدى ثقه أن يستمر هذا الجسم العجوز محافظاً على الحياة انه في حالة انحلال في جميع النواحى"(١).

ومن الحقد الدفين الذى يبطنه أعداء الاسلام - ما يقوله هانوتو: "الدين الاسلامى يبعث في الانسان الخمول والكسل ولا يوقظه منهما ... وان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد لان الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك وان كل حكومة انفصلت عن الشرق وسارت على منهاج اوربا علما ومدنية نجحت"(٢).

فعملاء الغزو الفكرى قد عملوا منذ نهاية القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى وبعبارة أصح منذ ان استقر في مجامع الصهيونيه والاستعمار تدمير الخلافة الاسلامية، عند ذلك عملوا على تخريب الفكر الاسلامى وتشويه عقل المسلمين وهم ما زالوا يعملون حتى الان، الاسماء تتغير والشعارات تتلون ولكن الهدف واحد هو تجريد المسلم من أقوى سلاح وهو ايمانه بالله وان كتائب الغزو الفكرى (الطابور الخامس) الذى يعمل داخل صفوفنا ليجهز على مقاومتنا(٣).

وهكذا نرى ان التعاون بين السياسة والتنصير قد اعطى ثمرته الأولى

---

(١) عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها جـ٢، ص ٨٣٠ - ٨٣١.
حسنه لبيب: تاريخ الاتراك العثمانيين جـ ٢ ص ٣٧. نقلاً عن د. خلف الوذيناني - المرجع السابق ص٢١٧.

(٢) السيد أحمد فرج: جذور العلمانية ص ٣٦. نقلاً عن المرجع السابق - الوذيناني ص٢١٩.

(٣) محمد جلال كشك: الغزو الفكرى، (الطبعة الرابعة، القاهرة، المختار الاسلامى للطباعة والنشر والتوزيع، ١٣٩٥هـ) ص ٧. نقلاً عن المرجع السابق - الوذيناني ص٢٢٠

حين أخذت الاقطار الشرقية تسقط تحت السيطرة او النفوذ الاجنبى الا ان هذه الدول لم تقص المنصرين بعد ان نالت حاجتها من جهودهم بل زادت تقريبهم لانهم أصبحوا اعرف الناس للبلاد وأهلها واتجاه الريح فيها لذلك وقف المنصرون ورجال السياسة وجها لوجه اى الفريقين يجب ان يتقدم على الأخر وكان المنصرون من قبل يدخلون البلاد وبعد ذلك يأتى الجيش على أثر ذلك ولكن في أواخر القرن الثالث عشر الهجرى التاسع عشر الميلادى أخذ المنصرون بتقديم الجيش أولاً لأن ذلك يسهل مهمتهم (١).

معنى هذا ان تغيير هذا النظام يعطينا دلالة واضحة على ضعف الدولة العثمانية وعدم استطاعتها المقاومة كما كانت في سابق عهدها لبعد هذا الميدان عن الدولة المنشغلة في مشاكلها الداخلية وما أكثرها آنذاك. لهذا فضل المنصر ان يعمل بعد الاحتلال فكان حكام هذه المناطق على حق في تخوفهم حينما يعتقدون ان مجئ المنصرين ينهي دائماً تدخل الدول النصرانية في بلادهم ثم بعد ذلك يفقدون جزءاً منه (٢).

ولقد تظافرت قوى الشر والكفر والعدوان على نشر هذا الغزو الفكرى وترويجه في العالم الاسلامى حيث تحالفت في هذا الصهيونية العالمية والاستعمار المتواطئ معها والاستشراق والتبشير واتخذوا مختلف الوسائل والاساليب المؤدية الى تحقيق أهدافهم. والتي كان من أبرزها ارساليات التبشير في العالم الاسلامى، وافتتاح المدارس والكليات والجامعات الاجنبية التي انتشرت في البلاد الاسلاميه منذ بدء الاستعمار الى وقتنا الحاضر وارسال البعثات الطلابية الى الجامعات الآوربية لتلقى العلوم والأفكار والنظريات الغربية، تلك البعثات التي بدأت منذ

---

(١) مصطفى خالدى وعمر فروخ: التبشير والاستعمار ص ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) مصطفى خالدى وعمر فروخ: المرجع السابق ص ١٤٥.

العهد العثمانى وعهد محمد على[١] بمصر وكذلك الطعن في الاسلام وتشويه صورته امام الناشئه والشباب ونشر الفلسفات الهدامة [٢]، وبث النظريات والمذاهب المعادية للاسلام [٣].

ولقد نفذ هؤلاء الغزاة المستعمرون بافكارهم المسمومة الى العالم الاسلامى عن طريق منافذ وحقول عديدة من أهمها وسائل الاعلام المرئية والمسموعة والمقرؤة والمؤسسات التعليمية ومراكز التوجيه عامة على اختلاف اختصاصاتها ومسئولياتها، وكذلك الأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية.

ولقد كانت هناك عوامل عديدة ساعدت على انتقال الفكر الدخيل الينا وغزوه لنا في عقر دارنا، يأتى في مقدمتها الغاء الخلافة الاسلامية وانهيار الدولة العثمانية التي وقفت قرابة الستة قرون سداً قوياً حصيناً منيعاً ضد الاطماع الغربية الاستعمارية وظلت شبحاً مخيفاً وكابوساً ثقيلاً يجثم فوق صدور الغزاة الصلبيين حتى في أشد مراحل ضعفها وانحطاطها وما استتبع ذلك من فرقة وانقسام واختلاف هذا بالاضافة الى تخلف العالم الاسلامى في الأعصر الأخيرة وضعفه وتقصيره في الأخذ بأسباب النهضة والتقدم والرقى وذلك ناتج عن بعده عن المنهج الالهى الصحيح وضعف روح العقيدة والجهاد في ابناء الامة الاسلامية والركود العلمى والفكرى الذى هيمن على الحياة الاسلامية في

---

(١) هو محمد على باشا ابن ابراهيم أغا المعروف بمحمد على الكبير مؤسس آخر دولة ملكية بمصر ولد في (قولة) سنة ١١٨٤هـ / ١٧٧٠م ألبانى الأصل مستعرب كان والى مصر سنة ١٢٢٠هـ وعنى بتنظيم حكومتها توفى بالاسكندرية سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م / الزركلى - الاعلام، جـ ٦ / ص ٢٩٨ - ٢٩٩.

(٢) أمثال: الوجودية، والفوضوية، والقاديانيه، والبابيه، والبهائية.

(٣) أمثال: الديمقراطية والشيوعية والاشتراكية والقوميات بانواعها. وللاستزاده في هذا المجال راجع كتاب "الغزو الفكرى وأثره في المجتمع الاسلامى المعاصر" للدكتور/ على عبد الحليم محمود في الصفحات ١٧٥ - ٢٠٠ من الطبعة الأولى.

الوقت الذى كانت فيه اوروبا قد نفضت عنها غبار الماضى وحثت الخطى على طريق الاكتشافات والعلوم الحديثة واثبتت تقدمها وتفوقها في شتى المجالات والميادين.

وقد تحقق لاعداء الاسلام ما أرادوا، ويتجلى لنا ذلك من خلال تلك التبعية الفكرية التي بدأت اعجابا بالمظاهر المدنية والمبتكرات العلمية الغربية ثم تحولت الى شيوع روح الانهزام الفكرى وضياع روح الاعتزاز بالشخصية الاسلامية لدى فريق ممن تخرج على أيدى اساطين الاستعمار ووفق مناهجه وخططه وفقد كل السمات الأصلية التي تربطه بعقيدته وأمته. وتلقيهم الافكار والمفاهيم الغربية المعادية للاسلام بالاستحسان والقبول واعتناقها والترويج لها حيث شاعت على السنتهم وباقلامهم فكرة فصل الدين عن الدولة وعن العلم والاقتصاد وعزلة عن القضاء والتشريع على نحو ما جرى في اوربا في عصر النهضة واعتماد القوانين الوضعية الاجنبية والمناداة بتحرير المرأة وسفورها والدعوة الى تطوير الاسلام وتحليل الوقائع التي حلت بالمسلمين في العصر الحديث بمنظور غربى والتماس الحلول في غير المنهج الاسلامى واقتران تلك الافكار والدعوات التي تستهدف الاسلام عقيدة وتشريعاً ونظاماً ومنهاجاً بإثارة طائفة من الشبهات التي لا ترتكز على أى سند علمى أو برهان منطقى واقترانها أيضاً بمحاولة وضع نظم الحياة وصياغة القيم والاخلاق وفق المفاهيم الغربية.

## مظاهر الغزو الفكري

**أولاً: حملات التشويه:**

اذا بحثنا في حملات التشويه - والتي كانت مظهراً من مظاهر الغزو الفكرى - وجدنا ان هذه الحملات مست كل ما يتصل بالاسلام من عقائد ونظم وتراث وتاريخ وفكر وحياة.

(١) فهناك محاولة تشويه عقائد المسلمين، بغير سند ولا دليل .

(٢) وهناك محاولة تشويه القرآن الكريم وهى محاولة قديمة وحديثه وهذه المحاولة كغيرها بعيدة عن العلم والمنطق.

يقول المستشرق جب: "ان محمداً قد تأثر بالبيئة التي عاش فيها وشق طريقه بين الافكار والعقائد الشائعة في بيئته فالقرآن من صنع محمد ﷺ ومن ملاءمات هذه البيئة التي عاش فيها"[١].

(٣) وهناك محاولة تشويه السنه النبوية وهى محاولات ضاربة وعميقة الجذور في تاريخ الحرب ضد الاسلام وهى محاولات تستهدف ما تستهدفه محاولات تشويه القرآن الكريم من عزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدريه الاساسيين: القرآن والسنة ... وهى حرب دخلت على المسلمين حديثا عن طريق الغزو الفكرى، وقد جند أعداء الاسلام لتشويه السنة ما جندوا من أقلام وكتب ومجلات وبحوث. ومجمل محاولات الأعداء:

أ ـ الادعاء بأن هناك أحاديث مما يراه المسلمون صحيحا لا يمكن ان تكون قد صدرت عن النبى صلى الله عليه وسلم .

ب ـ والادعاء بأن محاولة وجود شئ في الحديث النبوى يمكن القطع

---

(١) انظر: الدكتور على عبد الحليم محمود، الغزو الفكرى والتيارات المعادية للاسلام ص ٢٩ جامعة الامام ١٤٠١هـ.

بصحة نسبته الى النبى ص تاريخياً، محاولة فاشلة.

ج ـ الأدعاء بان الفرق الاسلامية عندما اختلفت في الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التي يؤيد بها رأيه(وهذا الأمرفيه بعض الحق كالمرجئه والرافضه وغيرهم...فهي كلمة حق أريد بها باطل).

د ـ الادعاء بان الاحاديث النبوية ليست إلا سجلاً للجدل الديني في القرون الأولى[١].

(٤) وهناك محاولة تشويه شخصية الرسول محمد ص وهى محاولات قديمة وحديثه ومستمرة، تهاجم رسول الله ﷺ وتحاول ان تنال من شخصه الكريم. ومن هؤلاء الأعداء الحاقدين على الاسلام الذين تطاولوا على شخصية الرسول الصادق الأمين:

١- وليم موير في كتابه "**حياة محمد**".

٢- الفردجيوم في كتابه "**الاسلام**".

٣- صمويل زويمر في كتابه "**الاسلام تحد لعقيدة**".

٤- جولد زيهر في كتابه "**تاريخ مذاهب التفسير الاسلامى**".

٥- هـ أ . ر . جب في كتبه:

(أ) طريق الاسلام.

(ب) الاتجاهات الحديثة في الاسلام.

(جـ) المذهب المحمدى.

(د) الاسلام والمجتمع الغربى.

٦- فيليب حتى وهو نصراني لبنانى في كتابه "**تاريخ العرب**".

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩، ٤٠.

٧- مجيد خورى وهو نصرانيى عراقى في كتابه "الحرب والسلام في الاسلام"[١] .

وغير هؤلاء كثير ... وما أردنا الاحصاء أو الاستقصاء .. وكل هؤلاء حاولو تشويه الاسلام ونالوا من شخص الرسول ص فيما كتبوا وافتاتوا على الحق وموهوا، وملأوا الدنيا ضجيجاً بأصوات الباطل، وهراء الجاهلين وسموم الحاقدين [٢].

(٥) وهناك محاولة تشويه مجال الغيب في الاسلام وهذه المحاولة أريد منه زعزعة الايمان بالغيب عند المسلمين ولذا جاءت المحاولة بالتشكيك في كل ما لاتدركه الحواس وتفسير الجزاء عند المصدقين به .. بأنه جزاء روحى والجنة والنار بأنها شعور نفسى. وقد استغل المستشرقون من النصارى بعض كتابات غلاة الصوفية والفرق الباطنية في تسويغ مثل هذه المعاني الباطلة.

(٦) وهناك محاولة تشويه التاريخ الاسلامى: وهذه المحاولة من أخبث المحاولات وأكثرها خبثا ومكراً فقد صور هؤلاء الحاقدون على الاسلام والمسلمين ان الفتوحات الاسلامية فتوحات غزو واستعمار وان الخلافة الاسلامية خلافة تآمر وسفك للدماء وغير ذلك كثير مما لايقره عقل ولادين.

وبالتالي حصل تشويه كبير لمفهوم الجهاد الأسلامي وحقيقته ودلالاته الشرعيه .

(٧) وهناك محاولة تشويه التراث الاسلامى ولا يخفى ان تشويه تراث الأمة هو تشويه للأصالة التي تنطلق منها وتراث المسلمين تعرض لانتهاك هؤلاء الحاقدين على كل ما هو اسلامى فأصابه ما أصاب غيره من الافتراء والافتئات.

---

(١) انظر: الدكتور علي عبدالحليم محمود، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام ص٤٥-٤٦.

(٢) المصدر السابق ص٤٦.

(٨) وهناك محاولة تشويه نظام الحياة الاسلامية وذلك بالادعاء بأنه لايوجد نظام للحياة معروف في الاسلام والتهم التي وجهت الى نظام الحياة الاسلامية كثيرة ولكن ابرزها وأخطرها:

**أولاً**: اتهامهم للقوانين والنظم الاسلامية بالرجعية وعدم القدرة على مواكبة ركب التحضر والتقدم[1].

**ثانياً**: اتهامهم النظم الاسلامية بالمحلية والقصور والاقليمية.

**ثالثاً**: اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ تعتمد على وحشية او همجية او قسوة وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد.

**رابعاً**: اتهامهم للقوانين والنظم الاسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها في عصر من العصور.

**خامساً**: اتهامهم لها بأنها تتجاهل الاقليات غير الاسلامية في ظل الدولة الاسلامية.

وهذه التهم قد اطلقها أعداء الاسلام من أهل الذمة وغيرهم وشاركهم في اطلاقها بعض المسلمين المخدوعين بالفكر الغربى.

(٩) وهناك محاولات تشويهية أخرى، تتصل بجوانب من الاسلام:

**أولاً**: ان هذه المحاولات فى مجموعها، تشكل انقضاضاً على مبادئ الاسلام وتعاليمه.

**ثانياً**: من مظاهر الغزو الفكرى: احياء النزعات الجاهلية التي لا تتفق مع تعاليم الاسلام كالدعوة الى القومية والدعوة الى الفرعونية والاشوريه والفينيقية وما جرى مجرى هذا مما يتنافى مع الاسلام.

**ثالثاً**: الدعوة الى التحلل والاباحية، وهذه دعوة خبيثة لأنها تطعن الأمة في

---

(١) المصدر السابق ص ٧٨.

أخلاقها وقيمها وقد شاعت في المجتمعات الاسلامية أمور تعافها الفطر السليمة ولكنه الانحراف الذى لا يعترف بالقيم الفاضلة.

**رابعاً**: ابعاد العلماء من مراكز التوجيه والسلطة: ولا يخفى ان ابعاد العلماء عن المراكز التوجيهيه أمر له خطورته وفي بعض المجتمعات تقلص دور العلماء وأصبح قاصراً على خطبة الجمعة وبعض الاحاديث التى تخضع للعيون الساهرة والمراقبة الدقيقة وأصبح بعض العلماء يجرون وراء المناصب جرياً تذل له الجباه ويطلبون المناصب بما لهم من مآثر في الاتباع وآياد في التصفيق والتأييد.

**خامساً**: التعليم والثقافة ولا يخفى ان الغزو الفكرى ينتشر من خلال مدارس التعليم ومعاهده وجامعاته أفضل من أى مظهر آخر.

وقد دخل الغزو الكفرى الى العالم الاسلامى من باب يخيل الى السطحيين من الناس انه الباب الطبيعى. اذ حمل اسم العلم والمعرفة والتمدن، يقول القس زويمر "المدارس احسن ما يعول عليه المبشرون في الاحتكاك بالمسلمين"[١].

ومن المعروف ان المسلمين أقبلوا على هذه المدارس بكثرة كاثرة يزدادون من مناهجها ويلتهمون كل ما أنتجته من عقيدة وفكر لا يميزون صحيحها من فاسدها ونفعها من ضرها[٢].

**سادسا**: الاعلام على اختلاف صوره وأشكاله من صحافة وتلفاز ومذياع ....

فلا يخفى على مسلم مدى الشرور التي غزت المسلمين عن طريقها ـ وقد سبق بيان شيء منها في الكلام عن الصحافة واستغلال أهل الذمة لها ـ وبما أن

---

(١) محب الدين الخطيب، الغارة على العالم الاسلامى، ص ٤٨، ط ١٣٨٤هـ.

(٢) ابراهيم النعمة: المسلمون أمام تحديات الغزو الفكرى، ص ١٣.

الثقافة ليست علوماً ومعارف وأدباً وفنوناً فحسب بل مناهج فكر وخلق تصطبغ حياة الأمة بصبغتها في شتى ضروب نشاطها، فان "الغزو الفكرى" استطاع من خلال الثقافة، ان يلقى من الاخلاط الغربية الملتمسة ـ المستقاة ـ من الفكر الغربى المنحرف والتوجيه الفاسد، القائم على التخطيط الشرير [١].

ولذا قام الغزو الفكرى بالدعوة الى الاغراض الآتية:

١- الدعوة الى اضعاف العلاقة بين المسلمين بقطع الروابط الثقافية واحياء الثقافات الجاهلية.

٢- الدعوة الى العامية والى تطويرها.

٣- ايجاد الشعور بالتبعية الثقافية والشعور بمركب النقص.

٤- دفع الجامعات الى الاعتماد على كتب المستشرقين العلمية.

٥- توهين جهود المخلصين الثقافية والابداعية.

٦- تمجيد القيم الغربية وتسفيه القيم الاسلامية والدعوة الى نبذها.

٧- لفت المجتمعات الى القشور وإلهائها عما يفيد وينفع.

٨- احياء المذاهب الفلسفية والجدلية والبعد عن الاساليب العملية.

٩- انشاء الموسوعات التاريخية الاسلامية وبذر الشكوك ولي الحقائق فيها.

١٠- الحرص على تكوين جيل مثقف يحمل راية الاستشراق والدعوة اليه [٢].

١١- الدعوة الى تدريس العلوم الطبية وغيرها بلغات غير اللغة العربية، ليظل المسلم عنده إحساس بعجز اللغة العربية لغة القرآن.

---

(١) انظر: عمر عودة الخطيب، لمحات في الثقافة الاسلامية، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢) انظر: الدكتور توفيق يوسف الواعى، الحضارة الاسلامية مقارنة بالحضارة الغربية، ص ٧٢٢.

**سابعاً : الخدمات الاجتماعية:** والخدمات الاجتماعية مظهر من مظاهر الغزو الفكرى وقد وجد المخططون لغزو العالم الاسلامى ان الخدمات الاجتماعية طريق ساعد على إمراره من خلال الخدمات الاجتماعية ولذلك اصبحت الملاجئ والمستشفيات والمستوصفات والجمعيات الخيرية ووكالات الاغاثة ودور الأيتام والمسنين وغيرها .. مراكز غزو !! كما سيأ تي تفصيله..

ومما يلاحظ ان "الغزو الفكرى" لم يقتصر على المظاهر التي ذكرنا بعضاً منها وانما كانت هناك خطوات أخرى محسوبة ومتعددة على كافة الجهات والطرق ومن هذه المخططات:

١- الارساليات التبشيرية التي قل ان يخلو مجتمع اسلامى منها.

٢- الاعداد الصهيونى والتنسيق بينه وبين الفكر الغربى.

٣- التصنيف والتأليف في المباحث الاسلامية واستغلال قصور المسلمين فيها.

٤- القاء المحاضرات في الجامعات أو الجمعيات الاسلامية.

٥- انشاء دوائر المعارف الاسلامية والمعاجم المختلفة وغيرها.

٦- استغلال البعثات العلمية والثقافية.

٧- الامتيازات الاجنبية والحصانات الدبلوماسية واستغلالها.

٨- استغلال الأقليات والطوائف والثغرات.

٩- التعاون بين التبشير والسياسة.

١٠- استغلال الحركات الوطنية، والتطلعات السياسية.

١١- استغلال فقر الشعوب وحاجتها وربط الاحسان بالتبشير.

١٢- استغلال العواطف والجوع الجنسى واستخدامه في خدمة الأهداف التنصيرية.

١٣- الرحلات، وجمعيات الصداقة والدعوة الى العالمية والمجتمعات الكشفية.

١٤- المساعدات الاقتصادية وربطها بتسهيلات وتنازلات معينة.

١٥- الدعوة الى الحوار الحر مع نبذ العقائد والأفكار والتجرد للوصول الى الحقيقة في زعم هؤلاء [١].

**غزو المسلمين عن طريق اغراقهم في الشهوات:**

التنسيق الآخر الذى سلط أعداء الاسلام جهودهم فيه محاولة مسخ اخلاق المسلمين ومحاولة طمس عقولهم عن غاياتهم وما يدور حولهم ويحاك في شأنهم من مؤامرات ، وكان من الوسائل - والتي للأسف نجح فيها أهل الذمة - نشر الشهوات على اختلاف ابوابها بين أوساط المسلمين على اختلاف طبقاتهم من رجال وشباب وفتيات. وهذا ما كان اليهود قد سطروه في بروتوكولاتهم ونفذوه في أوربا - والشريحة الأخرى كانت في بلد مسلم له دور القيادة بين العرب والمسلمين وفيه أكبر صرح علمي ودعوي في ذلك الوقت و هو مصر.

فقد سعى أهل الذمة في الداخل والنصارى(الصليبيين) في الخارج على نشر الملهيات من الخمور والمخدرات بأنواعها وارسال البغايا والمومسات، وفتح النوادى الليلية - ونوادى القمار حتى أصبحت من الكثرة ما لايستهان به....كل ذلك وللأسف تحت علم ودراية بل وتصريح الحكومة مستغلين بذلك ما لهم من امتيازات كما سيأتي تفصل هذه القنوات وهذا المجال من مجالات الغزو الصليبى في الصفحات التالية .

**دور أهل الذمة في نشر الخمور** : كان تعاطى الخمور من الافات الاجتماعية

---

(١) المصدر السابق ص٧٢٣.

التي انتشرت في مصر على أيدى الاجانب الذين افتتحوا محلات الخمور في انحاء القطر المصرى وانتشرت الحانات الأجنبية في القاهرة والاسكندرية ومدن القناة حيث تركز الاجانب بهذه المدن ولم تكن الحكومة تستطيع اغلاق حانات الخمور المملوكة للأجانب بسبب الامتيازات [(١)].

وقد اتخذت الحكومة قراراً يمنع منح المصريين رخصاً لفتح حانات لبيع الخمور ومنعت الرخص أيضاً عن الاحياء الوطنية واستثنت الأحياء الاوربية في القاهرة والاسكندرية وبورسعيد والسويس والاسماعيلية فيستطيع الاجنبى ان يفتح ما يشاء من حانات الخمور غير ان هذا الامر لم يمنع الوطنيين من فتح حانات الخمور اذ أقبل الاجانب على استخراج الرخصة لفتح الحانة واعطائها للمصرى لقاء ٣٠٠ أو ٤٠٠ جنيه فيفتح المصرى الحانه باسم الاجنبى بعد أن يدفع له هذا المبلغ ويتعهد أيضا بان يدفع للأجنبى أجراً شهرياً يتراوح بين ١٠ ، ٢٠ جنيهاً وقد نتج عن ذلك أن تعددت الحانات في القاهرة حتى بلغت بها أكثر من مائة حانة يديرها مصريون ويملكها الاجانب رسمياً [(٢)].

ومن جراء ذلك انتشرت عادة شرب الخمور بين المصريين حتى اعتادت أغلب الطبقة الوسطى من المصريين على شرب (الوسكى) ظهرا (والبيرة) عصرا (والكنياك)مساءاً ظنا منهم ان ذلك من مظاهر التمدن والحضارة الاوروبية [(٣)].

وقد استغل الأجانب ما عرف باسم المسموحات الجمركية وهذه ضمن

---

(١) السياسة: العدد ٤٣٥٧ في ٢٢ ابريل سنة ١٩٣٨، السنة ١٦ ص ١.

(٢) البلاغ: العدد ٢٥٦٨ في ١٩ نوفمبر سنة ١٩٣١م السنة ٩، ص ٥.نقلاًعن النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر / محمود محمد سليمان أحمد : ماجستير جامعة الزقازيق .

(٣) حلمى على مرزوق: تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين، الطبعة الاولى، دار المعار القاهرة سنة ١٩٦٠، ص ٣٦.

اتفاقات الأمتيازات. وكانوا يهربون عن طريقها المخدرات الى مصر ففى يناير سنة ١٩٣١م تمكن رجال االشرطة من القبض على عصابة من اليونانيين تمكنوا من تهريب كمية كبيرة من الحشيش وزنتها نحو نصف طن باستعمال خطاب نسبوا صدوره من القنصلية الايطالية الى الجمارك للافراج عن الصناديق التي كان بها الحشيش على انها مسموحات جمركية على اعتبار ان بها أدوات خاصة بالقنصلية (١) .

وهكذا مارس الأجانب الاتجار بالمخدرات وتهريبها في ظل حماية الامتيازات الأجنبية تحقيقا لهدفهم في الاثراء السريع من وراء هذه التجارة الرابحة وأقبل المصريون على تقليدهم في هذه التجارة والعادة السيئة التي نقلها الاجانب وروجوها في مصر الامر الذى ترك أثراً سيئاً في المجتمع المصرى حيث أخذت هذه التجارة تستشرى بين ارجائه وطبقاته.

وهكذا فتحت الامتيازات الباب واسعاً امام الاجانب لكى ينشروا هذا الفساد بين الأهالى في طوال البلاد وعرضها ويبثوا سمومها لتفتك باجسامهم وعقولهم وأموالهم فتكاً ذريعاً.

وكذلك استغل الاجانب الامتيازات فاتخذوا أرذل المهن للاثراء منها ومن ذلك فتحهم نوادى القمار التي انتشرت انتشارا بالغا بين الطبقات في كل من القاهرة والاسكندرية فكانت المقاهى هى المرتع الخصب الذى يلجأ اليه المقامرون من المصريين والاجانب.

وانتشرت محلات القمار الاجنبية في كل مكان فلم تكن الشرطة ايضا تستطيع دخولها الا بموافقة القنصليات وحضور مندوبيهم، واذا تمكن العساكر من الدخول فعندما يقرع الجرس الكهربائى وتخفى أدوات اللعب ويأخذ

---

(١ ) كوكب الشرق: العدد ٦٣٧ في ٢٨ سبتمبر ١٩٢٦م السنة الثالثة، ص ٤ .نقلاً عن محمود سليمان/ المرجع السابق

اللاعبون في قراءة الجرائد او لعب العاب غير تلك[١].

و هذه النوادى لم تقتصر على القمار فقط بل كان بها من يتاجر في المخدرات والرقيق الابيض كما اقام الاجانب أيضا نوعا من المقامرة العلنية مثل المراهنة على سباق الخيل وصيد الحمام وأخذوا يرغبون الجمهور فيه بوسائل شتى كاعلانات شائعة في الصحف وعلى جدران الشوارع لتحقيق الكسب السريع والربح الوفير[٢].

وقد انتشرت في عام ١٩٢٧م نوع من أنواع القمار يعرف باسم "الالعاب الامريكية" وهى عبارة عن صندوق مقفل يلقى اللاعب فيه قطعه من النقود ثم يحرك يداً خاصة باللعبة فاما ان تمنح اللاعب قطعة من الحلوى او عددا من القطع النحاسية يمكنه أن يدفعها ثمنا لما شرب في المقهى أو لا تمنحه شيئا وانتشرت هذه اللعبة في القاهرة ومنها الى عواصم المديريات الكبرى حيث اجتذبت البسطاء والشبان وصغار العمال وصبية المدارس ابتغاء الربح منها ولكنهم لم يجنوا منها الا الخسارة والأسف لما فقدوه وكان المستفيد دائما هو الاجنبى سواء كان صاحب اللعبة أو صاحب القهوة.

وقد بلغ عدد الاماكن التي تجرى فيها الالعاب في مدينة القاهرة خمسة وعشرون محلا ولم تستطع الحكومة اغلاقها لانها مملوكة لاجانب[٣].

ومن القاهرة انتقلت هذه اللعبة الى انحاء مصر ففى اهم شوارع طنطا أنشأ بعض الأجانب محلا للمقامرة العلنية التي تعرف باسم اللعبة الأمريكية رغم ان الحكومة لم توافق على منحهم رخصة لفتح هذا المحل ولكنهم فتحوه اعتمادا

---

(١) يوسف خليل جاد الله ص ٧٥.

(٢) البلاغ: العدد ١٤٧٣ في ٩ يناير ١٩٢٨، السنة ٥ ص ١.( نقلاً عن محمود سليمان ).

(٣) وزارة الداخلية: ادارة عموم الامن العام، تقرير عن الامن العام في القطر المصرى عام ١٩٢٨، مطبعة مصر سنة ١٩٢٩، ص ٦٩.

على ما لهم من امتيازات تحول دون اقدام الحكومة بغلق هذا المحل المعد للمقامرة العلنية [١].

وأصيب المجتمع المصرى بانتشار الدعارة والبغاء كآفة من الآفات التي نقلها وعمل بها الأجانب في مصر، حيث جاء الى مصر آلاف المهاجرين من اليهود والأرمن والايطاليين واليونانيين والفرنسيين وغيرهم من الأوروبيين الذين اشتغل معظمهم بالدعارة والبغاء، فانتشرت البيوت السرية في القاهرة والاسكندرية وعواصم المديريات وكثرت بها البغايا من الأجنبيات اللاتى لم تخل أحياء الأزبكية ووجة البركة وبولاق من اسرابهن [٢].

ولقد مارس الأجانب تجارة الرقيق الأبيض في شتى أنحاء القطر المصري لا سيما في الأماكن التي يتواجد بها، وكان موقف الحكومة المصرية سيئا، فقد كانت هناك بيوت مرخص لها بالقيام بالبغاء العلنى، هذا الى جانب العديد من المنازل السرية التي ادارها الأجانب ولم تكن الحكومة تستطيع اتخاذ أى اجراءات ضدهم وكانت تكتفى بالقبض على العاهرات الأوربيات وتقوم بتسليمهن الى قنصلياتهم لمحاكمتهم او تطلب من القنصليات إبعادهم خارج مصر [٣].

فكانت الامتيازات الأجنبية عقبة تحول دون سيطرة االشرطة على بيوت الدعارة غير المرخصة والتي يديرها الأجانب بسبب تغيير جنسية صاحب البيت فيذكر ان الشرطة قد علمت ان هناك فرنسية تدير بيتا للدعارة، وعندما وصل البوليس الى البيت المذكور ومعهم مندوب من القنصلية فوجئنا بأن مدام ريفون

(١) البلاغ: العدد ١٥٥٢ في ٩ أبريل سنة ١٩٢٨ السنة ٦ ص ١. ( نقلاً عن محمود سليمان ) .

(٢) لطيفة محمد سالم: مصر في الحرب العالمية الأولى، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة سنة ١٩٨٤، ص ١٩٨.

(٣) السياسة: العدد ٣٧٦٨ في ٣١ يوليه سنة ١٩٣٥، السنة ١٣ ص ٦/٧، البلاغ: العدد ٢٥٧٠ في ٢١ نوفمبر سنة ١٩٣١ السنة ٩ ص ٢.

صاحبة البيت تعلن أنها باعت المنزل لمدام جنتلى الايطالية فلم يكن من الممكن دخول المنزل بدون حضور ممثل القنصلية الايطالية وفي الأسبوع التالى عدنا ومعنا الممثل القنصلى الايطالى لتعلن مدام جنتيلى انها باعت البيت لأجنبى آخر الأمر الذى يتطلب حضور مندوب قنصليته[١]، وهكذا يتحايل الأجانب على القانون ليستمروا في تجارتهم في ظل حماية الامتيازات لهم.

وكانت مصر تتعرض كل عام لسيل مستمر من البغايا الأجنبيات اذ كانت انجلترا وايطاليا ورومانيا وفرنسا مصدر خصب لتوريد تلك البغايا لمصر حيث يسهل استعمال الجوزات المزورة، فضلا عن أن البغايا يتمتعن بحرية نسبية فلم يكن هناك قانون يحد هجرتهم الى مصر، ويحدد اقامتهم بها.

ومما يبين لنا مدى انتشار تجارة البغاء في قطر مسلم هذه الاحصائيات في سنة واحدة فقط حيث بلغ عدد اللائى ضبطن في الشوارع ١٨٨٤ إمرأة بغى، وعدد البيوت التي اتخذ ضدها اجراءات عقابية ١٠٢ منزل[٢]!

وفي سنة ١٩٣٤م تقول احصائيات وزارة الداخلية بأن عدد النساء الذين ضبطن يحرضن المارة على الفسق (٢٩٣٣) بغى، وعدد البيوت ٣٥٩ هؤلاء الذين اتخذ بشأنها إجراءات قانونية! بخلاف البيوت التي لم يتعرض لها وقد تكون أكثر. هذا في القاهرة فقط[٣]!!

(١) النشاط السياسى والثقافي والاجتماعى للاجانب في مصر، ص٢٦٢-٢٦٣.

(٢) السياسة: عدد ١٥٩٤، ١٦ ديسمبر السنة السادسة ص ١.

(٣) انظر النشاط السياسى والثقافى والاجتماعي للاجانب في مصر: محمود محمد سليمان أحمد - رسالة ماجستير جامعة الزقازيق كلية الأداب -نقلا عن التقرير السنوي لشرطة القاهرة لسنة ١٩٣٤م، ط الأميرية ١٩٣٥ ص ٢٦٣.

## المبحث الثاني

## تغريب الثقافة بين أبناء المسلمين وبروز العلمانية

إن الحديث عن التغريب هو حديث عن ثمرة من ثمرات الغزو الفكرى التي سبق الكلام عن مظاهره بل عن سمة من أبشع سمات هذا الغزو وهى قلب مقاييس وأعراف الناس ومفاهيمهم في كل مجالات الحياة و أبلغها مجال التشريع وإلغاء الشرع الحنيف واستبدال القوانين الوضعية به.

ولا تقف عملية التغريب التي يقوم بها الغرب والمستغربون عند مجال واحد ولا جزئية واحدة ولكنها تتناول كل مجالات الحياة عند المسلمين في الدين واللغة والادب والفن والقوانين والسياسة والتعليم و .... و .....

وكان يجب أن يتنبه المسلمون الى أن الغرب فيما يعقده من مؤتمرات أو يؤلفه من مؤلفات إنما يسعى لحماية المصالح الأوربية عامة واليهودية خاصة، و لأهل الذمة نشاطات كثيرة في مجال التغريب والنيل من الإسلام ومحاولة إذابة المجتمعات الإسلامية في المجتمعات الغربية.

ولتغريب الشعوب الإسلامية طرق كثيرة و متشعبة سلكها أعداء الإسلام منها:

- تدعيم العصبيات الإقليمية والتأكيد على المعانى الوطنية وحدها دون الإسلامية.

- ومنها اهتمامهم بنشر ألوان معينة من الثقافة كاهتمامهم بالآثار القديمة في كل موطن من مواطن الشعوب المسلمه (كما سبق معنا تفصيله) وفي السابق في عصور الوعي واليقظة الإسلامية كان يتوقف عند كل جديد وافد على المسلمين هل يتعارض مع الاسلام أم لا أما هذه العصور الأخيرة فلم يعد مهما هذا الأمر المستحدث مما سمح به الإسلام ويقبله؟ بل المهم أنه من الغرب اذن

يجب علينا أخذه لكي نرقى لدرجة الأمم المتحضرة.

من أجل ذلك أجاب سعيد النورسي حين سأله شيخ الأزهر محمد نجيب المطيعي عن رأيه في أوربا ورأيه في الدولة العثمانية قائلاً: إن أوربا حامل بالاسلام فستلده يوماً ما، وإن الدولة العثمانية حامل بأوربا وستلدها يوما ما[(١)].

ويعد انتشار التغريب في العالم الاسلامي نسي المسلمون أصل دينهم فحدث انهيار هائل في القرن الأخير في هذه الأمة وأصبح المسلم المهزوم أمام هذا الوضع، مسلماً لم يكتمل إسلامه، ولم يتثقف ثقافة الإسلام، ولم يدرسه ولم يطلع على دينه كما جاء صافيا، فالمنهزم امام المبادئ المستوردة منهزم لأنه فقد السلاح .. وصار يردد ما قيل له وما يلقنه دون تحكيم عقل لأنه لا يوجد عقل .. بل صار نسخة كربونية عن تفكير من يملي عليه[(٢)].

**مجالات التغريب:**

أ- التغريب في التشريع: من أخطر المجالات التي حصل فيها التغريب وليس على مستوى تركيا فقط بل يكاد يكون على كل البلاد الاسلامية ما حصل في مجال التشريع واستقدام القوانين المدنية الأوروبية والتي يرجع إليها جميع شرائح المجتمع فعمت بها البلوى فمن لم يشارك في التشريع أصابه غبارها.

- عند بعض الكتاب أن بداية التغريب كانت في عهد سليمان القانونى. فهو الذى استقدم بعض القوانين الأوروبية لحل بعض الأمور، من هنا فقد اطلق عليه سليمان القانونى وعلى أى حال لم يذهب أحد الى أن قوانينه تناظر الشريعة، فهى لا تعدو أن تكون تنظيمات تتناول شئوونا لم يرد فيها نص

(١) حياة بديع الزمان النورس وترجمته: ص ٤٩ - ٥٠.

(٢) عوامل النصر والهزيمة ص ١٢٠.

تتعارض مع أحكام الشريعة(١).

- وقيل إن العصر المسمى بالعصر الخزامى(٢) يعتبر عصر العلمانية السرية ولكنها لم تستمر كثيرا بل انتهت بانتهاء ذلك العصر وقد ألغى السلطان محمود الثانى (١٧٨٥-١٨٣٩ت) الجيش الانكشارى سنة ١٨٢٦، وأقام مكانه جيشا على نظام أوروبى جديد، وهذا أدى به الى القيام بتحديث الأسلحة وقام بجانب هذا بتغيرات شكلية قلد فيها الغرب تقليدا أثار سخرية الناس، ولما مات تولى بعده السلطان عبد الحميد (١٨٣٩-١٨٦١) وسار على خطة والده السلطان محمود الثانى. وكان وزيره رشيد باشا أكبر شخصية ماسونية في وقته. واحتضن الماسونيين ووجه أجهزة الدولة نحو البعد عن التراث الاسلامى والتمسك بثقافة أوروبا. وقام باستخدام دستور على النمط الغربى سمى بالتنظيمات والمقصود بها: اعادة تكوين الدولة العثمانية الاسلامية على اسس غربية.

يوضح احد سفراء فرنسا في تركيا سابقا الغرض من التنظيمات بقوله: "كان الغرض العام من التنظيمات تقريب الهيئة الاجتماعية الاسلامية الى الهيئات الاجتماعية النصرانية التي عاشت منذ قرون بعيدة عنها معنى وسياسة ولاشبهة في خطورة ماهية المشكلات التي يتضمنها هذا المشروع - وهو التغريب - فقد كان العامل في وقوف الامبراطورية العثمانية في موقفها بالقرون الوسطى، الذى غمرها يوما بعد يوم في ظلام تلك القرون الكثيف، والذى سينتج يوما من الايام اندراسها التام بقاء الحكومة العثمانية منفردة في خارج الهيئات الدولية الأوروبية وكان السبب الحقيقى في هذا الانفراد هو الدين، وفى الحقيقة ان

---

(١) انظر المجتمع الاسلامى والغرب، لهاملتون جب ورفيقه: ١/ ٦٣، تاريخ العرب لفليب حتى: ٢/ ٨٤٠، الوثنية الحديثة: ٣٨٢.

(٢) بدأ اعتبارا من أيام السلطان أحمد الثالث (١٦٧٣-١٧٣٦) وسمى بهذا الاسم بعد عام ١٧١٨ بسبب انتشار الترف والاهتمام بالزهور والورود والاذواق (انظر البوم العثمانيين: ٦٩).

الاسلام الذى قد كان مؤسس الحكومة العثمانية بقى حاكما مطلقا فوق الحكومة ناظما" وبعد ذلك يوجه الاداريين قائلا:

"إما أن تحول الحكومة من الروحانية الى الدنيوية بتخليصها من تأثير القوانين الدينية كما وقع في العالم المسيحى، واما ان تخلص بالتدرج عن الحدود والقيود الدينية من طريق تفسير العقائد الأساسية تفسيرا موسعا. وللاحتراز من الحالات الموجبة لاشمئزاز شعب جاهل متعصب لا يلبث ان ينفعل ويتأثر من كل شئ، اختارت الحكومة العثمانية الطريق الثانى "فهذه الكلمات تعلن ما كان يضمر المتفرنجون الاتراك أن يفعلوه بدين الله"[١].

وشكلت اللجان لوضع القوانين الخاصة كقانون الأراضى الذى نشر عام (١٨٥٧) وقانون السندات والسجلات (١٨٥٨) وقانون الجزاء (١٨٥٧) وقانون التجارة (١٨٧١) وكانوا يحرصون على ألا تخالف الشريعة الاسلامية. وحين أراد العثمانيون وضع القانون المدنى عهدوا بذلك الى لجنة كان منها جودت باشا وزير ديوان الأحكام العدلية - وغيره من العلماء فنظموا كتاب "مجلة الأحكام العدلية"، حيث أخذوه من نصوص الشريعة المبثوثة في كتب الفقه وأصدره السلطان عبد العزيز (ت: ١٨٧٦) بارادته السنية عام (١٨٧١) قانون تعتمده المحاكم في جميع أنحاء الدولة العثمانية[٢].

وكان مصطفى رشيد باشا يعتقد ضرورة تغيير النظام الادارى من أساسه تماما. وكتب ما اعتقده هو بلسان السلطان عبد الحميد، وفى الواقع ان التنظيمات هى حركة لترك الحضارة الاسلامية التي تبناها الشعب المسلم خلال قرون، والتوجه الى ما يسمى بالحضارة الغربية أما الغاء الشريعة الاسلامية وتنحيتها وتطبيق القوانين الوضعية بديلا عنها، فقد حصل ذلك حين قطعت

---

(١) نقله الشيخ مصطفى صبرى، انظر موقف العقل ٤/٣٤٨ - ٣٤٩.

(٢) انظر العلمانية وأثرها على الأوضاع الاسلامية في تركيا (٥-١٥).

تركيا صلتها بالاسلام نهائيا. واختارت لها دستورا أوروبيا بدلا من أحكام الاسلام. وفي عام ١٩٢٦ تم الاعتماد على القوانين الغربية رسميا. الغيت الشريعة بمقتضى القانون رقم ٤٢٩[1]، وأصبحت أنظمة الحكم الغربى مطبقة وغيرت أحكام المواريث اذ سوت بين الذكر والأنثى. وجعلت أصحاب الحق الاصليين في الإرث هم الفروع دون غيرهم[2].

وقد سئل وزير العدل بين سنتى (١٩٣٤ - ١٩٣٥) رفيق شوكت إنجا عن القانون المدنى فأجاب قائلا: ان المواد المتعلقة بالزواج والطلاق اثرت على البنية الأساسية وتقاليد الشعب واقتصاده، وظهرت المشاكل الاجتماعية، وفقدت الأسرة كرامتها[3]، ومع ذلك فقد صرح سيد بك (استاذ الفقه فى الجامعة) بضرورة التغيرات في مجلة الأحكام العدلية، وضرورة الاقتباس من القوانين والمؤسسات الحقوقية الغربية بلا تردد[4].

وكان للتغريب في الدولة العثمانية وبعد زوالها وتحولها الى الجمهورية التركية مجالات مختلفة . وطرق مختلفة من التعليم والعلاقات البشرية والفنون والمجال المادى والثقافى والسياسيى ونلخص بعض هذه المجالات فيمايلي:

**(ب) التغريب في مجال التعليم:**

بدأ التغريب في مجال التعليم والتربية بأعمال المربيات الأجنبيات، واصبحن سببا رئيسيا في بعد المسلمين عن ثقافتهم وقيمهم الأخلاقية. لذا انتشرت اللغة والحياة الغربية وثقافتها ونظامها.

ومن ناحية أخرى أخذ بعض المسئولين من السلك السياسى أولادهم

---

(١) انظر نهاية الخلافة ص ١٨٦، الاتجاهات الفكرية المعاصرة ص ١٠٢.

(٢) مشهداني ص ٣٠٢.

(٣) أثر السنين لاما هراز، دار عرفات ١٩٧٥ - استنبول.

(٤) انظر في الشريعة الى العلمانية ص ٢٤١.

معهم اثناء سفرهم الى الغرب. وسجلوا أولادهم في المدارس الأجنبية لتعليم اللغة. وانتشر الترغيب في المدارس الأجنبية على شكل منظم، وكان من بينها المدرسة السلطانية (ثانوية قلا طصاراى) التي افتتحها الفرنسيون وفتح الأمريكيون "الجامعة الأمريكية" وأشرفوا على ادارتها. وزاد الفساد في المجتمع، وفي المقابل أهملوا المدارس الاسلامية وجاء الجمهوريون وفتحوا مدارس جديدة تعلم العلوم الدنيوية ولا تعلم الدين والغيت جميع المدارس الاسلامية [١].

وقد تأثر التعليم الدينى تأثيراً كبيراً لهذه الاجراءات العلمانية، فكان لالغاء المدارس الدينية أثره الكبير في البلاد، انعكس بدوره على الأجيال الجديدة، فهذه الخطوة قضت على التدريس الدينيى، الذي كان منحاه على نمط وأسلوب حلقات المساجد وكان هذا النوع واسع الانتشار، ففى ولاية "قونية" فقط وفي سنة ١٨٩٩(٦٦) مدرسة بها (٣٦٦٦) طالبا وكانت هذه تغذى مساجد القرى والمدن بالأئمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين والمشايخ [٢].

وتناقص عدد الطلاب في كلية الإلاهيات وفي مدارس الخطباء حتى بلغ في عصر كمال عشرين طالبا فقط. بينما كان (٢٨٥) طالبا سنة ١٩٢٤ - ١٩٢٥) أما المدارس التي اسست لتخرج الخطباء والأئمة فقد كانت سنة ١٩٢٤، ثلاثا وعشرين مدرسة، بها (١٤٤٢) طالبا فوصل العدد الى مدرستين عام (١٩٢٩) بها (١٤١) طالبا فقط. وفي عام ١٩٢٠ تقلص العدد الى (٥٧) طالبا والغيت المدرستان [٣]؟

ومن الاجراءات العلمانية ووسائل التغريب التي حصلت في قطاع التعليم، الغاء كلية الالهيات وإنشاء عوضا عنها قسم الدراسات الشرقية في كلية الأداب،

---

(١) انظر محنة السائرين على طريقة الشريعة ١٤ - ١٥.

(٢) محمد عزة دروزه ص ٧٢.

(٣) الحركة الكمالية والعلمانية في تركيا - حسنية عثمان الطنونب ص ٣٠٨ - ٣٠٩.

وصار الطالب يلقن أن الثقافة والتقاليد الاسلامية هى من اسباب تأخر الاتراك وجمودهم.

وأصبحت مسألة تعليم القرآن وأمور الدين للاولاد مسألة شخصية تتوقف على نشاط أولياء الأمور، وأصبح الغرض الأساسى للتعليم في تركيا كما جاء في برنامج الحزب الجمهورى هو اعداد مواطنين جمهوريين قوميين علمانيين. لذلك نجد جداول المدارس الأولية والمتوسطة والثانوية تخلو من مواد الدين بينما خصص للرسم والموسيقى ساعتين في الأسبوع [١].

لقد نشط في عصور الضعف للدولة نشر التغريب الثقافى والاجتماعى عن طريق المدارس الاجنبية التى سهلت لها الامتيازات طريقها، فأصبح (في عهد الكماليين) ينشر التغريب بين المدارس الرسمية الحكومية كانتشاره في المدارس الأجنبية، حتى تكلم بعض المسلمين أيام إلغاء الحروف العربية وبداية الكتابة بالحروف اللاتينية، ان هذه المدارس مدارس إلحاد.

وأيضا من مظاهر التغريب جعل التعليم مختلطا بين الذكور والاناث، مما حدا ببعض الغيورين القيام بشئ من المعارضة ما لبثت أن طأطأت رأسها لعملية التغيير والتغريب، فقد اصبحت هذه المدارس هى الوسيلة للرزق والمكانة الاجتماعية، ولقد كان المتخرج من معاهد المعلمين يعين مدرسا في مدارس القرى والمدن لينشر إلحاده بين الشعب وبسطاء المسلمين. واصبحت المقارنة بين خريج المدارس الرسمية وخريجي الجامعات والمعاهد الاسلامية مقارنة مؤلمة حيث للأول المكانة والمرتبة والاحترام والوظيفة أما الآخر - فلا عمل إلا إمامة مسجد لا يحترمه أحد - ويعيش ذليلا فقيرا.

وتعلمت النساء أيضا على الطريقة الغربية، وتخلقت معظمهن بأخلاق الغرب وثقافته، واصبحت مناهج التعليم والتربية الغربية هى المطبقة في مدارس

(١) المرجع السابق ص ٣٠٩.

وجامعات تركيا [١].

ومن أبشع الاجراءات العلمانية وأعظمها ضررا بالمسلمين مما كان له الدور الكبير في تجهيل الاتراك بكاملهم بدينهم وتاريخهم إلغاء الحروف العربية، فالجيل الجديد نشأ بعد هذه الاجراءات والقوانين (منع الكتابة العربية) ولم يكن بامكانه أن يقرأ ما كتبه أباؤه وأجداده، وانفصل الحاضر عن ماضيه العريق، وهكذا جهّلوا الأمة بلغتها وتراثها ودينها .. وصارت المكتبات التي تضم آلاف الكتب القيمة لا يستفيد منها الجيل القديم، وتم صرف المسلمين في تركيا عن تراثهم الاسلامي بتغيير الحروف العربية، وتصفية اللغة التركية من معظم الكلمات العربية التي تتضمنها لتنشأ أجيال تعجز عجزا كاملا عن الاتصال بتراثها الاسلامى، فتنقطع عنه ينشأ بلا دين [٢].

أما عن الدارسين في الخارج - في الغرب - من المبعوثين فكان من نتائجها ان يعود المبتعثون وقد صاروا خلقا آخر، ممسوخا كل المسخ لا يعرف دينه ولا ثقافته، ولا حضارته ولا قومه وأصبح المجتمع المسلم الجديد في أيدى هؤلاء المنحرفين.

وبمخططات صليبية أحكم المنحرفون قبضتهم على الأجيال فلم تكن المسألة في الدولة العثمانية فقط والتي بعدها. وليست إفساد جيل بعينه يذهب ويذهب معه فساده، انما كان الهدف سريان السم في الأجيال المتتالية لكيلا يخرج جيل يفكر في العودة الى الاسلام [٣]. لذلك نجد أن الجرعات التى أخذها الطلاب في تعليمهم كان لها أبلغ الأثر في انتشار الفكر التغريبى بين فئات المجتمع.

---

(١) فصل الدين عن الدولة: ص ٢١٩، اسماعيل الكيلانى - المكتب الاسلامى.

(٢) انظر واقعنا المعاصر محمد قطب ص ٢٢٢.

(٣) واقعنا المعاصر ص ٢٣٣.

(جـ) التغريب في وسائل الاعلام على اختلاف أشكالها:

١ـ ترجمة الكتب الغربية إلى اللغة التركية ونشرها في تركيا:

وانتشرت فكرة اتخاذ الكتب والمكتبات الخاصة خصوصا في تركيا بين الأدباء والمثقفين، ومعظم الكتب المترجمة كانت باللغة الفرنسية، أو الانجليزية بالدرجة الثانية، وعن طريق هذه الكتب الغربية انتشر الميل الى الغرب وكتبهم ومؤلفاتهم.

بل هيأت الحكومة (أيام الكمالية) لبعض المختصين في اللغات ان يترجموا كتبا في فلسفة اليونان وتمجيد التاريخ الأوربى .. فأخرجوا للمسلمين مترجمات عن كتب الفلاسفة، وأباطيل اليونان في آلهتهم المزعومة واساطير الغرب. ونتيجة هذه الترجمات أطلع من لا يجيد اللغات الغربية من الاتراك على ثقافة الغرب وأباطيله، ومال المنحرفون الى التشبه بالغرب فيما اطلعوا عليه. يقول ضياء باشا في الدعوة الى دراسة لغات أوروبا: " اذا أردت أن تحيط علما بالدنيا فلابد من تعلم لغة أوروبا، لقد برز القوم في الفنون، فلا تحجم عن الدرس والتحصيل أنت حقيق أن تلم بعلم تلك البلاد فدع عنك جنون التعصب، لن يكون الشاعر شاعرا الا بذلك، ولن يكفر الانسان باللسان. ابذل في التحصيل الهمة ان كنت ذا أهمية، وأكثر من ترجمتك لتنفع بها أهل وطنك "[١] .

٢- تأسيس المسارح: كان الهدف من نشر المسرحيات وترجمتها الى اللغة التركية هو التغريب وقد بدأ المسرح أعماله في أول أيام الجمهورية التركية سنة (١٩٢٠م) وصدر القانون رقم [٢٠٢١] في ١٩٢٣م لحماية جوقه الموسيقى، وفتحت مدرسة الموسيقى بأنقره سنة ١٩٢٤ وجعلت مادة "الموسيقى" مادة اجبارية تدرس في جميع المدارس، وقد اهتمت لذلك وزارة التعليم، وقام الممثلون بتمثيل مسرحية أمام رئيس ايران السابق اثناء زيارته لتركيا في

(١) تاريخ الادب التركى لحسين مجيب ص ٤٠٠.

١٧/ ٦/ ١٩٣٤م[١].

وكان للقصص والمسرحيات دور كبير في اشاعة السفور، وافساد اخلاق المسلمين في المجتمع التركى لأن الأساسيات التي كان يركز عليها المنحرفون في الاعلام "الشاب" "الفتاة" "العلاقات بين الرجل والمرأة".

٣ــ **الصحافة** : من الادوار التي استعملها الدونمة أو نصارى العرب في الاعلام الصحافة - وما كان لها من دور حاسم في المعركة. مما كانت تنشر من صور للجمعيات النسائية وللأزياء، وما كانت تروى من أخبار النشاط النسوى الذى قل ان تخلو منه صحيفة[٢].

وكما كنا قد قررنا من قبل في مبحث سيطرة أهل الذمة على الصحافة- نؤكد هنا بأمثلة على ذلك: سيطرة الدونمة على الاعلام التركى بأموالهم وأشخاصهم .. متعاونين مع الصليبية العالمية تعتبر جريدة الحرية أكبر دار نشر في تركيا ومن هذه الدار تصدر مجلات بين اسبوعية وشهرية تحتل المكانة الأولى في التوزيع بين المجلات، ولا شك ان لدار الحرية أثراً كبيراً في توجيه قطاعات ضخمة من الشعب التركى، هذه الدار تملكها وتديرها أسرة من يهود الدونمة تحتضن هذه المؤسسة كبار كتاب اليسار.

كما ان جريدة "المليه" جريدة واسعة الانتشار ويتبعها دار للطباعة والنشر وتصدر سلاسل كتب مختلفة وتملكها وتديرها أسرة من يهود الدونمة هى عائلة "ايبكجى" ويكتب فيها الى جانب كتاب اليسار أقلام يهودية معروفة. وكذلك جريدة الجمهورية التي أسسها يونس نادى كان يرأسها يهودى من الدونمة[١] فهذه الصحف في مقدمة الصحف التركية ذات الفعالية الواضحة والنفوذ

---

(١) تاريخ أوبرا: ٢١٧-٢١٨، ت جواد ممدوح الفار، نشر وزارة الثقافة والسياحة، ١٩٨٢ أنقرة.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر: ٢/ ٢١٧.

(١) انظر يهود الدونمة: لمحمد عمر ٥١ - ٥٢.

والتأثير سواء بين المثقفين ثقافة عربية أو بين بعض الطبقات الشعبية - وكان هناك شئ من التضييق على هذه الصحف أيام عبد الحميد لما تحمله من أفكار هدامة منحرفة ولكن كان البريد الدبلوماسى يخرق الانظمة والرقابة [١]، وهدف هذه الجرائد لايكاد يخلتف في العمل على إبعاد المسلمين عن اسلامهم وانتشار التغريب والفساد الخلقى في أقصى حدوده الممكنة.

**(د) تغريب المرأة المسلمة:**

بذلت محاولات لجعل المسلم التركى مثل النصرانى الغربىالفرنسى واشتدت المحاولات بشأن المرأة بصفة خاصة، وقد كانت النساء يعشن حياة اسلامية من الاحتشام بالحجاب - والبعد عن الاختلاط - والمحافظة على العفة ... فبدأت بعد التنظيمات محاولات عديدة في الدفاع عن تحرير المرأة واستمرت الموجه الى العهد الجمهورى وألغوا كثيراً من الكتب ودافعوا عن اختلاط النساء بالرجال ودافع بعضهم عن الرقص والحياة الغربية وقال قائلهم: لا يمكن ترقى تركيا الا بأن يبدأ هدم جدار منع الاختلاط[٢] بل انتقد بعضهم طريقة الزواج الاسلامى - وأراد بعض المثقفين ان يتخذ من اسلوب الغربية اسلوبا لحياته وتأثر المسلمون بالغرب حتى في عدد من ينجبون من الاولاد [٣].

واهتم الدونمة من اليهود بمسألة الغاء الحجاب وذلك عن طريق الدعوة للسفور في صحفهم ومجلاتهم ودعوا بحرارة للاختلاط بين الطلبة والطالبات في الجامعات - وتبنى بعض مثقفي الاتراك فكرة اليهود هذه فاصبح يدعو مثلهم إلى ما دعوا إليه - وتولت أجهزة الدعاية اليهودية اصدار الكتب والرسائل والمقالات لمهاجمة الحجاب - وكانت لهم صلات بالحكومة مكنتهم من اغلاق

---

(١) انظر بديع الزمان سعيد النورسى لجمال كوطاى: ص ٧٧.

(٢) رواية ثروة فتوت من ناحية التغريب ص ٩٠ - ٩١.

(٣) المرجع السابق ص ١٠٠.

كل مجلة او كتاب يعارض دعوتهم، وكانو يقومون بنشر الصحف والمجلات المنحرفة لافساد المجتمع - وخصصت مجلات للنساء فقط .

وانقل هنا عبارتين لاثنتين من أوائل الاشقياء الاتراك اللائي نزعن الحجاب وعملن في وظائف مختلطة في الحكومة. جاءت في مجلة اسرتنا: تقول امرأة تدعى فريده: انها أول امرأة تركية عملت في الحكومة بدات عملها بخلع الملابس الخارجية القديمة وتلبس ملابس حديثة. وتقول أخرى تدعى حاطى: انها عملت كعضو في المجلس الوطنى وانها لبست ملابس حديثة واصبحت من جميلات أنقرة خلال نصف ساعة وأصبحت أمرأة حديثة في أنقرة[١] .

(هـ) **التغريب في اللباس والزي** : بدأت حركة التغريب في الأزياء واللباس من وقت مبكر في الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثانى، فقد أصدر قانون الأزياء في ٣/ ٣/ ١٨٢٩ واجبر الجميع من الموظفين غير العلماء على لبس الجاكيت والسروال والطربوش، وجعلت العمامة والجبة للعلماء فقط. وقص السلطان لحيته وطلب من الموظفين تقليده في ذلك - وهكذا قلد العثمانيون لأول مرة الحياة الاجتماعية الغربية، واستمروا على اسلوب الغرب حتى ١٨٦٠م، ولا شك كان تقليد النساء للغرب في الآزياء بشكل أكبر واسرع وازداد الاهتمام بالتزين وأدوات التجميل[٢].

ورغم جهود اليهود والنصارى لم تظهر المرأة التركية في المسرحيات أيام الدولة العثمانية بسبب تمسكها بدينها أو تقاليدها! فلم يحدث ظهور المرأة التركية

---

(١) مجلة اسرتنا: العدد ١٥ - ص ١٤ مارس ١٩٨٣.

(٢) رواية ثروة الفنون من ناحية التغريب ١٤٣، ١٤٨، ١٥٨. تأليف جاهد كارجا، وزارة الثقافة والسياحة ط ١ ١٩٨٥ أنقرة.

في المسرحيات أمام الناس الا في عام ١٩١٩[١].

ومسألة اللباس والزي ليست مسألة شكلية كما يريد البعض ان يقرره وللأسف من المسلمين بل هى تعنى الكثير لذلك كان التخطيط الصليبى والصهيونى للمرأة المسلمة ان تسير في ذات الخط الذى دفعت اليه المرأة الأوربية من قبل، ضمانا لافساد المجتمع الاسلامى كله حيث لا تكون هناك أم مسلمة تلقن أبناءها مبادئ الدين والأخلاق وهم في مرحلة الطفولة، وبذلت الصليبية والصهيونية كل ما في وسعها واستخدمت كل وسائلها لجعل عودة المرأة المسلمة الى الاسلام والى الحجاب الاسلامى مستحيلة بعد أن تعرت بجسدها كله أو معظمه وبعد أن أصبح العرى أصلا من أصول المجتمع المتحدث، وعلامة على الرقي، والتحضر، والتطور والانطلاق [٢].

وسقط الحجاب تدريجيا عن طريق زوجات رجال الدولة، وبنات المدارس والجامعات. وكانت هناك جهود شيطانية لافساد المجتمع التركى بالغاء قوامة الرجل على المرأة، واعلان المساواة بين الجنسين الذكر والانثى. كتبت صحيفة السياسة الاسبوعية مقالا عن فتاة تركيا في ١٧/ ٥/ ١٩٢٦ذكرت فيه سفر باخرة اتخذتها وزارة التجارة التركية معرضا عاما في رحلة على نفقة الحكومة، تنتقل فيها بين موانئ أوربا الشهيرة، فتقول ان هذه الباخرة كانت تقل (خمسا وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهن جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميزهن الرائى من فتيات لندن وباريس).

ويقول مراسل الصحيفة: انهن يتقن الكلام بالانجليزية، وبعضهم قد تلقى دراسته في الكلية الأمريكية في استانبول.

---

(١) تاريخ الادب التركيى المصور والمنقوش من أيام التنظيمات الجمهورية: سيد كمال فراعلى أوغلو دار انعلاب ١٩٧٨ استانبول ص ٢/ ٨٨.

(٢) واقعنا المعاصر: ص ٤٤٦.

ويروى بعض تصريحات الفتيات فتقول احداهن: ان المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير في الطرقات في ظلام واننا نعيش اليوم مثل نسائكم الانجليزيات، فلنبس احدث الازياء الأوربية والامريكية، وندخن، ونسافر، وتتنقل بغير أزواجنا.

وصرحت امرأة أخرى بأن "يعشن على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يوصف، فكلهم يرقص وبعض النساء يبدأ الرقص من "تانجو" و "فوكس تروت" وقد تعلمت ذلك في المدرسة [١].

ويعلق مراسل الصحيفة على ذلك الوصف بقوله: ان هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية" .. ولا يسع كل محب لتركيا الا ان يغبطها على هذه الخطوات [٢].

ونشر شكيب ارسلان مقالا عن "السفور والحجاب" حاول ان يقدم للناس درسا يستنبط فيه العظة من تطورات السفور في تركيا، وعرض للمراحل التى مر بها، ليبين ان الدعوة الى نزع الحجاب هى مرحلة تهيئ لما يليها من الدعوات التي ترمى الى هدم الدين، فيقول: منذ اعلان الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨م قال أحمد رضا بك وهو احد زعماء الاحرار مادام الرجل التركى لا يقدر أن يمشى علنا مع المرأة التركية على جسر غلطة - باستانبول - وهى سافرة الوجه فلا اعد في تركيا دستورا ولا حرية. وكانت هذه هى المرحلة الأولى. وفي هذه الايام بلغني -الحديث لشكيب- أن احد مبعوثى مجلس أنقرة الكاتب رفقى بك وكان كاتبا عند جمال باشا في سورية كتب:

انه ما دامت الفتاة التركية لا تقدر ان تتزوج بمن شاءت ولو كان من غير المسلمين، بل ما دامت لا تعقد معادلة مع رجل تعيش وإياه كما تريد، مسلما أو

---

(١) عثمان بوجار : محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية .

(٢) انظر الاتجاهات الوطنية - محمد محمد حسين ٢/ ٢١٩.

غير مسلم، فانه لا تعد تركيا قد بلغت رقيا [١].

(و) **التغريب في مجال الأدب والفـن والمجـالات الأخـرى** : منـذ ان اعلنـت التنظيمات عام ١٨٣٩م والدولة العثمانية تسابق على الزمن من أجل الـتغيرات ليس العسكرية فحسب بل والسياسية عموما والاجتماعيـة، وأصـبح التغريـب سياسة الدولة رسميا. وان لم يكن بالجرأة الـتي حـصلت بعـد ذلـك، فكـان مـن ضمن الاجراءات العلمانية التغريبية - اعطاء اهتمام أكثر باللغات الأجنبية (كما سـبق تقريـره) وازداد التـأثر بـالغرب بـين المـثقفين وبـين (١٨٣٩ - ١٨٦٠) وأضيف التغريب الى مجال الأدب والسياسة بعد عام ١٨٥٩م.

وكان لسياسة الابتعاث التي اتبعها بعض السلاطين أثرها التدريجى في تقبل الأفكار الغربية وانماط الحياة الغربية وكان من أهم المجالات التي عني الأعداء بها مجال السياسة أى مجال الحكم والتشريع، وقد غلب الاحتلال الصليبى الأمة على نفسها فنحى شريعتها وألجمها بالحديد والنار والعسف والتسلط [٢].

وذبحوا عددا من علماء المسلمين والغوا المحاكم الشرعية، وهموا بالغاء الاسلام بكامله [٣].

- وان كانت الأمة وللأسف كما رأينا في الغزو الفكرى الذى سلط عليها وحركة التغريب التي هيأت الناس لتقبل ما هو جديد ولو كان ردة عن الاسلام بل سخرت أقلام مسلمة أمثال عبد الرازق حيث قرر فيها شرعية القوانين الوضعية وهو خريج وشيخ من شيوخ الأزهر!!

- الغيت الخلافة وتضمن ذلك الغاء الدين أيضا (كما سنفصله في المبحث

---

(١) انظر الاتجاهات الوطنية - المرجع السابق ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٢) محمد قطب : واقعنا المعاصر: ٣٠٦

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٩.

التالي).

- منع السفر الى الحجاز لأداء فريضة الحج، واستبدل النكاح المدنى بالنكاح الشرعى(١).

- فصل الدين عن السياسة والدولة بل والدنيا عموما - لبعض الاقطار. هذا الفصل أخذ يعمل به جزئيا في بعض البلاد الاسلامية وتماما كما في تركيا حيث جعلوا كل همهم ان يفصلو تركيا عن ماضيها الاسلامى باحياء النعرات والتغريب، وكذلك بدات الجهود لفصل تركيا عن العالم الاسلامى وبشكل ادق عن الخلافة الاسلامية، وجعل الدين والدنيا متنافران ليس لاحدهما علاقة بالآخر وفصلوا العلوم الدينية الشرعية عن العلوم التطبيقية العضوية، فجعلو الدين الاسلامى اجنبياً عن الحكومة التركية. وعلى هذا الاساس حذفت المادة التي تنص على انه دين الدولة الاسلام، واضافة مادة مدنية تنص على ان كل من بلغ سن الرشد من أفراد الأمة، حرا في اختيار أى دين شاء (٢).

**كذلك من شواهد التغريب والاجراءات العلمانية في البلاد**: منع علماء الدين من الاستمرار على التزي بلباسهم القديم أيام العثمانية(٣) ومنعت الحكومة لبس العمائم حتى على أئمة المساجد وخطبائهم والسير بها في الشوارع فكان الامام عندما يدخل المسجد يخلع القبعة ويضعها جانبا ويرتدى العمامة وبعد الفراغ من الصلاة يرجع الى القبعة فيخرج بها!!.

**وكذلك من الاجراءات العلمانية في البلاد: الآذان والصلاة باللغة التركية**: قررت الحكومة اجراء تجارب للآذان باللغة التركية، وفي عشاء يوم ٣/ ٢/ ١٩٣٢ أذنوا في مسجد أيا صوفيا باللغة التركية، كانت الايام أيام رمضان والصلاة صلاة

---

(١) موقف العقل: مصطفى صبري ٤/ ٣٦٥.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٢٩٨.

(٣) مشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع في تركيا ص (٣٠٣).

التراويح - ووقف المصلون ضد هذا القرار - ولكن منع كل معارض ومنع المفتي من القيام بواجبه وتعاقبت القرارات حتى صدر القرار في ٢/٦/١٩٤١ بالحكم على من لم يتبع هذا الأمر ولم يطبقه بالسجن لمدة ثلاثة أشهر بموجب قانون الجزاء رقم ٥٢٦ [١].

**وكذلك من الاجراءات التغريبية والتي تفصل الأمة عن ما ضيها واسلامها:** اصدار قانون يجعل الاجازة الاسبوعية يوم الأحد (كالنصارى الأوربيين) بدلا من يوم الجمعة [٢].

واستمر توالى اصدار القوانين العلمانية كاعلان العلمانية نظاما للدولة، واغلاق بعض المساجد وجعلها متحفا او مستودعا للمواد الغذائية أو جعلها اصطبلا للحيوانات.

وكذلك الغاء التقويم الهجرى واستبدل به التقويم الغربى الميلادى.

والغيت قوانين الميراث والطلاق وحل مكانها مساواة الرجل بالمرأة في الميراث.

والغى قانون منع المسكرات في أيلول ١٩٢٣.

والغيت وزارة الشريعة والأوقاف في ٣/ ٣/ ١٩٢٤ بقانون رقم ٤٢٩.

والغيت المدارس الدينية بقانون رقم ٤٣٠ [٣].

على أثر هذه الاجراءات قطعت كل صلة لتركيا بالاسلام وكان تمزيق الدولة العثمانية والغاء الخلافة الغاية التي كان ينتظرها اعداء الاسلام في الداخل والخارج وتحققت لهم على يد وتخطيط اليهود والنصارى من اهل الذمة وتنفيذ مصطفى كمال. وهذا ما سنتحدث عنه في المبحث التالي.

---

(١) من الشريعة الى العلمانية: ٣٦٨ - ٣٦٩.

(٢) الحركات الملية الى تركيا: ٦٧.

(٣) من الشريعة الى العلمانية: ٢٤٤.

## المبحث الثالث

# توسيع النشاط التنصيري في أوطان الإسلام

**تعريف بمصطلح التبشير:**

قبل أن نتناول بداية الدعوة الى التنصير ( وهو ما يسميه القوم التبشير ) وانتشار أمرها في البلاد الاسلامية نود أن نتوقف قليلا عند لفظة "التبشير" فلقد درج بعض الباحثين على إطلاق تسمية البعثات الدينية النصرانية، التي أتت من الغرب بالبعثات التنصيرية واذا كانت كلمة "تبشير" تصلح بمعنى تحويل الوثنيين على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم الى النصرانية أى دين سماوى!!، و أن كان الكفر ملة واحدة إلا أن كلمة تبشير لا يصح استخدامها بحال من الاحوال بمعنى تحويل المسلمين من الدين الحق الذى لا يرضى الله غيره الى النصرانية المحرفة أو حتى تحويل النصرانى الارثوذكسي الى المذاهب النصرانية الأول.

اذن لا يصح أبدا ان تسمى البعثات الطبية أو التعليمية التنصيرية "بعثات تبشير" ذلك لأن الاسلام الدين الحق الذى جاء به محمد ﷺ مبشراً ونذيرا. قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [١].

ويبدو ان كلمة "التبشير" جاءت التسمية الى الانجيل والدعوة الى الكرازة به (أى الوعظ به) حيث يطلق على التبشير في بعض اللغات الأوروبية Evangolisation وهى مأخوذة من التسنية الانجيل[٢].

(١) سورة الاحزاب آية ٤٥-٤٧.

(٢) د. عبد الحميد عبد المنعم مدكور - دراسات في الفكر الاسلامى - القاهرة ١٩٨٩ ص ١٦٥.

**طبيعة التنصير وأهدافه:**

ان الباعث الحقيقى والأول في رأى القائمين على التنصير انما هو القضاء على الأديان غير النصرانية توصلا الى استعباد اتباعها، وان ضرورة التنصير وطبيعة نشاطه قد تناولها الكتاب المقدس في كل من العهدين القديم والحديث فقد جاء في الاصحاح الثامن والعشرين لانجيل متى "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس. وعلموهم ان يحفظوا جميع ما أوصيكم به، وها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر"[١] (انجيل متى: ٢٨ ص ١٩ - ٢٠).

والتنصير وسيلة من وسائل تمكين الاستعمار من الرسوخ بأقدامه في البلاد، وأنه وسيلة للتفرقة العنصرية، وأنه أيضا وسيلة لتوهين العروبة واضعاف اللغة العربية في ربوع العالم العربى، فمن أقوال زعماء المنصرين عن أهداف التنصير قول لورانس براون "اذا اتحد المسلمون في امبراطورية عربية أمكن ان يصبحوا لعنة على العالم وخطرا وأمكن أن يصبحوا نقمة له أيضا أما اذا ظلوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ - لاقوة ولا تأثير" وينصح القس كالهون سيمون عن رغبة التنصير في تفريق المسلمين التي عبر عنها براون فيما قبل بقوله "ان الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السود، وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوروبية، ولذلك فان التنصير يعمل على اظهار الأوروبيين في ثوب جديد جذاب، وعلى سلب الحركة الاسلامية من عنصر القوة والتمركز فيها، فوحدة المسلمين اذن في نظر التنصير يجب ان تفتت وان توهن ويجب ان يكون هدف التنصير هو التفرق في توجيه المسلمين واتجاهاتهم.

وهكذا كان التنصير أحد دعائم الاستعمار في مصر والشرق الاسلامى، فتسلل المنصرون الى البلاد الاسلامية وعملوا جاهدين على أن ينفثوا سمومهم

---

(١) انجيل متى : ٢٨ ص ١٩ ـ ٢٠ .

في أفكار ضحاياهم، وكان نشاطهم الطعن في الاسلام، وصرف النشئ عنه فالتقت مصلحة المنصرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم، واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق، واقنع المنصرون زعماء الاستعمار للمنصرين أعمالهم ومهمتهم وبسط عليهم حماية وزودهم بالمال والسلطان وهكذا كان التنصير الصليبي في العالم الاسلامى حرب صليبية كتلك الحرب التي بدأها الغرب الصليبي منذ تسعة قرون.

وقد أشار كثير من الساسة الى أهمية الدور الذى يقوم به التنصير.

فقال لورد بلفور وزير الخارجية البريطاني: ان المنصرين في نظر الاستعمارهم عيونه التي تقوم باطلاع الدول الغربية بالنواحى التي تهمهم معرفتها من عقائد المسلمين وآدابهم والثقافات التي يتأثرون بها .

وقال زويمر: ليس الهدف من التبشير هو ادخال المسلم في دين آخر فقط ولكن الهدف هو اخراجه عن الاسلام حتى يكون خصما له وعدوا[١].

فلا يمكن ان نتصور أن التنصير دعوة للدين النصرانيى فقط لأنه أحد أدوات الاحتلال والغزو الاوربى ولا يهمه من أمر الدين الا الغلبة بأى اسلوب كان حتى يكفل سيادة الحضارة الغربية[٢].

من نماذج نشاط المنصرين في الدولة العثمانية ما سبق معنا في بلاد الشام وتركيا والعراق عند الكلام عن مدارس أهل الذمة ونشاطها التنصيري نأخذ الآن شريحة أخرى من بلاد إسلامية هي مصر وعن نشاط المنصرين فيها ووسائلهم في ذلك من تعليم وطب وخدمات اجتماعية .

---

(١) انور الجندى: الاسلام والدعوات الهدامة، ط ١، دار الكتاب اللبنانى، بيروت سنة ١٩٧٤م، ص ٢٤٥، ٢٥٠.

(٢) محمود محمد شاكر: أباطيل وأسمار جـ ١ مكتبة دار العروبة دبى ص ٢٠٩.

**المؤسسات والارساليات التبشيرية التي مارست نشاطها في مصر:**

أولاً: **الارساليات الكاثوليكية**: وكانت أهمها: ارساليات الفرنسسكان والجزويت والقرير والراعى الصالح، والقلب المقدس وغيرها، وفي الفترة ما بين ١٨٤٤ - ١٩٤٣ - وفدت الى مصر ثلاث وعشرون ارسالية دينية نسائية وحوالى هذا القدر من الارساليات من الرجال وتسابقت هذه الارساليات الكاثوليكية الى انشاء المدارس الملحقة بكنائسها وغلب عليها الطابع الدينى ومن أهم هذه الارساليات، الارسالية الايطالية والارسالية الفرنسية [١].

ثانياً: **الارساليات البروتستانتية**: وهذه الارساليات البروتستانتية هى في غالبيتها إما انجليزية أو أمريكية:

أ- **الارسالية الانجليزية**: بدأت انجلترا نشاطها التنصيري في مصر بارسال أول بعثة تنصيرية الى مصر سنة ١٨٤٠م وتلتها بعثة أخرى سنة ١٨٦٠م برئاسة (مس وتلى) التي وهبت حياتها ونشاطها للمهمة التي اغتربت من أجلها وسعت وبذلت كل جهودها للنجاح في تعليم الفتاة المصرية فأسست مدرسة بالقاهرة لتعليم الفتاة وأعقبت ذلك بافتتاح مدرسة اخرى بالأسكندرية عام ١٨٥٦م وتتابعت المدارس التابعة لتلك الارساليات التي جعلت التعليم فيها مجانيا للفقراء وبمصروفات للقادرين. حيث لم يكن أحد يستطيع ان يميز مطلقا أيهن المجانيات[٢]واهتمت الارساليات الانجليزية بالدعوة الى المذهب البروتستانتى سواء بين الاقباط أو اليهود والمسلمين في مصر واتخذت من الكنيسة البروتستانتيه مصدرا لهذه الدعوة كما اتخذت من تعليم البنات محورا لانتشار دعوتها واستمرارها بين الأجيال عن طريق الفتاة ام الأولاد في المستقبل تحقيقا

---

(١) جرجس سلامة: تاريخ التعليم الأجنبى في مصر في القرنين ١٩/ ٢٠، ص ٤٠ - ٤٣.

(٢) الياس الأيوبى: تاريخ مصر في عهد اسماعيل ١٨٦٣-١٨٦٩، المجلد الأول، ص ٢٢٢، ٢٢٣.

لأهدافهم الدينية والسياسية [١].

ب- **الارساليات الامريكية:** بدأ النشاط الأمريكي في مصر كما بدأ في الاقطار العربية الأخرى على يد البعثات التنصيرية الأمريكية ذات النشاط التعليمى والطبى والاجتماعي، ولم يكن الهدف من مجئ المرسلين الأمريكيين الى مصر هو رعاية أبناء الجالية الأمريكية لأن عددها كان محدودا جدا في مصر ولكن مهد لمجئ المرسلين الأمريكيين منذ نزول البعثات التنصيرية الى بلاد الشام عام ١٨٢٠م فبدأت صلات الولايات المتحدة بمصر وبدأ التمثيل القنصلى بين مصر والولايات المتحدة عام ١٨٣٢م [٢] وأخذت الارساليات الامريكية في تحقيق أهدافها بافتتاح المدارس في كل انحاء مصر، كما كان المعلم في تلك المدارس الأمريكية عضوا في الكنيسة الانجيلية يشارك في اجتماعاتها المسائية وأيام الاحاد.

ويمكن ان نوجز الاهداف التى وضعتها الارسالية الامريكية نصب عينها عند مجيئها الى مصر وكانت تسعى الى تحقيقها عن طريق نشاطها التعليمي فيما يأتى:

١- ان يكون هدف المدارس الامريكية في مصر نشر المعرفة الدينية والدنيوية في طول البلاد وعرضها.

٢- ان تكون المدارس الامريكية نواة للكنيسة الانجيلية وآمالها لان صغار اليوم هم رجال ونساء المستقبل.

٣- تربية الطفل وهو صغير تربية دينية، وتدريب الاطفال سواء كانوا من البنين أم من البنات على التعاليم الانجيلية ليشربوا وهم صغار تعاليم ومبادئ المذهب البروتستانتي فيحافظوا عليه وهم كبار.

---

(١) الياس الايوبى: المرجع السابق ص٢٢٥ .

(٢) محمد فؤاد شكرى: بناء دولة مصر محمد على، ص ٢٨٦.

٤- المدرسة دار لتربية الأعضاء للكنيسة الانجيلية والطفل الذى يستمر تلميذا بضع سنوات في المدرسة الأمريكية يصعب عليه ان يعيش في المستقبل بغير مكان دينى ينتمى اليه.

٥- أن تكون المدرسة مكانا يجتمع فيه المشرفون على الارسالية بالأباء وتكون المدرسة بذلك المركز الذى يمكن أن يتصل عن طريقه المرسلون الامريكيون واتباعهم بالمصريين وينشرون بينهم مبادئ المذهب البروتستانتى[١].

وقد ركزت الارسالية الأمريكية - شأنها شأن غيرها من الارساليات نشاطها بين طبقتين من طبقات المجتمع المصرى هما:

**أولاً:** الطبقة الارستقراطية المسيطرة والتي تتسم بالجاه والسلطان والتي اتخذت منها سندا لنشاطها بالتأييد والدعم المادى.

**ثانياً:** الطبقة الفقيرة والتي تمثل القاعدة العريضة في ذلك الوقت والتي تفتقر الى النفوذ والجاه، كما انها محرومة من التعليم والرعاية الصحية، فاعتبرت منها ميدانا خصبا يسهل احتواؤه كما يسهل التأثير فيه عن طريق التعليم والخدمات الاجتماعية.

أما الطبقة المتوسطة والتي كانت تتمتع بالثقافة الى حد ما والتي كانت تمثل عماد المجتمع فلم يكن مجالاً لنشاط الارسالية الامريكية - ولا الارساليات الاجنبية - لأن هذه الطبقة بحكم انتشار التعليم، والثقافة بين أفرادها وتوفر الامكانات الاقتصادية للأسرة ولو بصورة تهيئ لها حياة كريمة كانت تحافظ على تراث المجتمع وتقاليده فضلا عن تمسكها بالمعتقدات الدينية التي تسلمتها من الآباء[١].

---

(١) محمود محمد سليمان أحمد: النشاط السياسى والثقافى والاجتماعى للاجانب في مصر ١٩٢٢-١٩٥٢ ص ٢٢٧.

(١) طلعت ذكرى مينا: الارسالية الامريكية ونشاطها التربوى في مصر، ص ٤٣.

ولقد افسحت الامتيازات الأجنبية المجال لنشاط الارسالية الأمريكية وغيرها من الارساليات وأمكن لها ان تمارس نشاطها بحرية والتدخل في أمور العقائد والأديان ونشر المذهب البروتستانتى وان تسترت بذلك خلف عدد كبير من مدارس الارسالية التي انتشرت في مختلف انحاء مصر والذى تستطيع ان تقوله: ان تلك الحرية في الممارسة قد سمحت لهذا النشاط التنصيري بالهجوم على الاسلام والدعوة الاسلامية ففى الجامعة الامريكية بالقاهرة التابعة لارسالية التبشير الأمريكية، نجد أن هذه الجامعة كانت تلعب دورا تنصيريا، فعلى سبيل المثال

كان يدرس بها كتاب Ploblems of Religian ويقول هذا الكتاب عن النبى ﷺ انه في السنوات الأخيرة من حياته سار مداورا ويخترع الرؤى والأحلام الموافقة لحاجاته والاسلام دين حربى ينص على الجهاد على الكفار وتنقصه الصفات الرقيقة العذبة التي للنصرانية ولم يثبت أنه دين رقى وتقدم بل هو يجيز الرق وتعدد الزوجات[٢] هكذا كان هجوم المنصرين الامريكيين على الاسلام والرسول صلى الله عليه وسلم.

**وسائل العمل التنصيري في مصر:**

**أولاً: التعليم:** كان التعليم احسن الطرق التى عرفها المنصرون وأقرتها سياسة الدول الأوربية المختلفة لأن حاجة الناس الى التعليم لا تنقطع هذا من جانب ومن جانب آخر ان التعليم يضمن تنشئة أجيال قد صبغوا على أيدى معلمهم بالصبغة التي يريدونها وهى أخطر الطرق في توجيه أفكار الصغار وفق الخطة التي يرغبها المنصرون. وقد أبانت المنصرة "أنا مليجان" ان المدارس أقوى قوة تجعل الناشئين تحت تأثير التعليم النصرانى وهذا التأثير يستمر حتى يشمل

(٢) نبيل عبد الحميد: النشاط التبشيري الامريكى في البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣ - المجلة المصرية التاريخية، المجلد السابع والعشرون سنة ١٩٨١ ص ٢٧٠.

اولئك الذين سيصبحون يوما قادة اوطانهم[١].

ويرى المنصر هنرى جب "أن التعليم انما هو واسطة الى غاية فقط في الارساليات التبشيرية، وهذه الغاية هى قيادة الناس الى المسيح وتعليمهم حتى يصبحوا افرادا نصرانيين وشعوبا نصرانية" [٢].

وقد وجد في مصر العديد من المدارس الاجنبية التابعة لارساليات مختلفة كما تقدم.

ولما كان للتعليم النسائى أهمية خاصة في بناء المجتمع وهذه الأهمية لم تغب عن أعين المنصرين فأولوها عناية عظيمة، فكان اهتمامهم بمدارس البنات الداخلية لأن الطالبات بالمدارس الداخلية يكن تحت تأثير نصرانى خالص ومستمر من معلمات المدرسة ولان المدارس الداخلية أيضا تنزع هؤلاء الطالبات المسلمات من حياة غير نصرانية الى حياة نصرانية خالصة وليس أدل على ذلك قول المنصرة "أنا ميليغان" اذ تقول: "في صفوف كلية البنات في القاهرة بنات آباؤهن باشوات وبكوات وليس ثمة مكان آخر يمكن ان يجتمع فيه مثل هذا العدد من البنات المسلمات تحت النفوذ المسيحى وليس ثمة طريق الى حصن الاسلام اقصر مسافة من هذه المدرسة"[٣] ومن أشهر المدارس التي مارست نشاطها التنصيري في مصر مدرسة السلام ببورسعيد والملجأ الملحق بها ولذا كانت هذه المدرسة مسرحا للتنصير وبلغ عدد تلميذاتها ٢٥ منهن عشر قبطيات والباقيات مسلمات تتراوح اعمارهن بين السابعة والخامسة عشر وكلهن من أسر فقيرة بل معدمة ليس لها موارد للرزق وكان المنصرون القائمون بأمر ادارة المدرسة والملجأ يلجأون الى وسائل مختلفة لجذب البنين والبنات الى المدرسة.

---

(١) محمود محمد شاكر: المرجع السابق ص ٢١٠.

(٢) عمر فروح وآخر: المرجع السابق ص ٦٢.

(٣) عمر فروخ، وآخر: المرجع السابق ص ٨٥.

ومن بين هذه الوسائل استخدام أحد مشايخ الحارات في الاتصال بالأسر الفقيرة لمعرفة عدد أولادها وتبين حالتهم المعيشية وابلاغ ذلك الى ادارة المدرسة والملجأ فتذهب احدى المنصرات الى هذه الأسر بدعوى الاحسان اليها والعطف عليها ويصل بعد ذلك الى أخذ البنين والبنات الى المدرسة والملجأ تحت ستار تربيتهم وتعليمهم والعناية بهم والعمل على تنصيرهم[1].

**ثانياً: الخدمات الطبيــة**: احتلـت الخـدمات الطبيـة مكانـا بـارزا في نـشاط الارساليات الأجنبية في مصر وامتدت لتشمل المصريين جميعا في وقت كانت فيـه الخدمات الطبية في البلاد تكاد تكون غير وافية بـالغرض، فاتخـذت الارسـاليات من هذه الخدمات مدخلا لها لتحقيق رسالتها في احتواء من يتنصر مـن المسلمين ومن يتحول من الاقباط للمذهب الذى تدعو اليه في وقت عمت فيه الامـراض الاجتماعية من فقر وجهل ومرض انحاء المجتمع المصرى، فاستغل المنصرون تلك الناحية ابشع استغلال في سبيل الوصول الى مآربهم.. وذلك لأن المـريض الـذى يئنّ من آلام المرض مستعد أن يضحى بكل ما يملكه للتخلص من آلامـه ... واذا كان المريض ابنه أو اباه أو زوجه زادت التضحية!! يدل على هذه المهنـة القـذرة قول احدهم "حيثما نجد بشرا نجد آلاما، وحيثمـا تكـون الآلام تكـون الحاجـة الى الطبيب، وحيثما تكون الحاجة الى الطبيب فهناك فرصة مناسبة للتبشير"[2].

وهناك مزية أخرى يجدها المنصر في مجال الطب أنه يستطيع الوصول الى جميع طبقات الناس حتى أولئك الذين لا يخالطون غيرهم من جميع طبقات المسلمين وكان الاطباء لا يعالجون المريض أبدا الا بعد أن يحملوه على الاعتراف بأن الذى يشفيه هو المسيح ويدعوه الى اعتناق النصرانية التي يعالجه من

---

(١) البلاغ: العدد ٣١٣٦ في ١٣ يونيه ١٩٣٣ السنة ١١ ص ٧.

(٢) عمر فروخ والخالدى: المرجع السابق ص ٥٢.

أجلها[١].

وأهم المستشفيات التي اسستها الارساليات هى:

١- **مستشفى هرمل الانجليزي**: كانت هذه المستشفى في مصر القديمة ويرجع اختيارها الى رغبة هربر مؤسسها الذى رأى ان مصر القديمة حقلها واسع وزمامها يشمل قرى كثيرة آهلة بالسكان مثل قسم الخليج والبساتين والمعادى وأثر النبى وغيرها فضلا عن اتصالها بمدينة القاهرة شمالا والجيزة شرقا، كما يرجع الى أن هربر كان لا يحب المركزية في العمل بل أراد تسهيل امتداده حتى تأخذ كل جهة من الجهات المجاورة نصيبها من الفائدة حتى تعم الخميرة كل العجين ونفس هذه الخطة اتبعها فيما بعد عند تأسيس المستشفى الانجليزى في منوف واهتم مستشفى هرمل اهتماما خاصا بمعالجته البلهارسيا والانكلستوما التي كان يصاب بها نحو ٩٠% من المزارعين والفلاحين وكان نظام العمل في هذا المستشفى يغري الناس وخاصة العامة منهم على التزاحم والاقبال على المستشفى.

فى الصباح المبكر تصرف التذاكر مجانا حتى الساعة الثامنة فيقفل باب المجانية وتصرف التذاكر مقابل خمسة قروش للتذكرة ويرجع السبب في ذلك الى ان يعمل المرضى على التبكير حتى يحضروا صلاة الصباح وسماع الدرس الدينى اذ يقف أحد المنصرين فيلقى في جموع المرضى درسا دينيا يتناول فيه احاطة الدين الاسلامى بالتشكيك ويجمع الاسباب الباطلة والواهية ليضلل بها صغار العقول ويبعدهم عن دينهم .

ولا تنحصر مهمة الطبيب في هذا المستشفى على فحص ووصف الدواء للمريض والقيام بعلاجه فقط بل كان لزاما عليه ان يسأل المريض عند الفحص عما ألقى عليه في درس الصباح الدينى وفي هذا يشعر المريض بوجوب الاصغاء

(١) المرجع السابق ص ٥٣ - ٥٦.

والانتباه وحفظ ما سمعه من المنصر حتى يلقى من الطبيب عناية كبيرة ويندس المنصرون بين المرضى ليتعرفوا بأحوالهم والطرق التي يغزون بها قلوبهم وافئدتهم فمن كان فقيرا منوه بالغنى والسعادة ومن كان مريضا بداء خطير وعدوه بان يتوسطوا له لدى الاطباء لينال الشفاء العاجل ومن كان عاطلاً فتحوا له باب الأمل بايجاد ما يريده من عمل ومن كانت أرملة أخذوا أبناءها الى ملاجئهم وأغدقوا عليهم النعم والهدايا واخبروهم بأنّ ذلك من فضل المسيح وبركته [١].

واذا دخل المريض المستشفى كان عليه حضور صلاة الاحد والاستماع للدروس الدينية كل يوم، ثم توزع عليهم النشرات التنصيرية لقراءتها ومن لا يعرف القراءة قرأها له احد المنصرين وكلها تدعو الى اعتناق النصرانية والطعن في الاسلام ونبيه.

هذا وقد اثير موضوع قيام مستشفى هرمل الانجليزى بالتنصير بين مرضاه من الفقراء المسلمين سؤال للنائب عبد الحميد الرمالى عن مدى صحة ذلك فأجاب رئيس الوزراء بالايجاب، وان الوزارة ستعمل لمنع القائمين بادارة المستشفى من القيام بأى دعاية دينية في المستقبل [٢].

وكان المرضى مجبرين على حمل تذاكر سطرت على ظهرها عبارات تنصيرية ومثال ذلك تذكرة كان يصرفها مستشفى الارساليات الانجليزية بمنوف للمرضى ومكتوب عليها عبارة "المسيح يسوع جاء للدنيا علشان يخلص الخاطئين، أجرة الخطيئة هى الموت اما عطية الله فهى حياة دائمة، ... واحنا خدمناكم

(١) احمد محمد سالمان: خفايا المبشرين في تنصير ابناء المسلمين، المطبعة السلفية القاهرة ١٣٥٣هـ ١٨/١٩.

(٢) مجلس النواب: الهيئة النيابية الثامنة، دور الانعقاد العادى الأول، المجلد الثانى الجلسة ٣٢ في ١٩ اغسطس ١٩٤٢ ص ١٤٨٧.

علشان خاطر يسوع" الى جانب بعض عبارات من الانجيل وكان المستشفى يكلف المريض بان يحمل التذكرة كلما غدا الى المستشفى حتى يحفظ ما عليها من ايات الانجيل.

ولم تختلف المستشفيات الأخرى كمستشفى أسيوط الامريكى ومستشفى طنطا الامريكى وغيرها من المستشفيات التي اقامتها الارساليات في مختلف القطر المصرى ففى صباح كل يوم يقرأ الانجيل مع المرضى وتناقش وتدرس بعض آيات الانجيل واذا خرج المريض من المستشفى تردد عليه الاطباء في منزله حتى يقع في حوزتهم.

ونخلص من هذا بان التطبيب كان وسيلة للعمل التنصيري مستخدما المستشفيات والمستوصفات التي لم تنشأ لدفع سقم ولا تخفيف ألم وانما أقيمت في معظمها لتفتن الناس في دينهم وتفسد عليهم عقائدهم، فالمرضى ملزمون بالاستماع لاقوال المنصرين مرتين في كل يوم ودعواهم بأن شفاءهم كان بسبب تمجيده الرب يسوع في صلواتهم اليومية واعتناقهم التعاليم النصرانية.

**ثالثا: الاعمال الاجتماعية:** اهتم المنصرون بالعمل الاجتماعى النصرانى وتطبيق مبادئ النصرانية في جميع الصلات الانسانية فالنشاط الاجتماعى يجب ان يرافق التعليم المباشر للانجيل ويساعده من اجل ذلك قيام المنصرون بالعديد من الاعمال الاجتماعية مثل: ايجاد بيوت للرجال والنساء وايجاد اندية وملاجئ للأيتام والعجزة والاعتناء باعمال الترفيه والحيلولة دون تشغيل الاطفال واصلاح الاموال العامة للعمال فيما يتعلق بساعات العمل وبالأجور والامور الصحية والذين يقومون بهذه الدعوات الظاهرة لا يقصدون الاصلاح الحقيقى بل يقصدون التسلل والتنصير الى جماعات المسلمين[١].

ومن أهم الاعمال الاجتماعية التي استغلها المنصرون في عملهم

---

(١) عمر فروخ وآخر: المرجع السابق ص ١٨٩ / ١٩٠.

التنصيري الاحسان والاحسان هنا لايأخذ صورة دفع المال فقط بل منها أيضا التعليم المجانى والمساعدة في ايجاد عمل.

أما كيف يستغل المنصرون اعمال الخير في سبيل التنصير فتمثله تلك الملاجئ التي انشئت لاطعام الأطفال الفقراء وكسائهم وايوائهم واذا كانت هذه الملاجئ لن تجعل كل الاطفال نصارى فإنها على الاقل لن تبقيهم مسلمين كآبائهم [١]. ومن أهم هذه الملاجئ:

١- **ملجأ ليليان تراشر**: اسسته مرسلة أمريكية تدعى ليليان تراشر لليتامى والارامل ومن التقطتهم من الشوارع والطرقات ممن لا يعرفون لهم ابا ولا أما والاطفال الذين فقدوا نعمة البصر والذين اساء اباؤهم معاملتهم بسبب مساوئ الزواج والطلاق والارامل اللاتى تركن أطفالهن بدون عائل أو سند وبعد الحياة داخل الملجأ وسط وسائل الاغواء التي تقوم بها المبشرات للتأثير على عقول البنات والاولاد واغرائهم بدين النصرانية وحملهم على الخروج من دين الاسلام[٢].

٢- **ملجأ سان لويس بالعباسية**: وهو ملجأ اجنبى العقيدة واللغة والصبغة وتديره امرأة فرنسية ويعاونها جماعة من الراهبات وطريقة الحصول على هؤلاء الاطفال ان تذهب الامهات تحت جنح الظلام فيدفعن بابه المفتوح دائما ويتركن اولادهن في سلاسل مخصصة لذلك ثم يقرعن جرسا هناك لتنبيه الراهبات الى وجود طفل جديد فتسرع الراهبات الى حمله وهناك ينشأ الطفل في هذا الوسط اجنبيا بكل معنى الكلمة في اسمه ودينه ولغته وجنسيته وتنص لائحة الملجأ ان هؤلاء اللقطاء يتبعون الديانة النصرانية الكاثوليكية [٣] وبهذه الطريقة ساعد

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٢ / ١٩٣.

(٢) الاخبار: العدد ٣٧٠٩ في ١٣ يوليه ١٩٣٣ السنة ١٣ ص ١.

(٣) محمود سليمان : النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأ

الأجانب على انتشار جريمة الزنا مادامت هناك طريقة للتخلص من المولود بالتوجه الى هذا الملجأ ومن ناحية اخرى حصلوا على فريسة لتنصيرها.

ومن أوجه النشاط الاجتماعى التي تستغل للتنصير في مصر (جمعية الشبان النصرانيين) و (جمعية الشابات النصرانيات) ومن الانشطة التي تمارسها هذه الجمعيات المخيمات والمؤتمرات.

هذا الى جانب الاندية التي كانت تضم نشاطا اجتماعيا مختلف الأنواع والألوان، فهناك تقام حفلات وتلقى محاضرات وليالى سمر ومطاعم ومنامات يأوى اليها من يشاء وغير ذلك من أسباب التسلية على أن الذى تضمه هذه الأندية ليس أمرا مقصودا لذاته وانما كل ما يهم المبشرون لا أن يأتى الناس الى هذه الأندية ليتمتعوا بما فيها من أسباب التثقيف والترويح، بل أن تجتذب بهذه الأسباب اناسا يستمعون الى صوت المبشر الانجليزى أو الأمريكى أو الفرنسى أو الهولندى وغيرهم [(١)].

**رابعاً: المكتبات وبيع الكتب:** لقد استغل المنصرون انشاء المكتبات لبيع الكتب في الظاهر ولتكون ستارا لادارة أعمال التنصير واستجلاب الزبائن ومحادثتهم أثناء البيع وكانت مطبعة النيل التبشيرية تقوم بطبع هذه الكتب وبيعها للجمهور [(٢)].

**خامساً: الصحف والمجلات:** استغل المنصرون الصحافة لنشر دعوتهم التنصيرية، وحسبنا ان نذكر ما قاله المنصر ولسون كاشن عن دور الصحافة في العمل التنصيرى "أن الصحافة لا توجه الرأى العام فقط أو تهيئة لقبول ما ينشر عليه، وبل هى تخلق الرأى العام" وقد استغل المنصرون الصحافة في مصر للتعبير

---

(١) عمر فروخ، وآخر: المرجع السابق ص ٢٠١.

(٢) محمد عزت اسماعيل الطهطاوى: التبشير أو الاستشراق أحقاد وحملات على النبى محمد ﷺ وبلاد الاسلام، الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ص ٣٠.

عن آرائهم النصرانية أكثر مما استطاعوا في أى بلد اسلامى آخر[١].

واتخذ المنصرون لهم صحفا في مصر تروج دعوتهم مثل بشائر السلام ومجلة الشرق والغرب و غيرها مما سبق ذكره في مبحث صحافة أ هل الذمة.

**سادساً: تشجيع اللغة العامية بدلا من الفصحى:** من الوسائل التي اتخذها المنصرون لتفكيك وحدة المسلمين وتشويه ثقافتهم العربية الاسلامية دعوتهم لاستعمال اللغة العامية بدلا من الفصحى لغة القرآن الكريم فيقول هؤلاء المنصرون أن تقطيع أوصال العرب والمسلمين لا يمكن أن يتم مادام هناك لغة واحدة يتكلمها العرب ويعبرون بها عن آرائهم.

وأخذ الأجانب المنصرون وأعوانهم بدراسة اللغة العامية المصرية، وأخذت كتبهم ووسائلهم تتابع في الظهور، وكان معظم الدارسين من الأوربيين الذين عاشوا في مصر وتولوا فيها مناصب عالية، منهم الدكتور ولهلم سبيتا.

ومن الأجانب الذين دعوا الى استخدام العامية في مصر وليم ولكوكس فقد كان لا يني عن محاربة الفصحى بالدعوة الى اقصائها عن ميدان الكتابة والأدب واحلال العامية محلها، اذ ألقى محاضرة في نادى الأزبكية وكان موضوعها لماذا لا توجد قوة الاختراع لدى المصريين، فقال : إن أهم عائق يمنع المصريين من الاختراع أنهم يؤلفون ويكتبون باللغة العربية الفصحى ولو ألغوا وكتبوا باللغة العامية لصاروا مخترعين، ثم اتجه بعد ذلك الى الانجيل فترجمه الى العامية وصار مبشرا يجادل الناس في عقائدهم ويحمل الى القرى النائية الأدوية، وظل يعمل في مستشفى هرمل الانجليزى الذى مارس من خلاله التنصير

---

(١) محمد محمود شاكر: المرجع السابق ص ٢٩٧.

بالنصرانية بين المترددين على المستشفى[١].

كما كان المنصرون يعلنون عن وجود فرع لتعليم فن الأشغال اليدوية في نادى الشابات التابع لجمعية المرسلين الأمريكان، وأنه يمكن لكل فتاة أن تلتحق بهذا الفرع فتتعلم التطريز وغيره مقابل عشرة قروش شهريا، وكان هذا الاعلان يخدع الكثير من الأسر التي تود ان تكون بناتها خبيرات بالأشغال اليدوية، وعندما تجتمع الشابات المسلمات في النادى تجتهد المنصرات في التودد اليهن والتقرب منهن ليضمن استمرارهن على الحضور حتى اذا مضى اسبوع أو اثنان على حضورهن طرقت المنصرات باب التنصير بين هؤلاء الفتيات في صيغة حكايات عن المسيح المخلص والمنقذ[٢]، كما كانت هناك بعض المنصرات الامريكيات يتنقلن بين القرى وهن حاملات أدوية ونشرات دينية، فيزرن الأهالى في بيوتهن ويوزعن عليهم هذه الادوية مجانا وينشرون بينهم العقيدة النصرانية.

---

(١) أنور الجندى: الاسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب، مطبعة لرسالة (ب.ت) ص ٢١٦، عمر الدسوقى: في الادب الحديث، الجزء الثانى، الطبعة الخامسة، دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٦٤ ص ٤٠.

(٢) البلاغ: العدد ٣١٤٣ في ٢٠ يونيه ١٩٣٣، السنة ١١ ص ٧.

## المبحث الرابع

## إلغاء السلطنة والخلافة وإلغاء تطبيق الشريعة

**تمهيد :**

لابد قبل البدء في المخطط اليهودى الانجليزى الذى تمت فيه فصول هذه الجريمة من القاء نظره سريعة على حياة "مصطفى كمال أتاتورك" ذلك الرجل الذى جعل منه الاعلام الغربى وكتاب المستشرقين البطل المخلص - المنقذ - بل رسخ في أذهان الصبية في تركيا انه الإله وذلك في عهد الالحاد الذى حكم به هذا الرجل، أكبر وأطول خلافة اسلامية هذه الشخصية أصبحت اسطورة سيطرت على أذهان بعض القادة السياسيين في البلاد الاسلامية في عهده وبعد هلاكه، مما جعل الاستاذ أبا الحسن الندوى يقول:

"أصبح اتاتورك رمز التقدم والثورة في كل بلد ناهض وفي كل مجتمع متحرر من العالم الاسلامى، والمثل الأعلى للقادة والمفكرين السياسيين المسلمين على اختلاف اجناسهم وبيئاتهم ولا نعرف زعيما - على فقره في النبوغ العقلى والتعمق - من زعماء البلاد الاسلامية، أثر في النفوس والعقول وأثار الاعجاب بشخصيته وأعماله، واثار الرغبة في تقليده والاحتداد به، مثلما فعل أتا تورك في الزمن الأخير"[1].

- ولقد صورت كتابات كثيرة حول شخصية هذا الرجل له أو عليه ومن حقيقة نسبه وأهدافه ومن الذى كان يوجهه أو يخطط له:

فمن حيث النسب قال المؤرخ ارغولد تونى في كتابه (العظماء المعاصرون) يذهب الى ان دما يهوديا يجرى في عروق الأسرة الكمالية التي كانت تقطن

---

(١) أبو الحسن الندوى: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص ١٢. نقلاً عن مشهراني. مرجع سابق ص٢١٥.

سلانيك [١].

- ولد مصطفى في سلانيك مقر يهود الدونمة في تركية عند قدومهم من أسبانيا .. ودخل المدرسة العسكرية، وبعد تخرجه أرسل الى الجيش الخامس الذى كان مقره الشام، ثم بعث الى يافا للتدريب في قسم المشاة إلا أنه هرب مستخفيا الى سلانيك ويعد وساطات سمح له بالبقاء وعين ضابطا في الجيش الثالث المرابط في سلانيك. وأصبح ينتقل من قطر الى قطر ومن منصب الى آخر الى أن كلف في عام ١٩١٨ للمرة الثانية قائداً للجيش السابع في فلسطين، وما لبث أن انسحب بالجيش التركى عائدا الى تركيا - ويستدل من ذلك مؤلف كتاب (الرجل الصنم البرهان في دراسة مستفيضة ان مصطفى كمال لم ينسحب بجيشه الا وهو متواطئ مع الجنرال الانجليزى "اللنبى" لتسليم سوريه للانجليز بلا قتال حقيقي [٢].

بعد هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى كلفه السلطان وحيد الدين بالذهاب الى الاناضول مفتشا للجيش الثالث مزودا بصلاحيات واسعة، وفي الأناضول أعلن عصيانه ضد الدولة، واستقال من الجيش، وعقد بعدها عدة مؤتمرات مطوله لتحقيق رسالته من خلالها منها مؤتمر "أرضروم" في ٢٣ يوليو ١٩١٩م، ثم بعد شهرين دعا الى مؤتمر "سيواس" في ٨ سبتمبر عام ١٩١٩م . وبعد سقوط اسطنبول رسميا بيد الحلفاء انتقلت جمعيته الوطنية والتى عرفت بالمجلس الوطنى الى أنقرة وافتتح فيها مجلس الأمة في ٢٤ ابريل ١٩٢٠م.

وبعد ذلك بدأت قصة البطل الاسطورة على بداية حروب اليونان والتي كان قائدها أحد العسكريين البارزين الأتراك وهو عصمت إينونو.. في ٦ يناير ١٩٢١ وقعت معركة إينونو الأولى على اثر الهجوم الذى شنه اليونان على

---

(١) محمد صبيح: أتاتورك ص ٤٨. نقلاً عن نفس المصدر ص٢١٥.

(٢) الرجل الصنم ص٩٨ ، انظر عبدالكريم مشهداني : مرجع سابق ص٢١٦ ـ ٢١٧ .

القوات التركية، وانتهت المعركة بانتصار الاتراك وكان انتصارا بالغ الاهمية ليس في تركيا فحسب بل في العالم الاسلامى كله وانطلقت الهتافات والقصائد والمديح حيث كان أول نصر للمسلمين بعد الهزائم المتكررة والاحباط الذى أصاب المسلمين ولقب بعدها قائد المعركة بـ عصمت اينوتوا واخذ هذا اللقب حتى أولاده من بعده الى يومنا هذا.

وفي مارس من العام نفسه وقعت معركة ايتوتو الثانية وانتهت بغلبة الاتراك كذلك على اليونان وبعد ثلاثة أشهر خاض الاتراك المعركة الفاصلة مع اليونانيين وهى معركة صقاريا التي حققت النصر الكاسح للاتراك وألقت باليونانيين في البحر - وحينها أطلق على مصطفى لقب "الغازى" - وكان هذا اللقب لا يطلق الا على الخلفاء الأقوياء من قبل.

وما ان تم له هذا النصر في المعارك ضد اليونان - هذا النصر الذى يشكك فيه بعض المؤرخين وانه بمساعدة انجلترا حتى تصنع منه بطلا حربيا بأن يطاع وان يسود - أو يفصل عدد من القادة العسكرين الأفذاذ، ولم يكن لمصطفى كمال فيه الا القليل من الجهد والتخطيط .

حتى استوى على قمة القيادة العليا للبلاد وأصبح الامر الناهى - واستطاع اسقاط - جميع خصومه ومعارضيه - وان كانوا على حق في معارضتة، وتحذير الأمة منه - الا ان الناس في ذلك الوقت قد اسكرتهم نشوة النصر على اليونان، وكذلك خدّروا بالغزو المتكرر، الذي سيطر على تفكيرهم واختياراتهم.

بعد ذلك تمكن مصطفى من الغاء الخلافة، وتسنم منصب رئيس الجمهورية التركية - بعد محاولات من مسلمى الهند والعالم الاسلامى أن يكون هو الخليفة الا انه قابل ذلك بالرفض الشديد - ثم على اثر ذلك قام بأكبرو

أعنف حمله علمانية حطمت معالم الاسلام في تركيا[١]- شكلا ومظهرا وروحا واصلا - فلم تكن حرية علمانية كما يدعون بل الحادا جبريا.

وهذه نماذج من أقوال وافعال مصطفى كمال تبين لنا من خلالها شخصيته وما جناه على المسلمين.

كما هو معروف من سيرته انه انضم الى جمعية الاتحاد والترقى ودخل مع الماسون[٢] ثم الحق باحدى الشعب التي تتألف منها الجمعية، وكانت هذه الشعبة فرعا من منظمة (النيهلت) الدولية التي تضم اشتاتا من الناس يتحدثون عن اضطهاد روسيا لليهود[٣]. ومنذ كان طالبا كان يدعو الى الغاء القوانين العتيقة.

وأقسم مع أعضاء الجمعية على (مكافحة استبداد السلطان - وانشاء حكومة دستورية تكون مهمتها تحرير الشعب من رجال الدين، وتحرر النساء من الحجاب)[٤].

وينقل الاستاذ الندوى عن بعض من عرفوه (كان بفطرته ثائرا لا يحترم دينا او انسانا او وضعا من الأوضاع، ولا يقدس شيئا على الاطلاق) [٥].

ومن أقوال مصطفى: "أن الامبراطورية العثمانية قامت على اساس الاسلام، وان الاسلام بطبيعته ووضعه عربى، وتصوراته عربية، هو ينظم الحياة من ولادته الى وفاته، ويخفق الطموح في نفوس اتباعه، ويقيد فيهم روح المغامرة

(١) انظر: عبد الكريم مشهدانى: المرجع السابق ص ٢١٧ - ٢١٩.

(٢) الرجل الصنم ص ٧٠.

(٣) الذئب الأغير ص ٣٠.

(٤) الذئب الأغير ص ٢٧.

(٥) الصراع: المرجع السابق ص ٦٤.

والاقتحام، والدولة لاتزال في خطر مادام الاسلام دينها الرسمي"[١].

وكان كثيرا يردد "أن قوة العقل والارادة تتغلبان على قوة الإله، وكان مصمما على سن قوانين لمنع الدين في تركيا، ولو احتاج ذلك الى استخدام القوة، والى الخدعة والتضليل[٢]وقد استخدمها جميعا في مخططه وبأبشع الاشكال.

هذا هو أتاتورك البطل المخلص والذى اغتر به للاسف مجموعة من كبار الادباء والمفكرين واستغلال أتاتورك للاسلام.

لقد استغل مصطفى كمال الاسلام لا تديناً وعبادة لله تعالى ، وإنما ليقينه برسوخ العقيدة ومدى عمقها في الامة التركية خاصة وفى باقى الأقطار المسلمة عامة، ويعرف مدى القوة التي تنطوى عليها نفسية الجندى التركي حيث يقاتل دفاعا عن دينه، ومدى البذل الذى سيناله من الشعوب المسلمة اذا علمت انه يقاتل باسم الاسلام - وفعلا هذا ما حصل له من جمهور المسلمين من مساعدات مالية ومعنوية و ...

ومن هذا المنطلق راح مصطفى واتباعه بمظاهر التدين والتقوى - وهو في حقيقته كما وضح جليا كاره للدين متربص به شرا - بل انه ظهر وله صور مازالت بلباس وزي عالم الشريعة وكان حريصا وأتباعه في بداية ظهوره على ارتياد المساجد مع الناس للصلاة. وحضور المناسبات الدينية (وما اكثرها في ذلك الوقت) من موالد - واحتفالات دينية[٣] أخرى.

واتقانا للتمثيل استقدم مصطفى كمال أحمد السنوسى الكبير وقربه اليه

(١) نفس المرجع ص ٧٠.

(٢) الرجل الصنم ص٧٢.

(٣) انظر مشهدانى، العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص ٢٢٨.

واتخذه ستارا لهذه التمثيلية [١].

وكان ينادى في حرب الاستقلال "ان الكفار قادمون، سيجبرونكم على لبس القبعة وسيدوسون على القرآن، وسيعتدون على أعراض زوجاتكم وامهاتكم وبناتكم" [٢] ولعله كان يقصد نفسه بقوله "الكفار قادمون".

هذا هو مصطفى كمال وهذه هى أقواله وفكره تصرفاته وسنرى ما هى اجراءاته العلمانية واعماله المستقبلية، والتي للاسف نجح فيها نجاحا كبيرا. مازالت تركيا والعالم الاسلامى الى اليوم تعانى وتكتوي بنارها. ولازال الغرب الصليبى يمجده ويثنى عليه. للجهود الجبارة التي ما كان يحلم بها في ظل الخلافة وأولها. الغاء الشريعة بالكامل والغاء الخلافة للأبد (كما يريدون) ومسخ شخصية الفرد المسلم الى انسان غربى آخر تماما كما نلخصه في السطور التالية:

**١- القانون المدنى. او الغاء الشريعة.** في ٨ نيسان من ١٩٢٤ - ١٣٤٣هـ اصدر المجلس قانونا بتشكيلات المحاكم الغيت بموجبه المحاكم الشرعية وعهد بمهام هذه المحاكم لمحاكم الصلح والمحاكم الاصلية (المركزية).

ثم شكلت لجنة لوضع القانون الجديد واستقدم خبراء اجانب لوضعه فاقتبس القانون الجنائى من التشريع الايطالى والقانون المدنى من القانون السويسرى والقانون التجاري من القانون الالماني [٣].

وفي ١٠ نيسان عام ١٩٢٨ جرى تعديل على الدستور التركى فرفعت عبارتا (تنفيذ الاحكام الشرعية) و (دين الدولة الاسلام) وعدل شكل اليمين الذى يحلفه رئيس الجمهورية وأعضاء الوزارة ومجلس النواب فأصبح الحلف

(١) العرب والترك لجميل بيهم : ص ١٧٦.

(٢) الرجل الصنم ص ٣١٣؛ وانظر: التل، الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ص ١٠٠.

(٣) تركيا والسياسة العربية ص ١٠٢.

بالشرف بدلا من الحلف بالله [١].

٢- **الغاء المدارس الدينية**. كان أتاتورك يكره اللغة العربية لأنها لغة الاسلام وكان ينتظر الفرصة المناسبة للقيام ضدها بحمله واسعة، فعلاوة على ان المدارس التركية تعتمد الابجدية العربية فانها كانت تعلم اللغة العربية على نطاق واسع [٢].

وكانت مدارس الشريعة تغذى مساجد القرى والمدن بالائمة والخطباء والوعاظ والحفاظ والمرشدين وكانت منتشرة جدا حتى انه كان في ولاية (قونيه) في سنة ١٣١٧هـ ٦٦ مدرسة فيها ٣٦٦٦ طالبا وقد تقرر الغاء هذه المدارس في نفس الجلسة التي تم فيها الغاء الخلافة ووزارتي الشرعية والأوقاف بالاجراءات التالية:

**أولاً**: المؤسسات العلمية والتدريسية في بلاد الجمهورية قد ربطت بوزارة الاوقاف.

**ثانياً**: جميع ما يدار من قبل وزارتى الاوقاف والشرعية، أومن قبل الأوقاف الخصوصية من مدارس ومكاتب ربط بوزارة المعارف.

**ثالثاً**: جميع ما في ميزانية الاوقاف والشرعية من مخصصات المدارس ينتقل الى ميزانية المعارف.

**رابعاً**: وزارة المعارف تنشئ في الجامعة كلية الهيات عالية لتنشئة متخصصين في الامور الدينية كما تنشئ مدارس خاصة لتخريج الأئمة والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية.

ولكن مصطفى كمال لم يلبث ان ألغى كلية الالهيات واقفلها كما ألغى

---

(١) تركيا الحديثة: ص ٢٠١.

(٢) الرجل الصنم ص ٣٥٠.

المدارس الدينية التي انشئت لتخريج الائمة والخطباء واقفلها كذلك عام ١٩٣٠[١].

٣- **حرب القبعة**: قصة لبس القبعة او عدم لبسها والتي تعتبر عند الأغلب قضية من التوافه التي كبرها (مصطفى) فجعل فيها قضية الجماهير وفرضت من أجلها حرب دموية رهيبة بل وهاجر بعض العلماء والمفكرين من تركيا الى مصر أو الشام أو غيرها - فرارا من بطش قانون القبعة كما سمي من بعد.لأنهم كانوا ينظرون إلى القبعة كرمز للكفر وعلامة على أهله ـ وكما ذكر صاحب كتاب الرجل الصنم (ان الذى أتى به مصطفى - على شكل قبعة - لم يكن الا صليباً وقماشاً، وهذا الصليب الجديد لم يأت به مصطفى لكونه عنصرا للهندام، بل من أجل تحدى الاسلام)[٢] والذى يعيش مع أحداث تلك الأيام العصيبة يتحسر على أطول وأعظم دولة حكمت باسم الاسلام ثم يؤول امرها الى هذا المعتوه - وتقوم في شوارعها حرب صليبية منها وفيها[٣]؟

**نتابع الاجراء في طريق مسخ الدين من قلوب المسلمين:**

استعملت الجمهورية الجديدة التي يديرها الدونمة!! القوة بل والهيمنة في تطبيق كل ما تريد لتلحق بركب الامم المتمدنة!! زعموا.

ولو كانت هذه الاجراءات من الامور الشكلية فإضافة هنا الى ما تقدم معنا من الغاء الشريعة في التحكيم واستبدال القوانين الوضعية بها، كأساس ومبدأ للدولة تبعتها خطوات اجتماعية وتدخل في قضايا الناس الخاصة.

---

(١) تركيا الحديثة ص ٧٢.

(٢) الرجل الصنم ص ٣٢٤.

(٣) انظر تفاصيل واحداث اصدار قانون القبعة: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ص ٦٦، الذئب الأغبر ص ٢١٤، تركيا الحديثة ص ٧٩، العلمانية واثرها على الأوضاع الاسلامية في تركيا ص ٢٨٣ - ٢٨٩. وقد اقتبست منه واستفدت في الرجوع إلى المصادر الأصلية.

فحرمت الكتابة باللغة العثمانية (بالحروف العربية) واستبدلت الحروف اللاتينية بالعربية وجعلت ذلك اجباريا ليس في سجلات الدولة فحسب بل في كل ما يكتب ويطبع وينشر (وكان الكماليون) يعتذرون عن تأخيرهم في الغاء الحروف العربية انها لغة القرآن الكريم ولم يكن ذلك ميسرا في ظل الخلافة العثمانية! ولكن بعد أن طرحت الحركة النضالية عن الشعب التركى لباس القرون الوسطى من خلافه - الى محاكم شرعية - الى كتب فقهية وقرآنية عربية!!

وهيأته للباس الحضارة الجديدة ، فانه لم يعد يصح ان تبقى اللغة التركية خاضعة لسيطرة لغة أجنبية![1].

وقد عمدت الجمهورية الجديدة لتحقيق هذه الغاية الى عدة اجراءات منها:

**أولاً**: اشتقاق كلمات تركية جديدة.

**ثانياً**: البحث عن كلمات تركية من بين اللهجات التركية المختلفة.

**ثالثاً**:أخذ الكلمات الأجنبية وخاصة الفرنسية كما هى[2]!

وحيث قامت لجنة بترجمة القانون السويسرى حرصوا على عدم استعمال أى مصطلح عربى، فعبروا عن المصطلحات القانونية بواسطة الجمل!! مما يوقع في أخطاء كثيرة لفقر لغتهم التركية من المادة[3].

يقول الامير شكيب أرسلان "لقد كان ترك الحروف العربية ضربة عظيمة على تركيا في حياتها العلمية والادبية والاقتصادية وتعذرت الكتابة على الجميع بالحروف اللاتينية، فانحصرت في فئة قليلة وأصبحت الجريدة التي كان عدد

(١) تركيا والسياسة العربية ص ١٠٩. نقلاً عن المشهداني، مرجع سابق ص٢٨٣.

(٢) الرجل الصنم ص ٣٤٣.

(٣) نفس المرجع ٣٢٨.

قرائها بالألوف لا يقرأها الآن سوى بضع مئات، ولا تزال هذه الأزمة الكتابية مشتدة في تركيا، ولايزال الغازى مصمما على حمل تلك الأمة على الحروف اللاتينية حبا في التفرنج [(١)].

**إلغاء السلطنة (أول نوفمبر ١٩٢٣)**

وحسم مصطفى كمال مسألة السلطنة بالقوة والتهديد، وذلك عندما تعرضت مسألة السلطنة في اجتماع المجلس الوطنى في أول نوفمبر ١٩٢٢ لمناقشات طويلة، فرأى أنه من الضرورة القاء بيان مسهب في هذا الأمر. فتعرض لتاريخ الاسلام والأتراك، فذكر ان البشرية مرت بعهدين: الأول عهد الصبا والشباب البشرى، والثانى عهد الرشد والكمال الانسانى.

فالعهد الأول هو الذى بدأ بأدم حتى محمد ﷺ حيث يبدأ العهد الثانى وهو عهد الرشد والكمال البشرى. وانتقل الى انتخاب أبى بكر للخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وآراء الصحابة في الخلافة بعد الوفاة، ثم تعرض لعمر ووفاته، وانتخاب عثمان، وخلافة على وما دار بينه وبين معاوية من حروب باسم الخلافة، وهنا يذكر أن الخلافة تحولت الى سلطنة إسلامية باسم الخلافة. ثم تعرض لتاريخ الأتراك حتى قيام "هولاكو" بالاستيلاء على بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م. وقتل الخليفة المستعصم العباسى، فرفع بذلك الخلافة من وجه الأرض.

وذكر أنه لولا السلطان سليم الأول الذى فتح مصر عام ٩٢٤هـ - ١٥١٧م، وأعطى أهمية لشخص لاجئ يحمل لقب الخليفة، لما استمر هذا اللقب حتى ذلك الوقت، ويذكر للمجلس أن مقام السلطنة قد اجتمع في يد المجلس الوطنى الذى يمثل الشعب، مبرهنا على ذلك بأن مقام الخلافة في بغداد في عهد الخلفاء العباسيين وفي مصر ظل يعيش قرونا بجانب السلطنة مع انفراده عنها..

(١) حاضر العالم الاسلامى جـ ٣ ص ٣٥٢.

وأكد أن مقام الخلافة بعد الغاء السلطنة عنه لن يكون ضعيفا كما كان في بغداد ومصر، بل سيتربع فيه شخص عال يستند على الدولة التركية، مما سيحقق القوة والبركة والفائدة للشعب التركى والعالم الاسلامى[(١)].

ويتبين من حديثه أنه يحاول اثبات أن السلطنة والخلافة كانا منفصلين في التاريخ، وأنه يمكن الغاء السلطنة بينما يمكن ابقاء الخلافة، وأن السلطنة ليست سوى سلطنة دنيوية يتولاها الشعب. ولعل أهم ماحرص عليه في بيانه هو استغلاله للشعور الدينى، فيصف الرسول عليه السلام بأن "وجهه نورانيا، وكلامه روحانيا" ويذكر المجلس أن من المصادفات السعيدة أن يجتمع في يوم رحيل الرسول بعد أن أتم الرسالة. وأتم تأسيس الاسلام: "وها نحن أولاء في يومنا هذا - ١٢ من ربيع الأول - ندرك ذكرى ذلك اليوم، فقد ارتحل الرســـول الأعظـــم الى دار البقاء في مثل هذا اليوم بالتاريخ العربى"[(٢)].

وقد أحيلت الاقتراحات المقدمة لالغاء السلطنة الى ثلاث لجان بالمجلس: لجنة الدستور، الشؤون الشرعية، والعدل، ورأس هذه اللجان الثلاثة الشيخ مفيد أفندى. ودافعت لجنة الشؤون الشرعية عن السلطنة على أساس أن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن أن تفصل[(٣)].

وبدأ النقاش يطول في هذا الأمر. ووجد مصطفى كمال أن اللجنة الدستورية والشرعية ضده وأن المناقشات تسير في اتجاه مضاد للهدف الذى يسعى اليه، وهو ما يعنى هزيمة شخصية له وهو في بداية سعيه لتكوين دولة على أسس عصرية، عندئذ قطع مناقشات اللجنة واعتلى المنصة قائلا بصوت عال:

---

(١) انظر نص الخطبة في: مجلة المنار: خطبة الغازى مصطفى كمال باشا المجلد ٢٣، الجزء العاشر ديسمبر ١٩٢٢م ص ٧٢٢ - ٧٨٤.

(٢) مجلة المنار: المصدر السابق ص ٧٧٤.

(٣) Berkes, N, OP LIT. p.٤٥٠

أيها السادة، ان السيادة وحق الحكم لايمكن أن تحول من شخص الى هيئة عن طريق المناقشات الأكاديمية، وانما تؤخذ بالقوة والغلبة. فبالغلبة أخذ العثمانيون السيادة من الشعب واستمروا في حكمهم أكثر من ستة قرون. والآن فان الشعب سيستردها بالثورة ضد هؤلاء المغتصبين.

عندئذ أدركت اللجنة الشرعية عبث المناقشات، وأنها مسألةشكلية، وأن الغاء السلطنة سيتم سواء وافقت أم لا.

وهكذا ظهر بوضوح أن مصطفى كمال قد أعد للأمر عدته، وأن المناقشات في المجلس أريد بها أن تكون شكلية. وتم الغاء السلطنة بالتهديد بقطع الرؤوس المعارضة، الأمر الذى يثبت أنه كان يتعجل الحصول على السلطة المطلقة بأى ثمن ليصبح صاحب القرار، فعن طريق نقل سيادة الدولة الى المجلس الوطنى الكبير يستطيع ادارة شؤون الدولة بصفته رئيسا للمجلس.

وقد احتوى قرار الغاء السلطنة على مادتين: نصت الأولى على تقرير الأمر الواقع من تركز حكم الأمة في المجلس وبطلان وجود حكومة الأستانة، أما الثانية فنصت على بقاء الخلافة في العائلة العثمانية، وذلك على النحو التالي:

١- بموجب قانون التشكيلات الأساسية، فان سياسة الدولة التركية قد انتقلت في يد المجلس الوطنى الكبير. وبناء عليه فان الشعب التركى يعتبر الحكومة التي في الأستانة والتي تستند الى السيادة والشخصية قد انتهت الى الأبد في ١٦ من مارس ١٩٢٠م.

٢- ان الخلافة في آل عثمان وسوف ينتخب المجلس الوطنى الكبير لها من آل عثمان وأرشدهم وأصلحهم علما وخلقا، والدولة التركية هى سند الخلافة[١].

---

(١) صحيفة الاهرام: السلطة والخلافة - حديث رأفت باشا، العدد ١٣٩٠٣، الأربعاء ٢٢ نوفمبر ١٩٩٢م.

وأقر المجلس مقدمة للقانون حملت فيها على السلطان لتآمره مع الأعداء ضد الحركة الوطنية، ونصت على أن أمثال هذه المواقف تثبت أن السلطنات الشخصية ليست الا بلاء على رأس الأمم وبالموافقة على تجريد الخلافة من السلطة انتهى الصراع بين حكومتى استانبول وأنقرة، كما انتهت فترة مصانعة علماء الدين وأهل الأناضول.

وعندما سئل رأفت باشا - حاكم استانبول من قبل المجلس الوطنى - عما يتوقعه لتركيا من فصل الخلافة عن السلطنة، أجاب: "نتوقع كل ما يتوقعه بلد ديمقراطى من فصل الكنيسة عن الحكومة.

ويتبين لنا مما سبق أن أهم التبريرات التي حاول مصطفى كمال وأنصاره ترويجها: أن هذا الفصل لا يعد مخالفا لتعاليم الاسلام، وأن التاريخ يثبت أن الخلفاء عندما جمعوا بين السلطة الدينية والزمنية سارت دولهم الى الفناء والانقراض، وأن الزمن الحالى لا يقاس بزمن الخلفاء الراشدين ولا شك أن هذه الحجج جاءت متأثرة الى حد كبير بما حدث في أوربا من صراع بين الكنيسة والحكومات وما أسفر عنه ذلك الصراع من فصل بين السلطة الدينية والزمنية، فاقتصر تأثير رجال الدين هناك على الناحية الروحية بينما تركت شؤون الحياة الى الحكومات.

أما شيخ الاسلام الأسبق للدولة العثمانية - الشيخ مصطفى صبرى - فيذكر أن ما ابتدعه الكماليون من تجريد الخلافة من السلطة والتفريق بينهما - أمر يرجع الى ارتداد الحكومة التركية وانتزاعها عن لباسها الدينى، وأن مصطفى كمال ما اخترع هذا التفريق لاصلاح الادارة التركية، وانما لانتزاع السلطة من آل عثمان: "فليس مرمى الكماليين فيما فعلوه سوى غرضين، احدهما افشال السلطة من آل عثمان ونقلها الى مصطفى كمال، والتفريق بين الخلافة والسلطة. ثم نقل السلطة أولا الى المجلس الوطنى كان عبارة عن التستر والايهام في المغزى

والمرام. والغرض الثانى الغاء الخلافة وابطالها على التدريج، لاخراج حكومتهم من أن تكون حكومة اسلامية [١].

ويذكر أيضا أن الكماليين اتخذوا من فتح أزمير حجة على ما تقدم وما تأخر، فأخرجوا الخلافة عن الحكومة وخرجوا عن الدين، ووجدوا فرصة الجرأة عليه بين أعين المسلمين وظهرانيهم خلال التصفيقات والتهانى التي نالوها منهم بذلك الفتح.

ومن الواضح بعد استعراض التبريرات المختلفة لتجريد الخلافة من السلطة أن الهدف كان تولى تقاليد السلطة في الدولة تمهيدا لالغاء الخلافة وتأسيس دولة على النمط الغربى.

وهكذا بالغاء السلطنة اصبحت حكومة المجلس الوطنى هى التي تدير تركيا، ففى الرابع من نوفمبر ١٩٢٢ سلم الصدر الأعظم توفيق باشا أختام الدولة الى السلطان وحيد الدين، فانتهى بذلك منصب الصدر الأعظم من الدولة، وأدار رأفت باشا في نفس اليوم استانبول اداريا باسم المجلس الوطنى الكبير. وتحقق بذلك خطوة من خطوات مصطفى كمال الرامية الى الانفراد بالسلطة.

**المجلس الوطني وإدارة تركيا:**

بات السلطان وحيد الدين يتوجس شرا بعد تجريد الخلافة من السلطة، واصبح من المتوقع أن يترك العرش، حتى أن جريدة "الشرق الجديد" تساءلت في ٧ نوفمبر ١٩٢٢: "ماذا ينتظر السلطان السابق". ومع توجيه الاتهام بالخيانة العظمى الى السلطان والوزارة السابقة، ودعوتهم للمثول أمام المحكمة، تأكد السلطان أن حياته في خطر، فاستعان ببريطانيا لتساعده على الابتعاد عن عاصمة

---

(١) مصطفى صبرى: النكير على منكرى النعمة، ص ١١ - ١٣.

الخلافة. ويمكن أن نتلمس أسباب هروب السلطان وحيد الدين، من الخطاب الذى بعثه عام ١٩٢٤ الى رئيس جمعية تضامن العلماء بمصر - الشيخ محمد فراج المنياوى - اذ كان يتوجس شرا مما يدور حوله: "لم يكن ابتعادنا من نحو عام عن عاصمة الخلافة الا هجرة بعد الذى شهدنا حول العرش من ظلمات وعصيان هائل فترتب على برنامج معتد أثيم فلم نترك العاصمة الا لنجد محيطا مساعدا للدفاع عن نصوص الشريعة الغراء وحق الكلمة العليا وقد رمينا بوزر هذه الغيرة الدينية ولكن كانت الحاشية توجس شرا من هذا الاستعداد للدفاع، وانتهى بنا ذلك الى ضرورة الابتعاد عن عرشنا، وها هى الايام أتتنا بفجائع كنا نقشعر من سماع حديثها.

وقرر المجلس الوطنى في نفس اليوم الذى فر فيه السلطان وحيد الدين، خلعه من الخلافة، واستصدر مصطفى كمال فتوى دينية بخلعه بسبب خضوعه للأعداء وهو يحمل صفة امام المسلمين، ومناواته للجهاد ضدهم وفراره الى جانبهم.

وتم انتخاب عبد المجيد بن عبد العزيز - وابن عم وحيد الدين - خليفة، فأرسل مصطفى كمال باسم المجلس في ١٩ من نوفمبر ١٩٢٢ برقية الى الخليفة الجديد يخبره فيها بقرار انتخابه خليفة.

وأرسل مصطفى كمال برقية الى رأفت باشا حاكم استنبول، يخبره بشروط انتخاب عبد المجيد خليفة: "ان عبد المجيد أفندى سوف يلقب بخليفة جميع المسلمين ولن يضاف اليه أى لقب آخر، وعليه ابلاغنا برقيا عن طريقكم بنص البلاغ الذى سيوجهه للعالم الاسلامى، وبعد موافقتنا عليه سنعيد النص اليه عن طريقكم لأذاعته رسميا، ويجب أن يتضمن النقاط التالية:

١- ان يعبر صراحة عن سروره لانتخابه خليفة من قبل المجلس الوطنى الكبير لتركيا.

٢- التنديد بسياسة وحيد الدين.

٣- أن يتضمن بلاغه بشكل مناسب المواد العشر الأولى للدستور، والتأكيد على الشخصية الخاصة للدولة التركية والمجلس الوطنى الكبير وحكومته، وأن يعلن أن النظام الادارى هو أنسب الأشكال لصالح رغبات سكان تركيا والعالم الاسلامى.

٤- وان يتضمن بلاغه مدحه للخدمات التي أدتها الحكومة الوطنية الديمقراطية في تركيا، والجهود التي بذلتها.

٥- وما عدا النقاط المذكورة، فان البلاغ يجب ألا يتضمن أية اشارة تحمل مغزى سياسيا.

وبموافقة عبد المجيد على هذه الشروط، أصبح منصب الخلافة لاأهمية له، ولم يعد للخليفة مكان في دولة حديثة، ولهذا فانه ليس من المبالغة القول بأن الخلافة من الناحية العملية قد ألغيت مع الغاء السلطنة في أول نوفمبر ١٩٢٢.

**نتائج إلغاء السلطنة:**

مع فصل السلطنة عن الخلافة تلاشت فكرة الدولة العثمانية-العظمى- وأصبحت امكانية قيام الجمهورية في تركيا أكثر قربا واحتمالا. وقد طبع هذا الفصل الخلافة بطابع الروحانية. فأصبح مجالها مقصورا على الناحية الروحية ووسائل العبادة، وهى صورة لا تعرفها الخلافة الاسلامية. ويضيف شيخ الاسلام الأسبق-مصطفى صبري - نتيجة هامة، فيذكر أن فصل السلطنة عن الخلافة قد أفسدهما معا، لأن الخلافة في اللغة عبارة عن النيابة عن حكومة رسول الله ﷺ في أمته. فاذا جردت من السلطة فانها تذهب. أما الفساد الخاص بالسلطة فلأنها عندما اقترنت بالخلافة كانت مقيدة بأحكام الدين الاسلامى اذ لا معنى لكون الحكومة حائزة للخلافة، الا كونها نائبة عن حكومة الرسول ﷺ ومقيدة بأحكام الدين وعند افتراقها عنها تعتبر غير مقيدة بها.

وسرعان ما ظهر مفهوم مصطفى كمال عن نظام الدولة، وموقفه من وحدة العالم الاسلامى والخلافة ويكشف لنا عبد العزيز جاويش - الذى كان يتولى لجنة الشؤون الثقافية الاسلامية في تركيا - موقف مصطفى كمال من خلال حديث دار بينه وبين مصطفى كمال في نهاية ١٩٢٢ - استخلص من خلال هذا الحديث موقفه واصراره على أن هؤلاء الخلفاء هم الذين كانوا مصدر شقائنا وبلائنا ويتضح مما دار في هذا الحوار أن مصطفى كمال وأعوانه أنهم كانوا يهدفون الى القضاء على الخلافة كجزء من خطة مرسومة لتحويل الدولةعن النظام الاسلامى.

وقد بدأ مصطفى كمال في تلك الفترة يجاهر بآرائه ضد الدين للمرة الأولى صراحة، وهو ما يتضح من حديث دار بينه وبين الكاتبة الانجليزية، جريس اليسون، في نهاية عام ١٩٢٢ عن الحجاب والدين، اذ ذكر لها أن الحجاب سوف يزول خلال عامين من تركيا. وعن الدين تروى الكاتبة ان مصطفى كمال صرح لها تصريحا خطيرا يكشف عن حقيقة موقفه من المسألة الدينية: "انك تتحدثين عن الدين، فاعلمى أنى رجل لا دين له، وفي بعض الأحيان أتمنى لو ألقيت الأديان في قاع البحر".

وتذكر الكاتبة أيضا قوله: "ان الحاكم الذى يحتاج الى الدين لتثبيت حكمه لهو حاكم ضعيف، كمن يحاول أن يمسك الشعب بخيوط واهية. ان شعبى سيتعلم مبادئ الديمقراطية الصحيحة، ومبادئ الحقيقة والعلوم. وسوف تزول الخرافات وسندع للناس حرية العبادة، فلكل عقيدته، شريطة ألا تتعارض والعقل أو تدعوه الى الاعتداء على حرية الآخرين".

### إلغاء الخلافة (٣ من مارس ١٩٢٤م):

كان من الطبيعى بعد اعلان الجمهورية أن يتخذ مصطفى كمال الترتيبات لالغاء الخلافة، وأن يفصح عن وجهته الى الغرب، أما حديثه عن

الخلافة والجامعة الاسلامية، فتبدو فيه النية المبيته والعزم الراسخ على الغاء الخلافة، فكلاهما في تصوره أمر غير واقعى. بل انه ينكر تماما وجود الجامعة الاسلامية في يوم من الأيام ويعتبرها فكرة خيالية، ويظهر استخفافه بها. أما الخلافة فقد صارت كما يراها عبئا ثقيلا على كاهل الاتراك بينما الخلافة أمر يخص مسلمى العالم.

وحقد مصطفى كمال الدفين على مقام الخلافة، الذى لم يعد يخفيه في تصريحاته، وعمله بالتالى على الاسراع في التخلص من الخليفة، قد يفسره خوفه من هذا المقام، وبخاصة بعد تحركات الخليفة في تلك الفترة. الأمر الذى جعله يسرع بالتخلص من كل ما يشكل خطرا على مركزه من ناحية، وخططه من ناحية أخرى. لذلك لم يكتف فقط بتصريحاته عن وجهته الغربية وانما حاول ايضا تمرير مشروع في المجلس الوطنى لالغاء المدارس الدينية ولكن لم يكن من السهل قبول هذا المشروع.

وفي لقاء مع مصطفى كمال أزاح الستار عن سر هام، فعندما سئل عن عدم الغاء الخلافة بعد الغاء السلطنة أجاب بوضوح: "عندما ألغينا السلطنة كان من الواجب ان تلغى الخلافة في الوقت نفسه، وان يطرد أفراد الاسرة القديمة من البلاد بسبب سلوكهم الاجرامى. ولكن اتخاذ مثل هذا الاجراء كان أمرا معقدا وقاسيا على شعبنا، وبخاصة أن معاهدة السلام (لوزان) لم تكن قد وقعت[١].

وهذا الأمر يثبت بما لايدع مجالا للشك أن الغاء السلطنة لم يكن سوى خطوة الى الغاء الخلافة تمهيدا لعلمنة الدولة.

وما لبثت حدة الهجوم بعد لقاء مصطفى كمال بالصحفيين، أن ازدادت حدة الهجوم على الشرع الشريف في الصحافة وقد أثيرت مسألة تعدد الزوجات في ذلك الوقت و لم يكن هناك ما يبرره، ولكن ذلك كان تمهيدا لما ستتخذه

(١) عبد الكريم مشهداني : المرجع السابق ص٢٧٢ .

الجمهورية التركية من أمور في المستقبل.

أما جريدة (ايلرى) - لسان حال الكماليين في الأستانة - فكانت أكثر جرأة في الهجوم على الشرع الحنيف، فطالبت في ٢٤ من فبراير ١٩٢٤ بالغاء وزارة الشريعة والمحاكم الشرعية وتعدد الزوجات وطالبت بالعيش خارج نطاق قوانين الشريعة. كما طالبت باستبدال اللاتينية بالعربية بحجة أن الحروف العربية سبب التأخر في العلم والتعليم، مما أخر تركيا وجعلها وراء الأمم [(١)].

ولم يقتصر الأمر على الصحافة فقط بل زاد الى جميع وسائل الأتصال مع الشعب .

وكان التنديد بالخلافة والخليفة والمدارس الدينية بحجة حماية الجمهورية واضحا في جلسة المجلس الوطنى في ٢٧ من فبراير ١٩٢٤م، اذ انتهز انصار مصطفى كمال فرصة تخصيص الجلسة لمناقشة الميزانية، فأثاروا مسألة مخصصات أعضاء الأسرة العثمانية وميزانية وزارة الشؤون الدينية والأوقاف فقام واصف بك نائب "صاروخان" خطيبا فذكر أن الأمم التي أعلنت نظام الجمهورية في أوربا طردت الملك من بلادها، وحض الأعضاء والحكومة على الغاء الخلافة والمدارس الدينية، وقام بعده نواب كثيرون عزفوا على نفس الوتر، كان أبرزهم شاعر الطورانية "محمد أمين" الذى قال: مادام الله والنبى موجود!!فلالزوم لواسطة، والدين يمنع هذه الواسطة. فمادمت أرى تحت هذا السقف اخواني . والعلماء يمثلون الأمة فأنا لا أرضى بشئ آخر. فإما كل شئ وإما لا شئ.

**وقد تبلورت مناقشات الكماليين في المجلس فيمايلى:**

١- ضرورة الغاء الخلافة.

٢- فصل الشئون الشرعية عن الوزارة.

---

(١) مصطفى صبرى: النكير على منكري النعمة ص ٢٠٣.

٣- الحاق المدارس الدينية بوزارة المعارف العمومية.

٤- توحيد المحاكم المدنية والشرعية.

٥- ضرورة طرد آل عثمان من البلاد.

وجاء قانون الغاء الخلافة الصادر في جلسة الثالث من مارس ١٩٢٤ على النحو التالي:

١- يخلع الخليفة، وتلغى الخلافة، لأنها في جوهرها مندمجة في معنى ومفهوم كلمة الحكومة والجمهورية.

٢- يحرم الخليفة المخلوع وجميع أعضاء الأسرة العثمانية ذكورا واناثا بما فيهم أزواج الأميرات (الأصهار) من حق الاقامة داخل حدود الجمهورية التركية الى الأبد.

٣- على جميع الأفراد المذكورين في البند الثانى، مغادرة أراضى الجمهورية التركية خلال عشرة أيام كحد أقصى من تاريخ نشر هذا القانون.

٤- تسلخ الوضعية القانونية والجنسية التركية من الأفراد المذكورين في البند الثانى.

٥- من الآن فصاعدا يحظر على الأفراد المذكورين في البند الثانى التصرف في ممتلكاتهم الثابته داخل الجمهورية التركية. ولهم الحق في تصفية علاقاتهم بالالتجاء الى المحاكم العامة بطريق التوكيل خلال سنة واحدة.

٦- تعطى مبالغ للأفراد المذكورين في البند الثانى بواسطة الحكومة لمرة واحدة على أساس تغطية نفقات تكاليف رحلتهم تختلف بمقدار درجات ثروتهم.

٧- على الأشخاص المذكورين في البند الثانى تصفية أملاكهم الثابته خلال مدة سنة واحدة وذلك بعلم الحكومة واذنها. وفي حالة عدم التصفية فانها

تصفى باشراف الحكومة وتعطى لهم حصيلتها.

٨- تنقل ملكية الأفراد الذين استولوا على عرش الدولة العثمانية، والواقعة في الجمهورية التركية والمسجلة في الطابو [١] الى الأمة.

٩- تنقل المفروشات والتحف والممتلكات الشخصية الموجودة في القصور والقلاع الى الأمة.

ويظهر من صياغة القانون مدى حرص مصطفى كمال على استئصال الأسرة العثمانية ذكورا واناثا بما فيهم الأصهار من الجمهورية التركية ونزع الجنسية التركية عنهم، وذلك حتى لا يشكل أى فرد منهم في المستقبل نواة يتجمع حولها فيما بعد انصار الخلافة فتهدد سلامة الجمهورية.

**نتائج إلغاء الخلافة :**

لقد ترتب على الغاء الخلافة نتائج على جانب كبير من الأهمية، فرغم أن الخلافة في ذلك الوقت كانت صورية، الا انها كانت على الأقل رمزا لتجمع المسلمين، فبالقضاء عليها قضى على الرمز الذى يمثل وحدة المسلمين، وفقدت تركيا مكانتها بين العالم الاسلامى الذى كان ينظر اليها على أنها دولة الخلافة.

ولهذا أحدث الغاء الخلافة دويا هائلا في العالم الاسلامى، وبصفة خاصة في مصر والهند فقد كان مصطفى كمال في بادئ الأمر - يمثل في نظر المسلمين مبعوث العناية الالهية لنصرة الخلافة واحياء مجد الاسلام. فمقامه كما يصوره الشاعر الكبير شوقى هو مقام خالد بن الوليد من العرب:

**الله أكبركم في الفتح من عجب ... ياخالد الترك جدد خالد العرب**

وكثرت الدعوات منذ ذلك اليوم لعقد مؤتمر الخلافة، وبرز أسم مصر

---

(١) الطابو: ادارة سجلات الأرض.

والأزهر كمصدر لهذه الدعوة ومركز من أهم مراكز النشاط الاسلامى[١].

وهذا الدوى الذى احدثه الغاء مقام الخلافة بين المسلمين، جعل أحد الباحثين يذكر أن الرعب الذى أصاب المسلمين من جراء الغاء الخلافة ربما يعادل ذلك الذى حدث في بغداد عندما أعدم التتار الخليفة العباسى.

ومع الغاء الخلافة فان فكرة الجامعة الاسلامية بدأت تضعف، وبدأ يظهر مبدأ الوطنية القومية قويا في البلاد الاسلامية. ولا شك أن هذا الأمر قد سر أوربا كثيرا.

وهذا الأمر يوضحه المسيو جاسير الفرنسى، مقرر معاهدة لوزان في حديثه أمام لجنة الأمور الخارجية في مجلس الشيوخ الفرنسى، اذ يذكر أن فرنسا يجب أن تقف موقف التحفظ ولا تشترك في أى تدبير يرمي الى اعادة الخلافة العليا التي تكون بمثابة الراس لحركة الجامعة الاسلامية .

ويهمنا هنا أن نذكر - ردا على حجج الكماليين التي تذكر أن الخلافة ليس لها سند في القرآن والسنة - أن مستند "الخلافة" الأول هو - الاجماع، فالاجماع أصل عظيم من أصول شريعة الاسلام وأقوى اجماع أو أعلاه هو اجماع الصحابة رضوان الله عليهم، والمقصود بالاجماع ليس الاجماع على شخص خليفة، وانما الاجماع على وجوب قيام الخلافة ومع أن أصل "وجوب" الخلافة "هو الاجماع" فقد استدل العلماء أيضا بنصوص القرآن الكريم والأحاديث الشريفة[٢].

ولهذا خسر مصطفى كمال بالغاء الخلافة تأييد وأحترام المسلمين، واكتسب تقدير الدول الغربية وكان يريد بذلك أن يؤسس دولة غربية قائمة على

---

(١) د. محمد محمد حسين ،الأتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: جـ ٢ ص ٢٢، ٢٣ - ٣٥.

(٢) انظر لمسالة "الخلافة والاسلام" في:د. محمد ضياء الدين الريس: الاسلام وأصول الحكم في العصر الحديث ص ٢٤٥ - ٢٦٧.

أسس الغرب وحضارته وحده، قائمة على فصل الدين عن الحكم. ولهذا فلن يكون من المبالغة أن نقول أن الغرب قد وجد في مصطفى كمال ضالته المنشودة.

**نبذة يسيرة عن شخصية السلطان عبد الحميد:** كان السلطان قبل أن يتولى السلطنة شخصاً بسيطاً في حياته لم يشتهر عنه أبداً انه كان مبذرا أو يحب حياة اللهو . بل كان معتدلا واستمر على بساطته هذه حتى أيام السلطنة. وفي المقابل كان أمراء البيت العثماني فىذلك الوقت منهمكين في اللهو والمجون وكانت عليهم ديون كثيرة بسبب اسرافهم وتبذيرهم بينما السلطان عبدالحميد كان هو الوحيد الذى لم تكن عليه أية ديون وبالتالى لم يكن تحت ضغوط اليهود وحبائل المرابين، لذلك كان يتهم بأنه بخيلا لانه لم يكن مبذرا - وهذه معادلة غريبة بالطبع .

قبل أن يتولى السلطنة رافق عمه السلطان عبد العزيز في الزيارة أو الجولة الكبيرة التي ذهب اليها السلطان عبد العزيز الى دول أوربا - ورافقهم كذلك أخو السلطان عبد الحميد وهو مراد الامير، في هذه الرحلة ظهرت تصرفات الأمير مراد خاصة في المحطة الاولى فرنسا ثم بعد ذلك انجلترا من شرب للخمور ودخول للحفلات الخاصة جدا بينما كان السلطان عبد الحميد يمتاز بالوقار والهدوء وكان شخصية محترمة من الكل وعرف عنه أنه لا يشرب أي نوع من الخمور.

أيضا مما هو مسطر ومعروف من ترجمته أنه كان يحب سماع الموسيقى الغربية وكان قبل تولى السلطنة حليق اللحية ثم بعد ذلك أطلق لحيته - ويعزى حبه للسماع بأنه لما كان أميراً صغيراً في القصر درس الموسيقى الغربية على يد اثنين من كبار الاساتذة الايطاليين وهما: كواتيلى ولومبارلي. وكذلك قبل ذلك تلقى في بداية حياته الموسيقى الغربية على يد الفرنسى ألكسندر [1] .

---

(١) أحمد الدعيج : التاريخ السياسي للدولة العثمانية ـ الدرس الرابع عشر .

وكذلك فمن خلال مذكراته والكتب عنه يتفق بأن كان مولعاً بقراءة التاريخ الا انه للاسف لم يستفد مما في التاريخ من عبرة.

وكذلك من حيث اللغات فكان يجيد بجانب اللغة التركية اللغة العربية، والفارسية، والفرنسية ايضا كان على عادة السلاطين المتأخرين من بنى عثمان من بعد محمود الثانى كان يرتدى الملابس الغربية، وكان يدخن السجائر على ماهو معروف من حياة الأوربيين.

ومن الناحية العقدية فكان راعيا للموجة العامة من انتشار التصوف في شتى أقطار العالم الاسلامى، فقرب منه مشايخ الصوفية ومنهم أبو الهدى الصيادى الرفاعى، وكذلك الشيخ محمود أبو الشامل وتقول ابنة السلطان عبد الحميد في مذكراتها "كان والدى يؤدى الصلوات الخمس في أوقاتها ويقرأ القرآن الكريم ... والقول مازال لابنته وفي شبابه سلك مسلك الطريقة الشاذلية، وكان كثير الارتياد للجوامع ولا سيما في رمضان اذ كان يذهب لجامع السليمانية وفي أحد الايام عندما كان يؤدى الصلاة في هذا المسجد التقى مع شيخ فاضل يدعى حمزة رافع وتصادق معه وانتسب عن طريق هذا الشيخ الذى تقابل معه الى الطريقة الشاذلية ثم انتسب بعد ذلك الى الطريقة القادرية، بواسطة الشيخ عبد الله افندى وهذا الأخير كان الشيخ الأكبر لتكية يحيى افندى [١].

كان السلطان عبد الحميد يعلم أن اليهود هم المحركون لخيوط المؤامرة التي حيكت ضده لأنه وقف في وجه مخططات اليهود والتي منها جعل فلسطين وطن قومى لهم.

يقول عصام الدين آرتوك وهذا كان احد رؤساء الامن القومى السابقين في تركيا، وقد ألف كتابا اسمه ما وراء الاستار في عهدين: قال لى صديقى ملازم أول الخيالة، عندما كنت في حراسة السلطان عبد الحميد شكى لى

(١) احمد الدعيج : المرجع السابق .

السلطان المخلوع في أحد الأيام: ان أشد ما آلمنى هو تبليغى قرار الخلع من قبل ذلك اليهودى الماسونى - يقصد امانويل قرصوه - فلا استطيع نسيان قرصوه من بين الوفد الذين جاءوا الى يلدز - لقد كان هذا اهانه لمقام الخلافة - ونحن نعلم جميعا مدى الحقد الذى يكنه اليهود -منذ زمن الرسول ﷺ - للإسلام ولمقام الخلافة وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءنى في أحد الايام الجنرال تيودور هيرتزل المؤسس للمنظمة اليهودية، مع رئيس الجاخامات موشيه لينى فقبلت الزيارة لمعرفة مقاصدهم فكان طلبهم هو وطن لليهود وكانوا يقترحون القدس لذلك. حتى إن هرتزل قال بلا خجل نحن مستعدون لتقديم الملايين التى ترونها مناسبة من الذهب حالا من اجل القدس [(١)] .

(يقول السلطان عبد الحميد وشعرت بأن الدم يطفر الى رأسى. فقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين الى عرض الرشوة في مقام سلطنتا، فصرخت فيهما اخرجا من هنا حالاً أن الوطن لايباع بالمال)[(٢)]. الكلام جميل ولكن للأسف السلطان عبد الحميد كان فعله خلاف قوله، فكان يجب ان يقف موقفا أكثر حزما مع من جاؤو لتحطيم الخلافة - خاصة وانه يقول انه عالم بهم!

من الوثائق المهمة في حياة السلطان عبد الحميد رسالة بعث بها من المنفى بعد خلعه الى احد مشايخه وهو محمود أفندى أبو الشامات - وهذا من كبار مشايخ الصوفية في دمشق في تلك الفترة.

ومن خلال هذه الرسالة نعلم أن السلطان عبد الحميد كان على دراية بما كان يخططه له اليهود الا انه لم يتخذ الاجراءات المناسبة أو بالأصح لم يكن يستطيع اتخاذ هذه الاجراءات. وكذلك هذه الرسالة تبين مدى تعلق السلطان عبد الحميد بمشايخ الصوفية خاصة في مطلعها حيث

---

(١) عبد الكريم مشهداني : العلمانية وأثرها على الأوضاع الإسلامية في تركيا ص٣٨٧ .

(٢) أحمد الدعيج : المرجع السابق .

كتبت هذه الصيغة:

ـ يا هـــــو ـ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين.

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة، وأتم التسليم على سيدنا محمد رسول رب العالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين والتابعين الى يوم الدين.

أرفع عريضتى هذه الى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، الى مفيض الروح والحياة، الى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندى أبى الشامات، وأقبل يديه المباركتين راجيا دعواته الصالحة.

بعد تقديم احترامى أعرض أننى تلقيت كتابكم المؤرخ في ٢٢ مارس من السنة الحالية، وحمدت المولى وشكرته أنكم بصحة وسلامة دائمتين.

سيدى: إننى بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلاً ونهاراً، واعرض أننى ما زلت محتاجاً لدعواتكم القلبية بصورة دائمة.

وبعد هذه المقدمة أعرض لرشادتكم، والى أمثالكم أصحاب السماحة والعقول السليمة، المسألة المهمة الآتية كأمانة في ذمة التاريخ:

إننى لم اتخل عن الخلافة الاسلامية بسبب ما، سوى أننى - بسبب المضايقة من رؤساء جمعية الاتحاد المعروفة باسم (جون تورك) وتهديدهم - اضطررت وأجبرت على ترك الخلافة.

ان هؤلاء الاتحاديين قد أصروا عليَّ بأن اصادق على تأسيس وطن قومى لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم اصرارهم فلم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيرا وعدوا بتقديم (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهباً، فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضا، وأجبتهم بهذا الجواب القطعى الآتى:

(انكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبا - فضلا عن (١٥٠) مائة وخمسين مليون ليرة انكليزية ذهبا - فلن اقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعى، لقد خدمت الملة الاسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة، فلم أسود صحائف

المسلمين آبائى واجدادى من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعى أيضا).

وبعد جوابى القطعى اتفقوا على خلعى، وأبلغوني أنهم سيبعدوننى الى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير.

هذا وقد حمدت المولى وأحمده، أننى لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية، والعالم الاسلامى بهذا العار الأبدى الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضى المقدسة: فلسطين ... وقد كان بعد ذلك ما كان. ولذا فاننى أكرر الحمد والثناء على الله المتعال، وأعتقد أن ما عرضته كاف في هذا الموضوع الهام. وبه أختم رسالتى هذه.

ألثم يديكم المباركتين، وأرجو واسترحم أن تتفضلوا بقبول احترامى بسلامى الى جميع الإخوان والأصدقاء.

يأ استاذى المعظم، لقد اطلت عليكم التحية، ولكن دفعنى لهذه الإطالة أن تحيط سماحتكم علما، وتحيط جماعتكم بذلك علما أيضا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

**في ٢٢ ايلول ١٣٢٩ هـ**

**خادم المسلمين**

**عبد الحميد بن عبد المجيد** (١)

من أهم إنجازات السلطان عبد الحميد دعوته الى الجامعة الاسلامية ومحاولاته الجادة لتحقيقها وكذلك قرب منه الشخصيات البارزة في ذلك الوقت من الصوفية وغيرهم وأيضا قرب بعض الزعامات العربية مثل سيد طالب باشا النقيب، نقيب الاشراف بالبصرة، وأحمد باشا الفهيد وهؤلاء كانوا أعضاء في مجلس شورى الدولة، وهما من العراق. وقرب غيرهم كثير كابن عبد القادر

(١)عبد الكريم مشهداني، المرجع السابق، ص٣٨٩-٣٩١.

الجزائري.بل وكان حرسه الخاص من العرب.

بالرغم من الملاحظات والمآخذ على السلطان عبد الحميد الاأن ذلك لايمنعنا من العدل في حقه وممن نبه على ذلك الدكتورمحمد محمد حسين حيث يقول :

"إن من الإنصاف لذلك الرجل أن نشير إلى أن تاريخه العلمي الصحيح لم يكتب بعد، لأن ما كتب عنه حتى الآن إنما كتبه أعداؤه، وهم ذوو نفوذ وسلطان في تركيا وخارجها، وربما تبين من بعد أن الرجل لم يكن دموياً، ولا مترفاً على النحو الذي صورته به الدعايات التي شوهت سمعته، وربما تبين من بعد أن للصهونية أصبعاً في هذه الدعايات، فصلة الاتحادين باليهود معروفة مشهورة. ثم إن سياسة عبد الحميد كانت تتجه نحو محاربة العصبيات الجنسية، وربط أجزاء الأمبراطورية العثمانية برباط الجامعة الإسلامية وحدها، بينما كان الاتحاديون يدعون إلى الطورانية مع ما كان متفشياً بين بعض أعضائهم من النزعات الإلحادية، وربما تبين كذلك من بعد أن السلطان عبد الحميد، كان يخشى أن يستتبع استصدار الدستور سيادة هذه العناصر من المتفرنجين والملحدين ودعاة الطورانية. هذا إلى أن من المؤكد أن إسقاط عبد الحميد الذى عارض في هجرة اليهود الى فلسطين، كان جزءاً من المؤامرة الكبرى لاغتصاب فلسطين، فلم يكن ذلك متيسراً، وهى قلب الأمبراطورية الإسلامية، وقد كان لابد من تفكيك هذه الأمبرطورية أولاً، وليس بين خلع السلطان عبد الحميد، وبين صدور وعد بلفور أكثر من ثماني سنوات[1].

وقد حدد السلطان عبد الحميد هدفه في مواجهة النفوذ الغربي على هذا النحو: إن الوسيلة الأساسية لمواجهة النفوذ الاستعمارى هى تجميع المسلمين في كل مكان في كنف الخلافة الإسلامية الذى تحمل لواءه الدولة العثمانية الجامعة

---

(١) الدكتور محمد محمد حسين من كتابه: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر الجزء الثاني ص ٩٦.

في كيانها بين العرب والترك. ومن هنا كان نداؤه المشهور: يا مسلمي العالم ... اتحدوا . وقد مضى السلطان في تنفيذ مخططه، بحيث شملت الدعوة كل الآفاق الإسلامية، وذاعت في كل مكان، وكان قد أنشأ مدرسة للدعاة سرعان ما انبث خريجوها في كل أطراف العالم الإسلامي الهند والصين وأفريقيا ومصر وتركستان وبلاد العرب، ولقيت الدعوة قبولاً وتعاطفاً، واستطاع السلطان أن يجمع تحت لواء الدعوة أبرز رجال الفكر والسياسة، وفي مقدمتهم خير الدين التونسى.

وانطلقت الصحافة الأوربية، وتابعتها الصحافة العربية التي ظهرت في مصر، والتي قاد حركتها خريجو الإرساليات التبشيرية من أمثال سليم سركيس وجرجي زيدان، وفارس نمر ويعقوب صروف وفرح أنطون، وغيرهم من الذين حملوا لواء التشهير بالسلطان ومعارضته، وإشاعة الاتهامات المختلفة حول شخصه، وتصويره بتلك الصورة الرديئة لحساب اليهودية العالمية.

وكان أقوى من هاجم حركة السلطان عبد الحميد اللورد كرومر، أحد دهاقنة الاستعمار الانجليزى الذى حمل على فكرة الجامعة الإسلامية، ودعا الدول الأوربية في تحريض سافر الى التجمع للوقوف في وجه هذه الدعوة، وهاجمها هانوتو المستشرق الفرنسى، ووصفوها بأنها بؤرة التعصب الدينى، وأنه ليس القصد منها إلا تحدى الدول الغربية المسيحية. وحملت جريدة المقطم في مصر لواء معارضتها، وكذلك الأهرام والهلال والمقتطف، وغيرها من الصحف التي كانت تصف السلطان عبد الحميد بأنه السلطان الأحمر المستبد [١].

يقول الأستاذ عبد الله التل: "يكفى السلطان عبد الحميد فخراً أن القوى التي تآمرت عليه كانت كلها من أعداء الإسلام، وأنه صان الأمبراطورية الإسلامية طوال مدة حكمه، وأن عملية التمزيق لم تبدأ إلا بعد أن سيطر الماسون" [٢] .

---

(١) انظر الاستاذ أنور الجندى: ملتقى الفكر الإسلامى بتلمسان ١٩٧٥م - ١٣٩٥هـ المحاضرة الرابعة. الصفحات ٤ - ٥ - ٦ - ٧ - ٨.

(٢) عبدالله التل : الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام ص١٦ .

فقد ضمت جمعيات الماسون السرية المجرمين والإرهابيين من اليهود والبلغار والصرب واليونان والأرناؤوط، وهم عماد الثورة التي زحفت على استانبول وعزلت السلطان عبد الحميد، وكان أحد أعضاء الوفد الذى قدم للسلطان وثيقة العزل (قرصو) اليهودي الذى صده السلطان مع هرتزل في المحاولات الصهيونية الأولى. وقد نشرت جريدة (نهضة العرب) الصادرة في باريس عام ١٩٠٩م - ١٣٢٧هـ مقالاً بعنوان:

"الإسرائيلية في جمعية الاتحاد والترقي" لكاتب وصفته الصحيفة بأنه أحد فضلا العثمانيين المسلمين في باريس"

ومما جاء فيه: "تناقل العارفون من الناس ما كان من أمر اليهود والماسون من جمعية الاتحاد والترقي، واشتراكهم في نهضتها، وقيامهم بمناصرتها، حتى ذهب البعض إلى أن فوزها كان ثمرة مساعيهم، وأن اليهود لما قنطوا من تحقيق أمانيهم في عهد الحكم السالف باستملاك أراضى فلسطين، وتشييد مملكة يهودية فيها كما هو معلوم عنهم لدى الخاص والعام، عمدوا إلى الماسونية، ولهم فيها اليد الطولى، فاتخذوها آلة لترويج مقاصدهم" ويضيف الكاتب: وقفت في الجرائد آخراً على التفاصيل المتعلقة بالجيش المقدوني(١) وفيها أن معظم العساكر التي

---

(١) وهناك من يقول: إن حركة التمرد هذه التي قامت في استانبول عام ١٩٠٩م-١٣٢٧هـ والتي عرفت بحركة ٣١ مارس ليست إلا حادثة مدبرة من قبل جمعية الاتحاد والترقي التي اجتمعت وتداولت الرأى، واتخذ رؤساؤها القرار التالي: العمل على إحداث عصيان مسلح مدبر له، واغتنام الفرصة للاستيلاء على ثروة قصر يلدز، وذلك بعد إلصاق تهمة تدبير العصيان بالسلطان عبد الحميد، ثم الضغط عليه للحصول على موافقته سحب المودعات في فينا، ثم خلع السلطان وتنصيب ولي العهد المطاوع محمد رشاد، وبموجب الخطة المدبرة يستعان بالمشايخ لايقاد نار التعصب، وحشد لهذا الغرض خليط من العسكريين والمدنيين والشيوخ انطلقوا الى مسجد آيا صوفيا، ثم حاصروا البرلمان وهم يهتفون: نريد الشريعة، ووقع لغط وحوادث قتل، وانتهى الأمر بتحرك جيش الحركة من سلانيك، واحتل استانبول بحجة قمع التمرد، ثم صنع مذبحة =

تألفت منها حملة سلانيك، كان من اليهود وكان الضباط يولونهم الأفضلية على عساكر المسلمين. ثم ما لبثت أن طالعت عن الوفد الذى حمل للسلطان عبد الحميد فتوى الخلع، وقد تألف من أربعة أعضاء بينهم يهوديان: عمانويل قره صو رئيس اللوج الماسوني في سالونيك، وسلمون ابراك. فمتى كانت الأمة تعهد إلى اليهود بتنفيذ الفتاوى الشرعية، وتنتدبهم سفراء الى خلفاء الإسلام يتلون

= (طاش قشلة)، وخلع السلطان عبد الحميد الذى لم تكن له أية علاقة بهذه الأحداث المدبرة، كما يصرح هو بنفسه في عدة مواضع من مذكراته التي نشرتها مجلة المجتمع الكويتية، ويقول مصطفى طوران الذى عايش الأحداث بنفسه لحظة بلحظة - ضمن تعليقه على الأحداث في كتابه القيم أسرار الانقلاب العثمانى: "لقد ثبت بما لا يقبل الشك أن وكالة الاستخبارات الانجليزية كانت وراء هذه المؤامرة ص ٨٨. والكتاب كله استعراض لهذه الأحداث التي عاشها المؤلف حية، ويقول بأنه أحد الشاهدين الوحيدين اللذين بقيا على قيد الحياة ويمضي قائلا: أحداث ٣١ مارت التي يحاول بعضهم الإيهام بأنها محاولة لإحياء الاستبداد والإطاحة بالعهد النيابي وبالحرية، هى في الحقيقة مؤامرة دبرها الأعداء لهدم الخلافة العثمانية وتمزيقها، وأن هذه الحادثة أعجزت المؤرخين عن إصدار حكم قاطع بشأنها، والسبب في هذا تعمد مدبري المؤامرة في قتل شهود الحوادث، لقد دبرها أعداؤنا بالعرق والمال، استهدفوا بها تمزيق الأمبراطورية العثمانية وهدم الخلافة، وأخرجوها على المسرح بشكل تمرد عسكري ص ٦. وتقول: آلما وتلن في كتابها "عبد الحميد ظل الله على الأرض" ففي السادس عشر من ابريل أبرق الكولونيل شوكت قائد حامية مقدونيا الى القسطنطينية بأنه عائد لإقرار النظام في العاصمة. ولم يستطع شوكت الاعتماد على أخلاص جنوده إلا اذا استطاع اقناعهم باخلاصه للسطان، وهكذا كان الجنود الذين زحفوا تحت إمرته يظنون أنهم يؤدون رسالة عليا كانوا يعتقدون أنهم زاحفون لحماية السلطان لا لخلعه، ولما سمع العسكريون الأوربيون عن نية الزحف على القسطنطينية، قدروا أن تستغرق الحملة ثلاثة أسابيع، وهى مدة كافية لإعطاء من بيدهم الأمر في العاصمة الوقت الكافى لتجنيد الفرق الآسيوية ضد الجيش المقدونى، وقد يكون من نتائجها انتصار ساحق لعبد الحميد ضد تركيا الفتاة وضد أوربا، وعوده لسياسة الجامعة الإسلامية. وبعد ثلاثة أيام وصل شوكت إلى القسطنطينية، وكان عدد جنوده يتضاعف أثناء الطريق وانضمت اليهم عصابات من البلغار والصرب والأرمن والأروام واليهود، خليط من القوميات والعقائد التي اتحدت في مقاومتها للإسلام. : **عبد الحميد ظل الله على الأرض — الما وتلن ص ١٩٦.**

عليهم نص الشرع الشريف، ويبلغونهم إرادة الأمة بخلعهم عن كرسي الخلافة؟! بل ما الذي اضطر جمعية الاتحاد والترقى الى تأليف الوفد على هذه الصورة؟ وكيف رضى اليهوديان بأن يكونا ممثلي الإسلام في هذه المهمة؟!.

أفاتهم ما يكون من تأثيره على المسلمين؟! أم أيقنوا بالفوز العاجل فظنوا أنهم قبضوا على عناق الدولة، وقريباً ينشرون فوقها راية اليهود؟

ولعمرى لا أرى هناك إلا استدراجاً في الخطة التي آلوا على أنفسهم اتباعها، وقد ناصروا أصحاب الاتحاد والترقى حتى ولوهم الحكم بالسيف، ومكنوهم من العرش، فخلعوا سلطاناً ونصبوا سلطاناً، واستأثروا بحق يختص بالمسلمين، ثم باهوا به وافتخروا وقالوا: "جمرة نلقيها في صدر الإسلام، فتتلظى على فتيان الترك، فنصليها بينهم ناراً حامية تلتهم الدولة وتقوض أركانها، فنقيم على بقاياها هيكل أورشليم"[1].

وتضيف صحيفة (نهضة العرب) معلقة على المقال السابق:

إنه كان من الممكن للوهلة الأولى إقناع العثمانيين بأن جيش الأحرار لم يدخل الأستانة إلا ليمحق استبداداً وظلماً مهيناً، ولكنهم عندما رأو العصابات البلغارية يقودها ساند نسكي تسوق الجند النظامي مقيداً لمحاصرة يلدز، ورأوا قره صو يحمل فتوى الخلع إلى السلطان، وعلموا أن ليس هناك خلع سلطان بل تقويض أركان الدولة العثمانية.

وبعد عزل السلطان عبد الحميد، ونقل السلطة الكاملة الى جماعة الاتحاد والترقي أخذت النكبات تتوالى على الدولة الإسلامية العظيمة، واندلعت الثورات في البلقان وألبانيا، وسلخت النمسا ولايتي البوسنة و الهرسك عن

(١) موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية نقلاً عن: جريدة (نهضة العرب) الصادرة في باريس عام ١٩٠٩م ص ٣٣٨.

السلطنة مقابل (٥٣) مليون فرنك، ذهبت إلى جيوب الاتحاديين، وبدلاً من أن يرى الناس تطبيقاً صادقاً لشعارات (الحرية والعدالة والمساواة)، أخذوا يواجهون عبودية وظلماً واستبداداً أضعاف ما كان يؤخذ على العهد الحميدي، ثم ما لبثوا أن أضاعوا ليبيا، ولقد صورت أبواق الدعاية الماسونية قصر السلطان عبد الحميد بؤرة فساد وفجور، وجعلته وكراً للدسائس والمؤامرات"[(١)] .

"والثابت أنه لولا السلطان عبد الحميد الذى كان الغرب يسميه السلطان الأحمر لأصبحت فلسطين في يد الصهيونية قبل عام ١٩١٧م - ١٣٣٦هـ، فلقد زاره هرتزل وزاره من قبل هرتزل ومن بعده رسل الحركة الصهيونية، وعرضوا عليه القروض الضخمة وتحالفاً سياسياً يدافعون بمقتضاه عن السلطان في صحف أوربا وأمريكا، ويوقفون حملات الدعاية التي سادت في دوائر السياسة والبرلمانات والمؤتمرات الدولية، والتي كانت تركيا ووزراؤها وسلطانها ومذابح الأرمن هدفاً دائماً لها، مقابل أن يسمح لرواد الصهيونية أن يبنوا مستوطناتهم في فلسطين، ولكن السلطان بفضل تمرسه بالسياسة الدولية ومعرفته لمهاب الأمور قبل وقوعها، أدرك أن هذه المستوطنات التي تبدو بريئة هى أول الغيث، أوهى مستصغر الشرر الذى ستنجم عنه أكبر الحرائق"[(٢)].

* * *

(١ ) عبدالله التل :الأفعى اليهودية في معاقل الاسلام ص ١٧.

(٢ ) الاستاذ فتحي رضوان. مجلة الأزهر ص ٨٥١ عدد ابريل ١٩٧٩.

# الفصل الرابع

## دور العلماء في مواجهة نشاط أهل الذمة

### تمهيد

الواقع المظلم الذي كان يعيشه المسلمون إبان سقوط الخلافة وما قبل ذلك ـ عدا ما كان من نور التوحيد في جزيرة العرب على يد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ فكان الفكر الصوفي هو السمة البارزة لعلماء ذلك العصر وبالتالي بدا أثرهم واضحاً على الحكام والأمراء ، ومن ثم على العامة . فعاش المسلمون تلك الفترة على أوهام الخرافة وقَلَّ فيهم المذكر والناصح فأصبح كثير من المعدودين من العلماء ـ إلا من رحم الله ـ دعاة وطنية أو شعارات شخصية أو حزبية ، بل تعطلت كثير من المؤسسات الشرعية وقعدت عن القيام بواجبها من النصح للأمة كالأزهر والذي يعتبر أكبر مرجعاً لمسلمين في ذلك العصر، أو مشيخة الإسلام في استنبول .

لذلك رأيت أن أعرض نماذجٍ من العلماء والدعاة الغرباء في تلك الفترة العصيبة ، والذين كانت لهم جهوداً عظيمة في مواجهة الأفكار الوافدة على بلاد المسلمين .

**نماذج لبعض العلماء والدعاة الذين أبلو بلاءً حسناً في مواجهة أهل الذمة** [١] :

من الشخصيات التي يهتم بها عند دراسة تاريخ الدولة العثمانية خاصة والتاريخ الإسلامي المعاصر بوجه العموم سواء منهم من كان أثرهم سلبياً على المسلمين **كمدحت باشا أو جمال باشا السفاح** أو غيرهم ممن كانوا يحسبون على الدعوة **كالأفغاني ومحمد عبده** .

---

(١) أود أن أنبه القارئ أن الشخصيات التي ذُكِرَتْ في هذا الفصل لها بعض الأخطاء العقدية وغيرها وليس هذا مكان لذكرها ولكن تم ذكر هذه الشخصيات لأن لهم جهود يشكرون عليها في الجانب الذي نتحدث عنه كما سيرى القارئ في ثنايا البحث.

وهناك في المقابل أناس سخروا طاقاتهم كلها في سبيل هذا الدين وفي محاولة إصلاح ما انكسر في عظم المسلمين سواء من الداخل أو بتأثير وتحريض الأعداء في الخارج . وهؤلاء الرجال المصلحون يصعب حصرهم ولاشك ـ كانت جهود كل منهم جهوداً فردية وإن كانت المحاولات جادة لعمل إصلاحي جماعي من قبل هؤلاء المصلحين ومع ذلك فإن التاريخ لاينسى ما لهؤلاء العلماء من دور بارز في مواجهة الفكر الوافد .

من هذه الشخصيات من تبوأ مكانة علية في الدولة العثمانية مما مكنه من إحداث تغييرات جذرية في نظام الدولة وتحقيق كثير من الأفكار الإصلاحية واستغلال كل إمكاناته ووجاهته في سبيل الدعوة لهذا الدين وحمايته من العابثين!

**ومن أهم هذه الشخصيات مايلي :**

**أولاً : أحمد جودت باشا** :يعتبر أحمد جودت من الشخصيات العثمانية الرائدة في ميادين التاريخ والفقه والفكر العثماني في القرن الثالث عشر الهجري،فضلا عن مكانته كرجل دولة تبوأ عددا من المناصب العلمية والمدنية في الدولة العثمانية .

**مولده:** ولد أحمد جودت في سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٢م وكانت وفاته سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م.وقد عاصر أحمد جودت أربعة من السلاطين العثمانيين ، وشهد فترة من أدق وأحلك الفترات في تاريخ الدولة العثمانية ،وهي مايعرف في التاريخ العثماني باسم عهد التنظيمات .

وقد حفلت بتغييرات جذرية ،شملت كل المؤسسات العثمانية ،وكان عهد التنظيمات يتسم بالدعوة القوية تجاه الغرب ،وأن التغريب هو الحل الشامل والسبيل الوحيد أمام العثمانيين لكي يجتازوا أزماتهم السياسية في الداخل والخارج .

ونتيجة لهذا الاتجاه إلى الغرب انبثقت مجموعة من الأزمات الفكرية والإقتصادية والإجتماعية والسياسية والإدارية ،في الدولة العثمانية ،..هذه الأزمات كانت مؤشراً إلىأن التنظيمات الغربية عاملاً فعالاً في انحلال الدولة .

ونذكر هنا شيئا من جهود أحمد جودت في مواجهة التغريب ونشاط أهل الذمة .

لقد تبوأ **أحمد جودت باشا** عدداً من المناصب العلمية والمدنية في الدولة العثمانية فقد عاصر أربعة من السلاطين العثمانية ، وشهد فترة من أدق فترات التاريخ العثماني حفلت بتغيرات جذرية ، وشملت كل مؤسسات الدولة وهي ماتعرف في التاريخ العثماني باسم عهد التنظيمات - والتي سبق لنا تفصيلها - وهي باختصار تعني إعادة تنظيم مؤسسات الدولة وفق النظم والمفاهيم الغربية ، لتكون بديلاً عن النظم والمفاهيم العثمانية .

وكان أبرز مجالات الإصلاح عندجودت باشا الإصلاح القضائي ومحاولة نقل الدولة من مستنقع القوانين الوضعية إلى الشريعة الإلهية ، وكان في صراع مع دعاة التغريب والتنظيمات .

ونتيجة لهذا الاتجاه التغريبي في الدولة ، انبثقت مجموعة من الأزمات الفكرية والإقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية في الدولة العثمانية ، وكانت مؤشراً للعقلاء على أن التنظيمات الغربية لم تقدم الحل الكامل للأزمات المتراكمة ، بل على العكس كانت عاملاً فعالاً في إنحلال الدولة العثمانية والقضاء على البقية الباقية في القلب النابض فيها مثلها في ذلك مثل المصالح السياسية للدولة الأجنبية والامتيازات الأجنبية لأهل الذمة في الدولة .

وقد استطاع الشيخ **أحمد جودت باشا** أن يتفهم بواعث هذه الأزمات في تلك الفترة ، ويتلمس مظاهر الخلل المهدد للكيان الإسلامي للدولة العثامنية ، لتدارك أسبابه وتشخيص أدواته ، وأن يصوغ فكرته حول كيفية الخروج منها .

ومن الملفت للنظر في شخصية جودت باشا أنه لم يحصر نفسه في مجال واحد أو وظيفة فقط ، وإنما حاول تتبع كل خلل والإصلاح من الجذور مهما كلف ذلك وقتاً وتضحيات .

فمن تشخيصه للمرض على أن أهل الذمة وتحت ستارات كثيرة وحمايات وامتيازات استطاعوا أن يجرّوا الدولة إلى مشاكل متداخلة ومتشابكة الخطوط يعجز المسئولون عن تفسيرها أو الربط بينها .

فما علاقة تفليس الدولة بالاستغراب ، وبالفتن والحروب في دول البلقان أو اليونان أو الألبان وكل ذلك تزامن أيضا مع فساد وتدهور أخلاقي داخل المجتمع العثماني!! [١].

كان ولاة الأقاليم التي يقطنها الأقليات ( أهل الذمة ) يوكل عليها أمراء من أهلها ، وهم الذين يتولون بأنفسهم إثارة شعوبهم على الدولة تحت ضغوط وتوجيه من روسيا خاصة ، وهم الذين يكلفون من قبل السطان بإخماد الفتن !! فهم الخصم والحكم .

وكما مرَّ معنا سابقاً في ذكر دعاة التغريب والقبة المنارة نحوهم ومن الذي كان يشجع الدولة على هذا التيار المسدود الذي اتجه إلى الأخذ بالحياة الغربية ليست في مجال التنظيمات كما أعلن فقط بل في الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة.فأخذت بعض عادات وتقاليد المجتمع الأوروبي تحل محل القواعد والأصول التي كانت تحكم المجتمع العثماني في عصور القوة السابقة لعهد التنظيمات .

وقد تكبدت الدولة الكثير من الأموال في سبيل الأخذ بمظاهر المدنية الغربية التي دفعت بها إلى هاوية الإفلاس والإقتراض من ناحية ومن ناحية

---

(١) وفاء أحمد قطب البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص١٧ ـ ٢٢ ( بتصرف ) .

أخرى إلى تدهور أخلاقي داخل المجتمع العثماني والإقتراض من البنوك الغربية الربوية، وهذاجعلها تحت هيمنة وسلطة تلك الأموال اليهودية وتنفذ كل مايملى عليها من شروط للإقراض ..

**جودت باشا** الذي شخص المرض وعرف حقيقته وأدرك أعراضه وأبعاده سعى في مشروع إصلاحي كبير، لم يحضر في المجلة العدلية التي اشتهر بها، بل ولاتقنين الشريعة فحسب، بل تجاوز ذلك إلى الإصلاح الأمني أولاً . وضبط الأمن في البلاد حتى يستطيع هذا الأمن تنفيذ الأوامر .. !! والإصلاح المالي .. حتى تخلص الدولة من الضغوط الخارجية الملزمة لها على ما لاتريد . ثم الإصلاح الاجتماعي .. لبيان خطورة السير في نفق التقليد الغربي المظلم، وإصلاح القضاء بالأخذ بالشريعة الإلهية ونبذ القوانين الوضعية، وإلغاء كل مايتعارض مع الشرع من نظم وقوانين قديمة في البلد . واستغل **جودت** منصبه ومكانته في الدولة في تنفيذ مخططه الإصلاحي . وهذا ماسنفصله في الورقات التالية .

**اختلال الأمن على إثر صدور قانون التنظيمات :**

حرصت إنجلترا على التغلغل بنفوذها داخل الدولة عن طريق دفع سفيرها لدي الدولة العثمانية . "كاننج" بالضغط على رجال التنظيمات ، وبسط السيطرة الإنجليزية داخل الدولة ، بحجة حماية مصالح رعايا الدولة من غير المسلمين من ناحية ، والتصدي للمطامع الروسية تجاه الدولة العثمانية من ناحية أخرى .

وقد عمل **"خط كلخانة "** سنة ١٨٣٩م على زيادة التدخل الأوروبي بشكل عام في شئوون الدولة العثمانية، حيث كان نتيجة لهذا المرسوم أن اندلعت الثورة في لبنان والبوسنة، ففي لبنان تدخل السفير الإنجليزي " **ستراتفورد** " وممثلوا الدول الأربع ، لوقف الصراع بين المارونيين والدروز ، واقترحوا تقسيم جبل لبنان إلى قسمين : منطقة مارونية في الشمال ، ومنطقة درزية في الجنوب ، وقبل

العثمانيون هذا التقسيم غير أن استمرار النزاع بين الطائفتين استمر ، مما أتاح للدول الأوربية الفرصة للتدخل في هذا النزاع وأصبحت كل من فرنسا والنمسا تعطفان على المارونيين وتتصلان بهم ، كما حاول الروس الإتصال بالأرثوذكس والدروز ، وعملت إنجلترا كما تدعي على ضبط التوازن بين عناصر الجبل ، مما اضطر الدولة العثمانية إلى السماح ببعض الحكم الذاتي وهدأت الحالة في لبنان بعض الوقت إلى أن انفجرت الثورة مرة أخرى عام ١٨٥٨م .

أما في البوسنة ، فقد قامت الثورة فيها سنة ١٨٥٣م مباشرة قبل حرب القرم ، ولقد كانت بذور هذه الثورة ترجع إلى إعلان خط " **كلخانة** " سنة ١٨٣٩م والذي كان السبب المباشر لقيام الإضرابات في البوسنة ثم امتداد الثورة بعد ذلك إلى الجبل الأسود(١) . ذلك لأن المساواة القانونية بين مسلمي الدولة ومسيحييها التي نصت عليها التنظيمات وتعهدت بها الدولة العثمانية جاءت في الوقت غير المناسب ، فما أن انتصف القرن التاسع عشر ، حتى كان مبدأ القومية الغربية قد اشتهر لدي الأقليات الدينية التي اهتمت بلغاتها ، وآثرت الإنفصال على الإندماج في الدولة ، ونتج عن ذلك إثارة الاضطرابات الداخلية للدولة العثمانية ، هذا إلى جانب أن الطوائف من غير المسلمين ، استفادت إلى حد كبير من التغلغل الأوروبي في الدولة في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية وفي الإصلاحات نفسها مما زاد في ثروتها ونفوذها ، وعلى الرغم من ذلك بدلاً من إبداء ولاءها للدولة ازدادت مطالبتها بمزيد من الحقوق وبالتدريج ازدادت مطالبتها بالاستقلال .

وقد كانت الدول الأوروبية وراء اندلاع الثورات في بلاد البوسنة والهرسك، ومن قبلهما في بلاد الصرب والجبل الإسود ، حيث كانت تقوم بتحريض الأقليات الدينية هناك ، كما بثت بذور الفساد في بلاد البوسنة

---

(١) محمد مصطفى : المرجع السابق ص ٨.

والهرسك، فاضطربت وقامت مطالبة بامتيازات كبلاد الصرب والجبل الأسود[١].

ولم تكتف الدولة الأوروبية بتحريض هذه الأقليات ، بل اقترحت تكوين وفد من قناصل الدول ، وإرساله إلى البوسنة والهرسك لتقابل المندوب السامي العثماني الذي اجتمع بوفد القناصل والمتمردين ، ولم يصلوا إلى شيء، بل على العكس فإن وجود هيئة أوروبية في المسألة دفع بدول إوروبا إلى مطالبة الدولة بالقيام بإصلاحات في البوسنة والهرسك ، وقد فتح هذا الباب أيضا لتدخل أوروبي سياسي في شئوون الدولة [٢] .

وهكذا تجسد التدخل الفعلي للدول الأوروبية في الشئوون الداخلية للدولة العثمانية بحجة حماية الرعايا من غير المسلمين .

**الديون والرقابة المالية :** منحت قوانين التنظيمات الأجانب مزيداً من الامتيازات في المسائل المالية والتجارية داخل الدولة العثمانية، وقد أفسح كل هذا المجال لازدياد التدخل الأجنبي في شئوون الدولة، وتوجه سياستها الداخلية والخارجية ، فالمعاهدات التجارية التي وقعتها الدولة في فترة التنظيمات ، وفي عهد السلطان **عبد العزيز** على وجه الخصوص قد أدت إلى زيادة التدخل الأجنبي في شئوون الدولة ، حيث منحت هذه المعاهدات التجارية امتيازات جديدة للأجانب داخل الدولة العثمانية التي أصبحت سوقاً لاستثمار رؤوس الأموال الأجنبية، وبموجب مانصت عليه قوانين التنظيمات ، أصبح للأجانب حق التملك في الأراضي ومنشأت الدولة العثمانية ، وأصبح لهم الحق في التجارة الداخلية، وأفسح هذا المجال للتدخل الأجنبي وإثارة المشاكل للدولة العثمانية[٣] .

---

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية . تحقيق إحسان حقي . ص ٥٢٣.

(٢) محمد حرب : البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ، ص ٦٦-٦٧.

(٣) ومن ضمن الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية للدول الأوروبية ، في ما يتعلق ببيع حصة الدولة من المعادن الموجودة في الممالك العثمانية ،على الرغم من عدم مشروعية وجواز =

كما أن زيادة القروض التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأجنبية ، وتدهور ماليتها بشكل استحال معه الوفاء بقيمة هذه القروض ، وفوائدها الباهظة ، مما أفضى إلى فرض الرقابة الأوروبية على مالية الدولة العثمانية .

وبناء على قرار مجلس إدارة الديون العمومية للدولة العثمانية ، الذي تشكل نتيجة فرض الرقابة الأوربية على مالية الدولة ، تقرر وضع قسم من واردات الدولة العثمانية تحت التصرف الأوروبي .

والجدير بالذكر أن اعتراض السفراء الأوروبيين في استانبول على لائحة إصلاحات وتغيرات ، شرع الباب العالي في إجرائها في وزارة المالية ، عكس مدى حجم التدخل الأوروبي وفرض السيطرة في توجيه سياسة الدولة الداخلية، كما أن لجوء بعض رعايا الدولة من غير المسلمين إلى سفارات إنجلترا وفرنسا وروسيا لرفع شكواهم، وهكذا فإن إتساع دائرة التدخل الأوروبي في شئوون الدولة ، وتغلغل النفوذ الأجنبي بها ، أدى بالدولة إلى المزيد من التدهور والانهيار ، فعهد التنظيمات قد أفسح المجال للتدخل الأجنبي في شئون الدولة الداخلية والخارجية، الأمر الذي أدى في النهاية إلى وضع الدولة العثمانية تحت الوصايا الأجنبية، ومن ثم فإن إعلان التنظيمات يعد بمثابة البداية لعهد جديد حافل بالمشكلات الداخلية في الدولة العثمانية .

**ضغط النمط الغربي على الحياة الاجتمايعة العثمانية** : إن الخطوات التي اتخذتها الدولة العثمانية في إتجاه الإصلاح والتجديد على النمط الغربي ، بدءاً من عهد السلطان **محمود الثاني** وفترة التنظيمات ، قد انعكست آثارها على كل مؤسسات الدولة ، ومع إتساع هذه الخطوات لاستيعاب كل مظاهر التجديد ، ظهرت آثارها واضحة على الحياة الاجتماعية بالدولة العثمانية .

---

= بيع حصة الدولة بغيرها – الشركات الأجنبية، ومنحها حق استغلال ثروات الدولة المعدنية ، مما ساعد على تغلغل النفوذ الأوروبي داخل الدولة .

**وقد أسهمت عدة عوامل في دفع المجتمع العثماني ناحية الغرب ، وهي كما يلي :**

**١- شغف السلطان محمود الثاني بالمظهر الغربي :**

تخلى السلطان **محمود** الثاني عن مراسم الاحتفالات والعادات التي كانت سائدة من قبل في عصور الدولة الأولى ، واتخذ عوضاً نظام آخر أوروبي ، حيث شرع السلطان في هذا العهد على ارتداء الزي الغربي، وعلاوة على ذلك جعل السلطان **محمود** الثاني السترة والبنطلون زياً إجبارياً ، ولأهمية غطاء الرأس في الدولة العثمانية ، قرر السطان **محمود** الثاني التجديد فيه أيضاً على النمط الغربي . كما حرص السلطان **محمود** الثاني على استقبال الدبلوماسيين الأجانب وفقاً للبروتوكول الأوروبي . وينسب أيضاً لعهد السلطان **محمود** الثاني بدء خروج السيدات للتنزه والتجول في كل مكان ، وبدون غطاء الوجه ومن ثم بدأ ـ كما يقول البعض ـ ظهور وانتشار مساوئ أخلاقية لم تكن موجودة من قبل فى الدولة العثمانية .

**٢- شغف رجال الدولة في عهد التنظيمات بنمط الحياة الغربية :** وقد بدأت في عهد السلطان **عبد المجيد** بعض عادات وتقاليد المجتمع الأوروبي ، تحل محل القواعد والأصول التي كانت تحكم المجتمع العثماني في العصور السابقة لهذا العهد ، وكان وراء ذلك ازدياد اختلاط رجال الدولة في هذا العهد بالأوربيين ، وكانت السيدات هن أكثر أفراد المجتمع العثماني ، تأثراً باختلاط رجال الدولة بالأوربيين .

**٣ـ الانفتاح الثقافي على الغرب :** لعبت الطباعة والنشر دوراً بارزاً في ازدياد الانفتاح على الغرب والاطلاع على مناهجه، حيث نشطت حركة الترجمة والنقل عن الآداب الأوروبية، كا بدأت تتوافد الجرائد والمجلات والكتب الأجنبية على الدولة العثمانية بشكل منتظم، مما ساعد على نشر الثقافات الغربية، وتأثيرها في التحول الفكري تجاه الغرب وقد ظهرت حالة من

الإزدواجية في المجتمع العثماني في فترة التنظيمات ، حيث بدأت المطالبة من جانب مؤيدي التنظيمات بزيادة الاختلاط مع الأوروبيين والاقتباس عن الغرب، كذلك في نفس الوقت الذي اعترض فيه بعض رجال الدولة من أرباب الفكر الإسلامي على هذا الاتجاه وهذه التغيرات الاجتماعية (١). غير أن الاستغراق في النقل عن الغرب في ذلك العهد كان أقوى وأمضى من محاولات التمسك بالقديم.

**٤ـ تدفق الأجانب وأمراء أسرة محمد علي إلى الأراضي العثمانية (٢):**

أصبح مصطلح السياحة مألوفاً في الدولة فانتشر السواح وكثر التجوال في أراضي الدولة العثمانية ، لا لغرض إلا للتنزهة ونشر العادات والتقاليد من قبل الأجانب الأوروبين خاصة، وكذلك الطبقات المترفة من أسر الأمراء كأسرة محمد علي ، فقد تدفقت إلى أراضي الدولة العثمانية .

**أولاً : فكرة الإصلاح المتكامل عند جودت باشا** : تقوم فكرة الإصلاح عند جودت باشا على فكرة رئيسية، ماهية التكامل في إجراء الإصلاحات حيث أن الإصلاحات كلٌ لايتجزأ، فيرى جودت باشا أن التنظيم في حياة الدولة وفي إدارة شئوونها يضفي عليها استقرارا معنوياً تدعمه قوتها العسكرية ، فيكتمل بذلك عظمة الدولة داخلياً وخارجياً . وإن أي حكومة تمتلك هذين الأمرين تمتلك معهما زمام الأمور ، وتوجب رعاياها على الإمتثال لأوامرها بلا أدنى فتور أو غضاضة، حيث أن كمال انتظام الدولة مرهون بانتظام كل إدارتها

(١) اعترض عزت محمد باشا الذي تولى الصدارة على انجراف الدولة وراء التيارات الغربية ، وطالب بضرورة العودة إلى استمرار تطبيق نظم الدولة القديمة وحاول منع تطبيق قوانين التنظيمات ، كما طالب بالعودة إلى التمكّس بغطاء الرأس "الطربوش" ووضع علامات عليه للتفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، كما طالب النساء العثمانيات بالاحتشام في ملابسهن وعدم ارتداء الملابس الغربية ولكنه لم يوفق في هذا وعزل من منصب الصدارة قبل أن يكمل سنة .

(٢) وفاء البستاوي : المرجع السابق .

ومؤسساتها[١].

ومن ثم فإن الأفكار التي طرحها **أحمد جودت باشا** بخصوص إصلاح مؤسسات الدولة، كان يتناسب ووجهات النظر المعاصرة ، حيث أنه كان يرى أن نظام العمل بمؤسسات الدولة العثمانية يشبه دقة الساعة ، وأن أي عطل يصيب إحدى هذه المؤسسات كان بالضرورة ينتقل إلى باقي مؤسسات الدولة وهذا ماحدث تماماً بالنسبة للدولة العمثانية عند تشخيصه لأسباب فشل حركات الإصلاح السابقة بها، حيث أعلن أن الخطوات الإصلاحية التي اتخذت كان يجب أن تشمل كل المؤسسات ، أي لابد من التكامل في إصلاح المؤسسات المختلفة بالدولة في نفس الوقت مع ضرورة التنيسق بينها في العمل الإصلاحي . ونتيجة لما تقدم نجد أن فكرة الإصلاح لدي **جودت باشا** كانت تقوم على أساس أن الدولة في احتياج إلى إصلاح وليست في حاجة إلى إعادة بنائها التاريخي .

**ثانياً : الخطوط العامة لفكر جودت باشا الإصلاحي في المجال العدلي** : كان فكر جودت باشا الإصلاحي في المجال العدلي يقوم على الأسس التالية :

- إن تحقيق العدل مهمة أساسية في الدولة لتتمكن من سياسة رعاياها ، كما أنه قيمة إسلامية أصيلة ، ومن هنا جاء رفضه التام لاقتباس القوانين والمفاهيم الأوروبية ووجوب حماية القوانين والعادات الإسلامية ، واعترض بشدة على آراء بعض رجال الدولة التي تتجه إلى تطبيق نصوص مترجمة عن القوانين الفرنسية .

- إن الدين الإسلامي قد كفل للجميع الحرية والمساواة في الحقوق ، وبناء على ذلك فإن **جودت باشا** كان يعتقد أن بعد المجادلات التي نشبت في العالم الغربي حول موضوع كفالة الحرية والمساواة في الحقوق أن الدولة والحكومة تستطيع أن تحول دون وقوع الفتنة والفساد والظلم ، وذلك باتباع الأسس

(١) أحمد فهد الشوابكة : المرجع السابق ص ٤٣. حركة الجامعة الإسلامية .

وأحكام الشريعة الإسلامية فقط .

- إن فكر التنظيمات - كما يرى جودت باشا - فكر أجوف في باطنه وحقيقته فأخذ جودت على عاتقه عبء إعلان وجهات نظره القاطعة هذه، والتي تعبر عن إحساسه وفكره.

- إن إصلاحات الدولة العثمانية الإسلامية لابد وأن تتم من خلال تطبيق القوانين والنظم الإسلامية مع الأخذ بما يفيد ويتفق مع الشريعة الإسلامية من التطورات الغربية .

وبعد أن حدد **جودت باشا** إتجاهاته الفكرية لإصلاح الدولة، بدأ في عقد موازنة بين الشرق والغرب وبين تاريخ المدينتين ، والعصور التاريخية لكلا الكتلتين، ومن ثم تأتي إصلاحات **جودت باشا** العدلية ، تعبيراً حقيقياً وتجسيداً لفكره القائم على أساس ضرورة عودة الدولة إلى تطبيق أحكام وقوانين الشريعة الإسلامية .

**ثالثا : كيفية الإصلاح العدلي العثماني في تذاكر جودت باشا :**

عاب **جودت باشا** على علماء عصره جمودهم الفكري ، وتأخرهم العلمي، ولما كان هؤلاء العلماء هم مناط العدل في الدولة العثمانية ، فإن رفع مستواهم وكفائتهم سيعيد للدولة انتظام حياتها العدلية، وبالتالي تنظيم بقية مؤسساتها الأخرى ، وذلك يتم عن طريق :

- رفع مستواهم العلمي ونشر المعارف والعلوم الدينية .

- دراسة وتعديل القوانين التي صدرت في فترة التنظيمات ضرورة للإصلاح العدلي .

- الربط بين الإصلاحات العدلية والإدارية ضرورة لإصلاح القضاء الإداري بالدولة العثمانية .

ـ صقل الملكات بالتجارب العملية والممارسات العديدة أهمية ( التدريب ـ الممارسة ) .

ـ تحقيق العدالة في محاكم الدولة العثمانية .

ـ سرعة الفصل في الأحكام .

ـ أهمية المجالس العرفية في الحياة العدلية ( اتجه **جودت باشا** من منطلق إدراكه لأهمية مراعاة تقاليد كل ولاية ، إلى تنظيم وتصنيف المحاكم إلى درجات ، فأوجد درجتين للمحاكم تنظر الدعاوى وهي المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف ، ثم يأتي بعد ذلك إعلان الحكم في المحاكم المتميزة ).

ـ نشر الوعي والثقافة القانونية .

ـ تأسيس ديوان الأحكام العدلية ( وقد حرص **جودت باشا** من خلال رئاسته لديوان الأحكام العدلية أن يحقق أمرين :

* الأول : أن يقوم بنفسه بإجراء دراسة لنظم وقوانين مؤسسات الدولة المختلفة ، لوضع أسس قانونية صحيحة لإدارة هذه المؤسسات ، وقد بذل في سبيل ذلك قصارى جهده .

* الثانى : اختيار أفضل العناصر من بين العلماء وأصحاب الخبرة وأساتذة القانون ، ليكونوا أعضاء بديوان الأحكام العدلية .

**ـــ إعداد مجلة الأحكام العدلية :**

لاحظ **جودت باشا** على ضوء دراسته لقوانين مؤسسات الدولة المختلفة ـ وجود ملابسات عديدة في النظر في بعض الدعاوى القانونية ، بسب وجود تناقض في بعض مواد القوانين الخاصة بنظام الولايات ، وبين قانون العقوبات وغيره من القوانين الأخرى التي كانت تطبق في الدولة في ذلك الوقت ، وأدى ذلك بالطبع إلى وجود صعوبات كبيرة في النظر حتى في الدعاوى القانونية

العادية .

ولما كانت هذه الدعاوى تعرض أيضاً على مجالس مختلفة ، منها ما كان يفصل في هذه الدعاوى وفقاً لأحكام الشريعة ، ومنها ما كان يفصل فيها وفقاً لما نصت عليه القوانين التي استحدثت في فترة التنظيمات والمقتبسة من القوانين الغربية، وفقد أعطى ذلك انطباعاً قوياً بعدم التأكد من تطبيق العدالة والحكم بالحق في الكثير من الأحيان ولمرات عديدة .

ومن ثم عدم إمكان التأكد من صحة الأحكام التي تكفل المساواة في الحكم من خلال هذه التطبيقات المتباينة التي ترتب عليها ظهور ماعرف بازدواجية الفكر القانوني داخل الدولة العثمانية والذي أتت به التنظيمات، وأدت إلى عدم استقرار الحياة العدلية بالدولة العثمانية .

ولهذا السبب اقتضت الحاجة وبشدة إلى إصدار قانون خاص يحكم وينظم تطبيق المواد القانونية على كيفية واحدة وثابتة ومن ثم تقرر :

**أولا** : وقف إصدار أي قوانين أخرى في ذلك الوقت .

**ثانيا** : وجوب إعداد أثر قانوني كبير يتضمن كافة الأحكام الواجبة التطبيق في مختلف المنازعات القانونية وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية ، على أن يعمم تطبيقها في سائر المحاكم الشرعية والنظامية ، وذلك نظراً لندرة وجود علماء الفقه في تلك الفترة .

وبناء على ذلك انشغل **جودت باشا** بالبحث والتمحيص في الهيئة العلمية التي تشكلت تحت رئاسته بديوان الأحكام العدلية لتأليف كتاب عن المعاملات الفقهية والذي عرف باسم " **مجلة الأحكام العدلية** "[١].

---

(١) هي مجلة تشريع القوانين وفق أحكام الشريعة الإسلامية وقد داوم فيها جودت باشا على نشر آرائه المتصلة برفضه تطبيق القوانين الغربية .

والجدير بالذكر أن " **مجلة الأحكام العدلية** " التي أسسها **جودت باشا** ، تعد من أهم الأعمال التي أكسبته نجاحاً كبيراً وشهرةً واسعةً في مجال القانون الإسلامي والعثماني ، حيث أن نجاح هذا الإنجاز الهام الذي يعد من ضمن إنجازات الإصلاح العدلي في تلك الفترة، يرجع الفضل فيه ـ بعد الله تعالى ـ إلى الهيئة العلمية التي تشكلت من كبار علماء ذلك العهد تحت رئاسة **أحمد جودت باشا** ، كما أن مجلة الأحكام العدلية عمل جدير بالتقدير ليس فقط بالنسبة للدولة العثمانية، بل بالنسبة للعالم الإسلامي، فقد أخرج جودت باشا الفقه الإسلامي من تلك الدائرة الضيقة التي رسمها له بعض الفقهاء الذين لم يستطيعوا المواءمة بين القواعد الفقهية وتطور المجتمعات الإسلامية ، فتجاوزوا عن مصالح الناس ، وماجرى عليه العرف بينهم، غافلين بذلك عن قاعدة فقهية متفق عليها وهي أن " **المعروف عرفاً كالمشروط شرطا** " فضيقوا في تفسيرها ، وأفسحوا المجال أمام خصوم الإسلام ليدعوا أن الشريعة الإسلامية غير قادرة على مسايرة مصالح الناس وتطور المجتمعات. فلم يأخذ في تدوينه المجلة بالأشياء التي تصطدم بمصالح الناس المخالفة للعرف .

وتنقسم هذه المجلة إلى ستة عشر جزءاً عرضت على السلطان **عبد العزيز** بعد إتمام الكتاب الثاني عشر منها والذي يعرف باسم " **كتاب الصلح** " فأصدر السلطان **عبدالعزيز** قراراً بتطبيق مواد هذه الكتب في كافة المحاكم الشرعية والنظامية .

وهكذا كان إصدار مجلة الأحكام العدلية ـ وهي الجامعة للمباديء القانونية الإسلامية ـ مسألة حيوية لتحل محل الاجتهادات ، ولتمثل الخطوة الأولى في طريق إيجاد فكر قانوني إسلامى بعيد عن المؤثرات الغربية ، ولتظل النموذج الذي يدل على عمق وتكامل الفكر القانوني الإسلامي ، وليؤكد **جودت باشا** من خلالها إمكانية تقنين أحكام الشريعة الإسلامية وبالتالي تطبيقها ، وإن

الإصلاح لايكون بالاتجاه نحو الغرب ، إنما يكون بالعودة إلى أصول الإسلام الحقيقية [١] .

**أما عن جهود جودت باشا في إصلاح المجتمع العثماني :**

فهي أيضا تتطلب من الأصول ما تبناه جودت أولاً بصفته مؤمناً متمسكاً بدينه ، ثم مؤرخاً ورجل قانون ، ومفكراً وأديباً ومعلماً وأيضاً عالم اجتماع ، ويمكننا أن نجمل مشروعه الإصلاحي الاجتماعي في النقاط التالية :

**١ــ إثبات الفروق بين المجتمع العثماني والمجتمع الأوروبي** : من خلال رصد **جودت باشا** للفروق التاريخية والاجتماعية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية بعد دراسة للعصور التاريخية المختلفة لكلا الكتلتين توصل جودت إلى أن للدولة العثمانية نظمها وقوانينها ، التي تختلف عن نظم وقوانين الغرب النصراني، ومن ثم لايكون الإصلاح في أي مجال من مجالات الحياة بالاتجاه إلى الغرب ، بل بالرجوع إلى أصول أنظمتها الإسلامية .

فهناك فروق مادية ومعنوية تحول دون الاقتباس المطلق الذي أراده رجال التنظيمات . ومن ثم نادى جودت بوجوب حماية العادات والتقاليد الإسلامية في المجتمع العثماني وسلك طريقاً لذلك .

**٢ــ إصلاح المدارس العثمانية وفتح مؤسسات تعليمية في كافة أرجاء الدولة :** حرص **جودت باشا** حينما أسندت له وزارة المعارف أواسط سنة ١٢٩٠هـ ـ ١٨٧٣م على إعداد برامج تعليمية لكافة المستويات من المدارس الأولى وحتى المدارس العليا .. ولإحياء التعاليم الإسلامية قام بكتابة العديد من الأعمال والمؤلفات الشرعية لتوضيح كل الأسس الإسلامية، ويشير **جودت باشا** إلى أن التعليم هو السبيل الوحيد لتطوير المجتمعات . وركز في رسالته على أمور أهمها:

---

(١) ماجدة صلاح مخلوف : المرجع السابق ص ٨٧.

- تكثيف العلوم الدينية، بل جعل مدارس اللاتين تحت سلطة الدولة، وألحق بها جودت ثمانية عشر طفلاً من طائفة اللاتين الكاثوليك، ويتولى تدريسهم مدرسين مسلمين وتلقى الأطفال النصارى في هذه المدارس دروساً لحفظ أجزاء من القرآن الكريم إلى جانب العلوم الحديثة .. وبعد فترة وجيزة ارتفع عدد الأطفال من ثمانية عشر إلى خمسين طفلاً ، وهكذا أعاد اتجاه **جودت باشا** إلى نشر الإسلام بين أطفال الرعايا النصارى في المدارس الخاصة بهم بعد إخضاعها لإشراف الدولة [(١)].

**٣ـ التمسك بالتقاليد الإسلامية والحفاظ على هوية المجتمع الإسلامي** : إن عمق نظرة **أحمد جودت باشا** الدينية وقوة إيمانه وارتباطه بالدين الإسلامي، انعكس على مفاهيمه السياسية والأخلاقية والاجتماعية، فالإسلام عند **جودت باشا** ليس فقط إيمان وعبادات، وإنما هو أيضاً أسلوب حياة فيجب أن يكون النظر لكل مجالات الحياة سواء كانت الأخلاقية أو القانونية أو الاجتماعية من خلال منظور ديني، لأن ذلك سيؤدي بالضرورة إلى حسن النوايا وصلاح العمل [(٢)].

كما يرى **جودت باشا** أن قوانين الشريعة المستوحاة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم صالحة كل زمان ومكان ، ومن ثم يجب أن تكون هي المحكمة في المجتمع وخاصة بالنسبة لدولة تهيمن على ملل ومجتمعات مختلفة كالدولة العثمانية التي اتسعت دائرة سلطانها لتشمل مناطق شاسعة وأجناس مختلفة .

**٤ـ ضرورة البعد عن التغريب وإنقاذ الدولة من آثاره** : يرى **جودت باشا** أن الدولة العثمانية قد خدعت إذ أقبلت على مدنية الغرب وانسلخت عن شرقيتها، مما أفضى بها إلى التقهقر والانهزام، فالدولة العثمانية بدأت كحكومة شرقية

---

(١) انظر فيما سبق : تذاكر أحمد جودت باشا ج٣ ص ١٨-١٩.

(٢) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح في مذكرات جودت باشا ص١٣٥ .

إسلامية ذات كيان اجتماعي قوي وانتهت بفعل التنظيمات إلى حكومة غربية ضعيفة ومجتمع مفكك[١] .

على ضوء ذلك قام جودت بتتبع ورصد الظواهر الاجتماعية في مختلف الولايات العثمانية التى خضعت لمأورياته الإصلاحية ولاحظ تعثر بعض هذه الولايات وخاصة القريبة منها من المدن الكبيرة والعاصمة بمظاهر المدنية الغربية، وما لهذا التأثر من آثار.

* ومن الضرورات الإصلاحية تنشيط الوعاظ للقيام بدورهم في التوعية الدينية للمجتمع :

فقد اهتم **جودت باشا** بمناشدة العلماء والوعاظ لتوجيه النصح والوعظ للشباب والفتيات العثمانية لمراعاة التقاليد الإسلامية والحرص على اتباعها لأن فيها صلاح المجتمع، وذلك لما يعرفه **جودت باشا** من تأثير كبير للقوى الشرعية والعاطفة الدينية الممثلة في رجال العلم والفتوى على جميع فئات المجتمع المسلم .

وكذلك اهتم جودت باشا بإقامة شعيرة الصلاة جماعة خاصة الجمعة بعد أن لاحظ أن الصلاة لاتقام جماعة في بعض المناطق كالقوزان إما لعدم وجود جوامع أو افتقارهم للأئمة فحرص على تشييد الجوامع وإرسال الأئمة والخطباء[٢].

**٥ـ محاربة الفكر المادي الغربي والقضاء على بعض العوائد الغربية :** فقد انتشر الاهتمام بالتوافه من الأمور على عادة الغرب ، وكذلك انتشر الترف والإسراف والاهتمام بالمظاهر إلى درجة تفوق الإسراف أيضاً، وكذلك من المجالات الخطيرة التي ركز عليها جودت انتشار ظاهرة غلاء المهور التي بدأها النصارى أخذاً من إخوانهم في الغرب .

---

(١) أحمد فهد شويكة : حركة الجامعة الإسلامية ص ٤٢.

(٢) وفاء البستاوي : فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص١٤٠ .

وكان لهذه الظاهرة التأثير السلبي الكبير على شباب المجتمع العثماني، فهي أحد الأسباب الرئيسية في انتشار ظاهرة عزوف الشباب عن الزواج واتجاههم إلى اللهو واتخاذ العشيقات والخليلات بالحزم !! وكذلك المأساة بالنسبة للفتيات فكثر خروجهن من البيت وترددهن على الأسواق بعد أن وصلن إلى سن العنوسة، بل يسجل جودت هذه المظاهر من وقت مبكر في الدولة :

ـ ارتياد الفتيات الشوارع بصحبة الفتيان ، وهذه ظاهرة تعد غريبة على المجتمع العثماني المسلم .

ـ ارتياد الفتيان إلى الحانات والتعرض للفتيات في الشوارع .

ـ اتجاه الفتيات إلى نهج جديد وغريب على المجتمع الشرقي الإسلامي، كالتردد على الأسواق صباحاً ومساءً ، كما أصبحت من رواد الحانات ،وكذلك ارتدين الملابس ذات القماش الشفاف ، المبالغ في الزركشة تقليداً للأزياء الأوروبية .

وقد أرجع **جودت باشا** هذه السولكيات إلى الانفتاح على الغرب الأوروبي ووجود طبقة من المجتمع لاتدين بالإسلام فلا تبالي بحلال أو حرام !

وكذلك إلى تأخر سن الزواج بين الشباب نتيجة المغالاة في متطلباته ، لذلك دعى جودت لتدارك هذه الظواهر الخطيرة حتى لاتحدث انهيارات في البنية الاجتماعية للدولة العثمانية [١] .

**منهج جودت باشا في الإصلاح العسكري والأمني عموماً :**

كانت عند جودت جرأة كبيرة في طرح أفكاره الإصلاحية بل وتنفيذها في المناطق التي كانت تحت يده ـ خاصة في ذلك الوقت الذي كان يجعجع فيه باسم الوطنية والمساواة بين أفراد الوطن ـ ومن هذه المشاريع رفضه التام لتجنيد غير

---

(١) انظر فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا ص ١٥٠.

المسلمين بالجيش العثماني المسلم . وانطلاقاً من مقدمات شرعية ورجوعاً إلى آيات القرآن الكريم في استئمان أهل الذمة .

وللأسف كلف رجال الدولة والي البوسنة بانتخاب شباب من أبناء أعيان بعض المسلمين والنصارى وإرسالهم إلى استنبول كحرس للقصر الهمايوني .

وقد بنى **جودت باشا** اعتراضه على عقيدة أن المسلم يتحمس للقتال بدافع الفتح أو الشهادة ونصرة الدين الإسلامي ، وهذه الكلمات تلقن لهم منذ نعومة أظفارهم وهي الدافع لهم لتحمل أعباء ومتاعب القتال بصبر وجلد، كما يرى أن مثل هذه الدوافع المعنوية إلى الحرب هي السبب في شدة وبأس جنود المسلمين في القتال [١] .

ومن منطلق هذه الفكرة عارض جودت تجنيد غير المسلمين في الجيش العثماني وذلك للاختلاف القائم بين المسلمين وأهل الذمة فيما يتعلق بمفهومي التربية والقتال لدي كل منهما، ومن أسباب معارضته أيضاً أن أهل الذمة سيكتسبون حقوقاً عسكرية فإذا حدث وعجزت الدولة أو امتنعت عن الوفاء بهذه الحقوق المكتسبة ، ستكون عرضة للتدخل الأجنبي في الجيش العثماني ، وهذا أمر غير قائم طالما أن أهل الذمة غير مشتركين في الجيش العثماني الإسلامي .

وكذلك كان لجودت جهود إصلاحية في الجيش وفي الجهاز الأمني في الدولة كان يقوم بمتابعتها والتأكيد عليها بنفسه، وذلك حتى في المسائل الدقيقة المتخصصة ، ومن ذلك تأكيده على متابعة التدريب وخاصة للمجندين ومتابعة كل جديد في الفنون العسكرية والقتالية والتدريب عليها .

وأكد على ضرورة عنصر الخبرة في اختيار قيادات الجيش، وسعى حسب

---

(١) ماجدة مخلوف : معروضات أحمد جودت باشا ، دراسة وتحقيق وترجمة إلى العربية ج٣ . ص ١٤٠.

اجتهاده في الاختيار وخاصة في المناطق ذات الطبيعة الجغرافية القاسية أو المناطق الساخنة بالفتن .

واهتم **جودت باشا** كذلك بالعلوم الحديثة ، بجانب التدريبات الحديثة . وأكد على أهمية التحصيل النظري بجانب التدريب العملي .

وكذلك من النقاط التي ركز عليها تهيئة الرأي العام لنجاح الإصلاحات.

فقد كان حريصاً قبل إجراء الإصلاحات في أية ولاية من الولايات على تهيئة المناخ العام في هذه الولاية لتقبل الإصلاح ـ لأن الناس بطبيعتها تخشى من التغيير خاصة كبار السن ـ وعمل استبيان أو استطلاع لهذه الإصلاحات حتى لايحصل أثر عكسي لها من اضطرابات وقتل وحركات تمرد .

وذلك من منطلقه أن استتباب الأمن ضرورة أساسية للإصلاح [١].

وهذه النقطة نختم بها الحديث :

ولذلك فقداهتم جودت اهتماماً بالغاً بإعادة الاستقرار الأمني للولايات الخاضعة للإصلاحات والتعامل العسكري مع المثيرين لأعمال الشغب والقرصنة ، باعتبار أن إعادة الأمن وضبطه والاستقرار الداخلي في رأي جودت ـ يعد أمراً حيوياً قبل الشروع في إجراءات أي إصلاحات إدارية كانت أو عسكرية [٢].

**الخلاصـــة :**

وهكذا نجد أن أحمد **جودت باشا** لم يكن منظراً فحسب، بل كان رجل دولة ورجل عمل . فكان يخطط وينفذ ، ولكن مع ذلك كما علمنا من الأحداث المتعاقبة كان أعداء هذه الملة وهذه الدولة العثمانية أكثر تعاوناً للأسف وأكثر

---

(١) وفاء أحمد قطب الشناوى : المرجع السابق ص ١٦٤.

(٢) انظر المرجع السابق : ص ١٦٥.

ترتيباً وتنظيماً في تخريبهم . وكانت الجولة لهم مع ضعف السلاطين وتخاذلهم في الأخذ على أيدي المفسدين ضعفاً وخوفاً . كما علمنا ذلك من سيرة السلطان **عبد الحميد** والذي يعد أعظم سلاطين الدولة في عصر الضعف .

إلا أنه يبقى **جودت باشا** نموذجاً للعَالِم العَامِل، الذين لايمكن أن ينساهم التاريخ الإسلامي الحديث .

**ثانياً : محمد عاكف :**

**مولده ونسبه** : ولد محمد عاكف في مدينة استنبول عام ١٨٧٣م بحي الفاتح المجاور لمسجد السلطان محمد الفاتح .

أما اسمه فهو "محمد عاكف بن محمد الطاهر ،وأبوه ولد في قرية من قرى ألبانيا،وقد لازم محمد طاهربعد قدومه استنبول حلقات العلماء ودروسهم حتى أخذ الأجازة وأصبح من أساتذة مدارس السلطان محمد الفاتح.

ومما ينبه عليه محمد عاكف في حديثه عن نفسه أنه بالرغم من أن والده كان من منسوبي الطريقة النقشبندية ومن مريدي الشيخ فيض الله،إلا أ نه لم يتأثر بوالده أو أن والده لم يلقنه الصوفية ،يقول محمد عاكف : (لم تكن أمي من الصوفيات ولم يلقني أبي الصوفية) [١].

**دراسته وتعليمه:** درس محمد عاكف في المراحل النضامية للدولة من ابتدائية ومتوسطة وثانوية ومن ثم الجامعة ،فقد التحق بكلية الطب البيطري ..ويذكر عاكف سبب اختياره لكلية البيطرة فيقول:(سجلت في القسم العالي للعلوم الإدارية سنة ١٨٨٨م ودرست في السنة الأولى، ولكن توفي والدي واحترق منزلنا وأصبحت محتاجا ،... وكانت هناك صعوبات في التعيين بالنسبة للوظائف الحكومية مع قلة الراتب ،وفتحت أول مرة كلية البيطرة وترك كثير من إخواننا

---

(١) عيسى مصطفى يوجار :محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية ،ص ١٣٩نقلا عن محمد عاكف لمدحت جمال :ص ٢٥ ،ص٢٦٣

الدراسة في كلية الإدارة وسجلوا في الطب البيطري ...ويتابع عاكف قائلا : وكنت جيدا في اللغة ،وبدأت أكتب الشعر وأشتغل به .....وكان أكثر الدكاترة في الكلية من الأساتذة المتخصصين متمسكين بالإسلام ،وأثرت تلقيناتهم على تربيتي ومن أكثرهم أثرا في نفسي وسلوكي الأستاذ رفعت حسام الدين [(١)].

**موقفه من التغريب ودعاته :**

**تمهيد** :قبل أن نتعرض لكل مواقفه من الغزو الفكري أو التغريب بوجه العموم، لابد أن نشير إلى موقفه ودفاعه عن الإسلام والخلافة الإسلامية بعدما انتصر الأتراك على أعدائهم الصليبيين في حرب الاستقلال ، وبدأ الإداريون وكبار المسئولين يبحثون عن نظام جديد ، وقد كان الغرب وقتها مستعمراً قلوب أبناء المتعلمين العثمانيين ، وماجاءت الحرب العالمية الأولى وانقضى أجلها حتى أصبح العالم الإسلامي كله تحت نفوذ المستعمرين . وإزاء ذلك خلا الجو لهم ينفثون من سمومهم في البلاد المستعمرة مايشاءون من ثقافتهم وفكرهم ، وجعلوا الثقافة الغربية هي المنبع الأساسي للثقافة في البلاد الإسلامية ، ثم أخذو يقذفون بالتيارات والمذاهب الوضعية ، وأحدث ذلك هزة عفيفة في العالم الإسلامي ونشأت طبقة من المثقفين الذين كان لهم أثر في التعليم وفي الحركة الثقافية ممن تأثروا بالثقافة الغربية ، واقتنعوا بها ، ودعوا إلى اتجاهاتها المعارضة للإسلام ومنهم ضياء كوك ألب وأصحابه. ولما بدأ الزحف الاستعماري الغربي على العالم الإسلامي لم يحمل معه أفكاره السياسية وآراءه الاجتماعية ، ونظمه الإقتصادية فقط ، وإنما نشر وبأوسع نطاق جميع تصوراته الخاطئة .

والغزو الفكري يحاول دائماً أن يزاحم المسلمين في بلادهم ، وأن يشوش عليهم دينهم . والمعركة معركة فكر ، وجبهة الصراع الجديد هي عقول أبناء هذه الأمة ومشاعرهم . تلك التي يحاول هذا الغزو أن يغرس فيها بذوره ، ويعرض

(١) عمر رضا :مقدمة ديوان الصفحات ،ص١٥

بضاعته ، لذا فإن جهاد عاكف لهذا الغزو كان يعتمد على سلاح من نوع سلاحه.

فهناك عديد من الاتجاهات والتيارات الفكرية الهدامة غزت الدولة العثمانية ، ولاتزال مستمرة في غزوها تركيا .

وفي حالة الضعف والتردي التي كانت تعيشها الدولة تعرضت لزحف أوروبي حديث ليس عسكرياً فقط كزحف الحروب الصليبية ، وإنما كان عسكرياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً . ووجد العدو الجو مهيأ لتنفيذ خطته الماكرة في تغريب العالم الإسلامي ، وكانت هذه الخطة تعتمد على تربية الجيل الذي سيقود البلاد في المستقبل ، وتغذيته بفكره وثقافته حتى تضمن أوروبا ولاءه وخضوعه له في نهاية الأمر .

ولقد كان عصر عاكف يموج بتنظيمات معادية للإسلام . وحلت حرب الأفكار والعقيدة محل الحروب الصليبية بعد حرب الاستقلال في تركيا .

ورفع المستغربون راية العلمانية ، وصبوا الدين في المساجد فقط ، وأبوا عليه أن يكون له سلطان خارج المسجد ، ورفعوا مباديء الرأسمالية والديمقراطية في مختلف مجالات الحياة ، وقضوا على القيم والمثل والأخلاق الإسلامية .

وهكذا غزا الغرب المجتمع الإسلامي بقيم جديدة ، ليبتعد به عن قيم الإسلام ، وحقق الغرب هدفه في تقسيم الدولة العثمانية ، وفي القضاء على الخلافة الإسلامية ، وقطع كل صلات الدولة بالإسلام ، واتخاذ دستور علماني بدلاً من الإسلام ، وتنتهي الإجراءات إلى سلخ تركيا من إسلامها ، وفي بداية الأمر بدأت محاولات لاقتباس بعض النظم الإدارية والقانونية من الغرب ، وانتهى الأمر إلى إقبال تام عليه ، وإعراض تام عن الدين .

ومن بين الوسائل التي اتخذها ذلك الغزو : تحريم الآذان باللغة العربية ـ

وجعلوه باللغة التركية ـ وتحريم الكتابة بلغة القرآن ، واستيراد القوانين لكل مرافق الحكم، وأطلقت وسائل الإعلام لتهاجم الإسلام بكل الصور والأشكال والأساليب، والأخطر من ذلك كله أن العلمانية في تركيا لم يقتصر أثرها على تركيا فحسب ، بل تعداها إلى كثير من بلدان العالم الإسلامي، وأصبح النظام الجديد النموذج والمثال للنظام الناجح .

ولعاكف وقفات قوية ضد الغزو الفكري في مجالات متعددة نبينها فيما يلي ...

**موقف عاكف من الفكرة القومية :**

لقد أحسن **عاكف** في أخريات أيام الدولة العثمانية كشف الكارثة التي توشك أن تحيط بالعالم الإسلامي وبالخلافة الإسلامية ، ووصف واقع المسلمين في تلك الأيام في آثاره، ويبدو أن فكرة الفتنة القومية ومسئوليتها لاتقع على طائفة بعينها ، بل تقع على الجميع فالحق أن ما أصاب الخلافة العثمانية في الفترة الأخيرة من خلاف وتمزيق وتقسيم بعد أن كانت كلتة موحدة تمتد بين المحيط إلى المحيط ، فصارت أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لاتربطها رابطة مشتركة ، كان فتنة عامة ألا وهي القومية .

وكان سقوط الخلافة العثمانية بداية انهيار الوجود الإسلامي في شبه جزيرة البلقان وأوروبا . وبعد ذلك جاءت مراحل تأسيس دويلات متفرقة ، ثم تأسيس دولة اليهود ؛ وانقطاع العلاقات بين المسلمين ، لقد وجد بين هذه الدويلات نوع من التنافس على الزعامة والتوسع على حساب بعضهم البعض.

وأيقظت الدعوة للقومية التركية أو العربية طوائف أخرى ودفعتها لأن ترفع نفس الراية، ففي شرق تركيا وشمال العراق دعا سكان هذه المنطقة إلى بعث القومية الكردية ، وفي البلقان ارتفعت أصوات بالقومية الألبانية ، كرد فعل للقومية التركية. وفي مناطق أخرى ظهر مسلمون يفخرون بانتسابهم إلى

قومياتهم .

وقد اتخذ الاتحاديون " الطورانية " طريقاً لأنفسهم في الحياة الفكرية والثقافية تمسكوا بها ، وعاشوا في عالم الخيالات في جمع الأتراك في العالم تحت راية واحدة ، ولم يدافعوا عن الأمة الإسلامية، بل سلكوا طريق القومية التركية(١). كما انتشرت فكرة القومية بعد الثورة الفرنسية في دول أوروبا الشرقية ، وبدأ الدفاع عن الجامعة العثمانية عند بعض المثقفين الأتراك .

ثم ازدادت فكرة القوميات انتشاراً بعد السلطان **عبد الحميد** خصوصاً في البلقان،وازداد نشاط **ضياء كوك ألب** ورفقائه للدفاع عن الطورانية (٢).

يقول **حسين مجيب المصري** : إلى جانب هذه النزعة القومية المتطرفة ظهرت نزعة إسلامية رشيدة أمل أصحابها إصلاح الحال بالرجوع إلى تعاليم الإسلام والتمسك بعروته الوثقى، ففي القرآن نور يهدي في الظلمات وصلاح الدين والدنيا ، ولن تقوم قائمة للمسلمين عامة ، ولاللأتراك خاصة ، إلا إذا أقاموا الدين ووقفوا عند الحدود . ومما يذكر أن أنصار هذا الرأي لايميلون إلى القومية التركية ، لأن الإسلام لايفضل جنساً على جنس فالغرب والعجم سواء في ظل منارته السابقة ، وهم يريدون وحدة إسلامية تجمع شمل المسلمين ، وتؤلف بين قلوبهم ، ولايحملون بالطورانية ولاالعثمانية كغيرهم . وفي ذلك يقول شاعرهم **محمد عاكف** مخاطباً الألبانيين (٣) .

**ماهي القومية الألبانيـــــــــة ؟ أَلها محل في الشريعة الإسلامية ؟** (٤).

واتفق الكتاب على أن عاكفاً شاعر إسلامي دافع عن الإسلام والمسلمين

(١) انظر : أثر السنين ، ص ١٠٣

(٢) انظر أسس القومية التركية : لضياكوك ألب

(٣) تاريخ الأدب التركي : ٥١٤ - ٥١٥ .

(٤) انظر تفصيل قوله : ديوان الصفحات ١٧٣.

في أنحاء العالم كله.

وقد انتشرت في أيامه فكرة القومية التركية، ودافع عنها بعض الأدباء والشعراء والكتاب وعلى رأسهم **ضياء كوك ألب** و**محمد أمين يورداقل** ( أى عبد الوطن ) .. إلخ

ودافع المؤلفون الآخرون ، مثل : **ناظم حكمت** ، و**عبد الله جودت** عن الاشتراكية ، ودافع معظم الكتاب عن التغريب. ومايسمى بالحضارة الغربية .

أما **عاكف** فقد عاش بينهم ، ووقف ضدهم ، وعبر عن معارضته لهم ، وأصبح مخالفاً تمام المخالفة لأفكارهم ، وأبرز خصومته للأفكار المعادية للإسلام، ويظهر من مؤلفاته دفاعه عن المقدسات الإسلامية ، وردوده على مزاعم المخالفين جميعاً ، واعتبرهم مفسدين تحت اسم الإصلاح، وضالين مضللين أفسدوا عقول الناس بمؤلفاتهم وكتاباتهم . وراجت كثير من الدعاوى العنصرية بعد عام ١٩١٢م وتبناها السياسيون ، فأصبح **ضياكوك ألب** عنصراً بارزاً في الاتحاد والترقي، وفي نفس الفترة تقريباً ظهرت مؤلفات بالعربية تدعو إلى القومية، منها مانشره **نجيب العازوري** : " **يقظة الأمة العربية**" و " **أم القرى**" **لعبد الرحمن الكواكبي** .

والواقع أن **محمد عاكف** وقع مع بعض أصحابه من محرري مجلة "**سبيل الرشاد**" على طلب أرسلوه إلى **ضياكوك ألب** ـ عضو المركز العام لحزب الاتحاد والترقي ـ فى تلك الأيام وطلبوا منه الاجتماع العلمي لعقد الحوار أو النقاش حول الأفكار المنتشره من قبل القوميين الطورانيين لبيان أضرار النشريات المتعلقة بالطورانية ولغرض التأليف بين الجماعتين أي الإسلاميين والطورانيين . ولكن لم يرد أحد من الطورانيين على هذه المذكرة، بل استمر الطورانيون في نشر أفكارهم . أما عاكف فلم يفرق بين العناصر الإسلامية في الدولة العثمانية ،

وحاول تحقيق الوحدة الإسلامية ، وابتعد عن الطورانيين [١] .

**أعمال محمد عاكف ومواقفه الإصلاحية :**

أولاً : ضد القوميات عموماً والقومية التركية خصوصاً :

١ ـ يقول عاكف مخاطباً جميع المسلمين بلسان واعظ يلقي درسه في مسجد السليمانية باستنبول : " كان المفروض أن يربطنا الإسلام ربطاً كاملاً وقوياً ، ولكن لم ولن أفهم من أين جاءت فكرة التفرقة واستولت على أذهانكم ؟ وكيف انتشر هذا الفكر ؟هل الشيطان لقنكم وبث في أذهانكم فكرة القومية ؟ فإن الإسلام جمع في بنيته أقواماً مختلفة تحت راية أمة واحدة ، ولكن " القومية " زلزال يريد أن يهدم الإسلام من قواعده الأساسية . ونسيان هذه الحقيقة ولو لحظة واحدة خسران أبدي ولن تستمر حياة هذه الأمة إذا استمرت فيها دعوة القومية العربية أو القومية الألبانية .

وأما السياسة الأخيرة في الدولة العثمانية ، وهي القومية التركية [٢]. فلا يرجى منها فائدة أبداً في استمرار حياة الأمة فإن خالقكم خلقكم كأفرادأسرة واحدة يجب عليكم أن تزيلوا أسباب التفرقة من بينكم . وإذا اشتغلنا بدعوى القومية فسوف يغزوالأجانب ـ والعياذ بالله تعالى ـ بلادكم ليصبحوا فوراً أصحاب الملك ، وقد قال آباؤنا الأقدمون : القلعة تفتح من داخلها " .

ولم يستمع أحد إلى هذه النصيحة ؛ لأن الامة كأنها أمة ميتة ؛ لاتسمع ؛ لإنها صماء، وأن الدولة الاسلامية الحالية التي ترزح اليوم تحت نير الاستعمار الذي يسعى لازالتها هي الفريدة في التاريخ ، فالدولة الإسلاميةالسابقة دخلت مقابرها بنفس السياسة ( أي أزيلوا جميعاً من الوجود نتيجة التفرقة ).

---

(١) محمد عاكف لفوزية عبد الله : ص ٥٧-٥٨.

(٢) غيروا في عام ١٩٢٨م كلمة " القومية التركية " بقولهم " هذه السياسة ".

لايستطيع العدو دخول بلد من البلاد قبل أن يدخل التفرقة بين أفراد الأمة التي تعيش فيه ، وحينما تصبح القلوب موحدة في إيمانها فلن تستطيع المدافع اسكاتها أو ازالتها . اتركو النقاش حول الحكومات السابقة التي زالت من الوجود ، فإن الحكومات الحالية كافية للعبرة لمن يريد أن يعتبر ، هذه بلاد المغرب وتونس والجزائر كلها ضاعت ، والآن يقسم الأعداء بلاد إيران بينهم[(١)]. ولاغرابة في هذا كله . بل هي أمور طبيعية ؛ لأن ميدان العمل ملك لمن يعمل ، وقد منح الخالق سبحانه وتعالى حق استمرار الحياة للقوي .

أصبح المسلمون أقواماً مرضى بمرض التفرقة أفلا تحولها أوروبا المتحضرة لقيمات لتبتلعها ؟ أيتها الأمة : "إن المصائب كافية للعبرة ، استيقظوا بالله من نومكم وإلا فسوف تسمعون صوت الناقوس القوي بآذانكم" .

٢ـ كتب **عاكف** في مايو ١٩١٣م قصيدة طويلة ندد فيها بالقوميات ونشرتها جريدة "الظهور" التي كانت تصدر في مدينة بغداد ، ووزعتها في ملحق خاص ، ووعدت بنشر تلك القصيدة المكونة من خمسين بيتاً باللغتين العربية والفارسية [(٢)].

وقد دخل جنود الصرب بلاد ألبانيا أيام حرب البلقان ، وقتلوا المسلمين ، وكان أصل **عاكف** من ألبانياً وحينما هاجم الأعداء بلاد آبائه وأجداده انفعل لذلك الحدث وعبر عن انفعالاته في قصيدة له . وبين أن سبب خروج سكان تلك المناطق على الدولة العثمانية هو انتشار فكرة القومية بين سكانها، يقول **عاكف** :

" ياوالدي ، انظر كيف يذبح ثلاثة ملايين مسلم بتخطيط من قبل بضعة

---

(١) يقصد عاكف تقسيم إيران بين روسيا وبرطانيا ، ونشر هذه الأبيات في ١/٨/ ١٩١٢م وصور فيها واقع المسلمين في تلك الايام.

(٢) مقدمة ديوان الصفحات لروزداغ : ص ٣٥:٣٦

من السفهاء . لاعون ولافائدة من الأحياء ، قم أنت من قبرك ؛ لتساعد المسلمين إن ألبانيا تحترق والحريق رهيب جداً في هذه المرة ، كان الحريق في البداية مجرد شرارة وأصبح الآن نار الجحيم ، وانتشرت ألسنة اللهب المنبعثة منها في كل أنحاء البلاد ، إنه حريق هائل جداً لم يترك بيتاً إلا أحرقه : ولكن هيهات . أين أصحاب الأرض الأصليون الأبطال الذين دافعوا عن هذه الأراضي ضد الشعوب الأخرى من الصليبيين ؟ الغريب أنني لم أر أحداً في الميدان ولو فرداً واحداً. أين الشجعان الذين لو أصيب شرف الواحد منهم بأدنى أذى لما سكن حسه ، ولاقنعت شجاعته حتى يقتل بضعة أشخاص من الأعداء المعتدين ؟ والآن شرف الأمة محضر وأصاب مجدها الضرر ، فأين الذين كانوا لايذكرون أسماء بناتهم وزوجاتهم عند غير المحارم ، ولايسمحون لهم أن يسألوا عن أسمائهن ويقولون : لاتسأل عن اسمها وإلا قتلتك ؟ وأين هؤلاء الذين كانوا لايسمحون بتسجيل أسماء نسائهم وبناتهم غَيْرَة عليهم ؟ أين هؤلاء الأبطال ؟ لم لم يظهروا شيئاً من شجاعتهم السابقة حينما عمل هؤلاء الخبثاء لنشر الفحش بلا مراعاة للحرمات ولاحجاب النساء" .

ويخاطب **عاكف** الألبانيين قائلاً : أيها القوم الأسرى ، كنتم تريدون الاستقلال فماذا حدث؟ أنا أخشى أن يكون نصيبكم الآن هو الندم الأبدي ـ فحسب . أيها العنصر الرافض للروابط ، أين استقلالك ؟ أرى أنه قد قضى على جميع آمالكم تماماً . أين الخيالات العالية ـ في تحقيق الاستقلال ـ للشمقيين ( أى المنظمة القومية الألبانية ) ؟ وقد نمتم في خدر تلك الرؤيا الملعونة سنوات طويلة ، حقاً لقد كنتم نائمين وإلا فلو استيقظتم في الوقت المناسب ، فهل كان يقدر لكم الهلاك بهذا الشكل ؟ وهل كان يحدث ذلك الانهيار السريع في جميع الآفاق في ذلك الصباح الدموي ؟ .

لقد أحاط البلاد من كل جانب قطاع الطرق من الجبل الأسود ، وحمير

الصرب ، وأفاعي البلغار ، ثم كلاب اليونان . وقد أحاطت تلك الجيوش الثلاثة السفيهة بجيشنا المستتر ، شردونا من بلادنا ، وأخذوا وطننا من أيدينا ، وذبحوا بعض الأسر الفقيرة ، وهاجموا أعراض النساء بأنواع من الفجائع ، وهكذا سفكوا دماء هذا ، وأحلوا عرض تلك، يأيها الخارجون عن الدولة العثمانية إن هذا الانهيار المؤلم هو نتيجة أعمال أولئك الثلاثة أو الخمسة من السفهاء الذين بثوا فيكم فكرة الخروج على الدولة . لماذا لم تتوقعوا تلك العاقبة الشنيعة ؟ وقد كنتم تدعون أن ملتكم هي "**الإسلام**" إذاً فما هذه الدعوى القومية. لماذا لم تتمسكوا بملتكم الإسلامية تمسكاً كاملاً ، وتستمروا على هذا السبيل ملتفين حوله ؟ ماهي القومية الألبانية ؟ ألها محل في الشريعة الإسلامية . إن التنادي بالقومية لن يكون إلا كفراً ، أي فضل لعربي على تركي ، أو للأز[١] على شركس[٢] أو على كردي.

هل في الإسلام دعوى العنصرية ؟ لا ، ولا وجود في الإسلام للعنصرية ـ وأنى يكون هذا والنبى صلى الله عليه وسلم يلعن فكرة القومية ؟ إن روح رسول الله صلى الله عليه وسلم أكبر عدو للتفرقة ، الموت للسفيه الذي أدخل التفرقة بين المسلمين . وقد وصل إليكم خبر عاقبتكم الحالية قبل أكثر من ألف عام ، فهل يجوز لكم أن تشتغلوا الجدل رغم علمكم بهذا الخبر ؟ .

ويخاطب **عاكف** القوميين قائلاً : هدمت مائة وخمسون ألف بيت ، وقتل من فيها ، أيها السفهاء الخمسة أو الستة الذين خططوا لهذه الحرائق أخزيتمونا أمام الصرب والكروات . لماذا فصلتم ألبانيا المطيعة للخليفة[٣] بالقرآن ، ونتيجه

---

(١) اسم قوم يسكنون الساحل الجنوبي والشرقي من البحر الأسود .

(٢) قوم من أقوام القوقاز .

(٣) في الطبعة الأخيرة "الحكومة" .

فصلكم هذا الجزء ضربتم جميع البلاد ، لماذا تسلكون طريق القومية [١] .

وهناك أسباب لانتشار فكرة القومية بين المسلمين ومن أهم هذه الأسباب في رأي **عاكف** : " جهل المسلمين وعدم كفايتهم من ناحية التعليم والمدارس اعتباراً من رياض الأطفال والمدارس الابتدائية لتعليم الناشئين . ويذكر **عاكف** مثالاً في بيان ذلك ويقول : كثير من يريد أن يصبح عبرة أمام أعين الناس . كأن ماسبق من العبرالصادرة منا للعالم لم تكن كافية . وفي الواقع لم يبق من أنواع المصائب شيء إلا أصابنا والسبب هو جهلنا .

٣ـ يقول **عاكف** في تصوير أيام الاتحاديين : ظهرت التفرقات دائماً باسم حزب أو قومية أو لغة ، لذا وقعت عداوات كبيرة بين أخلص الناس ، ولم يسبق في تاريخ الإسلام ذل كالذي كان في أيامنا [٢] .

وبين **عاكف** أن فكرة القومية فكرة مدسوسة من قبل الإنجليز لتمزيق المسلمين ، قد نشروا هذه الفكرة بين المسلمين ، ليسهل لهم غزو هذه البلاد وركزوا في ذلك على الطورانية والعروبة للفصل بين هذين الشعبين أولاً ، ثم تحطيم مركز الخلافة الإسلامية ، وتحدث عن الكوارث التي أصابت وطن الإسلام والمسلمين . وعن آلام الوطن الإسلامي وعذاباته ولم ينس في كتاباته دينه ودولة الخلافة، وقد اتفقت ضد الدين، وضد دولة الخلافة معظم الأفكار المعادية للإسلام كالقومية والوطنية والتغريب والإلحاد ، ودافع **عاكف** عن الإسلام ووطن الإسلام بحرارة وإيمان صادق .

يقول **عاكـــف** في قصيدتـه بعنوان " **إلى متى النزاع** " : يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ ﴾ [٣] دع الألسنة تقول : أنا ـ أنت ،

---

(١) ديوان الصفحات : ص ٢٣٩.

(٢) عيسى مصطفى يوجار : محمد عاكف وجهوده في الدعوة الإسلامية ص

(٣) سورة الأنفال : آية ٤٦ .

وفرق وحدة الجماعة : فيومئذ تقوم القيامة التي تفني الأمم .

٤ـ دفاع **عاكف** عن الروابط الإسلامية ووقوفه ضدالقوميات خلال تفاسيره : يقول في تفسير قولـه تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [١]:

الإسلام يجمع جميع العناصر من جميع الألوان واللغات والأنساب والأقاليم في ملة واحدة ، ويربط بين تلك العناصر ، وليس للعثمانين طريقة للسلامة فى الدنيا والآخرة إلا بالتمسك بهذه الرابطة تماماً ، أيها المسلمون : انتبهوا .. اتركوا الغيرة القومية إن مضيتم في إهمالكم الرابطة الدينية ستهلكون . ولن تستطيعوا بعد ذلك جمع الأمة في الدنيا مرة أخرى.

ويقول **عاكف** في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [٢]:

(إن التفرقة والانقسام للتعارف ، وليكون وسيلة لصلة الرحم . أما التفاخر بالآباء والأجداد فإنه مغاير لمقاصد الشريعة ؛ لأن جميع القبائل والأقوام تشعبوا من أب واحد ، وليس بينهم رجحان وتفاوت .. . ويميز بين الناس شيء واحد ، وهو التقوى ) .

ويقول **عاكف** : ( وا أسفاه فإن معظم الذين يظنون أنهم على الحق لم يعرفوا عن الحقائق شيئا، ويرى أعداؤنا أن حياتهم مرتبطة بموتنا ،لذا نشرت حكومتهم بيننا النفاق والفساد والقومية والجنسية ، وخلاصة القول : نشرت كل أسباب ضياع وحدة هذه الأمة وتمزقها . ونحن نسعى لنجاح دعوات أعدائنا وإنتاج بذور فسادهم ، أيها المسلمون اعلموا جيداً أنه لاقومية في الإسلام إن ظللتم على تمسككم بقومياتكم المختلفة ، وترك الأخوة الإسلامية فهذا هو

---

(١ ) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

(٢ ) سورة الحجرات : آية ١٣ .

الخسران المبين للجميع ـ نعوذ بالله ـ من يتمسك بقوميته لايكون مسلماً)

ويقول **محمد** حرب في كلمة ألقاها في ندوة الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بعنوان : " **تعريف بأدب الدعوة الإسلامية في تركيا منذ سقوط الخلافة** ": (وإذا أخذنا مجموعة الإسلاميين الوطنيين مدخلاً لدراسة أدب الدعوة الإسلامية في تركيا ، فواضح أنهم أنصار فكرة الوطن بمعناه الحديث ، وهي أرض عليها قوم يتحدثون لغة مشتركة ، ولهم دين مشترك هو الإسلام ، ويمثل هؤلاء شاعر الإسلام **محمد عاكف** ، حقيقة أن أشعار **عاكف** مليئة بالإيمان لكننا نجد فيها قصائد ليست كثيرة يمثل إلى جانب القومية الوطنية مزج **عاكف** الإسلام بالوطنية ، ولذلك يمكن اعتباره شاعراً إسلامياً وطنياً. ثم يضيف قائلاً : ( يعد **عاكف** على قول نجلابك أولجاي ـ شخصية رئيسية في الأدب التركي الإسلامي بمفهوم الإسلامية في عهده فإنه يأخذ منطلقه من القرآن الكريم ).

وقد اعترف **مصطفى كمال** قائلاً : إن **عاكف** كتب نشيداً بروح الدفاع عن الأمة الإسلامية [(١)] وهذا الاعتراف في موضع نقد **عاكف** ، وليس في الثناء عليه من قبل **مصطفى كمال** .

**ثانياً : موقفه من الإلحاد :**

صور **عاكف** في قصيدته بعنوان :"**مسجد الفاتح**" موقف المسجد تجاه الأفكار الإلحادية، لأنه بوضعه المادي والمعنوي يقف ضد الإلحاد يقول **عاكف** : وعندما كانت الأفكار الدنيئة تنشر الإلحاد في الأرض بقي هذا المعبد العظيم المقر بالتوحيد صامداً أمام هجمات الإلحاد وكان رائد الإلحاد الشاعر **توفيق فكرت** (١٨٦٧ـ ١٩١٥م ) ويعد ماكتبه ممثلاً لأدب التغريب حيناً والإلحاد أحياناً .

ورد **عاكف** على **توفيق فكرت** في قصيدة طويلة تتكون من تسعة وأربعين

---

(١ ) تاريخ الأدب التركي المصور والمنقوش : ٢/ ٦٢٨

بيتاً ، ثم كتب عن آرائهم في الشعائر الإسلامية ورد عليهم بالحجة والإقناع .

وهناك شخص آخر من الملحدين هو **محمد رؤوف** ، كتب رواية بعنوان "**حكاية زنبق واحد**" سنة ١٩١٠م وهي حكاية خليعة مليئة بالفساد والضلال ، وقد كتب **عاكف** قصيدة في الرد على هذا الكاتب المضل ، وكان رفضه شديداً تجاهه، وكشف عاكف عن مقاصده وأعماله، وبين أن هذا الملحد يريد الفحش وإفساد الأخلاق من خلال انتاجه .

ومن خلال ماتقدم نستطيع أن نقول أن موقف **عاكف** من الإلحاد وكذلك الشيوعية هو الرفض التام المطلق، وقد نشأ الفكر الشيوعي في أوروبا وطبق في روسيا كما انتقل إلى البلاد الإسلامية ومنها تركيا ، وهو دخيل وغريب على أهله ودياره بثه اليهود رغبة في القضاء على الدعوة الإسلامية ، ولعدم التعرض لليهود واليهودية .

وكان عاكف يرى خطورة الإلحاد والشيوعية ، وحذر المسلمين منها.

**ثالثاً : موقفه من التغريب وانتشار الفساد الخلقي :**

أ- **موقفه من التغريب** : لاشك أن حركة التغريب هي حركة متكاملة ، لها نظمها وأهدافها ، وقادتها الذين يقومون بالإشراف عليها ، وتستهدف تدمير فكرة الشخصية الإسلامية وتسميم ينابيع الثقافة فيها . والتغريب في عصر **عاكف** لم يكن هو التبعية العاطفية والفكرية ، وتبني أنماط السلوك الدخيله فحسب ، بل هو انسلاخ المستغربين من القيم التي كانوا ينتمون إليها احتقاراً لها والدعوة إلى تبني القيم الغربية إعجاباً بها ، وحاول المستغربون بث الأفكار الغربية والتمكين للحضارة الغربية في الدولة وبذلوا الجهد وحاولوا أن يصلوا في مجال محاربة الفكر الإسلامي وتحقيره إلى حد تجريده تجريداً كاملاً من كل الجوانب المشرقة فيه، وكان إعجابهم بالفكر الغربي وحماستهم له والدعوة المتفانية إليه قد بلغت أشدها . وكانوا يمثلون كياناً غريباً عن بني جلدتهم وعن الغرب، كذلك ولم

ينجحوا في إقناع الغرب أنهم منهم قلباً وقالباً .

وقد اتفق **عاكف** مع كثير من المفكرين الإسلاميين في رأيهم أنه لابأس من أن نستفيد من الغرب في تقدمه التكنولوجي في الأمور المادية من صناعة وإنشاء ...، ولكن لايجوز استيراد الفكر والثقافة الغربية ، لتعارضها مع تعاليم الإسلام، ولكن الواقع يشير إلى أن الفصل بين المنتجات المادية والقيم الحضارية الغربية ليس دائماً من السهولة بمكان ، وإن كان هذا الفصل مستحيلاً إذا وجد الوعي الإسلامي ، ووضح الفرق بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية كل بخصائصها ومقوماتها ، وفي رأي **عاكف** أن المنبع الذي يستقي منه المسلم أفكاره وتصوراته هو كتاب الله وسنة رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) . وان الأسوة الحسنة مقصورة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالتالي هذا المنبع وتلك الأسوة يجب ألا تشوبها شائبة وإلا كانت النتيجة صورة مشوهة ومنهجاً غير سليم . وهناك أسباب كثيرة أدت إلى الإعجاب بما يزعمه ويردده دعاة التغريب عن فضائل الحضارة الغربية ، بل دفعت كثيراً من المسلمين إلى تبني الأفكار الغربية ، كما أن هناك عوامل كثيرة جعلت التغريب ظاهرة مستمرة أيام **عاكف** ، ومن بين ذلك حملات التشكيك والشبهات التي ألصقها دعاة التغريب بالفكر الإسلامي .

يرى **عاكف** أن الأعداء يهدفون من وراء مخططاتهم إلى التغلغل الفكري ، وإلى إماتة الروح الجهادية ويضحكون على المسلمين .

وبين **عاكف** آراء وأفكار الأدباء المنحرفين قائلا : هل هؤلاء سيرشدون الشعب ؟ لا أبداً ؛ لأن بعضهم يرغب في نقل حسن الغرب .. والبعض الآخر يأخذ أدب إيران القديم ويشتغل بقدماء أدبائه، ثم يقول **عاكف** بعد التفصيل عن أعمال وأفكار المفكرين والأدباء: "لافائدة في سلوك الطريق التقليد في جميع المسائل ، خذوا علم الغرب وصناعته ، وأعطوا أقصى السرعة في نفس الوقت

لمساعيكم ، لأن الحياة لاتستمر بدونها ، وليس للعلوم والفنون قومية" .

ويقول **عاكف** في بيان أفكار المفكرين في عصره : اسمعوا ماذا يقول من يسمون أنفسهم بالمفكرين : لايمكن تطور بلاد الشرق في مجال الحضارة عموماً إلا بالسلوك في طريق واحد، ومن سلك طرقاً أخرى فهو غافل . لابد من السير على طريق أوروبا بلا انحراف إلى اليمين أو اليسار، ويجب أن تتبنى أذهان أولاد الشرق أفكار الغرب .. فيكون منبع الإحساس واحداً .

ثم يوضح **عاكف** رأي عموم الشعب في تقليد الغرب وعدم أخذ شيء منه ويقول : فلنبين رأي العوام من الناس : لاشك أن رأيهم عكس رأي المثقفين ـ المستغربين ـ تماماً .

ثم يوضح **عاكف** رأيه هو : إن المفكرين سلكوا طريقاً خاطئاً.ولم يلتفتوا إلى شيء آخر غير طريقهم . ثم استغربوا حينما لم يذهب الشعب وراءهم ، وفي الواقع أن الرأي العام هو أفكارعامة الناس ، وهكذا ابتعد كل طريق عن الآخر، ودخل بينهما النزاع ، واشتد المثقفون على الشعب ، وأظهر الشعب بغضه الشديد .

ثم بين **عاكف** أحوال الأدباء فقال : أما الأدباء فإنهم مخلوقات دنيئة هل هؤلاء سيرشدون الناس ؟ هيهات . بعضهم عميل باع نفسه بلا مقابل لنشر فحش الغرب في البلاد، والبعض الآخر يأخذ من إيران يشتري الأفكار القديمة ويبيع أشياء تافهة .

ويقول **عاكف** : لقد غش أبصارنا كابوس الغرب الدامي وحال دون النظر فمنذ قرون شل عقل المسلم وساعده [١] .

---

(١) ديوان الصفحات : ص ٢٣٢ - ٢٣٥.

**ب - موقف عاكف من أعمال حزب الاتحاد والترقي :**

بعد خلع السلطان **عبد الحميد** الذي كان ينادي " **بالجامعة الإسلامية** " ويدعو إليها، تولى أعضاء حزب الاتحاد والترقي السلطة في الدولة العثمانية وتبنوا العصبية القومية التركية ، ولم يكن للخلفاء الذين جاءوا بعد السلطان **عبد الحميد** إلا الاسم فقط ، كانوا سلاطين رمزيين ، واتجه زعماء هذا الحزب نحو الطورانية بإحياء وتاريخ الأتراك الوثنيين . وتمجيد الغزاة الوثنيين وفتوحات أسلافهم في جاهليتهم ، وتمادى الاتحاديون في خيالهم الذي كان يصور التئام الطورانيين من الترك العثمانيين والتركمان والتتر والمغول والفلنديين والمجر وأصبحوا يرون أن هذه الأجناس أقرب إليهم من العرب ومن سائر المسلمين الذين لاينتمون إلى العنصر الطوراني ، واستبعدت تلك الجماعة الوحدة الإسلامية وحاربت الجامعة الإسلامية .

والعلماء المشهورون في ذلك الوقت سجلوا أسماءهم في هذه الجمعية ، ولكنهم سرعان مارجعوا وكان من بينهم **عاكف** ، وخرجوا جميعاً وهم أبرياء ، ولأن **عاكف** كان يهدف إلى المشاركة في نشاط الجمعية التعليمي ، وبين **عاكف** موقفه من أعمال الاتحاديين في كتاباته ونقدهم نقداً شديداً بروح تتلاءم مع الإسلام وأفكاره العظيمة فرفض جميع أعمالهم من القتل والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق .

**ج - موقف عاكف من الحضارة الغربية :**

عند الغربيين حضارة متميزة بخصائص معينة ، ولكنها تتسم بالروح الصليبية تجاه المسلمين ولابد لنا أن نتخذ موقفاً محدداً . فماذا نأخذ منها ؟ وماذا ندع ؟ وإذا أخذنا منها شيئاً فما هو الطريق والشكل والأسلوب ؟

لقد حث **عاكف** المسلمين من خلال كتاباته ومواعظه على اقتباس علوم الغرب وفنونه، والمقصود من علوم الغرب ، العلوم التطبيقية، والمقصود من

فنونهم التقنية المتطورة عندهم . وكان **عاكف** يرى أن هذا الاقتباس ضروري ليقف المسلمون أمام الغرب وجهاً لوجه . وقد حذر **عاكف** صراحة من اتجاه المسلمين روحياً نحو الغرب يخشى أن يأخذ المسلمون بالمظهر الخارجي البراق للحضارة الأوربية ويعجزوا عن إدراك كنهها وحقيقتها. ووقعت حركة التغريب على الصورة التي كان يخشاها **عاكف** ، وهي الإنبهار بالمظهر الخارجي للحضارة الغربية الصليبية .

والظاهر من آثار **عاكف** أنه انتقد الحضارة الغربية من عدة وجوه ، وبين أنها غير كاملة وأن تقدمها في العلوم والصناعات لايدل على كمال حضارتهم . فإن تقدمهم في التقنية لايبرر أعمالهم السيئة المنافية للإنسانية، فينبغي علينا أن نأخذ علومهم لكن لانثق بهم، وقد اختار عاكف الجانب المفيد مثل : العلوم ، وترك الجانب المضر . لذا كان موقفه بارزاً سلباً وإيجاباً .

وهذه بعض الجوانب التي كان يعجب بها **عاكف** ويعتبرها جوانب إيجابية لدي الغربيين[1] . فمنها تقدمهم في العلوم والفنون والمعارف، ومنها نشاطهم المستمر وعملهم الدائم للحاضر وللمستقبل بلا يأ س ولاانقطاع آمال، ومنها تقديرهم قيمة الوقت . أما سلبيات الغرب في رأيه ، فهي كثيرة جداً منها : أن الغرب مستعمر ومحتل .

ومن أعمال الحضارة الغربية في العالم الإسلامي ، العنصرية والتفرقة ، ونتيجة نشاط الغربيين انتشرت القوميات .

وأدى **عاكف** خدمة كبيرة في بيان حقيقة الغرب ، والحضارة الغربية كماهي في الواقع وبين أنها حضارة استعمارية ، وأن الاستعمار من أبرز أعمال أصحاب تلك الحضارة، وهي حضارة متهاوية وأن كان لها دوي ضخم .

---

(١) انظر مقالات محمد عاكف : ٦ ، ٧ ، ٢٩ ، ٣٢ ، ٢٠٨، مواعظ محمد عـاكف : ٥٦ ومابعـدها . تفاسير محمد عاكف ١٤٦ .

وفي رأي **عاكف** أن القشرة الظاهرية المزيفة للحضارة الغربية لاتلبث أن تسقط أمام أي اختبار حقيقي ، وذكر بعض تجاربه ومشاهداته أيام إقامته في برلين، وبين أن غياب التربية الإسلامية والخلق الإسلامي والنظرة الإسلامية للعلاقات والأمور سبب مهم جداً من أسباب انتشار الحضارة الغربية بين أبناء المسلمين .

بعد ذلك يقر **عاكف** حقيقة واقعة وهي تخلف المسلمين عن غيرهم من الأمم ، ولكن ليس السبب في الإسلام، بل في الابتعاد عنه ، فلنعد إذاً إلى الإسلام في أول عهده بالذي أثره في نفوس المسلمين الأوائل ، وكيف أصبح المسلمون في ثلاثين عاماً يتمثلون حضارات يربوعمرها على ثلاثين ألف سنة ، وكيف هذب الإسلام النفوس فجعل من أبي بكر بحراً في المعرفة والفضيلة ، وجعل من عمر مثالاً للعدل لم يصل إليه أحد من بعده .. وكان **عاكف** يرى الغرب كأفعى تريد بكل إمكانياتها تسميم الشرق الإسلامي وقتله.

ويقول **عاكف** : إن الجسد في الحضارة الغربية انحل من كل القيود وهو الآن كالوحش الكاسر يدمر كل شيء وأن الروح هي القوة الوحيدة التي تحول بينه وبين تدمير الآخرين .

**رابعاً : دفاعه عن الإسلام وعقيدته ومعارضته البدع والخرافات :**

كان **عاكف** يتمسك بالكتاب والسنة في جميع أعماله يبذل جهده للفهم الصحيح للإسلام وللوصول إلى فكرة إسلامية شاملة . ويدعو إلى العمل وينادي بالجهاد . لذا يحتل مقام المفكر الإسلامي الرئد في هذا القرن في تركيا .

ويقول عنه **مدحت جمال** : كان **عاكف** يدافع عن العودة إلى صدر الإسلام إلى ماقبل أربعة عشر قرناً وكان يقول : " إن أراد المسلمون الخلاص من الضياع أمام سيول الأيام فينبغي عليهم الرجوع إلى صدر الإسلام من جديد ".

ويقول **عبد السلام فهمي** : يعالج **عاكف** في ديوانه مشاكل الشعوب

الإسلامية .. ، كما يظهر علمه الغزير في شتى الفنون وحرصه على الوحدة الإسلامية والدعوة إلى السلفية وتشجيعه الجيل الجديد على تعلم العلوم الغربية مع التمسك بأهداب الدين ، وعرف بشاعر الإسلام ، واستحق هو هذا الاسم لأنه دافع عن الإيمان والعقيدة الصحيحة . وأعطى كل مجهوده للدعوة إلى الله وإلى الجهاد في سبيل الله .

وكان **عاكف** يدعو لنبذ البدع ، والغلو المؤدي إلى الانحرافات في العقيدة والسلوك ، وكانت له مواقف صلبة مع أهل البدع والخرافات والانحرافات دعاهم إلى حقيقة الإسلام،ونصحهم وأرشدهم إلى الطريق الصحيح ، واستقام بعضهم ، وحاول إزالة الأوهام المنتشرة وأعمال المنحرفين في المجتمع .

ونذكر هنا بعض البدع التي حاربها . فعن البدع في المساجد يقول **عاكف** : أصبحت عبادتنا تقريباً تتخذ شكل البدع خذ مثلاً صلاة الجمعة في المساجد الكبيرة ، فإن الوقت الذي يضيع بدون سماع القرآن والصلاة هباء

هناك كلمات تقرأ من القصائد ، تبدأ بـ " طيب الله أنفاسهم " فيها شيء من اللغة العربية والفارسية يقرؤنها بأداء مخصوص وهي أبيات مختارة من الشعر .. ، يقرؤها خدام المساجد بصوت عال ! من أحدث هذا ؟

أخبروني بالله مافائدة هذه الأبيات ، غير الإزعاج وتنويم المصلين ؟.

ينبغي اعطاء وقت أطول للموعظة ، ولكن نحن مستغنون عن سماع الإسرائيليات[1]، أما الخرافات المنتشرة في عصره ، فقد ذكر **عاكف** عدداً منها بأسلوبه الخاص ، ووقف ضدها مستمداً من روح الإسلام وتعاليمه أسلوب العلاج الأمثل . ويصور لنا **عاكف** أعمال الذين ينتشرون الخرافات في المجتمع ، ويشير إلى أضرارهم لقوله : " رغم ماتأمر به الشريعة من ضرورة العمل فإنك لم

---

(١) محمد عاكف : لمدحت جمال :ص ١٨٨ .

تعمل ، بل قعدت عن العمل وأحدثت كثيراً من الخرافات وزعمت أنها من الدين ، وأضفت في نهاية الأمر على ذلك توكلاً مزعوماً، وهكذا جعلت هذا الدين شيئاً مضحكاً[١]، وهكذا يشير **عاكف** إلى ضرورة فهم التوكل فهماً صحيحاً مع العمل والسعي كما أمر الله تعالى وإلا فسنصبح بعيدين عن حقيقة الإسلام، ويقول **عاكف** : في مناسبة أخرى : انتشرت الخرافات والنفخة( النفث لغرض الشفاء ) وربط الحبل ( لتحقيق بعض الرغبات ) والذهاب إلى القبور بأمل الشفاء من الأمرا ض ، وكل ذلك بقية من بقايا البطالة الملوثة [٢]. وقد أكد **عاكف** أن الإسلام منع من التعلق بالأوهام والخيالات الكاذبة التي ليس لها في واقع الإسلام سند . كما عاب الإسلام على المقلدين تقليد الآباء وتمسكهم بما تناقلت الأجيال من الخرافات .

**ثالثاً : الشيخ مصطفى صبري ( شيخ الإسلام في الدولة العثمانية ) :**

**أولا : في مجال الحكم ( فصل الدين عن الدولة )** : لقد استأثرت هذه القضية ـ فصل الدين عن الدولة ـ البالغة الأهمية بعناية الشيخ واهتمامه ، فألف كتابه في الخلافة الإسلامية " **النكير على منكري النعمة** " الذي شدد فيه النكير على الكماليين لقيامهم بفصل الخلافة عن السلطة تمهيداً للقضاء على الخلافة ، كما خصص لهذه القضية الباب الرابع بأكمله من كتابه الكبير ( **موقف العقل** ) لعرضها وتحليل أبعادها ، وإيضاح مراميها ، ومناقشة المستغربين المروجين لها في عالمنا الإسلامي ودحض أقوالهم والرد على مفترياتهم .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ من تلك القضية سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين:

ـــ **أحدهما** : في عدم جواز فصل الدين عن السياسة.

---

(١) ديوان الصفحات :ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق :ص ١٦٨.

ـ والآخر : في الرد على كتاب " **الاسلام وأصول الحكم** " لعلي عبد الرازق.

( أ ) **عدم جواز فصل الدين عن السياسة** : لقد عارض **مصطفى صبري** مسألة فصل الدين عن الدولة[١] . ورفضها جملة وتفصيلاً ، وأكد مراراً على عدم جوازها ، وعلى أن الدين الإسلامي لايسوغها ، وعلى أن مصلحة الأمة تمنعها، وقد اتبع في سبيل إثبات ذلك مايلي :

١ـ حلل تلك المسألة تحليلاً دقيقاً بين فيه حقيقة ذلك الفصل والمراد منه ، وكشف عن أبعاده وعن مدى خطورته على دين الأمة حكومة وشعباً ـ فقال في نص جامع فيه خلاصة موقفه : " .... لكن حقيقة الأمر أن هذا الفصل مؤامرة بالدين للقضاء عليه ، وقد كان في كل بدعة أحدثها العصريون في البلاد الإسلامية كيد للدين ومحاولة للخروج عليه، لكن كيدهم في فصله عن السياسة أوهى وأشد من كل كيد في غيره ، فهو ثورة حكومية على دين الشعب وشق عصا الطاعة من الحكومة لأحكام الإسلام ، بل ارتداد عنه من الحكومة أولاً ، ومن الأمة إذا سكتت ثانياً ، وهو أقصر طريق إلى الكفر ، وقال :" .. فصل الدين عن السياسة هو خروج حكومة المسلمين من ربقة الإسلام ورقابته عليها وخروج الأئمة أيضاً من ربقته باختيارها الحكومة الخارجة عن الإسلام حكومة لها ولاسيما الحكومة المستندة إلى البرلمان المستند إلى الأمة ، فمثل الفصل في تلك الحكومات كمثل المناداة بالردة حكومة وأمة" . وقال : " .. إن القول بفصل الدين عن السياسة معناه إدعاء عدم لزوم الدين للحكومة بزعم أن في دين الأمة كفاية واستغناء عن ديانة الحكومة ، ومعنى عدم لزومه للحكومة ، أن لا يكون له، أي للدين سلطة عليها ورقابة على أعملها كما كانت للحكومة سلطة على الأمة ورقابة على أعمالها [٢] .

---

(١) وذلك من الناحية الفكرية النظرية و من الناحية التطبيقية العملية .

(٢) مصطفى صبري : موقف العقل من رب العالمين ج٤ / ٤ : ٢٩١

وقال : " .. إن فصل الدين عن الدولة إعلان حرب من الحكومة على الإسلام ، وان شئت التخفيف من شدة التعبير بإعلان الحرب فقل إعلان استقلال من الحكومة التي كانت تابعة في أحكامها لأحكام الإسلام ضد متبوعها وهولايقل في المعنى عن إعلان الحرب لتمردها على متبوعها وخروجها عن طاعته ".

وقال أيضا : " .. ليس معنى تجويز فصل الدين عن السياسة إلا تجويز تجرد الحكومة عن الدين، إلا أن الراغبين في تجريد الحكومة من الدين يسمونه فصل الدين عن السياسة تخفيفاً لخطره وسوء تأثيره في سمع الأمة المتدينة ، فهم يتوسلون إلى القضاء على دين الحكومة بأن يعبروا عن هذا القضاء بالفصل بين الدين والسياسة ، ثم يتوسلون بالقضاء على دين الحكومة إلى القضاء على دين الأمة [(١)] .

ويستخلص الشيخ من التاريخ الإسلامي الدليل القاطع على صحة ماذهب إليه من أن فصل الدين عن السياسة هو في حقيقته تجريد الحكومة من الدين ؛ لتعمل بعقلها القصير متحللة من أوامره وأحكامه ، وهو : أن الحكومات الإسلامية كانت منذ عصر الصحابة رضي الله عنهم إلى عهد قريب مما نحن فيه اليوم من السنوات النحسات يحكمن على الأمة ويحكم عليهن الإسلام من فوقهن ، فإن فعلن في خلال هذه الخطة المرسومة مايخالف حكماً من أحكام الدين فإنما كان ذلك يعد ذنباً على الحكومة الفاعلة كما لو اقترف أحد من المسلمين إثماً متبعاً هوى نفسه خافق القلب من مخافة الله ومخافة الناس، وأنه لم يحدث قط في تاريخ المسلمين ، ولم يطف ببال أي حكومة من حكوماتهم ـ مهما كانت فاسقة مستهترة في أفعالها المجاهرة ـ بالخروج عن رقابة الإسلام ومحاولة فصل الدين عن السياسة ، أي عزلة عن حكمه على الحكومة ووضع

---

(١) المرجع السابق : ج٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣

هذه المسألة موضع البحث في شكل مشروع جديد ومذهب اجتماعي جديد ومحاولة تقليد الحكومات الأجنبية عن الإسلام في ذلك [١].

٢ـ بين أن اقتصار الدول الإسلامية على التمسك بالدين في مظاهر الأعياد والمناسبات الرسمية تقليداً للدول الغربية في ذلك لايجدي نفعاً ولايكفي في اعتبارها دولاً إسلامية، وفصل القول في حكم خروج الحكومة على الدين ، فقال : " إن كون الدولة تقصد في ديانتها سوى مظاهر الأعياد والمراسم ليس من الديانة الحقيقية في شيء، وإنما هو نفاق ، أي ديانة في الظاهر وكفر بالدين في الباطن ، وإن كنا جادين في ديننا معترفين بأننا تحت حكم الله وتكاليفه الواصلة إلينا بواسطة رسوله فلا فرق بيننا في هذا الموقف منفردين أو مجتمعين، فكما لايجوز أن ينفصل الفرد المؤمن بالله ورسوله عن دينه فيكون في أفعاله محرراً عن القيود الدينية [٢] لايجوز لدولة تعتبر دولة المسلمين فصل الدين عن نفسها لتكون الهيئة الحاكمة فيها لنقل ماتشاء غير مقيدة بأمر الدين ونهيه .

فإذا خرجت حكومة أمة مسلمة عن حدود دين الامة من غير إدعاء لنفسها حق الانفصال عن الدين كانت حكومة فاسقة كأحد المذنبين من أفراد الأمة ولم تكن حكومة مرتدة عن الإسلام ، لأنها فصلت الدين عن الدولة عملياً لاعلمياً واعتقادياً فينطبق عليها قول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٣].

أما إذا خرجت عن حدود الدين مدعية كون الخضوع لأمر الله ونهيه واجباً على الأمة دون الحكومة، فهذا فصل الدين عن الدولة مبدئياً أي عملياً واعتقادياً .

---

(١) انظر المرجع السابق : ج٤ / ص ٢٩٢.

(٢) مراد الشيخ هنا من القيود الدينية الحدود والضوابط الشرعية .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٧.

وهذا ارتداد الدولة عن الإسلام وارتداد الأمة معها إذا رضيت هذه الحالة لحكومتها أو كانت في حكم الراضية بأن تكون الحكومة حكومة برلمانية تحكم بالنيابة عن الأمة ، فينطبق عليها حينئذ قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ (١).

٣ـ ربط بين الدين والدولة ربطاً محكماً إلى حد أنه رأى أنه لااعتداد بأية دولة أو حكومة تدعي الإسلام مالم تقم على الدين وتلتزم بأحكامه ، وذلك باعتبار أن الإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة شامل لجميع شؤون الإنسان ومحققاً للبشرية ماتصبو إليه من حياة آمنة كريمة، وحافظاً لها من طروء الظلم والفوضى والفساد .

ولهذا الربط مظاهر في كتابات الشيخ ، فإضافة إلى ماتقدم في بيان حقيقة الفصل بين الدين والسياسة هناك مظاهر عديدة منها على سبيل المثال :

أ ـ أنه حث العلماء المسلمين على الاشتغال بالسياسة، ونادى بضرورة مشاركتهم في الأحزاب والبرلمانات السياسية وفي تسيير دفة الحكم ، وعلى أن تكون السياسة آلة طيعة للدين مستخدمة في تعزيزه وتنفيذه .

ب ـ أنه جعل تمسك الأمة الإسلامية بالدين مترتباً على خضوع حكومتها للإسلام ولأحكامه حيث قال : لما كان التمسك بالدين لازماً للأمة الإسلامية وشرطاً حيوياً لكيانها فإنه لابد أن تكون حكومته متدينة ، أي خاضعة للدين ، حتى يتسنى تدين الأمة ، ويسلم لها البقاء على دينها (٢).

جـ ـ أنه اشترط لصحة إسلام الدولة أن تكون حكومتها منقادة لأحكام الدين مثلما أن شعبها منقاد لها أيضاً ، ولذا نجده يقرر أن ديانة الدولة تتصور لها جهتان وحيثيتان:

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤٤.

(٢) انظر موقف العقل : ج٤ / ص ٢٩٠ ، ٢٩١.

الأولى : كون أفراد شعبها منتسبين إلى الدين مقيدين به باختيارهم التام غير مخاطبين في ذلك بأمر أحد أو نهيه يبلغ درجة السلطة .

الثانية : كون حكومتها مقيدة بأحكام الشرع منقادة لأمر الله ورسوله كما يقيد أفراد الشعب[1] .

د ـ أنه عزا تشتت شمل المسلمين في الأعصر الأخيرة وهبوطهم إلى حضيض الذل والمسكنة إلى ضعف اعتصامهم بدينهم القويم ، ورد منشأ الفوضى الاجتماعية والسياسية إلى الوهن في العقيدة .

هـ ـ أنه ذهب في تعريف الخلافة الإسلامية إلى أنها عبارة عن كون حكومة ما نائبة مناب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام بأحكام الشرع الإسلامي.

و ـ أنه اعتبر إلغاء المحاكم الشرعية في البلاد الإسلامية ، أوتقسيمها إلى محاكم شرعية ومحاكم مدنية ، اعتبر هذا الاجراء من مستتبعات فصل الدين عن السياسة .

٤ـ أنكر على محدثي مسألة الفصل بين الدين والدولة في المجتمع الإسلامي استخفافهم بما فيها من خطر عظيم على الإسلام وتفسيرها وتصويرها في أعين الناس على أنها عبارة عن مراعاة الدين والسياسة مستقلاً أحدهما عن الآخر من غير إخلال أو إضرار بأي منها.

وفند هذا التفسير مستنداً إلى بيان مايتضمنه ذلك الفصل من مفاسد ومايترتب عليه من محاذير ، وكان أهمها مايلي :

أ ـ إن فصل الدين عن الدولة أشد ضرراً بالإسلام من غيره من الأديان ، وذلك :

---

(١) راجع مصطفى صبري : النكير على منكري النعمه ، ص ١٣٥ - ١٣٦.

١ـ لكونه لاينحصر في العبادات ، بل يعم نظره المعاملات والعقوبات ، وكل مايدخل في اختصاص المحاكم والوزارت ، ومجالس النواب والشيوخ . فهو عبادة وشريعة وتنفيذ ودفاع .

٢ـ ولكونه دين ودولة وجنسية لمعتنقيه يحيط بهم من كل جانب ويزيل جميع الفوارق فيما بينهم ويذيب كل جنسية وقومية في جنسيته ، ففيه الوحدة الاجتماعية التي تبحث عنها كل أمة لتوحيد الأقوام المختلفة ولاتجدها .

٣ـ ولكونه ينطوي على كل ماتحتاج إليه الدولة والأمة من القوانين ، فهو مستغن بنفسه عن غيره لايدانيه في هذه الخصلة أي ملة ، فجميع قوانينه مستنبطة من الكتاب والسنة .

ب ـ إن فصل الدين وإقصاءه عن السياسة يؤدي إلى ضياع الأخلاق وفساد القيم ، حيث لايمكن إدعاء وجود واسطة لصيانة الأخلاق من السقوط أفضل من الدين .

جـ ـ إن السياسة التي تتولاها الحكومة المتخلية عن الدين لابد أن تضع الدين تحت أمر الحكومة ونهيها مع كل ما يدخل تحت سيطرتها ، ومجرد هذا الوضع ينافي عزة الإسلام الذى يعلو ولا يعلى عليه في كل المجالات ، حتى ولو احترمت الحكومة دين الأمة ولم تمسه بشيء من الاضطهاد مع كونها قادرة عليه، من حيث أن سياسة البلاد بيدها لا بيد الدين .

د ـ إن فصل الدين عن السياسة أشد ضرراً وأكثر مفعولاً من فصل الدين عن الامة بسبب واضح لايحتاج إلى كثير تمعن وتفكر وهو " أن الحكومة تستطيع التأثير في الأمة ولاتستطيع الأمة التأثير في الحكومة مادامت خاضعة لحكمها " .

هـ ـ وعلى فرض أن الحكومة المتحللة من قوانين الإسلام لم تكره الأمة ولم تحثها على هجرة الدين وإهماله ، بل ألقت حبلها على غاربها في مراعاة الأحكام الشرعية ، فإن هذا يتيح للفسقة هتّاك الآداب والمحرمات والفرصة

للجري في طرق الشهوات .

و- إن فصل الدين عن السياسة يستلزم إلغاء المادة التي تنص في دستور الدولة على أن دينها الإسلام ، ذلك أنه لايكون دين الدولة أو الحكومة الإسلام بمجرد أن يقال إن دينها كذلك.

ز- إنه لاينحصر كفر الحكومة - عند نبذها الدين - في نفسها ، بل يتعدى إلى الشعب كذلك، ذلك أن الحكومة ليست إلا ممثلة للشعب أو وكيلته التي لاتفعل غير مايرضاه ،فإذا أخرجتها أفعالها عن الدين فلا مندوحة من أن يخرج موكلها أيضاً ، لأن الرضا بالكفر كفر [1].

وقد استشهد **مصطفى صبري** على ماذكره من المفاسد والمضار بحال تركيا الحديثة الكمالية ونبه على أن الضعف والانحطاط الذي حلَّ بالعالم الإسلامي في هذا العصر أدعى إلى أن ترتبط الحكومات الإسلامية بالإسلام وتتشبث به لاأن تنخلع عنه وتخرج من ربقته.

ونظراً لوجود هذه المفاسد التي يتضمنها فصل الدين عن الدولة والمحاذير المترتبة عليه نجد أن الشيخ يقرر بأن الترويج لهذا الفصل سواء كان من قبل رجال الحكومة أو من قبل الكتاب المفكرين في مصلحة الدولة والأمة لايتفق مع الإيمان بأن الدين منزل من عند الله وأن أحكامه المذكورة في الكتاب والسنة أحكام الله المبلغة بواسطة رسوله .

ولأجل هذا الموقف القوي الصلب الذي اتخذه الشيخ من قضية فصل الدين عن الدولة نجده لايرى أي فرق بين أن يتولى الأمر في البلاد الإسلامية حكومة مرتدة عن الإسلام وبين أن تحتلها حكومة أجنبية عنه على اعتبار أن مدار الفرق بين دار الإسلام - في نظره - وبين دار الحرب على القانون الجارية

(١) بالطبع الشيخ هنا يقرر ما ذكره في معرض الرد وبيان فداحة المشكلة التي تترتب على فصل الدين عن الدولة ، أي لازم المذهب وليس هو مذهباً كما هو معلوم ، وانظر: موقف مصطفى صبري من الفكر الوافد لمفرحخ القوسي [رسالة ماجستير].

أحكامه في تلك الديار ، بل إنه يرى أن الحكومة المرتدة أبعد عن الإسلام من غيرها وأشد سوءاً وتأثيرها الضار في دين الأمة أكثر، من حيث إن الحكومة الأجنبية لاتتدخل في شؤون الشعب الدينية وتترك لهم جماعة فيما بينهم تتولى الفصل في تلك الشؤون [1] .

**ب ـ الرد على كتاب " الإسلام وأصول الحكم " لعلي عبد الرازق :**

بهذه العقيدة القوية ـ التي عرضناها آنفا ـ وبهذا الفهم العميق والدقيق لخطر ضلالة فصل الدين عن الدولة وقف **مصطفى صبري** يغالب المبهورين بحضارة الغرب ، ويتصدى لهم ويرد على أقوالهم وأفكارهم ، وكان على رأس هؤلاء وفي مقدمتهم الأستاذ **علي عبد** الرازق حيث فند مدعياته التي ضمنها كتابه **" الاسلام وأصول الحكم "** .

ونحن نبين ـ فيما يلي ـ المنهج الذي اتبعه الشيخ بوجه عام في الرد على كتاب **علي عبد** الرازق نقول : لقد اقتصر **مصطفى صبري** في الرد على مضمون ذلك الكتاب على تفنيد ثلاث دعاوى رئيسية هي :

١ـ أنه لم تكن لرسول الله ﷺ حكومة ، بل كانت له نبوة وهي لاتقبل الخلافة .

٢ـ أنه كانت لأبي بكر حكومة ، لكنها حكومة لا دينية.أي حكومة زمنية لاصلة لها بالدين.

٣ـ أنه ليس للإسلام خلافة ولاإمامة ، وأن نظام الخلافة الذي تعارف عليه المسلمون نظام عقيم عديم الجدوى ، وأنه لاضرر على الإسلام من إلغائه .

أما الدعوى الأولى : قال **مصطفى صبري** : لقد تأول الأستاذ **علي عبد**

---

(١) لأيسلَّم هذا للشيخ على إطلاقه ، ذلك أن الكثير من الدول الاستعمارية الغربية تتدخل في شؤون المسلمين الدينية .

الرازق مسألة جهاد النبي صلى الله عليه وسلم ـ ولكنه لم يخرج منه بنتيجة تنفع أساس ما ادعاه ، فهو ينكر حكومة النبي ، ولاينكر محارباته ، ويدعي أنه لايحارب للدين ، ويتأول آيات الجهاد ،فيحصي الآيات الناطقة بأنه لا إكراه في الدين، ولكنه لم يفكر كيف تتفق محارباته ( صلى الله عليه وسلم ) مع هذه الآيات ، فإن لم تكن محارباته لأجل الدين ، فلا بد أن تكون من أجل تأييد الملك والحكومة ، ومما يفسر لنا موقف **علي عبد الرازق** المشوب بالتهيب والتزلف للغربيين والهرب من تصوير الواقع في مسألة جهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو قوة الغرب المتغلب على الشرقيين وانتقادهم الجهاد الإسلامي .

أما الدعوى الثانية : فقد أنكر فيها **علي عبد الرازق** أن تكون حكومة أبي بكر رضي الله عنه حكومة لادينيه، ويريد بذلك نزع الدين من حكومة أبي بكر لينزع منها الخلافة ، وما ذلك إلا لتبرير حكومة **مصطفى كمال** اللادينية وذلك بتنزيل حكومة أبي بكر إلى درجة حكومته واعتبارها حكومة لا دينية مثل حكومته ، ويعلق الشيخ على ذلك بقوله : " غاية في الغرابة والشذوذ إدعاء أن يكون رئيس حكومة كهذا رئيس حكومة لادينية ، فهل رأيتم أو سمعتم حكومة زمنية لاعلاقة لها بالدين تدور رئاستها مع الإمامة في الصلاة ؟! "[١].

فالمتتبع لحكمها والتزامها يرى أن قوام حكومتهما ( **أبي بكر وعمر** ) وسر أفضليتهما وكمالهما عائد إلى كونهما ملتزين بالدين الإسلامي ، فقطع صلتهما الظاهرة به سيؤدي حتماً إلى زوالهما وتلاشيهما، وهذا يكشف لنا عن الهدف الذي يسعى إليه **علي عبد الرازق** من هذه الدعوى التي نحن بصددها وهو : إنكار فضل الدين الإسلامي في ظل هذين الصحابيين الذي شهد العالم بكونهما مثال الحكم السامي الإنساني[٢] .

---

(١) موقف العقل : ج٤ ص / ٣٧٤.

(٢) راجع المرجع السابق .

**أما الدعوى الثالثة** : فقد ادعى فيها أن الخلافة نظام للحكم تعارف عليه المسلمون وليس له أصل من الشرع [١]، وأنه عديم الجدوى ولاضرر على الدين من إلغائه ومن فصل الدين عن الدولة:

وقد اتبع **مصطفى صبري** في الرد على هذه الدعوى مايلي :

١ـ حدد مفهوم الخلافة المقصود إلغاؤها من قبل الكماليين في تركيا والمؤيدين لهم خارجها، حيث ميز بين الخلافة الحقيقية والخلافة العرفية ، ويرى أن الخلافة الحقيقية المقصودة من ذلك الإلغاء والتحبيذ هي الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تنفيذ ما أتى به من شرعة الإسلام، فالخلافة واستحقاق صاحب الحكم فيها بلقب "الخليفة" على قدر اتباعه للإسلام .

٢ـ فند زعمه القائل بأنه لاضرر على الدين من فصله عن الدولة ، حيث أثبت أن هناك أضراراً بالغة من جراء ذلك الفصل ؛ أقلها وقوع الدين المفصول عن الدولة في موقف العاجز المهان ، ويتساءل الشيخ هل **علي عبد الرازق** لم يفهم إلى الآن ماحدث بتركيا بعد إلغاء الخلافة وفصل الدين عن الحكومة من ابتعاد المجتمع عن الإسلام تبعاً لابتعاد الحكومة أو فهمه ولكنه تجاهله ، واستمر في اكبار محدث هذا الانقلاب في تلك البلاد ، وعده نهوضاً حقيقياً لها وتمنى مثله لمصر ، ولو كان هذا التمني مختفياً في قلبه لم يعلنه بعد ؟ [٢] .

**ثانياً : في مجال التشريع** : مما لاشك فيه أن دخول القوانين الوضعية الغربية إلى البلاد الإسلامية من مقتضيات فصل الدين عن الدولة وإقصائه عن شؤون السياسة والحكم والحياة في تلك البلاد .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ من هذه المسألة التي نحن بصددها سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين :

---

(١) راجع : الإسلام وأصول الحكم في الصفحات : ١٦ / ٣٨ ، ١٠٣.

(٢) راجع المرجع السابق : ج٤ ص ٣٦٢.

أحدهما : في أدلة عدم جواز العمل بالقوانين الوضعية .

والآخر : في تفنيد الشبهات المثارة حول الشريعة الإسلامية وتطبيقها .

أـ أدلة اثبات عدم جواز العمل بالقوانين الوضعية :

بين **مصطفى صبري** أن تلك القوانين تشتمل على نقائص كثيرة توصم بها وتثبت عدم صلاحيتها وكفايتها في مجال التشريع ، واستند في ذلك إلى بيان الفرق بين أن يكون القانون موضوعاً من تلقاء البشر ، وبين أن يكون مأخوذاً من الوحي الإلهي ، حيث ذكر ثلاثة فروق مهمة في هذا الجانب ، هي(١) :

الأول : أن كون القانون مستنداً إلى الوحي الإلهي يجعله محترماً مقدساً في نظر المكلفين بمراعاته والوقوف عند حدوده ، على العكس من ذلك لو كانت تلك القوانين من صنع إنسان ، حتى لو كانت عادلة سيكون ثقيلاً على النفوس العزيزة ، وحكم الإنسان على الإنسان نوع من الاسترقاق والاستعباد .

الثاني : لا كلام في احتياج كل مجتمع بشري يريد أن يعيش عيشة مدنية إلى حكومة وقوانين يطيعها الناس وتصونهم عن الفوضى وتوقف كل أحد عند حده ، والحاصل أن الإنسان إن كان في حاجة إلى القوانين فلماذا لايكون هناك قوانين يجب على واضعي القوانين أن يتبعها عند وضعها ؟ أليس واضعوا القوانين للناس من الناس ؟ وهل الإنسان يخضع للقانون أم القانون يخضع للإنسان ؟ إن الاجابة عن هذه التساؤلات تنبه على أن أفضل القوانين الأساسية ما لا يكون وضعه ولا تعديله في متناول أيدي البشر بأن يكون سماوياً .

**الثالث : يعتمد على ثلاث مقدمات هي :**

أ ـ لاشك أن أفضل الجنسيات ما كان سبباً لتأسيس الوجدان المشترك بين

---

(١) راجع في هذا كلا من : موقف العقل ج٤ في الصفحات ٣٢٥- ٣٣٥ ، والنكير على منكري النعمة : ص ١٣٧ - ١٤٢ .

أفراد الجنس البشري ، إذ بهذا الاشتراك فقط يحصل بينهم الاتحاد الحقيقي الذي هو الاتحاد الفكري . والحصول على توحيد القلوب بالقوانين الموضوعة غير مضمون كالحصول عليه من القوانين المأخوذة من الوحي الإلهي .

ب ـ ولاخلاف بين العقلاء في أن أفضل حكم في البلاد وأعدله ما يكون حاكمه القانون لا الفرد، كما في الحكومات المطلقة، ولاطائفة من الأفراد كما في الحكومات الدستورية ، فيظهر من هذا أن الحكم الجمهوري والديمقراطي الذي يعتبر أكفل أشكال الحكم لإرضاء الشعوب لايكفل توحيد أكثر القلوب فضلاً عن جميعها ، ولايخلو من محاباة بعض وضرار بعض [١] .

جـ ـ وأخيراً لاشك في أن من الشروط الأساسية لسعادة الأمم بعد أن تكون قوانين حكومتها قوانين عادلة تراعي حقوق جميع الأفراد والطبقات أن تراعي العدالة في تطبق تلك القوانين مهما روعيت في وضعها ، لكن الحكومة العاملة بالقوانين الشرعية الإلهية التي ترى نفسها تحت مراقبة وازع من مخالفة الله هي التي تراعي العدالة في تطبيق القوانين أيضاً لا الحكومة التي لاتؤمن بالله ولابقوانينه .

والجدير بالذكر أن هذه الفروق الثلاثة تمثل امتياز القانون الإلهي على القانون البشري، والوجه الثاني منها خاص بالقوانين الأساسية ، أما الوجه الأول والثالث فهما عامان لجميع القوانين، والمفهوم من هذا أن وجوب كون القانون مستنداً إلى الوحي الإلهى أشد وآكد في القوانين الأساسية .

٢ـ بين أن الحكومة المستندة إلى القوانين الوضعية ليست حكومة قانونية مدنية حتى وإن ادعت لنفسها ذلك .

---

(١) ويرى مصطفى صبري أن سبب أخذ الغربيين لذلك النوع من الحكم هو عدم وجود القانون الألهي عندهم بسبب عدم وجود علم الفقه المستنبط من الكتاب والسنة بل بسبب بعدهم عن الإسلام .

٣ـ بين كذلك أهم الموانع التي ينبغى أن تحول بين المسلمين وبين الأخذ بالقوانين الوضوعية في البلاد الإسلامية ، فإضافة إلى ماسبق من وجود النقائص الكثيرة في تلك القوانين ، فإن الإسلام كما يقول الشيخ ـ له تشريع مستقل مبني على نصوص الكتاب والسنة أو استنباط أئمة الفقه المجتهدين منها .

**ب ــ تفنيد الشبهات المثارة حول الشريعة الإسلامية وتطبيقها** : أثار أعداء الإسلام والمستغربون في سبيل ترويج أفكارهم ونفث سمومهم شبهات كثيرة حول الشرعية الإسلامية وحول صلاحية تطبيقها في البلاد الإسلامية ، كان أهمها مايلي:

١ـ أن الفقه الإسلامي مستمد من القانون الروماني .

٢ـ أن هناك تحيزاً في تتطبيق الشريعة الإسلامية لكونها توجد امتيازاً لرجال الدين .

٣ـ أن تطبيق الشريعة في البلاد الإسلامية يؤدي إلى الإجحاف بحقوق الأقليات غير الإسلامية .

٤ـ أن الشريعة الإسلامية جامدة غير قابلة للتجديد والتطوير الذي يلائم حاجات العصر وتتطلبات مصلحة الأمة .

**أما الشبهة الأولى** : فالشيخ يرى أن هذه الشبهة فرية باطلة وذلك لوجود مانع قطعي يمنع احتمالها ، وهو كون الفقه الإسلامي مستنداً إلى الكتاب والسنة وأنه ليس هناك أي حكم شرعي إلا وله مأخذ من هذين الأصلين ، واستدل على ذلك بشهادة ثلاثة شهود أخصائيين ، مسيحيين ومسلم ، وهم جميعاً يؤكدون على بطلان تلك الشبهة، أحدهم **صاوا باشا** الرومي من علماء الحقوق ومن رجال الدولة العثمانية، والثاني هو الدكتور **علي الزينى بك المصري** ، وهو مختص بالدراسات القانونية ، وعمل مدرساً بالجامعة المصرية ، أما الثالث فهو الأستاذ **صليب سامي باشا** المسيحي الذي نشر مقاله في جريدة ( الأهرام ) بعنوان

"الشريعة الإسلامية والقانون الدولي الخاص" .

**أما الشبهة الثانية** : فقد رد عليها بأنها دعوى باطلة وخاطئة، وأن منشأ الخطأ فيها هو قياس علماء الدين في الإسلام ـ من قبل الذين لم يعرفوا الإسلام، ولم يدرسوه ـ على رجال الكنائس الذين كانوا يحكمون البلاد في الغرب ويضعون القوانين الدينية من عند أنفسهم .

ويرى الشيخ أن ذلك القياس قياس باطل ، لأن علماء الإسلام المجتهدين ـ فضلاً عمن دونهم ـ لايرون لأنفسهم حق التشريع أبداً . وإنما التشريع في الإسلام لله تعالى ولرسوله بوحي منه سبحانه .

فالحاكم في الدولة الإسلامية هو القانون الإلهي بتمام معنى الكلمة ، والكل حتى السلطان أو الخليفة تحت حكمه وسلطته . إذن فليس هناك امتياز لعلماء الإسلام ، فإن كان هناك امتياز فهو امتياز العلم لا امتياز الحكم .

**أما الشبهة الثالثة** : فقد رد عليها بقوله : إن توهم كون غير المسلمين المتوطنين في بلاد الإسلام لايأمنون جور القوانين الشرعية مردود بكون المسلمين الذين يمثلون الأكثرية في تلك البلاد يستطيعون التغلب على غيرهم في البرلمان في ظل القوانين الوضعية متى أرادوا ذلك ـ منصفين كانوا أو جائرين ـ ولايستطيعون الجور إذا عملوا في ظل القوانين الشرعية لكونها تمنعهم من التعدي على حقوق الآخرين حتى ولو كانوا غير مسملين[١] .

**أما الشبهة الرابعة** : فقد رد عليها بأن قابلية القانون للتطوير والتغيير تؤدي حتماً إلى التلاعب به ، ومن هنا كان القانون البشري قانوناً غير حقيقي ، ذلك أنه إذا كان الإنسان هو واضع القوانين وكان حراً في إصدار وإنشاء قانون وإلغاء ما يشاء منه في اليوم التالي فإن تلك القوانين ـ التي يفترض فيها أن تضبط

(١) انظر المرجع السابق : ج٤ / ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

الحريات - لن تضبط حرية الواضعين . بل إن الإكثار من تطوير القوانين وتغييرها يجعل واضعيها من الحكومة والأمة كأنهم لا قانون بالنسبة إليهم ولاسيما إذا تخطوا في الوضع والتطوير حدود العقل والعدل، أما تعييب القوانين الشرعية بالجمود فقد رد عليه : بأن جمودها الأبي عن أن تتلاعب به الأهواء هو من أول فضائلها، وذلك أن الجمود من الأوصاف الأساسية اللازمة للقانون .

وفي نهاية المطاف يحذر الشيخ مصطفى صبري المسلمين جميعاً من التهاون في استبدال القانون الغربي الوضعي بالقانون الإسلامي الشرعي منبهاً على عظم خطر ذلك الاستبدال، فيقول بعد الحديث عن وقوع التشابه بين القانونين في بعض الجوانب : «نحن نحذر من أن يجعل هذا التقارب بين الشريعة الإسلامية وبين قوانين أوروبا الحديثة من الأسباب المخففة لجريمة استبدال القانون الأوروبي في بعض بلاد المسلمين بالشريعة الإسلامية ».

**ثالثاً : موقفه من الدعوة إلى تحرير المرأة وسفورها :**

نتج عن تلقي الأفكار والمفاهيم الغربية الدخيلة آثار اجتماعية عديدة وخطيرة ،فقد تعالت الأصوات التي تنادي بتحرير المرأة وسفورها ومساواتها بالرجل ، وغزت الأمة الإسلامية كثير من العادات والتقاليد وأنماط السلوك الغربية .

ومما لاشك فيه أن المرأة المسلمة هي الركيزة الأولى في إعداد الأمة وتربية الأجيال وصنع الرجال وأنها الركن الأساسي أو حجر الزاوية في بناء الأسرة التي يتكون منها المجتمع الإسلامي ، ولقد أدرك أعداء الإسلام ذلك الأمر جيداً، ولذلك عملوا على إفساد المرأة المسلمة، مما يترتب عليه فساد البيت المسلم، فوجهوا كل اهتمامهم ووجهوا مخططاتهم الماكرة ومؤامراتهم الخبيثة لإفسادها وإخراجها من بيتها ، ولقد كان أخطر هؤلاء المستغربين أدعياء التقدم وأنصار الإختلاط والسفور الأستاذ قاسم أمين فتنة الأجيال وداعية السفور في عهد

الإحتلال ، الذي تزعم حركة " تحرير المرأة " وألف فيها كتابين : أحدها سنة ١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م وهو المسمى " تحرير المرأة " والثاني سنة ١٣١٨هـ ـ ١٩٠٠م وهو المسمى " المرأة الجديدة " ، وأظهر في كتبه أن الحجاب عادة اجتماعية ، وأنه ليس في الشرعية الإسلامية مايوجب الحجاب ، واعتمد على بعض المغالطات في سبيل إشاعة السفور، إلى غير ذلك من المغالطات ...

هذا وقد ناصر **قاسم** وأيده بعض العلماء والزعماء والأدباء وأشهرهم الشيخ **محمد عبده ومعروف** الرصافي . وتبعهم كتَّاب ومؤلفون منهم على سبيل المثال لاالحصر: **أحمد الصاوي** الذي نشر في جريدة الأهرام سلسلة مقالات تحت عنوان ( **ماقل ودل** ) شن فيها حرباً شعواء على الحجاب ، وأثار حوله بعض الشبه .

وقدمت الصحافة في أكثر البلاد الإسلامية لحركة تحرير المرأة خدمات جليلة ، فقد أسهمت الصحف والمجلات النسائية وغير النسائية بنصيبها في تلك الحركة ، كما كانت تعمل على تزيين الفواحش والموبقات باسم الحب والفن ، وذلك بنشر القصص والحكايات الغرامية ، وأعدت للمرأة كافة وسائل الزينة والفتنة والإغراء ، وافتتحت دور الأزياء التي تعرض فيها الأزياء العارية المستوردة من بيوت الأزياء اليهودية في الغرب . وقد أخذت هذه الدعوات والصيحات والهتافات تتقاذف العالم الإسلامي من كل جانب حتى آل به الأمر إلى الواقع المؤلم الذي هو عليه الآن .

لم يقتصر اهتمام الشيخ على آثار الفكر الوافد السياسية فقط ، بل اهتم أيضاً بآثار ذلك الفكر الاجتماعية ، فقد كانت مسالة المرأة وحجابها من جملة القضايا التي استأثرت بمتابعته واهتمامه ، ولذلك ألف فيها كتاباً مستقلاً هو كتاب " **قولي في المرأة ومقارنته بأقوال مقلدة الغرب** " كما خصص لها مواضع متعدد ومتفرقة من كتابه الكبير " **موقف العقل** " وقد عمل في كتاباته هذه ـ عموماً ـ على

معالجة تلك القضية وتحليل أبعادها ، وركز على إظهار وجه الحق فيها وبيان موقف الإسلام منها ،وكذلك دور المرأة المسلمة إلى الحرية الحقيقية المتمثلة في العبودية الكاملة لله رب العالمين، كما ركز على فضح خطط المتآمرين على المرأة المسلمة والكشف عن أهدافهم وتحطيم المكامن التي يستترون خلفها .

ولكي نحيط بالموقف الذي اتخذه الشيخ في تلك القضية سوف نقسم الكلام فيه إلى قسمين :

**أحدهما** : في إثبات فساد حركة تحرير المرأة وبطلانها .

**والآخر**: في الرد على دعاة التحرر والسفور ونقض دعاويهم وشبهاتهم .

**مما قال في إثبات فساد حركة تحرير المرأة وبطلانها :**

لقد عارض **مصطفى صبري** حركة تحرير المرأة ورفض ـ بشكل قاطع ـ أفكارها التي تقوم عليها وهي التجرد من الحجاب والدعوة إلى الإختلاط ومساواة النساء بالرجال، وأكد مراراً على ما فيها من خروج على نصوص الكتاب والسنة ، وعلى ماتتضمنه من ضرر وخطر على مصلحة الفرد والأمة وقد اتبع في سبيل إثبات ذلك مايلي :

١ـ أكد في البداية على أن مسألة المرأة من المسائل الظاهرة الجلية التي لايلتبس فيها الحق بالباطل إلا على المنساقين خلف شهواتهم ونزواتهم، فالغربيون لاغيرة عندهم وكذلك من يتبعونهم فهو يستفيد من الاختلاط مقابل التنازل عن غيرته على زوجته وأخته وبنته فيخالطهن غيره ويجالسهن .

٢ـ أنكر على دعاة الاختلاط والسفور تسمية حركتهم بـ " **تحرير المرأة** " منبهاً على مافي هذه التسمية من خطأ لغوي وتلبيس على الأذهان ، حيث قال : أنصار السفور الضالون يطلقون على حركتهم اسم " **تحرير المرأة** " مع أن الأمر بالعكس ، أعني إذا أسفرت المرأة تأمت [1] ، وبذلك تتضاعف غفلة **قاسم أمين**

---

(١) أي أصبحت أمة .

وجهالته في إدعاء أن احتجاب المرأة دخيل على الإسلام من مخالطة بعض الأمم[١] .

٣ـ حدد المعنى المقصود من السفور الذي جند أنصاره كل قواهم وجهودهم لنشره وتعميمه بين النساء المسلمات ، فبين أنه ليس المراد به السفور المعروف الذي معناه في اللغة كشف الوجه، بل المراد به تقليد المرأة الغربية في لباسها الذي يجعلها أكثر من نصف عارية وكذلك تقليدها في فسقها وفجورها . وبعد أن حدد الشيخ المعنى المقصود من السفور الذي يدعو إليه أولئك المستغربون والذي أطلق عليه اسم (السفور العصري) ، فصل القول في بيان حكمه الشرعي فذكر أن هناك فرقاً بين ارتكاب الفعل المحرم وبين استحلاله والدعوة إليه ، فصاحب الفعل الأول يعتبر فاسقاً عاصياً لله ورسوله ، ولكنه لايكفر لأن مذهب أهل السنة والجماعة يحكم بأن ارتكاب الكبائر لايخرج المسلم عن دينه ، أما صاحب الفعل الثاني فهو كافر بالإجماع لأنه استحل ماحرم الله .

أما دعاة الاختلاط والسفور فهم ـ في نظره ـ مارقون من الدين لأنهم استحلوا الحرام القطعي الذي هو رفع الحجاب عن النساء وجعلهن كاسيات عاريات كالغربيات مع أن كتاب الله يحرم عليهن إبداء زينتهن: ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ ﴾ [٢] إلى آخر الآية الواردة في سورة النور بكل صراحة وتفصيل .

٤ـ بين بطلان مسعى دعاة الاختلاط والسفور في جعل المرأة المسلمة تعيش حياة فاسقة مستهترة كحياة المرأة الغربية ، ثم إضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على تلك الحياة ، ويتعبر الشيخ أن مسألة النساء أعظم حاجز بين

---

(١) انظر موقف العقل : ج١ / هامش ص : ٢٨٩.

(٢) سورة النور : آية ٣١ .

الإسلام والمدنية الغربية ، فالمسلم لايقبل الحياة العارية المختلطة بنساء المسلمين مادام يصح له إسلامه، والغربي لايرى حجاب النساء أكبر مانع في اختيار الإسلام ديناً له ، وربما لايشك في كونه أحق الأديان بالقبول ، لأنه يصعب عليه فراق ماتعوده من الحياة المختلطة بالنساء ، وفيها حظ عظيم للنفس الأمارة بالسوء [١].

٥ـ نبه على أن الاختلاط والسفور الذي يدعو إليه أولئك المستغربون إضافة إلى مافيه من مخالفة صريحة لنصوص الكتاب والسنة الآمرة بالحجاب والبعد عن الاختلاط ، ينطوي على مفاسد ومحاذير اجتماعية كثيرة ، فمنها أنه يؤدي إلى انهيار صرح العفة والنزاهة وإلى هدم سياج الخلق والفضيلة . وكذلك السفور وإبداء الزينة المحرم جعل الأندية والمحافل والشوارع معارض وأسواقاً للنساء ، هذا بالإضافة إلى ذهاب قيمة المرأة وروعة جمالها بذهاب الحجاب وقيام الأصباغ والمعاجين الملونة الساترة لما تحتها من الحقيقة مقامة .

٦ـ حذر من الاغترار بكتابات دعاة الاختلاط والسفور الخلابة وكلماتهم المموهة والقيود الاحترازية التي ذكروها لتبرير دعوتهم إلى تحرير المرأة ، كما نبه على خبث نواياهم وإلى عدم صحة مازعموه من أن مقصدهم من الدعوة إلى تحريرها هو نصرتها وإكرامها وإنصافها بمساواتها مع الرجل في الحقوق والواجبات .

٧ـ نبه أنه لاصحة مطلقاً لما أشاعه أنصار السفور من أن الانحطاط والجهل والتخلف من لوازم التمسك بالحجاب [٢]، وأكد على أن الحجاب لاينافي النهوض ولايعيق تعليم المرأة، وكما أن الإسلام لايمانع تعليمها .

---

(١) قولي في المرأة : ص ٥٥

(٢) ومن القائلين ذلك : محمد رجب البيومي الذي كتب مقالاً طويلاً بعنوان : المرأة في شعر الرصافي .

ثم أجمل الشيخ موقفه من تعليم المرأة مبيناً التعليم الذي يحتاج إليه بنات المسلمين ، فهو يؤيد تعليمها وحريتها في التبحر في العلوم ولكن بشرط أن يكون التعليم في مدارس خاصة بالنساء لايخالطهن الطلاب الذكور وأن تكون مدرساتهن منهن والخلاصة إعدادهن لأن يكن خير أمهات وخير زوجات لا ليكن عدلاً للرجال في جميع الأعمال لأن ذلك لايمكن ولا ينفع [(١)] .

**مكانة الشيخ وآراؤه في مواجهة الفكر الوافد :**

الشيخ **مصطفى صبري** يمثل مدرسة فكرية قائمة بذاتها متميزة بنظرتها لقضايا الإسلام المعاصرة وبمواقفها الفكرية والعقائدية القوية من الحضارة الغربية ، ويتميز من ناحية أخرى بتشخيصه الدقيق للأدوار التي يعاني منها العالم عامة والإسلامي بوجه خاص .

أما آراؤه في مواجهة الفكر الوافد فلا شك أن لها قيمتها الفكرية وأهميتها وجدواها الثقافية ، ويتضح ذلك من خلال الإطلاع على سماتها التي يمكن إجمال أبرزها في النقاط التالية :

١ـ **الشمول في النظرة** : فالشيخ عند معالجته للقضايا والمشكلات التي أثيرت في العالم الإسلامي نتيجة للغزو الفكري ينظر إليها نظرة شمولية ويدرسها من جميع جوانبها ويمحصها أو يقلبها على جميع وجوهها وملابساتها ، ثم يجيب إجابات تفصيلية .

٢ـ **التحليل المنطقي** : فهو دائماً ما يلزم نفسه بتحليل الأقوال والأفكار التي يدرسها ، وذلك بإرجاعها إلى أصولها التي نشأت عنها وبيان تطوراتها ومايمكن أن تنتهي إليه أو تسفر عنه، وكذلك تحليل عقليات أصحابها تحليلاً دقيقاً .

٣ـ **الواقعية** : فهو إنما يعالج القضايا والمشكلات كما هي في أرض الحقيقة

---

(١) قولي في المرأة : ص ٧٥ – ٧٦ ، ٨١ .

والواقع ، ويدرسها كما هي واقعة فعلاً لا كما ينبغي أن تكون أو يمكن أن تكون . ولم تكن حلوله خيالية ، بل كانت معقولة ممكنة التطبيق وسهلة التنفيذ .

٤ـ **الأمانة والموضوعية** : فهو قد إلتزم في مواجهته للفكر الوافد بالأمانة العلمية والدقة في نقل أقوال من تصدى لمناقشتهم والرد عليهم ، كما أنه يعزو الحق لأصحابه ، ويذكر الحقائق والوقائع كما هي ولايغفلها أثناء تقريره للمسائل حتى وإن كانت في صالح مناظريه وخصومه.

٥ـ **الجرأة في إصدار الأحكام** : سواء فيما يتعلق بالقضايا أو فيما يتعلق بأشخاص مثيريها.

٦ـ **الالتزام بالمباديء الإسلامية** : والتمسك بالقيم الخلقية والتشبث بأهداب الدين الإسلامي الحنيف في مواجهة الفكر الدخيل وعدم التزحزح عنها قيد شعرة .

٧ـ **التعمق في معالجة قضايا الفكر الوافد** : وآثاره على العالم الإسلامى ، مع الحرص على إبراز محاسن الدين الإسلامى وغاياته النبيلة وأهدافه السامية في عقائده ونظمه وشرائعه.

٨ ـ **التدرج في النقد** : فهو عندما يقوم بنقد أقوال أحد خصومه يبدأ أولاً بنقل نصوص أقواله التي يرى فيها أخطاء ومخالفات يسيرة للإسلام ثم يرد عليها، ثم ينقل أقوالاً أخرى للشخص نفسه أشد مخالفة من التي قبلها ثم يرد عليها، ثم ينقل أقوالاً ثالثة أشد مخالفة من التي قبلها ويرد عليها .. وهكذا دواليك .

٩ـ **الاستشهاد بأقوال الفلاسفة الغربيين** : وخاصة في المباحث والمطالب الفلسفية ، وذلك انطلاقاً من المبدأ القائل : ( الفضل ماشهدت به الأعداء ) . مع ملاحظة أنه يستشهد بموضع الشاهد منها فقط ولايلتزم بتلك الأقوال بتمامها، كما أنه يزنها بميزانين من دينه وعقله فما وافق منهما أخذ ، وماخالف

منها رد ورفض .

١٠ـ **نقل نصوص المخالفين كاملة** : حتى وإن طالت قبل الرد عليها ، وذلك من أجل عرض المسألة المختلف فيها أمام الأنظار بكل أمانة ووضوح ، ولكي يطلع القاريء على أقوال كلا الطرفين ويلم بأطراف تلك المسألة من جميع جوانبها ، ولكي يقضي القاريء حاجته الذهنية ويشبع نهمه وصولاً إلى الحقيقة[١] .

**رابعاً : محمد رشيد رضا :**

من النماذج الخالدة والقدوات البارزة في تاريخنا المعاصرالشيخ محمد رشيد رضا - حيث ضرب أروع الأمثلة فى دعوته وجهاده - وبذله - وتعدد ميادين نشاطاته وعلاقاته - وسعة الأفق عنده ومايسمى بالانفتاح ولكن بضوابطه الشرعية - حسب اجتهاده فتجد له جهودا علمية وفكرية واجتماعية وسياسية ومشاركات فى شتى الميادين والآن نسلط الضوء من سيرته على مايخص بحثنا فقط قدر الامكان -

**ترجمة رشيد رضا:**

اسمه: هو محمد رشيد بن السيد علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة البغدادي.

ولد في ٢٧ جمادى الأولى سنة١٢٨٢هـ من الهجرة في قرية القلمون ونشأ فيها وهي تبعد عن طرابلس الشام زهاء ثلاثة أميال.

التحق رشيد رضا منذ الصغر بكتاب قريته، ودرس فيها العلوم الأولية المعتادة، كما قرأ القرآن وتعلم الخط وقواعد الحساب ، ثم دخل المدرسة الرشيدية بطرابلس الشام. درس فيها علوم اللغة العربية من نحو وصرف.

(١) مصطفى صبري وموقفه من الفكر الوافد، مرجع سابق، ص٥٠١، ٥١٦.

ودرس الحساب ومبادئ الجغرافيا وعلوم الدين عقائده وعباداته. ثم تحول إلى المدرسة الوطنية الإسلامية عام ١٣٠٠هـ، وهي أعلى مستوى من المدرسة الرشيدية والتعليم بها باللغة العربية إلى جانب اللغة التركية والفرنسية.

لقد اكتسب رشيد رضا كثيرا من العلوم والمعارف بقراءاته الشخصية وجهوده الذاتية ، ودرس على شيخه "محمود نشابة"، وهو عالم سوري أزهري ،والشيخ حسين الجسروهذا الأخير كان يجمع بين علوم الأزهر والعلوم العصرية. وكان لهذه الأزدواجية أثر كبير في تكوين رشيد العلمي أصلاحه العملي وقد أخذ عن علماء مصر بعد هجرته.وأبرزهم أستاذه محمد عبده والذي تأثر به في الأمور العقليه. بعد أن كان برز في علم الحديث رواية ودراية وجرحا وتعديلاً على يد الشيخ محمد القاوقجي، فأصبح الشيخ رشيد من أوائل من اهتم اهتماما خاصا بالوقوف على صحيح الحديث من ضعيفه [١] .

**أولاً : دعوته علماء الأزهر للقيام بدورهم القيادي في توجيه الأمة :**

اصطبغ العصر الحديث بصفتين واضحتين أولهما : جمود معظم علماء الأزهر وتخاذلهم عن القيام بدورهم وقصرهم لحلقات دروسهم على المسجد الأزهر وحلقات العلم فقط ، وطغيان الحضارة الغربية وافتتان عدد كبير من مختلف طبقات الأمة بتلك الحضارة وهذا ثانيهما .

وقد قام رشيد رضا بدوره فى الناحيتين ، الأولى : لايكاد يخلو مجلد من مجلدات المنار دون الدعوة الحارة للعلماء الى القيام بدورهم فى مواجهة تلك القيادات التى وصفها أنها متحررة، والثانية : من ناحية دعوة علماء الأزهر الى الخروج من دائرة التقليد والعمل على ترسيخ مبدأ الاجتهاد فى أمور الدين .

---

(١) انظر أحمد فهد الشوابكة : محمد رشيد رضا ودوره في الحياة الفكرية والسيلسية ص ٥ ـ ٩ ، وانظر الأعلام للزركلي .

فمن ناحية دوره تجاه الأزهر وعلمائه ، نذكر انه انتقد برامج التعليم الازهرية سواء بالنسبة لمواد التدريس أو أساليب تحصيلها ، فالعلوم الشرعية يعتمد فى تدريسها على حفظ المتون وماعليها من حواشى وتعليقات وهى الكتب التى توصف بأنها " مخدومة" وعلوم الحديث عندهم غير رائجة [١] ، وقد قل اهتمامهم بها ، وضعف مستوى اللغة العربية عند متخرجى الأزهر وضعفت تبعا لذلك ملكة التعبير السليم والإنشاء الصحيح ، وبذلك انتشر اللحن وتفشت العامية حتى فى حلقات الدروس ، وكان جزاء ذلك أن قل ظهور أسماء بارزة فى ميدان العلم والتصنيف من الأزهريين وبدأت تظهر فى أماكن أخرى غير الأزهر [٢] .

وكما كانت دعوته تنصب على الاعتناء بعلوم القرآن والحديث والفقه وتحفيز العلماء لذلك، لم تغفل محاولة اقناع هؤلاء العلماء بجدوى العلوم العصرية التى لاتناقض الدين . وقد واجه رشيد رضا صعوبة بالغة فى محاولة اقناع علماء الازهر بأهمية العلوم العصرية بكافة أنواعها، وأنها تعد الى جانب العلوم الشرعية ركيزة بناء المجتمع الحديث وأساس تقدمه العلمى والحضاري[٣] .

وكذلك أنكر رشيد رضا على العلماء موقفهم السلبى مما نشأ بين العامة والخاصة من البدع والمنكرات فى العقائد والعبادات وشئون الحياة العامة ، مؤكداً أنه رغم كون العلماء لايعتقدون مشروعيتها وينفون صلتها بالدين فى كتبهم ودروسهم الرسمية إلا أنهم فى واقع الحياة يسكتون عنها ولايعمدون إلى

---

(١) اهتم رشيد رضا بعلوم الحديث اهتماما واضحاً بالحديث أكثر من استاذه عبده ، حتى انه أطلق عليه "فولتير المسلمين" انظر رشيد رضا الامام المجاهد" د. ابراهيم العدوى ص٢.

(٢) د. أحمد فهد بركات الشوابكة : محمد رشيد رضا ودوه فى الحياة الفكرية والسياسية ، دار عمان الطبعة الأولى عمان الأردن ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م ص ٧٢.

(٣) المرجع السابق ص ٧٣

تنبيه العامة إلى تعارضها مع العقيدة والدين ، كما أنهم يسكتون عن ممارسات اجتماعية مخالفة للدين وتمارس تحت سمع السلطة الرسمية وبتراخيص منها ويقول عن موقف العلماء من الموالد - على سبيل المثال " ومع هذا كله ترى ساداتنا وكبراءنا من العلماء الأعلام يغدون ويروحون هناك ، يهنىء بعضهم بعضا بهذا المولد والموسم العظيم ، كما تهنئهم الجرائد بذلك ، إسلامية ومسيحية ، أليس الأجنبى معذورا إذا اعتقد أن هذه الموالد من لباب دين الاسلام! " (١) .

ومن المآخذ التى أخذها كذلك على علماء الأزهر وعلى الازهر نفسه هى تقصيره فى تخريج قضاه للشرع يصلحون أمر المحاكم الشرعية وينظمونها ، وتقصير العلماء فى اعداد تقنين لقواعد الشريعة الاسلامية مشتمل على كافة المذاهب الفقهية وموافق لحال العصر، على نحو ماتم فى مجلة الاحكام العثمانية العدلية ، وقد كان من جراء رفض علماء الأزهر لهذا المشروع بحجة أنه مخالف للمألوف والمعهود فى كتب الفقه المعهودة لديهم ، ان فتح الباب أمام القوانين الأوربية لتأخذ طريقها الى المحاكم الأهلية فى مصر وغيرها .

وقد ذكر رشيد رضا من نصيحة ذلك انشاء المحاكم الاهلية التى تولى القضاء فيها قضاه غير شرعيين ويحكمون بقوانين غير اسلامية ، وقد بدت هذه المحاكم أحسن نظاما وأسهل تعديلا وأقل تعقيدا من مثيلاتها من المحاكم الشرعية، مما أدى الى اقبال الناس عليها وايثارها على غيرها، بل عرف العلماء انفسهم من اثر الاحتكام اليها على المحاكم الشرعية (٢) .

أما عن دور رشيد رضا فى نقده للسلطة الفعلية لمشيخة الأزهر فيذكر أن الأزهر كان قبل عهد الخديوى اسماعيل مؤسسة علمية دينية مستقله ، فينتخب

---

(١ ) المرجع السابق ص ٧٣ نقلا عن المنار والازهر لرشيد رضا .

(٢ ) المرجع السابق ص ٧٤.

شيوخه بموجب نظام خاص يضعه العلماء دون أي تدخل من جهة أخرى ، فكان يتمتع بالاستقلال التام الذى يعطى له حصانة أدبية ومادية تؤهل علمائه للاسهام فى كل مايتعلق بالصالح العام ومصلحة المسلمين ، ثم أخذ الأمر شكلا مغايرا في بداية حكم الخديوى إسماعيل ، وعلى سبيل المثال ، فقد كانت المؤتمرات الاسلامية التى عقدت فى أعقاب إلغاء الخلافة العثمانية فى تركيا ١٩٢٤ ، والمواقف التى اتخذتها مشيخة الأزهر دليلا على ان الحركة الذاتية للمشيخة لم تكن قائمة وأنها لاتتحرك إلا فى فلك السلطة العثمانية . سواء كانت فى الاتجاه السليم أوغيره [(١)] .

وكان رشيد رضا من الرافضين لهذا المشرب فقال أنه يكبر على هذه المجلة - ويقصد أن تجعل الحرمان من الشئون السياسية خطة مرسومة لها لاتتعداها فتجارى ماكاد يكون عزما عاما لدى الحكام من تحريم الاشتغال بالسياسة على علماء الدين وابعادهم عن أهم شئون المسلمين [(٢)]

ويعد هذا النقد موجهاً إلى رؤساء تحرير المجلة ومشيخة الأزهر الذين كان لهم معه مساجلات ومعارك فكرية كثيرة ، أمثال فريد وجدى ، محمد الخضر حسين اللذان رأسا تحرير المجلة . وقد ألف العلماء هذا الجو الذي أبعدهم عن السياسة ومتاعبها وأثروا السلامة والانقطاع للعلوم ومدارستها ، حتى جعلوا البند الرئيسى للمجلة التى كان يصدرها الأزهر لاشأن للمجلة بالشئون السياسية . وقد انتقدهم فى هذا المذهب [(٣)]

**ثانيا : موقفه من دعاة التحديث على أسس غربية :**

بادىء ذى بدء أنقسم تلامذة الأفغانى وعبده الى تيارين أساسيين نادى الأول منهما بالعلمانية الشاملة ، التى تستبعد الدين عن محيط حياة الافراد وكافة مؤسسات الدولة والمجتمع ، وتبنى بعضهم الدعوة الى الالحاد ، كما نادى آخرون

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤-٧٥-٧٦.

(٢) المرجع السابق ٧٦-٧٧.

(٣) المرجع السابق ٧٦ .

بأفكار اشتراكية وشيوعية، وقد شكل نصارى الشوام نسبة عالية من هـذا التيـار إلى جانب من سايرهم من المـصريين (شـبلى شميـل - جـورجى زيـدان- فـرج انطون - نقولا حداد - يعقوب صروف من الشوام )

أما التيار الآخر فقد تبنى توفيقية غير متوازنه أي (تلفيقية)، انقسم اتباعهـا الى فريقين : الأول كانت مهمته الجمع بـين الـتراث الاسـلامى والثقافـة الغربيـة ولكن على طريقته وهى أساسها العلمانى المحض أمثـال قاسـم امـين ،(١٨٦٣-١٩٠٨) وأحمد فتحى زغلول (١٨٦٣-١٩١٤) ، أحمد لطفـى الـسيد ( ١٨٧٢-١٩٦٣) ، على عبد الرازق (١٨٨٨-١٩٦٦) وغيرهم كثيرين [١] .

الفريق الثانى : نادى بالجمع بين الاسلام ومنجزات الحضارة الغربية ، فقد قدر اصحاب هذا الاتجاه مافى هذه الحضارة من جوانب علمية وعمليـة لاغنـى عنها لأي مجتمع حديث حتى يقيم حضارته الحديثة على أساسها ، إلا أنه يجعـل للمفاهيم الدينية السلفية الأولوية فى تشكيل مؤسسات المجتمع، وكان على رأس هذا التيار الشيخ رشيد رضا ، الذى نستطيع أن نصفه أنه أصلاحى دينى ، يجعل أساس الاصلاح الدينى هو الاساس والمبدأ وهو فى ذلك يتفق مـع محمـد اقبـال فى تلك النزعة [٢] .

وقد دارت مساجلات عديدة بين رشيد رضا وبـين انـصار التيـار الـسابق الذكر وقد أنكر عليهم رشيد رضا أشـياء كـثيرة وأنكـروا عليـه كـذلك أشـياء ، وذلك على الرغم من اعتراف كلا الطرفين بما للآخر من فضل .

لايتفق رشيد رضا مع انصار هذا التيار فـى اقتبـاس هـذه الـنظم كمـاهى لاستعمالها فى الشرق، وذلـك لمـا بـين الطـرفين مـن فـوارق واخـتلاف، تجعـل

---

(١) المرجع السابق ٨١-٨٢

(٢) انظر محمد اقبال: تجديد الفكر الدينى فى الاسلام . ترجمة عباس محمـود ، مطبعـة لجنـة التـاليف والترجمة والنشر.

مايصلح شأن طرف لايصلح فى اصلاح شأن الآخر، بل يرى أن الاسلام قد اشتمل على نظام شامل للحياة بكافة جوانبها ، ولما كان الجانب السياسى يحتل مكانه بارزة فى هذا النظام ، فقد أولاه مكانة بارزة فى هذا النظام ، فأقيمت له القواعد العامة وتركت التفاصيل تناسب تغيير الزمان والمكان ، وهو يرى أن تلك النظم الديمقراطية فى الغرب قد استبدلت باستبدادية الفرد استبدادية جديدة تقدم بها الأحزاب أو الشعوب ، عندما جعلت سلطة هذه الشعوب مطلقة لاحدود لها أو تعتمد على انظمة وقوانين من وضعها لاتسلم فى محاباة جماعة ضد أخرى . وهذا يعتبر ان نظام الخلافة الاسلامى هو الشكل الأمثل للنظام السياسى ، باعتباره النظام الاوسط بين استبدادية الأفراد واستبدادية الأحزاب أو الجماعات [(١)] .

ويرى رشيد رضا أيضا أن مفهوم الخلافة لايتفق وازدواجية السلطة ، فليس هناك سلطة دينية وأخرى زمنية ، بل هناك سلطة واحدة يمارسها الحاكم فى مختلف المسائل فى ضوء أحكام الشريعة ، أما مفهوم الازدواجية ، فهو مفهوم كنسى ظهر فى الغرب استجابة لظروف دينية وسياسية ، فالديانة النصرانية تخلو من تشريع كامل ينظم جوانب الحياة العامة ، وتقتصر على امور تعبدية وأخلاقية فردية ، يشرف رجال الدين على تنظيمها ومراقبتها ، وترك الحكام السياسيين وضع القوانين والتشريعات التى تنظم امور الدولة وجوانب المجتمع، فأقتضى ذلك وجود سلطتين منفصلتين أولها دينية ويتولاها البابوات ودنيوية ويتولاها الحكام السياسيون[(٢)] .

**ثالثاً : موقفه من علي عبد الرازق وكتابه :**

وجد دعاة مدنية القوانين فى صدور كتاب الشيخ على عبد الرازق الاسلام واصول الحكم عام ١٩٢٤ فرحتهم لتأصيل مايدعون اليه من أفكار

---

(١) محمد رشيد رضا ، الخلافة أو الامامة العظمى ، ص١٠ مطبعة المنار القاهرة ١٣٤١هـ

(٢) محمد رشيد رضا ( شبهات النصارى وحجج الاسلام )ص ١٢٢ ط١٣ النهضة مصر ١٩٥٦ ( الخلافة البابوية والسلطة الروحية )

علمانية ، فموضوعه الرئيسى يدور حول عدم مشروعية نظام الخلافة الاسلامى، وان الاسلام لم يحدد نظاما سياسيا بعينه أما الدين فهو علاقة بين الفرد وربه وأنه لاشأن له وشئون الحياة العامة ، أما تنظيم امور الحياة العامة فهو متروك لاجتهاد المستشرقين القانونيين الذين يقتبسون ماشاءوا من أنظمة الدول أو ما يتوصلون إليه عن طريق اجتهاداتهم الخاصة [١] .

وقد استغل دعاة التجديد أن صاحب الكتاب لم يكن من بين دعاة العلمانية أنما كان من زمرة العلماء ، فوجدوا فيه مستندا شرعيا يدللون به على شرعية افكارهم ويقنعون العامة أن مايطلبون به غير متعارض مع الدين ، كما أنهم ليسوا دعاة لادينية وأن المسألة بينهم وبين العلماء تعدو مجرد اختلاف في وجهات النظر [٢] .

وكان الشيخ رشيد رضا ممن تولوا الرد على ماورد فى كتابه ومناقشة ادعاءاته ، كما نبه مشيخة الأزهر الشريف الى ضرورة المسارعة فى اتخاذ موقف حازم من ذلك الكاتب حتى لايفسر الناس سكوتهم أنهم راضون عن الكتاب أو عجزهم عن الرد عليه ، ولاسيما وأن المؤلف واحد من هيئتهم ، فأصدرت هيئة العلماء قرارا يدين الكتاب وصاحبه ، ويليه فصله عن سلك العلماء والقضاء الشرعى[٣] وقد قابل كتاب جريدة السياسة وخاصة محمد حسين هيكل نقد رشيد رضا بالهجوم عليه هجوما ضاريا حتى أن محمد حسين هيكل

(١) انظر على عبد الرازق ، الاسلام وأصول الحكم ، ص ٥ ، ص١٦ ط بيروت ١٩٧٢ المؤسسة العربية للدراسات .

(٢) المنار ، م ٢٦ ج٣ ص ٢٢١ ( انكار علماء الازهر على كتاب اصول الحكم )

(٣) المنار ، ج٢٨ ، ج٣ ص ٢٤٠.

قال انه لابد من قتل صاحب المنار وقال اننا قتلنا ه فى مؤتمر الخلافة ولابد ان نجهز عليه مرة أخرى (١) .

ودخلت اللغة العربية فى مجال الجدل والخلاف بين دعاة الفكرة الاسلامية ودعاة التجديد على اسس غربية ، أما رشيد فقد عد اللغة العربية ركنا من أركان الدين وهما معا من أسس الاصلاح الذى يعمل له ويسعى اليه ، فمعرفة الدين الاسلامى بمختلف فروعه وعلومه لابد لها من معرفة جيدة باللغة العربية، كما أن الاجتهاد لمعرفة الأحكام الشرعية يعتمد على اكتاف اللغة العربية وفهم اساليبها وهدف تراكيبها ، وفى رأيه ان دعاة الاصلاح الدينى لابد لهم من معرفة جيدة بأكبر قدر ممكن من مفردات اللغة وعلومها واساليبها ، وقد وصف الشيخ رشيد اللغة العربية أنها اللغة الراقية العالية التى تحقق رابطة الاخاء والمودة وأن الاسلام لاحياة له الا بحياة اللغة العربية وحياة اللغة العربية تكمن فى العلم والتخاطب عند أهلها وقد توصل الشيخ الى حكم شرعى من خلال استقرائه لنصوص الفقهاء ، بأن تعلم اللغة العربية واجب شرعا على كل مسلم، فهى وان كانت اللغة العربية القومية والدينية ، فهى لغة المسلمين الدينية أيضا .

وقد ظهرت بوادر الدعوة الى العامية بديلاً عن الفصحى من أواخر القرن التاسع عشر عندما بدأت بعض الجامعات تستعين باللهجة العربية المحلية وتستعين على ذلك بالشرقيين الذين كانوا يعملون فى الغرب ، والمستشرقين الذين كانت لهم معرفة بهذه اللهجات وظهرت فى هذا المجال عدة دراسات حول هذه اللهجات وقد عرض رشيد رضا لنماذج من بعض هذه المحاولات التى قام بها بعض الأوربيين الذين أتاحت لهم فرصة العمل الاقامة فى القاهرة وكانت اول الدراسات للالمانى وليهم سبتا **Wilhelm spitla** الذى كان يعمل مديرا لدار الكتب المصرية ووضع كتاباً اسماه ( قواعد اللغة العامية فى مصر )

---

(١) محمد رشيد رضا ، يسر الإسلام واصول النشر مع الاسلامى ص هـ من المقدمة .

وذلك بحجة صعوبة استعمال العربية الفصحى؛ وقد اقترح كتابتها بحروف لاتينية . وكذلك بذل المهندس وليم ولكوكس William willcoks جهودا متواصلة فى الدعوة إلى إقصاء الفصحى من ميدان الكتابة والأدب واحلال العامية محلها .

وفى مرحلة تالية أخذت بعض الصحف المصرية والتى يملكها أهل الذمة تردد هذه الدعوى وتعارضها إما دون تعليق أو بتعليق يومي بإستحسان تلك الدعوى فكانت مجلة المقتطف اسبق الصحف الى هذا الموقف ومجلة الازهر كذلك حيث اشرف عليها الانجليزي اكبر دعاة العامية د. ويلوكس والاستاذ أحمد الازهرى عام ١٨٩٣ ، وكانت الدعوة تكمن فى أن اللغة العامية أكثر تأدية للأغراض العملية والأدبية من الفصحى ولاسيما لغير المثقفين ثقافة عالية [(١)].

وقد أشار رشيد رضا إلى أخطر مراحل هذه الدعوة عندما تسربت إلى مجمع اللغة العربية وكتب عضو المجمع عيسى اسكندر معلوف مقالات عن "اللهجة العربية العامية" وقال رضا : إن هذا المجمع قد انشئ للحفاظ على العربية وأصالتها ، فظهر من بين أعضائه من استحسن العامية أو إيجاد مشروع لغوي وسط بينها وبين الفصحى .

يجب أن يكون الأدب كفاحا تحارب به رواسب القرون المظلمة ، وتدعو فيه الى الحضارة العصرية ، أى حضارة اوربا ، إذ نحن على يقين بأنه اذا كانت الشمس تشرق من الشرق فإن النور يأتى الينا من الغرب " [(٢)].

* من جهود رشيد رضا الاصلاحية اقتحام شتى الاوضاع والاوساط الاجتماعية من السياسة حتى العلمانية منها بغية التعرف على طبيعة أي تنظيم او جمعية محاولة التقليل من خطورته .

---

(١) المقتطف ، ٦ نوفمبر ١٨٨١ ، ص ٣٢٥ ٣٥٤ ( اللغة العربية والنجاح )

(٢) انظر انور الجندى ، المعارك الأدبية ص ٦٤٨ - ٦٥٥ انيس سلامة وموسى وخصومه .

فقد تقدم معنا فى الحديث عن الجمعيات الأدبية والاجتماعية والسياسية وما لها من دور فى الدولة انتساب رشيد رضا وعضويته فى كثير من الجمعيات حتى غير الاسلامية فهى بل بعضها كانت بطبيعة قانونها الاساسى وبنوعية الاشخاص المنتسبين اليها أبعد عن الاتجاه الدينى وأقرب الى الصبغة العلمانية . وهذه الجمعية هى ماعرفت باسم "جمعية الرابطة الشرقية" وقد شملت عضويات من شتى البقاع والمذاهب والديانات من نصارى ويهود وفرس .....

فانتسب رشيد لهذه الجمعية وهو على علم بطبيعتها إلا أنه كان يرى ان من مستلزمات مهمته الاصلاحية التعرف على طبيعة أى تنظيم وحضور أى لقاء والانتساب إلى أية رابطة يمكن من خلالها أن يخدم فكرته .

بل اعتاد أن يحضر لقاءات لم يدع لها وتكلم فى مناسبات لم ينتدب للكلام فيها . وفى رده على منتقديه أكد بأنه ان لم يستطع تسخير الجمعية لخدمة مايعتقده صوابا ، فلا أقل من أن يخفض من أخطارها بالحيلولة دون استغلال دعاة التجديد لها والذى قد يتم فى غيبة رجال الاصلاح[١] .

وهذا بالطبع اجتهاد من الشيخ . فإذا ساغ لمن كان فى مكانته فى علمه وقوته ان يلج هذه المواقع فلا يعنى ذلك أن هذا يسير على كل الأفراد من دعاة الاصلاح .

**رابعاً : جهوده في مواجهة الدعوة إلى الفرعونية وسائر القوميات :**

ظهرت جهود مكثفة للكشف عن الآثار العربية القديمة - كما سبق وأوضحناه - وافقتها دراسات مستفيضة عن التاريخ القديم لكل منطقة عربية على حدة ، تناولت حضارات البابليين والأشوريين والكلدانين والحيثيين والفينيقيين والفراعنة[٢] .

---

(١) المنار ، م ٢٩ ٢ ٧٨٨ - ٧٩١.

(٢) محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ج٢ ص ١٣١.

الا أنه فى مصر زادت هذه الاتجاهات عمقا ورسوخا . بسبب الغزو الذى سلط عليها اولا . ثم تبنى كثير من الاحزاب والجمعيات برامجها الفكرية و السياسية على الاسس القومية .

وكان موقف رشيد رضا من هذه الدعوة جريئا وقويا. وكان فى مقام من يسبح فى عكس التيار الا انه تولى كعادته الرد على هؤلاء الذين يفاضلون بين الحضارة الفرعونية والحضارة الاسلامية ، مؤكدا أنه لاوجه للمقارنة ولامجال للمفاضلة ، فالاسس لكل منهما متفاوتة والنتائج تبعا لذلك متباعدة .

ففى مجال العمران النافع والمفيد لايوجد امة ولادولة فى هذا العصر تسفه نفسها ببناء اهرامات كأهرامات الجيزة وهى غاية ماوصلت إليه العمارة الفرعونية .[١]

- اما من ناحية اللغة فلا يمكن لعاقل ان يؤثر استعمال اللغة الهيروغليفية على العربية لأنها لغة ميتة ، وذهبت عنها وتعبت آثارها وليس فيها مزية توجب إحياءها [٢].

- اما من الناحية الدينية فقد قامت ديانة الفراعنة على الوثنية بينما دين السواد الأعظم من المصريين هو الاسلام ولايرضى أحد من المصريين أن يترك عبادته القائمة على التوحيد ويرجع الى دين وثنى .

- أما المدنية الفرعونية فكانت تستعبد البشر وتذلهم ، هذه الأهرامات . وهى اظهر اثارهم حجة عليها وعليهم .

---

(١) المنار : م٣١ ج٦ ص ٤٦٨.

(٢) المنار : م ٣١ ج٦ ص ٤٦٨

كما أنه ليس هناك مصلحة حقيقية لمصر وللمصريين يمكن تحقيقها من خلال هذه الدعوة ، وكل ماكان يهدف اليه دعاتها من النصارى او العلمانية وهو مجرد التفتيش عن أى بديل تقيمونه فى موضع الاسلام وحضارته[١].

**خامساً : جهود رشيد رضا في إصلاح التعليم الديني والأزهر خاصة :**

لقد انتقد الشيخ واقع التربية والتعليم ، وشمل انتقاده المؤسسات التعليمية بأنواعها الحكومي والاهلي والمدنى والدينى . فكان فمن أوائل من نبهوا إلى خطورة خلو مصر والعالم الاسلامى من جامعة علمية عالية ، تغنيهم عن المدارس الاجنبية الخالية من لغتهم ومن التربية العملية التى تليق بهم[٢].

وتعرض الشيخ للتعليم الدينى الذى كان يشرف عليه الأزهر . بكثير من الملاحظات والانتقادات من حيث المكان وطريقة أخذ الدروس بل والفوضى نتيجة تجاوز الحلقات واختلاط الاصوات[٣] وبالتالى انعدام الفائدة وضعف مستوى الغلبة بل زهدهم فى التحصيل العلمى . وانخفاض مستوياتهم العلمية عن امثالهم من منتسبى المدارس المدنية .

واصبح العلماء أنفسهم يؤثرون ارسال ابنائهم الى مدارس الحكومة والمدارس الخاصة لما فيها من فرص التعليم العصرى والوسائل العلمية والصحية التى تفتقر اليها معاهد الازهر.

وعند تحديده للأطراف المسئولة عن حالة التربية والتعليم بنوعيه المدنى والديني ذكر طرفين أساسيين احدهما خارجى يمثله مستشار التعليم البريطانى دنلوب القس البروتستانتى[٤]. والطرف الثانى داخلى يتمثل بدعاة التجديد على

---

(١) المنار : م ٣١ ج١ ص ٤٧١.

(٢) المنار : م٦ . ج ١٤ ص ٥٦٦.

(٣) المنار : ج٢٦ ج٢ ، ص ١٢٧ ( طلب أماكن صحية للأزهر .)

(٤) حرص سلامة ، التعليم الأجنبى ص ١٦٧.

اساس من الثقافة الغربيـة ( العلمـانيين ) حيث التقت مصالح الطرفين عند ضرورة ابعاد الدينى عن شؤون الحياة العامة . وتحقيق الفصل الكامل بينه وبين مختلف مؤسسات الدولة والمجتمع(١) .

وكان من خطواته الاصلاحية فى مجال التعليم ان يشترط اقامة نظام التعليم على اساس التربية الدينية يعهدها اقوى الركنين وانفع العنصرين(٢) .

وكذلك نبه الى امر كان فيه كثير من اللبس فى عصره خاصة بين طبقة العلماء وطلبة العلم وذلك انه مع تسليمه باهمية العقل ودوره كوسيلة هامة من وسائل العلم والمعرفة ، الا انه يأتى فى المرتبة الثانية بعد الوحى الذى هو مصدر الدين والذى يعده مصدر الحق المطلق والعلم اليقين - وهو بذلك يخالف شيخه محمد عبده ...

من هذا المنطلق ، كان الشيخ من المعترضين على وصول أفراد من الدعاة التجديديين على اساس من الثقافة الغربية الى المراكز القيادية العلمية فانتقد تعيين احمد لطفى السيد وزيراً للمعارف ، كما انتقد بصورة أشد اختيار مراد بك سيد احمد وزيرا للمعارف ، وهو الذى اقر فى عهده تدريس مادة الرقص فى مدارس الحكومة وكذلك تعليم البنات فن الرسم وتجردهم للمدرسين من الرجال ، وهذه الخطوة لقيت معارضة عامة ، استدعت إبدال الوزير بآخر فأبطل كلا الخطوتين .

وفى المقابل امتدح رشيد رضا ماقام به آخرون من خطوات اصلاحية فى مجال التربية والتعليم . مثلما فعل احمد حشمت باشا فى وزارة المعارف من تحسين تعليم البنات خاصة وجعله أكثر مواءمة من طبيعة المرأة واحتياجها من

---

(١) المنار : م ٢٧ ج٨ ص ٦٢ ( التاريخ بين الدين والالحاد فى مصر .)

(٢) المنار : م١ ج٣ ص ٥٦٧ ( مالابد منه )

النظري إلى العملي الذى يهمها فى حياتها العملية[١].

**سادساً : موقفه من قضية المرأة :**

أسهم رشيد رضا فى الجدال الذى دار حول المرأة ودورها فى المجتمع ، بعد أن فتح قاسم أمين هذا الباب من خلال كتابيه : تحرير المرأة والمرأة الجديدة ، وقد أثار ظهور الكتابين ضجة كبيرة ورد فعل لفترة غير قصيرة ، وكان محور هؤلاء الكتابين يدور حول اصلاح حال المرأة الشرقية وتأكيد دورها فى المجتمع ، وربط ذلك كله بتركها الحجاب الذى رأى فيه مانعاً لإصلاحها ، كما طالب قاسم أمين بتحرير المرأة وتأهيلها حتى تتمكن من ممارسة دورها فى الحياة وهى مسلحة بالعلم والثقافة ، وأكد الكتابان على أهمية التوجه نحو الغرب والاخذ بأسباب الثقافة الغربية [٢] .

وقد قام رشيد رضا بعرض الكتابين ، وأشاد بما يحملاه من أفكار ايجابية ، مثل تعليم المرأة وتثقيفها ، ولكن توقف عند ماأسماه بمبالغات قاسم أمين ولاسيما فى حملته الشديدة على الحجاب، إذ إعتبره العامل الأكبر فى تخلف المرأة الشرقية وانعزالها وجهلها ، وعلى الرغم من اتفاقه مع قاسم أمين فى ضرورة اصلاح اوضاع المرأة الشرقية واعدادها للقيام بدورها فى المجتمع اكثر ايجابية ، ولكنه يرى أن المشكلة تكمن فى الفطرة السليمة العامة التى تعارف عليها الشرقيون الى المرأة جيلاً بعد جيل حتى اصبحت هذه الأعراف والتقاليد جزءاً من الدين رغماً عنه .

وهناك بعض الآراء التى تردد أن الشيخ محمد عبده كان له دور كبير فى كتب قاسم أمين وانه صحح له بعض الكتب ولذلك كان رشيد رضا فى بداية انشاء مجلته متعاطفا الى حد كبير مع أفكار قاسم أمين أو بعض تلك الأفكار ،

---

(١) انظر المنار : م١٦ ج١٢ ص ٩١٠ ، ٩١١ ( اصلاح حشمت باشا فى نظارة المعارف )

(٢) انظر الاعمال الكاملة لقاسم أمين : ص ٢٣٢ ، المنار ص ٣٧٠ كلمة فى الحجاب .

وذلك لأنه كان يحتاج الى دعم الشيخ محمد عبده، وذلك المنشأ ينطبق ايضا على الفكر السياسى الذي برع فيه حتى أننا نجد مؤلفات كاملة في الفكر السياسي، بعد وفاة الامام بالذات .

ونحن نتفق مع وجهة النظر سابقة الذكر ، ومما يؤكد صحة كلامنا أن رشيد رضا قد الف كتابا عن حقوق المرآة فى الاسلام ، خالف فيه ونقض كثيرمن الآراء التى سبق وأن أيدها ، ومن خلال تفسير المنار نلاحظ على البعض اختلال موقف رشيد رضا وأستاذه عبده ـ الذي أيد قاسم أمين [١] ـ وان كان اتفق معه فى قضية المساواة بين الرجل المرأة فى الحقوق والواجبات وان شاب رأيه بعض التحفظ من الاعمال التى يقوم بها الرجل ولاتقدر عليها المرأة. الا أن مايهمنا هو مخالفة السيد رشيد رضا لاستاذه عبده ، فى قضية تعدد الزوجات على سبيل المثال، فقد أفتى الشيخ عبده أن التعدد يكاد يصل الى درجة التحريم، وذلك لعدم استطاعة العدل . وكان القرآن نهى عن كثرة الزواج بينما يقصص رضا لهذه القضية بأسلوب أكثر مرونة وواقعية ـ في رأيه ـ فهو لاينكر أن مسألة التعدد مسألة اجتماعية كبرى ، ولكن يرى أن تعدد الزوجات راجع الى طبيعة الرجل فهو اكثر طلباً للأنثى منها ، ومايحرمه رشيد رضا هو التعدد الذى يلجأ اليه الذواقون فقط [٢] .

ولانكاد نلحظ اختلافا بين عبده ورضا فى قضية الطلاق ، ولكن بالنسبة لقضية تعليم المرأة وأى نوع من التعليم يبدى رشيد رضا تحفظا - فى رأينا أنه مطلوب - وهو لاينكر أهمية تعليم المرأة ومشاركتها فى المجتمع ، وذلك لأن

---

(١) يروى أن الامام محمد عبده اثناء الشرح فى الجامع الأزهر ، دخلت فتاة حلقات الدرس فقال اتركوها لعلها المرأة الجديدة .

(٢) المنجى الشملى : قضية المرأة فى تفسير المنار - حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث - ١٩٦٦ م - ص ١٢،١٣

الاسلام يدعو الى التفكير فى أمور الدنيا والآخرة ، ولكن يحذر من عواقب التعليم العصرى الذى لاتصحبه رقابة التربية الدينية، و محمد عبده لايضبط محتوى التعليم الذى تتلقاه المرأة ، وذلك بحجة أن احوال الناس تتجدد والملابسات الاجتماعية متطورة [(١)] . ونحن نختلف مع الكاتب فى وصفه لموقف محمد عبده أنه اوضح من موقف رضا ، وذلك لأننا نعتقد أن على المرأة وليس المرأة فحسب ، بل أن التعليم يجب أن يكون دينى أولا ثم تأتى بعد ذلك أنواع التعليم الآخرى النافعة ، أما عن تقليد الغرب فى علومه الضارة بالشرق فهذا لايرضى عنه رشيد رضا . ويتفق معه فى ذلك الاستاذ / مصطفى صادق الرافعى فيقول " ان من الوسائل التى تبنى المرأة الغربية فى هذا العصر ما إذا نقل إلى الشرق أبطل أقوى الوسائل الشرقية فجعلها بذلك لاتصلح ان تبنى وجعلها بعد ذلك لاتصلح الا ان تهدم [(٢)].

وبذلك يكون رشيد رضا يخالف الكثيرين الذين يرون أن اصلاح المرأة الشرقية لن يكون الا عن طريق الانسلاخ من كل ماكتسبته من عادات وتقاليد، وان تسارع في محاكات المرأة الغربية فى جميع شئونها ، وهو بذلك يعد موقفاً وسطاً بين التيارين وهو المنهج الذى إلتزمه فى كثير من الموضوعات التى عالجها والمواقف التى تعرض لها لاقامة حزب الاصلاح الاسلامى الوسط المعتدل [(٣)] .

وينادى رشيد رضا بالاخلاق والفضيلة والعفة فيقول لمرأة سيدتى : الاخلاق والفضيلة ولايمكن أن تجدى ذلك الا فى دينك ، ولايمكن أن ترى

---

(١) المنجى الشملى : مرجع سابق ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) مجلة الهلال : رأى مصطفى صادق الرافعى فى المرأة الشرقية" ص ١٤١. الهلال العدد ١٢ - السنة ٧٥ ، ١٣٧٨هـ - ١٨٦٧م

(٣) رشيد رضا : حقوق النساء : ص ٢٠.

مكانة عالية فى القلوب التى تنشدينها فى المجتمع الا بعد أن تتفهمى أمور دينك، وما انطوى عليه من أحكام عالية. وآداب سامية [١] .

ويقول لايوجد فى اوربة شعب أهمل التربية الدينية للاناث كإهمال مصر شعبا وحكومة وهى مع ذلك تبيح حرية الفكر والفسق والرقص والسباحة مع الرجال والزنا فى بعض الأحوال [٢].

وقد تعرض رشيد رضا لمسألة حجاب المرأة المسلمة ، وذلك باعتبارها مسألة غدت مطروحة بين المفكرين والباحثين ، فأكد أنه لاتوجد مشكلة حقيقية تدور حول الحجاب وتستحق كل ماأثير حولها من جدل ، وأما الحجاب الذى ينتقده البعض فهو الحجاب الذى لايمثل الاسلام فى شئ وانما هو للزينة فقط ووسيلة للفت النظر الى النساء .

وذهب إلى مايقصده دعاة السفور والاختلاط بين الجنسين، وذلك بحجة أنه يعمل على تهذيب العواطف وترقية الأذواق بين الجنسين ، وفى زعمهم أن اقامة الزيجات على هذا الاساس هى الزيجات الناجحة [٣] .

وقد نظر هؤلاء المجددون الى الدين على أنه أكبر حائل بين تنفيذ كل ما يرمون اليه من تجديد فى حياة المرأة ، ولذلك طالبوا باستبعاده عن أمور الحياة العامة وعبروا عنه بقولهم "أن الاعتقادات الشرقية التى تفيد بأن المرأة والرجل متى اجتمعا فإن الشيطان يكون ثالثهما ، وهذا هو سر تأخر الشرق ، وهذه بقايا عصور الجهل اوالخوف والظلام .

---

(١) مجلة المنار : رشيد رضا : مجلد ٢٨ ج٥ مقال "مايسمى بالنهضة النسائية فى مصر" ١٣٤٥هـ - ١٩٢٧م ص ٣٥٧.

(٢) المنار : م ٢٨ ج١٠ : النهضة النسائية فى مصر - ص ٣٥٨.

(٣) الهلال : يناير ١٩٣٥ - نقلا عن الشوابكة .

ويقول رضا انه اذا كان المقصود من الاختلاط ، تعليم المرأة وتربيتها وتثقيفها ، وهو مطلب عادل وملح وكل وسائل توفيره ميسرة من غير ان نقع فى محذور دينى او اجتماعى، ويمكن أن تستغل المساجد ودور العبادة العامة فى هذا المجال ، كما يمكن تأسيس جمعيات نسوية تتولى ادراتها بعض النابغات منهن، وتلقى فيها المحاضرات وتعقد الندوات وتعرض لكل ماهن بحاجة ماسة اليه ومما يتجاوب مع تفكيرهن واحتياجهن . ولا مانع عند رشيد رضا من ان يشارك فى هذا بعض المفكرين ( الذين يحسنون اختيار بعض الموضوعات أو إعداد مايطلب منهن فى هذا المجال [١] .

ويرى رشيد رضا أنه بهذه الوسيلة يمكن تحقيق الفرضين ، أى تثقيف المرأة وتعليمها وتربيتها ، دون الوقوع فى أى محذور شرعى أو اجتماعى [٢] .

وقد مارس رشيد رضا هذا المنهج عمليا ، فكان يلقى دروسا فى بلدته العلمون لتعليم النساء، إلا أنه اختلف مع دعاة التجديد المطالبين بتعليم المرأة حول ماهية التعليم اللازم لها واسلوب التربية والتعليم اللازم، واكد الشيخ أن هناك خطراً يهدد كيان المرأة الشرقية المتعلمة ، وهو تلقيها مناهج متعدلة عن المناهج الغربية أو شبيهة بها وأن تتربى تربية ذات نمط غربى فصار هم الفتاة كما يقول ان تتقن لغة اوربية لايعرف أهلها عنها شيئا ، وصارت تتفنن فى وضع النطاق حول خصرها ، وان تضرب البيانو على أحسن نوتة من الالحان الافرنجية وأن تتقن تلك الرقصة أو تلك على يد معلمها الافرنجى ، فإذا رجعت الى منزلها الذى نشأت فيه وجدت عالما غير العالم، فوقع التصادم والتنافر بينها وبين كل شئ فى بيتها [٣] .

---

(١) حقوق النساء فى الاسلام ص ١٧ - ١٩ نقلا عن الشوابكة ص ١٥١ .

(٢) المنار : م٣٠ ج٢ - مقال تحت عنوان "غوائل اختلاط الاناث والذكور"

(٣) المنار : م٥ ج٢٣ ص ٤٨٣ "انتقاد تعليم البنات" .

وفى سبيل تحقيق ذلك دعا رشيد رضا الى تخصيص المرأة بمنهاج يختلف عما يتلقاه الذكور تبعا لاختلاف الجنسين وتغاير وظيفة كل منهما ، فرأى التركيز على مايخدم وظيفتها الطبيعية وهو ماتكون به سيدة فى بيتها ومديرة شئونه وحاضنة اطفاله ومربية ولدها وقرة عين زوجها ، وليس ماتكون به فيلسوفة او سياسية أو صانعة [١] وقد خالف فى هذا استاذه عبده - على نحو ماذكرنا. [٢] .

وقد أكد رشيد رضا على أهمية التربية القائمة على الدين ولاسيما أن ماعليه المتعلمات من البنات من انحراف السلوك وخلل التربية كان صادقاً لكثير من الآباء عن تعليم بناتهم .

وقد أثار دعاة التجديد مسالة المساواة بين الرجل والمرأة ، زاعمين أن الشريعة الاسلامية جاءت منحازة الى جوار الرجل وضد المرأة واستدلوا على ذلك بحق الرئاسة التى تعطى للرجل مثل حظ الانثيين ، وخلصوا من ذلك الى افضلية الاحكام فى هذه الأمور الى القوانين الوضعية التى انصفت المرأة واعترفت لها بكامل حقوقها [٣]

ومما زاد من حدة هذا الموضوع أن المتصدين له من النصارى[٤]، فقد كان أول من آثار هذا الموضوع سلامة موسى فى محاضرة عامة فى جمعية الشبان المسيحيين ، ثم نشرها فى مجلة الرابطة الشرقية ، ثم أثار الموضوع الدكتور فرج ميخائيل فى محاضرة ألقاها فى الجامعة الاميركية ثم طبعها وقام بتوزيعها وذكر ذلك رشد رضا فى مناره ، وقد اعتبر ذلك رشيد رضا - تدخلا من جانبهم فى

---

(١) المنار : م١ ج٢٣ ص ٤٣٨ "ضرر تعليم البنات على الطريقة الافرنجية .

(٢) انظر ص ١٢ من هذا المبحث "قضية المرأة فى تفسير المنار : المنجى الشملى" تونس .

(٣) حقوق النساء فى الاسلام : رشيد رضا ص ٢٨ - ٢٩.

(٤) المنار : م ٣٠ ج٩٠ ص ٦٩٩ - ٧٠٠ تأييد د . فرج الكاثوليكى لسلامة موسى القبطى"

أحكام دينية قطعية ، وليست مجالاً للبحث والمداولة، فأنكر عليهم تدخلهم فى هـذه الأمـور التـى لاتخـضع لاجتهـاد علمـاء المـسلمين ، فـضلا عـن افـراد النصارى[١].

وقد أكد رشيد رضا أن المنتقدين من النصارى لهذه الجوانب قد وقفوا عند حدود الشكل دون النفاذ الى الجوهر ، ولـو فعلـوا لتأكـدوا أن الاسـلام لم يكـن ظالما للمرأة ، بل منصفا لها ومؤكدا حقوقها [٢] .

**خلاصة القول :**

خلاصة القـول أن رأى رشـيد رضـا فـى المـرأة مـن الآراء التـى تـستحق الاحترام ، ولو أن رشيد رضا عاش الى الفترة التى نعاصرها اليوم ، ووقع بصره على ماوصلت اليه المرأة المسلمة بالإسم دون الفعل، لصرخ فى وجهها، ليست هذه المساواة التى نادى بها الاسلام، وليس هذا التقليد الأعمى للغرب هو الذى نادى به المصلحون ورواد الاصلاح، انها لآراء جديرة بالتقدير والاحترام .

---

(١) المنار : م ٣٢ ج٣ ص ١٨٠ " الفوضى الدينية والجهل بضروريات الدين "

(٢) المنار : م٣٠ ج٩ ص ٧٠١ " وجوب الاذعان والتسليم لكـل مـاهو قطعـى فـى الـدين : وانظـر ايضا: المنار م ٣١ ج١ ص ٦١ تفنيد الشبهات فى حقيقة المساواة فى الأرث .



# المراجع والمصادر

## ـ أ ـ

١- أحمد شلبي / موسوعة التاريخ الاسلامي – ط . القاهرة النهضة الحديثة .
٢- أبو الحسن الندوي / الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغرب دار القلم ط الخامسة ١٤٠٥ – ١٩٨٥ م
٣- أحمد السعيد سليمان / التيارات الدينية والقومية في تركيا المعاصرة .دار المعرفة – القاهرة – ١٩٦١م .
٤- أحمد الهواري / الإصلاحات من عهد سليم إلى عهد عبد العزيز . رساله علمية لنيل درجة الماجستير من جامعة عين شمس
٥- أحمد شوقي / ديوان شوقي ( الشوقيات ) . دار النهضة مصر –الفجالة – القاهرة – شرح أحمد الحوطي
٦- أحمد عبد الرحيم / أصول التاريخ العثماني .ط القاهرة – الزهراء للأعلام العربي ط. الأولى
٧- أحمد فهد الشوابكة / حركة الجامعة الإسلامية.مكتبة المنارة ١٤٠٤ ه ١٩٨٤
٨- أحمد فهد بركات الشوابكة / محمد رشيد رضا ودوره في الحياة فكرية والسياسية.دار عمار ط. الأولى عمان - الأردن ١٤٠٩ ه
٩- أحمد محمد سلمان / خفايا المبشرين في تنصير أبناء المسلمين.ط.المطبعة السلفية القاهرة – ١٣٥٣ هـ
١٠- أحمد مصطفى طاش مجدي / مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ط / الأولى - دار الكتب العلمية – بيروت
١١- أديب مروة / الصحافة العربية نشأتها وتطورها .مكتبة الحياة بيروت الناشر دار الجبيل ١٩٨٥ –١٤٠٥ هـ
١٢- أسعد منصور / تاريخ الناصرة في العراق.ط.القاهرة ١٩٤٢ م

١٣- أمين سعيد / الثورة العربية الكبرى .، ومأساة الشريف حسين ،لاتوجد سنة طبع ولا المكن

١٤- أمين شاكر وسعيد العريان ومحمد مصطفى عطا / تركيا والسياسة من خلفاء آل عثمان إلى خلفاء أتاتورك.،ضمن سلسلة اخترنا لك ،نشر دار المعارف في مصر.

١٥- أنور الجندي / الإسلام والثقافة العربية في مواجهة تحديات الاستعمار وشبهات التغريب.مطبعة الرسالة

١٦- أنور الجندي / الإسلام والدعوات الهدامة.ط١ ، دار الكتاب اللبناني .بيروت ١٩٧٤م

١٧- أنور الجندي / العالم الإسلامي .دار الاعتصام – توزيع دار الاصلاح القاهرة

١٨- أنور الجندي / سقوط العلمانية .

١٩- أنور الجندي / ملتقى الفكر الإسلامي بتلمسان - المحاضرة الرابعة ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

٢٠- أنور ضياء قرال / التاريخ العثماني .نشر جمعية التاريخ التركي ١٩٨٤ أنقرة

٢١- إبراهيم العدوي / رشيد رضا الإمام المجاهد.المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، سلسلة الأعلام العرب . القاهرة

٢٢- إبراهيم النعمة / المسلمون أمام تحديات الغزو الفكري.ط شركة ومطبعة الزهراء الحديثة المحدودة ، العراق ١٩٨٦ م

٢٣- إبراهيم النعمة / لمن انفرد القارب ـ مجلة الأمة ع١ سنة٢ .

٢٤- إبراهيم عبده / تطور الصحافة المصرية .١٧٩٨ – ١٨٨١ م ،ط الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣ م

٢٥- إبراهيم عكاشة / ملامح عن النشاط التنصيري في الوطن العربي .ط جامعة الامام محمد بن سعود - الرياض –١٤٠٧ه –١٩٨٧ م

٢٦- إسماعيل الكيلاني / فصل الدين عن الدولة ط.المكتب الاسلامي – بيروت

٢٧- إلحان دار ندلي أوغا / الحركات الملية في تركيا.دار طوكر ، ط٣ ١٩٧٧استانبول .

٢٨- إلياس الأيوبي / تاريخ مصر في عهد إسماعيل.(١٨٦٣ -١٨٦٩ ).ط.القاهرة
٢٩- جمال الدين عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي / زاد المسير.في علم التفسير طالثالثة ١٤٠٤-١٩٨٤. - بيروت المكتب الاسلامي
٣٠- جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور / لسان العرب .ط. دار صادر ، بيروت ١٣٨٨،١٩٦٨ م (مصورة )
٣١- اسماعيل بن حماد الجوهري / الصحاح .تاج اللغة وصحاح العربية ،ط الثالثة ١٤٠٤ه ١٩٨٤ م . - دار العلم للملايين ، بيروت
٣٢- الدرر السنية في الأجوبة النجدية .ط٢ ١٤٠٢ ه- بيروت - دار الطباعة العربية
٣٣- السيد أحمد فرج / جذور العلمانية .
٣٤- محمد بن علي الشوكاني / فتح القدير.الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير / ط مصورة - بيروت.دار إحياء التراث
٣٥- الماوتلين / عبد الحميد ظل الله في الأرض.ترجمة راسم رشدي / ط١٩٥٠ م القاهرة
٣٦- المعجم الوسيط .

ـ ب ـ

٣٧- بديع الزمان سعيد النورسي / حياته وترجمته.الناشر دار الكلمات ١٩٧٦ استنانبول.
٣٨- برنارد لويس / الغرب والشرق الأوسط .تعريف نبيل الطويل والمؤلف محاضر .
٣٩- برنارد لويس / الدولة بين القديم والحديث .
٤٠- بطرس البستاني / دائرة المعارف.
٤١- دائرة المعارف الاسلامية / مجموعة المستشرقين - تعريب
٤٢- ابراهيم ذكي خورشيد وزملاؤه - دار المعرفة بيروت

- ت -

٤٣- تسيبرس / تاريخ الثورة الفرنسية .(موسوعة من عدة مجلدات)

٤٤- توفيق يوسف الواعي/ الحضارة الإسلامية مقارنة بالحضارة الغربية.ط دار الوفاء المنصورة ١٤٠٨ه القاهرة

ـ ث ـ

٤٥- ثريا شاهين / دور الكنيسة في هدم الخلافة ترجمة: محمد حرب.مخطوط ترجمة خاصة من د.حرب

ـ ج ـ

٤٦- جاهد كارجا / رواية ثروة الفنون من ناحية التغريب.وزارة الثقافة والسياحة ط١. ١٩٨٥ أنقرة

٤٧- جرجي زيدان / تراجم مشاهير الشرق .ج٢. ج١. ط الأعمال الكاملة لجرف زيدان

٤٨- جلال يحيى / مشكلة قبرص .دار المعارف القاهرة ١٩٨١ م

٤٩- جمال سلطان / الغارة على التراث الإسلامي ./ط لندن برمنجهام / المنتدى الاسلامي

٥٠- جمال عبد الهادي ، وفاء رفعت / علم الآثار .ط جدة – مكتبة الرفاء ط دار الشروق جدة

٥١- جمال كوطاي / بديع الزمان سعيد النورسي.المسلم المثالي في عصرنا – دار أسيا الجديدة ،١٩٨٠ استانبول

٥٢- جميل بيهم / العرب والترك.في الصراع بين الشرق والغرب ، ط ١٩٥٧

٥٣- جميل عبد الله المصري / حاضر العالم الإسلامي .ط١ المدينةالمنورة – الجامعة الاسلامية ١٤٠٦ه

٥٤- جواد ممدوح الفار / تاريخ الأوبرا.نشر وزارة الثقافة والسياحة ، ١٩٨٢ أنقرة

٥٥- جورج أنطونيوس / يقظة العرب .ط. دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٩ م

٥٦- جورجي زيدان / تاريخ سوريا .ط. بيروت

٥٧- جورجي زيدان / تاريخ آداب اللغة العربية .ط. دار الهلال

٥٨- جي . أي كرونباوم ترجمة د.صدقي حمدي / الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ط.مكتبة المثنى بغداد
٥٩- جرجس سلامة / :تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين (١٩-٢٠ )-القاهرة –
٦٠- المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية – ١٩٦٣م .

– ح –

٦١- حسنة لبيب/ تاريخ الأتراك العثمانية.مصر مطبعة الهلال ١٩٢١م
٦٢- حسين عثمان الطنوبي / الحركة الكمالية والعلمانية في تركيا.(١٩١٨- ١٩٣٨ ) رسالة ماجستير- جامعة الأسكندرية كلية الآداب قسم التاريخ
٦٣- حسين الخولي / سياسة الاستعمار الصهيونية في فلسطين .
٦٤- حسين مؤنس / المشرق الإسلامي .ط. القاهرة - ١٩٨٢
٦٥- حسين حلاق / موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية.ط . بيروت دار الرسالة
٦٦- حلمي علي مرزوق / تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في مصر في الربع الأول من القرن العشرين.

– خ –

٦٧- خلف بن دبلان الوذيناني/ الغزو الفكري في الدولة العثمانية. رسالة جامعة أم القرى.
٦٨- خليل صابات / تاريخ الطباعة في الشرق العربي .
٦٩- خير الدين التونسي / مقدمة المسالك في معرفة أحوال الممالك .تحقيق المنصف الشنوفي ط١ الدار التونسية للنشر ١٩٧٢

– د –

٧٠- دروزاس / مفهوم الدولة الحديثة.
٧١- دوريات / صدى بابل عدد٢١٤ .

٧٢- مجلة التضامن الاسلامي لسنة ٤٤ الجزء ٥ ( الرجل المريض رعاية يهودية )

— ر —

٧٣- رأفت باشا / السلطة والخلافة- حديث للأهرام عدد ١٣٩٠٣ عام ١٩٩٢ م.

٧٤- روفائيل بابواسحق / تاريخ نصارى العراق .ط١٩٤٨ بغداد

٧٥- روفائيل بطي / تاريخ الصحافة في العراق .ط القاهرة ١٩٥٥

— ز —

٧٦- زياد أبوغنيمة / السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية .ط٢ دار عمار الاردن عمان ١٤٠٩ه -١٩٨٩م

٧٧- زين نور الدين زين / نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقة العربية التركية .ط دار النهار للنشر بيروت ١٩٦٨م

— س —

٧٨- ساطع الحصري / أبحاث مختارة في القومية العربية .ط مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت

٧٩- ساطع الحصري / الدولة العثمانية والبلاد العربية .ط٢ ١٩٦٠ ،دار العلم للملاين ، بيروت

٨٠- ساطع الحصري / اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية .ط٢ ١٩٦٦ دار الطليعة بيروت

٨١- ساطع الحصري / محاضرات في نشوء الفكرة القومية .ط٢ مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت

٨٢- سامي عزيز / الصحافة المصرية وموقفها من الإحتلال الإنجليزي .ط ١٩٦٨ دار الكتاب العربي

٨٣- سبريت سبيريدوفيتش / حكومة العالم الخفية، ترجمة مأمون سعيد تقديم أحمد راتب. ط الأولى ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م دار النفائس بيروت

٨٤- سعدي أبو حبيب / القاموس الفقهي – ط دمشق ١٩٨٤ م

٨٥- سعيد عبد الستار فتح الله / الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام. ط ١٩٧٧م ، القاهرة
٨٦- سعيدة محمد حسني / اليهود في مصر . ( ١٨٨٢ - ١٩٤٨ م) ط القاهرة
٨٧- سفر بن عبدالرحمن الحوالي / العلمانية .الدار السلطية ط . الأولى
٨٨- سهام نصار / صحافة اليهود العربية في مصر . ١٨٧٧ م - ١٩٥٠ م
٨٩- سيد كمال علي أوغلو / تاريخ الأدب التركي المصور والمنقوش من أيام التنظيمات إلى الجمهورية. ط. ١٩٧٨ م استانبول

— ش —

٩٠- شاهين مكاريوس / المعارف في سوريا ـ المقتطف ج٧ ـ ٥٣٧ .
٩١- شاهين مكاريوس / تاريخ الإسرائيليين .
٩٢- شكيب أرسلان / تعليقات على حاضر العالم الإسلامي .لوثروب ستودارد الأمريكي، ترجمة اعجان نويهض - دار الفكر ط٤ ١٣٩٤ هـ ١٩٧٣ م لبنان
٩٣- شمس الدين بن قيم الجوزية / أحكام أهل الذمة / تحقيق صبحي الصالح ط بيروت ١٩٨٢
٩٤- شمس الدين الرفاعي / تاريخ الصحافة السورية . ١٩١٨ - ١٩٤٧ م ط . دار المعارف . مصر
٩٥- شوقي أبو خليل / عوامل النصر والهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي.دار الفكر دمشق .

— ص —

٩٦- صادق البابراق / محنة السائرية على طريق الشريعة.دار المدرسة ١٩٧٩ م استانبول
٩٧- صادق البابراق / من الشريعة إلى العلمانية ، الحرب بين الإسلام والتقريب في تركيا. دار السبيل ١٩٧٧ استانبول
٩٨- صالح العبود / فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام . ط١ دار طيبة للنشر - الرياض - السعودية

٩٩- صلاح العقاد / دراسة مقارنة للحركات القومية في ألمانيا وايطاليا وأمريكا وتركيا. ط القاهرة ١٩٥٦ م

— ض —

١٠٠- ضابط تركي سابق / الرجل الصنم كمال أتاتورك، ترجمة عبد الله عبد الرحمن.د مؤسسة الرسالة ط٤ ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م

١٠١- ضيا كوك ألب / أسس القومية التركية.ط وزارة الثقافة ، أنقرة ،١٩٨٦ م

— ط —

١٠٢- طلعت ذكرى مينا / الإرسالية الأمريكية ونشاطها التربوي في مصر المصرية التاريخية.

— ع —

١٠٣- عباس العقاد / بين الكتب والناس ـ الحركة الطورانية .

١٠٤- عباس سيد أحمد محمد علي / علم الآثار ـ المولد والنشأة ( بحث مجلة المنهل ع٤٥٤ ). رمضان وشوال ١٤٠٧هـ

١٠٥- عبد الحميد عبد المنعم مدكور / دراسات في الفكر الإسلامي. ط. القاهرة ١٩٨٩م

١٠٦- عبد الحميد مطر / التعليم والمتعطلون في مصر .

١٠٧- عبد الرحمن الرافعي / تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر .ط. دار الفكر – مصر – القاهرة

١٠٨- عبد الرزاق الهلالي / تاريخ التعليم في العراق .

١٠٩- عبد العزيز الشناوي / الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. جـ١- ج٤ مكتبة الأنجلو – القاهرة ١٩٨٠م

١١٠- عبد العزيز المحويني، مقال في مجلة المنهل عـ ٤٨٥ .جمادي الآخرة ١٤١١هـ. جدة المملكة العربية السعودية

١١١- عبد العزيز نوار / تاريخ العراق الحديث .ط. القاهرة مكتبة رأفت سعيد

جامعة عين شمس

١١٢- عبد العليم القباني / نشأة الصحافة العربية بالإسكندرية .١٨٧٣م-١٨٨٢م ط.الهيئة العامة للكتاب المصري ١٩٧٣م

١١٣- عبد الفتاح بركات دويدار / الحركة الفكرية ضد الإسلام .القاهرة دار التراث العربي -١٩٧٤م

١١٤- عبد القادر دادا أغلو / ألبوم العثمانيين.ط. دار العثمانية استانبول

١١٥- عبد الكريم رافق / العرب والعثمانيون / ط. الاولى دمشق

١١٦- عبد الكريم غرايبة / سورية في القرن التاسع عشر.القاهرة - جامعة الدول العربية - معهد الدراسات - ١٩٦١م

١١٧- عبد الكريم غرايبة / تاريخ العرب الحديث .

١١٨- عبد الكريم زيدان / أحكام الزميم والمستأنس في دار السلام ط. مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م

١١٩- عبد الكريم مشهداني / العلمانية وآثارها على الأوضاع الإسلامية في تركيا .مكتبة الدولية الرياض ط١ ١٤٠٣هـ

١٢٠- عبد الله التل / الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام.ط٢ بيروت ،دار الارشاد

١٢١- عبدالرحمن عوض / التبشير في ديار المسلمين .

١٢٢- عز الدين الخطيب التميمي و آخرون/ نظرات في الثقافة الإسلامية.دار الفرقان عمان الأردن ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م

١٢٣- عطية محمد صقر / الإسلام في مواجهة التحديات .الكويت -وزارة الأوقاف -١٤٠١هـ

١٢٤- علي حيدر / المدارس الرومية في تركيا .

١٢٥- علي شلش / اليهود والماسون في مصر .الزهراء للاعلام العربي . ط الاولى ١٤٠٧هـ -١٩٨٦م

١٢٦- علي عبد الحليم محمد / الغزو الفكري وأثره في المجتمعات الإسلامية

المعاصرة.

١٢٧- علي عبد الحليم محمود / الغزو القاري ،التيارات المعادية للإسلام.ط جامعة الامام محمد بن سعودالرياض ١٤٠١هـ

١٢٨- علي عبد الحليم محمود / الغزو الفكري وأثره في المجتمع الإسلامي المعاصر.ط. الاولى القاهرة مصر

١٢٩- علي عبد الرزاق / الإسلام وأصول الحكم.ط. بيروت ١٩٧٢م المؤسسة العربية للدراسات

١٣٠- عماد الدين اسماعيل / تهافت العلمانية .ط. الرسالة ١٩٧٥م

١٣١- عماد شرف / حقائق عن التبشير .

١٣٢- عمر الدسوقي / في الأدب الحديث.ط. الخامسة . دار الفكر العربي – القاهرة ١٩٦٤م

١٣٣- عمر رضا / ديوان الصفحات.لمحمد عاكف ،ط دار الانقلاب ط٧ استانبول

١٣٤- عمر عبد العزيزعمر / تاريخ المشرق العربي.

١٣٥- عمر عودة الخطيب / لمحات في الثقافة الاسلامية . ط١

١٣٦- عواطف عبد الرحمن / اليهود المصريون صحفهم ومجلاته(رسالة ماجستير من كلية الاعلام بجامعة القاهرة )م .

١٣٧- عيسى مصطفى يوجار / محمد عاكف عصره وجهوده في الدعوة.الاسلامية – رسالة دكتوراه – قسم العقيدة جامعة أم القرى

ـ ف ـ

١٣٨- فوزية عبد الله / محمد عاكف.

١٣٩- هربرت فيشر / تاريخ أوروبا في العصر الحديث .(١٧٨٩-١٩٥٠ )تقريب أحمد نجيب ، وديع الطبع ، دار المعارف ١٩٦٤م القاهرة

١٤٠- فيليب حتى ادور جرجي – جبرائيل جيور ، / تاريخ العرب المطول.ط٣ ١٩٦١ م .

١٤١- فيليب طرازي / تاريخ الصحافة العربية .بيروت المطبعة الأدبية –١٩١٣م

ـ ق ـ

١٤٢- قاسم السامراني / الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية .ط الأولى.

ـ ل ـ

١٤٣- لطيفة محمد سالم / مصر في الحرب العالمية الأولى.ط الأولى الهيئة العامة للكتاب – القاهرة سنة ١٩٨٤م

١٤٤- لوريمر / تاريخ الخليج العربي .(١٤ جزءا )ط دولة قطر

١٤٥- لويس شيخوا / فن الطباعة في استنبول / مقال بمجلة الشرق ـ عدد ١ السنة الثالثة ١٩٠٠م .

١٤٦- ليلى الصباغ / الجاليات الأجنبية في بلاد الشام طالأولى –دمشق دار الرسالة

–م–

١٤٧- ماجدة صلاح مخلوف/ معروضات جودت باشا ترجمة وعرض – رسالة دكتوراة رسالة عين شمس –الآداب قسم اللغات الشرقية

١٤٨- مدحت جمال كونطاى ، محمد عاكف في ذكرى وفاته السادس ، دار الكو أنقرة

١٤٩- ماهر إز / أثر السنين دار عرفان ١٩٧٥ م استانبول

١٥٠- مجلس النواب / الهيئة النيابية الثامنة – دور الانعقاد العادى الثالث –المجلد الثاني.

١٥١- محب الدين الخطيب / الغارة على العالم الاسلامي .ط. المكتب الاسلامي بيروت لبنان.

١٥٢- محمد أنيس / الدولة العثمانية والمشرق العربي .ط. ١٩٩٠م نشر مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة .

١٥٣- محمد إقبال / تجديد الفكر الديني في الاسلام ترجمة عباس محمود مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٥٤- محمد أمين الشهير بابن عابدين / رد المختار على الدر المختار شرح تنوير

البصار / ط العثمانية

١٥٥- محمد الأمين أرسلان / مجموعة العلوم

١٥٦- محمد البهي / العلمانية والاسلام بين الفكر والتطبيق .ط. الأزهر ١٩٧٦م

١٥٧- محمد جلال كشك / الغزو الفكري ط٤ القاهرة – المختار الاسلامي للطباعة والنشر ١٣٩٥هـ

١٥٨- محمد حرب / البوسنة والهرسك من الفتح إلى الكارثة ط. مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي –القاهرة ١٤١٤هـ

١٥٩- محمد حرب / العثمانيون في التاريخ والحضارة ط مركز الدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي – القاهرة ١٤١٣هـ

١٦٠- محمد حرب / ترجمة الأوضاع الحقوقية لأهل الذمة . د. بلال ( ترجمة خاصة)

١٦١- محمد حرب / مذكرات السلطان عبد الحميد . دار الأنصار – القاهرة ١٩٧٨م

١٦٢- محمد دروزة / نشأة الحركة العربية الحديثة . ط المكتبة العصرية – بيروت ١٩٧١م

١٦٣- محمد رشيد رضا / الخلافة أو الأمامة العظمى ط. المنار القاهرة ١٣٤١هـ

١٦٤- محمد رشيد رضا / تفسير المنار ط٢ دار المعرفة بيروت

١٦٥- محمد رشيد رضا / شبهات النصارى وحجج الاسلام ) ط١٣ النهضة مصر – ١٩٥٦م

١٦٦- محمد رشيد رضا / يسر الاسلام وأصول التشريع العام ، مطبعة دار المنار ، القاهرة

١٦٧- محمد رشيد رضا / المنار والازهر :مطبعة المنار القاهرة ١٣٥٣هـ

١٦٨- محمد العرمابي / نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع الاسلامي الرياض – دار العاصمة ١٤٠٧هـ

١٦٩- محمد صابان / المؤسسات التعليمية في نهايات الخلافة العثمانية في أستنبول

١٧٠- محمد صامل السلمي / منهج كتابة التاريخ الاسلامي ، ط الرباط دار طيبة

١٧١- محمد صبيح / أتاتورك .
١٧٢- محمد العبدة / أبعيد التاريخ نفسه / ط لندن برمنجهام - المنتدى الاسلامي .
١٧٣- محمد ضياء الدين الريس / الإسلام وأصول الحكم في العصر الحديث .
١٧٤- محمد عزت إسماعيل الطهطاوي / التبشير والستشراق ، أحقاد وحملات على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وبلاد الإسلام الهيئة العامة لشؤن المطابع الاميرية بالقاهرة ١٩٧٧م
١٧٥- محمد عزت دروزة / تركيا الحديثة
١٧٦- محمد عمر / يهود الدونمة .
١٧٧- محمد فؤاد شكري / بناء دولة مصر محمد علي .
١٧٨- محمد فايد / نشأة العلمانية ودخولها إلى المجتمع المسلم .
١٧٩- محمد فريد بك / تاريخ الدولة العلية العثمانية ط دار الجيل - بيروت تحقيق حسان حقي .
١٨٠- محمد قطب / مذاهب فكرية معاصرة دار الشروق - جدة
١٨١- محمد قطب / واقعنا المعاصر ط - المدينة المنورة - مؤسسة المدين المنورة للصحافة والنشر .
١٨٢- محمد كمال دسوقي / أوربا في العصور الوسطى .
١٨٣- محمد كمال دسوقي / الدولة العثمانية والمسألة الشرقية ط ١٩٧٦م ، دار الثقافة بالقاهرة .
١٨٤- محمد محمد ابراهيم / دور يهود الدونمة في سقوط الخلافة العثمانية .
١٨٥- محمد محمد الدهان / قوى الشر المتحالفة . ط المنصورة دار الوفاء ١٤٠٦هـ
١٨٦- محمد محمد حسين / الإتجهات الوطنية في الأدب المعاصر ط دار الرسالة .
١٨٧- محمد ناصر الدين الألباني / إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل / ط المكتب الإسلامي بيروت .
١٨٨- محمد هاشم ريان / أخطار التقليد التربوي للغرب على البلاد الإسلامية ، مجلة

الأمة القطرية .
١٨٩- محمود شاكر / أندونسيا ( مواطن الشعوب الإسلامية ) ط . المكتب الإسلامي بيروت .
١٩٠- محمود صالح منسي / حركة اليقظة العربية في الشرق .
١٩١- محمود عبد اللطيف البحراوي / الإصلاحات العثمانية في عهد محمود الثاني .
١٩٢- محمود محمد سليمان أحمد / النشاط السياسي والثقافي والاجتماعي للأجانب في مصر. رسالة ماجستير-جامعة الزقازيق كلية الآداب .
١٩٣- محمود محمد شاكر أباطيل وأسمار .ط . مكتبة دار العروبة دبي . مكتبة ابن تمية القاهرة .
١٩٤- مركز الدراسات الفليسطنية / لمحات عن يهود العراق في العهد العثماني ج٢ ع٢ .
١٩٥- مسيتوارد لوثروب / حاضر العالم الإسلامي – تعليق شكيب أرسلان –ترجمة عجاج نويهض – بيروت – دار الفكر ط٤ ١٣٩٤
١٩٦- مصطفى الخالدي وعمر فروخ / التبشير والاستعمار. بيروت
١٩٧- مصطفى صبري / النكير على منكري النعمة.
١٩٨- مصطفى صبري / موقف العقل من ... والعلم والعالم من رب العالمين / ط. دار إحياء التراث العربي بيروت
١٩٩- موفق بني المرجة / صحوة الرجل المريض . ط الكويت – دار الصقر – ٩٨٩١م
٢٠٠- منير البعلبكي (قاموس المورد )دار العلم للملايين بيروت ٧٧٩١م
٢٠١- منير بكر التكريتي / الصحافة العراقية واتجاهتها السياسية والأجتماعية والثقافية من ١٨٦٩-١٩٢١م ط - ١٩٦٩ مطبعة الإرشاد بغداد .

— ن —

٢٠٢- نابليون / مراسلات نابليون .

٢٠٣- نبيه أمين فارس / مقدمة يقظة العرب .
٢٠٤- نبيل عبد الحميد / النشاط التبشيري الأمريكي في البلاد العربية حتى عام (٣٢٩١ ) المجلة المصرية التاريخية ، مجلد ٢٧ سنة ١٩٨١م.
٢٠٥- نعمة محمد عيد / النشاط التربوي والأجنبي وأثره في التعليم على الأقليم المصري .
٢٠٦- نيازي بيركز / تطور العلمانية في تركيا .

— هـ —

٢٠٧- هـ. س أمسترونج / الذئب الأغبر ، ترجمة دار الهلال.ط ٢٥٩١م
٢٠٨- هاملتون جيب ورفيقه / المجتمع الإسلامي و الغرب.هاملتون ، هارولدبوون ترجمة د . أحمد عبد الرحيم مصطفى دار المعارف المصرية

— و —

٢٠٩- وجيه كوثراني / الإتجاهات الاجتماعية والسياسية في جبل لبنان والمشرق العربي ط٢١٩٧٨ بيروت
٢١٠- وزارة المعارف العمومية / المراقبة العامة لإحصاء شئوون التعليم .
٢١١- وفاء أحمد قطب البستاوي / فكرة الإصلاح في تذاكر جودت باشا.رسالة ماجستير جامعة عين شمس
٢١٢- وليام غاي / أحجار على رقعة الشطرنج ،ط. دار النفائس – لبنان بيروت ترجمة سعيد جزائرلي –سنة١٩٧٣

— ي —

٢١٣- يوسف آصاف / المعاهدات الدولية التي عقدتها الدولة العلية مع الدول الأوربية.
٢١٤- يوسف العظم / رحلة الضياع للإعلام العربي المعاصر ط دار الكتب .
٢١٥- يوسف كمال بك / مذكرات مدحت باشا .

## ملحق مصادر كتب السنة والفقه

٢١٦- أحمد بن حنبل / المسند-طبعة إحياء التراث-بيروت
٢١٧- الترمذي:أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي/ طبعة دار الكتب العلمية،ترقيم عبدالباقي
٢١٨- ابن ماجه:الحافظ محمد بن يزيد بن ماجه القزويني/ السنن الطبعة الثاتية مصر
٢١٩- ابن إدريس الحنبلي، منصور بن إدريس(كشاف القناع عن متن الاقناع).المطبعة الشرقية بمصر ١٣١٩
٢٢٠- ابن عابدين ، محمد أمين الشهير بابن عابدين (رد المحتار على الدر المختار) شرح (تنوير الأبصار) المطبعة العثمانية ١٣٢٤
٢٢١- ابن قدامة، أبي محمد عبدالله بن أحمد المقدسي (المغنى) الطبعة الثالثة،١٣٦٧هـ
٢٢٢- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر (أحكام أهل الذمة )مجلدان تحقيق صبحي الصالح مطبعة بيروت ط١ / ١٤٠١هـ دار العلم للملايين
٢٢٣- (زاد المعاد في هدى خير العباد). الطبعة الثانية ١٤٠١هـ الرسالة بيروت
٢٢٤- أبو داود ، سليمان بن الأشعث الأزدي السجستاني ( مختصر وشرح وتهذيب سنن أبي داود ) للمنذري والخطابي وابن القيم الجوزية( صورة عن) مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة-١٣٦٩
٢٢٥- أبو عبيد ، الإمام القاسم بن سلام (الأموال) . نشر مكتبة الكليات الأزهرية تحقييق خليل ١٣١هراس محمد.
٢٢٦- أبو يعلي، محمد بن الحسن الفراء الحنبلي (الأحكام السلطانية) . القاهرة ١٩٣٨م
٢٢٧- أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم الأنصاري (الخراج).المطبعة السلفية القاهرة ،ط١٣٨٢،٣هـ
٢٢٨- السرخسي، أبي بكر محمد (المبسوط). مطبعة السعادة مصر، ١٣٢٤هـ.
٢٢٩- السرخسي (شرح السير الكبير) مطبعة دائرة المعارف النظامية. حيدر آباد،

الهند،١٣٣٥هـ

٢٣٠- القرطبي، أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (الجامع لأحكام القرآن)مطبعة دار الكتب المصرية،ج٥ ، طبع ١٣٥٢هـ

٢٣١- الماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي (الأحكام السلطانية والولايات الدينية) مطبعة البابي الحلبي مصر ط٢ ١٩٦٦م

٢٣٢- مسلم، الإمام مسلم أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري، (صحيح مسلم) شرح النووي. دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ

٢٣٣- جماعة من علماء الهند (الفتاوى العالمكارية)المعروفة بـ(الفتاوى الهندية). المطبعة الأميرية ،بولاق ١٣١٠هـ

٢٣٤- خلف بن دبلان الوذيناني / الغزو الفكري في الدولة العثمانية / رسالة دكتوراة جامعة أم القرى

٢٣٥- الجويني أبو المعالي / الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد

٢٣٦- ابن مفلح شمس الدين ابن عبدالله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي / الآداب الشرعية والمنح المرعية مؤسسة قرطبة ـ القاهرة



# فهرس المحتويات والموضوعات

| الموضـــــــــــــوع | الصفحة |
| --- | --- |
| • تقديم د/ عبدالرحمن المحمود | أ |
| • تقديم د/ عمر الدميجي | ٣ |
| • المقدمة | ٩ |
| • أسباب اختيار الموضوع | ١٢ |
| • خطة البحث | ٢٣ |
| • تمهيد : | ٢٧ |
| • أهل الذمة في المصطلح الإسلامي: | ٢٧ |
| • الذمة في اللغة | ٢٧ |
| • الذمة في الفقه الإسلامي | ٢٨ |
| • المراد بأهل الكتاب ومن يدخل في حكمهم | ٢٨ |
| • المستأمنون | ٣٢ |
| • شروط عقد الذمة | ٣٣ |
| • نص الشروط العمرية | ٣٥ |
| • الحقوق التي يكفلها الإسلام لأهل الذمة | ٣٧ |
| • تقلد الذمي للقضاء | ٣٩ |
| • استعمال الذميين واشراكهم في الولايات والوظائف | ٤٣ |
| **الفصل الأول : علاقة أهل الذمة بالدولة العثمانية** | ٥١ |
| **المبحث الأول : تسلل أهل الذمة إلى دوائر الدولة العثمانية** | ٥٢ |
| **المطلب الأول : في مجال الصناعة والتجارة** | ٥٢ |
| ـ أسباب تساهل الدولة مع أهل الذمة في التجارة | ٥٣ |
| ـ الأثار السلبية لتلك السيطرة التجارية لأهل الذمة | ٥٨ |
| **المطلب الثاني : في مجال الترجمة لأهم الوزراء** | ٥٩ |

- عرض لتشكيل الحكومة في الدولة ٥٩
- آثار الاعتمادعلى أهل الذمة في مثل تلك الوظائف ٦٦
**المطلب الثالث : في مجال الاستشارة** ٦٧
**المطلب الرابع : في مجال الحريم السلطاني** ٦٨
- زوجات السلاطين ٧٠
- نماذج لزوجات صليبيات ويهوديات للسلاطين ٧١
- والدات السلاطين ٧٣
- قاديانات السلاطين ٧٣
- تلاعب النساء في الصدور العظام ( رئيس الوزراء ) ٧٥
**المطلب الخامس : نماذج لبعض الوظائف والمراكز الأخرى** ٨٠
١- انشاء المطابع ٨٠
٢- الدخول في الجمعيات السرية الماثونية ٨٢
- تقييم العلماء لموقف الدولة العثمانية من تمكين أهل الذمة لتلك المراكز والوظائف السابقة ٨٣
**المبحث الثاني : الامتيازات الأجنبية** ٨٩
- بداية عصر الامتيازات ٨٩
- التفسير التاريخي والسياسي لإقدام الدولة العثمانية على المعاهدات ٩١
- نموذج من الامتيازات وبنودها ٩٤
- التعليق على المعاهدة ١٠٠
**المطلب الثالث : التحليل لبنود المعاهدات والامتيازات** ١٠٤
أولاً : مايتعلق بالإقامة ١٠١
ثانياً : محاكمة أهل الذمة ١٠٥
ثالثاً : السفراء والقناصل وخدمهم ١٠٧
رابعاً : الشؤون الدينية وحرية العبادة ١٠٩

ـ مسائل التجارة في معاهدات الامتياز ١١٠
ـ تنافس الدول الأوروبية على الصدارة في الامتيازات ١١١
**الفصل الثاني : وسائل أهل الذمة في إقصاء الشريعة ١٢١**
**المبحث الأول : فتح الجمعيات تحت اسم الثقافة والأدب والعلم ١٢٣**
- نموذج لأهداف وأفكار هذه الجمعيات ١٢٣
- أسماء هذه الجمعيات ١٣٠
**المطلب الثالث: عرض لأنشطة هذه الجمعيات ١٤٤**
ـ نموذج لإحدى الجمعيات السرية في تركيا ١٤٥
**المبحث الثاني : المدارس الأجنبية ودورها في إقصاء الشريعة :** ١٤٧
ـ العلاقة بين المدارس عند أهل الذمة والتنصير ١٥٥
ـ المناهج التي كانت تدرس في مدارسهم ١٥٨
ـ سبب انتشار مدارس أهل الذمة ١٥٩
ـ الجهات التي كانت تمول تلك المدارس ١٦٢
ـ أهم المدارس في المشرق العربي أوعاصمة الخلافة ١٦٧
ـ مدارس أهل الذمة في العراق ١٦٧
**– مدارس أهل الذمة في مصر** ١٧٢
– مدارس اليهود ١٧٢
**– أهم المدارس الأجنبية في مصر** ١٧٥
١– المدارس اليونانية ١٧٥
٢– المدارس الإيطالية ١٧٧
**٣– المدارس الفرنسية وأهمها** ١٧٩
– مدارس الإرساليات الدينية ١٨٣
– مدارس الراهبات ١٨٤
– مدارس راهبات الراعي الصالح ١٨٤

- مدارس راهبات سيدة الرسل ١٨٤
- مدارس راهبات قلب يوسع ١٨٥
- مدارس الفريد ١٨٥
**- أهم المدارس الإنجليزية في مصر** ١٩٠
- المدارس الأمريكية ١٩٦
ـ مدارس أهل الذمة في بلاد الشام ٢٠٠
- الآثار المترتبة عن انتشار مدارس أهل الذمة ٢٠٨
أ - الآثار الفكرية والثقافية ٢١٠
ب- الآثار الاجتماعية ٢١٢
ج - الآثار المعاصرة ٢١٣
د - اهتمام المنصرين برياض الاطفال ٢١٣
ـ مدارس أهل الذمة في استنبول ٢١٦
- جامعات أهل الذمة في الدولة العثمانية ٢١٨
**المبحث الثالث : ادخال القوميات ونشر المذاهب الوضعية** ٢٢٣
**أولاً : القوميات** ٢٢٣
أ ـ القومية الطورانية وأساس فكرتها ٢٢٣
ـ نشأة القومية الطورانية ٢٢٥
ـ دور اليهود في ارساء تيار القومية الطورانية ٢٢٦
**ب ــ القومية العربية** ٢٣٦
ـ المراد بالقومية في اللغة ٢٣٦
ـ المراد بالقومية في المصطلح العصري ٢٣٦
ـ بداية فكرة القومية العربية ٢٣٨
**ــ بطرس البستاني وجهوده في نشر القومية** ٢٤١
١ - إنشاء المدارس ٢٤٣

٢- إنشاء الصحف ٢٤٤
٣- تأليف الكتب ٢٤٤
٤- إنشاء جمعية الآداب والعلوم ٢٤٤
**ثانياً : العلمانية :** ٢٥٤
ـ تعريف العلمانية ٢٥٦
ـ منشأ العلمانية ٢٥٨
ـ بداية فكرة العلمانية في الدولة العثمانية ٢٦١
ـ دور أهل الذمة في ادخال النظم العصرية إلى الدولة العثمانية ٢٦٤
ـ اتجاه العلمانية في الثامن عشر ٢٦٦
- طرق العلمانية للحكم في الدولة العثمانية ٢٦٩
= دخول العلمانية قطاع الجيش ٢٧٠
ـ وسائل أهل الذمة في إدخال العلمانية ٢٧١
١- إدخال الكتب الغربية التي تحمل أفكاراً مناقضة للإسلام ٢٧٧
٢- البعثات للغرب دون ضوابط ٢٧٨
ـ تدخل أهل الذمة في صياغة القوانين ٢٨٣
ـ ظهور أول قانون علماني صريح ٢٨٧
ـ قانون التجارة ٢٨٩
ـ خلاصة ( الضغوط السابقة ) ٢٩٠
**المبحث الرابع : سيطرة أهل الذمة على الصحافة** ٢٩٧
ـ معنى الصحافة وأهميتها ٢٩٧
ـ بداية ظهور المطابع العمومية ٣٠٠
- أسباب تفوق النصارى في الأدب العربي على المسلمين في تلك الفترة ٣٠٢
ـ أهم الأدباء الذين تربعوا على عرش الصحافة منذ نشأتها ٣٠٤
ـ مشاهير الصحفيين في الدولة العثمانية ٣١٢

ـ أهم الصحف والمجلات اليهودية في الدولة ٣١٧
ـ سيطرة اليهود على الصحافة ووسائلهم في ذلك ٣١٨
ـ نماذج مما يكتب في صحافة أهل الذمة ٣٢١
**المبحث الخامس : إحياء الثقافات القديمة** **٣٢٥**
ـ مفهوم الآثار في نصوص الشرع من القرآن والسنة ٣٢٦
ـ نشأة علم الآثار ٣٢٩
ـ تعريف علم الآثار عند أصحابه ٣٣٣
ـ نبذة عن بعثة الآثار والباحثين في حملة نابليون ٣٣٦
ـ خبراء الآثار في جزيرة العرب ٣٣٧
ـ أقسام علم الآثار ٣٣٩
ـ الأهداف التي يرمي إليها علماء الآثار ٣٤٠
أولاً : إحياء القوميات المندثرة لتفكيك وحدة المسلمين ٣٤٠
ثانياً : إحياء الوثنيات القديمة حتى يسهل صرف المسلمين عن دينهم ٣٤١
ثالثاً : ابعاد مفهوم القرآن الكريم في التعرف على الآثار السابقة ٣٤٣
رابعاً : طمس التوحيد في حياة البشر ٣٤٧
خامساً : التهوين من خطورة الصور والتماثيل ٣٥٣
ـ أحاديث الوعيد في التصوير والمصورين ٣٥٤
سادساً : التجسس في بلاد المسلمين وشعوبهم ٣٥٦
**الفصل الثالث :الآثار المترتبة على نشاط أهل الذمة في الدولة العثمانية** **٣٦٧**
**المبحث الأول : تسهيل عملية الغزو الفكري لأبناء المسلمين** **٣٦٩**
ـ مظاهر الغزو الفكري ٣٧٧
ـ حملات تشويه الإسلام ٣٧٧
ـ غزو المسلمين عن طريق انحرافهم في الشهوات ٣٨٤
**المبحث الثاني : تغريب الثقافة بين أبناء المسلمين وبروز العلمانية** **٣٩٠**

- مجالات التغريب ٣٩١
أ - التغريب في التشريع ٣٩١
ب - التغريب في مجال التعليم ٣٩٤
ج - التغريب في وسائل الإعلام على اختلاف أشكالها ٣٩٨
١- ترجمة الكتب الغربية ٣٩٨
٢- تأسيس المسارح ٣٩٨
٣- الصحافة ٣٩٩
د - تغريب المرأة المسلمة ٤٠٠
هـ - التغريب في اللباس والزي ٤٠١
و - التغريب في مجال الأدب والفن وغيرهما ٤٠٤
- الإجراءات العلمانية في البلاد العثمانية ٤٠٥
**المبحث الثالث :توسيع النشاط التنصيري في أوطان الإسلام** ٤٠٧
- تعريف بمصطلح التبشير ٤٠٧
- طبيعة التنصير وأهدافه ٤٠٨
- المؤسسات والإرساليات التبشيرية في مصر ٤١٠
**- وسائل العمل التنصيري** ٤١٣
أولاً : التعليم ٤١٣
ثانياً : الخدمات الطبية ٤١٥
ثالثاً : الأعمال الاجتماعية ٤١٨
رابعاً : المكتبات وبيع الكتب ٤٢٠
خامساً : الصحف والمجلات ٤٢٠
سادساً : تشجيع اللغة العامية بدلاً من الفصحى ٤٢١
**المبحث الرابع : إلغاء الخلافة وإلغاء تطبيق الشريعة** ٤٢٣
- شخصية مصطفى كمال ٤٢٣

| | |
|---|---|
| ـ اجراءاته العلمانية ضد الإسلام | ٤٢٨ |
| ١ ـ القانون المدني ( إلغاء الشريعة ) | ٤٢٨ |
| ٢ ـ إلغاء المدارس الدينية | ٤٢٩ |
| ٣ ـ حرب القبعة | ٤٣٠ |
| ٤ ـ إلغاء الحروف العربية والكتابة العثمانية | ٤٣١ |
| ـ إلغاء السلطنة | ٤٣٢ |
| ـ نتائج إلغاء السلطنة | ٤٣٨ |
| ـ إلغاء الخلافة | ٤٣٩ |
| ـ نتائج إلغاء الخلافة | ٤٤٣ |
| ـ نبذة عن شخصية السلطان عبدالحميد | ٤٤٥ |
| **الفصل الرابع :دور العلماء في مواجهة نشاط أهل الذمة** | **٤٥٦** |
| ـ تمهيد | ٤٥٦ |
| ـ نماذج لبعض العلماء الذين أبلو بلاءً حسناً في مواجهة أهل الذمة | ٤٥٦ |
| أولاً: أحمد جودت باشا | ٤٥٧ |
| - موقفه من قانون التنظيمات | ٤٦٠ |
| - موقفه من الديون والرقابة المالية | ٤٦٠ |
| **- عوامل إندفاع المجتمع العثماني للغرب** | **٤٦٤** |
| - فكرة الإصلاح المتكامل عند جودت باشا | ٤٦٥ |
| - الخطوط العامة لفكر الإصلاح في المجال العدلي | ٤٦٦ |
| - إنشاء مجلة الأحكام العدلية | ٤٦٨ |
| **أقسام المجلة** | **٤٧٠** |
| - جهود جودت باشا في إصلاح المجتمع | ٤٧١ |
| - جهوده في الإصلاح العسكري والأمني | ٤٧٤ |
| **ثانياً: محمد عاكف ــ وموقفه من التغريب** | **٤٧٧** |

- موقفه من التغريب ودعاته ٤٧٨
- موقفه من الفكرة القومية ٤٨٠
- أعمال عاكف الإصلاحية ٤٨٣
- موقفه من الإلحاد ٤٨٩
- موقفه من انتشار الفساد ٤٩٠
- موقفه من حزب الاتحاد والترقي والحضارة الغربية ٤٩٣
- دفاعه عن العقيدة ومعارضته البدع والخرافات ٤٩٤
**ثالثاً: مصطفى صبري** **٤٩٧**
أولاً: في مجال الحكم (عدم فصل الدين عن الدولة ) ٤٩٧
ثانياً: الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم ٥٠٥
ثالثاً: موقفه من الدعوة إلى تحرير المرأة ٥١٢
رابعاً: مواجهة الفكر الوافد ٥١٧
**رابعاً: الشيخ محمد رشيد رضا** **٥٢٠**
أولاً: دعوته علماء الازهر للقيام بدورهم في توجيه الأمة ٥٢٠
ثانياً: موقفه من دعاة التحديث ٥٢٣
ثالثاً: موقفه من علي عبدالرزاق وكتابة ٥٢٥
رابعاً: جهوده في مواجهة الدعوة إلى الفرعونية ٥٢٩
خامسًا: جهوده في إصلاح التعليم ٥٣١
سادساً: موقفه من قضية المرأة ٥٣٣